

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً ، أى أنه سبحانه يعطى المهاجر أشياء تجعل من كان يستضعفه ويستذلّه يشعر بالخزى إلى درجة أن تكون أنفه في الرغام .

والمستضعف في أرضٍ ما يجد من يضيق عليه حركته ، لكنه عندما يهاجر في سبيل الله سيجد سعة ورزقاً .

ويتابع الحق الآية : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ، ولا أحد يعرف ميعاد الموت . فإن هاجر إنسان في سبيل الله فقد لا يصل إلى المراغم ؛ لأن الموت قد يأتيه ، وهنا يقع أجره على الله . فإذا كان سبحانه قد وعد المهاجر في سبيله بالمكان الذي يرغب أنف خصمه وذلك سبب ، ومن مات قبل أن يصل إلى ذلك السبب فهو قد ذهب إلى رب السبب ، ومن المؤكد أن الذهاب إلى رب السبب أكثر عطاءً . وهكذا نجد أن المهاجر رابح حياً أو ميتاً .

« ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ، وكلمة « وقع أجره على الله » أى سقط أجره على الله . كأن الحق سبحانه وتعالى يقول للعبد : أنت عندما تهاجر إلى أرض الله الواسعة ، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السعة والمراغم ، فأنت تذهب إلى رحابى . والمراغم سبب من أسبابى وأنا المسبب .

وحتى نفهم معنى : « وقع أجره على الله » علينا أن نقرأ قوله الحق :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النمل)

والوقوع هنا هو سقوط ، ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله . ولماذا يستخدم الحق هنا « وقع » بمعنى « سقط » ؟

هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام : حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا ما أدرك العبد الموت فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ،

ويعرف الجزء من يذهب إليه معرفة كاملة .

وهكذا يجب أن نفهم قوله الحق :

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٥٥﴾

(سورة النساء)

والله غفور رحيم حتى لمن توان قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركب الإيمان ويتدارك ما فات ، لأن الله يغفر ما فات إن حاول العبد تداركه . والمجرة تقتضي ضرباً في الأرض ، وتقتضي الجهاد .

وبعد أن جعل الله للإسلام أركاناً ، جاء فحمل المسلم ما يمكن أن يؤديه من هذه الأركان ، فأركان الإسلام هي : الشهادة ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، والمسلم ينطق بالشهادة ويؤدي الصلاة ، ولكنه قد لا يملك مالا ، لذلك يعفيه الحق من الزكاة . وقد يكون صاحب مرض دائم فلا يستطيع الصوم ، فيعفيه الله من الصوم . وقد لا تكون عنده القدرة على الحج فيعفيه الحق من الحج . أما شهادة « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فقد لا يقولها المسلم في العمر إلا مرة واحدة . ولم يبق إلا ركن الصلاة وهو لا يسقط عن الإنسان أبداً ما دامت فيه صلاحية لأدائها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة) (١) .

ولأن الصلاة هي الركن الذي لا يسقط أبداً فقد جمع الله فيها كل الأركان ، فعند إقامة الصلاة يشهد المسلم ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وخلال الصلاة يصوم الإنسان عن الطعام والشراب ، وإضافة إلى ذلك يصوم ويمتنع عن الكلام أيضاً ، وهكذا نجد الصلاة أوسع في الإسكان عن ركن الصيام . فالإنسان وهو يقيم

(١) رواه الترمذي واحد .

الصلاة يحبس نفسه عن أشياء كثيرة قد يفعلها وهو صائم ، فالصوم - مثلاً - لا يمنع الإنسان من الحركة إلى أى مكان لكن الصلاة تمنع الإنسان إلا من الوقوف بين يدي الله .

إذن فالصلاة تأخذ إمساكاً من نوع أوسع من إمساك المؤمن في الصيام . والزكاة هى إخراج جزء من المال ، والمال يأتى به الإنسان من الحركة والعمل . والحركة والعمل تأخذ من الوقت . وحين يصل المسلم فهو يزكى بالأصل ، إنه يزكى ببذل الوقت الذى هو وعاء الحركة ، إذن ففى الصلاة زكاة واسعة .

والحج إلى البيت الحرام موجود فى الصلاة ؛ لأن المسلم يتحرى الاتجاه إلى البيت الحرام كقبلة فى كل صلاة ، وهكذا .

ولذلك اختلفت الصلاة عن بقية الأركان . فلم تشرع بواسطة الوحى ، وإنما شرعت بالمباشرة بين رب محمد ومحمد صلى الله عليه وسلم . ولأن هذه هى منزلة الصلاة نجد الحق يحذرننا من أن يشغلنا الضرب فى الأرض عنها ، بل شرع سبحانه صلاة مخصوصة اسمها « صلاة الحرب وصلاة الخوف » حتى لا يقولن أحد إن الحرب تمنعنا من الصلاة ، ففى الحرب يكون من الأولى بالمسلم أن يلتحم بمنهج ربه . كذلك فى السفر يشرع الحق قصر الصلوات :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ (١٠١)

والضرب فى الأرض مقصود به أن يمشى المؤمن فى الأرض بصلابة وعزم وقوة . والقصر فى الصلاة هو اختزال الكمية العددية لركعاتها . وفى اللغة « اختصار »

« اختصار » . « الاختصار » أن تأخذ بعضاً وتترك بعضاً ، « الاختصار » هو أخذ الكل بصفة موجزة . مثال ذلك عندما نختصر كتاباً ما فنحن نوجز كل المعاني التي فيه في عدد أقل من الكلمات .

وقد يفكر إنسان في أن يكتب خطاباً ، ثم يقول لنفسه : سأرسل برقية في الموضوع نفسه . وهنا لا بد أن يختزل الكلمات لتحمل معاني كثيرة في ألفاظ موجزة .

والإسهاب - كما نعلم - لا يأخذ من الوقت مثلاً يأخذ الإيجاز ، فعندما يريد الإنسان الإيجاز فهو يقدر ذهنه - في وقت أطول - ليصل إلى المعاني في كلمات أقل .

ويحكى عن سعد زغلول - زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية - أنه كتب رسالة لصديق فأطال ، وأنهى رسالته بهذه الكلمات :

« وإن اعتذر إليك عن التطويل فليس عندي الوقت الكافي للإيجاز . ويحكى التاريخ عن الخليفة المسلم الذي أراد أن يمدد قائد الروم . فكتب إليه : أما بعد : فسأتيك بجيش أوله عندك وآخره عندي . وهكذا أوجز الخليفة حجم الخطر الداهم الذي سيواجه ملك الروم من جيش عرمرم سيملا الأرض إلخ .

وينقل التاريخ عن أحد قادة العرب وموقفه القتالي الذي كان صعباً في « دومة الجندل » أنه كتب إلى خالد بن الوليد كلمتين لا غيرهما « إياك أريد » ولم يقل أكثر من ذلك ليتضح من هذا الإيجاز حجم المعاناة التي يعانيها . وقد أوردنا هذا الكلام ونحن بصدد الحديث عن القصر والإيجاز .

والقصر في الصلاة هو أن يؤدي المؤمن كلاً من صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين بدلاً من أربع ركعات ، أما الصبح والمغرب فكلاهما على حاله ، الصبح ركعتان ، والمغرب ثلاث ركعات . وحكمة مشروعية ذلك أن الصلاة في وقت الحرب تقتضي ألا ينشغل المقاتلون عن العدو ، ولا ينشغلوا أيضاً عن قول الحق :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا
حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾

وحين يقول الحق : « فلتقم طائفة منهم » نفهم أن ينقسم المؤمنون إلى طائفتين :
طائفة تصل مع رسول الله ، وأخرى ترقب العدو وتحمي المؤمنين .

ولكن كيف تصل طائفة خلف رسول الله ولا تصل أخرى وكلهم مؤمنون يطلبون
شرف الصلاة مع رسول الله ؟ ويأمر الحق أن يقسم النبي صلى الله عليه وسلم
الصلاة ليصل بكل طائفة مرة ، ليشرّف كل مقاتل بالصلاة خلف رسول الله صلى
الله عليه وسلم .

وقصر الصلاة - كما عرفنا - ينطبق على الصلاة الرباعية وهي الظهر والعصر
والعشاء أما صلاة الفجر وصلاة المغرب فلا قصر فيها ، فليس من المتصور أن يصل
أحد ركعة ونصف ركعة ، وفي علم الحساب نحن نجبر الكسور إلى الرقم الأكبر .

وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بهيئات متعددة ، ولا مانع
من أن نلّم بها إلهاً عاجلاً ؛ لأن تعليم هذه الصلاة عادة يكون واجباً على الأئمة
والعلماء الذين يصلون بالجيوش في حالة الحرب . ولصلاة الخوف طرق وكيفيات :
كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُقسّم الجيش إلى قسمين ؛ قسم يصل معه
وقسم يرقب العدو ، ويصل بكل فرقة ركعتين .

وهناك طريقة أخرى وهي أن يصل بطائفة وفرقة ركعة واحدة ، ثم ينصرفون
وتأتى الطائفة التى تحت الطائفة الأولى في أثناء الصلاة لتصل هذه الطائفة الثانية ركعة
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنا يسلم رسول الله لأنه أنهى الصلاة .

وبعد ذلك تصل الطائفة الأولى الركعة الثانية التى عليها فى القصر وتسلم ، ثم
تصل الطائفة الثانية الركعة الثانية التى عليها فى القصر وتسلم .

وهناك كيفية ثالثة وهى أن تأتى الطائفة الأولى تصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ركعة ، ولا يصلى النبى ﷺ معها الركعة الثانية بل يظل واقفاً قائماً إلى أن تخرج من صلاتها بالتسليم لتنادى الطائفة التى تقف فى مواجهة العدو لتصلى خلف النبى ﷺ الركعة الثانية بالنسبة للنبى ﷺ بينما هى الركعة الأولى بالنسبة إليها ، ويظل النبى ﷺ قاعداً إلى أن تأتى الطائفة الثانية بركعتها الثانية ويسلم النبى ﷺ بها وتنال الطائفة الأولى بشرف بدء الصلاة مع الرسول ﷺ وتغطى الطائفة الثانية بشرف السلام معه ﷺ .

وهنا نسأل : هل هذه الصلاة بهذا الأسلوب مقصورة على عهد النبى ﷺ وانحطاً به لأن الصلاة معه هى الشرف ؟ فكيف يصلى المقاتلون الخوف بعده ﷺ ؟ قال العلماء : إذا كنت تعتبر القائمين بأمر القيادة هم خلفاء لرسول الله ﷺ فى الولاية فتقام صلاة الخوف على صورتها التى جاءت فى القرآن ، ولكن إذا كان لكل جماعة إمام فلتصل كل جماعة صلاة القصر كاملة خلف الإمام .

«وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم» وهذه الأسلحة المقصود بها الأسلحة الحقيقية مثل السيف أو الرمح أو النبل أو البندقية فيأخذها المقاتل معه ، أما من معه سلاح ثقيل فلن يأخذه بطبيعة الحال إلى الصلاة .

«فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم» والقول القرآنى هنا ليس مجرد ألفاظ تقال ولكنها ألفاظ لها مدلولات من رب العالمين ، فمن قدموا إلى الصلاة أولاً : تركوا خلفهم من يحميهم .

ولكن الطائفة الثانية التى سوف تترك المواقع من أجل الركعة الثانية خلف رسول الله ﷺ فبالهم مشغول بذواتهم وبحماية من يصلون ، فلعلهم حين يذهبون إلى الصلاة مع رسول الله ﷺ تلهيهم المسألة ؛ لذلك قال الله : «ولياخذوا حذرهم وأسلحتهم» وهكذا نجد أن الطائفة الأولى ملزمة بأخذ السلاح ، والطائفة الثانية ملزمة بأخذ الحذر والسلاح .

وقد يقول قائل : صحيح إن الأسلحة تؤخذ ، ولكن كيف يؤخذ الحذر وهو عملية معنوية ؟

ونقول : إنه سبحانه يصور المعنويات ويحسمها تجسيم الماديات حتى لا يغفل الإنسان عنها ، فكأن الحذر آلة من آلات القتال ، وإياك أيها المقاتل أن تغفل عنها .

وهذا أمر يشيع في أساليب القرآن الكريم ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

والدار هي مكان باستطاعة الإنسان أن يتبوءه ويقيم به ، فها معنى أن يتبوء الإنسان الإيمان وهو أمر معنوي ؟ . إنه سبحانه في هذا القول يصف الأنصار الذين أكرموا وفادة المهاجرين ، والدار - كما نعرف - هي المكان الذي يرجع إليه الإنسان ، والإيمان هو مرجع كل أمر من الأمور .

إذن فقد جعل الحق سبحانه الإيمان كأنه يُتبوء ، أي جعله شيئاً ينزل الإنسان فيه ، والإيمان كذلك حقاً ، والدار في هذا القول مقصود بها هنا المدينة المنورة ، حيث استقبل الأنصار المهاجرين .

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي

صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ

نَحْمَ نَفْسِهِ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(سورة الحشر)

وهكذا يحسم الحق المعنويات لفهم منها الأمر وكأنه أمر حتمي ، تماماً كما قال الحق : « فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

وهذا ما يوضح لنا لماذا أمر الله أن يأخذ المسلمون الحذر والأسلحة ؛ لأن المقاتل يجب أن يخاف على سلاحه ومتاعه . فلو فقدها المقاتل لفقد أداة القتال ولصارت

أدوات قتاله قوة لعدوه . فحين يأخذ المقاتل السلاح من عدوه ، يتحول السلاح إلى قوة ضد العدو .

لذلك كان التحذير من فقد الأسلحة والأمتعة حتى لا تضاف قوة السلاح والمتاع إلى قوة العدو ؛ لأن في ذلك إضعافاً للمؤمن وقوة لخصمه . وعدو الإسلام يود أن يغفل المسلمون عن الأسلحة والمتاع ، والمؤمن ساعة الصلاة يستغرق بيقظته مع الله ، ولكن على الإنسان ألا يفقد يقظته إن كان يصل أثناء الحرب ، فلا يصح أن ينسى الإنسان سلاحه أثناء القتال حتى وهو يصل ، فالقتال موقف لله ، فلا تفصل القتال في سبيل الله عن الصلاة لله .

« ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم » والغفلة هي نسيان طارئ على ما لا يصح أن ينسى ، وفي هذا تحذير واضح ؛ لأن الغفلة أثناء القتال هي حلم للكافرين حتى يحققوا هدفهم المتمثل في قول الله : « فيميلون عليكم ميلاً واحدة » . فمعسكر الكفر يتمنى أن يهجم على المؤمنين في لحظة واحدة ، هذا هو المقصود بقوله : « فيميلون عليكم ميلاً واحدة » .

ولكن لئلا نر من بعد ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ
وَاخْذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة النساء)

ونجد هنا أن كلمة « الحذر » تكررت ، وسبحانه بجلال جبروته أعد للكافرين عذاباً مهيناً ، وفي ذلك بشارة منه أن الكافرين لن ينالوا من المؤمنين شيئاً ، فلماذا جاء الأمر هنا بأخذ الحذر ؟ . إن أخذ الحذر لا يعنى أن الله تخلى عن المؤمنين ، ولكن لتنبيه المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب ، ولا يغفلوا عن المسبب لأنه سببهم هباً وأعد العذاب المهين للكافرين . « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » .

وهذا ما يجب أن نفهمه حتى لا يتوهم أحد أن الله عندما نبه كثيراً بضرورة الأخذ بالحذر ثم أنه يتخلى عنا ، لا . إنه سبحانه يوضح لنا أن نأخذ بالأسباب ولا نهملها

وهو القائل « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » .

ومن بعد ذلك قال الحق :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا
مَّوْقُوتًا ﴾ ١١٢

كان المؤمن مطالب بالآ يسوف ويؤخر الصلاة عن وقتها ، وأن يذكر الله قائماً وقاعداً و على جنبه ، وذلك لتكون الصلاة دائماً في بؤرة شعور الإنسان ، بل إن المؤمن مطالب بذكر الله حتى وهو يناليف عدوه وينازله ، فهو يحمل السيف ولسانه رطب بذكر الله ويقول : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

والإنسان حين يسبح الله حتى وهو في حالة الاشتباك مع العدو لا ينسأ الله . والمؤمن قد يؤخر الصلاة في حالة الاشتباك مع العدو والالتحام به ، ولكن عليه أن يدفع قلبه ونفسه إلى ذكر الله ، ففي وقت الصلاة يكون مع ربه فليذكره قائماً وقاعداً وفي كل حال ، وبعد أن يطمئن المسلم لموقفه القتالي فليقض الصلاة . وأنه لا يترك ربه أبداً بل وهو في الحرب يكون ذلك منه أولى ؛ لأنه في حالة الاحتياج إليه سبحانه ، والقتال يدفع المؤمن إلى الاستعانة بربه ، وإذا كان المسلم يعرف أن الله في أوقاته تعجليات ، فلا يحرم من واحد نفسه من هذه التعجليات في أى وقت ، وذكر الله يقرب العبد من مولاه - فسبحانه - مع عبده إذا ذكره ، فإن كان الإنسان مشبعاً بالاطمئنان وقت الخوف والقتال فليذكر الله ليدعم موقفه بالقوة العليا .

وقوله الحق : « فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة » أى إذا انتهى الاشتباك القتالى فعلى المؤمن أن ينتقل من ذكر الله أثناء الاشتباك إلى الصلاة التى حان ميعاتها أثناء القتال . فقد كان ذكر الله وقت الاشتباك من أجل ألا يضيع وقت الصلاة بلا كرامة لهذا الوقت ، وبلا كرامة للقاء العبد مع الرب . ولماذا كل ذلك ؟ وبأى القول الفصل : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

وقد أوضح لنا الحق صلاة الخوف ، وشرع سبحانه لنا ذكره إذا ما جاء وقت الصلاة فى أثناء الاشتباك القتالى ، وإذا ما اتفق توقيته مع وقت الصلاة ، وشرحت لنا سنة النبى صلى الله عليه وسلم كيفية قصر الصلاة فى أثناء السفر ، لماذا كل ذلك ؟ لأن الصلاة فرض لا غنى عنه على الإطلاق « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » . أى أن الصلاة لها وقت .

ولا يصح أن يفهم أحد هذا المعنى - كما يفهمه البعض - بأن صلاة الظهر - على سبيل المثال - وقتها تمتد من الظهر إلى العصر ، وصحيح أن الإنسان إذا عاش حتى يصل الظهر قبيل العصر فإنها تسقط عنه ، ولكن ماذا يحدث لو مات العبد وقد فات عليه وقت يسعها ؟ إذن فقد أثم العبد ، ومن يضمن حياته حتى يؤدى الصلاة مؤجلة عن موعد أدائها ؟ .

وقد يقول قائل : أحياناً أسمع أذان الصلاة وأكون فى عمل لا أستطيع أن أتركه ، فقد أكون فى إجراء جراحة . أوراكباً طائرة . ونقول : أسألك بالله إذا كنت فى هذا العمل الذى تتخيل أنك غير قادر على تركه وأردت أن تقضى حاجة ، فماذا تصنع ؟ إنك تذهب لقضاء حاجتك ، فلماذا استقطعت جزءاً من وقتك من أجل أن تقضى حاجتك ؟ وقد تمجد قوماً كافرين يسهلون لك سؤالك عن دورة المياه لتقضى حاجتك .

وساعة يراك هؤلاء وأنت تصلى فأنت ترى على وجوههم سمة الاستبشار ؛ لأن فيهم العبودية الفطرية لله ، وتجد منهم من يسهل ذلك ويحضر لك ملاءة لتصل فوقها ، ويقف فى ارتعاش سببه العبودية الفطرية لله ، فلا تقل أبداً : إن الوقت لا يتسع للصلاة ؛ لأن الله لا يكلف أبداً عبده شيئاً ليس فى سعة ، والحق كلف العبد بالصلاة ومعها الوقت الذى يسعها .

وهو المثل الأعلى ، نحن نرى رئيس العمال في موقع ما يوزع العمل على عماله بما يسع وقت كل منهم ، فما بالنا بالرب الخالق ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(من الآية ٢ ومن الآية ٣ سورة الطلاق)

والصلاة رزق عبودي بحرك من أى خوف ، وفضلها لا حدود له لأن فارضها هو الخالق المولى ، فكيف تبخل على نفسك أن تكون موصولاً بربك ؟

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ
فَأِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤﴾

وهذه الآية تذكرة لنا بكيفية الرد على من يدهون التحور ويحاولون إظهار الإسلام بأنه يصلح للعصر الذى نحياه عندما نؤوله ونطوّعه لمرات العصر ، ناسين مرادات الإسلام ؛ فهم يقولون : لقد شرع الحق الحرب في الإسلام لرد العدوان . ونقول لهم : صحيح أن الحرب في الإسلام لرد العدوان ، والحرب في الإسلام أيضاً هي لتوسيع المجال لحرية الاعتقاد للإنسان .

إن الذى يخيف هؤلاء أن يكون القتال في الإسلام فريضة ، فيقاوم المسلمون الطغيان في أى مكان . وهذه محاولة من أعداء الإسلام لصرف المسلمين حتى لا يقاوموا قهر الناس والطغيان عليهم ؛ لأن أعداء الإسلام يعرفون تماماً قوة الإسلام الكامنة والتي يهبها لمن يؤمن به ديناً ، وينخدع بعض المسلمين بدعاوى أعداء الإسلام الذين يقولون : إن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لرد العدوان .

ولذلك نقول هؤلاء وأولئك : لا ؛ إن الإسلام جاء بالقتال ليحرر حق الإنسان

في الاعتقاد . والمسلم مطلوب منه أن يعلن كلمة الله ، وأن يقف في وجه من يقاوم إعلانها ، ولكن الإسلام لا يفرض العقيلة بالسيف ، إنما يحمي بالسيف حرية المعتقد ، فالحق يقول : « ولا تمنوا في ابتغاء القوم ، أي لا تضعفوا في طلب القوم الذين يحاربون الإسلام ، والابتغاء هو أن يجعل الإنسان شيئاً بغية له ، أي هدفا وغاية ، ويجند لها كل تخطيطات الفكر ومتعلقات الطاقة ، كأن الإنسان لا يرد القوم الكافرين فقط ساعة يهاجمون دار الإسلام ، ولكن على المسلم أن يتغلبهم أيضا امتثالاً لقول الله : « ولا تمنوا في ابتغاء القوم » . فعل المسلمين أن يُعلنوا كلمة الله ويدعوا الناس كافة إلى الإيمان بالله . وهم في هذه الدعوة لا يفرضون كلمة الله ، لكنهم يرفعون السيف في وجه الجبروت الذي يمنع الإنسان من حرية الاعتقاد . إن على المسلمين رفع الجبروت عن البشر حتى ولو كان في ذلك مشقة عليهم لأن الحق قال :

﴿ كُنِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وقد خلق الله في المؤمن القدرة على أن يتغلب على الإسلام ليرفع الجبروت عن غيره من البشر ، صحيح أن الحرب مسألة مكروهة من البشر وليست رحلة سهلة ، ولكنها أحيانا تكون واجبة ، والذين أدركوا الحرب العالمية الثانية عرفوا أن « تشرشل » جاء رئيسا لوزراء بريطانيا بعد « تشمبرلين » الذي عرف عنه أنه رجل سلام ، وحاول « تشمبرلين » أن يماطل ويلوح بالسلام مع ألمانيا حتى تستعد انجلترا بالحرب ، وعندما استعدت انجلترا أعلن « تشمبرلين » أن سياسته غير نافعة ، وجاء « تشرشل » وقاد دفة الحرب ، وقال للإنجليز :
- انتظروا أيها سوداء وانتظروا الجوع .

لقد قال تشرشل ذلك للإنجليز ، حتى إذا ما جاء الواقع بأقل من قوله ، فهم يستبشرون ويفرحون .

والحق سبحانه يقول : « ولا تمنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون » . إن الحرب ترهقهم أيضا كما ترهقكم ، لكنكم أيها المؤمنون تمتازون على الكافرين بما يلي : « وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليا حكيما » . فأنتم

وهم في الالم سواء ، ولكن الاختلاف هو أن المؤمنين يرجون ما لا يرجوه الكافرون ، إن المؤمنين يعلمون لحظة دخولهم الحرب أن الله معهم وهو الذي ينصرهم ومن يموت منهم يذهب إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهذا ما لا يرجوه الكفرة .

والحق سبحانه وتعالى يطالب الفئة المؤمنة التي انتهت قضية عقيدتها إلى الإيمان بإله واحد ؛ هو - سبحانه - أنشأهم وخلقهم وإليه يعودون ، وهذه القضية تحكم حركات حياتهم ؛ إنه - سبحانه - يطالبهم أن يزدوا مطلوبات هذه القضية ، وأن يدافعوا عن هذه العقيدة التي تثبت للناس جميعاً أنه لا معبود - أى لا مطاع - في أمر إلا الحق سبحانه وتعالى .

وحين تحكم هذه القضية أناساً فهي توحد اتجاهاتهم ولا تتضارب مع حركاتهم ، ويصبحون جميعاً متعاونين متساندين متعاضدين ؛ لذلك جعل الله الطائفة المؤمنة خير أمة أخرجت للناس ؛ لأن رسولها صلى الله عليه وسلم خير رسول أرسل للناس ، وطلب الحق من أهل الإيمان أن يجاهدوا الكافرين والمنافقين لتصفو رقعة الإيمان مما يكدر صفو حركة الحياة .

والحق يعامل خلقه كبشر ، إنه خلقهم ويعلم طبائعهم وغرائزهم ولا يخاطبهم على أنهم ملائكة ، وإنما يخاطبهم على أنهم بشر ، وهم أغيار ، ومن الأغيار أن يصفو لهم أمر العقيدة مرة ، وأن تعكر عليهم شهواتهم صفو العقيدة مرة أخرى ؛ لذلك يؤكد لهم أن طريق العقيدة ليس مفروشاً بالرياحين والورود ، وإنما هو مفروش بالأشواك حتى لا يتحمل رسالة الحق في الأرض إلا من صبر على هذه البلايا وهذه المحن . فلو كانت القضية على طرف النام^(١) أى سهلة التناول لا مشقة في الحصول عليها وتذكر بدون آلام وبدون متاعب فسيذعبيها كل إنسان ويصبح غير مأمون على حمل العقيدة .

من أجل ذلك لم ينصر الله الإسلام أولاً ، إنما جعل الإسلام في أول أمره ضعيفاً مضطهداً ، لا يستطيع أهله أن يجموا أنفسهم ، حتى لا يصبر على هذا الإيذاء

(١) النام : عصب لا يطول له زمر سهل اعطه ونظفه .

إلا من ذاق حلاوة الإيمان مما يجعله لا يشعر بمجاعة الاضطهاد ووطاة التعذيب ومشقته . فقال الحق سبحانه وتعالى : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم » أى لا تضعفوا في طلب القوم .

وكلمة « لا تنهوا في ابتغاء القوم » أى فى طلبهم تدل على أن الأمة الإسلامية ليس مطلوبا منها فقط أن تدفع عن نفسها عدواناً ، بل عليها أن تطلب هؤلاء الذين يقفون في وجه الدعوة لتؤدبهم حتى يتركوا الناس أحراراً في أن يختاروا العقيدة .

إذن فالطلب منه سبحانه : ألا تنهوا ولا تضعفوا في طلب القوم الذين يقفون في وجه الدعوة . ثم قال سبحانه : « إن تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون كما تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون » أى إنه إذا كان يصيبكم ألم الحرب والإعداد لها ، فأنتم أيضاً تحاربون قوماً يصيبهم ألم المواقع والحروب والإعداد لها ، فأنتم وهم متساوون في إدراك الألم والمشقة والتعب ، ولكن يجب ألا تغفلوا عن تقييم القوة فلا تهملوها ؛ لأنها هي القوة المرجحة . فأنتم تزيدون عليهم أنكم ترجون من الله ما لا يرجون . والأشياء يجب أن تقوم بغاياتها والثواب عليها . لا يقولن أحد أبداً « هذا يساوى ذلك » .. فلا يحمل أحد قضية الثواب على العمل . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في شرح هذه المعادلة حتى تكون الأذهان على بينة منها إعداداً وخوضاً للحرب واحتمالاً لآلامها :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

عليكم أيها الكافرون أن تعلموا أن الذى ينتظرنا هو إحدى الحسينين . . إما أن نتصر ونقهركم ، وإما أن نستشهد فنظفر بالحياة الأخرى . وماذا عن ترهبس المؤمنين بالكافرين :

﴿ وَتَحْنُ تَرَبُّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

كفة من - إذن - هي الراجحة في المعادلة ؟ إنها كفة المؤمنين ؛ لذلك قال الحق : « ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تآلمون فإنهم يآلمون كما تآلمون وترجون من الله ما لا يرجون » فلا تضعفوا أيها المؤمنون في طلب القوم لأنهم يآلمون كما تآلمون ، ولكن

لكم مرجعاً أعلى وهو أنكم ترجون من الله ما لا يرجون .

ويذيل الحق قضية حث المؤمنين على طلب الكافرين وكيف يزيد المؤمنون على الكافرين بأنهم يرجون من الله ما لا يرجوه الكافرون فيقول : « وكان الله علياً حكيماً » إنه عليم بكل ما يصيب المؤمن من ألم ، فلا تعتقد أيها المؤمن أن لك أجراً سيضيع منك ؛ فالشوكة التي تشاك بها في القتال محسوبة لك ، وهو سبحانه وتعالى حين يتركك تألم أمام الكافر كما يألم . فذلك لحكمة هي أن تسير إلى القتال وأنت واثق من قدرة إيمانك على تحمل تبعات هذا الدين .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما يُصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة)^(١) .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال في سبيل نصرة دينه لم يحرم المؤمنين من توجيهه يصفى أيضاً حركة الحياة ، لماذا ؟ لأنه علم أن قوماً يؤمنون به وينضوون تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، فيوضح : أن انضواءكم أيها المؤمنون تحت لواء الإسلام له تبعات ، فأنتم أول من يُطبق عليه حكم الله ، وإياكم أن تظنوا أنكم بإيمانكم وإعلان إسلامكم لله واتباعكم لرسول الله قد أخذتم شيئاً مميّزكم عن بقية خلق الله ، فكما قلنا لكم دافعوا الكفار ودافعوا المنافقين نقول لكم أيضاً : دافعوا أنفسكم ؛ لأن واحداً قد ينضم إلى الإسلام وبعد ذلك يظن أن الإسلام سيعطيه فرصة ليكون له تمييز على غيره ، ولمثل هذا الإنسان : نقول لا . ولذلك يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ
النَّاسِ بِمَا أَرَدَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ

خَصِيماً ﴿١٥﴾

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه ؛ يتكلم فيها يتعلق بالفعل بصفة التعظيم والجمع . مثال ذلك قوله : « إنا أنزلنا » . وهذه « نون الجماعة » حيث يتطلب إنزال القرآن قوى متعددة لا تتوافر إلا لمن له الملك في كل الكون . ولنضرب لذلك مثلاً والله المثل الأعلى . . . إننا نجد أن رئيس الدولة أو الملك في أى بلد يصدر قراراً فيقول : « نحن فلانا أصدرنا القرار » . والملك أو الرئيس يعرف أنه ليس وحده الذى يصدر القرار ، ولكن يصدره معه كل المتعاونين معه وكل العاملين تحت رئاسته ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه وتعالى ؟ لذلك فحين يتكلم سبحانه فيها يتعلق بالذات يكون الحديث بواسطة ضمير الأفراد فيقول :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝ ﴾

(سورة طه)

ولا يأتى هنا ضمير الجمع أبداً ، ولا تأتى « نون التعظيم » . ولكن فى هذه الآية نجد الحق يقول : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » . . . ونرى « نون التعظيم » واضحة ، فالقرآن كلام الله ، ونزول القرآن يتطلب صفات متعاضدة . فسبحانه مرة يقول :

﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۝ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة العنكبوت)

ومرة يقول :

﴿ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُرْهَانًا عَلَىٰ هَدًى وَبُشْرَىٰ غَيْرِهَا ۝ ﴾

(من الآية ٥١ سورة العنكبوت)

ومرة ثالثة يقول :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرٌ مُّزَكَّرٌ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾

(سورة الأنبياء)

ما الغاية من الإنزال ؟ الغاية من الإنزال أن يوجد على الأرض منهج يحكم حركة الحياة . والقرآن قد انزل إلى الرسول وإلى من آمن بالرسالة . وحين يقول الحق : « أنزلنا عليك » فمعنى ذلك نزول التكليف . ومساعدة نسمع كلمة « أنزلنا » فعلينا أن

نعرف أن كل شيء يحىء من الحق فهو ينزل إلينا منه سبحانه ، وكلمة « أنزل » تشعر السامع أو القارئ لها أن الجهة التي أنزلت هي جهة أعلى ، وليست مسلوية لمن أنزل إليه ، وليست أدنى منه أيضاً .

وكلمة « أنزلنا » تدل على أن جهة أنزلت ، وجهة أنزل إليها ، وشيء أنزلته الجهة إلى المتزل إليه . والكتاب هو المتزل . والذي أنزله هو الله . والمتزل إليه هو رسول الله وأُمته . وهل أنزل الحق سبحانه الكتاب فقط أو أنزل قبل ذلك كل ما يتعلق بمقومات الحياة ؟

وعندما نقرا هذا القول الكريم :

﴿ يَبْنِيْءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَ تِكْرٍ وَرِيْسًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الاحراف)

إنه لباس جاء من أعلى ، لذلك استخدم الحق كلمة « أنزلنا » وهو ليس لباساً فقط ولكنه أيضاً يزينكم مأخوذ من ريش الطائر لأنه لباسه وزينه ، فهو لا يوارى العورة فحسب ولكنه جميل أيضاً ، والأجل منه أنه لباس التقوى .

لقد جاء الحق بالمقوم للحياة ستراً ورفاهية ، وبعد ذلك أنزل الحق لباس التقوى وهو الخير . فاللباس الأول يوارى عورة مادية ، ولباس التقوى يوارى العورات القيمة والمعنوية ، وكل ذلك إنزال من أعلى . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فكلمة « الإنزال » تدل على أن كل ما جاء من قِبَل الحق الأعلى إلينا ، فهو نازل إلينا بشيء يعالج مادتنا وقوامنا ، وبشيء يعالج معنوياتنا وقيمنا .

ويقول الحق في الآية التي نحن بصدد تناولها الآن : « إنا أنزلنا إليك الكتاب » وحين يُطلق الكتاب فالمعنى ينصرف إلى الكتاب الجامع للمانع المهيمن على سائر

الكتب وهو القرآن ، وإن كان « الكتاب » يطلق على المكتوب الذي نزل على أى رسول من الله سبحانه وتعالى .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » والحق هو الشيء الثابت الذى لا يأتى واقع آخر لينقضه . وعلى سبيل المثال : أنت فى حياتك العادية حين تقول قضية صدق لحكى بها واقعا حدث معها تكررت روايتك لهذه التفاصيل مدة عشرين سنة فهى لا تتغير ؛ لأنها مطابقة للواقع . وأنت حين تقولها تستحضر الواقع الذى حدث أمامك . ولكن إذا حدث إنسان بقضية كذب لا واقع له . فإذا يكون موقفه ؟ سيحكى القضية مرة بأسلوب ، وإن مر عليه أسبوع فهو ينسى بعضاً مما قاله فى أول مرة فيحكى وقائع أخرى ، ذلك أن ما يرويه ليس له واقع ، لذلك يقول كلاماً مغايراً لما قاله فى المرة الأولى ، وهنا يعرف السامع أن هذه المسألة كاذبة .

إذن فالحق هو الشيء الثابت الذى لا ينقضه واقع أبداً . وأنزل الله الكتاب بالحق أى أنزله بالقضايا الثابتة التى لا يأتىها الباطل من بين يديها ، فهو ثابت لا ينقضه واقع .

ويقال فى حياتنا للتلميذ الناجح من أساتذته : لقد أعطيناك المرتبة الأولى على زملائك بالحق . أى أن هذا التلميذ قد أخذ حقه لأنه يستحق هذه المكانة . وقوله الحق سبحانه : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » أى إن إنزال الكتاب على سيدنا رسول الله ليلفغه جاء ملتبساً ومرتباً بالحق ولا ينفك عنه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل لأن ينزل عليه الكتاب . ووجود معنى بجانب معنى فى القرآن هو من أسرار إشعاعات الكلمات القرآنية ، فهى لا تتناقض ولكنها توضع بحكمة الخالق لتجلى لنا المعانى .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس » وهذا يوضح لنا أن حكومة الدين الإسلامى وعلى رأسها الحاكم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاء لا ليحكم بين المؤمنين به فقط ، بل ليحكم بين الناس . ومن شرط الحكم بين الناس القيام بالعدل فيما يختصمون فيه ، فلا يقولن واحد : هذا مسلم ، وذاك كافر ، فإذا كان الحق مع الكافر فلا بد أن تعطيه له ، وإذا كان الحق مع المسلم فيجب أن تعطيه له ، لأنك لا تحكم بين المؤمنين فقط ولكنك تحكم بين الناس .

وأنت إن حكمت بين الناس حكماً يتفق مع منطق الواقع والحق . فمحكم الذي يحكم له يشهد أن دينك حق ، فعندما يكون الحق مع الكافر ، وتحكم على المؤمن بالحكم الحق الذي لا حيف فيه حتى وإن كان عقاباً ، فالكافر يفرغ نفسه على أنه لم يكن من أهل هذا الدين الذي يعترف بالحق ويحكم به ولو كان على مسلم . وأيضاً يعرف المسلم ساعة يحكم عليه لصالح واحد غير مسلم أن المسألة ليست نسبة شكلية إلى الإسلام ، ولكنها نسبة موضوعية ، فلا يظن أحد أن الإسلام قد جاء ليحايي مسلماً على أي إنسان آخر ، ولكن الإسلام قد جاء ليأخذ الجميع بمنطق الحق ، ويطبق على الجميع منهج الحق ، وليكون المسلم دائماً في جانب الحق .

وسبحانه وتعالى يعطى هذه القضية لواقعة حدثت معاصرة لرسول الله . والوقائع التي حدثت معاصرة لرسول الله ت بمثابة إستدراك السوء للأحكام ، فالقضية تحدث وينزل فيها الحكم ، ولو جاءت الأحكام مبوية وسقطت ونزلت مرة واحدة ، فقد تحدث الحادثة ويكون لدى المؤمنين الحكم ويحاولون البحث عنه في الكتاب . لكن إذا ما جاء الحكم ساعة وقوع الحادثة فهو ينصب عليها ، ويكون الأمر أدهى للإذعان له ، لأنه ثبت وأيد ووثق بواقعة تطبيقية .

والحكم الذي نزل هو : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » . وعندما يقول سبحانه « أراك » أو « علمك » فلتعلم أن تعلم الله هو أكثر تصديقاً من رؤيتك الإنسانية ، وكأنك تتمثل الشيء الذي يعلمه لك الله وكأنه مجسد أمامك ، وليس مع العين أين .

والواقعة التي حدثت هي : كان في « بنى ظفر » واحد اسمه « طعمة بن أبيرق » وسرق « طعمة » درعاً ، وهذا الدرع كان « لقتادة بن النعمان » . وخاف « طعمة » أن يحتفظ بالدرع في بيته فيعرف الناس أنه سرق الدرع . وكان « طعمة » فيما يبدو مشهوراً بأنه لص ، فذهب إلى يهودى وأودع عنده الدرع ، وكان الدرع في جراب دقيق . وحينما خرج به « طعمة » وحمله صار الدقيق يتثر من خرق في الجراب وتكون من الدقيق أثراً في الأرض إلى بيت اليهودى وكان اسمه « زيد بن السمين » ، وعندما تتبعوا أثر الدقيق وجدوه إلى بيت طعمة ، ولكنه حلف ما أخذها وما له بها

علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها وقالوا : « لقد سرق ابن السمين » . وهنا قال ابن السمين : « أنا لم أسرق الدرع ولكن أودعه عندى » طعمة بن أبيرق » . وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء « بنو ظفر » وهم مسلمون « وطعمة بن أبيرق » منهم وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حكمت على المسلم ضد اليهودى فستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجد العار بين المسلمين .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل رسوله ليُعَدِّلَ منهج الغرائز البشرية . والغريزة البشرية بحسب اندفاعها وقصر نظرتها قد تتصور أن الحكم على المسلم وتبذره اليهودى هو إضعاف للمسلمين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يقيم الأمر بالقسط فيترل على رسوله :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ

خَصِيماً ﴿٢٥٨﴾

(سورة النساء)

أى إياك أن تقول : إن هذا مسلم ولا يصح أن نلصق به الجريمة التى ارتكبها حتى لا تكون سبة عليه ، وإياك أن تخشى ارتفاع رأس اليهودى ، لأن هناك لصاً قد ظهر من بين المسلمين . ومن الشرف للإسلام أن يعاقب أى إنسان ارتكب خطأ لأنه مادام قد انتسب للإسلام فعليه أن يهون هذا الانتساب . وعقاب المسلم على خطأ هو شهادة للإسلام على أنه لم يأت ليُجامل مسلماً . وعلى كل مسلم أن يعرف أنه دخل الإسلام بحق الإسلام .

لقد نظر بعض السطحيين إلى قوله الحق : « ولا تكن للخائنين خصيماً » قائلين : إن كان هناك لص أو خائن أو مستغل لقوته فاتركه ولا تنظر إليه ولا تلتفت حتى لا يسبب لك تعباً . ول هؤلاء نقول : لا ، فسيبغته وتعالى يقول : « ولا تكن للخائنين خصيماً » وه اللام « التى فى أول « الخائنين » هى للملكية أى أن الحق يأمر النبى صلى الله عليه وسلم ألا يقف موقفاً لصالح الخائن ، بل عليه أن يخاصم لمصلحة الحق .

وقد حاول العلماء أن يقربوا المسافة فقالوا : ربما لا يتنبه أحد لمسألة اللام وأنها هنا للنفعية ، فيكون المنهى عنه أن يقف مسلم موقفاً ينفع خائناً ، بل لا بد أن يكون على الخائن وليس معه . فاللام هنا تكون بمعنى « عن » . كأن الحق يقول : ولا تكن عن الخائنين خصيصاً . أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين .

ولماذا لم يقل الحق « عن » بدلاً من « اللام » ؟ نقول : إن الغاية من الدفاع عن الخصم أن ترجع أمره وتكون له لا عليه ، لذلك جاء الحق بـ « اللام » هنا من أجل أن نعرف الغاية من « عن » واضحة . فاللام تفيد ألا ينفع المسلم خائناً ، فلا تكون المسألة له ، ولذلك جاء الحق بها إيضاحاً واختصاراً لنعرف أن رسوله لن يقف في جانب الخائن ولن يأبى له بما ينفعه . ولذلك قال العلماء : إن اللام هنا بمعنى « عن » . والقرآن فيه الكثير من مثل هذا .

وبعض الناس يقول : لماذا لا يأتي باللفظ الواضح الذى يجعلنا نعرف المعنى مباشرة ؟ ونقول : إن الملحظية هنا مفيدة لنعرف في أى صف يقف القرآن والرسول المبلغ عن ربه ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ كَانِ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّنْ قَدْ كَفَرُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مِينٌ ﴾

(سورة سبا)

القائل هم الذين كفروا ، والمقول له هو الحق . وبعض الناس كان يفترض أن المنطق يقتضى أن يقول الكفار : إنك سحرمين . وكان الآية هي : وإذ تلى آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم أنت سحرمين . ولنلاحظ أنهم لم يقولوا للحق ، ولكنهم قالوا عن الحق . ولم يقولوا للحق ذلك ، بل قال بعضهم لبعض . و« الحق » هنا تحدث عنه وليس مخاطباً . فقالوا عنه : إنه سحرمين .

وهناك آية أخرى يقول الحق فيها :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأحقاف)

والقاتل هنا هم الذين كفروا . والمقول لهم هم الذين آمنوا . والمقصود هو : أن الذين كفروا قالوا للذين آمنوا لو كان الإسلام خيراً ما سبقتمونا إليه .

ولكن الحق سبحانه أوردها : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » وذلك ليدلنا على أنهم قالوا ذلك في غير محضر المؤمنين ، بل هم يتبادلون هذا القول فيما بينهم . وإلا لو أن القول من الكافرين للمؤمنين لكان السياق يقتضي أن يكون : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

والأمر بالاستغفار يحىء على مجرد وجود خاطر التردد بين نصرته المسلم أو نصرته اليهودي ، فلم يكن الرسول قد نصر أحداً على أحد بعد ، ولكن مجرد هذا الخاطر يتطلب الاستغفار . والذي يصدر الأمر بذلك هو الحق سبحانه لرسوله ، ولا اعتراض ولا غضاضة أن يعدل لنا ربنا أمراً ما .

أو أن كل خطاب من هذا اللون موجه لمن جعل المسألة موضع مساومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقول « بنى ظفر » عندما أرادوا ألا يحكم الرسول على اللص الذي من بينهم ، وتمحكوا في الإسلام . لذلك يأمر الحق الذين حدثوا رسول الله عن هذا الموضوع بالاستغفار ، أو أن يستغفر الرسول لهم الله ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا رغبة في ألا يفضح أمر المسلمين .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَجِدُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُجِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّافًا أَثِيمًا ﴾

وسبحانه يريد أن يشيع هذه القضية بحثاً ، فقد كان يكفي أن يقول لنا ما سبق . لكنه يريد أن يحسم مثل هذه الأمور ؛ فلا مجادلة في الذين يختانون أنفسهم . والجدل كما نعرف هو القتل . وحين يقتل الإنسان شيئاً ، مثل أن يحضر بعضاً من الشعر أو الصوف أو الليف ويحدها ليصنع حبلاً ، فهو يقتل هذا الغزل لبقوه ويجعله غير هش وقابلاً للشد والجذب ، ولذلك يقال عن مثل هذه العملية : إننا نجعل الحبل حتى نعطي القوة . وكذلك شأن الخصمين ؛ كل واحد منهما يريد تقوية حجته ، فيحاول جاهداً أن يقويها بما يشاء من أساليب في القول ولحنه أو الفصاحة في الأسلوب . لذلك يأتي الأمر إلى الرسول : لا تقو مركز أى إنسان يختان نفسه .

والقرآن حين يعدل عن يخونون أنفسهم إلى « يختانون أنفسهم » ، فلا بد أن لهذا معنى كبيراً ؛ لأن الخيانة هي أن تأخذ غير الحق . ومن المحتمل أن يخون الإنسان غيره ، لكن أئمن المقول أن يخون الإنسان نفسه ؟ إن مثل هذه العملية تحتاج إلى افتعال كبير ، فقد يخون الإنسان غيره من أجل مصلحة نفسه ، أو يعطي نفسه شهرة ومعصية عليها عقوبة ، وهذه خيانة للنفس ؛ لأن الإنسان في مثل هذه الحالة يفتل عن العقوبة الآجلة بالشهوة العابرة العاجلة .

وهكذا نرى أن الذى يخون الناس إنما يخون - ضمناً - مصلحة نفسه . وإذا ما خان الإنسان نفسه فهذا ليس سهلاً ويطلب افتعالاً ، ولذلك يقول الحق : « وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُجِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّافًا أَثِيمًا » .

والآية التي تحدثت من قبل ذلك عن هذا الموقف لم تأت بكلمة « خوائين » ولكن جاءت بالخائنين ، وهنا يأتي الحق بكلمة خَوَّان . وفيه فرق بين « خائن » ، و « خَوَّان » ، فالخائن تصدر منه الخيانة مرة واحدة ، أما الخَوَّان فتصدر منه الخيانة

مراراً . أو يكون المعنى هو : أن الخائن تصدر منه الخيانة في أمر يسير صغير ، أما الخَوَان فتصدر منه الخيانة في أمر كبير . إذن . فمرة تأتي المبالغة في تكرير الفعل ، وأخرى في تضخيم الفعل .

ومن لطف الله أنه لم يقل « خائن » ؛ لأن الخائن هو من خان لمرة عابرة وانتهى الأمر ، ولم يخرج الله عن دائرة السر إلا إذا أخذ الخيانة طبعاً وعادة وحرفة . وقد جاءت لسيدنا عمر - رضي الله عنه - امرأة أخذ ولدها بسرقة ، وأراد عمر - رضي الله عنه - أن يقيم على ذلك الولد الحد ، فبكت الأم قائلة : يا أمير المؤمنين والله ما فعل هذا إلا هذه المرة . قال عمر : كذبت . والله ما كان الله ليأخذ عبداً بأول مرة .

ولذلك يقولون : إذا حرفت في رجل سيئة انكشفت وصارت واضحة . فلتعلم أن لها أخوات ؛ فالله لا يمكن أن يفضح أول سيئة ؛ لأنه سبحانه يحب أن يستر عباده ، لذلك يستر العبد مرة وثانية ، ثم يستمر العبد في السيئة فيفضحها الله : « إن الله لا يحب من كان خواناً أثياً » ، والإثم أنقطع المعاصي . والقوم الذين ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستشفعوا عنده لابن أبيرق لكي يحكم له الرسول ضد اليهودي ، لماذا صنعوا ذلك ؟ . لأنهم استفظعوا أن يفضح أمر مسلم ويرا يهودي ، استحبوا أن يحدث هذا ، وعالج القرآن هذه القضية وذلك ليأتي بالحقيقة التي دعهم إلى أن يفعلوا هذا ويقض على مثل هذا الفعل من أساسه ، فقال :

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ
وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ
اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ﴿١٨﴾

إنهم يطلبون البراءة أمام الناس في أن « طعمة » لم يفعل السرقة ، ولكن هل يملك الناس ما يملكه الله عنهم ؟ . إنه سبحانه أحق بذلك من الناس . فإذا كنتم تريدون

التعمية في قضاء الأرض فلن تعموا على قضاء السهاء . وهذه القضية يجب أن تحكم حركة المؤمن ، فإذا ما فكر إنسان منسوب إلى الإسلام أن يفعل شيئاً يفضب الله فعليه أن يفكر : أنا لو فعلت ذلك لفضحت نفسي أو فضحت ولدى أو فضحت أسرى أو فضحت المسلمين ، وعلى الإنسان المسلم ألا يخشى الناس إن فعل أخ له شيئاً يشين المسلمين ، بل عليه أن يأخذ على يديه ويردّه عن فعله . ونقول لمن يستتر عن الناس : أنت استخفيت من الناس ، ولم تستخف من الله ؛ لذلك فانت غير مأمون على ولاية .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » ، وكلمة « معهم » هذه تريد أن تحمل المؤمن مصداقاً أن الله لا تخفى عليه خافية ، إنه من الممكن أن يستتر الشخص عن الناس ، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يستتر عن الله ؛ لأن الله مع كل إنسان في الخلوة والجلوة والسر والعلن . فإن قدر واحد على الاستخفاء من الناس فهو لن يقدر على الاستخفاء من الله .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » و « يبيت » أى أنه يفعل أمره في الليل ، لأن الناس كانت تلجأ إلى بيوتهم في الليل ، ومعنى « يبيت » أن يصنع مكيدة في البيت ليلاً ، وكل تدبير بخفاء اسمه « تبيت » حتى ولو كان في وضوح النهار ، ولا يبيت إنسان في خفاء إلا رغبة منه في أن ينفذ منه عيون الرائيين . فنقول له : أنت تنفض العيون التي مثلك ، لكن العيون الأزلية وهي عيون الحق فلن تقدر عليها .

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١١٨ ﴾

(سورة النساء)

حين نسمع كلمة « محيط » فلنعلم أن الإحاطة هي تطويق المحيط للمحاط ، بحيث لا يستطيع أن يفلت منه علماً بحاله التي هو عليها ولا قدرة على أن يفلت منه ما لا وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذى لا تخفى عليه خافية ، ومحيط قدرة فلا يستطيع أن يفلت أحد منه إلى الخارج . وسبحانه محيط علماً بكل جزئيات الكون وتفصيله وهو القادر فوق كل شيء . فإذا ما سمعنا كلمة « محيط » فمعناها أن



الحق سبحانه وتعالى محيط ما يحيط به علماً بكل جزئياته فلا نستطيع جزئية أن تهرب من علم الحق . وسبحانه محيط بكل شيء قدرة فلا يستطيع أن يفلت من ماله شيء من الجزاء الحق .

وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا :

﴿ هَآأَنَآءَ هَآؤُلَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ
مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ ١١٣

فالذي جادل من ابن أيرق كان يريد أن يبرىء ساحته أمام الناس ويدين اليهودى ، وفى أنه قد جادل أمام بشر عن بشر ، فهل تنتهى المسألة بهذا اليسر ؟ لا ؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء . وهب أنه أفلت من العقوبة البشرية ، أفلت من عقوبة الله فى الآخرة ؟ لا ، إذن فالذى يجادل يريد أن يعصى على قضاء الأرض ، ولن يستطيع أن يعصى على قضاء الحق ، ولن يجد من يجادل عن مثل هذا الخطأ يوم القيامة . وليس هذا فقط ، ولكن الحق ينزل الآية : « أم من يكون عليهم وكيلًا ، أى فمن إذن يستطيع أن يكون وكيلًا عن هؤلاء يوم القيامة ؟ . ونعرف أن الوكيل هو الشخص اللبق الذى يختاره بعض الناس ليكون قادراً على إقناع من أمامه . فمن يستطيع أن يقوم بذلك العمل أمام الله ؟ لا أحد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ
اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ١١٤

وسبحانه وتعالى حينها خلق الخلق جعلهم أهل أخيار ، لذلك لم يشأ أن يُخرج مذنباً بلذنب عن دائرة قدرته ورحمته ، بل إنه - سبحانه - شرع التوبة للمذنب حماية للمجتمع من استئراء شره . فلو خرج كل من ارتكب ذنباً من رحمة الله ، فسوف يعاني المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمة مستطيرة الشر على المجتمع . إذن فالتوبة من الله ، مشروعية وقبولاً ، إنما هي حماية للبشر من شراسة من يصنع أول ذنب . وهكذا جاءت التوبة لتحمي الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة .

إن اللذين وقفوا في محاولة تبرئة « ابن أبيرق » انقسموا إلى قسمين : قسم في بآله أن يبريء « ابن أبيرق » ، وقسم في بآله ألا يفضح مسلماً . وكل من القسمين قد أذنب . ولكن هل يخرجهم هذا الذنب من رحمة الله ؟ . لا ، فسبحانه يقول : « يجد الله غفورا رحيماً » والحق يحفو عن تلك المسألة . إن القسمين جميعاً أصبحوا مطالبين بعمل طيب بعد أن أوضح لهم الرسول ، وفهموا مراد الحق . وسبحانه يقيهم في الصف الإيماني ، وقد حكم رسول الله على « ابن أبيرق » لصالح اليهودي ، وبعد ذلك ارتد « ابن أبيرق » ، وذهب إلى مكة مصاحباً لإعادة الحيانة ، فتقب حائطا على رجل ليسرق متاعه فوقع الحائط عليه فمات .

والحق سبحانه يضع المعايير ، فمن يرتكب ذنباً أو يظلم نفسه بخطيئة ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيماً . ونلاحظ أن بعض السطحيين لا يفهمون جيداً قول الحق : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيماً » فينسابون : أليس الذي ارتكب العمل السيء قد ظلم نفسه ؟

ونقول : إن دقة القرآن توضح لنا المعنى ، فمعنى عمل سوءا أضرب بهذا العمل آخرين ، إنه غير الذي ارتكب شيئاً يضرب به نفسه فقط ، فالذي سرق أو قتل أو اعتدى على آخر قذفاً أو ضرباً أو إهانة ، مثل هذه الأفعال هي ارتكاب للسوء ، فالسوء هو عمل يكرهه الناس ، ويقال : فلان رجل سوء ، أى يلقي الناس بما يكرهون .

لكن الذي يشرب الخمر قد يكون في عزلة عن الناس لم يرتكب إساءة إلى أحد ،

لكنه ظلم نفسه ؛ لأن الإنسان المسلم مطلوب منه الولاية على نفسه أيضاً ، والمنهج يحصى المسلم حق من نفسه ، ويحمي النفس من صاحبها ، بدليل أننا نأخذ من يقتل غيره بالعقوبة ، وكذلك يحرم الله من الجنة من قتل نفسه انتحاراً .

وهكذا نرى حاية المنهج للإنسان وكيف تحيطه من كل الجهات ؛ لأن الإنسان فرد من كون الله ، والحق يطلب من كل فرد أن يحمي نفسه . فإن صنع سوءاً أى أضر بغيره ، فهذا اسمه « سوء » . أما حين يصنع فعلاً يضر نفسه فهذا ظلم النفس :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَنْصَرِفَ عَلَيْهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ صَاعِقًا أَوْ غَوَسًا فَيَصْرَأَعُ عَلَيْهِمْ وَمَا يَحِثُّونَ ﴾ (١٢٥)

(سورة آل عمران)

وهل فعل الفاحشة يخالف لظلم النفس ؟ . إنه إساعة لغيره أيضاً ، لكن ظلم النفس هو الفعل الذي يسيء إلى النفس وحدها . أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتنع نفسه بها لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة في الآخرة . وقد نجد إنساناً يرتكب المعصية ليحقق لغيره متعة ، مثال ذلك شاهد الزور الذي يعطى حق إنسان لإنسان آخر ولم يأخذ شيئاً لنفسه ، بل باع دينه بدنياه غيره ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« باءروا بالأعمال ستكون فتنة كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمس كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض الدنيا » (١) .

« ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » والله غفور ورحيم أزلاً ودائماً ، والعبد التائب يرى مغفرة الله ورحمته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٣١﴾

ويورد الحق كلمة «كسب» عندما يتناول أمراً خيراً فعله الإنسان ، ويصف ارتكاب الفعل السيء بـ «اكتسب» ، لماذا ؟ لأن فعل الخير عملية فطرية في الإنسان لا يستحي منه ، لكن الشر دائماً هو عملية يستحي منها الإنسان ، لذلك يجب أن يقوم بها في خفية ، وتحتاج إلى افتعال من الإنسان .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح - والله المثل الأعلى - نحن نجد الرجل ينظر إلى وسامة زوجته بكل ملكاته ، لكنه لو نظر إلى واحدة أخرى من غير محارمه فهو يقوم بعملية لخداع ملكات النفس حتى يتلصص ليرى هذه المرأة . ويحاول التحايل والافتعال ليتلصص على ما ليس له . ولذلك يقال عن الحلال : إنه «كسب» ويقال عن الحرام : إنه «اكتساب» . . .

فلذا ما جاء القرآن للسيدة وقال : «كسب سيئة» فهذا أمر يستحق الالتفات ، فالإنسان قد يعمل السيئة ويندم عليها بمجرد الانتهاء منها إن كان من أهل الخير ، ونجده يوبخ نفسه ويلومها ويحزم على ألا يعود إليها . لكن لو ارتكب واحد سيئة وسعد بذلك وكأنها حققت له كسباً ويفخر بها متناسياً الخطر الجسيم الذي سوف يواجهه يوم القيامة والمصير الأسود ، وهو حين يفخر بالمصيبة ففي ذلك إعلان عن فساد الفطرة ، وسيادة الفجور في أعماقه ، وهو يختلف عن ذلك الذي تقع عليه المصيبة ولحظة ما يتذكرها يقشعر بدنه ويستغفر الله .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » فإليك أيها الإنسان أن تظن أنك حين تظلم أحداً بعمل سوء قد كسبت الدنيا ، فوالله لو علم الظالم ماذا أهد الله للمظلوم لضمن على عدوه أن يظلمه . وأضرب هذا المثل للإيضاح - والله المثل الأعلى دائماً - هب أن رجلاً له ولدان . وجاء ولد منها وضرب أخاه أو خطف منه شيئاً يملكه ، ورأى الأب هذا الحادث ، فإين يكون قلب الأب ومع من يكون ؟



إن الأب يقف مع المظلوم ، ويحاول أن يرضيه . فإن كان الأخ الظالم قد أخذ منه شيئاً يساوى عشرة قروش ، فالأب يعرض الابن المظلوم بشيء يساوى مائة قرش . ويعيش الظالم في حسرة ، ولو علم أن والده سيكرم أخاه المظلوم لما ظلمه أبداً . إذن فالظلم قمة من قمم الغباء .

ومن ضمن المفارقات التي تروى مفارقة تقول : إن كنت ولا بد مغتاباً فاغتب أبويك . ولا بد أن يقول السامع لذلك : وكيف اغتاب أبى وأمى ؟ فيقول صاحب المفارقة : إن والدك أولى بحسناتك ، فبدلاً من أن تعطى حسناتك لعدوك ، ابحث ممن تحبهم وأعطهم حسناتك . وحيثية ذلك هي : لا تكن أيها المغتاب أحق لأنك لا تغتاب إلا عن عداوة ، وكيف تعطى لعدوك حسناتك وهي نتيجة أعمالك ؟

ونعرف ما فعله سيدنا الحسن البصري ، عندما بلغه أن واحداً قد اغتابه . فأرسل إلى المغتاب طبقاً من البلح الرطب مع رسول ، وقال للرسول : اذهب بهذا الطبق إلى فلان وقل له : بلغ سيدى أنك اغتبت بالأمس فأهديت له حسناتك ، وحسناتك بلاشك آثمن من هذا الرطب . وفي هذا إيضاح كاف لدم الغيبة .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً » ونعلم أنه إذا جاءت أى صفة من صفات الحق داخلية في صورة كينونة أى مسبوقه بـ « كان » فليأكم أن تأخذوا « كان » على أنها وصف لما حدث في زمن ماضٍ ، ولكن لنقل « كان ومازال » . لماذا ؟ لأن الله كان أزلاً ، فهو غفور رحيم قبل أن يوجد مغفور له أو مرحوم ، فالله ليس من أهل الأغيار ، والصفات ثابتة له ، لأن الزمن في الأحداث يتغير بالنسبة للأغيار فقط ، وعلى سبيل المثال نجد الواحد من البشر صحيحاً في زمن ومريضاً في زمن آخر .

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضي إلا أصحاب الأغيار . وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا في أصحاب الأغيار . وما دام الله هو الذي يغير ولا يتغير فلن يغيره زمن ما ، بل كان في الأزل غفوراً رحيماً ، ولا يزال أيضاً غفوراً رحيماً . وكذلك كان علم الله أزلياً وحكمته لا حدود لها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا
فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾

قالوا : إن الخطيئة هي الشيء غير المتعمد ، مثال ذلك حين نعلم التلميذ قاعدة من قواعد النحو ، ثم نطلب منه أن يطالع نصاً من النصوص ، ونلتفت لنجد التلميذ قد نصب الفاعل ورفع المفعول ، ونصحح له الخطأ ، إنه لم يتعمده ، بل نسي القاعدة ولم يستحضرها . ونظل نصصح له الخطأ إلى أن يتذكر القاعدة النحوية ، وبالتدريب يصبح الإعراب ملكة عند التلميذ فلا يخطئ .

والخطيئة - إذن - هي الخطأ غير المتعمد . أما الإثم فهو الأمر المتعمد . فكيف إذا رمى واحد غيره بإثم ارتكبه أو خطيئة ارتكبها هو . . ما حكم الله في ذلك ؟

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾

(سورة النساء)

لقد ارتكب الخطيئة أو الإثم ، وباليته اكتفى بهذا ، لا ، بل يريد أن يصعد الجريمة بارتكاب جريمة ثانية وذلك بأن يرمى بالخطيئة أو الإثم بريئاً ، إن إثمه مركب ، ولذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » واستخدام الحق هنا لكلمة « احتمل » وليس « حل » تؤكد لنا أن هناك علاجاً ومكابدة وشدة لحمل الإنسان هذا الشيء الثقيل ، فالجريمة جريمتان وليست واحدة ، لقد فعل الخطيئة ورمى بها بريئاً ، وفاعل الخطيئة يندم على فعلها مرة ، ويندم أيضاً على إلصاقها ببرىء ، إذن فهي حل حل أكتافه . ونعلم أن الإنسان ساعة يقع أسير سعار العداوة ، يهون عليه أن يصنع المعصية ، ولكن بعد أن يبدأ سعار العداوة فالتندم يأتيه . قال الحق :

﴿وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ
الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾﴾

(سورة المائدة)

هابيل - إذن - يسأل قابيل : وما ذنبى أنا فى ذلك ، إن الله هو الذى يتقبل القربان
وليس أنا فلماذا تقتلنى ؟

ويستمر القول الحكيم :

﴿لَنْ يَسْعَتْ إِلَىٰ بَدَايَةِ قَتْلِي مَا أَنَا بِسَاطِرٍ يَدَىٰ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

(سورة المائدة)

وماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٧٩﴾﴾

(سورة المائدة)

كان مسألة القتل كانت عملية شاقة وليست سهلة ، وأخذت مغالبة . وعلى سبيل
المثال : لن يقول أحد : « لقد طوعت الحبل » ولكن هناك من يقول : « أنا طوعت
الحديد » . وسعار الغضب جعل قابيل ينسى كل شيء وقت الجريمة ، وبعد أن
وقعت ، وهذا سعار الغضب الذى ستر موازين القيم ، هنا ظهرت موازين القيم
ناصعة فى النفس .

ولذلك نجد من يرتكب جريمة ما ، ويتجه بعد ذلك لتسليم نفسه إلى الشرطة ،
وهو يفعل ذلك لأن سعار الجريمة انتهى وظهر ضوء موازين القيم ساطعاً . وعلى ذلك
نفهم قول الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » .

وهذا يدل على أن من يصنع جريمة ثم يرمى البرىء بالإثم إنما يرتكب عملاً
يتطلب مشقة وتنازعه نفسه مرة بالندم ؛ لأنه فعل الجريمة ، وتنازعه نفسه مرة ثانية
لأنه رمى بريئاً بالجريمة ؛ لذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » وساعة

نسمع كلمة « بهتان » فهي مأخوذة من مادة « بهت » . والبهتان هو الأمر الذي يتعجب من صدوره من فاعله . مثال ذلك قوله الحق في شرح قضية سيدنا إبراهيم مع النمرود ، حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِيهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

فإذا كان موقف الرجل ؟

﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى أنه سمع شيئاً عجباً يخرسه عن أن يتكلم ؛ فقد جاء له سيدنا إبراهيم بأمر عجيب لا يخطر على باله ، ولا يستطيع أن يجد منه مفعراً ، فكان الأمور المخالفة لمنطق الحق ولطلوب القيم أمور غريبة عن الناس إنَّها هي البهتان ، والدليل على ذلك أنها أمور يستتر فاعلها عن الناس .

وإذا ما نظرنا إلى القضية التي نزلت الآية بسببها . وجدنا أن سارقاً سرق وأراد أن يبرىء نفسه وأن يدخل في الجريمة بريئاً . ويلصقها به ، وأن يرتكب المجرم الجريمة فهذا يحمله إنَّياً . أما أن ينقل الجريمة إلى سواه فهذا يدل على وجود طاقة أخرى حتى يحتمل ما فعله ، وهذا صعب على النفس ، ولا يتعجب أحد لسماع شيء إلا إذا كان هذا الشيء مخالفاً لما هو مألوف ومعروف . وإنَّ في الحوار بين سيدنا إبراهيم والنمرود لدليلاً واضحاً وناصباً ؛ فعندما قال النمرود :

﴿ أَنَا أَخِيءَ وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

قصد بذلك قدرته على أن يقتل إنساناً ، ويترك إنساناً آخر لمسهاء . وهنا عاجله سيدنا إبراهيم بالقضية التي تبهته ولا يدخل فيها هذا التهاكك اللفظي . فقال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِيهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى أن التمرود سمع قولاً عجيباً وليس عنده من الذكاء ما يحتاط به إلى دفعه ، وكذلك الرجل الذى صنع الجريمة ثم رمى بها غيره احتاج إلى طاقة تتحمل هذا ، مما يدل على أن الفطرة السليمة كارهة لفعل القبيح . فإذا ما فعل الإنسان ذنباً فقد حمل بهتاناً ، وإذا ما عدى ذلك إلى أن يحمله إلى برىء ، فذلك يعنى أن الأمر يحتاج إلى طاقة أخرى .

إذن فقول الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » أى أنه احتمل أمراً عجيباً يبهت السامع ويتعجب كيف حدث ذلك . ويحتمل من يفعل ذلك الإثم أيضاً .

. والإثم - كما عرفنا - هو السيئة المتعمدة . ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه القضية : إن الله سبحانه وتعالى يحوطك يا محمد بعنايته وبرعايته وبفضله ، وإن حاول بعض من قليل الإيمان أن يخرجوك عن هذه المسألة ، وأن يزينا لك أن تبريء مذنباً لتجرم آخر بريئاً وإن كان المذنب مسلماً وإن كان البرىء غير مسلم ، والله لم يرسل محمداً ليحكم بين المؤمنين فقط ، ولكن صدر هذه الآية بوضع لنا أن الله أرسل رسوله ليحكم بالحق : « لتحكم بين الناس » أى ليحكم بين الناس على إطلاقهم . فإياك حين تحكم أن تقول : هذا مسلم وذلك كافر . أو تقول : هذا مسلم وذلك من أهل الكتاب ، بل كل الناس أمام قضايا الحق سواء .

ولذلك أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الجرعة الإيمانية التى جاءت بها حادثة من الحوادث ليقول بعد ذلك فى قصة المخزومية حينما سرقت وأراد أن يقيم عليها الحد ، وكلمه حبيبه أسامة بن زيد فى أن يرفع عنها الحد ، فقال رسول الله :

عن عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجرؤ عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب فقال : « أياها الناس : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (١) .

هذا القول مستخلص من القضية السابقة . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ
طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ
إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ
عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ
تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ١١٣

وهنا نتساءل : هل هم أحد بإضلال رسول الله ؟ علينا أن نفهم أن « الهم » نوعان : هم إنفاذ ، وهم تزيين . وقد رفض رسول الله هم الإنفاذ ، ودفعه الله عنه لأنه سبحانه وتعالى يحوط رسوله بفضله ورحمته ويأتي بالأحداث ليعلمه حكماً جديداً . وفضل الله على رسوله ورحمته جعل الهم منهم هم تزيين فقط وحفظ الله رسوله منه أيضاً . وعندما تعلم الرسول هذا الحكم الجديد ، صار يقضى به من بعد ذلك في كل قضايا الناس . فإذا ما جاء حدث من الأحداث وجاء له حكم من السماء لم يكن يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالفضل لله لأنه يزيد رسوله تعليمًا .

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

وكان قصد الذين دافعوا عن « ابن أبيرق » أن يزينوا لرسول الله ، وهذا هو هم التزيين لا هم الإنفاذ . وكان الهدف من التزيين أن يضرروا الرسول ويضلوه والعياذ بالله ، ليأخذوه إلى غير طريق الحق وغير طريق الهدى ، وهذا أمر يضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو أن رسول الله برأ المذنب الذي يعلم أنه مذبذب لاشتقر في ذهن المذنب أن قضايا الدين ليست جادة ، أما البريء الذي كان مطلوباً أن يدينه رسول الله ماذا يكون موقفه ؟ لا بد أن يقول لنفسه : إن دين محمد لا صدق فيه لأنه يعاقب بريئاً . إذن فهم التزيين يضر بالرسول عند المبرأ وعند من يراد إلصاق الجريمة

به . لكن الله صان رسوله بالفضل وبالرحمة عن هذا أيضا .

﴿ لَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

لقد أنزل الحق كتاباً ليفصل في القضية . ونزول الحكم بعد وقوع تلك الحادثة إنما جاء ليبين ضمن ما يبين سر نزول القرآن منجياً ؛ لأن القرآن يعالج أحداثاً واقعية ، فيترك الأمر إلى أن يقع الحدث ثم يصب على الحدث حكم الله الذي ينزل من السماء وقت حدوث الحدث ، وإلا كيف يعالج القرآن الأحداث لو نزل مرة واحدة بينما الأحداث لم تقع ؟ لذلك أراد الله أن تنزل الأحداث أولاً ثم يأتي الحكم . وقد سبق أن قال الكفار :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

لا ؛ فقد أراد الله القرآن منجياً ومتفرقاً ومقسطاً لماذا ؟

﴿ كَذَلِكَ لِنُنشِئَ بِهِ قُرُودَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

فكلما حدثت هزة للقرود من اللد والخصومة الشديدة ومن العناد الذي كان عليه الكفار ورددتهم للحق - وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم - ينزل نجم من القرآن ، وفي شغب البشر مع الرسول تنزل رحمة السماء تثبت القواد ، فإن تعب القواد من شغب الناس ؛ فأيات اتصال الرسول بالسماء وبالوحي تنفى عنه هذه المتاعب . ورسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الدعوة كانت تحدث له كل يوم هزات ؛ لذلك كان في كل لحظة يحتاج إلى تثبيت . وعندما ينزل النجم القرآني بعد العراك مع الخصوم فإن حلاوة النجم القرآني تهوّن عليه الأمر ، وإذا ما جاء للرسول صلى الله عليه وسلم أمر آخر يعكر صفوه ، فهو يتنظر حلاوة الوحي لتنزل عليه ، وهذا معنى قوله الحق :

﴿ كَذَلِكَ لِنُنشِئَ بِهِ قُرُودَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

أى أنزلناه منجماً لنثبت به فؤادك . ولو نزل القرآن جملة واحدة لقلل من مرات اتصال السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد مداومة اتصال السماء به . بدليل أن الوحي عندما فتر جلس الرسول يتطلع إلى السماء ويتشوق . لماذا ؟ ففى بداية النزول أرققه الوحي ، لذلك قال الرسول : « فضمنى إليه حتى بلغ منى الجهد »^(١) .

ورأته خديجة - رضى الله عنها - « وإن جبينه ليتفصد عرقاً » فاتصال جبريل بملكه ونورانيته برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بشرته لا بد أن يحدث تغييراً كيميائياً فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحياناً يأتي مثل صلصلة الجرس وهو أشد على فيفصم عني وقد وعيت منه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً »^(٢) .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يواجه المتاعب وأراد الله بفترة الوحي أن يحس محمد حلاوة الوحي الذى نزل إليه ، وأن يشتاق إليه ، فالشوق يعين الرسول على تحمل متاعب الوحي عندما يجيء . ولذلك نجد أن عملية تفصد العرق لم تستمر كثيراً ، لأن الحق قال :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ۝ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن الحق أوضح لرسوله : إنك ستجد شوقاً وحلاوة ولذة فى أن تستقبل هذه الأشياء .

(١) رواه البخارى فى كتاب : بدء الوحي .

(٢) رواه البخارى فى كتاب : بدء الوحي .

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾

(من الآية ٣٦ سورة الفرقان)

وهكذا كان القرآن ينزل منجماً ، على فترات ، ويسمع الصحابة عدداً من آيات القرآن . ويحفظونها ويكتبها كتاب الوحي . وبعد ذلك تأتي معجزة أخرى من معجزات القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنزل سورة كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن يسرى عنه يقول للكتابة : اكتبوا هذه . ويرتب رسول الله الآيات بمواقعها من السورة . ثم يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة في الصلاة ويسمع المصلون الترتيل الذي تكون فيه كل آية في موقعها ، وهذا دليل على أن المسألة مدروسة دراسة دقيقة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يحكى إنما يحكى صدقاً .

ولأقولوا لي : كيف ينزل الوحي على رسول الله بسورة بأكملها وعملها للكتابة ، ثم يقرؤها في الصلاة كما نزلت وكما كتبها أصحابه ، كيف يحدث ذلك إن لم يكن ما نزل عليه صدقاً كاملاً من عند الله ؟ ونحن قد نجد إنساناً يتكلم لمدة ربع ساعة ، لكن لو قلنا له : أعد ما تكلمت به فلن يعيد أبدأ الكلمات نفسها ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الآيات كما نزلت . مما يدل على أنه يقرأ كتاب الله المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه تنزيل من حكيم حميد . ولذلك يقول الحق :

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

(سورة الفرقان)

أى لا يأتونك بحادثة تحدث إلا جئناك بالحق فيها . إذن لم يكن للقرآن أن ينزل منجماً إلا ليثبت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تتابع الهزات التي يتعرض لها ، وأراد الله أن ينشر اتصال السماء برسول الله صلى الله عليه وسلم على الثلاثة والعشرين عاماً التي استغرقتها الرسالة .

والترتيل هو التنجيم والتفريق الذي ينزل به القرآن فيقرأه الرسول في الصلاة مثلاً نزل عليه قبل ذلك دون تحريف أو تبديل ، والحق يقول :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ﴾ ①

(سورة الأهل)

وكل حادثة تحدث ينزل لها ما يناسبها من القرآن . كما حدثت حادثة سرقة ابن أبيرق فنزل فيها الحكم والحق يقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » .

فإذا ما علمك الله - يا رسول الله - ما لم تكن تعلم بنزل الكتاب ، فهل أنت يا سيدي يا رسول الله مشرع فقط بما نزل من الكتاب ؟ لا ، فالكتاب معجزة وفيه أصول المنهج الإيماني ، ولكن الله مع ذلك فوض رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرع ، وتلك ميزة لم تكن لرسول قبله ، بدليل قوله الحق :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُخْبِرًا وَنَذِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالرسل من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم يتناولون ما أخذوه عن الله ، وميز سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بتفويض التشريع . ولوضح الحق أنه علّم رسوله الكتاب والحكمة . والحكمة مقصود بها السنة ، فسبحانه القائل :

﴿ وَأَوْزَيْنَاكَ فِي بَيِّنَاتٍ مِّنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وسبحانه صاحب الفضل على كل الخلق وصاحب الفضل على رسوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » ولنا أن نلاحظ أن « فضل الله » تكرر في هذه الآية مرتين . ففضل الله الأول في هذه الآية أنه عصمه من أن تضله طائفة وتتأى به عن الحق ، ثم كان فضل الله عليه ثانياً أنه أنزل عليه الكتاب بكل أحكامه وأعطاه الحكمة وهي التفويض من الله لرسوله أن يشرع . إذن فالحق سبحانه وتعالى جعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم امتداداً لوحيه . ولذلك إذا قيل من قوم يحاولون التشكيك في حديث رسول الله : إن الصلاة لم تأت في القرآن .

نقول سائلين الواحد منهم : هل تؤدي الصلاة أم لا ؟ .

فيقول : إننى أصل ..

فنقول له : كم فرضاً تصل ؟

فيقول : خمسة فروض .

فنقول : هات هذه الفروض الخمسة من القرآن . ولسوف يصيبه البهت ، وسيلبس عليه أمر تحديد الصبح بركعتين والظهر بأربع ركعات ، والعصر بثلاث ، والمغرب بثلاث ، والعشاء بأربع ركعات . وسيعترف أخيراً أنه يصل على ضوء قول الرسول : (صلوا كما رأيتموني أصل)^(١) وهذه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » وقد نجد واحداً من أهل السطحية واللجاجة يقول : القرآن يكرر الكلمات في أكثر من موقع ، ولماذا يذكر فضل الله في صدر هذه الآية ، ويذكره مرة أخرى في ذيل نفس الآية ؟

نقول : أنت لم تلاحظ فضل الله في الجزئية الأولى لأنه أنقذ رسوله من همّ التزيين بالحكم على واحد من أهل الكتاب ظليماً ، وفي الجزئية الثانية هو فضل في الإتمام بأنه علم رسوله الكتاب والحكمة وكان هذا الفضل عظيماً حقاً .

وساعة يذهب هؤلاء الناس ليحدثوا الرسول في أمر طعمة ابن أبيرق ، ألم يجلسوا معاً ليتدارسوا كيف يفلت طعمة بن أبيرق من الجريمة ؟

لقد قاموا بالتداول فيما بينهم لأمر طعمة واتفقوا على أن يذهبوا للرسول ، فكانت الصلة قريبة من النجوى . ولذلك حرص أدب الإسلام على أن يحترم كرامة أى جليس ثالث مع اثنين فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، لأن ذلك يحزنه .

وقد يكون الأمر جائزاً لو كان الجلوس أربعة ، فواحد يتحدث مع آخر ، وهناك يستطيع اثنان أن يتناجيا . إذن فالنجوى معناها المسارّة ، والمسارّة لا تكون إلا عن أمر لا يجبهون أن يشيع ، وقد فعل القوم ذلك قبل أن يذهبوا إلى الرسول ليتكلموا عن

(١) روله البخارى والبيهقى في السنن الكبرى .

حادثة طعمة بن أبيرق ، ولذلك يوضح الحق أمر هذه النجوى ، فيتزل القول الحق :

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بَصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ
وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

وسبحانه يوضح أمر هذه النجوى التي تحمل التبييت للإضلال ، ولكن ماذا إن كانت النجوى لتعين على حق ؟ إنه سبحانه يستثنى هنا ، لذلك لم يصدر حكماً جازماً ضد كل نجوى ، واستثنى منها نجوى من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، بل ويمزى عليها حسن الثواب . لذلك قال : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . ونستخدم الحق هنا كلمة « سوف » ، وكان من الممكن أن يأتى القول « فسؤتيه أجراً عظيماً » لكن لدقة الأداء القرآنى البالغة جاءت بأبعد المسافات وهى « سوف » .

ونعرف أن جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم « السين » ، وإذا ما جاء جواب الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم « سوف » . وجاء الحق هنا بـ « سوف » لأن مناط الجزاء هو الآخرة ، فلو أنك أيها العبد المؤمن أن تقول : لماذا لم يعطى الله الجزاء على الطيب في الدنيا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يقل : « فسؤتيه » ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » مما يدل على أن الفضل والإكرام من الله ، وإن كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل ، لأن جزاء الحق لعباده المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدل على هذا الجزاء في الآخرة إلا « سوف » . ونعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين مكنى أمته الإيمانى بشيء فهو بمنى بالآخرة ، ولنتظر إلى بهمة العقبة عندما جاء الأنصار من المدينة لمبايعة رسول الله :

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله عصاة من أصحابه : « يا أيها الذين آمنوا لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ^(١) .

لقد أخذت لنفسك يا رسول الله ونحن نريد أن نأخذ لأنفسنا ، ماذا لنا إن نحن وفينا بهذا ؟ ولتر عظمة الجواب وإلهامية الرد ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (لكم الجنة) .

كان في استطاعة رسول الله أن يقول لهم : إنكم ستتصرون وإنكم ستأخذون مشارق الأرض ومغاربها وسيأتى لكم خير البلاد الإسلامية كلها . لكنه بحكمته لم يقل ذلك أبداً فقد يستشهد واحد منهم في قتال من أجل نصرته دين الله ، فإذا ساءل في الدنيا ؟ . إنه لن يأخذ حظه من التكريم في الدنيا ، ولكنه سينال الجزاء في الآخرة . لذلك جاء بالجزاء الذي يشمل الكل ، وهو الجنة . ليدلهم على أن الدنيا أتفه من أن يكون جزاء الله محصوراً فيها ، ويحصى كل المؤمنين على أن يطلبوا جزاء الآخرة ؛ ونعلم جميعاً هذه الحكاية ، ونجد رجلاً يقول لصاحبه : أعجبني ؟ فأجاب صاحب : نعم أعجبك . فسأل السائل : على أى قدر أعجبني ؟ قال صاحب : قدر الدنيا . أجاب الرجل : ما أتفهني عندك !! .

يقول الحق : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » ومن صاحب « نؤتيه » والفاعل لهذا المعطاء ؟ إنه الحق سبحانه وتعالى الذى وصف الأجر بأنه أجر عظيم . وكان الحق يبلغنا :

- يا معشر الأمة الإيمانية التحموا بمنهج رسول الله وامتزجوا به لتكونوا معه شيئاً واحداً . وإياكم أن يكون لكم رأى منفصل عن المنهج ؛ فهو مبلغ عن الله ، فمن آمن به فليلتحم به . ولذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - ساعة

حدثوه في حكاية الإسراء والمعراج نجلده يسأل محدثه : أقال رسول الله ما قلتموه . . فيقولون : بلى ، لقد قال . فبرد عليهم الصديق : إن كان قال فقد صدق ؛ فالصديق أبوبكر لا يحتاج إلى دليل على صدق ما قال رسول الله .

ويأتى الحق بالمقابل فيقول :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ
الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَاهُ مَا تَوَلَّى
وَتُصْلِحْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١٦٥ ﴾

وكلمة « يشاقق » تدل على أن شقاً قد حدث في أمر كان ملتصقاً ، مثلما نشق قطعة الخشب فنجعلها جزئين بعد أن كانت كتلة واحدة . وأنتم أيها المؤمنون قد التحمتم بمنهج رسول الله إيماناً ، واعترفتم به رسولا ومبلغ صدق عن الله ، فليأكم أن تشرخوا هذا الالتحام . فإن جاء حكم وحاول أحد المؤمنين أن يخرج عنه ، فهذا شقاق للرسول والعباد بالله . أو المعنى ومن سلك غير الطريقة التي جاء بها الرسول بأن صار في شق وشرع الله في شق آخر .

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » نعم فقد تبين الهدى للمسلم حينما آمن بالله خالقاً ورباً . وآمن بالرسول مبلغاً وهو بذلك قد أسلم زمامه إلى الله . ولذلك قلنا : إن عمل العقل هو أن ينظر في أدلة الوجود الأعلى لله ، فإذا ما آمن الإنسان بالوجود الأعلى لله ، بقيت مرتبة ، وهي أن يؤمن الإنسان بالرسول المبلغ عن الله ، لأن قصارى ما يطلبه العقل من الدليل الإيماني على وجود الله أن وراء الإنسان ووراء الكون قوة قادرة حكيمة عالمة فيها كل صفات الكمال .

إن العقل لا يستطيع معرفة اسم هذه القوة . ولا يستطيع العقل أن يتعرف على مطلوباتها ؛ لذلك لا بد من البلاغ عن هذه القوة ، وإذا تبين للإنسان الهدى في

الوجود الأعلى وفي البلاغ عن الله فلا بد للإنسان أن يلتزم بالمنهج الذي جاء به المبلغ عن الله . ويفعل الإنسان المطلوب القوة العليا ، لأن الله قد أمر به ، ولأن رسول الله قد بلغ الأمر أو فعله أو أقره . أما إذا دخل الإنسان في محاحكات فإننا نقول له : راجع إيمانك بالله أولاً وإيمانك برسول الله ثانياً . لذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١٥٥ ﴾

(سورة النساء)

والهدى - كما نعرف - هو الطريق الموصل إلى الغاية . فكل فعل من أفعال الخلق لا بد له من هدف . ومن فعل فعلاً بلا هدف يعتبره المجتمع فاقداً للتمييز . أما إذا كان الإنسان صاحب هدف فهو يتعرف على جدية هدفه وأهميته . ويبحث له عن أقصر طريق ، هذا الطريق هو ما نسميه الهدى . ومن يعرف الطريق الموصل إلى الهدى ثم يتبع غير سبيل المؤمنين فهو يشاقق الرسول ، ولا يلتزم بمنهج الإيمان ولا يلتزم به ، ومن يشاقق إنما يرجع عن إيمانه .

وهكذا نعرف أن هناك سبيلاً وطريقاً للرسول ، ومؤمنين اتبعوا الرسول بالتحام بالمنهج ، ومن يشاقق الرسول يخالف المنهج الذي جاء به الرسول ، ويخالف المؤمنين أيضاً .

والحق هو القائل :

﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ۖ

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

فليس للحق إلا سبيل واحد . ومن يخرج عن هذا السبيل فما الذي يحدث له ؟ . ها هي ذى إجابة الحق : « نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » . وقد يأتي لفظ من المحتمل أن يكون أداة شرط ويحتمل أن يكون اسماً موصولاً مثل قولنا : مَنْ يذاكر ينجح . بالضم فيها ، و « من » هنا هي اسم موصول ، فالذي يذاكر هو مَنْ ينجح . وقد نقول : مَنْ يذاكر ينجح . بالسكون وهنا « مَنْ » شرطية .

وفي الاسم للوصول نجد الجملة تسير على ما هي ، أما إذا كانت شرطية ، فهناك الجزم الذي يقتضي سكون الفعل ، ويقتضى - أيضاً - جواباً للشرط . وهـ من : تصلح أن تكون اسماً موصولاً ، وتصلح أن تكون أداة شرط ، وتتعرف - عادة - على وضعها بما يأتي بعدها . مثال ذلك قوله الحق :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع » ونجد « يتبع » هنا عليها سكون الجزم ، وهذا يدل على أن « مَنْ » شرطية .

وتختلف القراءة لو اعتبرنا « مَنْ » اسم موصول ، لأن هذا يستدعي ترك الفعل « يشاقق » في وضعه كفعل مضارع مرفوع بالضممة ، وكذلك يكون « يتبع » فعلاً مضارعاً مرفوعاً بالضممة ، عند ذلك نقول : « نوله ما تولى ونصلبه » . ولكن إن اعتبرنا « مَنْ » أداة شرط - وهي في هذه الآية شرطية - فلا بد من جزم الفعل فنقرأها « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » . وكذلك نجزم الفعل المعطوف وهو قوله : (ويتبع) ويجزم جواب الشرط وما عطف عليه وهو قوله : (نوله) (ونصلبه) والجواب وما عطف عليه مجزومان بحذف حرف العلة وهي الياء من آخره « ويتبع » غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصلبه جهنم وسامت مصيراً . ومعنى « تولى » أى قرب ، ويقال : فلان ولي فلان ، أى صار قريباً له . ومن يتبع غير سبيل المؤمنين ، فالحق لا يريد بل ويقربه من غير المؤمنين ويكمله إلى أصحاب الكفر . وها هو ذا الحق سبحانه يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى تركته وشركه »^(١) .

فالذي يحتاج إلى الشرك هو من به زاوية من ضعف ، ويريد شريكاً ليقويه فيها . وعلى سبيل المثال - والله المثل الأعلى - لا نجد أحداً يشارك واحداً على تجارة إلا إذا كان لا يملك المال الكافي لإدارة التجارة أو لا يستطيع أن يقوم على شأنها . وسبحانه حين يعلمنا : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى تركته وشركه »^(١) .

أى أن له مطلق القوة الفاعلة التي لا تحتاج إلى معونة ، ولا تحتاج إلى شريك ، لأن الشركة أول ما تشهد فإنها تشهد ضعفاً من شريك واحتياجاً لغريب . ولذلك

(١) روله مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

فمن يشاقق الرسول في أمر إيماني فالحق يوليه مع الذى كفر ويقربه من مراده .
وسبحانه يعلم أن الإنسان لن ينتفع بالشىء المشاقق لرسول الله ، بل يكون جزاء
المشاقق لرسول الله والمتبع لغير سبيل المؤمنين أن يقربه الله ويدينه من أهل الكفر
والمعاصي ، ويلحقه بهم ويحشره في زميرتهم . ولا معنى هذا أن الله يمنع عن العبد
الرزق ، لا ، فالرزق للمؤمن والكافر ، وقد أمر الله الأسباب أن تخدم العبد إن
فعلها . ومن رحمة الله وفضله أنه لا يقبض النعمة عن مثل هذا العبد ، فالشمس
تعطيه الضوء والحرارة ، والهواء يهب عليه ، والأرض تعطيه من عناصرها الخير :
﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْمِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِهٗ

مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۝١٥﴾

(سورة الشورى)

ويقول سبحانه :

﴿ كَلَّا لِمِذَّهَبُوْلَآءَ وَهَبُوْلَآءَ مِنْ عَطَاٰ رَبِّكَ وَمَا كَانَتْ عَطَاٰ رَبِّكَ مَحْظُوْرًا ۝١٦﴾

(سورة الإسراء)

وهكذا نجد العطاء الرباني غير مقصور على المؤمنين فقط ولكنه للمؤمن والكافر ،
ولو لم يكن الله إلا هذه المسألة لكانت كافية في أن نلتحم بمنهجه ونحبه .

« ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » ولا بد أن
يكون المصير المؤدى إلى جهنم غاية في السوء . وبعد ذلك تأتى سيرة الحياة العظمى
للإيمان ، إنها قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

والحق هنا يتكلم عن إنسان لم تحدث له توبة عن الشرك فيؤمن ، لأن الإيمان يجب ما قبله أى يقطع ما كان قبله من الكفر والذنوب التي لا تتعلق بحقوق الآخرين كظلم العباد بعضهم بعضاً . ومن عظيمة الإيمان أن الإنسان حين يؤمن بالله وتخلص النية بهذا الإيمان ، وبعد ذلك جاءه قدر الله بالموت ، فقد يعطيه سبحانه نعمها يفوق من عاش مؤمناً لفترة طويلة قد يكون مرتكباً فيها لبعض السيئات فينال عقابها .

مثال ذلك : خيريق ، فحينما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد قال خيريق لليهود : ألا تنصرون محمداً والله إنكم لتعلمون أن نصرته حق عليكم فقالوا : اليوم يوم السبت فقال : لا سبت . وأخذ سيفه ومضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل حتى أثبتته الجراحة (أى لا يستطيع أن يقوم معها) فلما حضره الموت قال : أموالى إلى محمد يضعها حيث شاء . فلم يصل في حياته ركعة واحدة ومع ذلك نال مرتبة الشهيد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيريق سائق يهود وسلمان سائق فارس وبلال سائق الحبشة » .

وسبحانه يبلغنا هنا : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » والله المثل الأعلى نرى في حياتنا مجتمعاً قد تقوم فيه ثورة أو انقلاب ، ونجد قادة الثورة أو الانقلاب يرون واحداً يفعل ما شاء له فلا يقتربون منه إلى أن يتعرض للثورة بالتفرد أو يحاول أن يصنع انقلاباً ، هنا تتم محاكمته بتهمة الخيانة العظمى ، فما بالكنا بالذى يخرج عن نطاق الإيمان كلية ويشرك بالله ؟ سبحانه لا يغفر ذلك أبداً ، ولكنه يغفر ما دون ذلك ، ومن رحمة الله بالخلق أن احتفظ هو بإرادة الغفران حتى لا يصير الناس إلى ارتكاب كل المعاصي . ولكن لا بد من توبة العبد عن الذنب . ونعلم أن العبد لا يتم طرده من رحمة الله لمجرد ارتكاب الذنب . ونعلم أن هناك فرقاً بين من يأتى الذنب ويفعله ويقره وهو يعلم أنه ملتبس وأن حكم الله صحيح وصانق ، لكن نفسه ضعفت ، والذى يرد الحكم على الله . وقد نجد عبداً يريد أن يرتكب الذنب فيلتمس له وجه حل ، كقول بعضهم : إن الربا ليس حراماً . هذا هو رد الحكم على الله . أما العبد الذى يقول : إننى أعرف أن الربا حرام ولكن ظروف قاسية وضرورات ملحة . فهو عبد حاصر فقط لا يرد الحكم على الله ، ومن يرد الحكم على الله هو - والعياذ بالله - كافر .

ضل ضلالاً بعيداً . والمشرِكُ مِمَّا أَخَذَ مِنْ مَتَاعِ حَيَاتِهِ فَمَحِيَّتُهُ مَحْدُودَةٌ . فَإِنْ بَقِيََتْ لَهُ الْمَتَاعُ فَلَسَوْفَ يَتْرَكُهَا ، وَإِنْ لَمْ تَبْقَ لَهُ الْمَتَاعُ فَهُوَ يُخْرَجُ مِنْهُ . إِذَنْ ، هُوَ إِمَّا تَارِكٌ لِلْمَتَاعِ بِالْمَوْتِ ، أَوْ الْمَتَاعُ تَلَرَكَةٌ لَهُ بِحُكْمِ الْأَغْيَارِ ، فَهُوَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَقْوَتْهَا وَإِمَّا أَنْ تَقْوَتْهُ . وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ ، فَإِذَا مَا ذَهَبَ إِلَى اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ وَالْحِسَابِ ، فَلَا آخِرَةَ لَا زَمَنَ لَهَا ، وَلِذَلِكَ مَا أَطْوَلَ شِقَاؤُهُ بِجُرْمَتِهِ ، وَهَذَا ضَلَالٌ بَعِيدٌ جَدًّا . أَمَّا الَّذِي يَضِلُّ قَلِيلًا فَهُوَ يَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى رَشْدِهِ . وَمِنَ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ فِي الْوَهْمَةِ الْحَقَّ وَلَكِنَّمْ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ . وَهَنَكَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ يَنْكُرُونَ الْإِلَهِيَّةَ كُلَّهَا وَهَذَا هُوَ الْكُفْرُ . فَهَنَكَ إِذَنْ مُشْرِكٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَكِن يَجْعَلُ لَهُ شُرَكَاءَ .

ولذلك نجد أن المشركين على عهد رسول الله يقولون عن الأصنام :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

ولو قالوا : لا نذبح لهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، مثلاً ، لكان من الجائز أن يدخلوا في عبادة الله ، ولكنهم يشتون العبادة للأصنام ؛ لذلك لا مفر من دخولهم في الشرك . ويقول سيدنا إبراهيم عن الأصنام :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٧٥ ﴾

(سورة الشعراء)

إنه يضع الاستثناء ليعدد بوضوح قاطع ويقول لقومه :

إن ما تعبدهم من الأصنام ، كلهم عدوئي ، إلا رب العالمين . كأن قوم إبراهيم كانوا يؤمنون بالله ولكن وضعوا معه بعض الشركاء . ولذلك قال إبراهيم عليه السلام عن الله :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٦ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٧ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن الشرك ليس فقط إنكار الوجود لله بل قد يكون إشراكاً لغير الله مع الله . ولئن من يعبدونه ويدعونه في مصائبهم :

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِىَ إِنْ أُنْشِئُوا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا مَشِيطَانًا مُرِيدًا﴾

وه « إن » هنا بمعنى ما ، ف « إن » مرة تكون شرطية ، ومرة تكون نافية . مثل قوله
في موقع آخر :

﴿إِنْ أُمِّتُّهُمْ إِلَّا الْكُفْرُ وَلَدَنَّهُمْ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

أى إن الحق يقول : « إن أمهاتهم إلا الكفرة ولدنهم » . وكذلك « إن » في قوله :
« إن يدعون من دونه إلا إنثاء » ، وكان العرب ينسبون إلى المرأة كل ما هو هين
وضيف ولذلك قال الحق :

﴿أَوْ مَنْ يَنْشُرُوا فِي الْحَلْبَةِ وَهُمْ فِي الْخَصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾

(سورة الزخرف)

فالإنثاء في عرف العرب لا تستطيع النصر أو الدفاع ، ولذلك يقول الشاعر :

وما أدرى ولست أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

والقوم هنا مقصود بهم الرجال لأنهم يقومون لمواجهة المشكلات فلماذا تدعون مع
الله إنثاء ؟ . هل تفعلون ذلك لأنها ضعيفة ، أو لأنكم تقولون : إن الملائكة بنات
الله ؟ . وكانوا يعبدون الملائكة . وعندما تريدون القسمة لماذا تجعلون لله البنات ؟ .
على الرغم من أنه سبحانه خلق البنين والبنات .

ولذلك قال الحق :

﴿تِلْكَ إِذْ أَوَسَّاهُ ضَيْرَى﴾

(سورة النجم)

أى قسمة جائرة لم يراع فيها العدل .

وعندما ننظر إلى الأصنام كلها نجد أن أسماءها أسماء مؤنثة :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝ ﴾

(سورة النجم)

وكذلك كان هناك صنم اسمه « إساف » و « نائلة » ، فهل هذه الأصنام إناث ؟ وكيف تدعون النساء والنساء لا ينصرن ولا يتفعلن ؟ . وهل ما تعبدون من دون الله أصنام بأسماء إناث ، أو هي نساء ، أو هي ملائكة ؟

والحق يقول : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » والأسلوب هنا أسلوب قطع . أى ما يدعون إلا إناثاً ، تماماً مثلما نقول « ما أكرم إلا زيداً » وهذا نفى الإكرام لغير زيد ، وإثبات للإكرام لزيد . فساعة يقول الحق : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » فغير الإناث لا يدعونهم ، ولذلك يعطف عليها الحق : « وإن يدعون إلا شيطاناتاً مريداً » .

واستخدم الحق في صدر الآية أسلوب القصر ، وأسلوب القصر معناه أن يقصر الفعل على المقصور عليه لا يتعداه إلى غيره ؛ فهم يعبدون الإناث ، هذا قصر أول ، ثم قصر ثانٍ هو قوله الحق : « وإن يدعون إلا شيطاناتاً مريداً » .

وكان خدام الأصنام يدعون أن في جوف كل صنم شيئاً يتكلم إليهم ؛ لذلك كان لابد أن يكون في جوف كل صنم شيطان يكلمهم . . وكان ذلك لونا من الخداع ، فالشياطين ليست جنّاً فقط ولكن من الإنس أيضاً .

فهناك سدنة وخدم يقومون على خدمة الآلهة ويريدون أن يجعلوا للآلهة سلطاناً ونفوذاً حتى يأتي الخبير للآلهة كالقرايين والنذور ويسعد السدنة بذلك ؛ لذلك كانوا يستأجرون واحداً له صوت أجش يتكلم من وراء الصنم ويقول : اذهبوا لى كذا . أو هاتوا لى كذا . تماماً كما يحدث من الدجالين حتى يشبوا لأنفسهم سلطاناً . وهكذا كان الذى يتكلم في جوف هذه الأصنام إما شيطان من الجن ، وإما شيطان من الإنس . والشيطان من « الشطن » وهو « البعد » .

ووصف الشيطان بأنه يريد يتطلب منا أن نعرف أن هناك كلمة « مارد » وكلمة

« مرید » . وكل الأمور التي تغيب عن الحس مأخوذة من الأمور الحسية . وعندما نمسك مادة « الميم والراء والذال » نجد كلمات مثل « أمرد » و « امرأة مرداء » و « شجرة مرداء » ، و « صرح ممرد » .

إن المادة كلها تدور حول الملمس الأملس . فأمرد تعني أملس ؛ أي أن منابت الشعر فيه ناعمة . وصرح ممرد كصرح بلقيس أي صرح مصقول صقلاً ناعماً للدرجة أنها اشتبهت في أنه ماء ، ولذلك كشفت عن ساقها خوفاً أن يتل ثوبها . والشجرة المرداء هي التي لا يمكن الصعود عليها من فرط نعومة ساقها تماماً كالنخلة فإنه لا تبقى عليها الفروع ، ولذلك يدقون في ساق هذه النخلة بعض المسامير الكبيرة حتى يصعدوا عليها .

والشيطان المريد هو المتمرد الذي لا تستطيع الإمساك به . إذن . فـ « مارء » و « مرید » و « ممرد » و « مرداء » و « أمرد » ، كلها من نعومة الملمس . « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » .

وعندما يحاول العصاة الإمساك بالشيطان في الآخرة يقول لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وهو بذلك يتملص من الذين اتبعوه ؛ لأنه لم يكن يملك قوة إقناع أو قوة قهر ، فقط نادى بعضاً من الخلق فزاغت أبصارهم واتبعوه من فرط خيالهم . والشيطان موصوف بأن الله طرده من رحمته . فالخلق يقول :

﴿ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالَّذِينَ لَا يَخِذْنَ مِنْ عِبَادِكِ

فَصِيْبًا مَفْرُوضًا ﴾

لماذا هذا اللعن ؟ لقد أذنب الشيطان وعصى الله . وآدم أذنب أيضاً وعصى الله .

فلماذا لعن الله الشيطان ، ولماذا عفا الله عن آدم ؟ نجد الإجابة في القرآن :

﴿ قُلْنَا ۖ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ ۖ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ ٣٧ ﴾

(سورة البقرة)

ونعرف بهذا القول : أن هناك فرقاً بين أن يرد المخلوق على الله حكماً ، وفعل المعصية للغفلة .

فحين أمر الحق إبليس بالسجود لآدم قال إبليس :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وهذا رد للحكم على الله ، ويختلف هذا القول عن قول آدم وحواء ، قالا :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

وهكذا نجد أن آدم قد اعترف بحكم الله واعترف بأنه لم يقدر على نفسه . ولذلك فليحذر كل واحد أن يأخذ إلى ما حرم الله ويقول : لا ، ليس هذا الأمر حراماً لكن إن كان لا يقدر على نفسه فليعترف ويقول : إن ما حرم الله حرام . لكني غير قادر على نفسي . وبذلك يستبعد الكفر عن نفسه ، ويكون حاصياً فقط ولعل التوبة أو الاستغفار يذهبان عنه سيئات فعله . أما من يحمل ما حرم الله فهو يصر على الكفر ، وطمس الله على بصيرته نتيجة لذلك .

وسبحانه وتعالى يصف الشيطان بقوله - سبحانه - : « لعنه الله » أي طرده من رحمته . وليتفطن ابن آدم لحبائل الشيطان وليحذره ، لأنه مطرود من رحمة الله .

ولو أن سيدنا آدم أحمل فكره لفند قول الشيطان وكيده ، فلك أن كيد الشيطان ضعيف . ولكن آدم عليه السلام لم يتصور أن هناك من يقسم بالله كذباً . فقد أقسم الشيطان :

﴿ وَقَامَهُمَا إِنِّي لَكَا لِمَنَ النَّاصِحِينَ ۝ ٣٨ ﴾

(سورة الأعراف)

وكانت غفلة آدم - عليه السلام - لأمر أراده الله وهو أن يكون آدم خليفة في هذه الدنيا ؛ لذلك كان من السهل أن يوسوس الشيطان لآدم ولزوجه :

﴿ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٥﴾

(سورة الاعراف)

وأغوى الشيطان آدم وحواء بأن الله قد نهاهما عن الأكل من تلك الشجرة حتى لا يكونا ملكين ، وحتى لا يستمررا في الخلود . ولو أن آدم أحمل فكره في المسألة لقال للشيطان : كل أنت من الشجرة لتكون ملكاً وتكون من الخالدين ، فانت أيها الشيطان الذي قلت بخوف شديد :

﴿ رَبِّ فَلْيَنْظُرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الحجر)

والحق يريد لنا أن نتعلم من غفلة آدم ؛ لذلك لا بد للمؤمن أن يكون بيقظاً .

فسبحانه يقول عن الشيطان : « لعنة الله وقال لا تخلدن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

والقرآن الكريم حين يعالج قضية ما فهذه القضية تحتاج إلى تدبر . ونلاحظ أن إبليس قد تكلم بذلك ولم يكن موجوداً من البشر إلا آدم وحواء ، فكيف علم ما يكون في المستقبل من أنه سيكون له أتباع من البشر ؟ وكيف قال : « لا تخلدن من عبادك نصيباً مفروضاً » ؟

لقد عرف أنه مادام قد قدر على أبيهم آدم وأمههم حواء فسوف يقدر على أولادهما ويأخذ بعضاً من هؤلاء الأولاد إلى جانيه ، قال ذلك ظناً من واقع أنه قدر على آدم وعلى حواء . والذين اتبعوا إبليس من البشر صلبوا إبليس في ظنه . وكان هذا الظن ساحة قال : « لا تخلدن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

وأخذ إبليس هذا الظن لأنه قدر على آدم وحواء مع أن آدم وحواء قد أخذوا

التكليف من الله مباشرة ، فما بالك بالأولاد الذين لم يأخذوا التكليف مباشرة بل عن طريق الرسل . إذن كان ظن إبليس مبنياً على الدليل فالظن - كما نعلم - هو نسبة راجحة وغير متيقنة ، ويقابلها الوهم وهو نسبة مرجوحة :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة مباء)

ولذلك قال إبليس أيضاً :

﴿ لَنْ أَنتَرَنَّ إِيَّاكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لِأَخْتَنُكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الإسراء)

وقال كذلك :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٧﴾

(سورة ص)

لماذا إبليس قد قال : « لا تخلدن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

فهذا اعتراف بأنه لن يستطيع أن يأخذ كل أولاد آدم . والفرض - كما نعلم - هو القطع . ويقال عن الشيء المفروض : إنه المقطوع الذي لا كلام فيه أبداً .

وما وسيلة إبليس - إذن - لأخذ نصيب مفروض من بني آدم ؟

ويوضح الحق لنا وسائل إبليس ، على لسان إبليس :

﴿ وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا أُمْنِيَّتَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ
ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيُخَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ

وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾

في هذه الآية تفصيل لطرق أخذ إبليس لتصيب مفروض من بني آدم . فإبليس هو القاتل كما يحكى القرآن :

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

وعرفنا من قبل أنه لن يقعد إلا على الطريق الطيب ؛ لأن طريق من اختار السلوك السيئ لا يحتاج إلى شيطان ؛ لأنه هو نفسه شيطان ؛ لذلك لا يذهب إبليس إلى الحمارة ، ولكنه يقف على باب المسجد ليرى الناس وهي تفعل الخير فيوسوس لهم ، وفي هذا إجابة لمن يقولون : إن الوسواس تأتي لحظة الصلاة . والصلاة - كما نعلم - هي أشرف موقف للعبد ؛ لأنه يقف بين يدي الرب ؛ لذلك يحاول الشيطان أن يلهي الإنسان عنها حتى يجبس عنه الثواب . وهذه الوسواس ظاهرة صحية في الإيمان ، ولكنها تحتاج إلى اليقظة ، فساعة ينزع الشيطان الإنسان نزعة فليتذكر قول الحق :

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة الأعراف)

وعندما نستعذ بالله فوراً يعرف الشيطان أنك متبته له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن في أثناء الصلاة ووسوس لك الشيطان ، اقطع القراءة واستعذ بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة ، وحين يعرف الشيطان أنك متبته له مرة واثنين وثلاثاً فهو يعتمد عليك فلا يأتي لك من بعد ذلك إلا إذا أحس منك غفلة .

وبين لنا الحق طريقة الشيطان في أخذ النصيب المفروض من عباد الله فقال عن إبليس : « ولا أضلهم » . والإضلال معناه أن يسلك الشيطان بالإنسان سبيلاً غير مؤدٍ للغاية الحميدة ؛ لأنه حين يسلك الشخص أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية المنصوية ، فمعنى ذلك أنه اهتدى ، أما إذا ذهب بعيداً عن الغاية ، فهذا هو

الضلال . والحق سبحانه وتعالى بوضعه منهج الهداية أعطانا أقصر طريق مستقيم إلى الغاية ، فإذا ما انحرفنا هنا أو هناك ، فالانحراف في البداية يتسع حتى ننتهي إلى غير غاية .

وضربنا قديماً هذا المثل وقلنا : إن هناك نقطة في منتصف كل دائرة تسمى مركز الدائرة ، فإذا ما انحرف المتجه إليها بنسبة واحد على الألف من المليمتر فتتسع مسافة ابتعاده عنها كلما سار على نسبة الانحراف نفسها ، برغم أنه يفترض في أن كل خطوة بخطوها تهيء له القرب إلى الغاية .

لقد ضربنا مثلاً توضيحياً بـ «الكشك» الذي يوجد قبل محطات السكك الحديدية ، حيث ينظم عامل «الكشك» اتجاهات القطارات على القضبان المختلفة ويتيح لكل قطار أن يتوقف عند رصيف معين حتى لا تتصادم القطارات ، ومن أجل إنجاح تلك المهمة نجد عامل التحويلات في هذا «الكشك» يحرك قضيباً يكون سمكه في بعض الأحيان عدداً من المليمترات ، ليلتصق هذا القضيب بقضيب آخر وبذلك يسمح لعجلات القطار أن تنقل من قضيب إلى آخر .

الضلال - إذن - أن يسلك الإنسان سبيلاً غير موصل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوة في هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد ، والإضلال من الشيطان يكون بتزيينه الشر والقبح للإنسان ليبعده عن مسالك الخير والفضيلة .

ومن بعد ذلك يأتي على لسان الشيطان ما قاله الحق في هذه الآية : «ولأنهم ، والأمانى هي أن ينصب الإنسان في خياله شيئاً يستمتع به من غير أن يخطو له خطوة عمل تقربه من ذلك ، ومثال ذلك الإنسان الذي نراه جالساً ويمنى نفسه قائلاً : سيكون عندي كذا .. وكذا وكذا ولا يتقدم خطوة واحدة لتحقيق ذلك .

ولذلك يقول الشاعر تسلية لنفسه :

مُنَى .. إن تكن حقاً .. تكن أحسن المنى

والا فقد عشنا بها زمناً رغداً

أى أنه استمتع بهذه الأمانى فى أحلام اليقظة سواء أكانت هذه الأحلام امتلاك قصر أم سيارة أم غير ذلك . وكل أمنية لا تحفز الإنسان إلى عمل يقربه منها هى أمنية كاذبة ، ولذلك يقال : « إن الأمانى بضاعة الحمقى » والشيطان يبنى الإنسان بأنه لا يوجد بعث ولا جزاء .

ومن بعد ذلك يقول الشيطان : « ولأمرنهم فليبتكن أذان الأنعام » والبك هو : القطع . والأنعام : هي الإبل والبقر والغنم ، أى قطع أذان الأنعام . والقرآن قال فى الأنعام :

﴿ تَحْسِبُهُ أَرْوَاحٌ مِّنَ النَّفْسِ الْفَاسِقِ وَمِنَ الْمَعْرِائِيِّ قُلْ ؕ أَلَا تَدْرِكُونَ حَرَّمَ أُمَّ الْأَنْثِيِّ
أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثِيِّ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ
اَثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ؕ أَلَا تَدْرِكُونَ حَرَّمَ أُمَّ الْأَنْثِيِّ أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْأَنْثِيِّ ﴾

(الآية ١٤٣ وجزء من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

لو كان الزوج يطلق على « الاثنين » لكان العدد أربعة فقط ، ويعلمنا التعبير القرآني ويوضح لنا أن تفرق جيداً لفهم أن معنى كلمة « زوج » ليس أبداً « اثنين » ، ولكن معناها : واحد معه غيره من نوعه أو جنسه . فيقال عن فردة الحذاء « زوج » لأن معها فردة أخرى ، ومثال آخر أيضاً : كلمة « توأم » التي نظن أنها تعني « اثنين » ، لكن المعنى الحقيقي أن التوأم هو واحد له توأم آخر ، فإذا ما أردنا التعبير عن الاثنين قلنا : « توأمان » .

وحين أورد من خطط الشيطان « ولأمرهم فليتكن آذان الأنعام » فلهذا قصة . ونحن نعرف أن المتفعين بالضلالات يصنعون لهم سلطة زمنية حتى يربطوا الناس بأشخاصهم هم . وكان المشرفون على الأصنام يقومون على خدمتها ، ولم يلاحظ أحد أنه من الغباء تقبل فكرة أن يخدم البشر الآلهة ، فالإله هو القوم على خلقه يرعاهم ويقوم بأسبابهم ، وكان هؤلاء الناس هم المتفعين بخيبة الغفلة عند البشر ، وكانوا يعيشون سدة ليأخذوا الخير ، وبطبيعة الحال فالشيطان من البشر أو الجن يجدها

وسيلة ، فيجلس في جوف الصنم ويتكلم فيأخذ السدنة والخدم هذه المسألة لترويج الدعايات للصنم ، فيأتى الأغبياء له بالأنعام من الإبل والبقر والغنم فيذبحونها ويأكلونها . ولذلك كان السدنة دائماً وفي أغلب الحالات أهل سمعة لأنهم أهل بطنة ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الله ينفخ الخبَر السمين) (١) .

فمثل هذا الخبَر يستسهل أكل خير الناس والانتفاع به ، فهو ينتفع بضلالات الناس ، ومن يتفع بالضلالة يرى أن حظه في أن تستمر الضلالة ، مثله في ذلك مثل المتفع من تجارة المخدرات إنه يتمنى أن يتعاطى الناس جميعهم المخدرات .. وعندما تقوم حالات لمقاومة المخدرات بغضب ويحزن .

ومثل ذلك أيضاً تاجر السوق السوداء الذى يصيبه الغم عندما تأتى البضائع على قدر حاجات الناس وتكفيهم . فكل فساد مستر وراءه أناس ينتفعون به . وعندما يرى المتفع بالفساد هبة إصلاح بغضب ويحاول أن يجد وسيلة لاستمرار الفساد ، ولهذا كان السدنة ينفخون في الأصنام لتصدر أصواتاً لطلبوا من وراء ذلك مطالب من الأغبياء المصدقين لهم . مثلهم مثل الدجالين الذين نسمع عنهم حيث يقول الواحد منهم لأهل المريض : إن على المريض عقرتاً ، والعقرت يطلب ناقة أو ذبيحة أو دما .

هكذا كان يفعل السدنة ، ويحاولون بشق الطرق من الحيل والخدع حتى يأخذوا من الغافلين السذج الإبل والبقر والغنم . وعندما يقطع صاحب الإبل أو البقر أو الغنم أذن أى واحدة منها ، فهذا يعنى أنها منقورة للأصنام ، والأصنام بطبيعتها لا تأكل ولكن السدنة يأكلون .

وفي آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَزَلَّ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

(١) أخرجه المرواحلى في أسباب النزول ، وعند أبي نعيم في الطب النبوى ومراه أبو الليث السمرقندى في مستانه لأبى لملة الباهل مرفوعاً .

ويورد الحق أيضاً في هذا الأمر :

﴿ تَمْنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ مِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكَرْبِن حَرَمِ أُمِ الْاُنْثِيَيْنِ
أَمَّا اَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ اَرْحَامُ الْاُنْثِيَيْنِ نَبِّعُونِي بِعِلْمٍ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١﴾ وَمِنَ الْاِبِلِ
اِثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اِثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدُكَرْبِن حَرَمِ أُمِ الْاُنْثِيَيْنِ أَمَّا اَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ اَرْحَامُ
الْاُنْثِيَيْنِ اَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ اِذْ وَصَّيْكُمُ اللهُ بِهَذَا قُلْ اَنْظُرْ اَمْ اَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا
لَيُبْذِلَ النَّاسُ بِغَيْرِ عِلْمٍ اِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الانعام)

فهو المحرم هو الذكران ، أو الأنثيان أو الذي اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ .

لا شيء من هذه كلها محرم ، فقد خلقها الله كلها رزقاً حلالاً . والنعمة نفسها تعرف وظيقتها ، ونلاحظ في الريف المصري عندما تُحْتَقَق جاموسة أو بقرة أو خروف بالحبل . أو يصاب بأذى أو مرض فإنه ينام ومد عنقه فيقال : « لقد طلب الحلال » ، كأن البهيمة تقول لصاحبها : الحقني بالذبيح لتستفيد من لحمي وتنمجب لأن الحمار مثلاً لا يفعل ذلك ، لأن لحمه غير محلل . لكن البهيمة تعرف فائدتها بالنسبة للإنسان فتمد رقبتها طالبة الذبيح ، كما نعرف أنها في أثناء حياتها تخدم الإنسان إما في أن تحمل الأثقال ، وإما أن يأخذ منها الألبان أو الوبر أو الصوف أو الشعر ، ولحظة ما يدهمها ويغشاها ويصيبها خطر فهي تمد رقبتها كأنها تطلب الذبيح ليستفيد الإنسان من لحمها . فهي مسخرة للإنسان وتعرف ذلك إلهاماً وتسخييراً .

ومادام الله قد جعل لنا كل هذا . . فلم نقبل تحريم غير المحرم وتحمل غير الحلال ؟ لكن السدنة كانوا يفعلون الأعاجيب للسيطرة على الناس ، فإذا ما ولدت الناقة أربعة أبطن وجاءت بالمولود الخامس ذكراً يقول السدنة : يكفي أنها جاءت بأربعة بطون وأنت بالخامس فعلاً ذكراً ويشقون لذن الناقة ويتركونها ، وعندما يراها أحد ويمجد أذننا مشقوقة فالعرف يقضى بالآلا تستخدم في أي شيء ، لا في الرضاعة ، ولا في الحمل ولا يجلب لبنها ولا تمنع من المياه أو الكلاً وتسمى

« البحيرة » ويأخذها السدنة في أى وقت ؛ لأنهم لا يريدون تخزين اللحوم ، يريدونها حية ليذبحوها في الوقت الذى يترأى لهم ، ولذلك قال الحق :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

والبحيرة - إذن - هى الناقة التى تبهر أذاتها - أى تشق - فذلك يعنى أنها جاءت بأربعة أبطن تباعاً ثم جاءت بالذكر فى البطن الخامسة ويبها صاحبها للأصنام . والبحيرة سائبة مع وجود سائبة أخرى ، وهى وإن لم تأت بأربعة أبطن ولا بالذكر فى البطن الخامسة ولكن صاحبها يقدمها نلراً أو هدية لأحد الأصنام . وتسمى « سائبة » لأن أحداً لا يقوم على شأنها ، ولكنها ترعى فى أى أرض وتشرب من أى ماء ولا أحد يأخذ من لبنها أو يركبها ، ويأخذها السدنة وقت احتياجهم للحم الطازج الغضى . وإذا ولدت الشاة أنثى جعلوها لهم ، وإن ولدت ذكراً جعلوه لأهنتهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى لم يذبحوا الذكر لأهنتهم وقالوا عن الشاة : وصلت أخاها فهذه هى الوصيلة ؛ لأن الناس كانت تحتفظ بالإناث من البهائم فهى وعاء النسل ؛ لذلك فهبة الفحل للسدنة كان أمراً مقدوراً عليه . ويقول الشاعر :

ولما أمهات القوم أوعية مستحدثات وللأحساب آباء

ونرى فى المزارع أن إناث المواشى تحتاج إلى فحل واحد ؛ وقد يكون فى البلدة كلها فحل واحد أو اثنان لإناث الماشية من النوع نفسه ، ويفرح الأطفال فى الريف حين تلد الماشية ذكراً ؛ لأنه سيتغذى قليلاً ثم يتم ذبحه ويأكلون منه . ويغضب الأطفال حين تلد الماشية أنثى لأنه سيتم تربيتها ، ولن يأكلوا منها .

أى أنهم قديماً عندما كانت الماشية تلد فى بطن واحد أنثى وذكراً لا يذبحون الذكر ويقولون : الأنثى وصلت أخاها ويضمن الذكر حياته ويستخدم كفحل ليلقح بقية الإناث ، ويقال عنها : الوصيلة .

هكذا نجد البحيرة هى الناقة التى أنجبت خمسة أبطن آخرها ذكر ، والسائبة وهى النذر من أول الأمر ، والوصيلة وهى التى ولدت أنثى ومعها ذكر ، فيقال وصلت الأنثى أخاها ، أى قدمت له الحماية . والحام هو الذكر الذى نتجت من صلبه عشرة

أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى وقالوا : سمى ظهره .

وهناك من يتحدث في عصرنا قائلاً : أنا نياق ، لا أكل اللحم ، على الرغم من أن الواحد منهم قد يذبح إنساناً ويدهى الحزن عند ذبح دجاجة ، ونقول هؤلاء : انتبهوا ، إن الله قد سخر لنا هذه الأنعام وهي نفسها تحب أن ينتفع بها .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق : « ولامرهم فليبتكن آذان الأنعام » وعرفنا أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل إرضاء سدنة الأصنام ، هؤلاء السدنة الذين أحبوا أن تظل هذه الأصنام وهذه الأنعام المرصودة من أجلها . ولذلك أقول دائماً : آه من أن يرتبط رجل دين بمسائل دنيا ، فهذا مصدر للخوف من أن يزيغ الدين لمصلحة الأهواء .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق على لسان الشيطان : « ولامرهم فليغيرون خلق الله » . وكشف لنا الحق كيف صار للشيطان أمر على هؤلاء الناس ، مع أن الأمر يجب أن يكون لله وحده ، ونسأل : كيف يغيرون من خلق الله ؟ وكل شيء هو من خلق الله .

والخلق - كما نعلم - إجماع من علم ، وسبحانه خلق كل شيء وجعل لكل كائناً وظيفة ما ، فهو خلق عن حكمة لغاية ، وهذه الغاية موجودة في علم الخالق أولاً - والله المثل الأعلى - نجد المستحدث الصناعي في الأسواق كفسالة الملابس مثلاً ونعرف أن الذي صممها إنما صممها من أجل راحة الناس ، وقد فكر في هذا الهدف قبل أن يصنع ويصمم الآلة التي تؤدي هذا العمل لتريح الناس من تعب غسل الملابس بأيديهم ، وكذلك من صمم « الميكرفون » أراد في البداية هدفاً هو أن يصل الصوت لمن هو بعيد ، ثم بدأ البحوث والتطبيقات من أجل أن يصل إلى الغاية والقصد .

والحق سبحانه وتعالى خلق كل خلق من خلقه لغاية ، فإن استعملنا مخلوقه لغايته ، فلن نقع في محذور تغيير خلق الله ، ولكن لو استعملنا المخلوق لغير الغاية فهذا هو التغيير لخلق الله ، وساعة نريد فهم لفظ من الألفاظ فلنبحث في القرآن عن

نظائره ، وقد نجد في القرآن نفسه ما يفسر القرآن نفسه ، فالحق يقول هنا :
« فليغيرن خلق الله » ، وفي موقع آخر يقول :

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق المعروف نراه في الكائنات ، وهناك ما لا نراه أيضاً ، والأمر مقصود به
قوله الحق :

﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة يس)

وآية أخرى تقربنا أكثر من هذا الموضوع :

﴿ فَطَرَتْ اللَّهُ أَلَنِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الروم)

وهذا يعني أن الخلق كله على أصل الفطرة . فإذا ما حاول أحد أن يغير الفطرة
فهذا تغيير لخلق الله . ما الفطرة إذن ؟ . إنها الصفاء الأولى في النفس والطبيعة .
ومثال ذلك حين يوجد الإنسان في بيئة لا تكذب فلن يعرف في حياته الكذب .
وعندما يوجد الإنسان في بيئة لا تسرق فلن يعرف ما السرقة ؛ فالإنسان إنما يتعرف
على الموبقات من النقص المجتمعي ، بدليل أن البلدان التي طبقت الشريعة
الإسلامية وتم قطع عدد قليل من الأيدي عقوبة وحداً في السرقة انتهت فيها
السرقة . ونشأ جيل لم ير سارقاً . ومن يترك شيئاً في مكان ما يظل في مكانه إلى أن
يعود صاحبه ليجمده ، هذه هي الفطرة السليمة ، ودليلنا على أن الفطرة سليمة
بطبيعتها هو أننا نجد أن الذي يحاول صنع أمر ما يخالف الفطرة إنما يتلصص
ويستتر ؛ لأنه يعرف أن هذا الأمر غير سليم .

لقد ضربت المثل على ذلك بالرجل حين ينظر إلى زوجته ، إنه ينظر بكل ملكاته ؛
أما إن نظر - والعياذ بالله - إلى عارم غيره فهو يتلصص ليختلس النظر بعيداً عن
الآخرين . فالإنسان حين يرتكب إثماً يتكلف شيئاً متافراً ومغايراً لطبيعته .
والتكلف هو الإتيان بشيء خارج عن الفطرة الإنسانية . وتغيير كل ما يتعلق بالفطرة
هو تغيير لخلق الله .

وصور الفساد لا تاتي إلا من هذه الناحية .

كيف ؟

إننا نرى الحق قد خلق الزوجين الذكر والأنثى . ونجد من الرجال من يستأنث - أى أنه يحاول أن يكون أنثى - وقد يتصرف كما تسلك المرأة وتتصرف ويتزين بزينتها ويتخنث . هذا إنسان يريد أن يغير خلق الله . وكذلك قد نجد امرأة تريد أن تسترجل ، فهي تريد أن تغير خلق الله .

ولذلك فإننا نرى استاذاً عالماً هو الدكتور حسن جاد - أمده الله بالعافية - وهو شاعر وزميل لى ونشأنا معاً ، رأى هذه الظاهرة ، ظاهرة محاولة البعض تغيير خلق الله فقال قصيدة مشهورة جاء فيها :

من حيرت من الذين اللاتين - حيرت بين الفتي وبين الفتاة

الشاعر يعلن حيرته ، لأنه لا يتعرف على الفارق بين الفتي والفتاة ، ففي بعض الأحيان صاروا من « الذين واللات معاً » لأن الفتي يتشبه بالفتاة ، والفتاة تشبه بالفتى . على الرغم من احتفاظ كل منهما بخصائص نوعه ، وبما يميزه عن النوع الآخر . وبعض النساء يقمن بإجراءات لتغيير الخلقة ، كنزع شعر الجواجب من منابته وإعادة رسم مكانه بوضع خط بالقلم الملون ، ويفضح ذلك نبت الشعر من جديد . فتتحول إلى شكل قبيح وتنسى أن الجمال إبداع تقاسيم ، فقد يكون سرّ جمال واحدة أن يكون شعر الحاجبين كثيفاً ، وقد يكون سرّ الجمال للمرأة اتساع القم ، أو طول الأنف .

لقد سمعنا أن أنف كليوباترا لو كان قصيراً بعض الشيء لتغير وجه التاريخ . والحق سبحانه وتعالى كما وزع الأمزجة على العباد وزع أيضاً أسلوب الخلق بما يغطي هذه الأمزجة . ألا ترى في الحياة اليومية شاباً يتقدم لخطبة فتاة فلا تعجبه ، أو لا يعجبها ، ويأتي آخر فيعجب بالفتاة نفسها وتعجب الفتاة به . هو سبحانه الذى أنشأ السيال العاطفى ليتواءم الخلق بهذا السيال . وقد نحاول فتاة أن تغير من خلق الله فتسبب بذلك فساداً للسيال العاطفى .

وقد تريد المرأة أن تجعل حمرة خديها فى لون الورد فتضع عليها بعضاً من

المساحيق ، ألا تعلم هذه المرأة أن زوجها وأقاربها يعرفون أنها قد صنعت ذلك بمواد خارجية ، وماذا يكون موقفها عندما يراها زوجها في الصباح وقد أفسدت الألوان بشرتها ، وماذا يكون موقفها عندما تتقدم بها السن وتكون المساحيق قد خففت مسام جلدتها ومنعت الجلد من التنفس ، ويتحول شكلها باستمرار سوء فعلها إلى كائن أقرب إلى وجه القرد والعياذ بالله ؟ لقد غيرت بسوء الفعل خلق الله .

وكذلك الأظافر التي يتم خنقها بطبقات من « البلاستيك » الملون . هل تظن واحدة أن هناك رجلاً قد يتصور أن هذا هو لون أظافرها الطبيعي ؟ . إن الأظافر ذات لون أراحه الله بحكمه ، لها نظام ، فلماذا تحرم المرأة أظافرها من الحياة الطبيعية ومن نعمة تنفس الهواء ، فالأظافر تنفس أيضاً . وقد يفنى واحد بأنه يصح للمرأة أن تتوضأ بعد أن تضع هذا الطلاء ، وأقول : اتق الله ، فهذه ليست أصابعاً ، لأن الأصابع تتخلل الجلد أو الظفر ولا يذهب لون الصبغة إلا بذهاب الجلد أو الظفر - مثل الحنة - وفي هذه الحالة يصل الماء في الظهارة إلى الجلد ، أما طبقة البلاستيك التي على الظفر فلا تزال إلا بمادة كيميائية ويمكن إزالتها وهي لون من الطلاء وليست صبغة ولا يصل الماء معها في الغسل أو الوضوء إلى البشرة .

ومن تفعل ذلك إنما تخدع نفسها ومن يُعجب بها . ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعدل من مزاج الكون فيعطى للإنسان سكتاً ومتعة ولكن بتوازن عاطفى وعقلى ، فلو أراد الله لخذ المرأة التوهج لشير غرائز الرجل لخلق الله الخدين على هذا الأسلوب ، لكنه أراد للمخدود أن تكون بألوانها الطبيعية حتى تهيج الغرائز على قدر القوة التي في الرجل ، وعندما تكبر المرأة نجد جمالها قد ذبل قليلاً على قدر نسبة ذبول قدرة الرجل ، ف سبحانه يعطى على قدر الطاقة حتى لا تتحول المسألة إلى إهاجة للغرائز فقط .

إن هناك فرقاً بين تصريف الغرائز وإهاجة الغرائز وإلهابها ، وما يحدث من وسائل التجميل هو تغيير لخلق الله . وكذلك المرأة التي تحدث وشياً^(١) ، أو الرجل الذى يفعل ذلك إنما يغيران من خلق الله ، ولو كان الحق يرى أن مثل هذه الأعمال تزيد من الجمال لفعلها « فليغيرن خلق الله » .

(١) الوشم : ما يكون من غرز الإبرة في البدن ، وفرد وتر مادة عليه تستخرج من نبات النيل تسمى : « النبلج » حتى يزول أثره أو يخضر .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً » والولى للشيطان هو الذى يليه ويقرب منه . ومن فعل ذلك فقد ترك الأفضل وذهب إلى الأضعف الذى يورده مهاوى وموارد الهلاك ، ويخسر الخسران الواضح والمحيط من كل الجهات ، ولا انفلات من مثل هذا الخسران .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾

وهذا يعنى أن الشيطان يقدم الوعود الكاذبة لمواليه ويخبرهم بشيء يسرهم ، فالوعد هو أن يخبر أحد آخر بشيء يسره أن يوجد .

والمثال على ذلك نراه فى الحياة العادية فالإنسان منا يحب ماله الذى قد جاء بالتعب ، والصدقة فى ظاهر الأمر تنقص المال ، فيقول الحق :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُّكَ الْفَقْرَ ﴾

(من الآية ٢٦٨ سورة البقرة)

لماذا ؟

لأن الشيطان يوسوس فى صدر صاحب المال قائلاً : إنك عندما تتصدق ببعض المال فمالك ينقص . وويل لمن يرضخ لوساوس الشيطان ، لأنه يورده موارد التهلكة ، والشيطان أيضاً يقدم الأمان الكاذبة فى الوسواس : « ويمنيهم » . ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاجر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ بالله :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٤٦﴾

(سورة الكهف)

المتفاخر يقول : مادام الله قد أعطاني في الدنيا ، ومادامت مهمة الله هي العطاء الدائم فلا بد أن يعطيني ربي في الآخرة أضعاف ما في الدنيا ؛ ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد في الآخرة ، فماذا كان جزاؤه ؟ .

لقد رأى انهيار زراعته وعرف سوء مصير الغرور ؛ لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً « وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » .

فما هو الغرور ؟ . هناك « غرور » - بضم الغين - ، و« غرور » - بفتح الغين - . والغرور - بضم الغين - هو الشيء يُصَوَّر لك على أنه حقيقة وهو في الواقع وهم . والغرور - بفتح الغين - هو من يفعل هذه العملية ، ولذلك فالغرور - بفتح الغين - هو الشيطان ؛ لأنه يزين للإنسان الأمر الوهمي ، ويؤثر مثلما يؤثر السراب ؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يخيل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك :

﴿ كَسْرَابٍ رَاقِعَةٍ يَحْسَبُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وكذلك الغرور ، حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان ويوهمه أنه سيستمتع به . فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يفصل لنا الحق أعمال الكفار فيقول عنها :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسْرَابٍ رَاقِعَةٍ يَحْسَبُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ

يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قَوْفَهُ حِسَابُهُ ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾

(سورة النور)

ويفاجأ الكافر بوجود الله الذي كان كافراً به ، ويصير أمام نكبتين : نكبة أنه كان ذاهباً إلى ماء فلا يجده فيخيب أمله ، والنكبة الثانية أن يجد الله الذي يحاسبه على الإنكار والكفر .

ويقول الحق :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ۝٣٩﴾

(سورة الفرقان)

وقد يأتى واحد ويدعى لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم بالمنطق فيقول :

- هل هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل هذه المخترعات التى أفادت الناس كالمواصلات وغيرها ، أصبحرون إلى عذاب ؟ . ونقول : هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر ؛ لأن الواحد منهم قد عمل أعماله وليس فى باله الله . بل قام بتلك الأعمال وفى باله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكريم ، وعليه أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل له ، وينطبق عليه قول الرسول :

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقل عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها قال فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن يتفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي فى النار ^(١) .

ولم يغمطهم الله جزاء أعمالهم فى الدنيا . فقد أدخلوا من الدنيا كل التكريم .

ووزع سبحانه فضل هذه المواهب على الناس الذين فى باهم الله ؛ لذلك ترى المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت الله ويسجل أحاديث الإيمان على شرائط ليسمعها من لم يحضر ويشاهد هذه الشجرة ، إذن فهؤلاء الكافرون مسخرون للمؤمنين لأنهم أتاحوا لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم ، والمؤمنون أيضاً مطالبون بأن يأخذوا بأسباب الله لينالوا كرم الله فى عطاء العلم ، بل إن ذلك واجب عليهم يأتعون إذا لم يقوموا به حتى لا يكونوا حالة على سواهم ، فلا يستذلون .

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى الجهاد . وأخرجه كذلك النسائى والترمذى وابن ماجه .

« وما يعد لهم الشيطان إلا غرورا » وماذا يكون نصيب هؤلاء في الآخرة ؟ يقول سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُجَادُونَ عَنْهَا
بِحَيْصٍ ﴾

وكلمة « ماوى » معناها المكان الذى يضطر الإنسان إلى أن يأوى إليه ، فهل هذا الاضطراب يكون اندفاعاً أو جذباً ؟ سبحانه يقول عن النار إنها مستنطق قائلة :

﴿ هَلْ مِنْ مُّزِيدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ق)

كان النار مستجلب أصحابها . وهم لن يجدوا عنها حيصاً ، أى لا مهرب ولا مفر ولا معدى ، وكان باستطاعة الواحد منهم أن يفر من مخلوق مثله في دنيا الأغيار ، ولكن حين يكون الأمر لله وحده فلا مفر .

﴿ لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والمقابل لذلك يورده الحق :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
اللَّهِ قِيلًا ﴾

وحين يأتي سبحانه بأمر يتعلق بالكفار وعقابهم فالنفوس مهياة ومستعدة لتسمع
عن المقابل ، فإذا كان جزاء الكفار ينفر الإنسان من أن يكون منهم ، فالنفس
السامة تنجذب إلى المقابل وهو الحديث عن جزاء المؤمنين أصحاب العمل
الصالح . وسبحانه قال من قبل :

﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(من الآية ١١٤ سورة النساء)

وهنا يقول : « سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار » . والمتيقن من الله
والوائق به يعلم أنه لا توجد مسافة تبعدة عن عطاء الله ، مثال ذلك حينما سأل النبي
أحد الصحابة وكان اسمه الحارث بن مالك الأنصاري : (كيف أصبحت
يا حارث ؟) .

قال : أصبحت مؤمناً حقاً . لقد أجاب الصحابي بكلمة كبيرة المعاني وهي الإيمان
حقاً ، لذلك قال الرسول : انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟

أجاب الصحابي : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت لذلك ليل وأظلمت نهارى ،
وكانى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وكانى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وكانى أنظر إلى
أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) .

فقال : « يا حارث : عرفت فلزم ثلاثاً »^(١) .

والحق ساعة يقول : « س » وساعة يقول : « سوف » فلكل حرف من الحروف
الداخلة على الفعل ملحظ ومغزى وكل جملته من الله جميل . « والذين آمنوا وعملوا
الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار » .

والجنة - كما قلنا من قبل - على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهي الجنة بحق ،
أما جنة الدنيا فمن الممكن أن يتصوَّح نباتها وشجرها وييس ويتناثر ، أو يصيبها
الجدب ، أما جنة الآخرة فهي ذات الأكل الدائم ، وإن لم تُطلق كلمة « الجنة » من

١ - رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية . وضعفه الدارلقطى وابن حبان .

اي قيد او وصف بل قيدت ، فالقصد منها معنى آخر : كقول الحق :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَمْحَبَّ الْجَنَّةِ إِذَا أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ (١٧)

(سورة القلم)

وقوله سبحانه :

﴿ كَتَلْنَا جَنَّةَ بَرْيَوتَ أَصْلَابِهَا وَابِلٌ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

والجنة بربوة هي البستان على مكان عال ، وهي ذات مواصفات أعلى مما وصل إليه العلم الحديث ؛ لأن الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تنسد جذور النبات المزروع في هذه الأرض ، فيظل النبات أخضر اللون ، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة :

﴿ فَغَاتَتْ أَكْطُلَهَا ضَعْفَيْنِ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

ويزيد على ذلك أنها بربوة ، وأنها تروى بالمطر من أعلى ، ومن الطل ، فتأخذ الرى من المطر للجذور والطل لغسل الأوراق . كل ذلك يطلق على الجنة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ويطمئنت سبحانه على احتفاظها بنضرتها ونضرتها ، وأول شيء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة .

ونجد القرآن مرة يقول : « جنات تجري تحتها الأنهار » وهذا يعني أن منبع المياه بعيد . ومرة أخرى يقول : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ويعني أن منبع المياه لن يجفزه أحد ؛ لأن الأنهار تجري وتنبع من تحتها . وبعد الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود في الجنة ، والخلود هو المكث طويلاً ، فإذا قال الحق : « خالدون » فيها أبداً ، أى أن المكث في الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وهذا وعد من ؟ « وعد الله حقاً ومن صدق من الله قتيلاً » . ونحن نعدك من

لا يخرج شئ من إنفاذ وعده ، فهذا هو وعد الحق - سبحانه - . أما وعد المساوي لك في البشرية فقد لا يتحقق ، لعله ساعة إنفاذ الوعد بغير رأيه ، أو لا يجد الوجد واليسار والسعة والغنى فلا يستطيع أن يوفى بما وعد به ، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك ، لكن الله سبحانه وتعالى لا تتأوله الأغيار ، ولا يعجزه شئ ، وليس معه إله آخر يقول له لا . إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا محيص عن تحقيقه .

قول الله هنا « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً » هو كلام منه ليوضح لكل واحد منا : أنا لا أريد أن أستفهم منك ، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقراراً منهم بصدق ما يقوله الله ، أوجد أصدق من الله ؟

ونكون الإجابة : لا يمكن ، حاشا لله ، لأن الكذب إنما يأتي من الكذاب ليحقق لنفسه أمراً لم يكن الصدق ليحققه ، أو لخوف ممن يكذب عنده ، والله منزّه عن ذلك ، فإذا قال قولاً فهو صدق .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ
مَنْ يَصْلَحْ سَوْءَ أَتُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٢﴾

والأمنية - كما عرفنا - هي أن يطمع الإنسان إلى شئ ممتنع مسعد بلون رشيد من عمل ، إن الحق سبحانه وتعالى حينما استخلف الإنسان في الأرض طلب منه أن يستقبل كل شئ صالح في الوجود استقبال المحافظ عليه ، فلا يفسد الصالح بالفعل ، وإن أورد الإنسان طموحاً إلى ما يسعد ، فعليه أن يزيد الصالح صلاحاً .

والمثل الذي نضربه لذلك ، عندما يوجد بشر يشرب منها الناس ، فهذه البئر لها

حواف وجوانب وأطراف ، وتفسد البئر إذا جاء أحد هذه الحواف وأزاح ما فيها من الأتربة ليطمر البئر .

ومن يرد استمرار صلاح البئر فهو يتركها كما هي وبذلك يترك الصالح على صلاحه . وإن شاء إنسان أن يطمح إلى عمل مسعد تمتع له ولغيره فهو يعمل ليزيد الصالح صلاحاً . . . كأن يأتي إلى جوانب البئر ويبني حولها جداراً من الطوب كي لا يتسلل التراب إلى الماء أو على الأقل يصنع غطاء للبئر ، فإن طمح الإنسان أكثر فهو يفكر في راحة الناس ويحاول أن يوفر عليهم الذهاب إلى البئر ليملاؤا جرارهم وقريرهم فيفكر في رفع المياه بمضخة ماصة كابسة إلى صهريج عال ، ثم يخرج من هذا الصهريج الأنابيب لتصل إلى البيوت ، فيأخذ كل واحد المياه وهو مرتاح ، إنه بذلك يزيد الصالح صلاحاً .

أما إن أراد الإنسان أن يطمح إلى تمتع دون عمل . . فهذه هي الأمانى الكاذبة . ولو ظل إنسان يحلم بالأماني ولا ينفذها بخطة من عمل . . فهذه هي الأمانى التي لا ثمرة لها سوى الحنية والتخلف .

إذن فالأمنية هي أن يطمح إنسان إلى أمر تمتع مسعد بدون رصيد من عمل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أعطانا من كل شيء سبباً ، ولنلاحظ أن الحق قد قال :

﴿ فَاتَّبِعْ سَبِيلَ ﴾ (٨٥)

(سورة الكهف)

أى أن الإنسان مطالب بأن يصنع أشياء تُرقى أساليب الحياة في الأرض ، فالله ضمن للإنسان الخليفة مقومات الحياة الضرورية ، وعندما يريد الإنسان الترف والتتعم فلا بد أن يكدح . ومثال ذلك : لقد أعطى الحق الإنسان المطر فينزل الماء من السماء ، وينزل ماء المطر في مجاري مكددة ، حفرها المطر لنفسه ، وقد يكون في كل مجرى تراب من صخور أو طمي ؛ لذلك يقوم الإنسان بترويق المياه ، ويرفعها في صهاريج لتأته إلى المنزل ، وبدلاً من أن يشربها بيده من النهر مباشرة ، يصنع كوباً جميلاً . وصنع الإنسان الكوب في البداية من الفخار ، ثم من مواد مختلفة كالنحاس ثم البللور . وهكذا نجد أن كل ترف يحتاج إلى عمل يوصل إليه ، فليست المسألة بالأمانى .

وكذلك الانتساب إلى الدين ، ليست المسألة أن يمثل الإنسان ويتسبب إلى الدين شكلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليحكم بين الناس جميعاً ، ولا يمكن لواحد أن يتسبب شكلاً إلى الإسلام ليأخذ المميزات ويتميز بها عن بقية خلق الله من الديانات الأخرى ، لا ، فالإنسان محكوم بما يدين به . والمسلم أول محكوم بما دان به .

كذلك قال الحق : « ليس بآمانيكم » والخطاب هنا لمن ؟ . إن كان الخطاب للمؤمنين فالحق يوضح لهم : يا أيها المؤمنون ليست المسألة مسألة أمان ، ولكنها مسألة عمل ؛ لأن انتسابكم للإسلام لا يعفيكم من العمل ؛ فكم من أناس يعبرون الدنيا وتنقضي حياتهم فيها ولا يصنعون حسنة ، فإذا قيل لهم : ولماذا تعيشون الحياة بلا عمل ؟ يقولون : أحسننا الظن بالله . ونسمع الحسن البصري يقول هؤلاء : ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، إن قوماً ألتهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكلبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له .

وسبحانه يقول هؤلاء : « ليس بآمانيكم » . أما إن كان الخطاب موجهاً لغير المؤمنين ، فالحق لم يمنع عطاء الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى ولو لم يؤمن . أما جزاء الآخرة فهو وعد منه سبحانه للمؤمنين الذين عملوا صالحاً ، وهو الوعد الحق بالجنة ، هذا الوعد الحق ليس بالأمان بل إن الوصول إلى هذا الوعد يكون بالعمل .

إذن فقد يصح أن يكون الخطاب بـ « ليس بآمانيكم » شاملاً أيضاً للكفار والمنافقين وأهل الكتاب . وكان للكفار بعض من الأمانى كقول المنكر للبعث :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (٢٥)

(سورة الكهف)

هذه هي أمانى الكفار . ولن يتحقق هذا الوعد بالجنة لأهل الكتاب ، فقد قال الحق عن أمانيتهم :

﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وقالوا :

﴿لَنْ نَمْسَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

كل هذه أمان خادعة ؛ لأن منج الله واحد على الناس أجمعين ، من انتسب للإسلام الذي جاء خاتماً فليعمل ؛ لأن القضية الواضحة التي يحكم بها الله خلقه هي قوله سبحانه : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وأبو هريرة رضى الله عنه يقول : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سددوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها »^(١) .

وقال بعض العلماء : المراد بالسوء في هذه الآية هو الشرك بالله ؛ لأن الله وعد أن يغفر بعض الذنوب . واستند في ذلك إلى قوله الحق :

﴿كَذَلِكَ تَجْزِي كُلُّ غَفْوَةٍ﴾

(من الآية ٣٦ سورة فاطر)

كان الجزاء المولم يكون للكفار ، أما الذين آمنوا ، فالإيمان يرفعهم إلى شرف المنزلة ليقبل الله توبتهم ويغفر لهم ، فسبحانه الحق جعل الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، وجعل صلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة كفارة لما بينهما ، وجعل الحج كفارة لما سبقه ، وكل ذلك امتيازات إيمانية . أما جزاء الكفار فهو : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

ولا يقال فلان لا يجد إلا إذا بحث هذا الشخص عن شيء فلم يجده ، فالإنسان بذاته لا يستغنى ، ولكن من يعمل سوءاً فليبحث لنفسه عن ولى أو نصير ولن يجد .

والولى هو الذى يلى الإنسان ، أى يقرب منه ، ومثلها النصير والمعاون . ولا يلى

١- رواه مسلم وأحمد والترمذى والنسائى من حديث سفیان بن عیینة .

الإنسان ولا يقرب منه إلا من أحبه . ومادام قد أحب قوئ ضعيفاً ، فهو قادر على الدفاع عنه ومعاونته .

ولماذا أورد الحق هنا « الولي » ، و« النصير » ؟ . والولي - كما عرفنا - هو القريب الذي يل الإنسان ، أما كلمة « نصير » فتوحى أن هناك معارك وخصومة بين المؤمن وغيره ، وهناك قوة كبرى قد يظهر للإنسان أنها لا تسأل عنه لأنه في سلام ورخاء ، إن هذه القوة عندما تعلم أن هناك خصوماً للمؤمن تأتي لنصرته ، بينما لا يجهد الكافر ولياً أو نصيراً ، ولن يجهد من يقرب منه ولن يجهد من ينصره إن عضته الأحداث . وعض الأحداث هو الذي يجعل الناس تتعاطف مع المصاب حتى إن البعيد عن الإنسان يفزع إليه لينصره ، لكن أحداً لا ينصر على الله . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ
أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

وجاءت كلمتا « ذكر » و« أنثى » هنا حتى لا يفهم أحد أن مجيء الفعل بصيغة التذكير في قوله (يعمل) أن المرأة معفية منه ، لأن المرأة في كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً في مسألة الرجل ، وفي ذلك إيحاء بأن أمرها مبني على السر .

لكن الأشياء التي تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى » . وجاء سبحانه هنا بلفظة (من) التي تدل على التبعيض . . أي على جزء من كل فيقول : « ومن يعمل من الصالحات » ولم يقل : « ومن يعمل الصالحات » لأنه يعلم خلقه . فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، هناك من يحاول عمل بعض من الصالحات حسب قدرته . والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكانياته ومواهبه .

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها ، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد ، هذه هي أول مرتبة ، ومن بعد ذلك يترقى الإنسان في الأعمال الصالحة التي تتفق مع خلافته في الأرض ، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان في الأرض هو عمل صالح ؛ فالذي يحرص طريقاً حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح ، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح ، ومن يعمل على ألا يتشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح .

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح . وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس في ياله إله كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة بآله واحد . كذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان ، كحرف طرق وصناعة بعض الآلات التي يستفيع بها الناس ، وقاموا بها للطموح الكشفي ، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف ويخدم الإنسانية ونطبق عليه أنه عمل صالحاً ، لكنه غير مؤمن ، لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التي عملوا لها ، وليس لهم جزاء عند الله .

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ٥١ ﴾

(سورة النمل)

قد يقول البعض : إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءاً ونجد من يقول : من يعمل السوء هو الذي يجب أن يتلقى العقاب ، وتلقيه العقاب أمر ليس فيه ظلم ، والحق هو القاتل :

﴿ بَرَاءً سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يونس)

ومن يصنع الحسنة يأخذ عشرة أمثالها . وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلاً من الله ، والفضل من الله غير مقيد وهو فضل بلا حدود ، فكيف يأتي في

هذا المقام قوله تعالى : (ولا يظلمون نقيراً) وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن ، ونقول : إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم ، مثل من يستاجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهري ، وفي آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة ، وفي شهر آخر لا يعطيه سوى أجره ، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل . أما الفضل بالنسبة لله فالمرء مختلف . إنه غير محدود ولا رجوع فيه . وهذا هو معنى « ولا يظلمون نقيراً » ، فسبحانه لا يكتفى بجزاء صاحب الحسنة بحسنة ، بل يعطى جزاء الحسنة عشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف ، ولا يتراجع عن الفضل ، فالتراجع في الفضل - بالنسبة لله - هو ظلم للعبد . ولا يقارن الفضل من الله بالفضل من البشر . فالبشر يمكن أن يتراجعوا في الفضل أما الله فلا رجوع عنده عن الفضل .

وهو القائل :

﴿ قُلْ يُفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٥٥)

(سورة يونس)

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى : « فلولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » والنقيير هو : النقرة في ظهره النواة ، وهي أمر ضئيل للغاية . وهناك شيء آخر يسمى « الفتيل » وهو المادة التي تشبه الخيط في بطن نواة التمر ، وشيء ثالث يشبه الورقة ويخلف النواة واسمه « القطمير » .

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سبحانه وتعالى في عطائه للمؤمنين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾

وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

وساعة نسمع استفهاماً مثل قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » فحسن الاستنباط يقتضى أن نفهم أن الذى أسلم وجهه لله هو الأحسن ديناً ، وفى حديثنا اليومى نقول : ومن أكرم من زيد ؟ . معنى ذلك أن القائل لا يريد أن يصرح بأن زيداً هو أكرم الناس لكنه يترك ذلك للاستنباط الحسن . ولا يقال مثل هذا على صورة الاستفهام إلا إذا كان المخبر عنه محمداً ومعيناً ، والقائل مطمئن إلى أن من يسمع سؤاله لن يجد جواباً إلا الأمر المحدد المعين لمسئول عنه . وكان الناس ساعة تدير رأسها بحثاً عن جواب للسؤال لن تجد إلا ما حنطه السائل .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » والإجابة على مثل هذا التساؤل : لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله . وهكذا نرى أن الله يلقى خبراً مؤكداً فى صيغة تساؤل مع أنه لو تكلم بالخبر لكان هو الصديق كله :

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة النساء)

وسبحانه يلقى إلينا بالسؤال ليترك لنا حرية الجواب فى الكلام ، كأنه سبحانه يقول :

- أنا أطرح السؤال عليك أيها الإنسان وأترك لك الإجابة فى إطار فمك وحكمك فقل لى من أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ؟ وتبحث أنت عن الجواب فلا تجد أحسن ممن أسلم وجهه لله فتقول :

- لا أحد أحسن ممن أسلم وجهه لله . وبذلك تكون الإجابة من المخاطب إقراراً ، والأقرار - كما نعلم - سيد الأدلة .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ، ونعلم أن الكلمة إذا أطلقت في عدة مواضع فهي لا تأخذ معنى واحداً . بل يتطلب كل موضع معنى يفرضه سياق الكلام ، فإذا قال الله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

فذلك لأن الوجه هو العضو المواجه الذي توجد به تميزات تبيّن وتوضح ملامح الأشخاص . لأننا لن نتعرف على واحد من كتفه أو من رجله ، بل نتعرف الأشخاص من سمات الوجوه .

وعندما نسمع قول الحق :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

فإننا نتساءل : ما المراد بالوجه هنا ؟

إن أردنا الوجه الذي يشبه وجوهنا فهذا وقوع في المحذور ، لأن كل شيء متعلق بالله سبحانه وتعالى فأخذه على ضوء « ليس كمثله شيء » نقول ذلك حق لا بقولنا قائل : مادام وجه الله هو الذي لن يهلك يوم القيامة فهل يهلك يده أو غير ذلك ؟ لا ؛ إن الحق حين قال : « كل شيء هالك إلا وجهه » فالمقصود بذلك ذاته فهو سبحانه وتعالى منزّه عن التشبيه وسبحانه القائل :

﴿ قَائِمًا قَوْلًا لَكُمْ مِنْ رَبِّهِ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

إذن فوجه الله - هنا - هو الجهة التي يرتضيها ، والإنسان يتجه بوجهه إلى الكعبة في أثناء الصلاة . وإياك أن تظن أنك حينما تولى وجهك صوب الكعبة أنها وجه الله ؛ لأن الله موجود في كل الوجود ، فأى متجه للإنسان سيوجد فيه الله ، بدليل أننا نفصل حول الكعبة ، ونكون شرق واحد وغرب آخر ، وشمال ثالث ، وجنوب رابع ، فكل الجهات موجودة في أثناء الطواف حول الكعبة وفي أثناء الصلاة ، والكعبة موجودة هكذا لنطوف حولها ، ولنكون متجهين إلى الله في جميع الاتجاهات .

﴿ قَابِئِمَا تَوَلَّوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

أى الجهة التى ارتضاها سبحانه وتعالى .

ونحن هنا فى هذه الآية نرى قول الله : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » .
وأسلم وجهه أى أسلم اتجاهه ؛ لأن الإنسان حين يكون ذاهباً إلى قصد أو هدف أو
غرض ، فيكون وجهه هو المتجه ؛ لأن الإنسان لا يسير بظهره . والوجه هنا - إذن -
هو الاتجاه .

ولماذا جاء الحق بالوجه فقط ، برغم أن المؤمن يسلم مع الوجه كل الجوارح ؟
لأن الوجه أشرف الأعضاء ، ولذلك جعل سبحانه السجود أشرف موقع للعبد ؛ لأن
القامة العالية والوجه الذى يحرص الإنسان على نظافته يسجد لله .

إذن أسلم وجهه لله ، أى أسلم وجهته واتجاهه لله ، ومعنى « أسلم » من
الإسلام ، فـ « أسلم » تعنى : سلم زمام أموره لواحد . وحين يسلم الإنسان زمامه
إلى مساو له فهذه شهادة لهذا المساوى أنه يعرف فى هذا الأمر أفضل منه . ولا يسلم
لمساو إلا إن شهد له قبل أن يلقى إليه بزمامه أنه صاحب حكمة وعلم ودراية عنه .
فإن لم يلمس الإنسان ذلك فلن يسلم له . وما أجدر الإنسان أن يسلم نفسه لمن
خلقه ، أليس هذا هو أفضل الأمور ؟ .

إن الإنسان قد يسلم زمامه لإنسان آخر لأنه يظن فيه الحكمة ، ولكن أیضمن أن
يبقى هذا الإنسان حكيماً ؟ إنه كإنسان هو ابن أغيار ، وقد يتغير قلبه أو أن المسألة
المسلم له بها تكون مستعصية عليه ، لكن عندما أسلم زمامى لمن خلقتى فهذا منتهى
الحكمة . ولذلك قلنا : إن الإسلام هو أن تسلم زمامك لمن أمنت به إلهاً قوياً وقادراً
وحكيماً وعليه القيومية فى كل زمان ومكان . وحين يسلم الإنسان وجهه لله فلن
يصنع عملاً إلا كانت وجهته إلى الله .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)

ولماذا جاءت كلمة «محسن» هنا؟ وقد تكلم صلى الله عليه وسلم عن الإحسان، ونعرف أننا آمنّا بالله غيباً، لكن عندما ندخل بالإيمان إلى مقام الإحسان، فإننا نعبد الله كأننا نراه فإن لم تكن نراه فهو يرانا. والحوار الذي دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد صحابته وكان اسمه الحارث فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» فقال: «أصبحت مؤمناً حقاً». فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» قال: «عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت لذلك ليل وأظلمات نهارى، وكأني أنظر إلى عرش ربى بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) فقال: «يا حارث عرفت فالتزم ثلاثاً»^(١).

ويعرف الإنسان من أهل الصلاح أنه في لقاء دائم مع الله، لذلك يضع برنامجاً لنفسه موجزه أنه يعلم أنه لا يخلو من نظر الله إليه (وهو معكم أينما كنتم) إنه يستحضر أنه لا يخيب عن الله طرفة عين فيستحي أن يعصيه.

ويوضح الحديث ما رواه سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عندما سأل جبريل -عليه السلام- رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال له: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

وعندما تتيقن أن الله ينظر إليك فكيف تعصيه؟ أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبدٍ مساوٍ لك.. فكيف تفعله مع الله؟!!

وتتجلى العظمة في قوله الحق: «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن» واتبع ملة إبراهيم حنيفاً، لماذا إذن «ملة إبراهيم»؟ لأن القرآن يقول عن إبراهيم:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ومعنى كونه «أُمَّةً»: أنه الجامع لكل خصال الخير التي لا تكاد تجتمع في فرد إلا

١- رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية. وضعفه الدارقطني وابن حبان.

٢- من حديث طويل رواه الإمام مسلم.

إن وزعنا الخصال في أمة بأكملها ؛ فهذا شجاع وذلك حلیم والثالث عالم والرابع قوى ، وهذه الصفات الخيرة كلها لا تجتمع في فرد واحد إلا إذا جمعناها من أمة . وأراد الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن يكون جامعاً لخير كثير فوصفه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ويقول هنا عن ملة إبراهيم : « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » . والملة هي الديانة و« حنيفاً » أى « مائلاً عن الباطل إلى الحق » . والمعنى اللغوي لكلمة « حنيف » أنه هو « المائل » . وكان إبراهيم حنيفاً عن الباطل . ومعنى قرسل الرسل إلى الأقوام نعرف أن الرسل تأتى إذا طم الفساد وعم ، وحين تكون المجتمعات قادرة على إصلاح الفساد الذى فيها . فالحق سبحانه يجهل الناس وينظرهم ، لكن إذا ما بلغ الفساد أوجاً ، فالحق يرسل رسولاً . وحين يأتى الرسول إلى قوم ينتشر فيهم الفساد ، فالرسول يميل عن الفساد ، بهذا يكون الميل عن الاعوجاج اعتدالاً . « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالغاية الواضحة « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » ، فما هي حيثيات الخلّة ؟ لأنه يتبع أفضل دين ، ويسلم لله وجهه ، وكان محسناً « واتبع الملة » ، وكان حنيفاً ، هذه هي حيثيات الخلّة . وكلها كانت صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام .

لقد حدثونا أن جبريل عليه السلام قد جاء لسيدنا إبراهيم عندما ألقاه أهله في النار ، فقال جبريل يا إبراهيم : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم : « أما إليك فلا » ، فقال جبريل فاصأل ربك فقال : « حسبي من سؤالي علمه بحالى » فقال الله : « يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم »^(١) أى أنه لا يطلب من جبريل بذاته شيئاً . وتلك قمة الإسلام لله . كما أننا نعرف مدى أنس الناس بأبنائها ؛ ونعلم إن إسماعيل قد جاءه ولداً في آخر حياته ، وأوضح له الحق أنه مبتليه ، وكان الابتلاء غاية في الصعوبة ؛ فالابن لا يموت ؛ ولا يقتله أحد ولكن يقوم الأب بذبحه ، فكم درجة من الابتلاء مر بها إبراهيم عليه السلام !؟

١- من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، وذكر نحوه في تفسير ابن كثير وفي الكشف للزعرى .

وسار إبراهيم لتنفيذ أمر ربه ، ولذلك نقرأ على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ يٰٓبَنِيَّ اِنِّىۤ اَرٰى فِى الْمَنَامِ اَنِّىۤ اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرٰى ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ويجعل الحق ذلك برؤيا فى المنام لا بالوحى المباشر . ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام . لم يقل : « افعل ما بدا لك يا أبى » ولكنه قال :

﴿ يٰٓاَبَا اَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيْ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰبِرِيْنَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

أى أن إسماعيل وإبراهيم أسلما معاً لأمر الله .

فماذا فعل الله ؟ :

﴿ وَنَدَيْنٰهُ اَنْ يَّبْرَهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا اِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِيْنَ ﴿١٠٥﴾ اِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْبَلٰكُوْا الْعَبِيْنُ ﴿١٠٦﴾ وَقَدَيْنٰهُ يَدِيْجٍ عَظِيْمٍ ﴿١٠٧﴾ وَرَوَّيْنَا عَنْهُ فِى الْاٰخِرِيْنَ ﴿١٠٨﴾ سَلٰمٌ عَلٰى اِبْرٰهِيْمَ ﴿١٠٩﴾ كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِيْنَ ﴿١١٠﴾ اِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولا يكتفى الحق بإعطاء إبراهيم وإسماعيل ابناً ، وله فداء ، ولكن رزق الله إبراهيم بابن آخر هو إسحاق . « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » .

وجلس العلماء ليعثوا معنى كلمة « خليلاً » ، ويعثوا ما فيها من صفات ، وكل الأساليب التى وردت فيها . والكلمة مأخوذة من « الحاء ولام ولام » . وه « الخَل » - بفتح الحاء - هو الطريق فى الرمل ، وهو ما نسميه فى عرفنا « مدقاً » ، وعادة يكون ضيقاً ، وحينما يسير فيه اثنان فهما يتكاتفان إن كان بينهما ودّ عالٍ ، وإن لم يكن بينهما ودّ فواحد يمشى خلف الآخر . ولذلك سموا الاثنان الذين يسيران متكاتفين « خليل » فكلاهما متخلل فى الآخر أى متداخل فيه . والخليل أيضاً هو من يسد خلل

صاحبه . والخليل هو الذي يتحد ويتوافق مع صديقه في الجلال والصفات والأخلاق . أو هو من يتخلل إليه الإنسان في مساتره ، ويتخلل هو أيضاً في مسائر الإنسان . والإنسان قد يستقبل واحداً من أصحابه في أى مكان سواء في الصالون أو في غرفة المكتب أو في غرفة النوم . لكن هناك من لا يستقبله إلا في الصالون أو في غرفة المكتب .

« واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، أى اصطفاه الحق اصطفاً خاصاً ، والحب قد يُشارك فيه ، فهو سبحانه يحب واحداً وآخر وثالثاً ورابعاً وكل المؤمنين ، فهو القائل :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

وسبحانه القائل :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

(من الآية ٧٦ سورة آل عمران)

وهو يعلمنا :

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة آل عمران)

ويقول لنا :

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة آل عمران)

ويقول أيضاً :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(من الآية ٨ سورة الممتحنة)

لكنه اصطفاً إبراهيم خليلاً ، أى لا مشاركة لأحد في مكانته ، أما الحب فيهم ، ولكن الخلّة لا مشاركة فيها . ولذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى

قومه قائلاً : (أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً وإن صاحبكم خليل الله تعالى) يعنى نفسه^(١) .

واسماعيل صبرى الشاعر المصرى الذى كان أسبق من أحمد شوقى وكان شيخاً للقبضاة . التقط هذا المعنى من القرآن ومن الألفاظ التى دارت عليه فى القرآن ، ويقول :

ولما التقينا قرب الشوق جهده
خليلين زادا لسوعة وعتابا
كان خليلاً فى خلال خليله
تسرب أثناء العناق وغابا

وشاعر آخر يقول :

فضمنا ضمة نبى بها واحداً

ولكن إسماعيل صبرى قال ما يفوق هذا المعنى : لقد تخللنا كأن بعضنا قد غاب فى البعض الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

وَلِلّٰهِ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ وَكَانَ
اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا

وسبحانه أوضح فى آية سابقة أنه لا ولى ولا نصير للكافرين أو للمنافقين .

ويؤكد لنا المعنى هنا : إياكم أن تظنوا أن هناك مهرباً أو عيصاً أو معزلاً أو مفراً ؛

١ - رواه مسلم وأحمد عن ابن مسعود وفى البخارى : (لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ولكن لنحوه الإسلام ومودته) .

فلله ما في السموات وما في الأرض ، فلا السموات تُؤوى هارباً منه ، ولا مَنْ في السموات يعاون هارباً منه ، وسبحانه المحيط علماً بكل شيء والقادر على كل شيء .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِدُعَايِكُمْ عَلِيمًا ۝ ﴾

« ويستفتونك » أى يطلبون الفتيا ، ونعرف أن الدين قد مرّ بمراحل منها قول الحق : (يسألونك) .

وهى تعبير عن سؤال المؤمنين فى مواضع كثيرة . ومرحلة ثانية هى : « ويستفتونك » . وما الفارق بين الاثنين ؟

لقد سألوا عن الخمر والأهله والمحيض والإنفاق . والسؤال هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه قال :

« ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » (١) .

أى أنه طلب منهم ألا يَنْبَشُوا والآ يُفْتَشُوا في أشياء قد يجلبون بها على أنفسهم تكاليف جديدة ، ومع ذلك سألوه عن رغبة في معرفة أى حكم يحدد حركة الإنسان في الحياة .

ولو كانوا لا يريدون تحديد حركة حياتهم فلماذا يسألونه ؟ . كان السؤال دليلاً على أن السائل قد عشق منهج الله فأحب أن يجعل منهج الله مسيطراً على كل أفعاله ، قال شيء الذي أجمله وأوجزه الله يجب أن يسأل عنه .

وأيضاً فالإسلام جاء ليبدل عادات الجاهلية وللعرب ولهم أحكام يسرون عليها صنعوها لأنفسهم فلم يغير الإسلام فيها شيئاً ، فما أحبوا أن يستمروا في ذلك لمجرد أنه من عمل آبائهم ، ولكن أحبوا أن يكون كل سلوك لهم من صميم أمر الإسلام ؛ لذلك سألوه في أشياء كثيرة .

أما الاستفتاء فهو عن أمر قد يوجد فيه حكم ملتبس ، ولذلك يقول الواحد في أمر ما : فلنستفتى عالماً في هذا الأمر ؛ لأن معنى الاستفتاء عدم قدرة واحد من الناس أو جماعة منهم في استنباط حكم أو معرفة هذا الحكم ، ولذلك يردون هذا الأمر إلى أهله .

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

الاستفتاء - إذن - يكون لحكم موجود ، ولكن المستفتى لا يملك القدرة على استنباطه . ولذلك نجد المجتمعات الإسلامية تخصص داراً للإفتاء ؛ لأن المؤمن قد لا يعلم كل الجزئيات في الدين . وقد يعيش حياته ولا تمر به هذه الجزئيات ، مثل أبواب الوقف أو المضاربة أو الميراث ، فإن حدثت له مسألة فهو يستفتى فيها أهل الذكر . فالسؤال يكون محل العمل الرتيب ، أما الفتوى فهي في أمر ليس المطلوب أن تكون المعرفة به عامة . ولذلك يتجه المستفتى إلى أهل الذكر طالباً الفتيا .

والحق يقول : (وستفتونك في النساء ، كأنهم قالوا للرسول : نريد حكم الله فيما يتعلق بالنساء حلاً وحرمة ونصرفاً .

فكيف يكون الجواب ؟ : « قل الله يفتيكم فيهن » ولم يؤجل الله الفتوى لاستفتائهم بل سبق أن قاله ، وعلى الرغم من ذلك فإنه - سبحانه - يفتيهم من جديده .

فلعل الحكم الذى نزل أولاً ليس على بالهم أو ليسوا على ذكر منه .

فقال الحق :

﴿ وَاسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

أى أن الحق يفتيكم فى أمرهن ، ومسبق أن نزل فى الكتاب ، آية من سورة النساء . قال الحق فيها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُ الْيَتَامَىٰ مِمَّا حَفِظْتُمْ وَلَا تَزُولُ فِيهِ الْمِيزَانُ ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

ونالت آيات من بعد ذلك فى أمر النساء .

فقوله الحق : « قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب » .

إنما يعلمنا أن الإنسان لا يصح أن يتعجل الاستفتاء فى شيء إلا إذا استعرض قبل ذلك ما عنده من علم لعله يجد فيه الجواب الذى يغنيه عن أن يستفتى .

ومع أن الاستفتاء فى أمر النساء جملة : صغيرات وكبيرات ، يتيمات وغير يتيمات فلماذا جاء الجواب فى يتامى النساء ؛ لأن النساء الكبيرات هن القدرة على أن يحسن أمورهن ، ولسن ضعيفات ، أما اليتيمة فهي ضعيفة الضعيفات ، وعرفنا معنى اليتيم ، واليتيم حيث لا يبلغ الإنسان المبلغ الذى يصبح فيه مستقلاً ، فلا يقال لمن بلغ حد البلوغ سواء أكان رجلاً أم امرأة أنه يتيم ؛ لذلك جاء الجواب خاصاً بيتامى النساء ؛ لأن يتامى النساء هن دائماً تحت أولياء ، هؤلاء الأولياء الذين نسميهم فى

عصرنا به الأوصياء . وكان للأوصياء حالتان : فإن كانت البنت جميلة وذات مال فالوصى يجب أن يتكهنها ليستمتع بجمالها ويستولى على مالها . وإن كانت دمية فالوصى لا يرغب في زواجها لذلك يعضلها ، أي يمنعها من أن تتزوج . لأنها إن تزوجت فسيكون الزوج هو الأولى بالمال .

فاحتاجت هذه المسألة إلى تشريع واضح . وهانحن أولاء نجد سيدنا عمر -رضي الله عنه- وكانت له الفراسات التي تسمى الفراسات الفلروقية جاءه واحد يسأله عن أمر بتهمة تحت وصايته ، فقال سيدنا عمر :

-إن كانت جميلة فدعها تأخذ خيراً منك . وإن كانت دمية فخذها زوجة وليكن مالها شقيقاً لدعامتها .

ويقول الحق :

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَذَكَّرُ الْبَشَرُ لَآ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

والذي كتب لمن إما أن يكون مهوراً . وإما أن يكون تركة ، وجاء القول الحكيم ليرفع عن المرأة عسف الولي . وجاء الأمر بهذا الأسلوب العالي الذي لا يمكن أن يقوله غير رب كريم ، ونجد مادة «رغب» تعني «أحب» . فإذا ما كان الحال «أحب أن يكون» يقال : «رغب فيه» ، وإذا «أحب ألا يكون» فيقال : «رغب عنه» . ولذلك قال الحق :

﴿وَمَنْ رَّغِبَ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة البقرة)

ومادامت «عن» جاءت كما في الآية فما بعدها هو المتروك . لكن لو كان القول «رغب في» فهو لأمر محبوب . وكلمة «ترغبون» في هذه الآية نجدها محذوفة الحرف الذي يقوم بالتعدية حباً أو كرهاً ، لأنها تقصد المعنيين . فإن كانت الرغبة في المرأة . . . تصير «ترغبون في» وإن كانت المرأة دمية وزهد فيها فالقول يكون : «ترغبون عن» ولا يقدر أحد غير الله على أن يأتي بأسلوب يجمع بين الموقفين المتناقضين . وجاء الحق ليقتن للآمرين معاً .

ويأتي الحق من بعد ذلك بالقول : «والمستضعفين من ولدان» بجانب اليتيمات

وهو الصنف المستضعف الآخر ، أى اليتيم الذى لم يبلغ مبلغ الرجال ، وحينما يتكلم سبحانه عن الولاية والوصاية على مثل هؤلاء فهو يتكلم بأسلوبين اثنين ، وإن لم يكن للإنسان ملكة استقبال الأسلوب البليغ فقد يقول : هذا كلام متناقض ، لكن لو تمتع الإنسان بملكة استقبال الأسلوب البليغ فقد يقول : إن عظمة هذا الأسلوب لا يمكن أن يأتى به إلا رب كريم . فالحق قال :

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

قال الله ذلك على الرغم من أن الأموال هى فى الأصل ملك للسفهاء ، فالمال ليس ماله إلى أن يعود إليه رشده ، وقد جعل الإسلام الأخوة الإيمانية للتكاتف والتكافل ، وساعة يرى المسلمون واحداً من السفهاء فهم يحجرون على سلوكه حماية لماله من سفهه ، والمال يمان ويحفظ ومطلوب من الوصى والولى أن يحميه ، هذا ما قاله الحق فى السفهاء .

والحق يتكلم فى اليتامى . فيقول سبحانه :

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

لأن السفه أو المبذر ليس لأى منها سلطة التصرف فى المال بل سلطة التصرف تكون للوصى ، ويتسبب المال فى هذه الحالة للوصى لأنه القائم عليه والحافظ له ، لكن ما إن يبلغ القاصر الرشد فعل الوصى أن يرد له المال .

ونحن أمام آية تضع القواعد لليتامى من النساء والمستضعفين من الولدان :

﴿وَمَا يُبْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقْرُمُوا الْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

ما معنى القيامة لليتامى بالقسط ؟ والقسط - بالكسر - تعنى العدل . وتختلف عن « القسط » - بفتح القاف - وهو يعنى الجور ، قَسَطَ - يَقْسِطُ أى عدل ، وقسط يَقْسُطُ ، أى جار ، فالعدل مصدره « القسط » بالكسر للفاف ، والجور مصدره « القسط » بالفتح للفاف .

وبعض من الذين يريدون الاستدراك على كلام الله سفاها بغير علم - قالوا :
- يأتى القرآن بالقسط بمعنى العدل فى آيات متعددة ، ثم يأتى فى موقع آخر ليقول :

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾

(سورة الجن)

وه «القاسطون» هى اسم فاعل من قسط ، ونقول : ومن قال لكم : إن « قسط » تستخدم فقط فى معنى « عدل » ، إنها تستعمل فى « عدل » وفى « جار » . وسبحانه يقول عن العادلين :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

القاسط يذهب إلى النار ، وهى مأخوذة من « قَسَطَ يَقْسُطُ » . والمقسط يذهب إلى الجنة ، ومقسط مأخوذة من أقسط .

وعندما نرى « أقسط » نراها تبدأ بهجرة الإزالة ، أى كان هناك جور فأزله . أما القسط - بالكسر - فهو العدل من البداية والمقسط هو الذى وجد جوراً فأزاله ، والذى يفصل بين الاثنين هو الفعل المضارع ، ففى العدل هو « يقسط » . بكسر السين فى المضارع ، أما يقسط - بضم السين فى المضارع - تعنى « يجور ويظلم » . ومن محاسن اللغة نجد اللفظ الواحد يُستعمل لأكثر من معنى ؛ ليتعلم الإنسان لباقة الاستقبال ، وليفهم الكلمات فى ضوء السياق .

وقديماً كانت اللغة ملكة لا صناعة كما هى الآن فى عصرنا . كانت اللغة ملكة إلى درجة أنهم إذا شكلوا الكتاب إلى الموصل إليه بغضب ، ويرد الكتاب إلى مرسله ويقول لمن أرسله : أتشك فى قدرى على قراءة كتابك دون تشكيل ؟ فتشكيل

الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه ، وفي عصرنا نجد من يلقي خطاباً يطلب تشكيل الخطاب حتى ينطق النطق السليم .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » وجاء الحكم في قوله الحق : (وآتوا اليتامى أموالهم) وسبحانه يتكلم في المهور والأموال ويرتفع بالأمر إلى مرتبة اعتبار حسن التصرف في أمور اليتامى من المسئولية الإيمانية ؛ فقد تكون اليتيمة لا مال لها وليست جميلة حتى يُطمع فيها أو في مالها ، وفي هذه الحالة يجب على الولي أن يرعاها ويرعى حق الله فيها .

وقوله الحق : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » هو أمر بأن يقوم المؤمن على أمر اليتامى بالعدل ؛ لأن اليتيمة قد تكون مع الولي ومع أهله ، وقد يكون لليتيمة شيء من الوسامة ، فيسرع إليها الولي بعطف وحنان زائد عن أولاده ، وينبه الحق أن رعاية اليتيمة يجب أن تتسم بالعدل ، ولا تزيد . ويقول سبحانه :

« وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليمًا » ليدلنا على أن أمر الفعل والقيام به ليس من مناطق الجزاء ، ولكن أمر النية في الفعل هو مناطق الجزاء ، فليأكل أيها المؤمن أن تقول : فعلت ، ولكن قل : فعلت بنية كذا .

إن الذي يمسح على رأس اليتيم يكون صاحب حظ عظيم في الثواب ، ومن يكفل اليتيم فهو مع النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة . والذي يقدر ذلك هو الله - سبحانه - العليم بالخفايا حسب نية الشخص الذي يقوم بهذا العمل ؛ فقد يتقرب واحد من يتيم ويتكلف العطف والحنان بينما يقصد التقرب إلى أم اليتيم ؛ لذلك فمناطق الجزاء ومناطق الثواب هو في النية الدافعة والباعثة على العمل . ولا يكفي أن يقول الإنسان : إن نيتي طيبة ، ولا يعمل ؛ فالحديث الشريف يقول :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(١) .

١ - روى البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن .

أى لا بد من ارتباط واقتران النية بالعمل ؛ لأن الله يريد منا أن نعمل الخير وبذلك يعدى الإنسان الخير من نفسه إلى غيره وهذا هو المطلوب ، فوجود النية للخير وحدها لا يكفى ، وإن افتقد الإنسان النية وأدى العمل فغيره يأخذ خيره ولا يأخذ هو شيئاً سوى التعب . فإن أراد الإنسان أن يكون له ثواب فلا بد من وجود نية طيبة ، وعمل صالح .

ولم يقل الحق : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » ؛ لأنه سبحانه عليم لا بعد أن نصنع العمل بل بكمال قدرته يعلم قبل أن نصنع الخير ، وكل شيء كان معلوماً لله قبل أن يخلق الوجود ، ولا يتنظر سبحانه إلى أن يقوم الإنسان بالعمل حتى يحصل ويحدث منه العلم . بل إنه - جل شأنه - يعلم كل شيء علماً أزلياً ؛ لذلك قال : « فإن الله كان به علماً » ؛ لأن كل أمر برز في الوجود إنما كان على وفق ما علمه الله أولاً قبل أن يوجد الوجود .

وفي المجال البشرى نرى المهندس يتلقى التعليمات من صاحب الأرض الخلاء ويقول له : صمم لى قصراً صغيراً على مساحة كذا ومكوناً من كذا حجرة . وعدد محدود من دورات المياه ، وبعد ذلك يصمم المهندس الرسم الهندسى على الورق حسب أوامر صاحب الأرض . وقد يكون صاحب الأرض دقيقاً فطنا غاية في الدقة فيقول للمهندس : إننى أريد أن تصنع لى نموذجاً صغيراً قبل البناء بحيث أرى تطبيقاً واقعياً بمقياس هندسى مصغر ، وأن تبين الحجرات بقطاعات واضحة حتى أرى ألوانها وكيفيتها .

هكذا العالم قبل أن يوجد ، كان معلوماً علماً تفصيلياً بكل دقائقه وأبعاده عند خالقه ، والنماذج المصغرة التى يصنعها البشر قد يقصر البشر فيها عن صناعة شيء لعدم توافر المواد ، كالنجار الذى يقصر فى صنع حجرة نوم من خشب الورد لندرتها ، فيستعاض بخشب من نوع آخر ، وذلك خلل فى علم وقدرته المنفذ . أما خلق الله فهو يبلغ تمام الدقة ؛ لأنه - سبحانه - هو الصانع الأول . هذا ما يجب أن نفهمه عندما نقرأ : « فإن الله كان به علماً » .

وبعد ذلك يتكلم الحق عما يتعلق بالنساء فيقول :

﴿ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا
وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ
تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴾

وساعة نرى « إن » وبعدها اسم مرفوع كما في قوله :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾

(من الآية ٦ سورة التوبة)

فلنعرف أن « إن » هذه داخلة على فعل ، أى أن ترتيبها الاسامى هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره.. وهنا في هذه الآية : يكون التقدير : وإن خافت امرأة من بعلها نشوزاً ، وما الخوف ؟ . هو توقع أمر محزن أو مسيء ؛ لم يحدث بعد ولكن الإنسان ينتظره ، وحين يخاف الإنسان فهو يتوقع حدوث الأمر السيئ . وهكذا نجد أن الخوف هو توقع ما يمكن أن يكون متعباً . وقوله الحق : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » أى أن النشوز لم يحدث ولكن المرأة تخاف أن يحدث . ورتب الحق الحكم على مجرد الخوف من النشوز لا حدوث النشوز بالفعل ، وهذه لفظة لكل منا ألا يترك المسائل حتى تقع ، بل عليه أن يتلافى أسبابها قبل أن تقع ؛ لأنها إن وقعت ربما استعصى عليه تداركها وإن رأت المرأة بعضاً من ملامح نشوز الزوج فعليها أن تعالج الأمر .

ونلاحظ أن الحق يتكلم هنا عن نشوز الرجل . وسبق أن تكلم سبحانه عن نشوز المرأة :

﴿ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة النساء)

ما النشوز ؟ عندما نسمع عن الموسيقى نجد من يقول : « هذه نغمة نشاز » أى أنها نغمة خرجت عن تسلسل النغم وإيقاعه . والأصل فيها مأخوذ من النشز ، وهو ما ارتفع وظهر من الأرض ، والفروض فى الأرض أن تكون مبسطة ، فإن وجدنا فيها نتوء فهذا اسمه نشوز .

والأصل فى علاقة الرجل بزوجته ، أن الرجل قد أخذ المرأة سكناً له ومودة ورحمة وأفضى إليها وأفضت إليه ، واشترط الفقهاء فى الزواج التكافؤ أى أن يكون الزوجان متقاربين ، ولذلك قال الحق :

﴿ اَلْخَبِيْثَاتُ لَئِيْمَاتٌ هُنَّ اَلْخَبِيْثَاتُ الْخَبِيْثَاتُ وَالْخَبِيْثَاتُ لِلْخَبِيْثَاتِ وَالْخَبِيْثَاتُ لِلْخَبِيْثَاتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

حتى الكفاءة تكون فى الطيبة أو الخبيث ، فلا يأتى واحد بامرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كى لا تتعبه ، ولا يأتى واحد برجل خبيث ويوجه بامرأة طيبة كى لا يتعبها ، لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تريجه وتقدره .

وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنها يتوافقان فى الطباع والسلوك ، وفى هذا توازن ، والخبيث إن لم ينجل من الفضيحة ، فالخبيثة لا تنجى منها أيضاً ، أما الطيب والطيبة فكلاهما يخشى على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته ، فإن خافت امرأة من بعلمها نشوزاً أى ارتفاعاً عن المستوى المقترض فى المعاملة ، فى السكن والمودة والرحمة التى ينبغى أن تكون موجودة بين الزوجين ، وهى قد أفضت إليه وأفضى إليها ، فإن خافت أن يستعمل عليها بنفسه أو بالنفقة أو ينالها بالاحتقار ، أو ضاعت منه مودته أو رحمته ، هذا كله نشوز . وقبل حدوث ذلك على الزوجة الذكية أن تتببه لنفسها وترى ملامح ذلك النشوز فى الزوج قبل أن يقع ، فإن كانت الأسباب من جهتها فعليها أن تعالج هذه الأسباب ، وترجع إلى نفسها وتصلح من الأمر . وإن كانت منه تحاول كسب مودته مرة أخرى .

« وإن امرأة خافت من بعلمها نشوزاً أو إعراضاً ، والإعراض يعنى أنه لم ينشز بعد ولكنه لا يؤانس الزوجة ولا يحدثها ولا يلاطفها على الرغم من أنه يعطيها كل حقوقها . وعلى المرأة أن تعالج هذه المسألة أيضاً . والقضية التى بين اثنين - كما قلنا - وقال الله عنها :

﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكَ إِلَى بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

وقال في ذلك أيضاً :

﴿ مَنْ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أن يغطي الرجل المرأة وتغطي المرأة الرجل فهي ستر له وهو ستر لها وحماية .
ونعرف أن المرأة إن دخل عليها أبوها أو أخوها فهي تدارى أى جزء ظاهر من
جسمها ، أما عندما يدخل عليها زوجها فلا تستر ولا تخفى شيئاً .

ويعرف كل رجل متزوج وكل امرأة متروجة أن بينهما إفضاة متبادلاً ، فقد أباح الله
للرجل من زوجته ما لا يبيحه لأحد ، وكذلك المرأة ، فلا يقول الرجل أى نعت أو
وصف جارح للمرأة ، وعلى المرأة أن تحافظ كذلك على زوجها . ولها أن تتذكر أنها
اطلعت على عورته بحق الله ، واطلع على عورتها بحق الله .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينهى هذا الخلاف قبل أن يقع ؛ لذلك أوجب على
المرأة أن تبحث عن سبب النشوز وسبب الإعراض فقد تكون قد كبرت في العمر أو
نزلت بها علة ومرض وما زال في الرجل بقية من فتوة . وقد يصحح أن امرأة أخرى قد
استمالته ، أو يرضب في الزواج بأخرى لأي سبب من الأسباب ، هنا على المرأة أن
تعالج المسألة علاج العقلاء وتتنازل عن قسمها ، فقد تكون غير ملهجة وأراد هو
الزواج فلتسمع له بذلك ، أو تتنازل له عن شيء من المهر ، المهم أن يدور الصلح
بين الرجل وزوجته ، وهى مهمة الرجل كما أنها مهمة المرأة .

« فلا جناح عليهما أن يَصْلِحا بينهما صلحاً » والصلح هنا مهمة الاثنين معاً ؛ لأن
كل مشكلة لا تتعدى الرجل والمرأة يكون حلها يسيراً ، والذي يجعل المشكلات
صعبة هم هؤلاء الذين يتدخلون في العلاقة بين الرجل والمرأة ، وليس بينهما ما بين
الرجل والمرأة ، والرجل قد يختلف مع المرأة ويخرج من المنزل ويعدو ويعود ، فتقول له
الزوجة كلمة تنهى الخلاف لكن إن تدخل أحد الأقارب فالمشكلة قد تتعقد من تدخل
من لا يملك سبباً أو دافعاً لحل المشكلة .

لذلك يجب أن ننتبه إلى قول الحق هنا : « فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما » .

وأولى درجات الصلح بين الرجل والمرأة هو أن يقوم كل منهما بمسئوليته وليتذكر
الاثنان قول الحق :

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ١٩ سورة النساء)

ولا يظنن رجل أن هناك امرأة هي مجمع كل الجمال والخيرات ؛ لأن كل خصال
الخير التي تتطلبها الحياة ، قد لا تتوافر في المرأة الجميلة . بل قد توجد في المرأة التي
ليست على حظ من الحسن ؛ لأن ذات الحسن قد تستند إلى رصيد حسنها . أما التي
ليس لها حظ من الحسن فهي تحاول أن تكون أمينة ومطبعة ومديرة وحسنة التصرف
مع أهل الزوج ؛ لأنها تريد أن تستبقى لنفسها رصيد استبقاء .

ولذلك نجد اللاتي ليس لهن حظ من الحسن هن الغالبية الكبيرة في حمل أعباء
تكوين الأسرة ، فلا يصح أن يأخذ الرجل الزاوية الوحيدة للجمال الحسى ، بل عليه
أن يأخذ الجمال بكل جوانبه وزواياه ؛ لأن الجمال الحسى قد يأخذ بمقل الرجال ،
لكن عمره قصير . وهناك زوايا من الجمال لا نهاية لها إلا بنهاية العمر .

وقد حدثونا عن واحد من الصالحين كانت له امرأة شديدة المراس والتسلط
عليه ، وهو رجل طيب فقال لها : أه لو رأيتنى وأنا فى دروس العلم والناس
يستشفرون إلى سماعى . لقد ظن أنها عندما تراه فى مجلس العلم سترتدع ، وتكون
حنونة عليه .

وذهبت لحضور درس العلم ، وراها ، وظن أن ذلك سيزرع هيبة له فى قلبها ،
وعاد إليها آخر النهار وقال لها : لقد رأيتنى اليوم . فقالت : رأيتك وباحسة
مارأيت ، رأيت كل الناس تجلس باتزان إلا أنت فقد كنت تصرخ .

وحدثونا عن هذا الرجل أن الله كان يكرمه بالمدد جزاء صبره على امرأته ، وكان المريدون يرون إشراقات الله في تصرفاته ، وماتت امرأته . وذهب المريدون ولم يجدوا عنده الإشراقات التي كانت عنده من قبل . فسألوه : لماذا ؟ فقال : ماتت التي كان يكرمني الله من أجلها .

فكما أن المطلوب من المرأة أن تصبر على الرجل ، فالرجل مطلوب منه أن يصبر على المرأة . والذي يصبر عليها يؤتيه الله خيرها . ولذلك قالوا : « إن عمران بن حطان كان من الخوارج وكان له امرأة جميلة وكان هو دميم الملامح ، فنظرت إليه زوجته مرة وقالت : الحمد لله فقال لها : على أي شيء تحمدين الله ؟ قالت : على أني وأنت في الجنة . قال : لم ؟ قالت : لأنك رزقت بي فشكرت ، ورزقت بك فصبرت ، والشاكر والصابر كلاهما في الجنة .

ولا يظن واحد أنه سيجد امرأة هي مجمع الجمال والحسن في كل شيء . فإن كانت متدنية المستوى في جانب فهي متميزة في جانب آخر ، فلا تضعي الامتياز الذي فيها من أجل قصورها في جانب ما . وزوايا الحياة كثيرة . وقلنا سابقاً : إنه لا يوجد أحد ابناً لله ، بل كلنا بالنسبة لله عبيد . ومادمننا جميعاً بالنسبة لله عبيداً وليس فينا ابن له . وسبحانه أعطانا أسباب الفضل على سواء ، فهناك فرد قد أخذ الامتياز في جانب ، والآخر قد نال الامتياز في جانب آخر . هذا النقص في زاوية ما ، والامتياز في زاوية أخرى ، أراد به الله أن يجعل مجموع صفات ومزايا أي إنسان يساوي مجموع إنسان آخر حتى يتوازن العالم .

فإن وجد الإنسان شيئاً لا يعجبه في المرأة ، ووجدت المرأة شيئاً لا يعجبها في الرجل ، فعلى الرجل أن يضم الزوايا كلها ليرى الصورة المكتملة للمرأة ، وأن تضم المرأة كل الزوايا حتى ترى الصورة المكتملة للرجل .

والرجل الذي ينظر إلى كل الزوايا يحيا مرتاح البال ؛ لأنه يرى من الزوايا الحسنة أضعاف الزوايا التي ليست كذلك ، والذي يرضى هو من ينظر إلى المحاسن . والذي يغضب هو من ينظر إلى المقابح . والعاقل في الغضب والرضا هو من ينظر إلى مجموع هذا ومجموع هذا ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن تبني الأسرة على السلامة فيوضع لنا :

- لا تنتظر أيها الرجل ولا تنتظري أيها المرأة إلى أن يقع الخلاف ، فما أن تبدو البوادر فعليكما بحل المشكلات ، فليس هناك أحد قادر على حل المشكلات مثلكما ؛ لأنه لا يوجد أحد بينه وبين غيره من الروابط والوشائج مثل ما بين الرجل وزوجته ؛ لذلك قال سبحانه : « فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا » .

إننا في بعض الأحيان نجد الصلح يأخذ شكلية الصلح ، أما موضوع الصلح وهو إنهاء الجفوة والمواجيد النفسية فقد لا يوجد ، والذي يعرقل الصلح هو أننا نقوم بالشكلية ولا نعالج الأسباب الحقيقية المدفونة في النفوس ، والتي تسرب إلى موضوعات أخرى ؛ لذلك يجب أن يكون الصلح ، ويتم بحقيقته كقول الله تعالى : « أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » وعندما تراضى النفوس بعم الخير على الزوجين وعلى المجتمع .

وبعد ذلك يتابع الحق : « وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » . يوضح لنا سبحانه : أنا خالقكم وأعلم طبائعكم وسجاياكم وأعلم أنني عندما أطلب من المرأة أن تنازل عن شيء من نفقتها كمهرها أو هدية الخطبة الأولى « الشبكة » ، أو أن تنازل له عن ليلتها لينام عند الزوجة الأخرى . وأعلم أن هذا قد يصعب على النفس ، وكذلك يصعب على الرجل أن يتنازل عن مقاييسه ، إياكم أن يستولى الشح على تصرفاتكم بالنسبة لبعضكم البعض . وجاء الحق في آية وقال :

﴿ وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٢١ ﴾

(سورة النساء)

وهنا يقول : « وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » وهناك فرق بين الحقوق التي قد يتمسك بها أحد الزوجين ، والإحسان الذي يتطوع به . ونعرف ما فعله قاضٍ فاضل عندما قال لخصمين : أحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟

فسأل واحد : وهل هناك خير من العدل ؟ فقال القاضى : نعم إنه الفضل . فالعدل إعطاء الحق فقط ، والفضل أن يتنازل الإنسان عن حقه بالتراضى لأخيه .

ويذيل الحق الآية : « وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » وسبحانه وتعالى يريد أن يحل مشكلة نفسية قد تتعرض لها الأسر التي لا توجد فيها خيرة عقدية إيمانية ، لا عند الرجل ولا عند المرأة ، ولو كانت هذه الأسر تملك الخميرة الإيمانية المسبقة وأخذت أحكام الله بحققها لما وجدت هذه المشكلة ، إنها مشكلة التعدد .

ظاهر الأمر أن الرجل حين يعدد زوجاته يكون محظوظاً ، لأنه غير مقيد بواحدة بل له إلى أربع ، والمغبون هي المرأة ، لأنها مقيدة بزواج واحد ، فليست كل امرأة مهضومة ، لأن الزوجة الجديدة تشعر بالسعادة . وقد نجد امرأة قال لها زوجها : سأ تزوج بثانية ، ورضيت هي بذلك ، بعد أن وازنت بين أمورهما فاختارت خير الأمور .

روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها ، وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتقسم لي فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب إليّ فأقرها . إذن فالغمة في زواج الرجل من زوجة أخرى لا نعم كل النساء ، فإن أحدث الزواج الغم والحزن عند الزوجة الأولى فهو يحدث سروراً عند الزوجة الثانية . والمرأة معذورة في ذلك لأن الرجل أخذ حكم الله في أن يعدد ولم يأخذ مع هذا الحكم أن يعدل . والرجل يظلم المرأة حين يأخذ الحكم الذي في صالحه وهو إباحة التعدد ولا يأخذ من مبيع التعدد وهو المخرج الأعلى - وهو الله - الأمر بأن يعدل بين زوجاته .

لقد جنحت المجتمعات لأنهم رأوا الرجل حين يتزوج بأخرى لا يلتفت إلا للزوجة الجديدة ، ويهمل القديمة وأولاده منها ؛ لذلك فالنساء معذورات في أن يغضبن من هذه المسألة . ولو أن الرجل أخذ حكم الله بالعدل كما أخذ إباحة الله في التعدد لحدث التوازن . وحين تعرف المرأة الأولى أن حقها لن يضيع لا في نفسها ولا في بيتها ولا في رعاية أولادها . فهي تقول : « من الأفضل أن يكون متزوجاً أمام عيني بدلاً من أن يدس نفسه في أعراض الناس » .

إذن فالذي يثير المسألة كإشكال أن الرجل يأخذ بعض الكتاب فيعمل به ويترك بعضه فلا يطبقه ولا يعمل به . والذين يأخذون إباحة الله في التعدد لا بد أن يأخذوه

بأصوله التي وضعها الله في إطار العدالة . وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل ، فكل امرأة لها حق في البيتوتة ، ليلة لزوجته وليلة لأخرى مثلاً ، وكان -رضي الله عنه- لا يتوضأ عند واحدة في ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله . والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان في الطاعون ، أمر بدفن الاثنين في قبر واحد .

والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق وأمر بالعدالة في المستطاع ، وعلى الرجل أن يعدل زَمَنًا ، ويعدل نفقة ، ويعدل ابتسامة ، ويعدل مؤانسة ومواساة ، والرجل في كل ذلك يستطيع ، لكنه لا يستطيع أن يعدل في ميل القلب ، وهو أمر مكتوم ، لذلك قال الحق :

﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

أي أن العدل الحبي مستحيل . وقال النبي عليه الصلاة والسلام : (اللهم هذا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلْمَنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ) - يعني القلب - (١) .

إذن ففيه فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسيه والتزوع النفسى . والعملية الوجدانية لا يقدر عليها أحد ، ولا يوجد تقنين يقول للرجل : « أحب فلانة » .. إلا إذا أراد الحب العقل ، أما الحب العاطفى فلا . والذي يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل ، أما حب العاطفة فلا تقنين له أبداً .

وقد يحب الإنسان الدواء المر بعقله لا بعاطفته ويسر الإنسان من صديق جاء بهذا

الدواء من الخارج ؛ لأن الدواء سيشفيه بإذن الله .

إذن « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » ، ما هو كل الميل ؟ ويوضحه - سبحانه - بقوله : « فتذروها كالمعلقة » وهي المرأة التي لا هي آيم أى لا زوج لها فتطلب الزواج ، ولا هي متزوجة فتستمتع بوجود زوج ، ويحجزها الرجل دون أن يمارس مسئوليته عنها ، فيوضح الحق : أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا ، أو هناك ؛ لأن هذه المسألة ليست ملكاً لك ، ولكنى أريد العدالة في الموضوعات الأخرى ؛ كأن تسوى في البيوتة والنفقة ، ومطلوبات أولادك ، وأن تعدل بين أزواجك في الموائسة . أما المعنى الآخر وهو ميل القلب فانا لا أكلف به .

وسبحانه حين يشرع لخلقه أعلم بمن خلق ، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف ينشأ عنها ميل ، وجعل له غرائز ، وخيارات في الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على الميل لما خلقه ، ولكنه - جل وعلا - يطلق الميول لئتم بالميل مصالح الكون مجتمعة ، فحين يمنح القلب أن يحب ، يعلم سبحانه أن عبارة الكون تنشأ بالحب . فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله في خلقه لما حمل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة ، وكل ما يترتب على ذلك من مشقات .

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوداً . ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة في تبعات تربيته . إذن فالحب له مهمة . والله لا يريد منا أن نمنع الحب . لكنه يريد منا أن نعل مطالب الحب ، فنجعل للحب مجالاته المشروعة لا أن ينطلق الحب في الكون ليعر يد في أعراض الناس .

إنك حين تجعل الحب موجهاً إلى خير لا يأتيك منه أو للناس شر . وعندما ننظر - مثلاً - إلى دافع وغريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها في الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة في الحياة . ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف في أن يبتكر شيئاً أو يخترعه ويكتشفه حتى يربحنا نحن البشر ، ولما فكر الإنسان في أن يستعمل البخار ليحمل عن الناس مشقات السفر ومشقات حمل الثقل . إن هذا الاكتشاف أراحنا باختراع البانخرة أو القطار .

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلى غريزة حب الاستطلاع فينبغي أن نجعلها

في مجالها المشروع فلا نجعلها تمسكاً على عورات الناس مثلاً ، وكذلك جعل الله غريزة حب المال في الإنسان ؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل ، ويستفيد الناس من عمله أراد أولم يرد . كذلك غريزة الجنس جعلها الله في الإنسان ولها سعار ليحفظ بها النوع الإنساني . إنه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقاً يبلغ في أعراض الناس . إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة . والشرائع جاءت لتحفظ الغرائز في مجال مهمتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة في غير المجالات التي حددها لها المنهج .

إذن فالميل أمر فطري في النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه : أنا خلقت الميل ليخدم في عبادة الكون ، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلوه في هذا الميل ، وحين تعددون الزوجات . لا أطلب منكم البعد عن كل الميل ؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقل ، ولكن أحب أن تحمدوا الميل وتجعلوه في مجاله القلبي فقط ، ولا يصح أن يتعدى الميل عند أحدكم إلى ميله القلبي .

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت ، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قلبك لتعطى من تحب خير غيره ظليماً ، وأبغض أيها العبد من شئت ، فلا يستطيع مقنن أن يقنن للقلب أن يبغض أو يحب ، لكن ببغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم من تبغض .

ولنا الأموة في سيدنا عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - حينما مرّ عليه قاتل أخيه ، ولقت نظره جليس له : هذا قاتل أخيك .

هنا قال عمر - رضى الله عنه - : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟ كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر - رضى الله عنه - . وعندما جاء هذا القاتل لمجلس عمر ، قال له سيدنا عمر : إذا أقبلت على الوجهك عني ، لأن قلبي لا يرتاح لك . فسأل الرجل : أو عدم حبك لي يمننى حقاً من حقوقى ؟ . قال عمر : لا .

قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء . هذا عمر وهو الخليفة ، والرجل من الرعية . لكن عمر الخليفة يخاف من الظلم ، ويملك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليفة عمر - رضى الله عنه - قدرة الرفض لمشاعر الحب أو الكراهية ما دامت لا تمنع حقوقه كمواطن .

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يخلق ميول القلوب يضع أيضاً القاعدة : إياك أيها المؤمن أن تعدى ميل القلب إلى القلب ، وليكن ميل القلب كما تحب . كذلك إن أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأة أخرى فالمنهج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذي ينصب على شيء لا تملكه وهو ميل قلبك . ولكن المنهج يضع لك القواعد التي يسير عليها سلوك قلبك . عليك أن تعدل في قسمة الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث . ولا تخضع ذلك لميل القلب ، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار .

ونرى بعضاً من الذين يحبون أن يظهروا بين الناس كفاهمين للقرآن أو دعاة تهديد ، يركبون الموجة ضد التعدد . ونقول : قبل أن يركب الواحد منكم الموجة ضد التعدد ، ويقف منه موقف الرفض له مدعياً أنه يفهم النص القرآني ، إنا نقول له : عليك أن تبحث عن أسباب السخط على التعدد ، هي ليست من التعدد في ذاته ، ولكنها تأتي من أن المسلم يأخذ بإباحة الله للتعدد . ولا يأخذ بحكم الله في العدالة . فلو أن المسلم أخذ بالعدالة مع التعدد لما وجدنا مثل هذه الأزمة . ولذلك يقول الواحد من هؤلاء : إن الحق سبحانه وتعالى أمر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل في التعدد فقال :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

ثم جاء في آية أخرى وقال : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » .

ونقول : إن الواحد منكم إن أراد أن يفهم القرآن ، فعليه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف في هذه الآية عند قوله : (ولو حرصتم) إنما فرع على عدم الاستطاعة في العدل فقال : « فلا تميلوا كل الميل » إنه - سبحانه - فرع على عدم الاستطاعة في العدل فأمر بعدم الميل كل الميل . وتلك حكمة المشرع الأول الذي يعلم من خلق وكيف خلق . ولو أن الحق لم يفرع على « ولن تستطيعوا » لجاز هؤلاء الذين يركبون الموجة المطالبة بعدم التعدد أن يقولوا ما يقولون ؛ لذلك نقول لهم : انتبهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح : عدم استطاعتكم للعدل هو أمر أنا أعلمه ، ولذلك أطلب منكم ألا تميلوا كل الميل وذلك باستطاعتكم . ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقي الحكم ولم يسلبه .

« فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » . وفي هذا القول أمر بالآلا يترك الرجل زوجته الأولى كالمعلقة وهي المرأة التي لم يتحدد مصيرها ومسارها في الحياة ، فلا هي بغير زوج فتتزوج ، ولا هي متزوجة فتأخذ قسمها وحفظها من زوجها ، بل عليه أن يعطيها حفظها في البيتوتة والنفقة والملبس وحسن الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً » .

وقوله : « تصلحوا » دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التي جعلت الرجل يفسد في علاقته الزوجية ليقضى عليها . وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة في المعاملة على ضوء ما شرع الله . وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها في البيتوتة والنفقة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى الأولاد بصورة طيبة فإله سبحانه يغفر ويرحم ، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو ينوي ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقى ، ويمجد الحق غفوراً لما سبق ورحيماً به .

وإن لم يستطع الرجل هذا ، ولا قبلت المرأة أن تنازل عن شيء من قسمها ترضية له تكن الضرقة - هنا - أمراً واجباً . فليس من المعقول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد ، ولا يمكن أن نربط الزوجين بعدم الافتراق إن كانت القلوب متنافرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا .

إن الذي يقول : لا يصح أن نفرق بين الزوجين ، نقول له : كيف تريد أن تحكم الحياة الزوجية بالسلاسل ؟ والزواج صلة مبناها السكن والمودة والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترغم زوجاً على أن يعيش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترغم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه ؟ إن التفريق بينهما في مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه وتعالى ليرزق الزوج خيراً منها ويرزق الزوجة خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا في واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الحديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة ، أما الذين تشدقوا بمسألة عدم التفريق مع

استحالة الحياة الزوجية وهاجوا الإسلام في هذا المجال . فهم يرددون ما كان عند أهل الغرب : من أن الزواج لا انفصال فيه .

إننا نرى العالم كله الآن بكل النصارى واليهود وغيرهم من الملل والنحل يلجأون إلى الطلاق ؛ لأن الأحداث اضطرتهم إلى أن يشرعوا الطلاق ، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام ، ولكن على أنه الحل الوحيد لمشكلاتهم . فلذا ثبت أن الذين يهاجمون جزئية من جزئيات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن ننبههم إلى عدم التسرع والعجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامى بأنها غير صالحة ؛ لأن الحق أرغم من لم يكن مسلماً على أن ينفذ قضية إسلامية . فهو القائل :

﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۚ
وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾

وسبحانه عنده الفضل الواسع ، وهو القادر أن يرزق الزوج زوجة صالحة تشبع كل مطالبه ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يشبع كل احتياجاتها ويقبل دمايتها لو كانت دميعة ، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحي الخير والجمال فيها . وقد نجد رجلاً قد عضته الأحداث بجمال امرأة كان متزوجاً بها وخبلته وجعلت أفكاره مشوشة مضطربة وبعد ذلك يرزقه الله بمن تشاق إليه ، بامرأة أمينة عليه ، ويطمئن عندما يغترب عنها في عمله . ولا غملاً الهواجس صدره ؛ لأن قلبه قد امتلأ ثقة بها وإن كانت قليلة الحظ من الجمال .

« وإن يتفرقا يغن الله كلًّا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً » فإياك أن تظن بأن الله ليس عنده ما يريح كل إنسان . فسبحانه عنده كل ما يريح كل الناس . وصيدلية منهج الله مليئة بالأدوية ، وبعض الخلق لا يفقهون في استخدام هذه الأدوية لعلاج أمراضهم .

ومن الحكمة أنه سبحانه لا يرغم اثنين على أن يعيشا معاً وهما كارهان ؛ لأنها افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما .

ومن بعد ذلك يعقب الحق بآية :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾

وسبحانه هو الذى يُرضى الزوج إن افترق عن زوجته ، ويرضى الزوجة إن افترقت عن زوجها ؛ لأنه - جل وعلا - خلق الدنيا التى لن تضيق بمطلوب الرجل أو المرأة بعد الانفصال بالطلاق ، فله ملك السموات والأرض وهو القادر على أن يرزق الرجل امرأة هى خير من فارق، ويرزق المرأة رجلاً هو خير من فارقت ، فلا شيء يخرج عن ملك الله وهو الواسع العطاء .

إننا كثيراً ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم ، ويذهب الاثنان إلى معامل التحليل ، ويقال أحياناً : المرأة هى السبب فى عدم النسل ، أو : الرجل هو السبب فى عدم النسل ، ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر ، فتلد المرأة من الزوج الجديد ، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة ؛ لأن المسألة كلها مرادات الله ، وليست أمور الحياة مجرد احتمال أسباب تفرض على الله بل هو المسبب دائماً فهو القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَقِّ مَا يَشَاءُ يَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ بَرُوجَهُمْ ذُرِّيَّاتًا وَإِنَّا وَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا

إِنَّهُ عَزِيزٌ قَدِيرٌ ﴿٦٩﴾

(سورة الشورى)

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف ؟ . يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، هي بأربعة مقادير تجري على الرجل والمرأة . وعندما يهب الله المؤمن الإناث يكون سعيداً . وكذلك عندما يهبه الذكور ، وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط . فالزوجة تحب أن يكون لها ابنة . وإن وهب الحق لأسرة ذرية من الإناث فقط ، فالمرأة والرجل يتحنيان الابن ، وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدتهما قد وصلا إلى الحالة التي تقر بها العيون عادة . والحالة التي تقر بها العيون عادة مؤخرة .

إن الحالة التي تزهد النفس فيها فالحق يقربها إلى أوليات الهبة ، فقال أولاً : « يخلق ما يشاء » ، وبعد ذلك : « يهب لمن يشاء إناثاً » ثم ذكر عطاء الذكور ، ثم يأتي بالحالة التي يكون العطاء فيها في القمة : « أو يزوجهم ذكراً وإناثاً » .

وأخيراً يأتي بالقدر الرابع الذي يجربه على بعض خلقه وهو : « ويجعل من يشاء عقيماً » .

ولماذا يُسر الإنسان بقدر الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور ، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه - سبحانه - الذكور والإناث . ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيماً ؟ أنتعتقد أنك تأخذ القدر الذي تهواه ، وترد القدر الذي ليس على هواك ؟ إن المواقف الأربعة هي قَدَر من الله .

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضى بها .

إنه سبحانه يخلق ما يشاء ويجعل من يشاء عقيماً ، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فانه قد يقر عينه كما أقر عيون الآخرين بالإناث أو بالذكور ، أو بالذكور والإناث معاً . وأقسم لكم لو أن إنساناً - أو زوجين - أخذوا قدر الله في العقم كما أخذاه في غيره من المواقف السابقة برضا إلا رزقهم الله ، لا أقول بينين وبنات يرهقونهم في الحمل والتربية وغيرها ، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم ، وقد رباهم

غيرهم ، والذي يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون في ضيق ، هو أنهم في حياتهم ساطعون على قدر الله - والعياذ بالله - فيجعل الله حياتهم سخطاً . فهو القائل في حديثه القدسي :

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : يقول الله تعالى : (أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً ، تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة)^(١) .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول : « والله ما في السموات وما في الأرض » فإياك أن تقول كون الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لها فما دام سبحانه قد قرر الفراق كحل لعدم توافق في حياتهما معاً .. فهو سبحانه سيعطي عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة . وعليك أيها المسلم أن تطيع منهج الحق كما أطاع كل ما في السموات وكل ما في الأرض ، ثم اسأل نفسك هذا السؤال : من يقضي مصالحك كلها ؟ .

إنه الحق سبحانه الذي سخر أشياء ليست في طوق قدرتك ، أرغمت الشمس أن تشرق لك بالضوء والحرارة ؟ . أرغمت الماء أن يتبخر وينزل مطراً نقياً ؟

أرغمت الريح أن تمهب ؟ أضربت الأرض لتقول لها : غذى ما أضعه فيك من بذر بالعناصر اللازمة له والمحتاج إليها لينتج النبات ؟ . كل هذا ليس في طوق إرادتك بل هو مسخر لك بأمر الله . وإن أردت الاستقامة في أمرك ، لكنت كالمسخر فيما جعل الله لك فيه اختيار ولقلت لله : أنا أحب منهجك يا رب وما يطلبه مني سأنفذه قدر استطاعتي . فتكون بقلبك وقالبك مع أوامر المنهج ونواهيه ، فينسجم ويتوافق الكون معك كما انسجم الكون المسخر المقهور المسير .

« والله ما في السموات وما في الأرض » ، وهذا تذكير بأن كل شيء مملوك لله وفي

طاعته ، فلا تشذ أيها الخليفة لله عن الكون ، فكل ما فيه يخدمك . ولتسال نفسك : أتعيش في ضوء منهج الله أم لا ؟ لأن الكون قد انسجم وهو مسخر لله ، ولم يحدث أى خلل فى القوانين الكلية ، وسبحانه القائل :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ

بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وهذا إيضاح من الحق تبارك وتعالى : إن أردتم أن نستقيم لكم أموركم الاختيارية فانظروا إلى الكون ، فالأشياء المسخرة لا يحدث منها خلل على الإطلاق ، ولكن الخلل إنما يأتى من اختيارات الإنسان لغير منهج الله .

« ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » يوضح سبحانه : لقد وصينا الذين أنزلنا إليهم المنهج من قبلكم ، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر والنواهي ؛ لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات الله منكم حتى تكونوا منسجمين كالكون الذى تعيشون فيه ، ويصبح كل شئ يسير منتظماً فى حياتكم ، ولم يقل الحق هذه القضية للمسلمين فقط لكنها قضية كونية عامة جاء بها كل رسول : « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » .

ولم يقل : شرعنا للذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ولم يقل : فرضنا ، إنما قال : « ولقد وصينا » . وكلمة « وصية » تشعر المتلقى لها بحب الموصى للموصى . « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وتقوى الله تعنى أن نفعل أوامر الله وأن نتجنب نواهيه ؛ لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإن حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « وإن تكفروا فإن الله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً » ومقابل الكفر هو الإيمان ، ومن يخرج عن الإيمان فالله غنى عنه ، فلا تعتقدوا أيها المخاطبون بمنهج الله أننى أستميلكم إلى الإيمان لأنى فى حاجة إلى إيمانكم ، لا ، لكنى أريد منكم فقط أن تكونوا مجتمعاً سليماً ، مجتمعاً سعيداً ، وإن تكفروا فسيظل الملك كله لله ، وسيظل حتى - ولو كنت متمرداً - فى قبضة

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ①
وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ② نَبْعَةً
وَذَكَرَى لِكُلِّ عِبْدٍ مُنِيبٍ ③ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ
وَحَبَّ الْحَبِيدِ ④ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ⑤ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا
بِهِ بَلَدَةً مَيَّتًا كَذَلِكَ أَنْخَرُوجُ ⑥

وفي لحظة من اللحظات يأمر الحق كوناً من كونه فيختل نظامه فترى الأرض المستقرة وقد تزلزلت ، والتي قال عنها سبحانه :

وسبحانه هو الذى يملكها فيجعلها تضطرب ويحدث فى موقع منها زلزالاً ، فتندثر المباني التى عليه حتى تفهم أن الدنيا ليست محكومة حكماً آلياً ، بل محكومة بالأسباب ، وزمانها مازال فى قيومية المسبب ، ونلتفت مرة إلى بعض من الزواجر من التراب وهى تغلق المجال الجوى كله بحيث لا يستطيع واحد أن ينظر من خلاله ، وهذا لفت من الله لنا بوضوح : لقد صنعت هذه القوانين بقدرتى ، ولن تخرج هذه القوانين عن طلاقة قدرتى .

وفي موقع آخر من الكرة الأرضية نجد أرضاً منبسطة هادئة يعلوها جبل جميل ،

وفجأة تتحول قمة الجبل إلى فوهة بركان تلقى الحمم وتنفذ بالنار وتجري الناس لتنفذ نفسها ، ولذلك علينا أن نعرف أن عقل العاقل إنما يتجلى في أن يختار مراداته بما يتفق مع مرادات الله ، وعلى سبيل المثال . . لم يؤت العقل البشري القدرة الذاتية على التنبؤ بالزلازل ، لكن الحمار يملك هذه القدرة .

« وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً » وصدر الآية بالمقولة نفسها : « والله ما في السموات وما في الأرض » وذلك لتثبيت وتأكيد ضرورة الطاعة لمهج الله حتى ينسجم الإنسان مع الكون . ولنجيء المقولة مرة ثانية في الآية نفسها لثبت الحق أنه غنى ، ولا تقل إن المقولة تكررت أكثر من مرة في الآية الواحدة ، ولكن قل : إن الحق جاء بها في صدر الآية لتثبيت معنى ، وجاءت في ذيل الآية لتثبيت معنى آخر ، فسبحانه هو الغنى عن العباد :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۚ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ونجىء « والله ما في السموات وما في الأرض » لإثبات حيثة أن يطيع العبد خالقه . ونجىء « الله ما في السموات وما في الأرض » في ذيل الآية لإثبات حيثة غنى الله عن كل العباد . والمقولة نفسها تأتي في الآية التالية حيث يقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ

وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

ونجىء المقولة لثالث مرة لطمأنة الإنسان أن الله يضمن ويحفظ مقومات الحياة . فلن تتمرد الشمس يوماً ولا تشرق . أو يتمرد الهواء ولا يهب . أو تفسد الأرض عليك بعناصرها ، لأن كل هذه الأمور مسخرة بأمر الله الذي خلقك وقد خلقها وقدر فيها قوتك .

ولذلك يوضح ربنا : أنا الوكيل الذي أكفلكم وأغنيكم عن كل وكيل .

والوكيل هو الذى يقوم لك بمهامك وتجلس أنت مرتاح البال . والإنسان منا عندما يوكل عنه وكيلاً ليقوم ببعض الأعمال يحسّ بالسعادة على الرغم من أن هذا الوكيل الذى من البشر قد يخطئ أو يضطرب أو يخون أو يفقد حكمته أو يرتشى ، لكن الحق بكامل قدرته يطمئن العبد أنه الوكيل القادر ، فلتطمئن إلى أن مقومات وجودك ثابتة ؛ فسبحانه مالك الشمس فلن تخرج عن تسخيرها ، ومالك المياه ومالك الريح ومالك عناصر الأرض كلها . ومادام الله هو المليك فهو الحفيظ على كل هذه الأشياء . وهو نعم الوكيل ؛ لأنه وكيل قادر وليس له مصلحة .

وتعالوا نقرأ هذا الحديث :

فقد ورد أن أعرابيا جاء فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - أتى راحلته فأطلق عقلها ثم ركبها ثم نادى اللهم ارحمنى ومحمداً ولا تشرك فى رحمتنا أحداً . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أتقولون هذا أضل أم بعيره ألم تسمعون ما قال ؟ » قالوا : بلى ، قال : « لقد خُظرت^(١) رحمة واسعة . إن الله - عز وجل - خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنّها وإنسها وبهاثمها وأخر عنده تسماً وتسعين رحمة أتقولون هو أضل أم بعيره »^(٢) .

هو إذن كفى بالله وكيلاً وهو نعم الوكيل ، وهو يطمئن عباده ويبين أنه - سبحانه - هو القيوم بمعنى المبالغة فى القيام ، إذن كل شيء فى الكون يحتاج إلى قائم ؛ لذلك فهو قيوم . ويوضح الحق لكل إنسان : أن اجتهد فى العمل وبعد أن تتعب ثم ملء جفونك لأنى أنا الحق لا تأخلق سنة ولا نوم . فهل هناك وكيل أفضل من هذا ؟ . وكفى بالله وكيلاً .

ثم بأتى الحق بحقيقة أخرى تؤكد لنا أنه غنى عن العالين ، فلا يكفى أن يقول : إنه غنى وإنه خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن كفرت أياها الإنسان فالذنب عليك ، وإن أمنت بالإيمان أمان لك ، وأوضح : إياكم أيا البشر أن تعتقدوا أنكم خلقتُمْ وشردتم وأصبحتم لا سلطان لله عليكم . لا . قاله سبحانه يقول :

(١) حظرت : منعت وحجرت .

(٢) روى أحمد وأبو داود .

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ
بِآخَرِينَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ ﴿١٣١﴾

وبعض الفاعلين للبصيرة من الفلاسفة قالوا : صحيح أن الله قد خلقنا ولكننا
خرجنا من دائرة نفوذه . لا ، بل سبحانه إن شاء لذهب بكم جميعاً وأتى بآخرين ،
وما ذلك على الله بعزيز ، وهو القائل : « وكان الله على ذلك قديراً » .

حين نقرا « كان » بجانب كلمة « الله » فهي لا تحمل معنى الزمن ؛ فالله قدير
حتى قبل أن يوجد مقدور عليه ، فلم يكن قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل
بصفة القدرة خلق الإنسان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس له أختيار ؛ لذلك يظل
قديراً وموجوداً في كل لحظة ، وهو كان ولا يزال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٣٢﴾

ومادام الرسل قد أبلغوا الإنسان أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة فلم الغفلة ؟ ولم
لا تأخذ الزيادة ؟ ، ولماذا نذهب إلى صفقة الدنيا فقط مادام الحق يملك ثواب الدنيا
من صحة ومال وكل شيء ، وإن اجتهد الإنسان في الأسباب يأخذ نتيجة أسبابه .
فالحق يقول :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ
مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ ﴿١٣٣﴾

ولم يقل الحق : إن « الآخرة » في مقابلة للدنيا ، وأن من يأخذ الدنيا لن يأخذ الآخرة أو العكس ، بل يريد - سبحانه - للإنسان أن يأخذ الدنيا والآخرة معاً ، فيا من تريد ثواب الدنيا لا تحرم نفسك بالحقوق من ثواب الآخرة . وكلمة « ثواب » فيها ملحظ ؛ فهناك أشياء تفعل لك وإن لم تطلب منها أن تفعل ، وتتفع بعملها وإن لم تطلب من الأشياء أن تفعل . وهناك أشياء أخرى تتفعل بحركتك ، فإن تحركت وسعيت وعملت فيها تعطك .

مثال ذلك الأرض ، فإن بذرت فيها تخرج الزرع ، واختلافات الناس في الدنيا تقدماً وتأخراً وحضارة وبداءة وقوة وضعفاً إنما تأتى من القسم الذى يتفعل للإنسان ، لا من القسم الذى يُفعل للإنسان . ويسخر له ، وتقدم بعض البشر في الحضارة إنما جاء لأنهم بحثوا في المادة والعناصر ، وأنجزوا إنجازات علمية هائلة في المعامل ، فإن أردت أن تكون متقدماً فعليك أن تتعامل مع العناصر التى تتفعل لك ، والأمم كلها إنما تأخذ حضارتها من قسم ما يتفعل لها ، وهم والمتأخرون شركاء فقط فيها يُفعل لهم ويسخر لصالحهم .

وإن أردنا الارتقاء أكثر في التحضر . . فعلينا أن نذهب إلى ما يُفعل ويسخر لنا ونعامل معه حتى يتفعل لنا . . كيف ؟ .

الشمس تمدنا بالضوء والحرارة ، ونستطيع أن نتعامل مع الشمس تعامللاً آخر يجعلها تتفعل لنا ، مثلما جئنا بعدسة اسمها « العدسة اللامة » التى تستقبل أشعة الشمس وتتجمع الأشعة في بؤرة العدسة ، فتحدث حرارة تشعل النار ، أى أننا جعلنا ما يُفعل لنا يتحول إلى منفعل لنا أيضاً . ويسمون ذلك الطموح الانبعاثى . والمطر يفعل للإنسان عندما ينزل من السماء في وديان ، ويستطيع الإنسان أن يحوله إلى منفعل عندما يضع توربينات ضخمة في مسارات نزوله فينتج الكهرباء .

إذن فحضارات الأمم إنما تنشأ من مراحل . المرحلة الأولى : تستخدم ما يتفعل لها ، والمرحلة الثانية : ترتقى فتستخدم ما يتفعل معها . والمرحلة الثالثة : تستخدم ما يفعل لها كمنفعل لها ؛ مثال ذلك استخدام الطاقة الشمسية بوساطة أجهزة تجمع هذه الطاقة ارتقاء مع استخدام ما يفعل للإنسان لينفعل مع الإنسان .

وأسمى شيء في الحضارة الآن هو أشعة الليزر التي تصنع شبه المعجزات في دنيا الطب . وكلمة « ليزر » مأخوذة كحروف من كلمات تؤدي معنى تضخيم الطاقة بواسطة الانبعاث الاستحثاثي ، فكلمة « ليزر » - إذن - مثلها مثل كلمة « ليمتد » فاللام من كلمة . والياء من كلمة ، والميم من كلمة ، والتاء من كلمة ، والدال من كلمة ، وذلك لتدل على مستى .

وترجمة مستى « ليزر » هو تضخيم الطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثي . ففيه انبعاث تلقائي هو مصدر الطاقة الذي يُفعل للإنسان وإن لم يطلبه ، أما الانبعاث الاستحثاثي فينتج عندما يحث الإنسان الطاقة لتفعل له شيئاً آخر . والانبعاث التلقائي متمثل في الشمس فتعطي ضوءاً وحرارة . وعندما جلس العلماء في المعامل وصمموا العدسة التي تنتج هذه الأشعة أهاجوها وأثاروها وأخذوها ليصنعوا منها طاقة كبيرة . وهكذا أنتجوا أشعة الليزر التي هي تضخيم للطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثي ، ولأن العنوان طويل فقد أخذوا من كل كلمة حرفاً وكونوا كلمة « ليزر » .

إذن فالارتقاءات الحضارية تأتي عن طريق تعامل الإنسان مع القسم الذي يفعل للإنسان ، واستحثاث واستخدام ما يُفعل له بطريقته التلقائية ليفعل معه كأشعة الشمس مثلاً .

وجئنا بذكر كل ذلك من أجل أن نستوضح أفلق قول الحق : « من كان يريد ثواب الدنيا » . وكلمة « ثواب » إذن توحى بأن هناك عملاً ، فالثواب جزاء على عمل . فإن أردت ثواب الدنيا ، فلا بد أن تعمل من أجل ذلك . فلا أحد يأخذ ثواب الدنيا بدون عمل .

ومن عظمة الحق ولطفه وفضله ورحمته أن جعل ثواب الدنيا جائزة لمن يعمل ، سواء آمن أم كفر ، ولكنه خص المؤمنين بثواب باق في الآخرة .

ولذلك يقال : « الدنيا متاع » . ويزيد الحق على ذلك : « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً » . ومن الحق أن يوجد طريق يعطى الإنسان جزاءين ثم يقصر همه على جزاء واحد .

وهنا ملحوظ آخر ؛ فحينما تكلم الحق عن ثواب الدنيا ، دل على أنه لا بد من العمل لتأخذ الدنيا ، ولم يذكر الحق ثواباً للآخرة ، بل جعل سبحانه الثواب للآيتين . . الدنيا والآخرة ، إذن فالذى يعمل للدنيا من المؤمنين إنما يأخذ الآخرة أيضاً ؛ لأن الآخرة هي دار جزاء ، والدنيا هي عطية وطريق وسبيل . فكان كل عمل يفعله المسلم ويجعل الله في بآله . . فآله يعطيه ثواباً في الدنيا ، ويعطيه ثواباً في الآخرة .

ويذيل الحق الآية : « وكان الله سميعاً بصيراً » - إذن - فثواب الدنيا والآخرة لا يتأتى إلا بالعمل ، والعمل هو كل حدث يحدث من جوارح الإنسان ، القول - مثلاً - حدث من اللسان ، وهو عمل أيضاً ، والمقابل للقول هو الفعل . فالأعمال تنقسم إلى قسمين : إلى الأقوال وإلى الأفعال . ولتوضيح هذا الأمر نقرأ قول الحق :

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ ﴾

(سورة الفجر)

وعندما سمع الأغنياء هذا القول عرفوا سلوكهم « ولما سمع الفقراء هذا القول ، كأنهم قالوا : نحن لا نملك ما نطعم به المسكين ، فكان في قوله تعالى : « وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ » ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء : أى حضوا غيركم على العطاء . أى أن الذى لا يملك يمكنه أن يكلم الغنى ليعطى المسكين ، والحض هو كلام . والكلام نوع من العمل .

والحق سبحانه وتعالى يستنفر المؤمنين لينصروا دين الله فيقول :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ ﴾

(سورة التوبة)

هو سبحانه أبقى الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون في القتال وأسقطه عنهم ولم يحاسبهم عليه ، ولكن في الآية نفسها ما يحدد المطلوب من هؤلاء ، وهو أن ينصحوا لله ورسوله . إذن فقير القادر يمكنه أن يتكلم بفعل الخير ويذكر به الآخرين

وينصح به ، هذا هو معنى قول الحق : « وكان الله سميعاً بصيراً » فسيحانه يسمع قول من لا يستطيع ولا يملك القدرة على سلوك ما ، وسيحانه بصير يرى صاحب كل سلوك .

إذن فتواب الدنيا يحتاج إلى عمل ، والعمل هو انفعال كل جارحة بمطلوبها ، فاللسان جارحة تتكلم ، واليد تعمل ، وكل جوارح الإنسان تعمل ، لكن ما عمل القلوب ؟ عمل القلوب لا يُسمع ولا يُرى ، ولذلك قال الحق عن إخلاص القلب في حديث قدسي :

(الإخلاص سرٌّ من أسرارى استودعته قلب من أحببت من عبادى)^(١) .

وهكذا نعرف أن نية القلوب خاصة بالله مباشرة ولا تدخل في اختصاص رقيب وعنيد وهما الملكان المختصان برقابة وكتابة سلوك وعمل الإنسان ، ولذلك نجد الحق يصف ذاته في مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير ، لطيف بعلم ما يدخل ويتغلغل في الأشياء ، وخبير بكل شيء وقدير على كل شيء . ونجد الحديث الشريف يقول لنا :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(٢) .

فالعمل يكون بالجوارح ، ومن الجوارح اللسان ، وحتى تضبط هذه المسألة لنتفرق ما بين الفعل والعمل : نقرأ ونفهم هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾^(٣)

(سورة الصف)

ونجد المقابل للقول هو الفعل . والكل عمل . ويأتى نوع آخر من الأعمال ، لا هو قول ولا هو فعل ، وهو « النية القلبية » . وعندما يقول الحق : إنه كان سميعاً بصيراً ، فالمعنى أنه سميع للقول ، وبصير بالفعل .

(١) رواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف ، والآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة كثيرة في هذا الباب .

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ
شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا
الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ تَعْرِضُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

وساعة ينادى الحق عباده المؤمنين قائلاً : يا أيها الذين آمنوا ، فكأنه يقدم حيثية الحكم الذى يأى بعده ، ونحن نرى القضاء البشرى قبل أن ينطق بمنطوق الحكم ، يورد حيثيته ، فيقول : « بما أن المادة القانونية رقم كذا تنص على كذا ، حكمنا بكذا » . إذن : فالحيثيات تتقدم الحكم الذى يحكم به الله هو الإيمان به ، مثل قول الحق :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة البقرة)

حيثية الكتابة هنا وفى أى حكم آخر هى إيمان العبد بالله رباً ، فليسمع العبد من ربه . وسبحانه لا يكلف كل الناس بالتكاليف الإيمانية ، ولكنه يكلف المؤمنين فقط . وهو يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فالقسط يدخل على الإيمان بقمة القسط ، فالقسط هو العدل ، والعدل أن يعطى العادل كل ذى حق حقه . وحق الإله الواحد أن يؤمن به الإنسان ويعترف أنه إله واحد .

إن قمة القسط - إذن - هى الإيمان . ومادام المؤمن قد بدأ إيمانه بقمة القسط وهو الإيمان ، فليجمل القسط سائداً فى كل تصرفاته . وإياك أن تجعل القسط أمراً أو حدثاً يقع مرة وينتهى ، وإلا لما قال الحق مع إخوانك المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » .

ولم يقل الحق لك مع إخوانك المؤمنين : كونوا قائمين بالقسط ، بل قال « كونوا قوامين بالقسط » أى أن المطلوب هو الاستمرارية للسلوك العادل . فنحن نقول : « فلان قائم » و« فلان قوام » . ونعرف أن كلمة « قوام » هي صيغة مبالغة . وعلى ذلك يكون الأمر الإلهي لكل مؤمن : لا تقم بالقسط مرة واحدة فقط ، بل اجعله خصلة لازمة فيك ، وتنفعل القسط في كل أمور حياتك . والقسط كما علمنا من قبل في ظاهر أمره هو العدل ، وأيضاً الأقساط هي العدل .

وقد أحدثت كلمة « القسط » ضجة عند العلماء ، وقلنا تعليقا على ذلك : إن المسألة بسيرة . . فـقسط يقسط قسوطاً أى جار وظلم ، فإذا أذهب الإنسان الجور والظلم يقال : « أقسط فلان » أى أذهب الجور . إذن : « القسط - بكسر القاف - هو العدل الابتدائي ، لكن الإقساط هو عدل أزال جوراً كان قد وقع .

وهب أن أناساً جاءوا لقاضٍ فحكم بينهم بالعدل ، فهذا هو القسط ، وقد يستأنف أحد الطرفين حكم المحكمة الابتدائية ووجدت محكمة الاستئناف خطأ في التطبيق فأصدرت حكماً بإزالة الجور ، وهذا الحكم الذى من الدرجة الثانية اسمه إقساط . وهكذا ينتهى جدل العلماء حول هذه المسألة ، فالقسط عدل من أول درجة ، والإقساط يعنى أنه كان هناك جور فرفع ، لأنه مسبوق بهمة اسمها « همزة الإزالة » ، فيقال : أعجم الكتاب . أى أن الكتاب كان فيه عجمة ، أى كان بالكتاب شيء مستتر وخفى عليهم فأزال ما به من عجمة . وتسمى قواميس اللغة « المعاجم » والواحد معجم أى يعطى معانى الألفاظ فيزيل خفاءها . وكذلك معنى « أقسط » أى أزال الجور .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فانت أيها المؤمن قد فعلت بالعقل أول مرتبة في القسط ، ورددت الإيمان إلى الرب فهو المستحق له وعليك إشاعة كل القسط في كل سلوكك .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » ولا يكفى أن يكون المؤمن قائماً بالقسط فقط ، بل لا بد أن تكون الشهادة لله . لماذا ؟ .

هب أن رجلاً كافراً بالله - والعياذ بالله - يقيم العدل بين الناس لكنه لا يدخل

بذلك العدل في حيثة الإيمان ، فالذى يدخل في حيثة الإيمان يكون قائماً بالقسط وفي
بإله الله وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعة ولا لغاية ولا هوى
ولا لغرض ، وإنما ليستقيم كون الله كما أراد الله ، وإلا لو حكم أحد بهوى لفسدت
الأرض ، والحق يقول :

﴿ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المؤمنون)

للك لا بد أن يكون المؤمن قواماً بالقسط وفي بإله الله ، ولذلك فالقيام بالقسط
وحده لا يكفي ، ونحن نسمع : فلان عادل ولو أنه من ديانة أخرى غير الإسلام أو
كان ملحداً . ونقول : هذا العادل من أى دين أو عقيدة غير الإسلام يأخذ ثناء
البشر لكنه لا يأخذ ثناء الله ولا ثوابه ، ولذلك فالقوام بالقسط يجب أن يفعل بقصد
امتثال أمر الله لينال الثواب من الله .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » والشاهد في العادة هو من
يشهد لمصلحة واحد ضد آخر ، وعندما يقر الشاهد بذنب فهو قد شهد على نفسه ،
والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجع الحكم ، والشاهد على نفسه يقر بما
فعل ، والإقرار سيد الأدلة . وشهادة الشاهد تقدم للقاضي الدليل الذى يرتب عليه
الحكم . وهكذا يشهد المؤمن على نفسه .

وهناك معنى آخر : أنه يشهد على نفسه ولو كانت الشهادة نجر وبالا عليه ، وهذه
المعاني من معطيات الإشاعات القرآنية ، فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار ، وقد
لا تكون الشهادة على النفس بل قد تكون الشهادة واجبة عليه يؤديها لمصلحة غيره
ولا يخاف فيها الشاهد من السلطان حتى وإن جار السلطان على المؤمن وأصابه بوبال
في نفسه أو ماله ، ومن الناس من أصابه وبال في نفسه أو أهله من السلطان لمجرد
كلمة حق قيلت . فالسلطان قد لا يأخذ الإنسان بذنبه ، بل قد يأخذ أهل الإنسان
بهذا الذنب . والحق يوضح للعبد : لا تهتم بذلك ولا تقولن سيعذبون العيال أو
سيأخذون كل شيء ، إننى أنا الموجود المتكفل بعبادى .

ويطلب الحق من المؤمنين : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو

الوالدين والأقربين . . . وحين يشهد الإنسان على نفسه فلن يكون أبوه أو أمه أو أحد أقاربه أعز منه .

ثم يدخل بنا الحق إلى أن استحثاثات مخالفة العدالة تدخل فيها الأهواء ، وحين يرجح إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع ، فالمرجع هو هوى النفس ، ومنشأ الهوى أن يكون المشهود عليه غنياً فيخاف الإنسان أن يشهد عليه ، فيمنعه من خيراً ما .

ولذلك حدد الحق قوامه المؤمنين بالقسط والشهادة لله ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقارب ، ولا يصح أن يضع أحد من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه في البال ، بل يجب أن يكون البال مع الله فقط ، لذلك قال : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

وقد يقول قائل : إن الهوى قد ينحاز إلى الغنى طمعاً في ثرائه ، فلماذا يذكر الله الفقير أيضاً ؟ ونقول : قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمةً بالفقير فيحدث الشاهد نفسه « أنه فقير ويستحق الرحمة » ، لذلك يحذرننا الحق من الانحياز إلى الغنى أو إلى الفقير .

ولا دخل للشهادة براء الثرى أو بفقر الفقير ، لأن العبد المؤمن ليس أولى أو أحق برعاية مصالح الناس من خالفهم - جل شأنه - ولذلك جاء بالحبيبة الملجمة « فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أى أنك أيها العبد لم تخلق أحداً منها ولكن الله خالق الاثنين وهو أولى بهما فليس لك أن تقيم شهادتك على الثراء أو على الفقر لأنك لست القيم على الوجود .

والذى يفسد ويشوش على العدل هو الهوى ، والمثل العربى يقول : « آفة الرأى الهوى » . وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تفسد قدرتكم على العدل وتجنحوا بعيداً عنه . والتاريخ العربى يحتفظ لنا في ذاكرته حكاية رجل فاضل ذهب إلى الخليفة وقال له : أعفى من القضاء ! فقال الخليفة : فمن يكون للقضاء إذن وأنت العادل الذى شهد له كل الناس بذلك ؟

فقال القاضي : والله يا أمير المؤمنين لقد عرف الناس عني أني أحب الرطب - أي البلح - وبينما أنا في بيتي وإذا بالخدام قد دخل ومعه طبق من رطب وكنا في بواكير الرطب ، ومن الطبيعي أن تكون النفس في لهفة عليه مادامت تحبه ، ويتابع القاضي حكايته للخليفة : فقلت للخدام من جاء به ؟ فأجاب الخدام : إنه واحد صفته كذا وكذا فتذكرت أن من أرسل الرطب هو واحد من المتقاضين أمامي ، فرددت عليه الرطب ، ولما كان يوم الفصل في قضية صاحب الرطب ، دخل الرجل على معرفته فوالله يا أمير المؤمنين ما استويا في نظري هو وخصمه على الرغم من أني رددت الطبق . وهكذا استقال القاضي العربي المسلم من منصب القضاء .

ويتابع الحق سبحانه : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » . أن تلووا في الشهادة واللى هو التحريف . . أي تحرفوا الشهادة وتغيروها ، فإن الله بما تعملون خبير ، أو أن يُعرض الشخص عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه ؛ لذلك يقال : إنه خائف من المشهود عليه ؛ لأن الشهادة ترجع حكم المشهود له ؛ لهذا فهو يعرض عن الشهادة ، وإن جاء للشهادة فهو يلف الكلمات ويلوى لسانه بها ؛ لذلك يقول الحق : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فالذي يفسد العدل هو الهوى ، والهوى عمل القلب ؛ لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف . فعلينا أن نعلم أن النيات عمل القلوب . وبذلك صار العمل ينقسم الآن أماناً إلى ثلاثة أقسام : قول لسان ، وفعل بجوارح غير اللسان ، ونيات قلوب وهوى .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ
الَّذِي أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وَكُفُّبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

بَعِيدًا ﴿١﴾

وقد يقول إنسان ما : كيف يقول الحق في صدر هذه الآية منادياً المؤمنين بالإيمان فقال : آمنوا ، وبعد ذلك يطالبهم بأن يؤمنوا ؟ ونقول : نرى في بعض الأحيان رجلاً يجري كلمة الإيمان على لسانه ويعلم الله أن قلبه غير مصدق لما يقول ، فتكون كلمة الإيمان هي حق صحيح ، ولكن بالنسبة لمطابقتها لقلبه ليست حقاً . وتعرضنا من قبل لقول الحق :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا ابْشِرْ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴾

(سورة المنافقون)

لقد شهد المنافقون أن رسول الله مرسل من عند الله ، هذه قضية صدق ، لكن الله العليم بما في القلوب يكشف أمرهم إلى الرسول فيقول :

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

لقد وافقت شهادتهم بألستهم ما علمه الله . لكن القول منهم يخالف ما في قلوبهم . فشهد الحق إنهم لكاذبون . ويعلم سبحانه كذبهم في شهادتهم ؛ لأن المنافق منهم لم يشهد صحيح الشهادة ؛ لأن الشهادة الحقة هي أن يواطىء اللسان القلب . وبعض من الأغبياء الذين يحاولون الاستدراك على القرآن قد عميت بصيرتهم عن الإحساس باللغة والفهم لأسرارها ؛ لذلك يتخبطون في الفهم . فهم لا يعرفون صفاء التلقى عن الله . وقالوا : إن بالقرآن تضارباً ، ولم يعرفوا أن كذب المنافقين لم يكن في مقولة: إن محمداً رسول الله، ولكن في شهادتهم بذلك . وكذبهم الله في قولهم: «نشهد» فقط ، فقد أعلنوا الإيمان بألستهم ولم تؤمن قلوبهم .

وإن أردنا أن نفهم أن الخطاب للمؤمنين عامة ، بأن يؤمنوا ، فهذا طلب للارتقاء

بمزید من الإيمان ، ولنا فی قول الحق المثل الواضح فی حدیثه للنبی ۖ قال الحق :
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾
 (سورة الاحزاب)

الحق هنا يقول للمتقى الأول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق
 الله » ، أى بأمره بالقيام دائماً على التقوى .

إذن فمعنى قول الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » أن الحق يخاطبكم بلفظ
 الإيمان . ويريد أن يتصل إيمانكم بعد كلامه الحق مع إيمانكم قبل كلامه ،
 فلا ينقطع ولا يتفصم خيط الإيمان أبداً . بل لا بد من المداومة على الإيمان ،
 وألا يترك مؤمن هذا الشرف . فإن رأى واحد منكم منادى بوصف طلب منه الوصف
 بعده فليعلم أن المراد هو المداومة .

ونعلم أن الحق هنا يخاطب مؤمنين ومنافقين وأهل كتاب ؛ لذلك فلا بد أن
 تشملهم الآية : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله » لأن الإنسان إن آمن بالله
 فقط ، فهذا يقتضى أن يبحث المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطلوب الله إنما جاء به
 رسول ؛ لذلك فالإيمان بالله يقتضى أن يؤمن الإنسان برسول ، لأن قصارى
 ما يعطيك العقل أيها الإنسان أن تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويدبره . ولكن
 ما اسم هذا الإله ؟ لا يعرف الإنسان ذلك إلا عن طريق الرسول .

إن هذه أمور لا تعرف بالعقل ولكن لا بد من الإخبار بها ، وكذلك مطلوبات
 الله ، وكذلك جزاء المؤمنين على حسن إيمانهم ، ولذلك لا بد من مجيء رسول
 للبلاغ .

إذن فلا بد مع الإيمان بالله أن تؤمن بالرسول . ومادمت أيها المؤمن قد آمنت
 برسوله فلا بد أن تؤمن بالكتب التى جاءت على لسان الرسول . وهذه الكتب تقول
 لك : إن هناك خلقاً لا تراهم وهم الملائكة ، والمَلَكُ يأتى بالوحى وينزل به على
 الرسول ، على الرغم من أنك لم تر الملك فأنت تؤمن بوجوده .

إذن فالقمة الإيمانية هى أن تؤمن بالله ، ولازمها أن تؤمن برسول الله ، وأن تؤمن

بكتاب مع الرسول ، وأن تؤمن بما يقوله الله عن خلق لا تستطيع أن تدركهم كالملائكة . وهذا الأمر بالإيمان هو مطلوب من أهل الكتاب لأنهم آمنوا برسولهم ، ويطلب منهم أن يؤمنوا برسول الله وبما أنزل عليه .

ويترك الحق سبحانه وتعالى لخلقه أن يكتشفوا وجوداً لكائنات لم تكن معلومة لأنهم حُدِّثُوا بأن في الكون كائنات أبلغنا الله بوجودها ولا ندركها وهم الملائكة . - إذن - فالدليل عندهم يحتمل ويدفعهم إلى الكشف والبحث .

والمثال على ذلك الميكروب الذي لم تعرفه البشرية إلا في القرن السابع عشر الميلادي ، وكان الميكروب موجوداً من البداية ، لكننا لم نكن ندركه ، وبعد أن توصلت البشرية إلى صناعة المجاهر أدركناه وعرفنا خصائصه وفصائله وأنواعه . وما زالت الاكتشافات تسعى إلى معرفة الجديد فيه ، هو جديد بالنسبة لنا ، لكنه قديم في وجوده .

ومعنى ذلك أن الله يوضح لنا : إذا حُدِّثَ أيها الإنسان من صادق على أن في الكون خلقاً لا تدركه أنت الآن فعليك بالتصديق ؛ فقبل اكتشاف الميكروب لو حدث الناس أحد بوجود الميكروب في أثناء ظلام العصور الوسطى لما صدقوا ذلك ، على الرغم من أن الميكروب مادة من مادة الإنسان نفسها لكنه صغير الحجم بحيث لا توجد آلة إدراك تدركه . وعندما اخترعنا واكتشفنا الأشياء التي تضاعف صورة الشيء مئات المرات استطعنا رؤيته ، فعدم رؤية الشيء لا يعني أنه غير موجود .

فإذا ما حدثنا الله عن خلق الملائكة والجن والشيطان الذي يجري في الإنسان مجرى الدم ، فهنا يجب أن يُصدق ويؤمن الكافر والملحد بذلك ، لأنه يُصدق أن الميكروب يدخل الجسم دون أن يشعر الإنسان ، وبعد ذلك يتفاعل مع الدم ثم تظهر أعراض المرض من بعد ذلك ، وقد علم ذلك بعد أن تمَّيات أسباب الرؤية والعلم . فإذا كان الله قد خلق أجناساً من غير جنس مادة الإنسان فلنصدق الحق :

﴿ بَنَّا بِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ﴾

وَالكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴿١﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

والمعروف أن الكتاب هو القرآن وهو عَلَّم عليه ، أما الكتاب الذي أنزل من قبل فلنعرف أن المراد به هو جنس الكتاب . . أى كل الكتب التى نزلت على الرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذلك يقال على « ال » السابقة لكلمة الكتاب الثانية : « هى » ال « الجنسية . والجنس كما نعلم - تحته أفراد كثيرة بدليل أن الحق سبحانه وتعالى يأتى بالمفرد ويدخل عليه الألف واللام ويستثنى منه جماعة ، مثال ذلك :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَيْرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

(سورة العصر)

نجد « الإنسان » هنا مفرد ، ودخلت عليه « ال » ، واستثنى من الإنسان جماعة هم الذين آمنوا ، وهذا دليل على أن « الإنسان » أكثر من جماعة . ولذلك يقولون : إن الاستثناء معيار العموم . . أى أن اللفظ الذى استثنينا وأخذنا وأخرجنا منه لفظ عام .

ويطالبنا الحق بالإيمان بالكتاب أى القرآن ، فإذا أطلقت كلمة « الكتاب » انصرفت إلى القرآن ، لأن « ال » هنا (للغلبة) ، مثال ذلك : يقال : « هو الرجل » ، وهذا يعنى أنه رجل متفرد بمزايا الرجولة وشهامتها وقوتها ، فإذا أطلقنا الكتاب فهى تعنى القرآن ، لأن كلمة الكتاب غلب إطلاقها على القرآن فلا تنصرف إلا إليه ، أو أنه هو الكتاب الكامل الذى لا نسخ ولا تبديل له ، فـ « ال » هنا للكمال أما الكتاب الذى أنزل من قبل فهو يشمل التوراة والإنجيل وسائر الكتب ، والصحف المنزلة على الأنبياء السابقين .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » أى إن آمن بالله وكفر ببقية ما ذكر فى الآية فهو كافر أيضاً .

وكان بعض اليهود كعبداً بن سلام ، وسلام بن أخته ، وسلمة بن أخيه ،

وأسد وأسيد ابني كعب ، وثعلبة بن قيس ، ويامين بن يامين قد ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نحن نؤمن بك وبكتابك وموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسول ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن ويكل كتاب كان قبله » فقالوا : لا نفعل . فنزلت فأمنوا كلهم^(١) .

والخطاب والنداء يشمل أيضا المنافقين . أى يأيا الذين آمنوا في الظاهر نفاقاً ، أخلصوا لله واجعلوا قلوبكم مطابقة لأستكم ، فالنداء - إذن - يشمل المؤمنين ليستديموا ويستمروا على إيمانهم ، ويضم الكافرين من أهل الكتاب ليؤمنوا بكل رسول ويكل كتاب ، وهو أيضا للمنافقين ليخلصوا في إيمانهم حتى تطابق وتوافق قلوبهم أأستهم .

إذن فمن يكفر بأى شيء ذكره الله في هذه الآية فقد كفر بالله .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً »
« ضل » أى سار على غير هدى ، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود يقال : ضل الطريق ، والذي « ضلّ ضلالاً بعيداً » هو من يذهب إلى متاهة بعيدة ، والمقصود بها متاهة الكفر .

وهناك ضلال عن الهدى يمكن استدراكه ، أما الضلال البعيد والفرق في متاهة الكفر فمن الصعب استدراكه ، والضلال متحدون في نقطة البداية ، لكنهم فريقان مختلفان ، فأحدهما يسير في طريق الإيمان وهو متبته دائماً إلى غايته وهى رضا الله بتطبيق مطلوباته ، ويحذر أن يخالف عن أمره ، والآخر انحرف من البداية فوصل إلى متاهة الكفر .

ويقول الحق من بعد ذلك :

(١) الكشف جاز الله الزهري .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ
وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ ١٣٧

وهؤلاء هم المنافقون الذين أعلنوا الإيمان وأبطنوا الكفر وقال الله عنهم :
﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارُ
وَءَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ١٣٨

(سورة آل عمران)

إذن ، هم حولوا الإيمان من عقيدة إلى مجرد كلمة تقال ، وكانوا في غاية الحرص
على تادية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة . أما
قلوبهم فهي مع الكفر ؛ لذلك أرادوا أن يلبسوا في المنطق ويُدلسوا فيه .
﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ
فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

ويفضحهم الحق أمام أنفسهم . وبالله عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان
ولكن قلوبهم لم تؤمن ويخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاغا عن الله : « قل لم
تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . وكانوا أسبق الناس إلى
صفوف الصلاة ، وعندما فضحهم الرسول وأوضح لهم : أنتم لم تؤمنوا ولكنكم
أسلمتم فقط . هنا عرفوا أن محمداً قد عرف خبايا قلوبهم بلاغا عن الله .

ولو قالوا : إن محمداً هو الذي عرف هذه الخبايا لما اقتصر اعترافهم به كرسول ،
بَلْ رَبُّمَا مُخَادُوا فِي الْغَىِّ وَارَادُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ إلهًا . ولكن رسول الله يحسم الأمر : ويبين
لهم أن الله هو الذي أبلغني ، بدليل أنه أمر أن يقول لهم : « قل لم تؤمنوا » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقر بأن هذا الأمر ليس فيه شيء من عنده بل هو مأمور بالبلاغ عن الله ربّه . وفي عصرنا قال برنارد شو : إن الذين يكذبون أن محمداً رسول من عند الله يريدون أن يجعلوه إلهاً ، فمن أين أتى بهذه الأشياء التي لم تكن معلومة في عصره ؟ ..

إن الناس جميعاً مطالبون بالتصديق بمحمد رسولاً من عند الله ؛ لأنه قال عن أشياء لا يمكن أن يقولها واحد من البشر . والرسول صلى الله عليه وسلم بذاته يوضح بحسم هذا الكلام ويبين أن هذا ليس من عندي ، لكنه من عند الله .

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . وهذا كشف مخرج ومنطقي لما في قلوبهم ؛ لهذا قال السامعون للآية : الحمد لله أن هناك أملاً في أن يدخل الإيمان قلوبنا . وقد دخل الإيمان في قلوبهم بالفعل لأن كلمة (لما) تفيد نفى الإيمان عنهم في الزمن الماضي ولكنها تفيد أيضاً توقع وحصول الإيمان منهم وقد حصل .

« إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً » أي ماتوا على الكفر ، أو آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعبسى ، وجاء أناس آخرون آمنوا بعبسى ، وازدادوا كفراً بعدم الإيمان بمحمد ، فليس من بعد محمد صلى الله عليه وسلم استدراك .

وبخبرنا سبحانه بمصيرهم : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » لأنهم دخلوا في الإيمان مرة ثم خرجوا من الإيمان . ومعنى سلوكهم أنهم قصدوا الفتنة لأن الآخرين سيأخذونهم وقد آمنوا ، وسيأخذونهم وهم يكفرون ، وسيعملون ذلك بأنهم عندما تعمقوا في المسائل العقديّة كفروا وهم يفعلون ذلك ليهوّنوا من شأن الإسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ

وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

هم إذن يقصدون الفتنة بإظهار الإيمان ثم إعلانهم الكفر وفي ذلك تشكيك للمسلمين ، ويكون مصير من تردّد بين الإيمان والكفر ، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفرا يكون مصيرهم ما جاء في قوله : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » فهم قد دخلوا في الحيانة العظمى الإيمانية التي يحكمها قوله الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ويقول الحق عنهم هنا : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » . والهداية - كما نعلم - ترد بمعاني متعددة .. فقد يكون المقصود منها الدلالة ، فإن شئت تدخل الإيمان وإن شئت لا ، ولا شأن لأحد بك . والمعنى الثاني هو المعونة ، أى يقدم لك الله ما يهديك بالفعل . وعندما تعرض القرآن لهذه المسألة قال :

﴿ وَأَمَّا نُمُودُ فَمَهْدِيَّتُهُمْ فَأَسْتَجِبُوا أَلْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذْتُهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ

الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾

(سورة فصلت)

فسبحانه هنا قد دلهم على الهداية ، ولم يقدم لهم الهداية الفعلية لأنهم استنجبوا العمى على الهدى ، فكان الله قد دل على المنهج الذى يوصل الخير والبر لكل الناس ، فمن أقبل بإيمان فالحق يمهده بهداية المعونة ويعاونه على ازدياد الهدى ، مصداقاً لقوله :

﴿ إِنَّمَا هُمْ فَتَنَةٌ ؕ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

ولا نريد لهذا المثل أن يغيب عن الأذهان ؛ لذلك أوكلناه دائماً : شرطى المرور الواقف في بداية الطريق الصحراوى . يسأله سائل : ذاهب إلى الإسكندرية عن الطريق ؛ فيدله على الطريق الموصل للإسكندرية ، هنا قام الشرطى بالدلالة ، ثم شكر الرجل الشرطى وحمد الله على حسن شرح الشرطى ؛ وبحس ويشعر رجل المرور بالسعادة ، ويحذر الرجل المسافر من عقبات الطريق ، ويركب معه ليشير له على تلك العقبات حتى يتفادها . أى أنه من بعد الدلالة قد حدثت المعونة . كذلك الحق يدل الناس على الإيمان وعلى المنهج ، فالذى يؤمن به يساعده ويخفف عليه

الطاعة ، قال الحق سبحانه في شأن الصلاة :

﴿ وَإِنَّمَا لِكَثِيرَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

إذن نحن نجد الهداية على مرحلتين : هداية الدلالة ، وهداية المعونة .

ويريد الحق لقضية الإيمان أن تكون قضية ثابتة متصلة بحيث لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد . فمبدأ الإيمان لا يتغير في مواكب الرسائل من سيدنا آدم إلى أن ختمها بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
وقال سبحانه :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُولِهِ ۚ وَأَلَكِنِّبَ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رُسُولِهِ ۚ
وَأَلَكِنِّبَ الَّذِى أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ ۖ وَكُتُبِهِ ۖ
وَرُسُلِهِ ۖ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ ١٣٥ ﴾

(سورة النساء)

إذن سبحانه يريد من المؤمن أن يؤمن بالقمة العليا ، وهى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه كتاباً ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه رسالة على لسان أى رسول . والذين يؤمنون مرة برسول ثم يكفرون برسول آخر ، أو الذين يؤمنون برسول ثم يكفرون بنسبة الصحابة أو الولد لله ثم يزدادون كفراً بالخاتم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم مجال مع الهداية إلى الله ؛ لأن الإسلام جاء بالنهاية الخاتمة وليس للسبأ من بعد ذلك استدراك ، وليس لأحد من بعد ذلك استدراك ، ولذلك قال في أول الآية : « آمنوا ثم كفروا » . ثم آمنوا . ثم كفروا . وقال في آخر الآية : « ثم ازدادوا كفراً » أى أنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وليس هناك مجال أن ينتظروا رسولا آخر لينسخوا كفرهم بمحمد ويؤمنوا بالرسول الجديد .

ويوضح سبحانه : لم يكن الله ليهديهم لأنهم هم الذين صرفوا أنفسهم عنه ، فالف لا يمنع الهداية ممن قدم يده ومدّها إليه ، بل يعاونه في هدايته ، أما من يتغض يده من يد الله فلا يبايعه على الإيمان فالف غنى عنه ، ومادام الله غنياً عنه فسيظل في ضلاله ؛ لأن الهداية لا تكون إلا من الله . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى هداية

أخرى ولا هادى إلا هو . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى الجنة ؛ لأنهم لم يقدموا الأسباب التى تؤهلهم للدخول إلى الجنة .

ولذلك يشرحها الله فى آية أخرى :

﴿لَا يَكُنْ اللَّهُ لِيَفْخَرَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾

(من الآية ١٦٨ ومن الآية ١٦٩ سورة النساء)

وهكذا نجد طريق جهنم معبداً مذكلاً بالنسبة لهم .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٩﴾﴾

سمة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر لا تأتى من أصيل فى الإيمان ، بل تأتى من متلون فى الإيمان ، تبدو له أسباب فيؤمن ، وبعد هذا تبدو له أغيار فيكفر . وذلك شأن المنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء . فيقول الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

ونحن نعلم أن المنافق هو الذى جمع بين أمرين : إعلان إسلام ، وإبطان كفر . والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع ، وهى إحدى جحوره التى يستتر ويختفى فيها ، واليربوع حيوان صحراوى يخادع من يريد به شراً فيفتح لنفسه بايين ؛ يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر . فإن انتظره الرجل على باب فاليربوع يخرج من الآخر .

« بشر المنافقين » والبشارة هى الإخبار بشئ يسرى زمنه بعد . وهل المنافقون يمشرون ؟ لا . إن البشارة تكون بخير ؛ لذلك نتوقع أن ينذر المنافقون ولا يمشرون ، ولكن الله فى أساليبه البلاغية تعبيرات لتصعيد العذاب . فلو قال :

أنفروهم بعذاب أليم ، لكان الكلام محتملاً ، فهم - كمنافقين - مستعدون لسماع الشر . ولكن الحق يقول : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » وذلك هو التهكم والاستهزاء والسخرية ، وهي من معينات البليغ على أداء مهمته البلاغية . ونسمع المفارقات أحياناً لتعطينا صورة أصدق من الحقيقة . فإذا جئت إلى بخيل مثلاً ، وقلت له : مرحباً بك يا حاتم . ماذا يكون موقف من يحضر هذا اللقاء ؟

أنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائي أصل الكرم . وبذلك نقلت البخيل نقلتين : نقله من وضعه كبخيل ؛ ثم السخرية منه ؛ لأن قولك لبخيل ما : يا حاتم هو تقريع وتهكم وسخرية واستهزاء ، لأنك نقلته من وصف خسيس وحقير إلى وصف مقابل هو سام ورفيع وعظيم تحقيراً له واستهزاء به ، ومن المقارنة يبدو الفارق الكبير . وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً ، وقلت : مرحباً بك يا قزم . هذه هي المفارقة ، كما تقول لقصير : مرحباً يا مارء . أو إذا جئت لطويل لتصافحه ، فيجلس على الأرض ليُسلم عليك . . هذه أيضاً مفارقة . وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتجلس على الأرض لتسلم عليه فهذه هي السخرية والتهكم .

وهذه المفارقات إنما تأتي للأداء البلاغي للمعنى الذي يريد المتكلم ، فقول الحق : « بشر المنافقين » معناه : أنكم أيها المنافقون قد صنعتُم لأنفسكم بالنفاق ما كنتم تحبون ، وكأنكم نافقتم لأنكم تحبون العذاب . وما دمتم قد نافقتم لأنكم تحبون العذاب ، فإنا أبشركم بأنكم ستعذبون . والذي ينافق ألا يريد من ذلك غاية ؟ لذلك يصور له الحق أن غايته هي العذاب ، فقال الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

إنك حين تريد تصعيد أمر ما ، فأنت تنقل مخاطبك من شيء إلى الشيء المقابل وهو النقيض ، مثال ذلك : إنسان عطشان لأنه محجوز أو مسجون وأراد أن يشرب شربة ماء ، من الممكن أن يقول له الحارس : لا . ويجعله ييأس من أن يأتي له بكوب ماء ، أما إن أراد الحارس تصعيد العذاب له فهو يذهب ويأتي بكوب ماء ويقربه منه ، فإذا مد السجين يده ليأخذ كوب الماء فيسكب الحارس كوب الماء على الأرض هذا هو تصعيد العذاب . وحين يقال : « بشر » فالمستمع يفهم أن هناك شيئاً

يسر ، فإذا قال الحق : « بأن لهم عذاباً أليماً » فمعنى ذلك أن الغم يأتي مركباً . فقد بسط الحق أنفسهم بالبشارة أولاً ، ثم أنهاها بالندارة .

وعلى سبيل المثال - والله المثل الأعلى - يقول الأب لابنه : استذكر يا بني حتى لا ترسب ، لكن الابن يستمر في اللعب ثم يقول الأب : يا بني لقد اقترب الامتحان ولا بد أن تذاكر . ولا يأبه الابن لكلام الأب ، ثم يأتي الامتحان ويذهب الأب يوم اعلان النتيجة ، فيكون الابن راسباً ، فيقول الأب لابنه : أهنتك لقد رسبت في الامتحان ! فقوله أهنتك تبسط نفس الابن ؛ لأنه يتوقع سماع خبر سار ، ويسمع بعدها لقد رسبت تعطيه الشعور بالقبض .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ رسوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » « بشر » لها علاقة بالمدلول الاشتقاقي ؛ لأن الانفعالات يظهر أثرها على بشرة وجهه ؛ فإن كان الانفعال حزناً فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض ، وإن كان الانفعال سروراً فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط . وتعكس البشرة انفعالات النفس البشرية من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتهمهم ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسر ، أو بخبر يحزن ويسىء ، ولكنها غلبت على الخبر السار ، وخصت الندارة بالخبر الذي يحزن وتنقبض النفس له .

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » . والبشارة - كما قلنا - توحى بأن هناك خبراً ساراً ، فيأتى الخبر غير سار . وكما يقول الحق في آية أخرى يصور بها عذاب الكافرين يوم القيامة وكيف أنه يصعد العذاب معهم :

﴿ وَإِنْ يَسْتَفِيثُوا يُفَاثُوا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ساعة نسمع « وإن يستفيثوا يفاثوا بماء » نفهم أن برداً يأتي لهم أو رحمة تهب عليهم ، ولكن الإغاثة التي تأتي لهم هي :

﴿ كَالْمُهْلِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويتساءل السامع أو القارئ : هل هذه إغاثة أو تعذيب ؟ وهذا تصوير لتصعيد العذاب ؛ فالماء الذي يعطى لهم كالمهل يصعد الألم في نفوسهم .

والعذاب - كما نعام - يأخذ قوته من المعذب ، فإن كان المعذب ذا قوة محدودة ، كان العذاب محدوداً . وإن كان المعذب غير محدود القوة فالعذاب غير محدود ، فإذا ما نسب العذاب إلى قوة القوى وهو الله فكيف يكون ؟ والعذاب يوصف مرة بأنه اليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، هذه الأوصاف كلها تتجمع ولكل وصف منها جهة ؛ فالألم هو إحساس النفس بما يتعبها ، والعذاب العظيم هو العذاب الذي يبلغ القمة ، وقد يبلغ العذاب القمة ولكن المعذب يتجلد . وعذاب الحق يفوق قدرة متلقى العذاب فلا يقدر أن يكتم الألم ؛ لأن درجة تحمل أى إنسان مهما تجلد لا تستطيع أن تدفع الألم ، ومع العذاب العظيم ، نجده أليماً أيضاً ، فيكون العذاب الأليم العظيم مؤلماً للمادة ، لكن النفس قد تكون متجلدة متأبئة ثم تنهار ، حينئذ يكون العذاب مهيناً .

ولأن المنافقين والكفار غارقون في المادية أثر الله وصف العذاب بأنه اليم لأن الإيلام يكون للمادة ، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى بعض الأوصاف للمنافقين فيقول :

﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ ابْتَغَوْا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ

جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

وأول مظهر من مظاهر النفاق أن يتخذ المنافق الكافر ولياً له ؛ بقرب منه ويوده ، ويستمد منه النصرة والمعونة ، والمؤانسة ؛ والمجالسة ، ويترك المؤمنين . وعرفنا أن كل فعل من الأفعال البشرية لا بد أن يحدث لغاية تُطلب منه ، ولا يتجرد الفعل عن

الغاية إلا في المجنون الذي يفعل الأفعال بدون أى غاية ، لكن العاقل يفعل الفعل لغاية ، ولهدف يرجوه . والمنافقون يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لأى غاية ولأى هدف ؟

ويكشف الحق هذه المسألة فيوضح : أنهم يتغنون العزة من الكافرين ، ولذلك اتخذوهم أولياء من دون المؤمنين . ويلفتهم - جل شأنه - إلى جهلهم ؛ لأنهم أخذوا طريقاً يوصلهم إلى ما هو ضد الغاية .

فماذا ما يتغنون العزة فليعرفوا أولاً : ما العزة ؟ . العزة مؤخوفة من معنى مادي وهو الصلابة والشدّة . فالأرض العزّاز أى الصلبة التى لا يتال منها المعول ، ثم نقلت إلى كل شديد ، فكل شئ شديد فيه عِزّة . والمراد بها هنا : الغلبة والنصر ، وكل هذه المعاني تتضمنها العزة .

إذا قيل : الله عزيز . . أى أنه سبحانه وتعالى غالب على أمره شديد لا يمكن أن يقدر على بحاله أو مكروه أو قوته أو عقابه أحد . وإذا قيل : فلان عزيز أى لا يُغلب ، وإذا قيل : هذا الشئ عزيز أى نادر ، ومادام الشئ نادراً فهو نفيس ، والمعادن النفيسة كلها أخذت حظها من ندرتها وقلتها .

وما دمتهم أيها المنافقون تطلبون العزة ، ألا تطلبونها ممن عنده ؟ . أتطلبونها من نظائركم ؟ . وعندما تطلبون العزة فذلك لأنكم لا تملكون عزة ذاتية ، فلو كانت عندكم عزة ذاتية لما طلبتم العزة من عند الكافرين . وهذا دليل على فقدانهم العزة لأنهم طلبوها من مساو لهم من الأغيار ، فالنافقون بشر ، والكفار بشر ، وبما أن كل البشر أغيار ، فمن الممكن أن يكونوا أعزاء اليوم وأذلاء غداً ؛ لأن أسباب العزة هى غنى أو قوة أو جاه ، وكل هذه من الأغيار .

فأنتم أيها المنافقون قد طلبتم العزة ممن لم يزد عليكم ، وهو من الأغيار مثلكم ، ولم تطلبوها من صاحب العزة الذاتية الأزلية الأبدية وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التى تغنيكم عن الطلب من الأغيار مثلكم فلتذهبوا إلى مصدر العزة الذى لا تناله الأغيار وهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك أوضح لهم الحق : إن أردتم أن تتعلموا طلب العزة فعليكم أن تغيروا من أسلوبكم في طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتبتغون عندهم العزة وهم من أهل الأغيار ، والأغيار تتبدل من يوم إلى يوم ، فإن كان الكفار أغنياء اليوم ، فغداً لن يكونوا كذلك ، ولقد رأيتم كبشر أن الغنى يفتقر ، ورأيتم قوياً قد ضعف ، وطلب العزة من الأغيار يعني أنكم غير أعزاء ، ومع ذلك فأنتم تطلبون العزة من غير موضعها . فإن أردتم عزة حقيقية فاطلبوها ممن لا تتغير عزته وهو الحق سبحانه وتعالى : « فإن العزة لله جميعاً » .

وفي هذا القول تصويب لطلب العزة . ولطلب كل إنسان العزة إيماناً بالله ، فسبحانه الذي يهب العزة ولا تتغير عزته : « فإن العزة لله جميعاً » . وكلمة « جميعاً » هذه دلت على أن العزة لها أفراد شتى : عزة غنى ، عزة سلطان ، عزة جاه ، فإن أراد واحد أن يعرفها ويعلمها فهي - جميعاً - في الحق سبحانه وتعالى .

والمؤمنون في عبوديتهم لله عبيد لإله واحد ؛ وقد أغنانا الله بالعبودية له عن أن نذل لأناس كثيرين . وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأى مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح .

إذن ساعة يقول الحق : « فإن العزة لله جميعاً » فمعناها : إن أردت أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز فاذهب إلى الله ؛ لأنه سبحانه أعزنا فنحن خلقه ، وعلى سبيل المثال نجد أن الحق لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ دَرَجَاتِهِ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة . العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء : إنك تسأل الناس ، ألا تعف ولا تسأل ؟ . فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أى أنه يتخذ الله شفيعاً ويسأل به . وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له ، فهو يعتز بقوة هذا الكائن وهي قوة ممنوحة له من الله وقد يستردها - سبحانه -

منه . فما بالناس بالقوة اللاتهاية لله ، وكل قوة في الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عزة هي لله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ
آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ
حَتَّى يَخْرُجُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِذَا مِثْلُهمُ إِنَّ اللَّهَ
جَامِعُ الْمُتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٤٠﴾

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم إلا أن يتحولوا إلى حديث آخر ، وذلك حق لا يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم ، وبذلك يجمي الله وحدة أهل الإيمان ، ويصونهم من أي تهجم عليهم ، فالذين يغارون على الإيمان هم الذين آمنوا ، فهاضمت قد آمنت وارتضيت لنفسك الإسلام فإياك أن تهادن من يتهجم على الدين ، لأنك إن هادنته كان أعز في نفسك من الإيمان ، وماضمت أيها المؤمن قد ارتضيت الإيمان طريقاً لك وعقيدة فلتحم هذا الإيمان من أن يتهجم عليه أحد ، فإن اجترأ أحد على الإيمان بشيء من النقد أو السخرية أو الرمي بالباطل . . فالغيرة الإيمانية للمسلم تحتم عليه أن يرفض هذا المجلس .

وكان المؤمنون في البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف في وجه الكافرين أو المنافقين ، فساعة يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو في آيات الله ، فالكافرون والمنافقون يعلمون بذلك السلوك أن يمرض الإيمان أعز على المسلمين من مجالسة هؤلاء . أما إذا جالسهم مسلم وهم يخوضون في الإيمان . . فهذا يعني أنهم أعز من الإيمان ، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لسر غور الإيمان في قلوب

المسلمين . أما حين يرى الكافر مؤمناً يهب وينفر من أى حديث فيه سخرية من الإسلام ، هنا يعرف الكافر أن إيمان المسلم عزيز عليه .

وهذه الآية ليست آية ابتدائية إنما هي إشارة إلى حكم سبق ، ونعرف أنها نزلت في المدينة ؛ فالحق يقول : « وقد نزلَ عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » ومعنى هذا أن هناك آية قد نزلت من قبل في مكة ؛ ويقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٦٨)

(سورة الأنعام)

ويشير الحق هنا إلى أنه قد أنزل حكماً في البداية ، وهو الحكم الذى نزل مع الكافرين في مكة ؛ حيث استضعف الكافرون المؤمنين ، ولم يكن المنهج الإيمانى قد جاء بمنع المؤمنين أن يجالسوا الكافرين ، فقد كان بعض المؤمنين عبيداً للكافرين ، وبعض المسلمين الأوائل كان لهم مصالح مشتركة قائمة مع الكافرين وجاء الحكم : إن ولغ هؤلاء الكافرون في الدين بالباطل فاتركوا لهم المكان .

وسببانه هنا في سورة النساء يذكر المؤمنين بأن حكم ترك الكافرين لحظة اللغو في الإيمان هو حكم ممتد منقول للمؤمنين من البيئة الأولى حيث كتتم أيها المؤمنون مع المشركين عبدة الأصنام ، والحكم مستمر أيضاً في المدينة حيث يوجد بعض أهل الكتاب . والتكليف من الله ، هو تكليف بما يطيقه الجنس البشرى ؛ فالإنسان عرضة لأن ينسى ، وعليه بمجرد أن يتذكر فليقم تاركاً هؤلاء الذين يخوضون في آيات الله . وقد نزل في القرآن أن إذا سمع المؤمنون من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها فليغادروا المكان ، ونلاحظ أن الذى نزل في الآية الأولى ليس سبهاً بل رؤية :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ويأتى السماع في الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » والمهم هو مجرد العلم سواء كان رؤية أو

سماعاً بأنهم يخوضون في دين الله ؛ فقد يخوض أهل الشرك أو غيرهم من أعداء الإسلام بما يرى ، وقد يخوضون بما يسمع ، وقد يخوض بعض المشركين بالغمز أو اللمز من فور رؤيتهم لمسلم .

وقوله الحق : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » يوحى أنهم إذا ما خاضوا في حديث غير الخوض في آيات الله فليقعد المؤمنون معهم . وكان ذلك في صدر الإسلام ، والمؤمنون لهم مصالح مشتركة مع المشركين وأهل الكتاب ، ولا يستطيع المجتمع الإسلامى أنئذ أن يتميز بوحدته ، فلوقال لهم الحق على لسان رسوله : لا تقعدوا مع الكافرين أو المشركين فوراً . لكان في ذلك قطع لمصالح المؤمنين .

وكلمة « يخوضون » تعطى معنى واضحاً مجسماً ؛ لأن الأصل في الخوض أن تدخل في مائع . . أى سائل ، مثل الخوض في المياه أو الطين ، والقصد في الدخول في سائل أو مائع هو إيجاد منفذ إلى غاية .

وساعة نخوض في مائع فالمائع لا يفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفصح لك طريقاً ، بل مجرد أن يمشى الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى . ولذلك يستحيل أن تصنع في المائع طريقاً لك . أما إذا دخل الإنسان في طريق رملٍ فهو يزيح الرمال أولاً ويفصح لنفسه طريقاً . ولا تعود الرمال إلى سدّ الطريق إلا بفعل فاعل . وأخذوا من هذا المعنى وصف الأمر الباطل بأنه خوض ؛ ذلك أن الباطل لا هدف له وهو مختلط ومرتبك . والجدال في الباطل لا يتهى إلى نتيجة .

إذن « الخوض » هو الدخول في باطل ، أو الدخول إلى ما لا يتهى الكلام فيه إلى غاية . ويقرر العلماء : لا تخوضوا في مسألة الصفات العلية ؛ لأنه لا يصح الخوض فيها ، والكلام فيها لن يتهى إلى غاية . ولذلك يقول الحق في موقع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۚ قُلْ مَن أَنزَلَ

الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ ، مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْلُوهٗ قِرَاطِينَ

تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَيْتُمْ مَالًا تَقْلُبُونَ أَنْتُمْ وَلَاءُ آبَاءُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ
ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾

(سورة الأنعام)

لقد أبلغتهم يا محمد أن الذي أنزل الكتاب عليك هو الحق سبحانه وتعالى الذي
أنزل من قبل التوراة فأخفيتم بعضها وأظهرتم البعض الآخر ، ثم بعد البلاغ اتركهم
يجوضون في باطلهم .

وفي موقع آخر يتكلم الحق من الخوض :

﴿يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزَّؤْا
إِنْ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا يُخْذَرُونَ ﴿١١﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلِ
أَلَيْسَ لَهُ آيَاتُهُ وَرَسُولُهُ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢﴾﴾

(سورة التوبة)

إذن الخوض هو الدخول في مائع ، وما دمت قد دخلت في مائع فلن تجد فيه طريقاً
محدداً بل يختلط المدخول فيه بالمدخول عليه فلا تتميز الأشياء ، وأخذ منه الخوض
بالباطل أو الخوض باللعب الذي ليس فيه غاية .

« وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها
فلا تعدوا معهم حتى يجوضوا في حديث غيره » .

وتأتى الكلمة التي ترهب المؤمن وترعبه : « إنكم إذا مثلهم » أي إنكم إذا قعدتم
معهم وهو يجوضون في آيات الله تكفرون مثلهم ؛ لأنكم تسمعون الخوض في الدين
بالباطل ، ومن يرض بالكفر يكفر .

لقد أعطتنا الآية مرحلة أولية ، فإذا ما كانت البيئة الإيمانية مجتمعاً ذاتياً متكافلاً
فليس لأحد من المؤمنين أن يجالس الكافرين ، ولا نوالهم إلا إذا والونا ؛ لأن

الجلوس معهم في أثناء الخوض في الدين يجرثهم على مناهج الله ، وعلى المؤمن أن ينهر أى سائر من الدين . وعلى المؤمنين أن يعرضوا عمن ينحرف عن منهج الله أو يتعرض له . ولكن المجتمعات المعاصرة تكرم من يخوض بالباطل ، وفي ذلك إغراء للناس على أن يخوضوا في الدين بالباطل .

لكن لو أعرضنا عن ذلك فسيلتمس الخارجون عن منهج الله وسيلة غير طريق الاجترار على الدين والخوض بالباطل في دين الله ومنهجه . وفساد المجتمع إنما يأتي من أننا نرى من يخوض في دين الله بالباطل يكرمه البعض ويعطيه مكانة ومنزلة .

وقوله الحق : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم » نعلم منه وسيلة للإعلام البشرى هي أن يرى الإنسان فعلاً أو يسمع قولاً . فإن رأيت أيها المسلم فعلاً يشجع منهج الفساد في الأرض فاعلم أن ذلك خوض في دين الله بالباطل .

وقوله الحق : « فلا تقعدوا معهم » هو إيذان بالمقاطعة ، فلو أن إنساناً بهذا الشكل يسكن في منزل « ويذهب إلى البقال ليشتري منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أى إنسان في يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج ، وبذلك تكون المقاطعة حتى يتأدب ، ويعلم كل إنسان أن المجتمع غير على دينه الذى آمن به ، وأن الله أعز عليهم من كل تكريم يروونه في مجتمعاتهم ، ولو أن كل واحد من هؤلاء المنحرفين والموغلين في الباطل لورأوا المجتمع وقد قاطعهم ووضع لهم حدوداً لذهبوا إلى الصواب ولبحثوا عن شيء آخر وبجال آخر يأكلون العيش منه ويطعمون أولادهم اللقمة الحلال من هذا العمل المشروع .

ويقول الحق : « إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » ولا تستبطلوا هذه الحياة ، لأن المسلم لا يأخذ الأمور بعمر الدنيا كقرون أو اثنين أو حتى عشرة قرون . بل عليه أن يعرف أن الدنيا بالنسبة له هي عمره فيها ، والعمر يمكن أن ينتهى فجأة ، ويعمل المسلم لا من أجل الدنيا فقط ، ولكن من أجل أن يلقى الله مسلماً في الآخرة . والمؤمن يخشى أن يحشره الله مع المنافقين والكافرين في جهنم ، وهذا مصير من يقبل السخرية أو الاستهزاء بدينه .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ
 قَالُوا الْمَنَ تَكُن مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ
 قَالُوا الْمَنَ تَسْخَرُهُ عَلَيْنَا وَنَنصَرُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ يَتَنَصَّرُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ
 لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (١٤١)

وقوله الحق : « الذين يتربصون بكم » وصف للمنافقين ، ويتربص فلان بفلان . أى أن واحداً يتحفز ليتحسس أخبار آخر ، ويرتب حاجته منه على قدر ما يرى من أخبار ، وعرفنا هذا المعنى من قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

ويتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا خيراً قد أق لهم فهم يريدون الاستفادة منه ، وإن جاء شر فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم يعلنون الإيمان وهم فى باطنهم كفار . وهم يتربصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليرتبوا أمورهم على ما يجي .

« الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم » فإن فتح الله بنصره على المؤمنين فى معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون : « ألم نكن معكم » ، فلا بد لنا من سهم فى هذه الغنيمة . وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق : « وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » .

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقولهم : لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا ما يحدث لهم ، ولا بد لنا من نصيب . ويقول الحق على ألسنتهم : « قالوا ألم

نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين « واستحوذ على الشيء أى حازه وجعله فى حيزه
وملكه وسلطانه . والحق هو القائل :

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة المجادلة)

أى جعلهم الشيطان فى حيزه ، وقول المنافقين للكافرين : « ألم نستحوذ عليكم »
يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان ليحاول المنافقون معرفة
تفاصيل ما ينويه المؤمنون ، ولحظة أن يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يمثلون دور
من يأمر الكافرين بحماية لهم من سيوف المؤمنين . ثم يقولون للكافرين : نحن
استحوذنا عليكم أى منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ، ويطلبون منهم الثمن .

ولنر الأداء البين للقرآن حين يقول عن انتصار المؤمنين : « فإن كان لكم فتح »
أما تعبير القرآن عن انتصار الكافرين فيأتى بكلمة « نصيب » أى مجرد شيء من الغلبة
المؤقتة . ثم يأتى القول الفصل من الحق : « فאלله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل
الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » .

وحيث يرد الله أمر الكافرين والمؤمنين لا يرده دائماً إلى أمد قد لا يطول أجل السامع
وعمره ليراه فى الدنيا ، فيأتى له بالمسألة المقطوع بها ، لذلك لا يقول للمؤمن : إنك
سوف تنتصر . فالمؤمن قد يموت قبل أن يرى الانتصار . ولذلك يأتى بالأمر المقطوع
وهو يوم القيامة حين تكون الجنة مصيراً مؤكداً لكل مؤمن ؛ لأن الحياة أتفه من أن
تكون ثمناً للإيمان .

ويعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ألا نطلب الثمن فى الدنيا ؛ لأن الغايات
تأتى لها الأغيار فى هذه الدنيا ، فنعيم الحياة إما أن يفوت الإنسان وإما أن يفوته
الإنسان . وثمن الإيمان بلى بقاء من آمنت به . إن القاعدة الإيمانية تقول : من
يعمل صالحاً يدخل الجنة ، والحق يقول عن هؤلاء الصالحين :

﴿ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(من الآية ١٠٧ سورة آل عمران)

أى أن الجنة باقية بإبقاء الله لها ، وهو قادر على إفنائها ، أما رحمة الله فلا فناء لها لأنها صفة من صفاته وهو الدائم أبداً . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « فאלله يحكم بينكم يوم القيامة » أى لن يوجد نقض لهذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا هو وتكون المسألة منتهية . وقد حكم الحق سبحانه وتعالى على قوم من أقارب محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد حكم الله على عم الرسول ، فقال فيه :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ۚ ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾

(سورة المد)

قول الحق سبحانه : « سيصل ناراً ذات لهب » يدل على أن أبا لهب سيموت على الكفر ولن يهديه الله للإيمان ، مع أن كثيراً من الذين وقفوا من رسول الله مواقف العداء آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشهد معسكر الكفر فقدان عدد من صناديده ، ذهبوا إلى معسكر الإيمان ، فها هوذا عمر بن الخطاب ، وخالد ابن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم كل هؤلاء آمنوا . فما الذى كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء ؟ ولماذا لم يقل أبو لهب : قال ابن أخى : إننى سأصل ناراً ذات لهب ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقلت كلمة الإيمان . لكنه لم يقل ذلك وعلم الله الذى حكم عليه أنه لن يقول كلمة الإيمان .

ألم يكن باستطاعة أبي لهب وزوجه أن يقولوا فى جمع : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتم انتهاء المسألة ؟ ولكن الله الذى لا معقب لحكمه قد قضى بكفرهم ، وبعد أن ينزل الحق هذا القول الفصل فى أبي لهب وزوجه يأتى قول الحق فى ترتيبه المصحفى ليقول ما يوضح : إياكم أن تفهموا أن هذه القضية تنقض ، فسيصل أبو لهب ناراً ذات لهب وامراته حمالة الحطب ، وقال الحق بعدها مباشرة :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

فلا أحد سيغير حكم الله ..

إذن فقوله الحق : « فאלله يحكم بينهم يوم القيامة » أى لا معقب لحكم الله ،

فلا إله غيره يعقب عليه . « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، وهذه نتيجة لحكم الله ، فلا يمكن أن يحكم الله للكافرين على المؤمنين . ولن يكون للكافرين حجة أو قوة أو طريق على المؤمنين . وهل هذه القضية تتحقق في الدنيا أو في الآخرة ؟ ونعلم أن الحق يحكم في الآخرة التي تعطلت فيها الأسباب ، ولكنه جعل الأسباب في الدنيا ، فمن أخذ بالأسباب فتتأخر الأسباب تعطيه ، لأن مناط الربوبية يعطى المؤمن والكافر ، فإن أخذ الكافرون بالأسباب ولم يأخذ المؤمنون بها ، فإله يجعل لهم على المؤمنين سبيلاً . وقد ينهزم المؤمنون أمام الكافرين .

والحكمة العربية تعلمنا : إياك أن تعتبر أن الخطأ ليس من جند الصواب . لأن الإنسان عندما يخطئ يَصْحَحُ له الخطأ ، فعندما يعلم المدرس تلميذه أن الفاعل مرفوع ، وأخطأ التلميذ مرة ونصب الفاعل ؛ فهذا يعني أنه أخذ القاعدة أولاً ثم سها عنها ، والمدرس يصحح له الخطأ ، فتلتصق القاعدة في رأس التلميذ بأن الفاعل مرفوع . وهكذا يكون الخطأ من جنود الصواب . والباطل أيضاً من جنود الحق .

فعندما يستشرى الباطل في الناس يبرز بينهم هاتف الحق . وهكذا نرى الباطل نفسه من جند الحق ، فالباطل هو الذي يظهر اللذعة من استشراف الفساد ، ويجعل البشر تصرخ ، وكذلك الألم الذي يصيب الإنسان هو من جنود الشفاء ؛ لأن الألم يقول للإنسان : يا هذا هناك شيء غير طبيعي في هذا المكان . ولولا الألم لما ذهب الإنسان إلى الطبيب .

علينا - إذن - أن نعرف ذلك كقاعدة : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء ، وكل خطأ يقود إلى صواب ، ولكن بلذعة ، وذلك حتى لا ينساه الإنسان . وتاريخ اللغة العربية يحكي عن العلامة سيبويه ، وهو من تذكره عندما يلحن أحد بخطأ في اللغة ؛ فنقول : « أغضب المخطئ سيبويه » ؛ لأن سيبويه هو الذي وضع النحو والقواعد حتى إننا إذا أطلقنا كلمة الكتاب في عرف اللغة فالمعنى ينصرف إلى كتاب سيبويه ؛ فهو مؤلف الكتاب .

وسيبويه لم يكن أصلاً عالم نحو ، بل كان عالم قراءات للقرآن ، حدث له أن كان جالماً وعيبت عليه لحنه في مجلس ، أي أنه أخطأ في النحو وعاب عليه من حوله

ذلك ، فغضب من نفسه وحزن ، وقال : والله لأجيدن العربية حتى لا ألحن فيها .
وأصبح مؤلفاً في النحو .

ومثال آخر : الإمام الشاطبي - رضى الله عنه - لم يكن عالم قراءات بل كان عالماً في النحو ، وبعد ذلك جاءت له مشكلة في القراءات فلم يتعرف عليها ، فاقسم أن يجلس للقراءات ويدرسها جيداً . وصار من بعد ذلك شيخاً للقراء . فلحنة - أى غلطة - هى التى صنعت من سيويه عالماً في النحو ، ومشكلة وعدم اهتداء في القراءات جعل من الإمام الشاطبي شيخاً للقراء ؛ على الرغم من أن سيويه كان عالم قراءات ، والشاطبي كان رجل نحو .

ولذلك أكررها حتى نفهمها جيداً : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق . والألم من جنود الشفاء والعافية .

وقد نجد الكافرين قد انتصروا في ظاهر الأمر على المؤمنين في بعض المواقع مثل أحد ، وكان ذلك للتربية ؛ ففى « أحد » خالف بعض المقاتلين من المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الهزيمة مقدمة للتصويب ، وكذلك كانت موقعة حنين حينما أعجبتهم الكثرة :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذِيرِينَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

والشاعر العربى الذى تعرض لهذه المسألة قال :

إن الهزيمة لا تكون هزيمة إلا إذا لم تقتلح أسبابها
لكن إذا جهدت لتطرد شائبا فالحق كل الحق فيمن عابها

فعندما يقتلح الإنسان أسباب الهزيمة تصبح نصراً ، وقد حدث ذلك في أحد ، هم خالفوا في البداية فغلبهم الأعداء ، ثم كانت درساً مستفاداً أفسح الطريق للنصر .

فإن رأيت أيها المسلم للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلتعلم أن الإيمان قد تخلخل في نفوس المسلمين فلا نتيجة دون أسباب ، وإن أخذ المؤمنون بالأسباب أعطاهم النتائج . فهو القائل :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

(من الآية ٦ سورة الأنفال)

فإن لم يعد المؤمنون ما استطاعوا ، أو غرّبهم الكثرة فالنتيجة هي الهزيمة عن استحقاق ، وعلى كل مؤمن أن يضع في يمينه هذا القول الرباني :

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إن إعلان الإيمان بالله ليس هو نهاية أي شيء بل هو البداية ، والمؤمن بالله يأخذ جزاءه على قدر عمله . ويغار الله على عبده المؤمن عندما يخطيء ، لذلك يؤدبه ويربيه - والله المثل الأعلى - نجد أن الإنسان منا قد لا يصبر على مراجعة الدروس مع أولاده فيأتي بمدرس ليفعل ذلك ؛ لأن حب الأب لأولاده يدفع الأب للانفعال إذا ما أخطأ الولد ، وقد يضربه . أما المدرس الخارجي فلا يفعل ؛ بل يأخذ الأمور بحجمها العادي . إذن فكلما أحب الإنسان فهو يتدخل بمقياس الود ويقسو أحياناً على من يرحم .

والشاعر العربي يقول :

فقسى ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

ومثال آخر - والله المثل الأعلى - الإنسان إذا ما دخل منزله ووجد في صحن المنزل أطفالاً يلعبون الميسر منهم ابنه وابن الجار ، وطفل آخر لا يعرفه ، فيتجه فوراً إلى ابنه ليصفعه ، ويأمره بالعودة فوراً إلى الشقة ، أما الأولاد الآخرون فلن يأخذ ابن الجار إلا كلمة تأنيب ، أما الطفل الذي لا يعرفه فلن يتكلم معه .

وهكذا نجد العقاب على قدر المحبة والود ، والتأديب على قدر المتزلة في النفس .

ومن لا نهتم بأمره لا نعطي لسلوكه السيء بالأ . وساعة نرى أن للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلنعلم أن قضية من قضايا الإيمان قد اختلت في نفوسهم ، ولا يريد الله أن يظنوا هكذا بل يصفهم الحق من هذه الأخطاء بأن تعضهم الأحداث . فينتبهوا إلى أنهم لا يأخذون بأسباب الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ
وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ
وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ١٤٢

نعرف واقع المنافقين أنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، ويوضح الحق : إياكم أن تظنوا أن في قدرة مخلوق أن يفعل شيئاً بدون علم الله ، وقد يكر إنسان بك . وهو يعلم أنك تعلم بكمه ، فهل هذا مكر ؟ لا ؛ لأن المكر هو الأمر الذي يتم خفية بتدبير لا تعلمه ، والأصول في المكر ألا يعلم الممكور به شيئاً . والمنافقون حين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر يخادعون من يعلم خافية الصدور . وكان يجب أن يأخذوا درساً من معاملة الله بوساطة المؤمنين لهم « فقد صان المؤمنون دم المنافقين وما لهم . وأجرى المسلمون على المنافقين أحكام الإسلام ، لكن ما الذي يبيته الله لهؤلاء المنافقين ؟ لقد بيت لهم الدرك الأسفل من النار . فمن الأقدر - إذن - على الخداع ؟

إن الذي حقاً هو من لا يخدع من يعلم أنه قادر على كشف الخداع . وكلمة « خدع » تعني مكر به مكرأ فيبدى له قولاً وفعلًا ويخفى سواهما حتى يثق فيه . وبعد ذلك ينفذ المكر . وهناك كلمة « خدع » وكلمة « خادع » . والحق في هذه الآية لم يقل إن الله يخدعهم ، بل قال : « يخادعون الله وهو خادعهم » .

« خادع » تعني حدوث عمليتين ، مثل قولنا : قاتل فلان فلانا . فالقتال يحدث

بين طرفين . وكذلك نقول : شارك فلان فلانا ؛ لأن مادة « فاعل » تحتاج إلى طرفين . لكن عندما نقول « قتل » ، فالفعل يحدث من جانب واحد . والخداع يبدأ من واحد ، وعندما يرى الشخص الذي يراد خداعه أن خصمه أقوى منه فإنه يبيت له خداعاً آخر . وتسمى العملية كلها « مخادعة » ، ويقال : « نادعه فخدعه إذا غلبه وكان أخدع منه . ومن إذن الذي غلب ؟ إن الذي بُيت الخداع رداً على خداع خصمه هو الغالب .

ولأن الخداع يحدث أولاً ، وبعد ذلك يتلقى « المخدوع » الأمر بتبني أكبر ؛ فهو « خادع » ، والذي يغلب نقول عنه : « أخدعه » أي أزال خداعه . والله سبحانه وتعالى عاملهم بمثل ما أرادوا أن يعاملوا به المؤمنين ، فالمنافقون أظهروا الإيمان أولاً وأضمروا الكفر ، وأعطاهم الله في ظاهر الأمر أحكام المسلمين ، وفي الباطن قرر أن يعذبهم عذاب الكافرين بل وأشد من ذلك ؛ لأنهم سيكونون في الدرك الأسفل من النار .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » وإياك أيها المسلم أن تشتق من هذه العملية اسماً لله وتقول « المخادع » ؛ لأن أسماء الله توقيفية أي لا نسمى الله إلا بالأسماء التي سَمَّى بها نفسه . وسبحانه يفعل الفعل ، لكن لا تأخذ من هذا الفعل اسماً ، والحق يعطينا هنا « مشاكلة » ليوضح لنا أن المنافقين يمحرون ويبيتون شراً للمؤمنين ، وأنت أيها المسلم تعرف أن الإنسان إنما يبيت الشر على قدر طاقته التي مهما كبرت فهي محدودة بجانب طلاقة قدرة الله . ولذلك يفضح الله هذا الشر المبني من هؤلاء المنافقين ، وهم حين يمحرون فالله بطلاقة قدرته يمحركهم أي يبطل مكرهم ويجازيهم على سوء فعلتهم ، ولا نقول : « الله ماهر » . والله أن يقول في الفعل المشاكل ما يشاء .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى .

إن الغايات من الأحداث هي التي تضيء على الجوارح الإقبال على الأحداث ، فإذا كنت تحب الحدث الذي تقبل عليه فأنت تقبل عليه بكل اشتياق ولهفة . وقيسون لهفة اللقاء لأنها تحدد درجة المحبة . والشاعر العربي يصف لقاء حبيب بحبيبه :

لقاء الاثنين يبين حدة تلهف كيف واستطالة مدة

فلحظة اللقاء تبين ما بين الحبيين من مودة ، فإن كانت المسألة بينهما عشر خطوات فهذا يسرعان باللهفة فيقطعان العشر الخطوات في ثلاث خطوات ، وهذا معناه تقصير زمن الابتعاد ، وكذلك تظهر الكيفية التي يتم بها السلام درجة المودة ، فقد يسلم أحدهما على الآخر ببرود أو بنصف ود ، أو بود كبير ، أو بود مصحوب بلهفة وأخذ متبادل بالأحضان ؛ وكذلك المدة التي يحتضن كلاهما الآخر ، هل هي دقيقة أو دقيقتان أو ثلاث ؟

إذن فالذي يبين قيمة الود : التلهف ، الكيفية ، المدة . وهذه العناصر الثلاثة أخذها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر ، وقدماً كان الذين يَتَّيمُونَ بالنساء يسترون في السلام مودتهم . وفي الحضارة الغريبة التي سقطت فيها قيم الأديان نجد أن الرجل يتلقى المرأة بالقبلات .

وفي بعض البلاد نجد الرجل يصافح المرأة ، فهل يصافحها بتلهف ، وهل تبادل هذه اللهفة ؟ فإن وجدت الكف مفرودة ومبسوطة للمصافحة فقط فهذا سلام عادي . أما إذا ثنى أحدهما إصبعه البنصر على كف الآخر فعليك أن ترى أي طرف هو الذي قام بثني أصبعه ليحتضن اليد كلها في يده ، فإن كان ذلك من الرجل فاللهفة منه ، وإن كان من المرأة فاللهفة منها ، وإن كان من الاثنين فاللهفة منهما معا ، ثم ما المدة التي يستغرقها بقاء اليد في اليد ؟

وقد يحلو لكليهما أن يتكلمتا معاً - رجل وامرأة - وكان الكلام قد أخذهما فنى كل منهما يده في يد الآخر .

سلام نوعين يبين حدة تلهف كيف واستطالة مدة

هكذا يقابل الإنسان الأحداث ، فإن كان الحدث ساراً فالإنسان يقبل عليه بلهفة . وإن كان غير ذلك فالإنسان يقوم إليه متثاقلاً . وكان المنافقون يقومون إلى الصلاة بشاغل وتكاسل : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، كأنهم يؤدون الصلاة كستار يخفون به نفاقهم ، ويسترون بها عن أعين المسلمين . ولم يكن قيامهم للصلاة

شوقاً إلى لقاء الله مثلها كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال - رضي الله عنه - طالبا منه أن يؤذن للصلاة :

« يا بلال أرحنا بالصلاة » (١) .

لأن المؤمن يرتاح عندما يؤدي الصلاة ، أما المنافق فهي عملية شاقة بالنسبة إليه لأنه يؤديها ليستتر بها عن أعين المسلمين ولذلك يقوم إليها بتكاسل . « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرامون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » .

هم يقيمون الصلاة ظاهرياً أمام الناس ليخدعوا المسلمين وليشاهدتهم غيرهم وهم يصلون . وفي الصلاة التي يرامون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها ، يقولون فقط المطلوب قوله جهراً . كأن يقرأوا الفاتحة وبعض القرآن ولكنهم في أثناء الركوع لا يسبحون باسم الله العظيم وكذلك في السجود لا يسبحون باسم الله الأعلى .

ففي داخل كل منافق تياران متعارضان . . تيار يظهر به مع المؤمنين وآخر مع الكافرين . والتيار الذي مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ويذكر الله قليلاً ، والتيار الذي مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، ولا يذكر الله كثيراً .

وإذا ما حسبنا كم شيئاً يجهر به المصل وكم شيئاً يجريه سراً ، فسنجد أن ما يجريه المصل سراً في أثناء الصلاة أكثر من الجهر . ففي الركوع يقول : سبحان ربّي العظيم ثلاث مرات ، ويقول : سبحان ربّي الأعلى ، في كل سجود ثلاث مرات ، أما المنافق فلا يذكر الله إلا جهراً ، وهو ذكر قليل . ونجد المنافق لا يفعل فعلاً إلا إذا كان مَرْتَباً ومسموعاً من غيره ، هذا هو معنى المراعاة . أما الأفعال والأقوال التي لا تُرى من الناس ولا تُسمع فلا يؤديها .

ولا يميز المجتمعات ولا يزلزلهما ويهدّهما إلا هذه المراعاة ؛ لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدي المسلم كل عمل جاعلاً الله في باله ، وهو الذي لا تخفى عليه خافية . ويلفتنا

إلى هذه القضية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول عن الإحسان :

« أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١) .

وإذا كان الإنسان ينجس من أن يغش واحداً مثله من البشر غشاً ظاهرياً فما بالنا بالذى يحاول غش الله وهو يعلم أن الله يراه ؟ ولماذا يجعل ذلك العبد ربه أهون الناظرين إليه ؟

وعندما يغش واحداً آخر واكتشف الآخر غشه فهو يعاقبه فما بالنا بغش الله ؟ ولذلك تحمد الرسول صلى الله عليه وسلم ينقل لنا حال المرائى للناس فيقول : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله - عز وجل - يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟ »^(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« إن المرائى ينادى عليه يوم القيامة « يا فاجر » « يا غادر » « يا مرائى » ضل عملك وحبط أجرك فخذ أجرك ممن كنت تعمل له »^(٣) .

إذن فالمنافق إنما يخدع نفسه ، هو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس . ويزكى ليراه الناس ، ويحج ليراه الناس ، هو يعمل ما أمر الله به ، لكنه لا يعمل لله ، ولذلك قال القرآن :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا بِقِيَمَةِ رِبَايَ بِقِيَمَةِ رِبَايَ يَحْتَبُونَ الْظَّلْمَ أَنْ مَاءً حَلِيقًا إِذَا جَاءَهُمْ لَرَّ يَحْدَهُ شَبَابًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوَقْدَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾^(٤)

(سورة النور)

وقال عن لون ثان من نفاقهم :

(١) رواه مسلم من حديث جبريل .

(٢) رواه أحمد والبيهقي في الشعب ، والطبراني من رواية محمود بن زيد عن رافع بن خديج .

(٣) ابن أبي الدنيا واسناده ضعيف .

﴿كَأَلَدَىٰ بُنْفِقٍ مَّالَهُ دَرَمَاءُ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَنَزَّلُ مِثْلَ هَؤُلَاءِ
عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَا كَسِبُوا إِلَّا اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

والصفوان هو الحجر الأملس تماما وهو الذي ليس فيه خشونة . لأن الحجر إن كان به جزء من خشونة وعليه تراب ثم سقط عليه المطر . فالتراب يتخلل الخشونة . أما الحجر الأملس فمن فور نزول المطر ينزلق من عليه التراب . ومن يرأى المؤمنين عليه أن يأخذ أجره ممن عمل له .

ويستكمل الحق وصف الحالة النفسية للمنافقين فيقول :

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾

والشيء المذبذب مثل المعلق في خيط فيأخذه الريح إلى ناحية ليقذفه في ناحية أخرى لأنه غير ثابت ، مأخوذ من « المذبة » ومنه جاءت تسمية « الذباب » الذي يذبه الإنسان فيعود مرة أخرى ، فمن سلوك الذباب أنه إذا ذُبَّ عن مكان لا بد أن يعود إليه .

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » فهل هم الذين ذذبوا أنفسهم أم تلك هي طبيعتهم ؟ ولتأمل عظمة الحق الذي سوى النفس البشرية ، ففى الذات الواحدة أمر ومأمور ، والحق يقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى أن الإنسان بقى نفسه بأن يجعل الأمر بوجه الأمر للمأمور ، ويجعل المأمور بطبع الأمر ، ودليل ذلك قول الحق عن قابيل :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

أى أن جزءاً من الذات هو الذى طوع بقية ذات قابيل لتقتل هابيل . فقد خلق الله النفس البشرية كملكات متعددة ، ملكة تحب الأريحية وأخرى تحب الشح ، والملكة التى تحب الأريحية إنما تطلب ثناء الناس ، والى تحب الشح إنما تفعل ذلك ليطمئن صاحبها أنه يملك ما يغنيه . وكلتا الملكتين تتصارع فى النفس الواحدة ؛ لذلك يقول الحق : « قوا أنفسكم » فالنفس تقى النفس ؛ لأن الملكات فيها متعددة . وبعض الملكات تحب تحقيق المتعة والشهوة ، لكن هناك ملكة إيمانية تقول : تذكر أن هذه الشهوات عاجلة ولكنها عظيمة المتاعب فيها بعد .

إذن فهناك صراع داخل ملكات الإنسان ، ويوضح لنا الحق هذا الصراع فى قوله : (فطوَّعت له نفسه قتل أخيه) .

لأن قابيل أراد أن يقتل هابيل بغريزة الاستعلاء ، ونازعت نفسه بالخوف من الإثم . لقد دارت المراودة فى نفس قابيل إلى أن سيطرت غريزة الاستعلاء فأمرت بالقتل وطوَّعت بقية النفس . وهذا يكشف لنا أن النفس البشرية فيها ملكات متعددة ، كل ملكة لها مطلوب . والدين هو الذى يقيم التعايش السلمى بين الملكات .

مثال آخر : الغريزة الجنسية تقيم السعار فى النفس ، فيقوم الوعى الإيماني بردع ذلك بأن تقول النفس الإيمانية : إياك أن تلغ فى أعراض الناس حتى لا تلغ الناس فى أعراضك ، ولماذا لا تذهب وتزوج كما شرع الله ، ولا ترم أبناؤك فى فراش غيرك ؛ لأن الغريزة مخلوقة لله فلا تجعل سلطان الغريزة يأمر وينهى .

وهكذا نرى أن النفس تضم وتشمل الملكات والغرائز ، ولا يصح أن يعدى الإنسان غريزة إلى أمر آخر ؛ لأنه إن عدى الشهوات فسدت الدنيا .

وعلى سبيل المثال نحن نستخدم الكهرباء التي تعطى لنا النور في حدود ما يرسم لنا مهندس الكهرباء ، الذي وضع القطب الموجب في مجاله وكذلك القطب السالب ، بحيث نأخذ الضوء الذي نريده أو تعطينا شرارة لنستخدمها كقوة لإدارة آلة ، لكن لو التقى القطب الموجب بالقطب السالب على غير ما صنع المهندس لحدثت قفلة كهربائية تسبب حريقاً أو فساداً . وكذلك النفس البشرية ، إن التقى الذكر مع الأنثى كما شرع الله فإن البشرية تسعد ، وإن حدث غير ذلك فالذي يحدث في المجتمع يصير حريقاً نفسياً واجتماعياً لا حدود لآثاره الضارة ، وهكذا نرى أن النفس ليس فيها دافع واحد بل فيها دوافع متعددة .

ونجد غريزة الجوع تحرك النفس إلى الطعام ، ويستجيب الدين لذلك لكنه يوصي أن يأكل الإنسان بشرط ألا يتحول تناول الطعام إلى شره ، كما جاء في الحديث : « بحسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه » (١) .

فالطعام لبقاء النوع . والإنسان محب للاستطلاع ، فيأمر الإسلام الإنسان بأن يستطلع أسباب الله في الكون ليزيد من صلاح الكون ، وينهى الإسلام عن استخدام حب الاستطلاع في التجسس على الناس ، وهكذا تتوازن الملكات بمنهج الإسلام ، وعلى المسلم أن يعايش ملكاته في ضوء منهج الله معاشة سليمة حتى تكون النفس الإنسانية متساندة لا متعاندة ، لتعيش كل الملكات في سلام . ويؤدي كل جهاز مهمته كما أراد الله .

لكن المنافق يحيا مذبذباً وقد صنع ذلك بنفسه ، فقد أرخى لبعض ملكاته العنان على حساب ملكات أخرى « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » إن الكافر يمتاز عن المنافق - ظاهراً - بأنه منسجم مع نفسه ، هو غير مؤمن بالإسلام ويعلم ذلك ولكنه في حقيقة الأمر يتصارع مع فطرته التي تدعوه إلى الإيمان .

قد يقول قائل : وكيف يتساوى الذي أظهر الإيمان وأبطن الكفر مع الذي أعلن الكفر ؟ ونقول : الكافر لم يخدع الطائفة المؤمنة ولم يقل كالمنافق إنه مع الفئة المؤمنة

(١) من حديث رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه .

وهو ليس معها ؛ بل يعلن الكافر كفره منسجماً مع نفسه ، لكن المنافق مذبذب خسيس في وضعه الإنساني والرجولي .

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً » .

والله لا يضل عبداً بشكل مباشر ؛ فسبحانه يعلم خلقه أولاً بالرسول والمنهج ، لكنه يضل من بصر على عدم الإيمان ، لذلك يتركه على ضلاله وعياه . صحيح أن في قدرة الله أن يأخذه إلى الإيمان قهراً ، لكنه سبحانه يترك الإنسان لاختياره .

فإن أقبل الإنسان على الله فسبحانه يعينه على الهداية ، أما إن لم يقبل فليذهب إلى تيه الضلال . ويزين له الدنيا ويعطيه منها لكنه لن يجد سبيلاً ؛ فسبيل الله واحد . وليس هناك سبلان .

ونذكر هذه الحكاية ؛ لنعرف قيمة سبيل الله . كان الأصمعي - وهو مؤلف عربي له قيمة كبيرة - يملك أذنًا أدبية تميل إلى الأساليب الجميلة من الشعر والنثر ، ووجد الأصمعي إنساناً يقف أمام باب الملتزم بالكعبة المشرفة ، وكان الرجل يدعو الله دعاء حاراً : « يارب : أنا عاصيك ، ولولا أنني عاصيك لما جئت أطلب منك المغفرة ، فلا إله إلا أنت ، كان يجب أن أخجل من معصيتك ولكن ماذا أفعل » . وأعجب الأصمعي بالدعاء ، فقال : يا هذا إن الله يغفر لك لحسن مسألتك .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ
عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴾

لقد أخذ الحق على المنافقين أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون الله ، وكذلك أخذ المؤمنون على المنافقين أنهم اتخذوا من معسكر الكفر ولياً لهم من دون الله ومن دون المؤمنين ، ولهذا فأولى بالمؤمنين ألا يصنعوا ذلك ، ويوضح سبحانه : لقد أخذنا على المنافقين أنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون الله ، فإياكم أن تفعلوا مثلهم .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » .

وهذا أمر منطقي يستقيم مع منهج الإيمان ، لأنكم إن فعلتم ذلك . فإنما تقدمون الحجة ليعذبكم الله ، وتعلمون أن المنافق يعلن الإيمان بلسانه ويخفي الكفر في قلبه ، فكيف يكون وضع المؤمن مع الكافر مثل وضع المنافق مع الكافر ؟ ذلك أمر لا يستقيم . ومن يفعل ذلك إنما يقدم حجة لله ليعذبه .

الحق سبحانه في إرساله للرسول وفي تأييد الرسل بالمعجزات وفي إرساله المناهج المستوفية لتنظيم حركة الإنسان في الحياة ، كل ذلك ليقطع الحجة على الناس حتى لا يقولن واحد : أنت لم تقل لنا يارب كيف نسير على منهج ما ؛ لذلك لم يترك - سبحانه - الإنسان ليفكر بعقله ليصل بفكره إلى وجود الله ، ويكتشف أن هناك خالقاً للكون . لم يتركنا سبحانه هذه الظنون ، ولكنه أرسل لنا الرسل بمنهج واضح ، من أجل ألا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل ، فلا يقولن واحد : أنت لم تنبهني يارب ، والجهل بالقانون في الشرع البشري لا يعفى الإنسان من العقوبة إن ارتكب جرماً ، لكن الله لا يفعل ذلك ؛ فهو أكرم على عباده من أنفسهم ، لذلك يرسل الرسول ليحمل المنهج الذي يبين الحلال من الحرام :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

فلا يقولن واحد : لقد أخذنا الله على غرة . وأنتم أيها المؤمنون إن اتخذتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتقربتهم إليهم ونصرتموهم فأنتم أكثر شراً من المنافقين ؛ لأن المنافق له أسبابه ، وفي أعماقه خيط من الكفر وخيط من الإيمان ، والحجة واضحة عليكم أيها المؤمنون ؛ فقد أبلغكم الحق المنهج وأعلتكم الإيمان به .

فإن صنعتم غير ذلك تعطون الحق الحجة في أن يعذبكم .

« أتريدون أن نجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً ، والسلطان المبين هو السلطان الواضح المحيط الذي لا يستطيع أن يدفعه أحد ، فإذا ما كانت هناك حجة ، قد يستطيع الإنسان أن ينقضها ، كالمحامي أمام المحاكم . لكن حجة الله هي سلطان مبين . أي لا تنقض أبداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ

تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾

ولنر دقة التربية الإيمانية . فلم يأت الحق بفصل في كتابه عن المنافقين يورد فيه كل ما يتعلق بالمنافقين ، لا ، بل يأت بلمحة عن المنافقين ثم يأت بلمحة أخرى عن المؤمنين ، حتى ينفذ السامع من وضع المنافق ويحبه في صفات المؤمن ، وهنا يقول : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » . والدرك مرة تنطلق بسكون الراء ، وتنطلق مرة بفتح الراء ، مثل كلمة « نهر » . والدرك دائماً في نزول . والآخر الصالح يميز لنا ذلك بالقول :

« النار دركات كما أن الجنة درجات »^(١) .

فالتزول إلى أسفل هو الدرك ، والصعود إلى أعلى هو صعود الدرج . وفي عصرنا نضع مستوى سطح البحر كمقياس ، لأن اليابسة متعرجة ، أما البحر فهو مستطرق .

ونستخدم في الأمر الدقيق - أيضاً - ميزان المياه ، وعندما تسقط الأمطار على الطرق تكشف لنا عمل المقاول الذي رصف الطرق ، هل أتقن هذا العمل أو لا ؟ ونحن نلقى دلواً من المياه في الحمام بعد تلبيطه حتى ينكشف جودة أو رداءة عمل

(١) تفسير الإمام ابن كثير .

العامل ، إذن هناك شيء يفضح شيئاً آخر . والقول المصري الشائع : « إن الذي يقوم بعمل المحارة هو الذي يكشف عامل البناء » . فلو أن الحائط غير مستو ، فعامل المحارة مضطر أن يسد الفجوات والميول حتى يستوى سطح الحائط . . . والذي يكشف جودة عامل المحارة هو عامل طلاء الحائط ، لأنه إما أن يستخدم المعجون بكثرة ليملا المناطق غير المستوية في الحائط ، وإما أن يجد الأمر سهلاً . والذي يكشف جودة أو رداءة عمل عامل الطلاء هي أشياء طبيعية مثل الغبار . والعامل الذي يريد أن يغش هو الذي يسرع بتسليم البناء ، لأن الغبار الذي يوجد في الجو يمشي في خط مستقيم ، وعندما يوجد جدار تم طلاؤه بمادة غير جيدة فالغبار يلتصق به ، وكأن الله قد أراد بذلك أن يفضح من لا يتقن عمله ، وكل شيء مرده إلى الله حتى يصل الخلق جميعاً إلى الحق سبحانه مفضوحين ، إلا المؤمنين الذين يعملون صالحاً ، فهؤلاء يسترهم الله بعملهم الصالح .

« إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن نجد لهم نصيراً » . وسبحانه وتعالى سبق أن عرض لنا صورة المنافقين المهزوزة التي لا ثبات لها على رأي ، ولا وجود لها على لون يحترمه المجتمع الذي يعيشون فيه فقال عنهم :

﴿ مَذْذَبَيْنَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَٰهَ هَتُولَاءَ وَلَا إِلَٰهَ هَتُولَاءَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة النساء)

والذبذبة لون من أرجحة الشخصية التي لا يوجد لها مقوم ذاتي . وسبحانه وتعالى حين عرضهم هذا العرض المشوه ، يوضح : أن جزائي لهم حق يناسب ما فعلوه .

وقد هيا الحق الأذهان ليجعلها مستعدة لقبول الحكم الذي أنزله عليهم حتى لا تأخذ الناس شفقة عليهم أو رحمة بهم ، وسبحانه حين يحكم حكماً فهو يضمن بقيوميته ووحدانته ألا يوجد منازع له في الحكم . وكان من الممكن أن يقول سأجعله في الدرك الأسفل من النار . ولن توجد قوة أخرى تتشكك في الحق ؛ لذلك أتبع الحق الحكم بقوله : « ولن نجد لهم نصيراً » أي أنه حكم مشمول بالإنفاذ ، ولن يعدله أحد من خلق الله ، فسبحانه له الملك وحده ، وقد جعل سبحانه الملك في الدنيا لأسباب الناس أيضاً ، أما في الآخرة فلا ملك لأحد ولا ملك لأحد .

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وبعد ذلك يتيح الحق لأقوام من المنافقين أن يعدلوا رأيهم في المسألة وأن يعلنوا إيمانهم وأن يتوبوا عما فعلوه ، إنه - سبحانه - أتاح لهم أن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها فلم يغلق الباب دونهم بل قال :

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا
بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٤٦)

إذن فمن الممكن أن توجد فتحة خير قد تدفع الإنسان إلى التوبة ، وحتى لا يظن أحد أن الحكم هنا نهائي ، وذلك حتى لا يفقد الإنسان نفسه ويتورط في مزيد من الشرور ، لذلك قال : «إلا الذين تابوا» أي تاب عن نفاقه الأول ، وإذا ما كان قد ترتب على نفاقه السابق إفساد فلا بد أن يصلح ما أفسده ويعتصم بالله ويخلص لله نيةً وعملاً . «إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله» . إذن فشرط النجاة من الدرك الأسفل من النار هي التوبة ، وإصلاح ما أفسد ، والاعتصام بالله ، وإخلاص دينه لله .

والتوبة هنا إقلاع عن النفاق ، وألا يترك المنافق الفساد الذي صنعه نفاقه بل عليه أن يحاول جاهداً أن يصلح ما أفسده بهذا النفاق . والاعتصام بالله كيف يكون ؟

لقد عرفنا من قبل أنهم كانوا يفعلون ذلك لابتغاء العزة عند الكافرين . . أي أن نفس المنافق تطلعت إلى هؤلاء الكافرين فيفزغ إليهم ويعتز بشدتهم وبصلابتهم ؛ لذلك يوضح الله : انزعوا هذه الفكرة من رؤوسكم وليكن اعتصامكم بالله وحده لأنه لا يجير أحد على الله ، واجعلوا العزة لله والمرجع إليه وحده .

والملاحظ أن الذي يتوب ويصلح ويعتصم بالله يكون قد استوفى أركان اليقين الإيماني بالله ، لكن الحق يقول : «وأخلصوا دينهم لله» فليأذا أكد على الإخلاص

هنا ؟ لأن تدبير النفاق كان ينبع من قلوبهم أولا . ونعلم أن القلب قد يذنب ، فذنب الجارحة أن تعتدى ، مثال ذلك العين تذنب حين تعتدى على محارم الآخرين ، واللسان يذنب إن تعرض بالسب أو الشتم للناس . إذن . فكل جارحة لها مجال معصية ، وهنا مجال معصية القلب هو النفاق وهو الأمر المستور . إذن فقوله الحق : « وأخلصوا دينهم لله » جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص في التوبة عن النفاق ، والإخلاص محله القلب .

فكأن توبة القلوب غير توبة الجوارح ، فتوبة الجوارح تكون بأن تكف الجوارح عن مجال معاصيها . أما توبة القلب فهو أن يكف عن مجال نفاقه بأن يخلص . وبذلك أثبت الحق مزية المؤمنين الذين لم ينغمسوا في النفاق . وجعل التائبين من المنافقين مع المؤمنين ، فكأن الأصل في التنعيم وفي نيل الجزاء العظيم هو الوجود مع المؤمنين . « فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً » .

ومن هنا نعلم أن الأجر العظيم يكون للمؤمنين . ومن يوجد مع المؤمنين ينال الأجر نفسه . وقد جعل الحق الجزاء من جنس العمل . وكان المنافقون ينافقون ليأخذوا من المؤمنين ظواهر الإسلام كصون المال والدماء وليعتبرهم الجميع ظاهرياً وشكلياً من المسلمين ، وهم حين نافقوا المسلمين أعطاهم المسلمون ما عندهم . وعندما تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا الدين لله جعلهم الله مع المؤمنين ، ويعطى سبحانه لأهل الإيمان أجراً عظيماً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ
وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

وسبحانه قد أوضح من قبل أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، واستثنى منهم من تاب وأصلح واعتصم بالله وأخلص ، ويتحدث هنا عن فكرة العذاب

نفسها ، ليجليها فيقول : « ما يفعل الله بعذابكم » وهذا استفهام ، والاستفهام أصلاً سؤال من سائل يتطلب جواباً من مجيب . ومبجانه وتعالى يريد أن يعرض قضية موثوقا بها فهو لا يأتي بها خبراً ، فهو القادر على أن يقول : أنا لا أفعل بعذابكم ولا أحقق لذاتي من ورائه شيئاً ، فلا استجلب به لي نفعا ولا أدفع به عني ضرراً .

لكنه هنا لا يأتي بهذه القضية كخبر من عنده ، بل يجعل المنافقين يقولونها . مثال ذلك - والله المثل الأعلى - يقول واحد لآخر : أنت أهتني . ومن الجائز أن يرد الآخر : أنا لم أهتك . وأقسم لك أنني ما أهتك . وقد يضيف : ابغني شاهداً . وهنا نجد مراحل المسألة تبدأ بالإبلاغ عن عدم الإهانة ، ثم القسم بأن الإهانة لم تحدث ، ومن بعد ذلك طلب شاهداً على أن الإهانة المزعومة قد حدثت .

وقد يقول الإنسان رداً على من يتهمه بالإهانة : أنا أترك لك هذه المسألة ، فإذا قلت لك حتى تعتبره إهانة ؟ ومن يقول ذلك واثق أن من شعر بالإهانة لو أدار رأسه وفكره فلن يجد كلمة واحدة تحمل في طياتها شبهة الإهانة .

ولو كان الإنسان واثقاً من أنه أمان الآخر ، فهو يخاف أن يقيم الآخر دليلاً على صحة اتهمته له ، ولكن حين يقول له : وماذا قلت لك حتى تعتبر ذلك إهانة ؟ . فعليه أن يبحث ولن يجد . وبذلك يكون الحكم قد صدر منه هو .

وإذا كان الله يقول : « ما يفعل الله بعذابكم » فهذا خطاب للجماعة كانت ستعذب . وكانت فيهم محادة لله . ورضى الله شهادتهم ، فكان هذه لفظة على أن العاصي يستحق العذاب بنص الآية : « ما يفعل الله بعذابكم » ، ومستعد لهذا العذاب لأنه محاد لله . ولكن الله يقبل منه ومن أمثاله أن يشهدوا . وهذا دليل على أن الإيمان الفطري في النفس البشرية ، فإذا ما حزبها واشتد عليها الأمر لم تجد إلا منطق الإيمان .

ويوضح الحق للمنافقين : ماذا أفعل أنا بعذابكم ؟ فلن يجدوا سبباً خاصاً بالله ليعذبهم ، فكان الفطرة الطبيعية قد استيقظت فيهم ، لأنهم سيديرون المسألة في نفوسهم .

وعلى مستوانا نحن البشر نرى أن الذى يدفع الإنسان ليعذب إنسانا آخر إنما يحدث ذلك ليشفى غيظ قلبه ، أو ليثأر منه ؛ لأنه قد آله فيريد أن يرد هذا الإيلام . أو ليمنع ضرره عنه . والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون فى أى موقع من هذه المواقع . فإذا أدار المنافقون هذه المسألة فطريا بدون إيمان فلن يكون جوابهم إلا الآتى : لن يفعل الله بعبادنا شيئا ، إن شكرنا وآمنّا .

ونستخلص من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يريد عرض قضية يثبت فيها الحكم من الخصم نفسه ، يلقيها على هيئة سؤال . وكان من الممكن أن يجرى هذه المسألة خبرا ، إلا أن الخبر هو شهادة من الله لنفسه ، أما السؤال فتكون إجابته اقرا من المقابل . وهذا يعنى أنهم كانوا عاصين ومخالفين . وكأنه سبحانه قد اتهمهم على هذا الجواب ؛ لأن الجواب أمر فطرى لا متلوحة عنه . وحين يدير الكافر رأسه ليظن بالله ما لا يليق ، فلن يجد مثل هذا الظن أبدا .

« ما يفعل الله بعبادكم إن شكرتم وأمتتم وكان الله شاكرا عليهما » . وإن لم يشكروا ولم يؤمنوا فما الذى يناله الحق من عذابهم ؟ ونعلم أن عظمة الحق أنه لا يوجد شيء من طاعة يعود إلى الله بنفع ، ولا يوجد شيء من معصية يعود إلى الله بالضرر . ولكنه يعتبر النفع والضرر عائدتين على خلق الله لا على الله - سبحانه - .

وسبحانه يريدنا طائعين حتى نحقق السلامة فى المجتمع ، سلامة البشر بعضهم من بعض . إذن فالمسألة التى يريدنا الحق ، لا يريدنا لنفسه ، فهو قبل أن يخلق الخلق موجود وبكل صفات الكمال له ، وبصفات الكمال أوجد الخلق . وإيجاد الخلق لن يزيد معه شيئا ، ولذلك قال فى الحديث القدسى :

« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا إلا كما يُنقص المحيط إذا أدخل البحر .. » (١) .

إذن فالطاعة بالنسبة لله والمعصية بالنسبة لله ، إنما لشيء يعود على خلق الله . ولننظر إلى الرحمة من الحق سبحانه وتعالى الذي خلق خلقاً ثم همى الخلق من الخلق ، واعتبر سبحانه أن من يحسن معاملة المخلوق مثله فهو طائع لله ، ويحببه الله لأنه أحسن إلى صنعة الله .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » فإن تشكروا وتؤمنوا فلن يفعل الله بعذابكم شيئاً . . أى فقد أبعدتم أنفسكم عن استحقاق العذاب .

وسبحانه يريد أن يعدل مزاج المجتمع وتفاعلات أفراده مع بعضهم بعضاً ، وذلك حتى يكون المجتمع ذا بقاء ونماء وتعايش . ونعلم أن لكل إنسان سمة وموهبة ، وهذه الموهبة يريد بها المجتمع .

فمن الجائز أن يكون للإنسان ما أرض ويريد أن يقيم عليها بناء ، وصاحب الأرض ليس مفترضاً فيه أن يدرس الهندسة أولاً حتى يصمم البناء ورسومه ، وليس مفترضاً فيه أن يتقن حرفة البناء ليبنى البيت ، وكذلك ليس مفروضاً فيه أن يتعلم حرفة الطلاء والكهرباء وغيرها .

وكذلك ليس من المفروض فيمن يريد ارتداء جلباب أن يتعلم جز الصوف من الغنم أو غزل القطن وكيف ينسجه وكيف يقوم بتفصيله وحياكته من بعد ذلك ، لا ، لا بد أن يكون لكل إنسان عمل ما ينفع الناس . إذن فلكل إنسان عمل ينفع الناس به حتى يتحقق الاستطراق النفعي ، ولأن كلا منا يحتاج إلى الآخر فلا بد من إطار التعايش السلمى فى الحياة . لا أن يكون المراك هو أساس كل شيء ؛ لأن المراك يضعف القوة ويذهب بها سدى ، وسبحانه يريد كل قوى المجتمع متساندة لا متعاندة ، ولذلك قال : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » . أما إن لم تشكروا وتؤمنوا ، فعذابكم تأديب لكم ، لا يعود على الله بشيء .

ولماذا وضع الحق الشكر مع الإيمان ؟ لنعرف أولاً ما الشكر ؟ الشكر : هو إسداء ثناء إلى المنعم ممن نالته نعمته . فتوجيه الشكر يعنى أن تقول لمن أسدى لك معروفا : « كثر خيرك » ، وما الإيمان ؟ إنه اليقين بأن الله واحد .

لكن ما الذى يسبق الآخر . الشكر أو الإيمان ؟ إن الإيمان بالذات جاء بعد الانتفاع بالنعمة ، فعندما جاء الإنسان إلى الكون وجد الكون منظماً ، ولم يقل له أحد أى شيء عن أى دين أو خالق . ألا تهفو نفس هذا الإنسان إلى الاستشراق إلى معرفة من صنع له هذا الكون ؟

وعندما يأتى رسول ، فالرسول يقول للإنسان : أنت تبحث عن القوة التى صنعت لك كل هذا الكون الذى يحيط بك ، إن اسمها الله . ومطلوبها أن تسير على هذا المنهج . هنا يكون الإيمان قد وقع موقعه من النعمة . فالشكر يكون أولاً ، وبعد ذلك يوجد الإيمان ، فالشكر عرفان إجمالى ، والإيمان عرفان تفصيلى . والشكر متعلق بالنعمة . والإيمان متعلق بالذات التى وهبت النعمة .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليهما » والحق سبحانه يوضح لنا : أنا الإله واهب النعمة أشكركم . كيف يكون ذلك ؟

لنضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - أنت اشترت لابنك بعضاً من اللعب ، ولم تفعل ذلك إلا بعد أن استوفيت ضرورات الحياة ، فلا أحد يأتى باللعب لابنه وهو لم يأت له بطعام أو ملابس .

إذن فأنت تأتى لابنك باللعب بعد الطعام والملبس ليملاً وقت فراغه ، وهذا يعنى أن الضرورات قد اكتملت . وحين تقول لابنك : إن هذه اللعبة للعب فقط . ستأخذها ساعة تحب أن تلعب ، وتضعها فى مكانها وقت أن تذاكر ، فكل شيء هنا فى هذا المنزل له مهمة يجب أن يؤديها . وهذا يعنى إنك كوالد تريد أن تؤدب ابنك حتى يلعب بلبسته وقت اللعب ولا يلعب بأى شيء غيرها فى المنزل ؛ لأنه لو لعب بكل شيء فى المنزل فلا بد من أن يكسر شيئاً ، فلا مجال للعب فى التلفزيون أو فى الساعة أو الثلاجة أو الغسالة حتى لا تتعطل تلك الأجهزة .

وأنت كوالد تريد أن تفرق بين شيء يلعب به وشيء يُجَد به . وأشياء الجَد لا توجد إلا عند طلبها فقط ؛ فالغسالة لا تستخدم إلا ساعة غسل الملابس ، والساعة لا نستخدمها إلا لحظة أن نرغب فى معرفة الوقت . والثلاجة لا نفتحها إلا ساعة

نريد أن تستخرج شيئا تأكله أو تشربه ، والوالد يأق للابن بقليل اللعب ليضع له حدا بين الأشياء التي يمكنه أن يلعب بها وبين الأشياء التي لا يصح أن يلعب بها ، فأشياء المنزل يجب ألا يقرب منها الابن إلا وقت استعمالها . لكن بالنسبة للعبة فالابن يلعب بها عندما يحين وقت اللعب ، لكن عليه أن يحافظ عليها . وعندما يرقب الوالد ابنه ، ويحمده متفذا للتعليقات ، ويحافظ على حاجات المنزل ، ويلعب بلعبه محافظا عليها . وإن لم يُعلّم الأب ابنه ذلك فقد يفسد الابن لعبه .

وحين يقوم الابن بتنفيذ تعليمات أبيه فالأب يرضى عنه ويسعد به . وعندما تخرج لعبة جديدة في السوق فالأب الراضى عن ابنه يشتري له هذه اللعبة الجديدة ؛ لأن الولد صار مأمونا ؛ لأنه يعرف قواعد اللعب مع المحافظة على أداة اللعب . ويعرف أيضا كيف يحافظ على حاجات المنزل . ويزداد رضاء الأب عن تصرفات الابن . وينشأ عن هذا الرضاء أن يشتري الأب لعبا جديدة . فإذا كان ذلك هو ما يحدث في العلاقة ما بين الأب والابن « وهما مخلوقان لله ، فما بالناس بالخالق الأعلى سبحانه وتعالى الذي أوجد كل المخلوقات ؟

إن الإنسان حين يضع كل المسائل في ضوء منهج الله ، فإله شاكر وعليم ؛ لأن الله يرضى عن العبد الذي يسير على منهجه ، وعندما يرضى الرب عن العبد فهو يعطى له زيادة . فإله شاكر بمعنى أن البشر إن أحسنوا استقبال النعمة بوضع كل نعمة في مجالها فلا تتعدى نعمة جادة على نعمة هائلة « ولا نعمة هائلة على نعمة جادة ، فإله يرضى عن العباد .

ومعنى رضاء الله أن يعطى البشر أشياء ليست من الضرورات فقط ولكن ما فوق ذلك . فسبحانه يعطى الضرورات لكل حتى الكافر . ويعطى سبحانه ما فوق الضرورات وهي أشياء تسعد البشر .

إذن فمعنى أن الله شاكر . . أى أنه سبحانه وتعالى راضى . ويشيب نتيجة لذلك ويعطى الإنسان من جنس الأشياء ويسمو عطاؤه ، مصداقا لقوله الحق :

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

فالشكر هنا موجه من العبد للرب ، والزيادة من الرب إلى العبد . وإياك أيها الإنسان أن تصنع الأشياء شكلياً ، مثل الطفل الذي يصون لعبته لحظة أن يرى الأب . ومن فور أن يختفى الأب من أمام عيني الطفل فهو يفسد اللعبة ، والله ليس كالأب أبداً ، فالأب قدراته محدودة ، ولكن الله هو الخالق الأعلى الذي لا تخفى عليه خافية أبداً وسبحانه شاكراً ، وهو أيضاً عليم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ مَعِيعًا عَلِيمًا ﴾

إنه سبحانه وتعالى يريد أن يحمي آذان المجتمع الإيمانى من « قالات السوء » . . . أى من الألفاظ الرديئة ؛ لأننا نعلم أن الناس إنما يتكلم بما تسمع ، فاللفظ الذى لا تسمعه الأذن لا تجد لساناً يتكلم به ، ونجد الطفل الذى نشأ فى بيت مهذب لا ينطق ألفاظاً قبيحة ، وبعد ذلك نحىء على لسانه ألفاظ قبيحة وحيث نتساءل : من أين جاءت هذه الألفاظ على لسان هذا الابن ؟ ونعرف أنها جاءت من الشارع ؛ لأن البيئة الدائمة للطفل ليس بها ألفاظ رديئة ، وعندما يتقضى الإنسان عن مصدر هذه الألفاظ ، يعرف أن الطفل المهذب قضى بعضاً من الوقت فى بيئة أخرى تسربت إليه منها بعض الألفاظ الرديئة .

إذن فاللغة هى بنت المحاكاة . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ونعلم أن اللغة ليست جنساً وليست دماً ، بمعنى أن الطفل الإنجليزى لو نشأ فى بيئة عربية ، فهو يتحدث العربية . ولو أخذنا طفلاً عربياً ووضعناه فى بيئة إنجليزية فسيتكلم الإنجليزية .

واللغة الواحدة فيها ألفاظ لا يتكلم بها لسان إلا إن سمعها ، وإن لم يسمعها الإنسان فلن ينطق بها . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمي المجتمع الإيمانى من قالات السوء التى تطرق آذان الناس لأنها ستعطيهم لغة رديئة ؛ لأن الناس إن

تكلمت بقالات السوء ، فسيكون شكل المجتمع غريبا ، وتتردد فيه قالات سوء في أذان السوء ، فكان الحق سبحانه يوضح : إياكم أن تنطق ألسنتكم بأشياء لا يحبها الله ، فليست المسألة أن يربح الإنسان نفسه فقط بنطق كلمة ، ولكن نطق هذه الكلمة سيرهق أجيالاً ؛ لأن من يسمع الكلمة الرديئة سيردها ، وسيسمعها غيره فيردها ، وتتوالى القدوة السيئة . ويتحمل الوزر الإنسان الذي نطق بكلمة السوء أولاً .

وقالات السوء هذه قد تكون بالحق وقد تكون بالباطل ، فإن كانت في الحق مثلاً فلن نستطيع أن نقول : إن كل الناس أهل سوء . وقد يتبدى إنسان آخر بسبب ، ويجوز أن يدعى إنسان على آخر سبباً . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يجمي الأذان الإيمانية من ألسنة السوء ، لذلك يقول : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » ومقابلها بالطبع هو : أن الله يحب الجهر بالحسن من القول . وساعة يحبك الحق المجتمع هذه الحبكة الإيمانية ، أيعالج ملكة على حساب ملكة أخرى ؟ لا .

ونعلم أن النفس فيها حب الانتقام وحب الدفاع عن النفس وحب الثأر وما يروح به عن نفسه ويخفف ما يجده من الغيظ . والمثل العربي يقول : « من استغضب ولم يفضب فهو حمار » ؛ لأن الذي يستغضب ولا يفضب يكون ناقص التكوين ، فهل معنى ذلك أن الله يمنع الناس من قول كلمة سوء ينفث بها الإنسان عن صدره ويربح بها نفسه ؟ لا ، لكنه - سبحانه - يضع شرطاً لكلمة السوء هو : « إلا من ظلم » ؛ لأن الظلم هو أخذ حق من إنسان لغيره . وكل إنسان حريص على نفسه وعلى حقوقه . فإن وقع ظلم على إنسان فملكات نفسه تغضب وتغور ، فإما أن ينفث بما يقول عن نفسه ، وإما أن يكبت ويكتم ذلك .

فإن قال الله : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » واكتفى بذلك ، لكان كبتاً للنفس البشرية . وعملية الكبت هذه وإن كانت طاعة لأمر الله لأنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، ولكن قد ينفث الكبت عند الانفعال ، وينفجر ؛ لذلك يضع الحق الشرط وهو وقوع ظلم . فيوضح سبحانه : أنا لا أحب الجهر بالسوء من القول ، وأسمح به في حدوده المنقذة عن غيظ القلوب ؛ لأن لا أحب أن أصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن الغضب جرة توقد في القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فليتم فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء »^(١) .

أى أن يتحرك الإنسان من فور إحساسه بالغضب ؛ فيغير من وضعه أو يقوم إلى الصلاة بعد أن يتوضأ أو يغتسل ؛ لأنه بذلك ينثت تنفيثاً حركياً ليخفف من ضغط المواجه على النفس الفاعلة ؛ تماماً كما يفك إنسان صلباً عن آلة بها بخار ليخرج بعض البخار .

إذن فمن وقع عليه ظلم له أن يجهر بالسوء . والجهر له فائدتان : الأولى : أن ينثت الإنسان عن نفسه فلا يكبت ، وثانياً : أنه أشاع وأعلن أن : هذا إنسان ظالم ، وبذلك يجتاط الناس في تعاملهم معه . وحتى لا يخدع إنسان نفسه ويظن أنه بمنجاة عن سيئاته ، فلو ستر كل إنسان الظلم الذى وقع عليه لاستشرى الظلم في عمل السيئات . ولكن إياك أن تتوسع أيها العبد في فهم معنى كلمة « ظلم » هذه ؛ لأن الذى ينالك ممن ظلمك إما فعل وإما قول . وعليك أيها المسلم أن تقيس الأمر بمقياس دقيق على قدر ما وقع عليك من ظلم .

﴿ فَمَنْ آعَدَئِ عَلَيْهِ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آعَدَئِ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يعطينا في الاستثناء إلا على قدر الضرورة . ويوضح : إياكم أن تزيدوا على هذه الضرورة ، فإن كان ظلمكم يقول فأننا السميع . وإن كان ظلمكم بفعل فأننا العليم ، فلا تزيد واحد عن حدود اللياقة .

وبذلك يضع الحق الضوابط الإيمانية والنفسية فأزاح الكبت وفي الوقت نفسه لم يقفل باب الطموح الإيماني . لقد سمح للعبد أن يجهر إن وقع عليه ظلم . لكن إن امتلك الإنسان الطموح الإيماني فيمكنه ألا يجهر وأن يعفو . إذن فهناك فارق بين أمر يضعه الحق في يد الإنسان ، وأمر يلزمه به قسراً وإكراها عليه ؛ فمن ناحية الجهر ، جعل سبحانه المسألة في يد الإنسان ، ويجب سبحانه أن يعفو الإنسان ؛ لأن المبادئ

(١) رواه البيهقي في الشعب ، والترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله (توقد) . ورواه أحمد وأبو داود .

القرآنية يتساند بعضها مع بعض . وسبحانه يقول :

﴿ اَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

فإن أباح الله لك أن تجهر بالسوء من القول إذا ظلمك أحدٌ ، فقد جعل لك ألا تجهر بل تغفو عنه ، وغالب الظن أن صاحب السوء يستخزي ويعرف أن هناك انساناً أكرم منه في الخلق ، ولا يتعب إنسانٌ إلا أن يرى انساناً خيراً منه في شيء . وعندما يرى الظالم أن المظلوم قد عفا فقد تنفجر في نفسه الرغبة أن يكون أفضل منه .

إذن فالمبدأ الإيماني : « ادفع بالتي هي أحسن » جعله الله مجالاً محبوباً ولم يجعله قسراً ، لأنك إن أعطيت الإنسان حقه ، ثم جعلت لأريحته أن يتنازل عن الحق فهذا إرضاء للكل . وهكذا ينمي الحق الأريحية الإيمانية في النفس البشرية ، لأنه لو جعلها قسراً لأصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك إذا رأيت انساناً قد اعتدى على إنسان آخر ، فدفع الإنسان المعتدى عليه بالتي هي أحسن وعفا وأصلح فقد ينصلح حال المعتدى ، وسبحانه القائل : (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) .

فإذا تمادى من بعد ذلك فعل الإنسان أن يعرف أن الله لا يكذب أبداً ، ولا بد أن الخلل في سلوكك يا من تظن أنك دفعت بالتي هي أحسن .

قد يكون الذي دفع بالتي هي أحسن قد قال بلهجة من التعالي : سأعفو عنك ، ومثل هذا السلوك المتكبر لا يجعل أحداً ولياً حميماً . لكن إن دفع حقيقة بالتي هي أحسن تواضعاً وسباحة ، فلا بد أن يصير الأمر إلى ما قاله الله : (فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) . والتفاعلات النفسية المتقابلة يضعها الله في إطارات واضحة وسبحانه القائل :

﴿ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكَ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

وذلك حتى لا يستشري المعتدى أيضاً ، فهناك إنسان إذا تركناه مرة ومرة . يستشري ، لكن إذا ما أوقفناه عند حده فهو يسكت ، وبذلك نرحم المجتمع من استشراف الفساد . ويُصعب الحق المسألة في رد الاعتداء .

ويشور سؤال : من القادر على تحقيق المثلية بعدالة ؟ . ونجد على سبيل المثال إنساناً ضرب إنساناً آخر صفعة على الوجه ، فبأية قوة دفع قد ضرب ؟ وفي أى مكان ضرب ؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتساوية أمر صعب . ومادام المأمور به أن اعتدى بمثل ما اعتدى به على ، ولن أستطيع تحقيق المثلية ، ولربما زاد الأمر على المثلية ، وبعد أن كنت المعتدى عليه صرت المعتدى ، بذلك يكون العفو أقرب وأسلم .

والعمليات الشعورية التي تتاب الإنسان في التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد في النفس تدفع إلى النزوع . والعملية النزوعية هي رد الفعل لما تدركه ، فإن أذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك فأنت تبذل جهداً لتكظم الغيظ ، أى أن تحبس الغيظ على شدة . فالغيظ يكون موجوداً ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط . وعلى المغيظ أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقي الغيظ في القلب .

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

هذه مرحلة أولى تتبعها مرحلة ثانية هي :

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

فإذا كان المطلوب في المرحلة الأولى منع العمل النزوعي ، فالأرقى من ذلك أن تعفو ، والعفو هو أن تخرج المسألة التي تغيظك من قلبك . وإن كنت تطلب مرحلة أرقى في كظم الغيظ والعفو فأحسن إليه ، لأن من يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيمانياً . وعندما ترى مريضاً في بدنه فأنت تعاونه وتساعد له وإن كان عدواً لك . وتتنامى عدواته ، فما بالنا بالمصائب في قيمه ؟ إنه يحتاج منا إلى كظم الغيظ ، أو العفو كدرجة أرقى ، أو الانحسان إليه كمرحلة أكثر علواً في الارتقاء .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبيح أن تعتدى بالمثل ، ثم يفسح المجال لنكظم الغيظ فلا نعتدى ولكن يظل السبب في القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى العفو وأن نخرج المسألة من قلوبنا ، ثم يترقى ارتقاء آخر ، فيقول سبحانه : (والله يحب المحسنين) ، ومن فينا غير راغب في حب الله ؟ وهكذا نرى أن الدين الإسلامي يأمر بأن يحسن المؤمن إلى من أساء إليه .

وقد يتساءل إنسان : كيف تطلب مني أن أحسن إلى من أساء إلى ؟ والرد : أنت وهو لستما بمعزل عن القيوم ، فهو قيوم ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وكل شيء مرثى له وكلاكما صنعة الله ، وعندما يرى الله واحداً من صنعته يعتدى عليك أو يسيء إليك فسبحانه يكون معك ويجهرك ، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدى عليه . إذن فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه في جانبك ، وتكون تلك الإساءة في جواهرها هدية لك .

وعندما نفلسف كل المسائل نجد أن الذي عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم وثأر لنفسه ؛ لأنه إن انتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، وحين يعفو فهو يجعل المسألة لله وقدرته سبحانه غير محدودة ، إن أراد أن يرد عليه ، ويعطاء غير محدود إن أراد أن يرضى المعتدى عليه . هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العاقب المحسن . وهو السميع العليم بكل شيء . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

لقد عرفنا أن الحق لا يسمع لك بالجهر بالسوء من القول إلا إذا كنت مظلوماً . وهذا يعني أن المسألة تحتل الجهر وتحتل الإخفاء ، فقال : « إن تبدوا خيراً ، أى إن تظهر الخير ، أو تخفى ذلك ، أو تعفو عن السوء . وكل هذه الأمور من ظاهر وخفى من الأغيار البشرية ، لكن شيئاً لا يخفى على الله . ولا يمكن أن يكون للعفو مزية

إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة ، فإن كان عاجزاً لما قال : عفوت . وسبحانه يعفو مع القدرة . فإن أردت أن تعفو فلتخلق بأخلاق منهج الله ، فيكون لك العفو مع القدرة . ولنا أن نعلم أن الحق لا يريد منا أن نستخزي أو نستذل ولكن يريد منا أن نكون قادرين ، ومادعنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة وهذه هي المزية الإيمانية ؛ لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً .

والناس تنظر إلى العاجز الذي يقول : إنه عفا - وهو على غير قدرة - تراه أنه استخزي . أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منهج الله فليأخذ من عطاءات الله في الكون ، ليكون قادراً وعزيزاً بحيث إن ناله سوء ، فهو يعفو عن قدرة « فإن الله كان عفواً قديراً » .

وقلنا من قبل : إنك إذا لمحت كلمة « كان » على نسبة لله سبحانه وتعالى كنسبة الغفران له أو الرحمة ، فعلينا أن نقول : كان ولا يزال ؛ لأن الفعل مع الله ينحل عن الزمان الماضي وعن الحاضر وعن المستقبل ؛ فهو سبحانه مادام قد كان ، وهو لا تناله الاغيار ، فهو يظل إلى الأبد . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ
يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾

وسبحانه يريد أن يجعل من قضية الإيمان قضية كلية واحدة لا أبعاد فيها ، فليس إعلان الإيمان بالله وحده كافياً لأن يكون الإنسان مؤمناً ؛ لأن مقتضى أن تؤمن بالله يحتاج إلى رسول يعرفك أن الخالق هو الذي سخر لك قوى الكون واسمه الله .

وأنت لا تهتدى إلى معرفة اسم القوة الخالقة لك إلا بواسطة رسول منزل من عند الله .

ونعرف أن عمل العقل في الاستنباط العقدي عاجز عن معرفة اسم خالق الكون ؛ لأن الإنسان قد طرأ على كون منظم ، وكان من الواجب عليه أن يلتفت لفئة ليعلم القوة التي سبقت هذا الوجود وخلقته وأن الإنسان قد طرأ على وجود متكامل . وقد يسمع الإنسان من أبيه - مثلاً - أن هذا البيت بناء الأب أو الجد ، وذلك الشيء فعله فلان ابن فلان . لكن لم يسمع أحداً يقول له : « ومن بنى السماء ؟ » ولم يسمع أحداً يقول : « ومن خلق الشمس ؟ » ، مع أن الناس تدعى ما ليس لها ، فكيف يُترك أعظم ما في كون الله بدون أن نعرف من أوجده ؟ .

إننا نجد الناس تؤرخ للشيء النافه أو المهم نسبياً في حياتهم ، نجد دراسات عن تاريخ أحجار ، ودراسات عن تاريخ صناعة الأشياء ؛ تاريخ المصباح الكهربى الذى اخترعه اديسون وقام بتوليد الكهرباء من مصادر ضئيلة ويسيره ، باختصار ، نجد أن كل شيء في هذا الوجود له تاريخ ، وهذا التاريخ يرجع بالشيء إلى أصل وجوده . وأنت إن نسبت أى صنعة مهما كانت مهمة أو تافهة نكتشف أن واحداً تلقاها عن واحد ، ولم يتكرها هو دفعة واحدة .

إن كل مبتكر أخذ ما انتهى إليه سابقه وبدأ عملاً جديداً إلى أن وصلت المخترعات بميلادها ، ومن يصدق أن مصباحاً يُضيء وينطفئ ويحترق يصنعه إنسان ونعرف له تاريخاً ، وبعد ذلك ننظر إلى الشمس التي لم تخفت ولم تضعف ولم تنطفئ ولم تحترق ، والمصباح ينير حيزاً قليلاً يسيراً ، والشمس تنير كونا ووجوداً ، ألا نحتاج الشمس إلى من يفكر في تاريخها ؟

لقد سبق لنا أن قلنا : إن الإنسان حينما ينظر إلى الكون نظرة بعيدة عن فكرة الدين ويعيداً عن بلاغ الرسل عن الخالق وكيفية الخلق ومنهج الهداية ، فهو يقول لنفسه : تختلف مقادير الناس باختلاف مراكزها وقوتها فيما يفعلون ، هنالك من يجلس على كرسي من شجر الجميز . وآخر على كرسي مصنوع من شجر الورد ، وثالث يجلس على حصيرة .

إن الإنسان يعيش بصناعات غيره من البشر حسب قدره ومكانته ؛ فالريفي أو البدوي يشعل النار بصك حديدة بحجر الصوان ويحتفظ بالنار لمدة ليستعملها لأكثر من مرة ، وعندما يرتقى في استخدام النار يستعمل « مسرجة » ، ولما ازداد تحضرا استخدم « مصباح جاز » بزجاج ولها أرقام تدل على قدرتها على الاضاءة .

فهناك مصباح رقم خمسة ، ورقمها دليل على قوتها الخافتة ، وتتضاعف قوة « المصباح » من بعد ذلك حسب المساحة المطلوب إنارتها . ولما ارتقى الإنسان أكثر استخدم « الكلوب » . ولما ارتقى أكثر استخدم الكهرباء أو النيون أو الطاقة الشمسية ، فإذا ما أشرقت الشمس فكل إنسان يطفىء الضوء الذى يستخدمه ، فتورها يغنى عن أى نور . وفى الليل يحاول الإنسان أن تكون حالة الكهرباء فى منزله جيدة خشية أن ينقطع سلك ما فيظلم المكان . فما بالنا بالشمس التى لا يحدث لها مثل ذلك .

إننا نجد الإنسان على مر التاريخ يحاول أن يرقى إلى فهم طلاقة قدرة الحق ، وإن لم يأت رسول ، أما أسماء القدرة الخالقة فلا يعرفها أحد بالعقل بل بوساطة الرسل . فاسم « الله » اسم توقيفى . فكيف يتأتى - إذن - مثل قول هؤلاء : سنؤمن بالله ونكفر برسوله ؟ كيف عرفوا - إذن - أن القوة التى سيؤمنون بها اسمها الله ؟ لا بد أنهم قد عرفوا ذلك من خلال رسول ؛ لأن الإيمان بالله إنما يأتى بعد بلاغ عن الله لرسول ليقول اسمه لمن يؤمن به .

وهل الإيمان بالله كقوة خفية قوية مبهمة وعظيمة يكفى ؟ أو أن الإنسان لا بد له أن يفكر فيما تطلبه منه هذه القوة ؟ وإذا كانت هذه القوة تطلب من الإنسان أن يسير على منهج معين ، فمن الذى يبلغ هذا المنهج ؟

لا بد إذن من الرسول يبلغنا اسم القوة الخالقة ومطلوبها من الإنسان للسير على المنهج ، ويشرح لنا كيفية طاعة هذه القوة . فلا أحد - إذن - يستطيع أن يفصل الإيمان بالله عن الرسول ، وإلا كان إيمانا بقوة مبهمة . ولا يجترئ صاحب هذا اللون من الإيمان أن يقول : إن اسم هذه القوة « الله » ؛ لأن هذا الاسم يحتاج إلى بلاغ من رسول .

إذن فعندما يسمع أحدنا إنساناً يقول : أنا أوّمن بالله ولكن لا أوّمن بالرسول : علينا أن نقول له : هذا أول الزلل العقل ، لأن الإيمان بالله يقتضى الإيمان ببلاغ جاء به رسول ، لأن الإيمان بالله لا ينفصل عن الإيمان بالرسول .

والحق سبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقيّة المخلوقات ، ولا نجد من يدعى أن آدم هو أول من عمر هذا الوجود .

وما آدم في منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

ومن الممكن أن نقول : إن هناك خلقاً كثيراً قد سبقوا آدم في الوجود ، ولكن آدم هو أول الجنس البشرى . وعندما خلّقه الله علمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يسير في الوجود ، فلم يكن قد تعلم الأسماء لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده ، ولما استطاع - على سبيل المثال - أن يقول لابن من أبنائه : انظر أشرقت الشمس أم لا ؟

إذن كان لا بد لأدم من معرفة الأسماء كلها من خلال معلم ، لأن اللغة بنت المحاكاة ، لأن أحداً لا يستطيع أن يتكلم كلمة إلا بعد أن يكون قد سمعها . والواحد منا سمع من أبيه ، والآباء سمعوا من الأجداد ، وتتوالى المسألة إلى أن تصل إلى آدم ، فممن سمع آدم حتى يتكلم أول كلمة ؟ لا بد أنه الله ، وهذه مسألة يجب أن يعترف بها كل إنسان عاقل . إذن قول الحق في قرآنه :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

هو كلام منطقي بالإحصاء الاستقرائي ، وهو قول يتميز بمنتهى الصدق .

والإنسان منا عندما يعلم ابنه الكلام يعلمه الأسماء . أما الأفعال فلا أحد يعرف كيف تعلمها . الإنسان يقول لابنه : هذا كوب ، وهذه منضدة ، وذلك طبق ، وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه : « شرب » معناها كذا ، « أكل » معناها كذا . إذن فالخميرة الأولى للكلام هي الأسماء ، وبعد ذلك تأتى المزاوالت والممارسات ليتعلم الإنسان الأفعال .

لقد ترك الحق لنا في كونه أدلة عظيمة تناسب عظمته كخالق لهذا الكون . والرسول هو الذي يأتي بالبلاغ عنه سبحانه ، فيقول لنا اسم القوة : « الله » ، وصفاتها هي « كذا » ، ومن يطعمها يدخل الجنة ، ومن يعصها يدخل النار ، ولو لم يوجد رسول نضل تائهين ولا نعرف اسم القوة الخالقة ولا نعرف مطلوبها ، وهذا ما يرد به على الجماعة التي تعبد الشمس أو تعبد القمر أو النجوم ونقول لهم : هل أنتم تعبدون الشمس ؟ لعلكم فعلتم ذلك لأنها أكبر قوة في نظركم .

لكن هناك سؤال هو : « ما العبادة » ؟ الإجابة هي : العبادة طاعة عابد لمعبود ، فإذا طلبت منكم الشمس أن تفعلوه وماذا نهتكم ومنعتكم الشمس ألا تفعلوه ؟ ويعترف عبدة الشمس : لم تطلب الشمس منا شيئاً . وعلى ذلك فعبادتهم للشمس لا أساس لها ، لأنها لم تحدد منهجاً لعبادتها ، ولا تستطيع أن تعد شيئاً لمن عبدها ، فإله بلا منهج لا قيمة له . وهكذا نرى أن عبادة أى قوة غير الله هي عبادة تحمل نكديها ، والإيمان بالله لا يفصل أبداً عن الإيمان بالقوة المبلغة عن الله إنها الرسل .

ويشرح الرسول لنا كيف يتصل بهذه القوة الإلهية ، وتشرح القوة الإلهية لنا كيفية اتصاله بالرسول البشرى بوساطة خلق آخر خلقت هذه القوة المطلقة ، لأن الرسول من البشر ، والبشر لا يستطيع أن يتلقى عن القوة الفاعلة الكبرى . ونحن نفعل مثل هذه الأشياء في صناعتنا . ونعلم أن الإنسان عندما يريد أن ينام لا يرغب في وجود ضوء في أثناء نومه ، فيتخذ الليل سكناً ويتمتع بالظلمة ، لكن إن استيقظ في الليل فهو يخاف أن يسير في منزله بدون ضوء حتى لا يصطدم بشيء . لذلك يوقد مصباحاً صغيراً في قوة الشمعة الصغيرة ليعطى نفسه الضوء ، ونسميها « الوانسة » .

ولا نستطيع توصيل هذا المصباح الصغير بالكهرباء مباشرة ، وإنما نقوم بتركيب محول صغير يأخذ من القوة الكهربائية العالية ويعطى للمصباح الصغير ، فما بالنا بقوة القوى ؟

إن الله جعل خلقاً آخر هم الملائكة ليكونوا واسطة بينه وبين رسله . وهؤلاء الرسل أعددهم سبحانه إعداداً خاصاً لتلقى هذه المهمة . إذن فالذين يريدون أن يؤمنوا بالله ثم يكفروا برسله نقول لهم : لا ، هذا إيمان ناقص . ووضع الحق

سبحانه وتعالى الإيمان بالرسول كلهم في صيغة جمع حتى لا تفهم كل أمة أن رسوله فقط هو الرسول المنزل من عند الله ، بل لا بد أن تؤمن كل أمة بالرسول كلهم ؛ لأن كل رسول إنما جاء على ميعاده من متطلبات المجتمع الذي يعاصره ، وكلهم جاءوا بعقائد واحدة ، فلم يأت رسول بعقيدة مخالفة لعقيدة الرسول الآخر ؛ وإن اختلفوا في الوسائل والمسائل التي تترتب عليها الارتقاءات الحياتية . وقد خلق الحق أولاً سيدنا آدم وخلق منه زوجته حواء ، اثنين فقط ثم قال سبحانه :

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

كان الاثنان يعيشان معاً وأنجبا عدداً من الأبناء ، وتناسل الأبناء فصار مطلوباً لكل أسرة من الأبناء بيتاً ، وكل بيت فيه أسرة يحتاج إلى رقعة من الأرض ليستخرج منها أفراد الأسرة خيرات تكفي الطعام . وكل فرد يحتاج على الأقل إلى نصف فدان ليستخرج منه حاجته للطعام . وكلما كثر النسل اتسعت رقعة الوجود بالمواصلات البدائية ، فهذا إنسان ضاقت به منطقته فرحل إلى منطقة أخرى فيها مطر أكثر ليستفيد منه أو خير أكثر يستخرجه . وتنتشر الجماعات وتنعزل . وصارت لكل جماعة عادات وتقاليد وأمراض ومعايب غير موجودة في الجماعة الأخرى . ولذلك ينزل الحق سبحانه وتعالى رسولاً إلى كل جماعة ليعالج الداءات في كل بيئة على حدة . وسخر الحق سبحانه وتعالى بعض العقول لاكتشافات الكون ، وبعد ذلك يصبح الكون قطعة واحدة ، فالحدث يحدث في أمريكا لنراه في اللحظة نفسها في مصر . وزادت الارتقاءات . ولذلك كادت العادات السيئة تكون واحدة في المجتمع الإنساني كله ، فظهر السيئة في أمريكا أو ألمانيا لنجدها في مجتمعنا . إذن فالارتقاءات الطموحية جعلت العالم وحدة واحدة : آفاته واحدة ، وعاداته واحدة . وعندما يأتى الرسول الواحد يشملهم كلهم .

ولذلك كان لا بد أن يأتى الرسول الخاتم الجامع صلى الله عليه وسلم ؛ لأن العالم لم يعد منعزلاً ، ليخاطب الجمع كله ، وهو خير الرسل ، وأتمه خير الأمم إن اتبعت تعاليمه . ومن ضرورة إيمان رسول الله والذين معه أن يؤمنوا بمن سبق من الرسل . والذين يحاولون أن يفرقوا بين الرسل هم قوم لا يفقهون . فاليهود آمنوا بموسى عليه السلام وأرهقوه وكفروا بعيسى . وعندما جاء عيسى عليه السلام آمن به بعض ،

وعندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم آمن به بعض وكفر به بعض . ولذلك سمي الحق كفرهم بالنبي الخاتم : (ثم ازدادوا كفراً) . أى أنه كفر في القمة ، فلن يأتي نبي من بعد ذلك . واكمل به صلى الله عليه وسلم موكب الرسالات .

إذن فالمراد من الآية أن الإيمان فيه إيمان قمة ، تؤمن بقوة لكنك لا تعرف اسم هذه القوة ولا مطلوبات هذه القوة ولا ما أعدته القوة من ثواب للمطيع ولا من عقاب للعاصي . ولذلك كان ولا بد أن يوجد رسول ؛ لأن العقل يقود إلى ضرورة الإيمان بالله والرسول . وجاء الرسل في موكب واحد لتصفية العقيدة الإيمانية لإله واحد ، فلا يقولن واحد : لقد آمنت بهذا الرسول وكفرت ببقية الرسل . والآية التي نحن بصددنا الآن تتعرض لذلك فتقول :

﴿ إِن الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَخْلُودُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (سورة النساء)

ونحن نعلم أن « كفر » معناها « ستر » . والستر - كما نعلم - يقتضى شيئاً تستره ، والشئ الذى يتم ستره موجود قبل الستر لا بعد الستر . والذى يكفر بوجود الله هو من يستر وجود الله ؛ فكأن وجود الله قد سبق الكفر به . إذن فكلمة الكفر بالله دليل على وجود الله . ونقول للكافر : ماذا سترت بكفرك ؟ وستكون إجابته هي : « الله » . أى أنه آمن بالله أولاً .

« إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله » هم الحمقى ؛ لأن هذا أمر غير ممكن ، وكل رسول إنما جاء ليصل المرسل إليهم بمن أرسله . ولذلك نجد قوله الحق :

﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

إنه حدث واحد من الله ورسوله . لذلك نجد أن الحمقى هم من يريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله : « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض » لهؤلاء نقول : إن الإيمان قضية كلية ، فموكب الرسالة من الحق سبحانه وتعالى يتضمن عقائد واحدة

ثابتة لا تتغير . والحق يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة النساء)

وهذا يؤكد أن قضايا العقائد إنما جاءت من نبع واحد لعقيدة واحدة . فإذا - إذن - يريدون بمسألة الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض الآخر ؟ يريدون السلطة الزمنية . وكذا القائلون على أمر الدين قديماً هم الذين يتصرفون في كل أمر ، في القضاء وفي الهندسة وفي كل شيء . لذلك وثق فيهم الناس على أساس أنهم المبلغون عن الله الذين ورثوا النبوات وعرفوا العلم عن الله . ونجد العلوم الارتقائية في الحضارات القديمة كحضارة قدماء المصريين كالتحنيط وغيرها تلك التي مازالت إلى الآن لغزاً ، إنما قام بأمرها الكهنة ، وهم - كما نعلم - المنسوبون إلى الدين . كأن الأصل في كل معلومات الأرض هي من هبة السماء . لماذا إذن أخرج البشر وسنوا قوانين من وضعهم ؟ لقد فعل البشر ذلك لأن السلطة الزمنية استولى عليها رجال الدين .

ما معنى كلمة « سلطة زمنية » . كان الناس يلجأون إلى رجل الدين في كل أمورهم ، ويفاجأ رجل الدين بأنه المقصود من كل البشر ، ويغمره الناس بأفضالهم ويعطونه مثل القرابين التي كانت تعطى للآلهة ، فيعيش في وضع مرفه هو وأهله ويزداد سمعة من كثرة الطعام والمتعة . وعندما يأتي إليه أحد في مسألة فهو يحاول أن يقول الرأي الذي يؤكد به سلطته الزمنية ، فإذا ما جاء رسول ليلغي هذه الامتيازات ، يسرع بتكذيبه ؛ ليظل - كرجل كهنوت - على قمة السلطة . ولذلك قال فيهم الحق :

﴿ أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

أى استبدلوا بآيات الله ثمناً قليلاً من متاع الدنيا . فآخذوا الشيء الخفير من متاع الدنيا وتركوا آيات الله دون أن يعملوا بها .

وعندما نبحث في تاريخ القانون . نجد قانوناً إنجليزياً وآخر فرنسياً أو رومانياً ، ونجد أن المصادر الأولى لهذه القوانين هي ما كان يحكم به الكهنة . والذي جعل

الناس تنعزل عن الكهنة هو استغلالهم للسلطة الزمنية . والتفت البشر الذين عاصروا هؤلاء الكهنة أن الواحد منهم يقضى في قضية بحكم ، ثم يقضى في مثيلاتها بحكم مخالف ، ويغير من حكمه لقاء ما يأخذ من أجر ، فتشكك فيهم الناس ، وعرفوا أنهم يلوون الأحكام حسب أهوائهم ؛ لذلك ترك الناس حكم الكهنة ، ووضعوا هم القوانين المناسبة لهم .

إذن فالسلطة الزمنية هي التي جعلت من أتباع بعض الرسل يتعصبون لرسولهم . فإذا ما جاء رسول آخر ، فإن أصحاب السلطة الزمنية يقاومون الإيمان برسالته حتى لا يأخذ منهم السلطة الزمنية . ولذلك يعادونه ؛ لأن الأصل في كل رسول أن يبلغ أتباعه والذين آمنوا به ، أنه إذا جاء رسول من عند الله فعليكم أن تسارعوا أنتم إلى الإيمان به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا أَسْلَمُوا أَن تَبِيتُمْ مِمَّنْ كَتَبَ وَحْيُهُ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ لِيُحْذَرَكُمْ فَعَدْتُمْ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّسُولُ بَرَاهِمْ أَوْفَوْا لَهُمْ نَذْرَهُمْ فَكَفَرُوا بِهِمْ ثُمَّ حَذَرْنَا لَهُمُ الْغَمَّ أَفْضِلًا مِّمَّا حَذَرُوا لَهُمُ الْغَمَّ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا أخذ الله الميثاق من النبيين بضرورة البلاغ عن موكب الرسالة حتى النبي الخاتم .

﴿ إِنَّا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَخْلُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾

(سورة النساء)

أى أنهم يحاولون أن يفرقوا بين الله ورسله بأحكامهم التي كانوا يتبعون فيها أهواءهم للإبقاء على السلطة الزمنية ، من أجل أن يقيموا أمراً هو بين بين ، وليس في الإيمان « بين بين » ؛ فإما الإيمان وإما الكفر . والنظرة إلى كل هذه الآية نجدتها في معظمها معطوفات ، ولم يتم فيها الكلام وهي في كليتها مبتدأ ، لا بد لها من خبر ، ويأتى الخبر في الآية التالية :

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

ود الكافرون حقاً ، مقصود بها أن حقيقة الكفر موجودة فيهم ؛ لأننا قد نجد من يقول : وهل هناك كافر حق ، وكافر غير ذلك ؟ نعم . فالذي لا يؤمن بكل رسالات السماء قد يملك بعضاً من العذر ، لأنه لم يجد الرسول الذي يبلغه . أما الذي جاءه رسول وله صلة إيمانية به ؛ وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحي ، فإن كفر هذا الإنسان فكفره فظيع مؤكد . « أولئك هم الكافرون حقاً » .

ونلاحظ أن الحق ساعة يتكلم عن الكافرين لا يفرغهم عن الحكم والجزاء الذي ينتظرهم ، بل يوجد الحكم معهم في الشخص الواحد . ولا يحيل الحق الحكم إلى آية أخرى : « أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » وقد جاء هنا بالجزاء على الكفر ملتصقاً بالكفر ، فنبهاته قد جهز بالفعل العذاب المهين وأعدّه للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوفه . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الجنة عرضت على ولو شئت أن أتكم بقطاف منها لفعلت » (١)

لقد أعد الحق الجنة والنار فعلاً وعرضها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو شاء الرسول أن يأتي المؤمنين بقطاف من ثمر الجنة لفعل . فليأكم أن تعتقدوا أن الله سيقبل إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرى كم واحداً قد كفر فيعد لهم عذاباً على حسب عددهم ، أو كم واحداً قد آمن فيعد لهم جنة ونعياً على قدر عددهم ، بل أعد الحق الجنة على أن كل التمس مؤمنون ولهم مكان في الجنة ، وأعد النار على أن كل الناس كافرون ولهم أماكن في النار . فيأت المؤمن للآخرة ويأخذ المكان المعد له ، ويأخذ أيضاً بعضاً من الأماكن في الجنة التي سبق إعدادها لمن كفر . مصداقاً لقوله الحق :

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾

(سورة المؤمنون)

(١) رواه البخاري في الأذان ، وابن ماجه في الإقلاعة ، واحد .

فصبحانه لم ينتظر ولم يؤجل المسألة إلى حد عمل الإحصائية ليسأل من الذى آمن ومن الذى كفر ، ليعد لكل جماعة حسب تعدادها ناراً أو جنة ، بل عامل خلقه على أساس أن كل الذى يأتى إليه من البشر قد يكون مؤمناً ، لذلك أعد لكل منهم مكاناً فى الجنة ، أو أن يكون كافراً ، فأعد لكل منهم مكاناً فى النار . ونجد السؤال فى الآخرة للنار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۝١٥٢﴾

(سورة ق)

فالنار تطلب المزيد للأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخلها لأنه آمن بالله . ويرث الذين آمنوا الأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخل الجنة لأنه كفر بالله وبرسله وفرق بين الله ورسله وقال تؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويأتى من بعد ذلك المقابل للذين كفروا بالله ورسله وهم المؤمنون ، هذا هو المقابل المنطقي .

والجاء بالمقابلات أدعى لرسوخها فى الذهن . مثال ذلك عندما ينظر مدير المدرسة إلى شاين ، كل منهما فى الثانوية العامة ، فيقول : فلان قد نجح لأنه اجتهد ، والثانى قد خاب وفشل . هذه المفارقة تحدث لدى السامع لها المقارنة بين سلوك الاثنين .

وهاهو ذا الحق يأتى بالمقابل للكافرين بالله ورسله :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِمْ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٥٢﴾

ويؤكد الحق هنا على أمر واضح : هو : « ولم يفرقوا بين أحد منهم » وكلمة « أحد » فى اللغة تطلق مرة ويراد بها المفرد ، ومرة يراد بها المفردة ، ومرة يراد بها المثنى مذكراً أو المثنى مؤنثاً أو جمع الإناث وجمع التذكير . وهكذا تكون « أحد » فى

هذه الآية تشمل كل الرسل ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿يَنْفِسَاءَ النَّهَى لَكُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النساء)

فكلمة أحد يستوى فيها المذكر والمؤنث والمثنى والمفرد والجمع . وكما قال الحق عن الذين يكفرون بالله ورسله أو يفرقون بين الرسل : « أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » . يقول الحق في هذه الآية عن الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم : « أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » فكل مقابل قد جاء معه حكمه . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا
مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ
فَقَالُوا آرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ
يُظْلِمُهُمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطَانًا

مُبِينًا ﴿١٥٣﴾

هذا خطأ منهم في السؤال ، وكان المفروض أن يكون : يسألك أهل الكتاب أن تسأل الله أن ينزل عليهم كتاباً . وقد حاول المشركون في مكة أن يجهلوا في القرآن ثغرة فلم يجدوا وهم أمة فصاحة وبلاغة ولسان ، واعترفوا بأن القرآن عظيم ولكن الافة بالنسبة إليهم أنه نزل على محمد صل الله عليه وسلم :

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرْبَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿١٦١﴾﴾

(سورة الزخرف)

هم اعترفوا بعظمة القرآن ، واعترفوا بعظمة القرآن مع غيظهم من نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم مضطربين فكرياً ، لقد اعترفوا بعظمة القرآن بعد أن نظروا إليه . . فمرة قالوا : إنه سحر ، ومرة قالوا : إنه من تلقين بعض البشر ، وقالوا : إنه شعر ، وقالوا : إنه من أساطير الأولين . وكل ذلك رهبة أمام عظمة القرآن . ثم أخيراً قالوا : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) .

ولكن ألم يكن هو القرآن نفسه الذى نزل ؟ إذن . فالأفة - عندهم - أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك من الحسد :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النساء)

لأن قولهم لا يتسم أبداً بالموضوعية ، بل كل كلامهم بُعِدَ عن الحق وتخيّل . لقد قالوا مرة عن القرآن : إنه سحر ، وعندما سألمهم الناس : لماذا لم يسحركم القرآن إذن ؟ فليس للمسحور إرادة مع الساحر . ولم يجلبوا إجابة . وقالوا مرة عن القرآن : إنه شعر ، فتعجب منهم القوم لأنهم أمة الشعر ، وقد سبق لهم أن علقوا المعلقات على جدار الكعبة ، لكنه كلام التخيّل .

إذن فالمسألة كلها تنحصر في رفضهم الإيمان ، فإذا أمسكتهم الحجة من تلايبيهم في شيء ، انتقلوا إلى شيء آخر .

ويوضح سبحانه : إن كانوا يطلبون كتاباً فالكتاب قد نزل ، تماماً كما نزل كتاب من قبل على موسى . وماداموا قد صدقوا نزول الكتاب على موسى ، فلماذا لا يصدقون نزول الكتاب على محمد ؟ ولا بد أن هناك معنى خاصاً وراء قوله الحق : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . ونعلم أن الكتاب نزل على موسى مكتوباً جملة واحدة ، وهم كأهل كتاب يطلبون نزول القرآن بالطريقة نفسها ، وعندما ندقق في الآية نجد أنهم يسألون أن ينزل عليهم الكتاب من السماء ؛ وكأنهم يريدون أن يعزلوا رسول الله وأن يكون الكلام مباشرة من الله لهم ؛ لذلك يقول الحق في موقع آخر :

﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

الحق - إذن - قسم الأمور في الحياة الدنيا ، فكيف يتدخلون في مسألة الوحي وهو من رحمة الله : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . وهم قد نسبوا التنزيل إلى رسول الله ، ورسول الله ما قال إن نزلت « بل قال : « أنزل على » .

ويقال في رواية من الروايات أن كعب بن الأشرف والجماعة الذين كانوا حوله أرادوا أن ينزل الوحي على كل واحد منهم بكتاب ، فيقول الوحي لكعب : « يا كعب آمن بمحمد » .

وَيُنَزَّلُ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ كِتَاباً بِهَذَا الشَّكْلِ الْخُصُوصِيِّ . أو أن ينزل الله لهم كتاباً مخصوصاً مع القرآن . وكيف يطلبون ذلك وعندهم التوراة ، ويوضح الله تسلياً لرسوله صلى الله عليه وسلم : لا تستكثر منهم يا محمد أن يسألك كتاباً ينزل عليهم لأنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وطلبهم تنزيل الكتاب ، هو طلب لفعل من الله ، وقد سبق لهم الغلو أكثر من ذلك عندما قالوا لموسى : (أرنا الله جهرة) . وهم بمثل هذا القول تعدوا من فعل الله إلى ذات الحق سبحانه وتعالى ، لذلك لا تستكثر عليهم مسألة طلبهم لتنزل كتاب إليهم ، فقد سألوا موسى وهو رسولهم رؤية الله جهرة : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .

ولحظة أن ترى كلمة « الصاعقة » تفهم أنها شيء يأتي من أعلى ، يبدأ بصوت مزعج . وقلنا من قبل أثناء خواطرنا حول آية في سورة البقرة :

﴿ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴾

(من الآية ١٩ سورة البقرة)

أي أنهم يضعون أصابعهم في آذانهم من الصواعق ، وهذا دليل على أن صوت

الصاعقة مزعج قد يخرق طبلة الأذن ، ودليل على أن ازعاج الصاعقة فوق طاقة الانسداد بأصبع واحدة ؛ لأن الإنسان ساعة يسد أذنيه يسدها بطرف الأصبع لا بكل الأصابع . وبلغ من شدة ازعاج الصوت أنهم كلما وضعوا أناملهم في آذانهم لم يمتنع الصوت المزعج .

إذن فالصاعقة صوت مزعج يأتي من أعلى ، وبعد ذلك ينزل قضاء الله إما بامر مهلك وإما بنار تحرق وإما بريح تدمر « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، والظلم هو أن تجعل حقاً لغير صاحبه ، ولا تجعل حقاً لغير صاحبه إلا أن تكون قد أخذت حقاً من صاحبه . وسؤالهم هذا لون من الظلم ؛ لأن الإدراك للأشياء هو إحاطة المُدْرِك بالمُدْرَك .

وحيث تدرك شيئاً بعينك فمعنى ذلك أن عينك أحاطت بالشيء المدرك وحيثه بالتفصيل ، وكذلك الأذن عندما تسمع الصوت ، وكذلك الأنف عندما تشم الرائحة ، وكذلك اللمس لمعرفة النعومة أو الخشونة ، وكذلك الذوق ليحس الإنسان الطعم . إذن فمعنى الإدراك بوسيلة من الوسائل أن تحيط بالشيء المدرك إحاطة شاملة جامعة .

فإذا كانوا قد طلبوا أن يروا الله جهرة ، فمعنى ذلك أنهم طلبوا أن تكون آلة الإدراك وهي العين محيطة بالله . وحيث يحيط المُدْرِك بالمُدْرَك ، يقال قدر عليه . وهل ينقلب القادر الأعلى مقدوراً عليه ؟ حاشا لله . وذلك مطلق الظلم ونهايته ، فمن الجائز أن يرى الإنسان إنساناً ، ولكن لا يستقيم أبداً ولا يصح أن ينقل الإنسان هذه المسألة إلى الله ، لماذا ؟ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

ومادام الله إلهاً قادراً فلن ينقلب إلى مقدور .

ونحن إن أعطينا لواحد مسألة ليحلها ، فهذا معناه أن فكره قد قدر عليها . وأما إذا أعطينا مسألة ولم يقدر على حلها فكفره لم يقدر عليها . إذن فكل شيء يقع تحت دائرة الإدراك ، يقول لنا : إن الآلة المدركة قد قدرت عليه .

والحق سبحانه وتعالى قادر أعلى لا يتقلب مقدوراً لما خلق . « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » . وكان يكفي بعد أن أخذتهم الصاعقة أن يتأدبوا ولا يجترئوا على الله ، ولكنهم اتخذوا العجل من بعد أن جاوز الحق بهم البحر وعبره بهم تيسيراً عليهم وتأيداً لهم وأراهم معجزة حقيقية ، بعد أن قالوا :

﴿ إِنَّا لَمَذْرُكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

فقد كان البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ولا مفر من هلاكهم ؛ لأن المنطق الطبيعي أن يدركهم فرعون ، وآتى الله سيدنا موسى إلهامات الوحي ، فقال :

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِينَ ۝٦٢ ﴾

(سورة الشعراء)

لقد لجأ موسى إلى القانون الأعلى ، قانون الله ، فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر ، ويتفرق البحر وتصير كل فرقة كالطود والجبل العظيم ، وبعد أن ساروا في البحر ، وأغرق فرعون أمامهم ، وأنجاهم سبحانه ، لكنهم من بعد ذلك كله يتخذون العجل إلهاً !!

هكذا قابلوا جميل الله بالنكران والكفران . « ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فغفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين الذي آتاه الله لموسى عليه السلام هو التسلط والاستيلاء الظاهر عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم ، وجاءوا بالسيوف لأن الله قد أعطى سيدنا موسى قوة فلا يخرج أحد عن أمره ، والقوة سلطان قاهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ وَكَلَّمَا هُتُمُ ادْخُلُوا
الْبَابَ مُجَدِّدًا وَكَلَّمَا هُتُمُ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا

مِنْهُمْ مَيْشَقًا غَلِيظًا ﴿١٥١﴾

إذن اجتراؤهم في البداية كان في طلب رؤية الله جهرة ، ثم العملية الثانية وهي اتخاذهم العجل إلها . ويعالج الله هؤلاء بالأوامر الحسية ، لذلك نتق الجبل فوقهم :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

مثل هؤلاء لا يرضخون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فلما أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة وينقلوا المطلوب منهم ، ولما أن ينطبق عليهم الجبل ، وهكذا نرى أن كل اقتناعاتهم نتيجة للأمر المادى ، فجاءت كل الأمور إليهم من جهة المادة . « وقلنا ادخلوا الباب سجدا » . أى أن يدخلوا ساجدين ، وهذا إخضاع مادى أيضاً . وكان هذا الباب الذى أمرهم موسى أن يدخلوه ساجدين هو باب قرية أريحا في الشام . « وقلنا لهم لا تعدوا في السبت » وسبحانه قال عنهم :

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَّانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « السبت » لها اشتقاق لغوى من « سبت » و« يسبت » أى سكن وهذا . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الفرقان)

أى جعل النوم سكنا لكم وقطعا لأعمالكم وراحة لأبدانكم . « وقلنا لهم لا تعدوا في السبت » أى نهاهم الله أن يصطادوا في يوم السبت . ويأتى يوم السبت فتأتيهم الحيتان مغرية تخرج أشرعتها من زعانفها وهي تعوم فوق الماء ، أو تظهر على وجه الماء من كل ناحية ، وهذا من الابتلاءات . « ويوم لا يسبتون لا تأتيهم » أى أن الأيام التى يكون مسموحاً لهم فيها بالصيد لا تأتى لهم الأسماك ، ولذلك يجتالون ويصنعون الحفائر الثابتة من السلك ليدخلها السمك يوم السبت ولا يستطيع الخروج منها .

لقد احتالوا على أمر الله . هكذا بين الحق سبحانه وتعالى مراوغة بنى إسرائيل .
وفعل الله بهم كل ذلك ولكنهم احتالوا وتمردوا وردّوه ، وحين يهادن الحق القوم الذين
يدعوهم إلى الإيمان فسيحانه يُقدّر أنه خلقهم ويُقدر الغريزة البشرية التي قد يكون
من الصعب أن تلبس لأول داع ، فهو يدعوها مرة فلا تستقبل ، فيعفو . ثم يدعوها
مرة فلا تستقبل فيعفو ، ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو . وأخذ الله عليهم العهد
الوثيق المؤكد بأن يطيعوه ولكنهم عصوا ونقضوا العهد ، وبعد ذلك يقول لنا الخبر
لتتعلم أن الله لا يبل حق تحملوا أيها البشر . فسيحانه يقول من بعد ذلك :

﴿ فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ وَيَسْتَفْتَهُمْ وَكَفَرُوا بِمَا بَيَّنَّا اللَّهُ
وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ يَغْيِرُ حَقِّي وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ
بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴾ ١٠٠

لقد نقضوا كل المواثيق والأشياء التي تقدمت . ومعنى الميثاق هو العهد المؤكد
الموثق . ونقض الميثاق هو حله ، وهذا ما يستوجب ما يهددهم الله به ، وكفروا
بآيات الله التي أنزلها لتؤيد موسى عليه السلام ، وقتلوا أنبياء الله بغير حق . وادعوا
- تعليلاً لذلك - أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية ، أى أن قلوبهم مغلفة
منظلة أى تجعل عليها غلاف ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ولا يدخل فيها ما هو
خارج عنها . وأرادوا بذلك الاستدراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال
ولا يدخل فيها إيمان . وسبق أن تقدم مثل هذا في قول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠١ خَتَمَ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٢ ﴾

(سورة البقرة)

ونقول : أهي القلوب خلقت غلفاً . . أي أن القلوب خلقت مغطىة عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ، أم أنتم الذين فعلتم الختم وأنتم الذين صنعتم الغلاف ؟

وسبحانه أوضح في آية سورة البقرة أنه جل وعلا الذي ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . فالتختم على القلب حتى لا يتعرفوا إلى الدليل ؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد . والتختم على الأسماع والأبصار هو الختم على آلات إدراك الدلائل البينات على وجود الحق الأعلى ؛ فمقر العقائد مختم عليه وهو القلب ، ومضروب على الأذان وعلى البصر غشاوة ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا ؛ لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين فلماذا خصهم الله بذلك التكوين ؟ ولماذا لم يكن الذين اهتموا مختموا لا على قلوبهم ولا على أسماعهم ولا على أبصارهم ؟

غير أن الواحد منهم يبرر لنفسه وللآخرين انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول : « خلقتني الله هكذا » وهذا قول مزيف وكاذب ؛ لأن صاحبه إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ؛ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً فهو للشريك وليس لله . إذن فالتختم جاء كنتيجة للكفر .

وقدمت آيات سورة البقرة الحثية : أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتي الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وهنا في آية سورة النساء : « وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . فالكفر جاء أولاً ، وفي ذلك رد على أي إنسان يقول : « إن الله لا يهديني » . ولا يلتفت إلى أن الله لا يهدي من كفر به ، وكذلك الفاسق أو الظالم ، والمثال الأكبر على ذلك إبليس الذي كفر أولاً ، وبعد ذلك تركه الله لنفسه واستغنى عنه .

ولنا هنا وقفة لفظية مع قوله الحق : « فيما نقضهم » لأن الفهم السطحي لأصول الأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت « ما » هنا ؟ وبعضهم قال : إن « ما » هنا زائدة . ونقول : إياك أن تقول إن في كلام الله حرفاً زائداً ؛ لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده ويكون فضولاً وزائداً على الحاجة ولا فائدة فيه ، ولكن عليك أن تقول : « أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف » ، خصوصاً ونحن في هذا العصر نعيش

كأمة بلاعتها مصنوعة ، ولا غم لك اللسان العربى المطبوع . ولولا أننا تعلمنا العربية لما استطعنا أن نتكلمها . أما العربى الفصحى الذى نزل عليه القرآن فقد كان يتكلم اللغة العربية دون أن يجلس إلى معلم ، ولم يتلق العلم بأن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب بل تكلم اللغة بطبيعته وملكته .

أما نحن فنعيش فى زمن مختلف . وطغت علينا العجمة وامتلات آذاننا باللحن ، وصرنا نعلم أنفسنا قواعد اللغة العربية حتى نتكلم بأسلوب صحيح .

وقد جاءت القواعد فى النحو من الاستنباط من السليقة العربية الأولى التى كانت بغير تعليم . واستقرأ العلماء الأساليب العربية فوجدوا أن الفاعل مرفوع والمثنى يُرفع بالالف ، وجمع المذكر السالم يُرفع بـ « الواو » ، وهكذا أخذنا القواعد من الذين لا قواعد لهم بل كانوا يتكلمون بالسليقة وبالطبيعة والملكة .

لقد سمع العربى قديماً ساعة نزل القرآن قوله الحق : « فبما نقضهم » ولم يتنبه واحد منهم إلى أن شيئاً قد خرج عن الأسلوب الصحيح ، ونعلم أن بعضاً من العرب كانوا كافرين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصدقون القرآن ، ولو كانت هناك كلمة واحدة تخرج عن المؤلف فى اللغة لصرخوا بها وأعلنوها . ولكن القرآن جاء بالكلام المعجز على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغهم به ، موضحاً : جئت بالقرآن معجزة تعجزون عن محاكاته ؛ مع أنكم عرب وفصحاء .

والمتحدثى يحاول دائماً أن يتصيد خطأ ما ، ولم يقل واحد من العرب إن فى القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب القرآنى يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق : « فبما نقضهم » هى فى الأصل : بنقضهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه ، و « ما » جاءت هنا لماذا ؟ قال بعض العلماء : إنها « ما » زائدة ، وهى زائدة للتأكيد . ونكرر : إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ، لقد جاءت « ما » هنا لمعنى واضح . والحق فى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾

وقالوا : إن أصل العبارة « ما جاءنا بشير » ، وإن « من » جاءت زائدة حتى يتسق اللفظ . ونقول : لو أن العبارة جاءت كما قالوا لما استقام المعنى ، ولإيضاح ذلك أضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - عندما يقول واحد : « ما عندي مال » فهذا نفى أن يكون عند القائل مال ، ولعل لديه قنبرا من المال القليل الذي لا يستأهل أن يسميه مالا . ولكن إذا قال واحد : « ما عندي من مال » فالمعنى أنه لا يملك المال على إطلاقه أى أنه مفلس تماما ، ولا يملك أى شيء من بداية ما يقال إنه مال . إذن « ما جاءنا بشير » ليست مثل قوله : « ما جاءنا من بشير » . فالمعنى أنه لم ياتهم أى رسول بشير أو نذير من بداية ما يقال إنه رسول .

إذن فقوله الحق : « فيما نقضهم ميثاقهم » أى بسبب نقض الميثاق فعلنا بهم كذا . لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة ؟ السبب في ذلك هو وجود ما بعد « الباء » وقبل المصدر ، أى أنهم نقضوا العهد بكل صورة من صوره ، فنقض العهد والميثاق له صور متعددة فـ (ما) هنا استفهامية جاءت للتعجب أى على أية صورة من صور نقض ونكث العهد لعناهم ؟ لعناهم لكثرة ما نقضوا من العهود والمواثيق . والحق قد قال :

﴿ فِيمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٥٥)

(سورة النساء)

ولم يقل : فيما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، طبع الله على قلوبهم . فوجود « بل » بدلنا على أن هناك أمرا أضربنا عنه . فنحن نقول : جاءني زيد بل عمرو . أى أن القائل قد أخطأ ، فقال : « جاءني زيد » واستدرك لنفسه فقال : « بل عمرو » . وبذلك نفى جىء زيد وأكد جىء عمرو .

والحق قال : « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » . كان المقضى في الأسلوب العادى أن يقول : « بكفرهم ويقتلهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم » . ولكن سبحانه لم يقل ذلك لحكمة بالغة . وحتى نعرف تلك الحكمة فلنبحث عن المقابل لـ « طبع الله على قلوبهم » ، المقابل هو « فتح الله على قلوبهم بالهدى » .

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم : (فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها) .

وهكذا نرى عظمة القرآن الذي يأتي بالمعنى الدقيق ويجب أن نفكر فيه ونتدبر كل كلمة منه .

الحق - إذن - يقدم الأسباب لما صنعه بهم بالحیثیات ، من نقضهم للميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم للأنبياء بغير حق ؛ لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى ، بل طبع الله على قلوبهم بالكفر . فوجود « بل » دليل على أن هناك أمراً قد نفى وأمرأ قد تأكد . والأمر الذي نفاء الله عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان ، والأمر الذي تأكد أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر . وفي آية أخرى قال عنهم :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥٦)

(سورة البقرة)

فقلوبهم ليست غلفاً ، ولكن هي لعنة الله لهم وإبعاده لهم وطردهم واستغناؤهم عنهم ؛ لذلك تركهم لأنفسهم فغلبت عليهم الشهوات . ولماذا ذيل الحق الآية بقوله : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » ؟ لأن المقصود به عدم إغلاق باب الإيمان على إطلاقه أمام هؤلاء الناس ، وهو - كما عرفنا من قبل - « صيانة الاحتمال » . فقد يعلن واحد من هؤلاء إيمانه الذي خبأه في نفسه ، فكيف يجد الفرصة لذلك إن كان الله قد قال عنهم جميعاً « طبع الله على قلوبهم » ؟

إن الذي يَرَّغِبُ في إعلان الإيمان منهم لا يجد الباب مفتوحاً ، ولكن عندما يجد الحق قد قال : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » فهو يعلم أن باب الإيمان مفتوح للجميع . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيضٍ بِهَتْنًا عَظِيمًا ﴾ (١٥٦)

ويقول قائل : ألم يقل الحق من قبل إن « كفرهم » هو سبب من أسباب طبع الله

على قلوبهم ؟ وأقول : إياك أن تقول إن هناك كلمة في القرآن مكررة لأن الذي يتكلم هو الله سبحانه وتعالى الذي لا ينسى شيئاً ، ولا يكرر من غير داع ، والكفر أيضاً على درجات ، مرة يكون الكفر بالله ، ومرة يكون الكفر بآيات الله ، وثالثة يكون الكفر بالرسول ، ورابعة يكون الكفر ببعض النبيين ، وخامسة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية .

إذن فالوان الكفر شتى . والكفر في الآية السابقة كان كفراً بآيات الله ، أما كفرهم في هذه الآية فالحق بشرحه : « ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » . لقد كفروا بعيسى عليه السلام ، وقالوا البهتان العظيم على مريم ، هذا كفر بآيات الله وبرسول من عند الله .

وقوله الحق : « ويكفرهم » هو عطف على « نقضهم » وعلى « كفرهم بآيات الله » وعلى « قتلهم الأنبياء » وعلى « قوهم قلوبنا غلف » . ونلاحظ هنا أن الحق لم يذكر الباء التي جاءت في أول الآية السابقة حين قال : « فيها نقضهم ميثاقهم » .

وهذا يدل على أننا أمام مناهج الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى . فقد كان يكفي ارتكابهم لأي واحدة من هذه الأفعال المذكورة لكي يطبع الله على قلوبهم ، ولكنهم ارتكبوا كل الأفعال المذكورة مجتمعة ، ولم يرتكبوا فعلاً واحداً منها . وهذا دليل على أن الله لا يترصد لعبيده ، ولا يتصيد ويحتال ليقومهم في الكفر ولكن يحسن العباد إلى الإيمان .

لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة : نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وادعوا أن الله طبع على قلوبهم .

وحين جعل هذه الأفعال الأربعة جريمة واحدة فهذا فضل ورحمة منه .

وبعد ذلك يذكر لهم جريمة أخرى : « ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » وهنا نجد أنه سبحانه قد ساوى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة ، لأنهم اعترضوا على رسالة نبوة عيسى عليه السلام وهونى من أولى العزم

من الرسل بأشياء قد تكون ضمن الأسباب التي فتنت بعض الناس فيه ، لقد خلقه الله خلقاً خاصاً . فسبحانه خلق الناس جميعاً من آدم عليه السلام الذي صورته الله من طين ثم نفخ فيه الروح ، وجاء الخلق من التزاوج .

أما عيسى عليه السلام فقد خلقه الله بطريقة خاصة ، فكيف كفروا به وكيف يتهمون أمه مريم عليها السلام وهي البتول ؟ .

ومن الجائز أن تُتهم المرأة وترمى وتوصف بكل شيء : كاذبة ، سارقة ، أو دميعة ، لكن الاتهام في المرض : لا . والحق هنا يحدد موضوعين للكفر : قولهم البهتان على مريم وهو كفر بالله ، وكفرهم بعيسى الذي جاء بميلاد على غير طريقة الميلاد العادية على الرغم من أن هذا تكريم له ولذع لليهود الذين غرقوا في المادية حتى إنهم قالوا : (أرنا الله جهرة) .

بل إن الحق رزقهم برزق غيبى لا يعرفون أسبابه : في التيه رزقهم بالمن والسلوى ، والمن في لون القشدة وطعم العسل الأبيض وهو شيء يقع على أوراق الشجر في بعض البيئات ، والسلوى طائر يشبه السمان ، وكانوا يأخذون المن من الأشجار ويجمعونه ويأكلونه رزقاً يأتيهم ولا يزرعونه ولا يتعبون فيه . لكنهم قالوا : لا ، نحن نريد أن نزرع نباتاً ينمو من الأرض ولا نتظر الغيب ، لأن الغيب قد يضلن علينا .

﴿ فَادْعُ لِنَارِكَ بِمُحَرِّجٍ لَنَا مِمَّا نُنَبِّتُ الْأَرْضَ مِنْ بَقْلِهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

هم - إذن - لا يثقون بما في يد الله ، ويريدون الأمر المادى ، ولذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى لفنة قسرية ، ويأتى بأمر يناقض قانون المادة من أساسه ؛ وهو ميلاد عيسى عليه السلام بأسلوب غير تقليدى ، والإنسان يأتى إلى الدنيا من أب وأم ، ويأتى الحق بعيسى مخلوقاً من أم دون أب ، فانتقضت المادية ، وهم كهاديين غفلوا عن الخلق الأول :

﴿ أَفَعَيِّنَا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

(سورة ق)

إذن فلماذا الفتنة في عيسى عليه السلام ؟ . لقد نقض أمامهم الأساس التقليدي المأدب لمجيء الإنسان إلى الدنيا من ذكر وأنثى ، وجاء عيسى عليه السلام من أم دون أب . ليثبت سبحانه طلاقة القدرة وأنه جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر مسبباً فعليهم أن يأخذوا الأسباب ، أما سبحانه وتعالى فهو مسبب الأسباب وخالقها وهو القادر - وحده - على إيجاد الشيء بتنحية كل الأسباب .

ونعلم أن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء ، إما أن ينشأ الشيء من وجود الشئين ، هذه هي الصورة الأولى . وإما أن ينشأ الشيء من عدم وجود الشئين وهذه هي الصورة الثانية . وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الأول وعدم وجود الشيء الثاني ، وهذه هي الصورة الثالثة ، وإما أن ينشأ الشيء من وجود الشيء الثاني مع عدم وجود الشيء الأول ، وهذه هي الصورة الرابعة .

تلك هي الصور الأربع لوجود شيء ما . ولم يشأ الله أن يجعل الخلق - وهو الإنسان المكرم الذي سخر له الحق كل ما في الكون - على نحو واحد ؛ حتى لا يقولن أحد : إن السببية مشروطة للوجود .

بل المسبب هو المشروط في الوجود بدليل أنه سبحانه خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ، وخلقنا جميعاً نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم .

هذه هي القسمة العقلية الواضحة ، فليست المسألة عنصرية موجودة ، ولكن قيمة واقتدار واجد . وقدرة الحق تتجلى أيضاً أمامنا حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم . لكن يشاء سبحانه أن يكون الاثنان عقيمين فهو القائل :

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَقِّ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَا وَيَهَبُ

لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۚ أَوْ زَوْجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتَا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾

(سورة الشورى)

إذن فليست المسألة مدار أسباب توجد ، بل مسبب يريد أن يوجد ، وأراد الحق

أن يكون يحيى عيسى عليه السلام بهذه الصورة ليلفت بنى اسرائيل لعلمهم بخروجون من ضلالات المادية ، فأوجده من أم دون أب ، فكان هذا آية على طلاقة قدرته ، ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير مراد الله ، فكذبوا عيسى ، وقد حدث التكذيب من قبل أن يتكلم عيسى بالإنجيل . ووقفوا أمام رسالته بعنف ، والذي يدلنا على أنهم قوم كذابون ، هو رغبتهم في استمرار السيطرة الدينية لهم ، وكان عندهم شريعة تقتضى الرجم للزانية ، فلماذا إذن لم يتهموا مريم بالزنا عندما ولدت عيسى ؟ ولماذا لم يعاقبوها حسب شريعة التوراة ؟ ولماذا انتظروا إلى أن يحيى عيسى عليه السلام بالإنجيل ليقولوا : يا فاعل يا ابن الفاعلة . كان انتظارهم دليلاً على أن ميلاد عيسى عليه السلام كان آية بينة صدعتهم وصدتهم عن ذلك ، فقد نطق عيسى عليه السلام بعد ميلاده ولم تتكلم مريم قط ، لأن ما حدث أمر فوق منطقها ، وجهزها الله لهذا الموقف ، وأمرها بالصمت عندما يسألونها ، وأن تشير إلى المولود الذى فى المهد :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۚ ﴾ (٢٨) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ
آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۚ ﴾ (٢٩)

(سورة مريم)

وانبهروا انبهاراً فنت فيهم القوى ، فقوى الخصومة ساعة ترى هذا لا تجد إلا الانبياء ، فالحق أبلج ، والباطل لجلج . إذن كان الأمر بيدهم وفي توراتهم أن من يزن يرجم ، فلماذا لم يرجموا أم عيسى إذن ؟ . لابد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين حقدهم تختل ، المعجزة الباهرة هي كلام عيسى ابن مريم فى المهد : (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً) وجعلت المفاجأة أقوى الأقوياء فيهم ينهار ، وتخور قواه .

هذا من ناحية اليهود ، فماذا عن ناحية بعض أتباع عيسى عليه السلام ؟ . إن صبيّاً يتكلم فى المهد هو معجزة بكل المقاييس ، فكيف تخلو كتبهم من قول عيسى فى المهد : « إني عبد الله » وكان لابد أن تكون الكلمة مدروسة بعناية ، وألا تنسى . وحفظ جنود الله سبحانه وتعالى الكلمة ، التى تؤكد بشرية عيسى عليه السلام .

وعندما نقول هذا الكلام فليس المهدف منه تصحيح عقائد أحد ، ولكننا فقط

نريد أن يتضح منطق الإيمان في عقول المسلمين ، أما أبناء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يعتقدون ، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآننا متضحاً أمام أعيننا ، ولا يجرؤ أحد أن يميل به .

« ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » ونحن كمسلمين نستكف أن نقول ما قالوه من بهتان على مريم البتول ، والبهتان هو الكذب الشرس . فهناك لون من الكذب قد يكون مقبولاً ، ولون من الكذب غير مقبول : فأن يقول قائل عن رجل ورع : إنه شرب الخمر ، والقائل يعلم أنه كاذب ، فهذا كذب ثقيل شرس ، يتحير ويتعجب من يسمعه ؛ وهذا هو البهتان . ولم يستح ويمتنع اليهود حينما رموا مريم الطاهرة بأمر الله - بالبهتان مع أنهم علموا أن لمريم سابقة خير واستقامة .

لقد كان ماضى مريم ناصعاً ، عاشت في المحراب متبلة لمن خلقها ، لذلك يصف الحق هذا البهتان بأنه عظيم ؛ لأنه جرح مريم في عرضها ، ولو رجعوا إلى تاريخهم قبل ميلاد عيسى من مريم لوجدوا أن كل واحدة من بنات بنى إسرائيل كانت تستشرف أن يكون النبی المولود بعد موسى من بطنها . وكانوا يعرفون أن النبی القادم من بعد موسى ستلده عذراء ، وأبلغ بنو إسرائيل بناتهم بكيفية مجيء النبی القادم عيسى ابن مريم ، تماماً مثل قضية البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ومن رحمة الله بمريم نفسها أن الله جعل لها التمهيدات التي تثبت لها أمام نفسها أنها بريئة ، وأن العملية كلها قد تمت بـ « كن » من الله ، لم يجعل الله المسألة سراً عن مريم فتحمل بأمر قوله : « كن » دون أن تدري ، لا . بل أراد سبحانه أن تكون عملية مادية . وجاء الملك لمريم ونفخ فيها بالحمل . وعرفت هي السبب مادياً بالملك والنفخ حتى لا تتهم نفسها أو تشك بأن شيئاً قد حدث لها وهي نائمة أو غير ذلك .

لقد أراد الله المسألة على تلك الصورة ليجعلها أمراً يقطع الشك لديها ، وهي التي بُشرت به - إنساناً لها - عندما كانت صغيرة قبل البلوغ وجاءها زكريا وهو الكفيل لها والذي يأتيها بالطعام ودخل عليها المحراب فوجد عندها الرزق وسأها :

(أنى لك هذا) أجابت :

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

لقد نطقت مريم البتول من قبل : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ومن الحساب أن يكون للمرأة زوج لترزق بالولد ، ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ومن العجيب أنها في هذا القول نهبت زكريا إلى قضية كانت في بؤرة شعوره ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾

﴿ فَدَافَعَتُ الْمَلَكُةُ وَهِيَ قَائِمَةٌ بِصَلَاةٍ فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بَيِّنٍ

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد شجعت مريم زكريا على أن يدعو ربه ، وتلك سلسلة تمهيدية لطمئن إحساس مريم أن ولادتها لعيسى عليه السلام إنما جاءت بـ « كن » وجاء لها الحق بفاكهة الصيف في الشتاء ، وعندما قالت لسيدنا زكريا : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » تنبه ودخل من هذا الباب ، فدعا ربه على الرغم من علمه أن امرأته عاقرة ، وأنه بلغ من الكبر عتياً ، ومفهوم لنا معنى قول الرجل عن نفسه إنه بلغ من الكبر عتياً ؛ أى أنه لم يعد يملك القدرة على الإنجاب . وهذه القضية تعطينا سبقاً قرآنياً لكثير من قضايا العلم :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(من الآية ٤ سورة مريم)

هذا القول هو أشبه بمذكرة تفسيرية لبلوغه من الكبر عتياً . وثبت العلم الحديث أن العظام هي آخر وعاء لتغذية الإنسان ، فإن امتنع الإنسان عن الطعام فالدهون التي في جسده تغذيه . وإن امتنع الماء عن الإنسان وهو المكوّن لتسعين في المائة من وزنه يمتص الإنسان الماء من خلايا الجسم والعضلات واللحم . ولذلك يقال في المثل

العربي : سنة أذابت الشحم ، سنة أفنت اللحم ، سنة عحت العظم .

فكان البداية تكون التغذية من الشحم ومن بعد ذلك من اللحم ومن بعد الشحم واللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم . وهذه هي التي جاءت على لسان سيدنا زكريا : (قال رب إني وهن العظم مني) . فأخر نخون للتغذية لم يعد به ما يمكن أن يستمد منه زكريا طاقة الإنجاب .

وما الذي يغذيه العظم من الجسم ؟ إنه يغذي المخ ، وهو السيد الأعلى الذي يدير كل جارحة في الجسم ، وتعمل كل جارحة في خدمته ، ويعيش المخ بطبيعة الحال كل عمره في خدمة الجوارح ، يرتب لها قدرات العمل والتفكير والإحساس والسلوك ، ومادام المخ موجوداً فكل شيء يتم تعريفه .

ولذلك يحاولون - الآن - تعريف الموت طبعاً ، فيقولون : لا يحدث الموت مادامت خلايا المخ حية ؛ فإذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . ومن عجيب الأمر أن سيد الإنسان له مكان في أعلى الجسم إنه هو المخ ، داخل الجمجمة ، أما النبات فسيده في الجذور . وإن لم تجد الجذور مياهها تذيب بها العناصر في الأرض فالنبات يأخذ غذاءه من الورق ، ويعد أن يذبل الورق يأخذ النبات غذاءه من الفروع الصغيرة . وعندما تذبل تلك الفروع وتجف ولا ينقذ النبات إلا مجيء بعض الماء للجذور . وكذلك المخ بالنسبة للإنسان .

فكان مريم شجعت سيدنا زكريا عندما قالت أمامه : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فدعا سيدنا زكريا الله أن يرزقه بالولد ، فجاءه الولد . وهذه القضية نطقت بها مريم وتمت عجزتها في سيدنا زكريا . وبعد ذلك جاءها البشير بميلاد المسيح عيسى ابن مريم :

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤٌ إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِ إِكَلِمَةً مِنْهُ أَلَمْ يَكُنْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦﴾

كيف يصوغ القرآن هذه الصياغة ، وكيف تقول هي :

﴿ قَالَتْ رَبِّ اِنَّى يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِى بَشَرٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد كانت سيدتنا مريم البتول تحسن الاستقبال عن الله ، فساعة سمعت أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، عرفت أن نسبه لها يعنى أنه بلا أب . وعرفت أن الحق سبحانه مانسبه إليها إلا لأنه لا أب له . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَوْلِهِمْ اِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ
اللّٰهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَاِنَّ الَّذِيْنَ
اَخْتَلَفُوْا فِيْهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ اِلَّا اَتْبَاعُ
الْظَنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيْنًا ۝١٥٧ ﴾

ونلاحظ أن الآية تبدأ بوار العطف على ما قبلها ، وهو قوله الحق :

﴿ فَمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَقَهُمْ وَمَكُفِّرِهِمْ بِمَا بَلَّيْتُ اِلٰهَ وَقَتَلِهِمُ الْاَنْبِيَاءَ يَفْرِحُوْا وَقَوْلِهِمْ
قُلُوْبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اِلٰهُ عَلَيْهِمْ يُكْفِرِيْهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوْنَ اِلَّا قَلِيْلًا ۝١٥٦ ﴾ وَيَكْفُرُوْنَ
وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ يَتَّبِعُنَا عِظًا ۝١٥٥ ﴾

(سورة النساء)

ويعطف سبحانه على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وأكثر ما يدهش في هذا القول هو كلمة « رسول الله » ، فهل هي هنا من قولهم ؟ إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللجاجة المطلقة ، ولو قالوا : إنهم قتلوه فقط لكان الجرم أقل وطأة ، ولكن إن كانوا قد عرفوا أنه رسول الله وقتلوه

فهذا جرم صعب للغاية . أو أن كلمة « رسول الله » هنا في هذه الآية ليست من مقولهم الحقيقي وإنما من مقولهم التهكمي .

وأضرب المثل لأوضح هذا الأمر . . . كان يأق شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتى له شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماعته : لقد ضربت الفتى القوى فيكم . إذن قد يكون قولهم : « رسول الله » هو من قبيل التهكم ، أو أن كلمة « رسول الله » هنا هي من قول الحق سبحانه وتعالى مضافاً إلى قولهم ليبشع عملهم .

« وقولهم : « إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فكأن الحق لم يشأ أن يذكر عيسى ابن مريم إلا مرتبطاً أو موصوفاً بقوله : « رسول الله » لنعلم بشاعة ما فعلوه ، فعيسى ابن مريم رسول الله على رغم أنوفهم ، وخاصة أن الكلام في مجال انكارهم وجحودهم لنعم الله ، وكفرهم بآيات الله ، وكأن الحق يسخر منهم ؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدي مهمته . وجاء بكلمة « رسول الله » هنا كمقدمة ليلتفت الذهن إلى أن ما قالوه هو الكذب .

ويعد ذلك يقول لنا سبحانه : « وما قتلوه وما صلبوه » . وكلمة « وما صلبوه » هنا هي لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلنونه للناس ، وهم قد فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب ، فقد قتلوا شخصاً شبهه الله لهم ولم يكن هو المسيح وصلبوه من بعد ذلك ، وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب . ويقطع الله عليهم هذا الأمر ، فيقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وقد لفتنا سبحانه من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح تم استقبالها من بني إسرائيل بضجة ، فعل رغم علمهم خبر مجيء المسيح بالميلاد من غير أب ، وعلى رغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف أن يكون لأية واحدة منهن شرف حمل المسيح ، وعلى رغم ذلك قالوا البهتان في مريم التي اصطفاها الله . وكذلك كان لمسألة الوفاة ضجة .

واقتران الضجتين : ضجة الميلاد وضجة الوفاة معاً في رسالة السيد المسيح يدلنا

على أن العقل يجب أن تكون له وحدة تفسيرية ، فساعة يتكلم العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لا بد أن يستشعر الإنسان أن الأمر قد جاء على غير سنة موجودة ، وساعة يبلغنا الحق أن بنى إسرائيل بيتوا النية لقتل عيسى ابن مريم ، وأن الله رفعه إليه تكون المسألة قد جاءت أيضا بقضية مخالفة ، ولا بد أن نصدق ما بلغنا الله به ، وأن يتذكر العقل أن الميلاد كان مخالفاً ، فلماذا لا تكون النهاية مخالفة أيضاً ؟

وكما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب ، لا بد أن نصدق أن الحق قد رفعه في النهاية وأخذه ، فلم يكن الميلاد في حدود تصور العقل لولا بلاغ الحق لنا ، وكذلك الوفاة لا بد أن تكون مقبولة في حدود بلاغ الحق لنا . والميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم كل منهما عجيبة . وإن فهمنا العجيبة الأولى في الميلاد فنحن نعتبرها تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب ؟ وإن حدثنا الحق أن عيسى ابن مريم خرج من الحياة بأمر عجيب فنحن لا نستعجب ذلك ؛ لأن من بدأ بعجيب لا عجب أن ينتهي بعجيب .

وسبحانه وتعالى حكم وقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وكلمة « شبه لهم » هذه هي دليل على هوج المحاولة للقتل ، فقد ألقى شبهه على شخص آخر . وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ، ليس فيها حزم التين من المتريصين القتلة . ونعلم أن الحوارين وأتباع سيدنا عيسى كانوا يلفون رؤوسهم ويدارون سماتهم ، ولذلك قال الحق لنا : « ولكن شبه لهم » أى أنهم قد شبه لهم أنهم قتلوه .

واختلفت الروايات في كلمة « شبه لهم » ، فمن قائل : إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل خوخة ، والخوخة هي باب في باب ، وفي البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفي هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد ، وفي سقف البيت توجد فتحة وكوة اسمها (روزنة) أو (ناروظة) .

فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة ، ودخل خلفه رجل اسمه « تليانوس » وعندما

رأى سيدنا عيسى هذا الأمر ألهمه الله أن ينظر إلى أعلى فوجد شيئاً يرفعه ، فلما استبطأ القوم « تطيانوس » خرج عليهم فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بين « تطيانوس » وعيسى ، وألقى الله شبه عيسى على « تطيانوس » فقتلوه . أو أن عيسى عليه السلام حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال لهم عيسى : أيكم يلقي عليه شبهى وله الجنة ؟ فإذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟ وقدم عيسى عليه السلام الجائزة الكبرى لأى مؤمن ، وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ، ويقال له « سرخس » . فألقي شبه المسيح عيسى عليه ، فقتل اليهود « سرخس » .

وقالوا : إنه حينما عرف بعض الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رُفع ، خافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى ، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله . ولذلك جاء القتل بـشخص وقاتلوه وألقى على هذا القتل شبه عيسى وأعلن القتل أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم . أو أن القتل هو واحد ممن باعوا نبي الله عيسى لليهود ، ولما رأى المشهد ووجد المترصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى وسأل المترصون الحواريين : أيكم عيسى ؟ فتبقت ملكة التوبه فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن يقول : « أنا عيسى » . ولم ينصور المترصون أن يجيب إنسان على قولهم : « أيكم عيسى » . إلا وهو عيسى بالفعل ؛ لأن مشهد المترصين يوحى أنهم سيقتلون عيسى . وقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تثبت . أو أن واحداً باع عيسى لقاء ثلاثين ديناراً وتشابه عليهم فقتلوا الواشى ، ولم يظفروا بعيسى ابن مريم . ونحن كمسلمين لا نهتم اهتماماً كبيراً بتلك الروايات . فالمهم أنهم قالوا قتلنا عيسى . وصلبناه .

وقرآنا الذى نزل على رسولنا صلى الله عليه وسلم قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وقال الحق لنا : إنه رفع عيسى إليه ، وانتهت المسألة بالنسبة لنا ؛ لأننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولاً فإن صدقناها أمنا ، لا . نحن نؤمن أولاً بمنزل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء منه سبحانه ، وهو قال ذلك فأما به وانتهت المسألة .

إن البحث في هذا الأمر لا يعنيننا في شيء ، وكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وبدلنا هذا القول على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل ، وهو أمر متوقع في مسألة مثل هذه ، حيث يمكن أن تختلط الأمور .

إننا نرى ذلك في أية حادثة تحدث مع وجود أعداد كبيرة من البشر وأعينهم مفتوحة ، وعلى الرغم من ذلك تختلف فيها الروايات . بل وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ومع ذلك تختلف الروايات ، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه في زمن قديم لا توجد به كل الاحتياطات التي نراها في زماننا ؟ إذن فاضطراب الآراء والروايات في تلك الحادثة أمر وارد ، وكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه » .

فعمسى باقى ، لأن الحق لم يأت لنا بخبر موت عيسى . ويبقى الأمر على أصل ما وردت به الآيات من أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى ابن مريم . وكمسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء ؛ لأن المبدأ - مبدأ وجود بشر في السماء - قد ثبت لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، فقد حدثنا صلى الله عليه وسلم أنه أُخرج به إلى السماء ، وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى ، إذن فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض وهو لا يزال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء أمر وارد . والخلاف يكون في المدة الزمنية ، لكنه خلاف لا ينقض مبدأ ، سواء صعد وبقي في السماء دقائق أو ساعات أو شهوراً . فإن حاول أحد أن يشكك في هذه المسألة نقول له : كل أمر قد يقف العقل فيه يتناوله الحق سبحانه وتعالى تناولاً موسعاً . فسبحانه خالق رحيم لا يورد نصاً بحيث يتوقف العقل أمامه ، فإن قبل العقل النص كان بها ، وإن لم يقبله وجدت له مندوحة ، لأنه أمر لا يتعلق بصلب العقيدة .

فهب أن إنساناً قال إن عيسى لم يرفع بل مات ، فما الذى زاد من العقائد وما الذى نقص ؟ ذلك أمر لا يضر ولا ينفع . ومثل ذلك الإسراء ، جاء فيه الحق بالقول القرآن :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى

بَرَكًا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

(سورة الإسراء)

ولم يقل الحق أى قول فى أمر المعراج ، لأن الإسراء آية أرضية ، انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . ونعلم أن رسول الله لم يذهب إلى بيت المقدس قبل الإسراء ، بدليل أن كفار مكة أرادوا إحراج الرسول فقالوا له : صف لنا بيت المقدس . وهم واثقون من عدم ذهابه إليه من قبل . وكان فى الطريق قوافل لهم رأها صلى الله عليه وسلم ، ووصف صلى الله عليه وسلم بيت المقدس وقال لهم عن أخبار قوافلهم . وجاءت القوافل مثبتة لصديق محمد صلى الله عليه وسلم .

إذن كان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم آية أرضية يمكن أن يقام عليها الدليل . ولذلك جاء بها الحق صريحة فقال : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

لكن المعراج لم يذكره الحق صراحة ، فلم يكن من قريش ولا من أهل الأرض من رأى سدره المنتهى ، ولم يكن لأحد من أهل الأرض القدرة على أن يصف طريق المعراج .

إذن فالآيات التى يقف فيها العقل يتناولها القرآن تناولاً موسعاً رحمة بالعقول ؛ لأن الإنسان إن اعتقد بها فهذا أمر جائز ، وعدم الاعتقاد بها لا يؤثر فى أصل العقيدة ، ولا فى أصول التكليفات ، ومدارها التصديق . ومادام الحق سبحانه وتعالى قد فوض رسوله أن يعطينا أحكاماً . إن عملنا بها جزانا الله الثواب ، وإن لم نعمل بها نالنا العقاب « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فكيف لا يفوضه فى أن يقول لنا بعضاً من الأخبار ؟

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيها روى عن أبي هريرة - رضى الله عنه - وذكره البخارى فى صحيحه أنه قال :

« والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر

الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » (١) .

هذه أخبار أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن لا توجد قضية عقدية تقف مستعصية أمام عقول المسلمين خاصة . أن البعض قد يقول : إن الحق سبحانه قد قال :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْصِي لِي أَمْرُ مُؤْمِنٍ كَمَا يَعْصِي لِي أَمْرُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٥٥ سورة آل عمران)

وقد شرحنا من قبل في خواطرناء ، سورة آل عمران كل الشرح لهذه المسألة . قلنا : إن علينا أن ننتبه إلى « واو العطف » بين « مؤمنك » و « رافعك » .

ومن قال إن « واو العطف » تقتضي الترتيب ؟ إن « واو العطف » تقتضي الجمع فقط كقولنا : « جاءني زيد وعمرو » ، هذا يعني أن زيدا جاء مع عمرو . أو أن زيدا جاء أولاً ، أو أن عمرو جاء أولاً وتبعه زيد ، فـ « الواو » لا تقتضي الترتيب ، وإنما مقتضاها الجمع فقط .

لكن إن قلنا « جاءني زيد وعمرو » فزيد هو الذي جاء أولاً وتبعه عمرو ؛ لأن « الفاء » تقتضي الترتيب ، أما « الواو » فتأتي لمطلق الجمع ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وسبحانه قال : « إن مؤمنك ورافعك إلى » هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن التوفى قد تم قبل الرفع ، ودليلنا أن الحق سبحانه أنزل في القرآن آيات تدل على مثل هذا ، كقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾

(من الآية ٧ سورة الأحزاب)

فسبحانه أخذ الميثاق من محمد صلى الله عليه وسلم وجمع معه سيدنا نوحاً وإبراهيم ، فهل هذا الجمع كان قائماً على الترتيب ؟ لا ؛ لأن نوحاً متقدماً جداً في

المركب الرسالي وسبق سيدنا رسول الله بسنوات طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون .
إذن فـ « الواو » لا تقتضي الترتيب في الجمع . ولماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر
الرفع ؟ جاء الحق بذلك ليشعر عيسى أن الوفاة أمر مقطوع به ، لكن الرفع مجرد
عملية مرحلية .

أوجاء قوله الحق : « إني متوفيك ورافعك إلي » ؛ لأن الإنسان المخلوق لله مكون
ومركب من مادة وفي داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن ينهي حياة إنسان ما ،
فهو يقبضه بدون سبب وبدون نقض في البنية ، ويموت حتف أنفه ، أما إذا ما ضرب
إنسان إنساناً ضربة عنيفة على رأسه فالمضروب أيضاً يموت ، لأن الروح لا تحمل في
جسم به عطب شديد .

إذن فالحق أوضح لعيسى : أنا آخذك إلي وأرفعك متوفياً وليس بجسدك أي نقض
لبنيك أو هدم لها أو لعضوها ، بل آخذك كاملاً . فـ « متوفيك » تعني الأخذ كاملاً
دون نقض للبنية بالقتل .

ونحن - كما عرفنا من قبل - نفرق بين القتل والموت ، فالموت هو أن تُقبض الروح
حتف الأنف ، أما القتل فهو هدم للبنية فتزهد الروح ، والدليل على ذلك أن الحق
في كتابه الكريم قال :

﴿ أَفَلَمْ يَمَاتَ أَؤُقْتَلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

إذن فحين قال بنو إسرائيل : إنهم قتلوا عيسى ابن مريم كذبهم الحق وقال :
« وما قتلوه وما صلبوه » . ورفع الله إليه كاملاً ، وسبحانه وتعالى يقول : (وما قتلوه
وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم
إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً) . ويوضح الحق سبحانه وتعالى : لم يتيقنوا أنهم قتلوا
عيسى ابن مريم ، لكنهم شكوا فيمن قُتل ، فلم يعرف المتربصون لقتله أقتلوا عيسى
أو تظيانوس أو سرخس ؟

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين ، فبعد أن نفى سبحانه نبأ مقتل عيسى

ابن مريم قال : « وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » . والنسبة الأولى المذكورة هنا هي الشك ، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران . والنسبة الثانية هي اتباعهم للظن ، وهو نسبة راجحة . لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكاً ثم انقلب ظناً .

وينهى الحق ذلك بعلم يقينى « وما قتلوه يقيناً » وسبحانه ينفى بذلك أنهم قتلوه يقيناً ، واليقين - كما نعلم - هو الأمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقض من جديد أو يتغير ، وله مراحل هي : مرحلة العلم ، واسمها علم اليقين ، ومرحلة العين « واسمها عين اليقين ، ومرحلة الحقيقة « واسمها حق اليقين .

وعندما نخبرنا واحد من الناس أن جزءاً من نيويورك اسمه « مانهاتن » . وأن مانهاتن هذه هي جزيرة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة ، وفيها ناطحات سحاب ، وجاء هذا الخبر ممن لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم ير نيويورك ، فيصير مضمون الخبر عنده علماً متيقناً ؛ لأن الذى أخبر به موثوق به . وإن جاء آخر ووجه للسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها ولبنى السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك ، هنا تحول الخبر من « علم اليقين » إلى « عين اليقين » . وإن جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به فى كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو « حق اليقين » .

واسمى أنواع اليقين هو « حق اليقين » ، وقبلها « عين اليقين » ، وقبل « عين اليقين » « علم اليقين » . وحينما عرض سبحانه المسألة قال :

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ① ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ② كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ

③ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ④ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑤ ﴾

(سورة التكاثر)

هو سبحانه يعطينا علم اليقين ، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه ، وسيرى المؤمنون وهم على الصراط النار وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فامر سكت عنه الحق ؛ لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل

النار ، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة . والكافرون بالله هم الذين سيرون الجحيم حق اليقين . ويأتى « حق اليقين » فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۖ فَنُزِّلَ مِنْ جَحِيمٍ ۖ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۖ إِنَّ هَذَا لَهُوَّ حَقُّ الْيَقِينِ ۖ ﴾

(سورة الواقعة)

فكل مكذب ضال سينزل إلى الجحيم ويصل الجحيم ويعانى من عذابها حق اليقين . إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم : « وما قتلوه يقيناً » يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث ، تصديق علم يقين لأن الله هو القاتل . والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا فى ذلك . وأما من باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين . والذى حدث هو ما يلى :

﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ ﴾

لقد رفعه العزيز الذى لا يغلبه أحد على الإطلاق ، فهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد ، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم ، فإله غالب على أمره ، وهو العزيز بحكمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۖ ﴾

وه « إن » هنا هى « إن » النافية ، وهى غير « إن » الشرطية . وإليك هذا المثال عن « إن » النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق :

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الْآتَى وَلَدَنَّهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

يصحح الحق هنا الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم بقول الواحد منهم لزوجته : « أنت عل كظهر أمي » ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الْآتَى وَلَدَنَّهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

فيوضح سبحانه : ما أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم . و « إن » في هذه الآية التي نحن بصدد خواتمنا الآن عنها هي « إن » النافية .

كان الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته . وهذا شرح لمعنى « إن النافية » . وقد يقول قائل : ما حكاية الضمائر في هذه الآية ؟ فالآية بها أكثر من ضمير ، مثل قوله الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وعلى من تعود « به » ؟ وعلى من تعود الهاء في آخر قوله « موته » ؟ هل هو موت عيسى أو موت أى واحد من أهل الكتاب ، فالمذكور عيسى ، ومذكور أيضاً أهل الكتاب ، فيصح أن يكون القول كالآتى :

لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن بعيسى ، ويصح أيضاً : لن يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب ، ولأن الضمير لا يعرف إلا بمرجعه ، والمرجع يبين الضمير . فإن كانت هناك ألفاظ سبقت . . فكل منها يصح أن يكون مرجعاً ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه كقول الحق :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة فاطر)

والمعمر هو الإنسان الذى طعن فى السن ، ولا ينقص من عمر هذا المعمر إلا كما أراد الله ، والهاء فى « عمره » تعود إلى بعض من المعمر . ذلك أن كلمة « معمر »

مكونة من عنصرين هما « ذات الرجل » و« عمر الرجل » ، فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير ، فيكون المعنى هو : وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير . وماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان ؟ مثل قوله الحق :

﴿ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾

(من الآية ٢ سورة الرعد)

هنا نجد مرجعين : « السماء » « العمد » فعل أى منها تعود الهاء الموجودة في كلمة « ترونها » ، هل تعود « الهاء » إلى المرجع الأول وهو السموات ، أو للمرجع الثاني وهو « العمد » ؟ يصح أن تعود « الهاء » إلى السموات . . أى خلق السموات مرتفعة قائمة بقدرته لا نستند على شيء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمد . أى بغير العمد التى نعرفها ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية . أو رفع السموات « بغير عمد ترونها » أى أن العمد مخفية عن رؤية البشر . وهكذا يصح أن يُنسب الضمير ويعود إلى أحد المرجعين .

والآية التى نحن بصددھا ، نجد أنه قد تقدم فيها شيان هما المسيح وأهل الكتاب ، وفيهما ضميران اثنان . فهل يعود الضميران على عيسى ، أو يعودان على أهل الكتاب ؟ أو يعود ضمير منها على عيسى والآخر على أهل الكتاب ؟ وأى منها الذى يرجع على عيسى ، وأى منها الذى يرجع على أهل الكتاب ؟ أو أن هناك مرجعاً ثالثاً لم يُذكر ويعلم من السياق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ونجد أن الضميرين قد يرجعان إلى المرجع الثالث ، أى إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذى بشر بمجيئه عيسى ابن مريم ، وتواتر الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، وسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولماذا التقى النصراني مع اليهود في مسألة القتل والصلب ؟ هم معذورون في ذلك ؛ لأن الحق لم يأت ببيان فيها آنذ . وقوله : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » يدل على أنهم معذورون إن قالوا ذلك . ولكن كان الواجب أن يتمردوا على مسألة الصلب هذه ، إن كان فيه ألوهية أو جزء من ألوهية ، وكان من الواجب أن يخفوا مسألة الصلب . ويأتى الإسلام ليبرىء عيسى عليه السلام من هذه المسألة ويعين أتباع عيسى على تبرئته منها .

ولكن لم يلتفت أتباع عيسى إلى قول الإسلام في هذه القضية « ولكن شبه لهم » وكان يجب أن يلتفت إليها أتباع المسيح . وحين يقهر الحق كل ذلك فهو يحكم من بعد ذلك حكماً إلهياً : (بل رفعه الله إليه) النصارى يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب . ونحن المسلمين نقول بالرفع ولا صلب ، رفعه الله إليه وسينزل . وحكمة ذلك أنه لم يوجد رسول من الرسل السابقين فتن فيه قومه فجعلوه بعضاً من إله أو إلهاً فلم تسكت السماء عن ذلك ، فرفعه سبحانه وسينزله ليسفه هذه القضية ، وبعد ذلك يجرى عليه قدر الله في خلقه وهو الموت .

إن الذين يقفون في هذه المسألة يجب ألا يقفوا ، لأن مسألة سيدنا عيسى عليه السلام بدأها الله بعجبية خرقت النواميس لأنه وُلد من أم دون أب . فإن كنتم قد صدقتم العجبية في الميلاد ، فلماذا لا تصدون العجبية في مسألة الرفع ؟

وإن قال واحد منا : لقد مات عيسى عليه السلام . نقول : ماذا تقولون في نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أصعد إلى السماء معروجا به إليها ؟ ألم يكن رسول الله حياً بقانون الأحياء ؟ نعم كان حياً بقانون الأحياء . وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة وجيزة في السماء ثم نزل إلينا ، إذن فالمسألة في أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حي ثم ينزل إلى الأرض وهو حي ليس عجبية .

والخلاف بين رفع عيسى وصعود محمد صلى الله عليه وسلم بالمعراج خلاف في المدة . وهذا لا ينقض المبدأ ؛ فاللهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته ، وظل فترة من الزمن بحياته ، إذن فمسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد في شريعتنا الإسلامية . ولتأكيد هذه المسألة يقول الحق :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة النساء)

السامع السطحي لهذه الآية قد يقول : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ، وأقول : لا . لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم ، وليس الإيمان المراد الله ، آمنوا به إلهاً أو جزءاً من إله وهو ما يسمى لديهم بالثالوث - الأب والابن وروح القدس - ولكن الله يريد أن يؤمنوا به رسولاً وبشراً وعبداً .

وإذا قال الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » فمعنى هذا : ما أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبنواً قبل أن يموت .

والضمير في قوله : « إلا ليؤمنن به » يرجع إلى عيسى . والضمير الآخر الموجود في « قبل موته » قد يرجع إلى عيسى أى قبل موت عيسى ولن يموت عليه السلام الموتة الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبنواً ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودمه ليقول لهم : أنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارى بمحمد الخاتم ، وأنتم مخطئون فى اتهامكم لأمى ، والدليل على خطئكم هو أننى جئت مبشراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبدالله ، وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول . فلن يأتى عيسى - عليه السلام - بتشريع جديد بل ليصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وحين يصنع عيسى بن مريم ذلك ، ماذا سيقول الذين فُتِنوا فيه ؟ . لاشك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أن كل كتابى من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحق نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبداً قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية عندما تبلغ الروح المخلوق وتتردد فى الحلقة عند الموت . فقد يصح أن تكون الآية عامة « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » ويعود الضمير فيها إلى كل كتابى قبل أن يموت .

إن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويخلق دونها باب اليقين ويدفعها إلى ذلك غرور الحياة ، فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق ، انتهى كل شيء يُعد الإنسان عن منهج الحق واليقين ؛ ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها وبقينها ، وتستيقظ النفس البشرية لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ويسقط غرور الحياة ، ويراجع الإنسان منهم نفسه فى هذه اللحظة ، ويقول : أنا اتبعت هوى نفسى . ولكن أينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبه ؟ لا ؛ لأن مثله فى ذلك مثل إيمان فرعون ، فقد قال حين أدركه الفرق :

﴿ حَقَّ إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرْقُ قَالَ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

فيسمع صوت الحق في تلك اللحظة :

﴿ اَلْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ١١ ﴾

(سورة يونس)

فلم ينتفع فرعون لحظة الغرق بالإيمان .

ويقول - سبحانه - :

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ
اَلْقَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨ ﴾

(سورة النساء)

ويذيل الحق الآية : « ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » وهذا يؤكد أن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصروا نزوله في الدنيا ، وسوف يشهد يوم القيامة على الذين ادعوا له بالالوهية :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ
اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ
تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ١٥ ﴾

(سورة المائدة)

ويعاود الحق سبحانه الكلام عن فظائع اليهود فيقول :

﴿ فَيُظَاهِرُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ
أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ١٦ ﴾

هو سبحانه يوضح أن تحريم بعض الطيبات على بني إسرائيل جاء نتيجة لمواقف بعددها الله ، لقد ارتكبوا ما ارتكبوا من ذنوب كبيرة وظلموا أنفسهم وظلموا

غيرهم ، وصدوا عن دين الله ، بمعنى أنهم لم يدخلوا في الإسلام .
وتستمر الحثيات للتحريم لبعض الطيبات لتزيد على هذين الموقفين :

﴿ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴾ ٦٦

وأى ظلم يتحدث عنه الحق في قوله : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم
طيبات أحلت لهم ؟ » . الظلم معناه أن يحكم واحد لغير ذى الحق بحق ، وقمة
الظلم أن يحكم واحد بأن الله شريكاً ، ولذلك قال سبحانه :
﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وحثيات حكم الله بتحريم أشياء كانت حلالاً لبنى إسرائيل متعددة . وحين يحرم
الله شيئاً فمن المؤكد أنه محدود بالنسبة للمحلل ؛ فالمحرم قليل ، وبقيّة ما لم يذكره
الله إنما يدخل في نطاق الحلال .
مثال ذلك قوله الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ يُشْرِكُ بِهِ شَيْعًا وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ

ذَاقُرْبَنٌ وَيَعْتَدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٩١﴾

(سورة الأنعام)

يورد الحق هنا المحرمات وهي أشياء محددة محدودة ، أما النعم كلها فحلال . ومن هذا الأمر نفهم اتساع مدى رحمانية الحق بالخلق ، فقد وهبنا الكثير والكثير من النعم التي لا تعد ولا تحصى ولم يحرم إلا القليل . وتحريم القليل جاء لتبقى كل نعمة في مجالها .

فإذا قال إنسان : حرم الله هذا الشيء لأنه ضار نقول : ما تقوله جائز ، ولكن ليس الضرر هو سبب الحكم لكل المحرمات ، فقد يحرم سبحانه أمراً لتأديب قوم ما . - والله المثل الأعلى - نرى المستول عن تربية أسرة قد يحرم على ولد فيها لوناً من الطعام أو جزءاً من مصروف اليد ويكون القصد من ذلك هو العقوبة .

ولماذا استحق بنو إسرائيل عقوبة التحريم ؟ . لقد جاءوا من خلف منبج الله وأحلوا لأنفسهم ما حرم الله . وماداموا قد زاغوا فأحلوا ما حرم الله فالحق يرد عليهم : لقد اجتراءتم على ما حرمت فحللتموه ، ومن حق أن أحرم عليكم ما أحللت لكم قبل ذلك ، حتى لا يفهم الإنسان أنه بتحليله لنفسه ما حرم الله قد أخذ شيئاً من وراء الله فلا أحد يمكنه أن يغلب الله . ولذلك يحرم سبحانه عليه شيئاً من حلاله .

والتحريم إما أن يكون تحريم تشريع ، وإما تحريم طبع أو فطرة أو ضرورة . نجد الرجل الذي أسرف على نفسه في تناول محرمات كالخمر - مثلاً - يحرم الله عليه أشياء كانت حلالاً له ، ويقول له الطبيب : تهرأ بكبك وصار من الممنوع عليك أن تأكل صنوفاً كثيرة من الطعام والشراب . وهكذا نرى ظلم الإنسان لنفسه ، وكيف نتج عنه تحريم أشياء كانت حلالاً له .

ومن أسرف على نفسه في تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلاً فأكله فوق ما تدعو به الحاجة ، نجد سنة الله الكونية تقول له : لقد أخذت أكثر من حقت . وعطلت في جسدك القدرة على حسن استخدام السكر فصرت مريضاً ، إياك أن

تتناول السكريات مرة أخرى . ويشتهى المريض السكر والحلوى ويملك القدرة على شرائها ، ولكنها محرمة عليه ، وكان الحق سبحانه وتعالى يقول له : بظلم منك لنفسك حرمت ما أحللت لك .

وأخر يملك الثروات والخدم والمزارع الشاسعة ، ويقوم له الآخرون بطحن الغلال ، ويأمر بأن يصنعوا له الخبز من أنقى أصناف الدقيق الخالي من أية قدر من « النخالة » ، ويصنعون له الخبز الأبيض ، ويأكله بينما الاتباع يصنعون لأنفسهم الخبز من الدقيق الأقل نقاوة ، فتقول له سنة الله : ستأكل الخبز المصنوع من النخالة بأمر الطبيب علاجاً لامعائك لأنك أسرفت على نفسك في أكل الخبز المصنوع من أنقى أنواع الدقيق وليأكل رعابك وعمالك الخبز المصنوع من أفخر ألوان الدقيق ، فبظلم منك حرمتنا ما أحل لك .

وعندما نرى إنساناً قد حُرِمَ من نعمة من نعم الله التي هي حلال له ، نعلم أنه قد حلل لنفسه شيئاً حرمه الله عليه ، أو أسرف في استعمال حق أحله الله له ، ولا أحد منا يفلت من رقابة الله . إذن فالتحريم قد يكون بالتشريع ، إذا كانت العقوبة التحريم من المشرع ، وقد يكون تحريماً بالطبع والفطرة إن كان في الأمر إسراف من النفس .

ولنقرأ دائماً هذه الآية : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ويصدhem عن سبيل الله كثيراً » وكذلك الذين يأخذون مالاً بالربا ، لقد أخذوا الربا ليزيد مالهم ، لماذا تريدون المال ؟ أتريدون المال لذات المال ؟ أم لهدف آخر ؟ . صحيح أن المال رزق ، لكنه رزق غير مباشر ؛ لأنه يشتري به الأشياء التي ينفع بها الإنسان ، وهي الرزق المباشر . وقلنا قديماً : هب أن إنساناً في صحراء ومعه جبل من ذهب لكن الطعام انقطع منه ، وجبل الذهب في مثل هذه الحالة لا ينفع ، بل يصبح رغيف الخبز وكوب الماء في تلك الحالة أغلى من الذهب . والذي يزيد ماله بالربا ، أيريد تلك الزيادة من أجل المتع ؟ . سبحانه بحق ذلك المال ويُذهب في كوارث .

ومن أراد أن يبقى له ما أحل الله إلى أن يأتي أجله فعليه ألا يبيع لنفسه أي شيء .

حرمه الله . وبذلك يظل متمتعاً بنعم الله عليه . فالحق هو القاتل : (وما ربك بظلام للعبيد) .

الإنسان - إذن - هو الذى يظلم نفسه مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١١١ ﴾

(سورة يونس)

وهكذا ظلم اليهود أنفسهم فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم . ومن الذى نقل الامر الطيب إلى أمر غير طيب ؟ . إنه الإنسان . ولكن هل نقل ذات الشيء أو حكم الشيء ؟ . لقد نقل حكم الشيء ، فجعل الشيء الحرام شيئاً حلالاً . « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » .

كيف يكون باستطاعتهم الصد عن سبيل الله ؟ . لقد ظلموا أنفسهم وأخذوا الربا وتلك أمور تجعلهم في ناحية الضلال وفي جانب الباطل ، وليت الأمر وقف عند هذا . بل أرادوا أيضاً إضلال غيرهم ، وهذا هو مضمون الصد عن سبيل الله . وجعلهم هذا الأمر أصحاب وزر آخر فوق أوزارهم ، فلم يكتفوا بضلالهم بل تحمّلوا أوزار إضلال غيرهم .

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ١١٢ ﴾

الْأَسَاءَ مَا يَزِرُونَ ١١٣﴾

(سورة النحل)

وقد يسمع متشكك هذا القول . فنتساءل : كيف يناقض القرآن بعضه فيقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ١١٤ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الانعام)

ونقول : إن لكل وزر طريقاً وحساباً ، فالإنسان يحمل وزر ضلاله وحده إن لم يضل به أحداً غيره ، ولكن إن حاول إضلال غيره فهو يتحمل وزر هذا الإضلال .

ويقول الحق في تكملة ظلمهم لأنفسهم : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم

أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ، وقد تعرضنا للربا من قبل . وقد أخذوا الرشوة ، وهو أكل مال الناس بالباطل ؛ وكذلك السرقة ، والغش في السلع ، كل ذلك أخذ مال من الناس بغير حق ، وما أخذ بغير الحق فهو باطل ، وأعد سبحانه لهم مسبقاً عذاباً أليماً . ولكل إنسان مقعدان : مقعد من الجنة إن قدر إيمانه ، ومقعد من النار إن قدر كفره ، ولا مجال للظن بإمكان ازدحام الجنة أو ازدحام النار ، فقد خلق الله مقاعد الجنة على أساس أن كل الناس مؤمنون ، وجعل مقاعد النار على أساس أن كل الناس كافرون .

ولذلك يقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْغُرُودَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١١)

(سورة المؤمن)

وحين يتبوأ المؤمن مقعده في الجنة يورثه الله المقعد الآخر الذي أعدّه للكافر ؛ فقد كان للكافر قبل أن يكفر مقعد في الجنة لو اختار الإيمان . وقد أعد الحق العذاب الأليم لهم أي الشديد إيلاؤه ، وهو مهين أيضاً أي أن في قدرته قهر أي إنسان يتجلد للشدة ، فلا أحد يقدر على الجلد أمام عذاب الله .

وهل هذا هو كل ما كان من أهل الكتاب ؟ . ألم يوجد في أهل الكتاب من كان يدير مسألة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم في عقله ، ويبحث في القضايا والسمات التي جاءت مبشرة به صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل ؟ . كان من بينهم من فعل ذلك ، ويورد الحق سبحانه وتعالى التاريخ الصادق ، فيستثنى من أهل الكتاب الراسخين في العلم فيقول :

﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ
وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

أُولَئِكَ سَنُوْنِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

إذن لم يعمم الله الحكم على أهل الكتاب ، الذي سبق بكفرهم وظلمهم لأنفسهم وأخذهم الربا وغير ذلك ، بل وضع الاستثناء ، ومثال لذلك « عبدالله بن سلام » الذي أدار مسألة الإيمان برسول الله في رأسه وكان يعلم أن اليهود قوم بُهت .

فقال لرسول الله : إني أومن بك رسولاً ، والله لقد عرفتك حين رأيتك كمعرفي لابني ومعرفي لمحمد أشد .

ويقول الحق عن مثل هذا الموقف : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . ولا أحد يتوه عن معرفة ابنه ، كذلك الراسخون في العلم يعرفون محمداً رسولاً من الله ومبلغاً عنه ، والراسخ في العلم هو الثابت على إيمانه لا يتزعزع عنه ولا تأخذه الأهواء والنزوات . بل هو صاحب ارتقاء صفائي في اليقين لا تشوبه شائبة أو شبهة .

« لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، وقوله الحق : « بما أنزل إليك » هو القرآن ، وهو أصل يُرد إليه كل كتاب سابق عليه ، فحين يؤمنون بما أنزل إلى سيدنا رسول الله ، لا بد أن يؤمنوا بما جاء من كتب سابقة .

والملاحظ للنسق الأسلوي سيجد أن هناك اختلافاً فيما يأتي من قول الحق : « والمقيمين الصلاة » فقد بدأ الحق الآية : « لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة » .

ونحن نعلم أن جمع المذكر السالم يُرفع بالواو وينصب ويجر بالياء ، ونجد هنا « المقيمين » جاءت بالياء ، هل الرغم من أنها معطوفة على مرفوع ، ويسمى علماء اللغة هذا الأمر بكسر الإعراب ، لأن الإعراب يقتضي حكماً ، وهنا نلتفت لكسر الحكم . والأذن العربية التي نزل فيها القرآن طُبِعَتْ على الفصاحة تنبّه لحظة كسر الإعراب .

لذلك فساعة يسمع العربي لحناً في اللغة فهو يفرع . وكلنا يعرف قصة العربي الذي سمع خليفة من الخلفاء بخطب ، فلحن الخليفة لحنه فصرّ الأعرابي أذنيه ، أي جعل أصابعه خلف أذنيه يديرهما وينصّبهما ليسمع جيداً ما يقول الخليفة ، ثم لحن الخليفة لحنه أخرى ، فهب الأعرابي واقفاً ، ثم لحن الثالثة فقال الأعرابي : أشهد أنك ولّيت هذا الأمر بقضاء وقدر . وكأنه يريد أن يقول : « أنت لا تستحق أن تكون في هذه المكانة » .

وعندما نال آية في الكتاب الذي يتحدى الفصحاء وفيها كسر في الإعراب ، كان على أهل الفصاحة أن يقولوا : كيف يقول محمد إنه يتحدى بالفصاحة ولم يستقم له الإعراب ؛ لكن أحداً لم يقلها ، مما يدل على أنهم تنبهوا إلى السرّ في كسر الإعراب الذي يلفت به الحق كل نفس إلى استحضار الوعي بهذه القضية التي يجب أن يقف الذهن عندها : « والمقيمين الصلاة » .

لماذا ؟ لأن الصلاة تضم وتشمل العباد الأساسي في أركان الإسلام ؛ لأن كل ركن من الأركان له مدة وله زمن وله مناسط تكليف . فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفي أن يقولها المسلم مرة واحدة في العمر ، والصوم شهر في العام وقد لا يصوم الإنسان ويأخذ برخص الإفطار إن كانت له من واقع حياته أسباب للأخذ برخص الإفطار . والزكاة يؤديها المرء كل عام أو كل زراعة إن كان لديه وعاء للزكاة . والحج قد يستطيعه الإنسان وقد لا يستطيعه . وتبقى الصلاة كركن أساسي للمدين . ولذلك نجد هذا القول الكريم :

﴿ مَا مَسَّكَرَ فِي سَفَرٍ ۖ قَالُوا آتَيْنَكَ مِنَ الْمَصَلِينَ ۝٤٧﴾

(سورة الدثر)

وأركان الإسلام - كما نعلم - خمسة وهي واضحة ، ومن الجائز ألا يستطيع المسلم إقامتها كلها بل يقيم فقط ركنين اثنين ، كالشهادة وإقامة الصلاة . وحين يقول الحق : « والمقيمين الصلاة » . يلفت كل مؤمن إلى استمرارية الودادة مع الله ؛ فهم قد يؤدون الله شهراً في السنة بالصيام ، أو يؤفون ببيتاء الزكاة كلما جاء لهم عطاء من أرض أو من مال ، أو يؤدون الله فقط إن استطاعوا الذهاب إلى الحج . وبالصلاة يؤدّ المؤمن ربه كل يوم خمس مرات ، هي - إذن - إعلان دائم لولاء

لقد قلنا : إن الصلاة جمعت كل أركان الدين ، ففيها نقول : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ونعلم أننا نزكي بالمال ، والمال فرع العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ؛ والإنسان حين يصل يزكى بالوقت . والإنسان حين يصل يصوم عن كل المحللات له ؛ ففي الصلاة صيام ، ويستقبل المسلم البيت الحرام في كل صلاة فكأنه في حج .

إذن فحين يكسر الحق الإعراب عند قوله : « والمقيم الصلاة » إنما جاء ليلفتنا إلى أهمية هذه العبادة . ولذلك يقولون : هذا كسر إعراب بقصد المدح . - فهي منصوبة على الاختصاص - ويخص به الحق المقيم الصلاة ؛ لأن إقامة الصلاة فيها دوام إعلان الولاء لله . ولا ينقطع هذا الولاء في أى حال من أحوال المسلم ولا في أى زمن من أزمان المسلم مادام فيه عقل .

ويقول الحق من بعد ذلك : « والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » كأن كل الأعمال العبادية من أجل أن يستديم إعلان الولاء من العبد للإيمان بالله . والإيمان - كما نعلم - بين قوسين ؛ القوس الأول : أن يؤمن الإنسان بقيمة الإيمان وهو الإيمان بالله . والقوس الثانی : أن يؤمن الإنسان بالنهاية التي نصير إليها وهي اليوم الآخر . ويقول سبحانه جزاء هؤلاء : « أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » هو أجر عظيم ؛ لأن كل واحد منهم قد شل من جماعته من بقية أهل الكتاب ووقف الموقف المتأبى والرافض المتمرد على تدليس غيره ، ولأنه فعل ذلك ليبين صدق القرآن في أن الإعلام بالرسول قد سبق وجاء في التوراة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ
مِّنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَأِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ

وَيُؤْتِسْ وَهَرُونَ وَسَلِيمَنُ وَعَاتِينَا دَاوُدَ

زَبُورًا ﴿١٣٣﴾

ونعلم أن الحق حينما يتكلم ، يأتي بضمير التكلم . وضمير التكلم له ثلاثة أوجه ، فهو يقول مرة : « إنا » ومرة ثانية : « إنى » وثالثة يخاطب خلقه بقوله : « نحن » . وهنا يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا » . ونشاهد في موقع آخر من القرآن الكريم قوله الحق :

﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وفي موضع ثالث يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ رَبُّنَا الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِعُونَ ﴾ ﴿١﴾

(سورة الحجر)

لأن الذكر يحتاج إلى صفات كثيرة ومتنوعة تتكاتف لتزيل الذكر وحفظه . وحين يخاطب الله خلقه يخاطبهم بما يحل مواقع الصفات من الكون الذي نعيش فيه . والكون الذي نعيش فيه يمتلئ بالكائنات التي تخدم الإنسان ، وهذه الكائنات قد احتاجت إلى الكثير لتبقى للإنسان الكون قبل أن يوجد الإنسان ، وذلك حتى يأتي إلى الكون ليجد نعم الله له ، فالإنسان هو الذي طرأ على كون الله .

هذا الكون الذي صار إلى إبداع كبير احتاج إلى صفات كثيرة لإعداده ، احتاج إلى علم عن الأشياء ، وإلى حكمة لوضع كل شيء في مكانه ، ولقدرة تبرزه ، وإلى غنى بخزائنه حتى يفيض على هذا الموقع بخير يختلف عن خير الموقع الآخر ، وساعة يكون العمل متطلباً لمجالات صفات متعددة من صفات الحق ، يقول سبحانه : « إنا » أو « نحن » . وعندما يأتي الحديث عن ذات الحق سبحانه وتعالى يقول : « إني أنا الله » . ولا تأتي في هذه الحالة « إنا » ولا تأتي « نحن » .

والحق هنا يقول : « إنا أوحينا إليك » أي أنه أوحى بمنهج ليصير الإنسان سيداً في

الكون ، يصون نفسه والكون معاً ، وصيانة الكائن والكون تقتضى علماً وحكمة وقدرة ورحمة ؛ لذلك فالوحي يحتاج إلى صفات كثيرة متآزرة صنعت الكون . ورحمة من الله بخلقه أن جعل لهم مدخلاً فيقول على سبيل المثال :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة طه)

هو الذي أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خلقه أى دخل فى هذا ؛ لأن الماء إنما يتبخرون أن يدرى الإنسان ، ولم يعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة . وعرفنا كيف يتكون السحاب من البخار ، ثم ينزل المطر من بعد ذلك . إذن لا دخل للإنسان بهذا الأمر ؛ لذلك يقول الحق : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً » . ويأتى من بعد ذلك إنصاف الحق للخلق . فيقول : « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » . ولم يقل : « فأخرجت » . بل أنصف الحق خلقه وهم المتحركون فى نعمه بالعقول التى خلقها لهم . فسبحانه يقدر عمل الخلق من حرث وبذر ورى وذلك حق يخرج الثمر .

إذن الأسلوب القرآنى حين يأتى بـ « إى » يشير إلى وحدة الذات ، وحين يأتى بـ « إنا » يشير إلى تجمع صفات الكمال ؛ لأن كل فعل من أفعال الله يقتضى حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدرة وحكمة وقبضاً ووسطاً وإعزازاً وإذلاً وقهارية ورحمانية ؛ لذلك لا بد من ضمير التعظيم الذى يقول فيه النحويون : « نحن » و « نا » للمعظم نفسه . وقد عظم الحق نفسه ؛ لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون . ولذلك نجد بعض العارفين الذى لمحو جلال الله فى ذاته وجماله فى صفاته يقولون :

فسبحان رب فوق كل مظنة . . تعالى جلالاً أن يحاط بذاته إذا قال « إى » ذاك وحدة قدسه . . وإن قال « إنا » ذاك حشد صفاته

وعندما ننظر إلى هذه المسألة ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى أنصف خلقه لعلمهم يعرفونه ، فجعل لهم إيجاد أشياء وخلق أشياء . وحين يتعرض سبحانه لأمر يكون له فيه فعل ويكون لمن أقدره سبحانه من خلقه فيه فعل ، فهو يأتى بنون التعظيم لأنه سبحانه - هو الذى أمدهم بهذه القدرات .

وحين أوجد الحق خلقه من عدم ، جعل لخلق من خلقه إيجاداً ، ولكن هناك فرق بين إيجاد المادة ، وإيجاد ما يتركب من المادة. فقد خلق سبحانه كل شيء من عدم ، ولكن جعل لخلقه أن يخلقوا أشياء لكن ليست من عدم . وما ضمن سبحانه وتعالى عليهم بأن يذكرهم بلفظ الخلق فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكانه سبحانه وتعالى جعل من خلقه خالقين ، لكن الخالقين من خلقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كونوا مركباً من موجود في مولده . فأنخذوا من مواد خلقها الله فركبوا وأوجدوا . والإنسان الذي صنع كوب الماء لم ينشأ الكوب من عدم محض وإن كانت « الكلية » في الكوب غير موجودة فجزئيات إيجاد الكوب موجودة ، فالرمل موجود في بيئات متعددة ، وموجود أيضاً ما يصهر الرمل ، والعقل الذي يأخذ تلك العناصر ، والفكر الذي يصنع من الرمل عجينة ، ومصمم الآلات التي تصنع هذا الكوب موجود . إذن فقد أوجد الإنسان كوباً من جزئيات موجودة . فالفارق - إذن - بين خلق الله وخلق خلق الله ، أن الله خلق من عدم محض ، لذلك وصف ذاته بقوله : (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

فأنتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات الله ولم تخلقوا من غير مخلوق لله ، فهو سبحانه وتعالى أحسن الخالقين . وكما أنصف الحق خلقه بأن نسب لهم خلقاً ، فلا بد من أن يصف نفسه بأنه أحسن الخالقين . وأيضاً إن خلق الخلق - كما قلنا وأنا لا أزال أكررها لمستقر ثابتة في الأذهان - يحمده الشيء على ما أوجدوه عليه ، فيخلقون الكوب ليظل كوباً في حجمه وشكله ولونه ، ولكنهم لم يخلقوا كوباً ذكراً وكوباً أنثى ليجتمعاً معاً وينشأ أكواباً صغيرة تنمو وتكبر ، ولكن الله ينفخ بصر الحياة في كل شيء فيوجده ، لذلك هو أحسن الخالقين .

ولونظرت إلى كل شيء في الوجود لوجدت فيه سر الذات الفاعلة ، فلو نظرت إلى ذات نفسك ، لوجدت لك وسائل إدراك ، لوجدت لك سمعاً ، ولوجدت لك عيناً ، ولوجدت لك أنفاً ولمساً وذوقاً ، ولكن لبعض الآلات تحكم في اختيارك ، فأنت حين تفتح عينيك ترى وإن لم ترد أن ترى تغمض عينيك . ولكن إذا أردت

الا تسمع ، أتستطيع أن تجعل في أذنك آلة تقول « لا أسمع » ؟ وأنت تفتح فمك لتأكل وتتنوق ، ولكن أنت لا تفتح أنفك لتشم . أنت تمد يدك لتلمس . وقل لي بالله أى انفعال لك أن أردت أن تضحك ؟ ما الآلة التى فى بدنك تحركها لتضحك ؟ أنت لا تعرف شيئاً إلا سبباً مثيراً يضحك ، لكنك لا تعرف ما هى الآلات التى تعمل فى جسمك لتضحك . وكذلك حينما تبكى ما هى الآلات التى تعمل فى ذاتك لتجعلك باكياً ؟ أنت لا تعرف . ولذلك جعل الله الإضحاك والإبكاء مع الإيجاد بالحيلة ، والعدم بالموت جعل ذلك له سبحانه وتعالى .

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۚ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۚ﴾ (١١)

(سورة النجم)

جعل الحق فى ذاتك الإنسانية أشياء تفعل ولكنك لا تعرف بأى شيء تفعل ولا بأى شيء تفعل . والأذن ليس لها ما يسدها عن السمع ، لذلك لا يأمرك الحق ألا تسمع أى شيء ، ولكن الأثر الصالح يأمر : (لا تسمع إلى القيلة) .

لم يقل الأثر الصالح « لا تسمع إلى قيلة » لأن الإنسان لا يستطيع أن يسمع أذنيه عما يدور حوله ، لكنه يستطيع ألا يسمع بالألأ يلقى بأذنيه إلى ما يقال . إذن فقد جعل الحق التكليف فى مقدور اختيارات المسلم ولذلك قال :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ

غَيْرِهِ ۚ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

واستخدم هنا كلمة « رأيت » لأن المسلم لا يملك شيئاً يسد به أذنيه حتى لا يسمع حديث الذين يخوضون فى آيات الله . لكن أمر الله الذين يسمعون ذلك أن يسيروا بعيداً معرضين عن هؤلاء الخائضين . وسبحانه يوضح لنا ما خفى عنا ، وكل شيء فى الكون وإن كان ظاهراً أنه « يفعل » ، لكنه فى الحقيقة هو مقهور لما يفعل لمرادات الله بأمر الله . ولذلك يقول العارفون بالله : من جميل إحسانه إليك أن فعل ونسب إليك .

فسبحانه وتعالى الذى يفعل كل شيء ، وليس على الإنسان إلا توجيه الآلة

الفاعلة . ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان حين يكون قوياً لا يمكنه أن يعطى قوته لضعيف ، فلا أحد منا يقول للضعيف : خذ قدراً من قوق لتساعدك على التحمل ، بينما يوضح الله للضعيف عملياً : تعال إلى أعطك من مطلق قدرتي قدراً من القوة لتفعل .

إذن القوة في المخلوق لا يعطيها أبداً لمثله ، بل يعطى أثرها . مثال ذلك عندما لا يستطيع شخص أن يحمل شيئاً ثقيلاً ، فيأتى آخر قوياً ليحمله عنه ، والقوى بفعله إنما يعدى أثر قوته للضعيف ، لكنه لا يستطيع أن ينقل قوته إلى ذات الضعيف ليحمل الشيء الثقيل .

والله لا يعدى أثر قوته فحسب ولكنه يمنح ويعطى قوة إلى كل ضعيف يلجأ إليه وإلى كل قوى أيضاً . وسبحانه يتفضل بالغنى والسعة لكل غنى وفقير وبرحمته إلى كل رحيم ، ويقدرته لكل قادر ، وبحكمته لكل حكيم . إذن فكل هذه مستمدات من الحق سبحانه وتعالى . هذا هو كلامنا في « إنا » .

وحين يتكلم الحق قائلاً : « أوحينا » فهو سبحانه يأتى بصيغة الجمع . وما الوحي ؟ قال العلماء الوحي : إعلام بخفاء ، لأن وسائل الإعلام شتى ، وسائل الإعلام هي التي تنقل قولاً يقوله المبلغ فيعلم السامع ، أو هو إشارة يشير بها فيفهم معناها الرائي . وهذه إعلانات ليست بخفاء . بل بوضوح . وعندما يقول : « أوحينا » فهو يعنى أنه قد أعلم ، ولكن بطريقة خفية . وحين تطلق كلمة « وحي » يكون لها معانٍ شتى ، فكل إعلام بخفاء وحي . لكن من الذى أوحى فى خفاء ؟ ومن الذى أوحى إليه فى خفاء ؟ وما الذى أوحى به فى خفاء ؟ نجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى أجناس الوجود ، وقال عن الأرض وهى الجهاد :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا ۖ وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهَا أَنَّهَا ۖ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۖ ﴾

(سورة الزلزلة)

أى أن الحق قد ضبط الأرض على مسافة زمن قيام القيامة ، فتمحدث عندئذ

- والله المثل الأعلى - نحن نقدر العمر الافتراضى لما نمنع لينتهى فى وقت محدد . إذن فقد أوحى الله للجناد وهى الأرض .

ويترك لنا سبحانه فى صناعة المخلوقين ما يقرب لنا صنعة الخالق ، فعندما يريد الإنسان أن يستيقظ فى الثالثة صباحاً ، وهو وقت لم يعتد فيه هذا الإنسان على الاستيقاظ ، فهو يضبط المنبه ليصدر عنه الجرس فى الوقت المحدد ، كان الإنسان بهذا الفعل قد أوحى للمنبه ، كذلك الحق صنع الأرض وأوحى لها : فى الوقت المحدد ستفجرين بحكم تكوينى لك . ويوحى الحق إلى جنس الحيوان :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

(سورة النحل)

هذا إعلام بخفاء من الله للنحل . فقد جعل الله فى تكوينها الغرزى ما يؤدى إلى ذلك . وهناك فرق بين التكوين الغرزى والتكوين الاختيارى ؛ فالتكوين الغرزى يسير بنظام آلى لا يعدل عنه ، أما التكوين الاختيارى فيصح أن يعدل عنه .

ومثال آخر على الآلية نجد الحاسب الآلى المسمى العقل الإلكتروني ويقوم الإنسان بتخزين المعلومات فيه ، وهذا الحاسب الآلى لا يستطيع أن يقول لواضع المعلومات فيه : لا تقل هذه الحقيقة ، ولا يستطيع أن يمتنع عن إعطاء ما فيه لمن يطلب هذه المعلومات إن كان يعرف كيفية استدعائها . فلا اختيار للحاسب الآلى .

ويختلف الوضع فى العقل البشرى الذى يتميز بالقدرة على انتقاء المعلومات ويعرف كيف يدلى بهذه المعلومات حسب المواقف المختلفة ، ويتحكم بوعى فيما يجب أن يُستَروفيها لا يجب ستره ، بل إن العقل البشرى قد يكذب ويلون المعلومات . وهو قادر على تغيير الحقائق والتحكم فيها ، بينما الحاسب الآلى المسمى بعقل الإلكتروني لا يقدر على ذلك ؛ لأنه يدلى بالمعلومات حسب ما تم « برمجته » به وتخزينه ووضعه فيه ، وهكذا يرتقى الإنسان فى الفكر .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ، أعطى لكل كائن الغرائز التكوينية التى

تناسبه ، أعطى الإنسان القدرة على الاختيار بين البهلات ، أما بقية الكائنات فقد أخذت حكم الغريزة . والكائن الذى يسير بحكم الغريزة لا اختيار له ، ولذلك تسير كل أموره مستقيمة بناموس ثابت .

ونرى هذا الأمر بوضوح فى حكم قهر السموات والأرض والكواكب التى لا اختيار لها ؛ فهى تسير حسب القوانين التى وضعها الله لها ، وكذلك النبات . فالإنسان قد يزرع شجرة فتتبع بالتسخير الغربى الذى وضعه الله فيها ، وتعتمد الشجيرات من الجذور فى باطن الأرض ؛ لتمتص - بتسخير الله لها - بعض العناصر المحددة فى التربة ، ويستفع نبات ما بمادة معينة قد لا تصلح لنبات آخر .

ويأتى علماء النبات ليعملوا فى حقل دراسات نحو النباتات ، وقد يكون بعضهم ضعيف الإيمان بالله ، أو أن قدرات الخالق لا توجد فى بذرة شعوره دائماً . فيقول : إن النبات يتغذى حسب خاصية الأنابيب الشعرية . وخاصية الأنابيب الشعرية - كما نعرفها - هى صعود السائل إلى الأنابيب التى تكون الواحدة منها لا يزيد قطرها واتساعها على قطر الشعرة . ويصعد فيها السائل إلى ما فوق سطح الإناء . وكل سائل فى أى إناء إنما يأخذ استطرافاً واحداً . وعندما نضع الأنابيب الشعرية فى قلب هذا الإناء ، فالسائل يصعد داخل هذه الأنابيب فوق مستوى الإناء ؛ لأن الضغط الجوى داخل الأنابيب يختلف بالنسبة لحجم المياه عنها فى داخل الإناء . وظن العلماء أن النبات يتغذى بهذه الطريقة .

ونقول لهؤلاء : كيف هذا والنبات يختار عناصر معينة من السائل ؛ بينما الأنابيب الشعرية يصعد فيها الماء بكل العناصر الموجودة فى الماء ؟ . إنك أيها العالم الذى غاب الله عن بذرة شعورك قد تدعى أن الطبيعة هى التى تفعل ذلك ، ولا تلتفت إلى حقيقة واضحة وهى أن النبات يتلقى بالتسخير الربانى الخاص بعضاً من العناصر الموجودة فى التربة ، لا بخاصية الأنابيب الشعرية .

وصدق القول الحق :

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ۝﴾

(سورة الأعلى)

فسبحانه الذى قدر فهدى كل شىء الى احتياجاته . ويقول الحق أيضاً :

﴿ يَسْقِي زَمْزَامًا وَيَحْدُ وَنُفَّضَ لُبَّهَا عَلَى بَعْضِ الْأَكْطَابِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

إذن فسبحانه يوحى لكل نبات بخاصية تكوين غريزي مختلف عن النبات الآخر ، لذلك نجد الفلاح يضع شجرة الفلفل بجانب عود القصب ، بجانب شجرة الرمان ، فنجد الفلفل يخرج وله مذاق حريف ، والقصب له مذاق حلو ، والرمان له مذاق فيه الحلاوة والحموضة ، إنه مختلف عن القصب وعن الفلفل ، وهذا الاختلاف لم يتم بخاصية الأنايب الشعرية . ويقول آخر : هذا الاختلاف إنما حدث بظاهرة الانتخاب الطبيعى . ونقول : لماذا لا نقول الانتخاب الإلهى وتستريح ؟

إذن فالوحى هو إعلام بخفاء ، وقد يكون مطموراً فى تكوين الشىء بحيث إذا جاء وقته ينفعل ، تماماً مثلما يندق جرس المنبه فى الميعاد المحدد . والوحى إلى الحيوان يتحدد فى قوله الحق :

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾

(سورة النحل)

ومن العجيب أن العالم الأمريكى الذى رصد حياته لدراسة النحل فى أطواره وأصنافه وأجناسه وبيئاته ، قال : أول إنتاج للنحل كان فى الجبال وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل كان فى الخلايا التى عثر عليها فى الجبال . وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله فى الشجر العالى الذى لا يملكه ، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البساتين والبيوت والخلايا ومما يعرشون . ولم يقرأ هذا العالم القرآن ليعرف المراحل الثلاث التى جاءت به ، لكنه درس بصدق البحث التجريبي ، وخرج بالنتيجة نفسها التى جاء بها القرآن . وفى كل وقت وزمان نجد عالماً من الكافرين يكتشف أشياء تؤيد وتؤكد قضية الإيمان عند المؤمنين . أما الوحى بالنسبة للإنسان فيأخذ أشكالاً أخرى ، يقول الحق :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

ولم يأت إلى أم موسى رسول يُوحى إليها . لكن الأمر قد استقر في ذهنها ، وقد نعب العلماء كثيراً ليقربوا معنى الوحي لأذهاننا ، فقالوا عنه : إنه عرفان بجده الإنسان في نفسه ولا يعرف مصدره ، ومع هذا العرفان دليل أنه من الله . ولذلك لا يطلب العقل عليه دليلاً . والذي يصدق على هذا هو أننا سمعنا قول الحق : «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم» .

وبالله عليكم ، اجمعوا الدنيا كلها وقولوا لامرأة : إن خفت على ابنك فألقيه في البحر ، هل تصدق الأم ذلك ؟ لا يمكن ، لكن أم موسى أخذت هذا الأمر كفضية مسلم بها ، فساعة دخل الإيماء من الله إلى قلبها ، أو الإعلام بخفاء إلى وجدانها آمنت به ، ومادام الإعلام من الله فلا شيطان يزاحمه ، بل يدخل إلى النفس فتستقبله استقبال اليقين والإيمان بلا مناقشة . وألقت أم موسى بابنها بعد أن أرضعته . وأراد الله أن يطمئنها . فأوضح لها : أنا أصدرت الأمر إلى البحر ليلقى الرضيع إلى الساحل . وأصدرت الأوامر ليلتقطه العدو فرعون . وأصدرت الأوامر أن يقوم بيت فرعون بتربيته .

وبعد ذلك هناك وحي للحواريين . يقول الله :

﴿وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

(سورة المائدة)

وهناك وحي للملائكة كقول الحق :

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُنْفِثُ فِي قُلُوبِ

الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

الوحي يتنظم ويشمل - إذن - كل أجناس الوجود بطريقة خفية عند عالم خفى

عنا ، وهم الملائكة ، وعالم ملحوظ لنا ولأمثالنا مثل الحوارين ، ومثل أم موسى .

وساعة يقول : « أوحينا » ينبهنا إلى أن الإعلام بخفاء أمر غير مقصور على الله ؛ ذلك أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيَجِدُلُوهُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

ويقول أيضاً عن الشياطين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن الوحي هو إعلام بخفاء ، وليس الأمر مقصوراً على الحق سبحانه وتعالى ، بل يصح أن يكون الوحي من الله ، أو من الشياطين ، أو من جنود الشياطين .

وقد يكون الوحي إلى الجهاد وإلى الحيوان وإلى الملائكة وإلى الإنسان .

وعندما نحدد معنى الوحي فإننا نقول :

الوحي في اللغة إعلام بخفاء من أيّ - سواء أكان من الله أم من الشياطين - ولأيّ ما - سواء للأرض أو للحيوان أو للإنسان - وفي أيّ - سواء في خير أو شر - .

وكلمة « وحي » تصلح لأي معنى من هذه المعاني بحيث إذا أطلقت انصرفت إليه . ولكن هي بالمعنى الشرعي لا تطلق إلا على الإعلام بخفاء من الله لرسوله ، ومثل ذلك حدث لمعنى الصلاة ، فالصلاة معناها اللغوي الدعاء ، وهناك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والصلاة المكتوبة هي الأقوال والأفعال ، وأخذ

الشرع معنى الصلاة واصطلح على أن كلمة الصلاة حين يطلقها الفقيه تنصرف إلى الأقوال والأفعال المخصوصة المبتدأة بالتكبير والمختتمة بالتسليم .

وفي هذا المعنى الشامل للصلاة نجد سيدنا عمر - رضي الله عنه - وقد دخل عليه حذيفة فسأله : كيف أصبحت ؟ أجاب حذيفة : أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق وأصل بغير وضوء ولئى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا على بن أبى طالب لكان لسيدنا عمر شأن آخر مع حذيفة .

وسأل على عمر : ما يفضبك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : سألت حذيفة كيف أصبحت فقال كذا وكذا . فقال على - كرم الله وجهه - : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتنة ، أى يحب ماله وولده ، فالحق قال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، وهو يكره الموت والموت حق ومن فينا يحبه يا أمير المؤمنين ؟ وهو يصل بغير وضوء على النبى صلى الله عليه وسلم ، وله فى الأرض زوجة وله ولد وهو ما ليس لله فى السماء .

إذن فقد أخذ حذيفة الفتنة على معنى مخصوص ، وكذلك الموت ، والصلاة . وضربت هذا المثل لأفرك بين المعانى الشرعية والمعانى اللغوية .

ونوضح الفارق بين معنى الوحى الاصطلاحي والمعنى اللغوى ، المعنى اللغوى للوحى هو : إعلام بخفاء من أى لائى بأى . والوحى بمعناه الشرعى : إعلام بخفاء من الله لرسوله . وكل الألوان الأخرى من الوحى نأخذها بالمعنى اللغوى .

وقوله الحق هنا فى الآية التى نحن بصدددها : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح » . وه أوحينا هنا قد جاءت للإعلام بخفاء من الله لرسول من رسله . ونعلم أن صفات الكمال للحق سبحانه وتعالى هى صفات الكمال المطلق . وكل الخلق مقدورون لقدرته سبحانه . ولا يمكن لأحد أن يتصل اتصالاً مباشراً بالأعلى المطلق . ولا يستطيع أحد أن يتحمل ذلك حتى الرسول . ولذلك بأتى الحق بنورائين من الملائكة ليأخذوا منه ليعطوا للرسول . ويسبق ذلك إعداد الرسول لهذه المهمة .

إذن فلسالة تمر بمراحل نصفية ، الأعلى يعطى للملائكة ، والملائكة يعطون للمصطفى من الخلق ، والمصطفى مصنوع على عين الله ليتلقى الوحي ، ومن بعد ذلك يعطى الرسول لغيره من البشر . وكل ذلك لتقريب مسافات الالتقاء . وعلى رغم تقريب مسافات الالتقاء تحصل الهزة من آخر مرحلة حين يستقبل من أدنى مرحلة ، فحين يستقبل الرسول الوحي من ملك تحدث له هزة . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن أول لقاء له مع الوحي :

(حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطى الثالثة ثم أرسلنى . فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم)^(١) .

وكان جبينه يتعصد عرقاً ، ورجف فؤاده ودخل على زوجته خديجة بنت خويلد فقال : « زملون زملون » فزملوه حتى ذهب عنه الرُّوع . وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ فهذا الملك جبريل متصل ببشر هو محمد بن عبدالله ولا بد أن يحدث ذلك للرسول ، وذلك حتى يتكيف لاستقبال من الملك .

لكن أنتظر هذه الرجفة المتعبة ؟ . لا ، إن الوحي يفتقر لفترة وتذهب عنه متاعبه فيشتاق الرسول إليه ويصبر قادراً على تحمل متاعبه ، مثل تفصد الجبين بالعرق ، ومثل الثقل في الحركة حتى إذا جاءه الوحي وهو على دابة فهي تنط وتثن ، وإن جاءه الوحي وهو جالس وفخذ على فخذ واحد من الصحابة ، فيكاد ثقل الرسول يرض عظام الرجل ويكسرها ، كل ذلك من المتاعب تحدث للرسول في أثناء الوحي ، لأن تغييراً كيميائياً يحدث في بدنه صلى الله عليه وسلم ليتأكد أن الكلام الذى يتلقاه ليس كلاماً عادياً ، لكنه كلام قد جاء بإعجاز ، وأنه من عند الله .

(١) رواه البخارى من حديث عائشة أم المؤمنين .

لقد كان للوحى صلصلة كصلصلة الجرس . وكان هذا الصوت إعلان أن زمن وساعة الوحى قد جاءت فاستعد لها يا رسول الله . وعندما تعب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البداية ، كان من رحمة الله به أن جعل الوحى يفتقر عنه ، فاشتاق صلى الله عليه وسلم للوحى بسبب حلاوة ما أوحى إليه ، ويجعله هذا الشوق مستشرفا للمتاعب . وعندما فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خصومه : رب محمد ودعه وجفاه . ولم يتذكروا أن لمحمد رباً إلا فى هذه المسألة بعد أن اتهموه بالكذب ولم يمتلكوا الذكاء حتى يعبروا عن هذا الأمر بتعبير لا يتناقض مع موقفهم السابق منه . وحين رأى الحق الإجهاد الحاصل لرسوله جعل الوحى يفتقر ، حتى تبقى حلاوة ما يوحى به ويذهب التعب ويشتاق رسول الله إلى ما يوحى إليه .

إن الشوق وتلك المحبة يجعلان رسول الله لا يشعر بوطأة الألم الملقى البشرى ، والإنسان منا حين يذهب إلى حبيب له يسير فى الشوك والوحل ولا يبالي . إذن ففتور الوحى كان لتربية الشوق فى نفسه صلى الله عليه وسلم ليستقبل الوحى ، وليتبه كل منا حين يقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾

(سورة الضحى)

أى أن ما سيأتى لك من بعد ذلك سيترك . ويقول الحق بعدها :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ ۝١ الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ ۝٢ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ﴾

(سورة الشرح)

وحين عرض الحق هذه المسألة بهذه الكيفية أراد أن يبلغنا : لا تظنوا أن رب محمد - كما يقولون - قد جفاه ، لا ، بل يعنه ليستقبل أكثر مما جاء من قبل ، فسنن الكون أمامكم ، لكن كفرهم أعمى أبصارهم وبصيرتهم ، ويقول سبحانه :

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا يَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

(سورة الضحى)

وسبحانه يقسم بما شاء على ما شاء . والضحى هو ضحوة النهار وهى محل الحركة

والكدح والجهد والجدة والتعب ، والليل محل الراحة والسكون .

كان الحق يوضح : إنكم إن نظرتم في آية الكون لوجدتم أن الله قد جعل الضحى للكدح والليل لنسكن فيه ، وفطور الوحي هو سكون ليعلود محمد نشاطه في حركة الوحي الجديدة ، هو الحق - سبحانه - يقسم : « والضحى . والليل إذا سجي . ما ودعك ربك وما قلى » أجمى الليل بعد النهار ضمن من الله على الناس بالنهار ؟ لا ، إنما الليل عطاء من الله ليسكنوا وليستقبلوا النهار الجديد .

وانزل سبحانه الآية التي نحن بصددها خاطرنا عنها حينما سأل اليهود النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) .

فيأمره الحق أن يوضح : أنا قد أوحى الله إلى كما أوحى إلى الرسل السابقين ، فهل أنتم شككتهم في وحي الله لموسى ؟ أشككتهم في وحي الله لمن سبق موسى ؟ صحيح أنكم شككتهم في مسألة عيسى ، لكن لنضع الأمر الذي تكذبون فيه جانباً ولنأخذ ما أنتم مصدقون به ، فيقول سبحانه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » .

إذن فانت يا محمد لست بدعاً في هذه المسألة : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ويمر العلماء على هذه المسألة مروراً سريعاً ، لكننا نقف عندها ونقول : قد يوحى هذا القول أن أول وحي كان لنوح . والحقيقة أن الوحي الأول كان لأدم من قبل ، لكن هناك فارق بين الوحي لأدم والوحي للأنبياء من بعده .

ومثال ذلك نوح ، فنوح طرأ على أمته وكانت أمته موجودة ثم جاء هو إلى هذه الأمة مبشراً ونذيراً . أما آدم عليه السلام فقد طرأت عليه أمته ، لذلك لم يرسله الله بمعجزة ، فهو أب للجميع . والأبناء يقلدون الآباء ، بل حتى أبناء الملاحدة يقلدون آباءهم . وقد أوحى الله لأدم وقال له : (فلما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإرسال الهدى لأدم هو مجيء الوحي إليه .

ولماذا جاء نوح في هذه الآية أولاً ؟ لأن نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قد

طراً على أمته ؛ لذلك احتاج إلى وحى وإلى معجزة . وأرسل الله نوحاً إلى الناس كافة ؛ لعموم الموضوع ، فلم يكن هناك من البشر غيرهم . لكنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله للناس كافة ؛ لأن الإسلام هو الدين الخاتم . وكان قوم محمد موجودين . وكذلك كان غيرهم موجوداً .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم » . لماذا قال الحق : « والنبيين من بعده » أى من بعد نوح ؟ ، ولماذا قال : « وأوحينا إلى إبراهيم » وذكر أسماء الأنبياء من بعد إبراهيم ؟

يقول العلماء : هنا عطف خاص على عام لزيادة التنبيه على شرف هؤلاء ، « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » ، وكان الحق يقول : حين يسألك اليهود - يا محمد - أن تنزل عليهم كتاباً من السماء قل لهم : إن الله أوحى إلى كما أوحى إلى الأنبياء السابقين ؛ فلست بدعا من الرسل . وحتى لو أنزل إليهم محمد كتاباً في قرطاس ولمسوه بأيديهم لقالوا : هذا سحر ميين ، كما قال :

﴿ وَلَوْ تَزَلَّنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فالمنكر يريد الإصرار على الإنكار فقط . وليست المسألة جدلاً في حق وإلما هي بآج في باطل .

ويتابع سبحانه وتعالى أسماء الأنبياء الذين أوحى الله إليهم : « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » ونلاحظ أنه جل وعلا ذكر الوحي عاماً ؛ لكنه حينما جاء لداود ذكر اسم كتابه « الزبور » ولم يأت في الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين مثل نزول التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ؛ لأن ما جاء به داود في الزبور أمر يجمع عليه كل الشرائع ، وهو تحميد الله والثناء عليه فلم توجد في الزبور أية أحكام .

وقد يقول قائل : إن عيسى أيضاً لم تنزل عليه أحكام في الإنجيل . ونقول : لأن الإنجيل يلتحم بالتوراة ، وجاء بالوجدانيات الدينية وكانت التوراة موجودة قبله وفيها الأحكام . ولذلك فمن عجيب أمر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أنهم على رغم اختلافهم في قمة الأمور وهي مسألة عيسى وأم عيسى ، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا ويسموا الكتابين « العهد القديم والعهد الجديد » ويعتبروهما كتاباً واحداً يسمونه الكتاب المقدس .

وما معنى « الزبور » ؟ المادة كلها مأخوذة من « زَبَرَ البثر » ، فعندما يقوم الناس بحفر بثر ليأخذوا منها الماء ، يخافون أن ينال التراب من جوانبها عليه فتطمر البثر ، لذلك يصنعون لجوانب البثر بطانة من الحجارة . وفي المصنف المسمى « نجاد » أنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت .

وكلمة « زَبَرَ البثر » تؤدي معنى كل عملية لإصلاح البثر ، ثم أخذ الناس هذه الكلمة في معانٍ مختلفة ، فسموا العقل « زَبْرًا » لأنه يعقل الأمور . وإذا كان السياج من الحجارة يعقل التراب عن البثر ويمنعه ، فكذلك العقل يحمي الإنسان من الشطط وليضبط الإنسان حريته في إطار مسئوليته ليفكر ، ويعقل الغرائز عن الفكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال . ويخطئ الناس في بعض الأحيان في فهم معنى « العقل » ؛ ويظنون أن العقل هو إطلاق الحبل على الغارب للأفكار دون انتظام أو مسئولية ، ونقول : افهموا أولاً معنى كلمة العقل حتى تعرفوا مهمته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا
لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
تَكْلِيمًا ﴾

والرسل الذين ذكرهم الله في الآية السابقة ليسوا كل الرسل الذين يجب الإيمان

بهم تفصيلاً فحسب ، فكما علمونا في الأزهر الشريف يجب أن نؤمن بخمسة وعشرين رسولا وقد نظمهم بعض الشعراء في قوله :

في تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا
ذو الكفل ، آدم ، بالمختار قد ختموا

وفي سورة الأنعام نجد قوله الحق :

﴿وَنَلِّكَ جَنَّاتٍ أَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ۖ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّسَاءٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٧﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ ۚ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

(سورة الأنعام)

وفي هذه الآيات ثمانية عشر رسولا ، وبالإضافة إلى سبعة هم إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وادم ومحمد صل الله عليه وسلم ، هم إذن خمسة وعشرون رسولا ذكرهم الله ، لكن الآية التي تسبق الآية التي نحن بصدددها لم يذكر الله كل أسماء الرسل . وذكر أسماء بعض الرسل في سورة الأنعام وبعضهم في سورة هود وبعضهم في سورة الشعراء . ويقول الحق :

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ
اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٣١﴾﴾

(سورة النساء)

أي أن خمسة والعشرين رسولا ليسوا كل الرسل الذين أرسلهم الحق إلى الخلق ، فقد قال :

﴿وَأِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

أى أنه قد قص علينا أعلام الرسل الذين كانت أهمهم لها كثافة أو حيز واسع أو لرسلمهم معهم عمل كثيف ، ولكن هناك بعض الرسل أرسلهم سبحانه إلى مائة ألف أو يزيدون مثل يونس عليه السلام :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١١١﴾﴾

(سورة الصافات)

وكان العالم قديماً في انعزالية . ولم يكن يملك من وسائل الالتقاء ما يجعل الأمم تندمج . وكان لكل بيئة داءاتها ، ولكل بيئة طابع مميز في السلوك ، ولذلك أرسل الله رسولا إلى كل بيئة لمعالج هذه الداءات ، ولا يذكر الداءات الأخرى حتى لا تنتقل من مجتمع إلى مجتمع آخر بالأسوة . وحين علم الحق بعلمه الأزلى أن خلقه بما أقدرهم هو سبحانه على الفكر والإنتاج والبحث في أسرار الكون سيتكرون وسائل الالتقاء ، ليصير العالم وحدة واحدة ، وأن الشيء يحدث في الشرق فيعلمه الغرب في اللحظة نفسها ، وأن الداءات ستصبح في العالم كله داءات واحدة ، لذلك كان ولا بد أن يوجد الرسول الذى يعالج الداءات المجتمعة ، فكان صل الله عليه وسلم الرسول الخاتم والرسول الجامع والرسول المانع .

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ

اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٢﴾﴾

(سورة النساء)

ويتكلم الحق سبحانه عن تاريخ النبوات مع قومهم بكلمة « قصصنا » ولذلك حكمة ، فالقصص معناه أنه لا عمل في الأحداث للرسول ، بل تأتي الأحداث في السياق كما وقعت . وسبحانه يعلم أولاً أن خلقه سيتكرون فنا اسمه « فن القصص » .

ومن العجيب أنهم يسمونه فن القصص ، وينسج المؤلفون حكايات خيالية أو حكايات ليس لها واقع . وعندما يأتون إلى التاريخ الواقع يزيد المؤلف جزءا من الأحداث أو يضيف من خياله أشياء ، ويقولون هذه متطلبات إتيان فن القصص ،

ويحرمون أنفسهم من أمانة النقل . ولذلك يأتي الحق ليوضح لنا أن القصة الخاصة بالرسول وبغيرهم في القرآن قصص واقعية ، حقيقية ، حدث فعلاً .

وكلمة « القصص » مأخوذة من قص الأثر أي أن نسير مع القدم كما نذهب ، فلا نذهب هنا ولا نذهب هناك . وحكايات الأنبياء في القرآن واقعية . ومن رواية الحق لا من رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يرويه الحق لخلقهم ليسيروا على المنهج . وما يرويه الخلق بعضهم لبعض للنسبية أو غير ذلك . ونجد روايات الخلق تزدهج في بعض الأحيان بخيال البشر ، مثل روايات جورجى زيدان عن الإسلام والأنبياء ، وعندما سألوهم لماذا أضاف من عنده إلى الواقع ، أجاب الإجابة التقليدية : فعلت ذلك من أجل الحكمة القصصية .

ويجب أن نميز ونفرك بين روايات الخلق وقصص الحق ونضعه في بؤرة الشعور حتى لا يدخل أحد من خياله على قصص القرآن ما ليس فيه ، وحتى لا يأتي واحد ذات يوم ويقول : إن كل القصص واحد . فنحن في القرآن لسنا أمام مؤلف ، بل أمام الخالق الأعلى الذي يروى لنا ما يعلمنا . وسبحانه علم أزلاً ما سيحدث في كونه ، لذلك قال :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾

(سورة يوسف)

وسبحانه قد قص على الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن أحسن القصص ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيمالج أجناس العالم التي توزعت على جميع الرسل من إخوانه ، ومادام عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل من إخوانه ، فلا بد أن يوضح سببانه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده : أنه حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثاً إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت دأائم ذلك المجتمع هي كذا وكذا . ومحمد صلى الله عليه وسلم - كما نعلم - موكَّوٌّ إليه علاج كل أجناس البشر وكذلك أمته من بعده ، ولا بد أن يعرفوا أخبار كل المجتمعات والرسل : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) .

إذن فكل كلمة « قصص » تدل على أنها حكايات لحركة العقيدة التي كانت مع كل لرسول . والتاريخ - كما نعلم - هو ربط الأحداث بأزمانها ، فمرة نجعل الحدث هو المؤرخ له ، ثم تأتي بأشخاص كثيرين يدورون حول الحدث . ومرة نجعل الشخص هو الأصل والأحداث تدور حوله ، فلذا قلنا كلمة « سيرة » فنعني أننا جعلنا للشخص هو محور الكلام ؛ ثم تدور الأحداث حوله . وإن أردنا للحدث ، نجعل الحدث هو الأصل ، والأشخاص تدور حوله .

مثال ذلك : عندما تأتي لتكلم عن حدث الهجرة ؛ نجعل هذا الحدث هو المحور ، ونروى كيف هاجر رسول الله ومعه أبو بكر ، وكيف هاجر عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة ، وبذلك تكون الهجرة هي المحور وكيف دار الأشخاص حول هذا الحدث الجليل .

ومثال آخر : عندما نروى سيرة من السير ، مثل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، نجعل النبي صلى الله عليه وسلم محور الحديث والتاريخ ، ونروى كيف دارت الأحداث في حياته .

إذن فأخبار وقصص الرسل تكون هي المحور ونلتقط الأحداث التي مرت عليهم ؛ لأن الرسائل حين تأتي الناس بمنهج السماء ؛ تنقسم إلى قسمين : قسم نظري يريد الحق أن يعلمه لخلق به بواسطة الرسول ، وهو القسم العلمي ، فتلك قضايا يجب أن يعلموها . وقسم عملي ؛ لأن الحق يريد من خلقه أن يعلموا ويريد منهم - أيضا - بعد أن يعلموا أن يطوعوا حركة حياتهم على ضوء ما علموا . فليست المسألة رفاهية علم ، ولكنها مسئولية تطبيق ما علموا في محور « افعل » و « لا تفعل » . ولو كانت المسألة أن يعلم الخلق فقط ، لكان من الممكن أن نقول : ما أيسرها من رحلة .

لقد وجدنا كفار قريش عندما طلب الرسول منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، قالوا ذلك . ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة يقال لقالوها . لكنهم عرفوا مطلوب الكلمة ، وعرفوا أنه لن توجد سيادة ولا عبودية ولا أوامر لأحد غير الله ، ومعنى ذلك المساواة المطلقة بين العباد .

إذن فكل تكليف من السماء إنما نزل ، والقصد من العلم به هو العمل به ، أى
توظيف العلم تطبيقاً ، فلا قيمة لعلم دون عمل . وعندما يبلغ الرسول القوم : هذا
هو الحكم ، ومطلوب من كل واحد منكم أن يطوِّع حركة حياته على ضوء هذا
الحكم . ونحى الأحكام دائماً في طاقة البشر .

وهناك أناس قد علموا وعملوا وهذه هي قصصهم ، هذه قصة فلان وقصة
فلان . فالقصص يعطينا الجانب العمل المطلوب للمنتج ، ولذلك قصص لنا الحق
قصص الرسل في القرآن . وبلغنا الحق بالنسب الإيماني ، وعلّمنا النسب المعترف
به عند الأنبياء ، فيحكى قصة نوح عليه السلام ، عندما أوحى إليه بضرورة أن
يصنع السفينة ، وسجّر قومه منه ، وبعد أن صنعها جاءه الأمر الإلهي بأن يحمل فيها
من كل زوجين اثنين . ويقول الحق : ﴿ وَنُوحٌ إِذْ دَعَا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ خُذُوا الصَّفْرَ وَتَذَكَّرُوا يَوْمَ الْأَوَّلِ ﴾

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَفَرًا مِنْهُمْ قَالُوا نَحْنُ نَحْمِلُ الثَّغْلَ إِنَّا نَنسَوُا مِيثَاقَ اللَّهِ
فَمَا نَسْخَرُ مِنْكَ كَمَا نَسْخَرُونَ ﴿٤٨﴾ فَسَوْفَ نَعَذِّبُكَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٤٩﴾ خَلَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ
إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة هود)

قوله الحق : «إلا من سبق عليه القول» كان يجب ألا نمر على فطنة نوح ، ذلك لأنها
تتضمن أن هناك أناساً من أهله لن يؤمنوا ، فيقول لابنه :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة هود)

وكان الرد :

﴿ قَالَ سَفَاوَىٰ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

فقال نوح :

﴿ قَالَ لَا عَصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

وبعد أن غرق ابن نوح وابتلعت الأرض ماءها ، نادى نوح ربه فقال :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَبْنَىٰ مِنْ أَهْلِ وَإِنْ وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة هود)

نحن - إذن - أمام لقطة قصصية في قصة نوح . يلفتنا بها الحق إلى مسألة بنوة الرسالات ، فالبنوة هنا منهجية . ومن يتبع النبي هو الذي يكون من نسله . ومن لا يتبع النبي فليس من نسله ؛ لذلك قال الحق : (يا نوح إنه ليس من أهلك) . فأهل النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبي . ويشرحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال عن سلمان الفارسي :

(سلمان منا أهل البيت)^(١) .

ولم يقل : إن سلمان عربي ، أو إنه من المسلمين ، لكنه قال : إنه من أهل البيت . وقد أوضح الحق ذلك في قصة ابن نوح : (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) .

وعناص في معنى « ليس من أهلك » بعض الخائضين باللغو وقتلوا : إن أم ابن نوح قد فعلت سوء ، ولهذا نقول : استغفروا ربكم وانظروا إلى حثية الحكم :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إذن فنسبة الأبناء للأباء من الأنبياء نسبة عمل لا نسبة دم ولا نسبة عن زواج أو نجاب ، أما الذين قالوا سوء في امرأة نوح فعليهم أن يستغفروا الله ، فالحق

(١) رواه الحاكم في المستدرک . والطبرانی في الكبير عن عمرو بن حوف .

سبحانه منزّه عن التدليس على رسوله . وهب أن لم الولد قد فعلت ذلك - معاذ الله -
لما ذنب الولد حين نصير أمه إلى هذا ؟ لا دخل للولد بذلك ، لكن قول الله : « إنه
عمل غير صالح » يدل على أن ثبوت البتة الإيمانية يكون بالعمل فقط .

ولنتظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهله وعشيرته . . فعن أبي هريرة
رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين ، جعل النبي صلى الله
عليه وسلم يدعو بطون قريش بطنا بطنا : يا بني فلان أنقلوا أنفسكم من النار حتى
انتهى إلى فاطمة فقال : يا فاطمة ابنة محمد انقضى نفسك من النار لا أملك لكم من
الله شيئا غير أن لكم رحما سابلها ييلاها) (١) .

ويضرب الله المثل في الزوجات ؛ فيقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا
صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ﴾ (١١)
(سورة التحريم)

وليس المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية ؛ لكن نستدل على أن الرسول وإن
كان رسولا ليس له من القدرة على أن يفهر زوجه وامرأته على عقيدة ؛ فهي تملك
حرية الاعتقاد ؛ فلا ولاية هنا للرجل على المرأة في العقيدة حتى إن ادعى الألوهية ؛
كفرعون مثلاً يقول الحق عن امرأته :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي
الْجَنَّةِ وَاجْعَلْ لِي مِثْلَ عَمَلَيْهِ وَاجْعَلْ لِي مِنَ الْقُرْمِ الطَّيِّبِينَ ﴾ (١٢)

(سورة التحريم)

هذه اللفظات تدلنا على أن قضية الإيمان لا يتنفع فيها النسب أو الزواج . فالابن
هو العمل الصالح ، والحبيبة في ذلك قول الحق عن ابن نوح : « إنه عمل غير
صالح » فلم يذكر ذات الابن ولكنه ذكر العمل .

ولكل نبي قصة يذكرها الحق ليتضح المنهج في أذهان الناس . وبكى الله بالمثل في

(١) رواه الإمام أحمد . ورواه مسلم في الإيمان ، والبخاري في الأب والقرماني في التفسير والنسائي في الوصايا .

لمصطفين الاختيار الذين اصطفاهم الله لهداية الناس مثل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام . الذي يتلىه - سبحانه - في أول حياته بالإحراق في النار . كان إبراهيم شاباً تلى بالأمل في الحياة ، فماذا كان من إبراهيم ؟

أراد الحق نجاته إبراهيم من النار . وتركهم يتمكنون منه ويضعونه في قلب النار . لم تحط السباه لتطفئ النار ، وكل ذلك لتكون حجة الحق واضحة ، وحتى يكون بيد الله كاملاً هؤلاء الكافرين . إن إبراهيم عليه السلام لم يرب منهم ، ولم تحط لسباه ، بل ظلت النار ناراً ويعطل سبحانه ناموس النار حين دخول إبراهيم إليها .

(روى عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم حين قيده يلقوه في النار قال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك ؟ شريك لك . قال : ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل قال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . فقال جبريل فاسأل ربك . قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي . فقال الله : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)^(١) .

وفي هذا غيظ ودحض لمكر الذين مكروا بإبراهيم . إذن يعطينا الحق في القصص لقرآني المثل لنجمع من حياة كل رسول العبر ونستفيد منها ، لنكون بحق خير أمة خرجت للناس ؛ لأننا أخذنا تجارب كل رسول وجعلناها منهجاً لنا في حياتنا .

وقد ابتل الحق إبراهيم في أول حياته في نفسه ، وابتلاء في أخريات حياته في بنه ، ونجح إبراهيم في الابتلاء الأول حين كانت حياته أهم بالنسبة إليه من كل شيء ، وحين يتقدم في السن ، فمن المفروض أن تكون كل حياته لمن بعده من الأبناء فيبتليه الله في ابنه . لم يقل له : إن ابنك سيصير عليك بالصبر . ولم يقل : إن واحداً سيقتل ابنك وعليك بالصبر ؛ بل يأمره بذبح ابنه ، تلك قمة الابتلاء . لأنه لم يأت بوحى مباشر كالنفث في القلب أو الكلام من وراء حجاب أو يرسل له الله ملكاً يبلغه ما يريد ، بل برؤيا منامية : (قال يا بني إني أرى في المنام أني

(١) تفسير القرطبي وذكر نحوه ابن كثير في تفسيره والزمخشري في الكشاف .

أذبحك) . ويقول إبراهيم لابنه المسألة كما رآها في المنام . والرؤيا عند الأنبياء حق .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يرد إسماعيل على أبيه بأن هذه المسألة هي مجرد رؤيا ؟ ولماذا لم يأخذ إبراهيم ولده على غرة دون أن يقول له ؟ .

ونقول : إن إبراهيم من فرط وشدة حنانه وحبه لابنه آثر أن ينال الابن الشاب العظيم والجزء الجليل بأن يقتل ويقدم حياته امثالاً لأمر الله ، فقال إبراهيم :

﴿ يَبْنِيْٓ اِنِّىْ اَرَى فِى الْمَنَامِ اِنِّىْ اَذْبَحُكَ فَاَنْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وها هوذا قول إسماعيل :

﴿ قَالَ يَتَابَعِ اَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيْ اِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِيْنَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ولم يقل إسماعيل لأبيه : « افعل الذبح » ، ولكنه قال : « افعل ما تؤمر » أى أن إسماعيل لم يأخذ الكلام على أنه كلام من أبيه ، بل أخذه كأمر من الله . ولو أخذه أبوه على غرة قد يتحرك قلب الابن غيظاً على أبيه وحقداً عليه فيعتدى على الأب ، وهنا نجد حنان الأب على الابن جعله يخبره بالأمر الآن من السماء ؛ والشأن في حنان الأب على الابن أن ييسر له كل أمور حياته . أما حنان الحنان فهو تيسير كل خير بعد عاقبته ، لذلك لم يشأ إبراهيم أن يحرم إسماعيل من الامتثال لأمر الله ؛ فينال الاثنان معاً شرف الامتثال لله . وأعطاه كل الحنان في الزمان الأبقى والزمان الأخلد في الدار الآخرة ؛ حتى نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد منا إلا الامتثال لقضائه وقدره ، ويقول الحق :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّاهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ مَوْعِدًا ﴾

(سورة الصافات)

هذا شرف الامتثال في التسليم لله . . . ففى البداية أسلم إبراهيم أمره لله ، وعندما عرض الأمر على ابنه سلم الابن أمره لله ، فنال الاثنان منزلة الشرف في التسليم لأمر الله . ونجح الاثنان في الاختبار ، فقال الحق :

﴿ وَتَدْبِثُ أَنْ يَلْمِزَهُمْ ^(١) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَّاكَ تَجْزَى الْمُتَمِسِّينَ ^(٢) ﴾

(سورة الصافات)

لقد أتقذ الحق إبراهيم وابنه من مسألة الذبح ، ولهذا نقول دائماً : لا يُرفع قضاء من الله على خلقه إلا أن يستسلم الخلق للقضاء ، والذين يطيلون أمد لقضاء على نفوسهم هم الذين لا يرضون به . وأتحدى أى إنسان أن يكون الله قد أجرى عليه قضاء مرض فيرضى به ويعتبر أن ذلك صحة اليقين ، ولا يرفع الله عنه لمرض . فالإنسان بالصحة يكون مع نعمة الله ، ولكنه بالمرض يكون مع الله .

فقد حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدني . قال : يارب كيف أعودك رأيت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبادي فلاناً مرض فلم تعده !! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟)^(١) .

من إذن يبرؤ على الزهد في معية الله ؟ وعندما يعرف المريض أنه في مرضه الذي يتأوه منه هو في معية الله لاستحي أن يقول : « آه » ، ولكننا لا نطلب من المريض لا يقول « آه » ، ولكن نطلب منه أن يتوجه إلى الله ويقول : « ولكن عافيتك أوسع لي » .

وقول الحق : (فلما أسلما وتله للجبين) هذا القول يدلنا على أن القضاء لا يُرفع إلا بالرضا به ، فإن رأينا واحداً قد استمر معه القضاء فلنعلم أنه لم تحن ولم تأت عليه لحظة رضى فيها بالقضاء . ولم يرفع الله القضاء فقط عن إبراهيم ، ولم يُقذ إسماعيل فقط بلذبح عظيم ، بل بشر الله إبراهيم بولد آخر هو إسحاق :

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ^(٣) ﴾

(سورة الصافات)

وما هي ذى لقطة أخرى نأخذها من القصص القرآن مع سيدنا موسى ؛ لتبين إذا يصنع المنهج الإيمان فيمن اقتنع به ، وحدثت هذه القصة في وقت تهيئة سيدنا

(١) من حديث أبي هريرة رواه مسلم في صحيحه في كتاب البر .

موسى للرسالة ، حدثت هذه الواقعة وهو ذاهب إلى شعيب ، ولم يكن رسولاً بعد ، مما يدل على أن فطرية الإيمان كانت موجودة عنده ، وأن الله قد صنعه على عينه ، لقد ورد ماء مدين ووجد الفتاين تذودان وتطردان الماشية عن الماء ، فماذا دار بينه وبينها من حوار ؟ . وكيف كانت رؤيته لهما أولاً :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢٨)

(سورة القصص)

وفي قول المرأتين : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » قدر من المبادئ فخروجها من البيت سببه أن الأب شيخ كبير ، ومع أنها في ضرورة وخرجتا للعمل فلم تنس واحدة منهما أنها أتت يجب أن تحترم أنوثتها فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء » أى أنها ستسقيان من بعد أن يذهب الزحام من الرجال حول البئر . إذن فقد أخذت بنتا شعيب الضرورة في حجمها ولم تتخذ إحداهما من الضرورة حجة لإهدار الأنوثة والتراحم للوصول إلى البئر . فماذا حدث من موسى ؟ . (فسقى لهما) .

تلك المهمة الإيمانية التي وجدت في موسى قبل أن يصير رسولاً ، وذلك ما يوضحه لنا الحق حتى لا يقول إنسان : كيف أكون مثل رسول من عند الله ؟ .

كان المهمة الإيمانية التي وصفتها تلك اللقطة القصصية توظف مسئولية كل مؤمن ليسلك مثل هذه السلوك . فعندما يرى امرأة قد خرجت عن محيط بيتها لأى عمل ، فعليه أن يقضى لها حاجتها حتى ترجع إلى بيتها وذلك دون أن يتخذ من ذلك ذريعة ووسيلة إلى أمر ينزل بهمة وينال من مروءته . ولو انتشرت بيننا تلك المهمة الإيمانية لما وجدنا امرأة في الطريق إلا للضرورة . لقد أوضحت لنا تلك اللقطة القصصية حرص المرأة على موضعها وموقعها من السر ، فنقول واحدة من المرأتين لأبيها شعيب بعد أن استقدمه ليجزيه أجر ما سقى لهما :

﴿ يَتَأْتِىٰ آسْفِجْرَهُ إِنِّ خَيْرٌ مِّنْ آسْتَفْجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة القصص)

كان المرأة لا يحمل لها أن تتحرك في الكون هذا اللون من الحركة الواسعة ، ويسمع شعيب وهو الرجل العاقل لابنته فكيف يستأجر رجلاً وعنده ابتان ، فيفكر شعيب ويعثر على الحل الصحيح بفطنة إيمانية ، فيسندى موسى ويقول له :

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْكِكَ بِأَنْتَ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي تَمْنِي حَجَجَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة القصص)

وفي مثل هذه الحالة سيكون موسى متزوجاً بواحدة ومحرماً على الأخرى .

وهذه اللقطات القصصية نلتفت إليها لتتعلم منها الفطنة الإيمانية . وها نحن أولاء مع موسى وقد ناداه الحق لجعله رسولاً ، ولتر صفاء النفس الإيمانية وهي تلقى مهمة الرسالة ؛ إن موسى يرغب في أن يكون أداؤه للرسالة كاملاً ؛ لذلك يطلب من الحق أن يرسل معه أخاه هارون :

﴿ وَأَيُّ هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ٢٨ ﴾

(سورة القصص)

هو يرشح معه هارون للرسالة لأنه حريص على النجاح في دعونه لأن لسانه ثقيل لثمة ولثغة وتردد في النطق من أثر الجمرة التي أصاب بها لسانه وهو صغير ، والرسالة تحتاج إلى بيان وبلاغة فيطلب مساعده أخيه ولم يستنكف ذلك . فما بالنا بما هو حادث وحاصل في أيامنا ، حين يختار الحاكم رئيساً للوزراء فلا يطلب معاونة الأكفأ ، بل قد يخشى أن يكون له نائب له كفاية عالية فوق كفاءته .

واللقطات القصصية في القرآن تعلمنا الكثير ، وأراد الحق أن يثبت بها للام المحمدية دقة المنهج الإيماني ، فيأمر قد أرسل لنا منهجاً لتعلمه ، فهو يطلب منا أن نطبق هذا المنهج ونوظفه في حياتنا . وليس ذلك بدعا ، بل هو موجود في قصص الرسل الذين علموا المنهج فطبقوه في ذواتهم أولاً ؛ لأن الآفة أن نعلم العبد ولا نطبقه .

وفي زماننا يقال ويشاع : إن التعليم الديني في المدارس لا يأتي بشيء طيبة في سلوك

الطلاب . ونقول لمن يرددون ذلك : أنتم لا تفهمون طبيعة التعليم الديني ؛ فتعليم الدين لا يمكن أن يتساوى مع تعليم الجغرافيا أو الهندسة وغيرهما من العلوم ؛ لأننا عندما نعلم طالباً الهندسة فهو يستطيع أن يكون عالماً متفوقاً فيها ويأخذ المعطيات والنظريات ويتفوق في المجال الهندسي ، ولكن لم تطلب منه أية نظرية هندسية أن يعدل سلوكه في الحياة بأن ترشده في السلوك اليومي : افعل كذا ولا تفعل كذا .

فالنظريات الهندسية لا تتدخل في حياة الطلاب ، لكن الطالب عندما يتعلم الدين إنما يتعلم أن يفعل الأمر الديني ، ولا يفعل الأشياء المنهى عنها . والصعب في التعليم الديني هو التطبيق العملي . وعندما لا يرى التلميذ التطبيق العملي من الذين يعلمونه الدين أو من الأسرة ، فإنه لا يتعلم الدين ، فيقال للطالب : الدين ينهى عن الكذب ، لكن الطالب يجهل الكذب سلعة رائجة في المجتمع . ويقول الدين له : الصلاة عماد الدين وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يجهل الطالب من يصل امامه أو يجهل من يصل ولا يقيم عمارة الدين باتباع ما تأمر به الصلاة من نهى عن المنكر ، إذن ففشل التعليم الديني لا يأتي من ناحية غياب المعلم ولكن من عدم وجود التطبيق العملي للسلوك الديني .

ونعود للقصة القرآنية . جاء القصص ليوضح لنا التطبيق للجانب النظري من الدين ، وطبقة الرسل على أنفسهم . وأنتم يا أمة الإسلام لستم أقل من أحد ، بل أنتم خير أمة أخرجت للناس ، وعليكم أن تأخذوا الخير الذي حدث في موكب الرسالات كلها وتطبقوه في ذواتكم .

هذا هو معنى قوله الحق : « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك » . وقد جاء لنا القرآن بعيون القصص حتى نأخذ منها لقطات العبرة . ويقول قائل : ومن هو الرسول ؟

يقول العلماء : هناك رسول وهناك نبي . وأقام بعضهم مشكلة حول هذا الأمر ، فقال بعضهم : كل رسول نبي ولا عكس . ونقول لأصحاب هذا الرأي : لو نظرنا إلى المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لأرحنا أنفسنا جميعاً ، فالقرآن يقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

إذن فالنبي أيضاً مرسل من الله ، وعمل ذلك فكلامهما - النبي والرسول - مرسل من عنده ، لكن يوجد فرق بين أن يرسل الحق تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مستوعباً لأشياء وأحكام لم تكن موجودة في الرسالة السابقة عليه ، وبين أن يأتي إنسان مصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء في الرسائل السابقة ، فالأنبياء أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو من أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه . هذا هو الزائد مهمة الرسول .

إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل الحق الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيطبقوا ما أرسل به الرسل السابقون عليهم ، وهذا أمر لا يأتي في الأمم التي لها سجل في المكابرة مع الرسل .

ولذلك نجد أن اللجاجة دفعت بني إسرائيل إلى التفاخر بأنهم أكثر الأمم أنبياء صحيح أنهم أكثر الأمم أنبياء . لكن علينا أن نعرف أن النبوات والرسالات إنما تأتي لتشفي الناس عما بهم من داءات ؛ فعندما نقول عن إنسان إنه أكثر الناس تردداً إلى الأطباء ، فمعنى ذلك أن أمراضه كثيرة ، وكذلك بنو إسرائيل كانت داءاتهم كثيرة وكثرة الرسل إليهم لا ترفع من منزلتهم . بل تدل على كثرة أمراضهم .

إذن فالرسول والنبي كلامهما مرسل . والفارق أن الرسول معه تشريع سائر ليلفقه ويطبقه ، والنبي مرسل للتطبيق ، فإن جئنا لمعنى الرسول اصطلاحياً ؛ فالموحى إليه بشرع يعمل به وأمره الله بتبليغه . ويذلل الحق الآية : « وكلم الله موسى تكليماً » ولاشك أن موسى كان من هؤلاء النبيين الذين شملهم قوله الحق : « أوحينا » . وليسأل أن يسأل فيقول : ولماذا خص الله موسى بقوله : « وكلم الله موسى تكليماً » ؟ .

ونقول : الوحي الذي يوحى الله به لأنبيائه هو الوحي الاصطلاحي الشراء الذي نتكلم عنه دون الوحي اللغوي الذي سبق أن أفضنا فيه . والحق سبحانه وتعالى قد بين الطريقة التي يخاطب بها أنبياءه المصطفين لأداء رسالتهم إلى خلقه فقال :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ
بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾

(من الآية : ٥١ سورة الشورى)

إذن ، فطريقة التقاء الحق بالأنبياء ، إما أن تكون بالوحي ، وإما أن تكون من وراء حجاب ، وإما أن تكون بإرسال رسول كجبريل عليه السلام . فإذا ما نظرنا إلى الآية وجدنا أن الوحي ينقسم إلى ثلاثة أقسام : وحي خاص ، وكلام من وراء حجاب ، وإرسال رسول ، وكل هذه الأقسام الثلاثة تدخل في إطار الوحي « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً » .

أى ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا إلهاماً وقلفاً في القلب ، أو يكلمه « من وراء حجاب » وهو كلام من الله يسمعه الرسول ، لكنه لا يرى المتكلم وهو الله . أما الوحي بواسطة الرسول ، فهو نزول جبريل إلى الرسول بما أوحى به الله .

فإذا ما نظرنا إلى قوله الحق : « وكلم الله موسى تكليماً » فكأنه سبحانه قد خصه بهذه العبارة ليدل على أنه أوحى لموسى بطريقتين ، أولاً : بالطريق الذى أوحى به إلى غيره من الأنبياء « ثانياً : بالطريق الخاص وهو كلام الله الذى بدأ به موسى بالوحدى المقدس .

وقوله الحق : « تكليماً » يدفعنا إلى التساؤل : لماذا جاء الحق بالمصدر هنا ؟ لأن مطلق الوحي بأى وسيلة سواه الله كلاماً . إذن فالنفع في الرُّوح كلام ، والكلام من وراء حجاب كلام ، وإرسال الرسول بالوحي كلام . والكلام هو ما يدل على مراد المتكلم من المخاطب ، بدليل أن الله سمى الوحي في صوره الثلاث كلاماً « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء » .

والخفاء في الوحي إما أن يكون خفاء في الأسلوب ، أى لا يسمعه أحد غير الرسول ، وقد لا يسمعه الرسول ويكون بقذف الكلام في رُوح الرسول وقلبه وهو يؤدي مؤدى الكلام أى الدلالة على ما في نفس المتكلم الذى يريد نقله للمخاطب .

أما أن يقول الحق : إنه « تكلم » مع موسى ، فهذا نقل من الخفاء إلى العلن ، أو يسلو الحق رسولاً بالكلام الموحى به . وحين قال سبحانه : « وكلم الله موسى تكليماً » إنما ينبهنا إلى أن الوحي لموسى ليس من الكلام الذى قسمه الحق فى قوله : وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ؛ لأن الله قال فى كلامه لموسى : « وكلم الله موسى تكليماً » .

ووقف العلماء هنا وقفة عقلية وقالوا : كيف يتكلم الله إذن ؟ . ونقول : إن كل صفة لله ويوجد مثله لخلقه إنما نأخذها بالنسبة لله فى إطار : (ليس كمثله شيء) فإن لت : إن لله وجوداً وللإنسان وجوداً ، فوجود الإنسان ليس كوجود الله ، وإن لنا : إن لله علماً ، وللإنسان علماً ، فعلم الإنسان ليس كعلم الله ، وإن قلنا : إن لله قدرة ، وللإنسان قدرة ، فقدرة الإنسان ليست كقدرة الله ، وإن قلنا : إن لله ستواء على العرش وللإنسان استواء على الكرسي ، فاستواء الله ليس كاستواء إنسان . إذن فلا بد أن تؤخذ كل صفة من صفات الله التى يوجد مثلها فى البشر فى إطار قوله :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى) .

وبذلك ينتهى الخلاف كله فى كل ما يتعلق بصفات الحق .

فالحق له يدان وله وجه ، ولكن لا يمكن للإنسان أن يصور يد الله كيد البشر ، ل نأخذها فى إطار « ليس كمثله شيء » وكذلك وجه الله . ومادنا نأخذ صفات الله ، إطار « ليس كمثله شيء » فلا داعى للممركة الطاحنة بين العلماء فى الصفات وفى أويل الصفات « ولا داعى أن ينقسم العلماء إلى عالم يؤول الصفات وعالم لا يؤول ، داعى أن يقول عالم : إن يد الله هى قدرته فيؤول ، وعالم آخر لا يؤول ويقول : « إن لله يدأ ويسكت . ونقول للعالم الذى لا يؤول : قل : إن لله يدأ وهى ناسب قوله : « ليس كمثله شيء » . وإذا كنا نحن قد عرفنا فى عالمنا أن الأشياء تختلف مواجبتها فى الناس باختلاف الناس ، فلا بد من أن نعرف أن الله لا مثل

وعلى سبيل المثال : يتلقى الإنسان دعوة لمائدة عملة فرية ما ، فيقدم له ألوان

طعام تناسب مقام القرية ومنصب القيادة فيها ، ويتلقى الإنسان دعوة لمائدة محافظ مدينة فيقدم له طعاماً يناسب مقام المدينة ومنصب القيادة فيها . ويتلقى الإنسان دعوة رئيس الدولة فيقدم له طعاماً يناسب مقام الدولة وهيبة منصب القيادة فيها ، إذن لا تتساوى مائدة طعام العملة في قرية مع مائدة طعام المحافظ مع مائدة طعام رئيس الدولة ، فإذا كان في البشر يوجد الشيء الواحد وهو ملون بألوان مقامات المخلوقين فكيف لنا بمقامات الخالق؟! ليس كمثله شيء .

فإذا كان الحق قد أخبرنا أنه كلم موسى تكليماً في قصة الوادي عندما آنس موسى ناراً وذهب إلى النار . فقال الحق :

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلُقْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۚ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۚ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَفَرَدَىٰ ۚ ﴾

(سورة طه)

قال له الحق كل ذلك ، وبداءه سبحانه بالكلام . وبعد ذلك جاء لموسى الوحي على طريقة مجيء الوحي للأنبياء .

والحق سبحانه وتعالى أوحى لنبيه صلى الله عليه وسلم على شقي ألوان الوحي . فقد جاء الوحي لرسول الله إلهاماً ، وجاء الوحي لرسول الله من وراء حجاب ، وجاء الوحي لرسول الله من خلال رسول .

ومثال الوحي إلهاماً هو الحديث القدسي ، وكذلك التشريع النبوي الذي تركه لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومثال الوحي من وراء حجاب هو التكليف بالصلاة ، فلم تفرض الصلاة بواسطة جبريل ، بل فرضت من الله مباشرة .

ولا أدخل في نقاش لا جدوى منه حول : أحين فرض الحق على رسوله الصلاة كلمه وسمع منه رسول الله ، أم أن رسول الله قد رأى الله وهو يتكلم معه . لا داعي

للخوض في أمر لم يخبرنا الله عن كنهه ، والأدب مع الله يقتضي ذلك . قال تعالى :
« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » .

وإن القرآن لم يثبت بآية طريقة من طرق الوحي إلا بإرسال رسول ، فكل وحي القرآن جاء بواسطة جبريل ، فلم تأت آية بالنفخ في الرُّوع . إنما جاء بالنفخ في الروح الحديث القديم ؛ لأن النفخ في الروح قد يتصور واحد أنه خاطر من الجن أو أمثال ذلك . وجاءت كل الآيات القرآنية بواسطة جبريل ؛ بمقدمات بدنية ، ويحدث تغير كباوى في نفس رسول الله فلا يشك أبداً في أنه جبريل . وأراد الحق أن يكون الوحي بالقرآن بطريقة لا شك فيها .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع صوتاً كصلصلة الجرس ؛ وبعد ذلك يتفقد جبين الرسول عرفاً ، ويثقل جسم رسول الله حتى إن كان حل دابة فهو تنط وتثن ويثقل عليها وتكاد أن يمس بطنها الأرض . وإن كان رسول الله يلاصق فخذه فخذ أحد الصحابة ، فيكاد أن يرض فخذ الصحابي ، وتلك علامات مادية كونية ، لا يمكن أن يحدث فيها لبس .

ولقد غالوا من قبل استنادا إلى ظاهر قوله :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا

فَنُنَبِّئَ بِآيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْذَلَ وَنُخْزَىٰ ۚ ﴾

(سورة طه)

لو لم يرسل الحق الرسول لكان لهم حجة . ونقول للعلماء : لنفهم هذه المسألة حتى نوضح لكم أنكم تختلفون في أمر كان يجب عليكم ألا تختلفوا فيه . أبا العقل يعلم الإنسان مطلوب ■ منه ؟ أم أن العقل يهدي إلى وجود قوة أعل خلقت هذا الكون وتديره ؟ . وما اسم هذه القوة ؟ . وما مطلوب هذه القوة ؟ . أيعرف العقل أبواب من يتبع المنهج وعقاب من يخرج عن المنهج ؟ . كل هذه أمور لا يعرفها العقل ، فالعقل حجة في الإيمان بقوة عُلِّيا فوق ذلك الكون وهي التي خلقت وتديره ، أما الرسول فهو مبلغ بمطلوبات المنهج واسم القوة التي أرسلت والشرائع التي يجب أن يسير على هداها الإنسان ، إذن فليس هناك خلاف بين الرايين .

واسأل : من الذى اكتشف الكهرباء ؟ . إنه العقل البشرى الباحث وراء أسرار الله فى الكون ، ولا أحد يجهل هذه المسألة . وكذلك أسأل : من أول من تكلم فى النسبية ؟ إنه أينشتين . وإن سألنا : من أول من تكلم فى الجاذبية الأرضية ؟ . إسحاق نيوتن ، وكل واحد اكتشف شيئاً فى الكون صرنا نعرفه . والذى صمم توليد الكهرباء التى تنير وتضيء وتدير بها المصانع ، وجعل من سوق الكهرباء صناعة رائجة تعمل فيها القدرات المالية ليشتري الإنسان مصابيح تنير حيزاً محدوداً ، ومصانع تعمل فى خدمة الإنسان .

أبالله عليكم تعرفون اسم مصمم مولدات الكهرباء ومصمم ومكتشف المصباح الكهربائى ، ولا تدرون اسم من خلق الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم . ولم يدع أحد لنفسه صناعة الشمس ، ولا يوجد ابتكار فى الكون إلا ومعلوم من أبدع هذا الابتكار . فالذى صنع المصباح إنما ينير به حيزاً محدوداً مهما كبر ضوء المصباح ، وبعد محيط دائرى معلوم يتلأشى الضوء ويصير الأمر إلى ظلمة ، فما بالناس بالشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف نهار .

إن خلق الشمس يحتاج إلى قدرة تناسب خلقها ، ونحتاج إلى حكمة تناسبها ، وليس لهذه الشمس محيط من الزجاج ينكسر ويغيره مثلما نفعل مع المصابيح . كان لابد للعقل البشرى أن يفهم أن هذه الكائنات التى فى الكون لها صنائع تناسبها . ولا يمكن أن يكون صانعها من الخلق ويسكت عن حقه فى صناعة هذه المعجزات ، ونحن نرى بعضاً من الناس فى بعض الأحيان تدعى ملكية ما ليس لها ، فإذا ما جاء الخالق وأبلغنا بواسطة الرسل بصناعته للكون ولم يوجد له معارض ، فهل هذه الأشياء والكائنات من خلقه أو لا ؟ . إنها من خلقه إلى أن يوجد له معارض .

هذه هى مهمة العقل أى أنه يبتدى إلى القوة التى تخلق وتدبر أمر هذا الكون ولا يغنى العقل عن الرسل ، ولكن العقل يؤمن فى القمة الإيمانية بأن هناك قوة مبهمة عالية تناسب عظمة هذا الكون الذى طرأ عليه الإنسان ، ولا يعرف اسم القوة ولا يعرف مطلوب القوة فى « افعل » ، ود لا تفعل » ، ولا يعرف العقل ماذا ادخرت القوة من ثواب للمحسن وعقاب للمسيء . لذلك لابد من وجود رسول .

إن الحجة - إذن - تكون من شقين : الشق الأول الخاص بالعقل هو في الإيمان بالقوة العليا المبهمة ، والشق الثاني الخاص بالرسول هو الإيمان بالبلاغ عن الله اسماً وصفة ومطلوباً وجزاء ، هكذا نرى فاتفقوا أيها العلماء ولا ضرورة للخلاف .

أقول ذلك حتى لا يتهاذى الذى يتصيدون لدين الله وأضيف : اتفقوا أيها العلماء على أشياء محددة لأنكم تشتتون الناس بهذه الخلافات ؛ فالرسول هو الحجة في الأشياء التى لا دخل للعقل فيها .

ونعرف تاريخياً أن آفة الفلسفة أنها تضع وتتخذ عدداً ضيقاً من المجالات لتبحث فيها ، وكانت الفلسفة قديماً هي أم العلوم مجتمعة ، فالهندسة كانت فرعاً منها ، وكذلك كل الرياضيات ، وأيضاً المواد العلمية كالكيمياء والفيزياء وكذلك أصول اللغات .

لكن عندما رأى العلماء أصحاب التجارب العملية أن الفلاسفة يدخلون في مناهات نظرية ولا يدخلون إلى مجال التجارب العلمية التطبيقية ، تركوا الفلاسفة وأسسوا العلوم التجريبية منفصلة عن الفلسفة . وأنتج العلم التجريبي لنا كل هذه الاختراعات والاكتشافات المعاصرة التى تسهل علينا الحياة ونستفيد منها .

لقد ظل الفلاسفة هل حالهم يبحثون في النظريات بعيدين عن مجال التجارب العلمية التطبيقية . ولا تلتقى مدرسة فلسفية بمدرسة أخرى ؛ لأنهم يختلفون حيث لجهل طبيعة مسيطرة على الغيب الذى يبحثون عنه ولا يمكن الاهتداء أبداً إلى أسرار لغيب ، إنما الغيب يبلغ به الرسل .

والمثال الذى أضربه دائماً وأكرر حتى يستقر في الأذهان : لنفترض أننا نجلس في حجرة ثم دق الجرس ، هنا تستوى عقولنا جميعاً في أن طارقاً بالباب ، ولا نختلف في هذا الأمر . لكن عندما ندخل في تصور من الطارق ؟ يقول واحد : « الطارق رجل » وثاني يقول : « الطارق امرأة » وثالث يقول : « الطارق رجل شرطة » ورابع يقول : « صديق لنا » وخامس يقول : « بشير » وسادس يقول : « نذير » ، يحدث لك أننا دخلنا إلى مناهات التصور . وأقول : هذه الأمور لا تُترك للعقل ، فلو

أردتم راحة أنفسكم لامتتم بالتعقل ، تعقل أن هناك طارِقاً بالباب ، ثم تتركون للطارق أن يعلن عن نفسه ويقول لكم : أنا فلان واسمى كذا وصفنى كذا وجئت إليكم من أجل كذا ، وبذلك نتفق جميعاً .

لكن الفلاسفة أدخلوا التصور في التعقل . ولا يمكننا أن نعرف اسم الخالق بالعقل أبداً ولا مطلوبه . بل لابد أن يبلغ عن نفسه ، فإذا انشغل العقل بأن هذا الكون العظيم لابد له من قوة خالقة ، فلماذا لا تبلغنا عن نفسها ؟ . وإذا ما جاء رسول من أجل أن يحل اللغز الوجودى الذى يعيشه البشر فيبلغنا أن القوة الخالقة اسمها الله . هنا أراح الحق النفس البشرية بما كانت تمنى أن تعرفه ، ومن عقل العاقل أن يفرح بمجيء الرسول ويستشرف إلى السماع عنه ؛ لأن الرسول إنما جاء يحل اللغز الشاغل للنفس البشرية من تفسير من خلق الكون بهذه الدقة ، وما هي مطلوبات هذه القوة ؟

ويحسم الرسول الخلاف عندهم ويحل اللغز الشاغل للبال . ولذلك نرى الإمام علياً - كرم الله وجهه - أمام سؤال من أحدهم :

- أعرفت محمداً بربك ؟ أم عرفت ربك بمحمد ؟ .

فأجاب الإمام على وكان باب العلم : لو عرفت ربي بمحمد لكان محمد أوتق عندي من ربي ، ولو عرفت محمداً برى لما احتجت إلى رسول ، ولكنى عرفت ربي برى وجاء محمد قبلنى مراد ربي منى .

هكذا حدد لنا سيدنا على المسألة .. فالعقل الفطرى يؤمن بقوة مبهمه وراء هذا الكون هي التى خلقت وهى التى رزقت وهى التى أمدت بقيوميتها وقدرتها ، وبعد ذلك تحيى الرسل من أجل تعريفنا باسم القوة ومطلوبها منا .

والذين يختلفون حول دور العقل في الحجة ودور الرسول في الحجة ، عليهم ألا يتوهوا في متاهات نحن في غنى عنها ؛ لأن العقل لا يمكن أن يكون الحجة بمفرده ، والرسول إنما هو مبلغ عن القوة ، وقد يقول قائل : إذن لابد لكل رسول من رسول ، وقد يبلغ التفلسف الطريق المسدود .

لكن عندما نعلم أن الحق قد صنع كل رسول على عينه معصوماً ليبلغ ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا محمد بن عبدالله استطاع أن يصنع أمة في ثلاث وعشرين سنة ليمنح خيرها إلى يوم القيامة ، فعل صلى الله عليه وسلم ذلك مبلغاً عن الله ليهدى أمة إلى كيفية عمل الطيب والابتعاد عن العمل الخبيث . وخلق الله محمداً على خلق عظيم . وهكذا نعرف أن الحق قد أراح العقل من ضرورة البحث عن اسم القوة الخالقة ومطلوبها فأرسل الرسل .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِتَلَايَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا﴾

نعرف أن البشارة تكون بأمر سار يأتي من بعد . والندارة هي إخبار بأمر سيء يأتي من بعد . والمبشرون سبحاته لا يغلب . والحكيم سبحاته وضع كل شيء في موضعه ، لماذا ؟ . لأن الرسل يبشرون وينذرون بأن هناك جنة ونارا وحساباً ، فليأكم أن تظنوا أن الذي كفر بقادر على أن يصنع شيئاً لنفسه ، والله عزيز وغنى عن خلقه جميعاً .

ونعلم أن الحق لا يجرم سلوكاً إلا بنصر ، وقبل أن يعاقب فهو يضع القواعد التي لا يصح الخروج عنها . وحين يقول الحق : « وكان الله عزيزاً حكيماً » فمرته وحكمت هي التي أتاحت لنا أن نعرف منهجه . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿لَٰكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ

يَعْلِمُهُ وَالْمَلٰٓئِكَةُ شٰهَدُوْنَ وَاَكْفٰ بِاللّٰهِ

شَهِيدًا ﴿٣١﴾

وساعة تسمع « لكن » فمعنى ذلك أن هناك استدراكاً . وقوله الحق : « لكن الله يشهد » نأخذ منها بلاغاً من الحق . خصومك يا محمد لا يشهدون أنك أهل لهذه الرسالة ، ويستدرك الله عليهم ويوضح لهم أنه سبحانه هو الذى خلق الإنسان وهو أعلم بقانون صيانه . ومنهج الله إلى البشر بواسطة الرسل هو قانون صيانة ذلك الإنسان .

وإذا كان أهل الكتاب لا يشهدون بما أنزل الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وينكرون ما فى كتبهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم كرسول خاتم ، فإن الله يشهد وكفى بالله شهيداً .

لقد أنزل القرآن بعلمه ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو الذى خلق كل الخلق ويعلم - وهو العليم - ما يصلح للبشر من قوانين . وفى أعرافنا البشرية نجد أن الذى يصنع الصنعة يضع قانون صيانتها لتؤدى مهمتها كما ينبغى ، كذلك الله الذى خلق الإنسان ، هو سبحانه الذى وضع له قانون صيانه بدوافعه « لا تفعل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ اَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللّٰطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٣١)

(سورة الملك)

ونجد الإنسان منا يذهب بساعته إلى عامل إصلاح الساعات فيكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بخالق الإنسان . إن العيب الذى يوجد فى العالم سببه أن الناس قد استقبلوا خلق الله لهم ، ولم يدع أحد أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أن يقتنوا قوانين صيانة للإنسان خارجة عن منهج الله .

ونقول : دعوا خالق الإنسان ، يضع لكم قانون صيانة الإنسان بـ « افعل »

ولا تفعل ، وإن أردتم أن تشرعوا ، فلتشرعوا في ضوء منهج الله ، وإن حدث أي عطب في الإنسان فلنرده إلى قانون صيانة الصانع الأول وهو القرآن ؛ لأن المتاعب إنما تنبع من أن الإنسان يتناسى في بعض الأحيان أنه من صنعة الله ، ويحاول أن يصنع لنفسه قانون صيانة بعيداً عن منهج الله ، والذي يزيل متاعب الإنسانية هو أن تعود إلى قانون صيانتها الذي وضعه الخالق تبارك وتعالى .

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون » والملائكة تشهد لأنها نالت شرف أن يكون المبلغ لرسول الله منهم وهو جبريل عليه السلام ، وهم أيضاً الذين يحسبون حسابات العمل الصالح أو الفاسد للإنسان ويكتبونها في صحيفته ، وهم كذلك الذين حلوا ما في اللوح المحفوظ وبلغوا ما أمروا بتليفه وهم يعرفون الكثير « وكفى بالله شهيداً » لماذا لم يقل الله هنا وكفى بالله وبالملائكة شهداء ؟ . لأن الحق سبحانه وتعالى لا يأخذ شهادة الملائكة تعزيزاً لشهادته .

ونحن لا نأخذ شهادة الملائكة تعزيزاً لشهادة الله وإلا كانت الملائكة أوثق عند من الله . وسبحانه يؤرخ شهادة الناس وشهادة الملائكة ، لكنك يا رسول الله تكفيك شهادة الله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ

ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

إن كفر الكافر إنما يعود عليه ، وهو يملك الاختيار بين الكفر والإيمان ، لكن أن يصد الكافر غيره عن الإيمان فهذا ضلال متعمد ؛ لقد ضل في نفسه ، وهو يحاول أن يضل غيره ؛ لذلك لا يحمل وزره فقط ولكن يحمل أوزار من يضلهم .

وكيف يكون الصد عن سبيل الله ؟ . بمحاولة أهل الضلال أن يمنعوا آيات الهدى

من أن تصل إلى آذان الناس ، فيقولوا ما رواه الحق عنهم :

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة فصلت)

ولو فهموا معنى هذه الآية لما قالوا ما جاء فيها ، فقولهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » أى اصنعوا ضجة تشوش على سماع القرآن ، وهم قد علموا أن هذا القرآن عندما يصل إلى الأسماع فإنه يبلغ الهداية ، ولو كان القرآن غير مؤثر لما قالوا ذلك ، إذن هم يعترفون بأنهم يُغلبون عندما يصل صوت القرآن إلى آذان البشر المدهوين إلى الهداية .

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً » . كان يكفي أن يقول الحق « قد ضلوا » ، لكنه جاء بالمصدر التأكيدى « قد ضلوا ضلالاً بعيداً » أى إنه الضلال بعينه ، وهو فوق ذلك ضلال بعيد .

وعندما ننظر في كلمة « بعيد » ، نعرف أن الشيء البعيد هو الذى بينه وبين مصدره مسافة زمنية طويلة . والذى يفضل قصارى ضلاله أن ينتهى بانتهاء حياته ، لكن الذى يعمل على إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتد ، أى أن الضلال سيأخذ في هذه الحالة زمناً أكبر من حياة المضل ، ويتوالى الضلال عن المضلين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلال ممتداً .

والضلال المعروف في الماديات البشرية هو - على سبيل المثال - أن يسير الإنسان إلى طريق فيضل إلى طريق آخر . وقصارى ما يضل فيه هو أن يذهب إلى مفازة - أى صحراء - ولا يجد ماء ولا طعاماً فيموت . لكن الضال المضل يجعل ضلاله يأخذ زمن الدنيا والآخرة وبذلك يكون ضلاله ممتداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ

لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿٣٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٩﴾

والحديث هنا يبدأ عن الكفر والظلم : إن الذين كفروا وظلموا . والكفر هو ستر الوجود الأعلى ، والظلم معناه أنهم عاشوا بمنهج بشري لا يؤدي لهم متاعاً ولا سعادة في حياتهم الدنيا ، وبذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم . ومن بعد ذلك يقودهم هذا المنهج إلى عذاب الآخرة . والذي كفر ستر وجود الله وحرم نفسه بستر الوجود الأعلى من المنهج الذي يأتي به الله إنه بذلك قد ضل ضلالاً بعيداً . وسبحانه القائل :

﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا يَسْقُوا﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿مَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

والذي يأخذ بهوى نفسه وبمنهج البشر فإن له معيشة ضنكا ضيقة شديدة . ولا يظنن ظان أن الذي يأخذ ويتناول الأمور بهواه قد أخذ انطلاقاً بلا حدود وراحة لا نهاية لها ، لا ؛ لأن الذي يفعل ذلك قد يرتاح مرة لكنه يقابل التعب ويمش في ولا يتفك عنه من بعد ذلك ، وهكذا يظلم نفسه .

وقد يقول قائل : لقد ظلموا أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود ظالم ومظلوم . فمن هو الظالم ومن هو المظلوم ؟ كل واحد منهم الظالم . وكل واحد منهم المظلوم ؛ لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة ، ملكة شهوات تريد أن تنطلق إلى الشهوات ، وملكة قيم تريد أن يحفظ الإنسان نفسه ويسير على صراط القيم المستقيم .

وفي حالة من يكفر ولا يتبع منهج الله إنما يترك الفرصة للكمة الشهوات أن تظلم

ملكة القيم . والإسلام إنما جاء ليوازي بين الملكات لتساند في النفس البشرية ،
فلا يظنى سيال ملكة على سيال ملكة أخرى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهُدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٨٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٨٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذا هو حكم الحق في الذين يكفرون ويظلمون أنفسهم ، لن ينالوا مغفرة الله
وليس أمامهم إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ
مِنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا خَيْرَ الْكَلِمَةِ وَإِنْ تُكَفِّرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

فبعد أن وصف لنا - بإيجاز محكم - سلسلة المعارك التي نشأت بين الرسول واليهود
مرة ، ومرة أخرى بينه وبين المشركين ، وها هو ذا سبحانه يخاطب الناس جميعاً ،
ليصفي مركز منهج الله في الأرض ، فيقول منها كل الناس : لقد جاءت رسالة محمد
عليه الصلاة والسلام تصفية لكل الرسالات التي سبقت ، وعمل الناس جميعاً أن
يميزوا ، ليختاروا الحياة الإيمانية الجديدة ؛ لأن الرسول قد جاء بالنور والبرهان ،
البرهان الذي يرجع ما هو عليه صلى الله عليه وسلم على ما هم عليه ، والنور الذي
يهديهم سواء السبيل .

لقد كان الناس قبل رسول الله على بطل وعمل لديان ونحل شتى ، فجاء البرهان

بأن الإسلام قد جاء ناسخاً وخاتماً . والبرهان هو تعاليم هذا الدين وأدلته ، فلا حاجة لأحد أن يتمسك بشيء مما كان عليه . وجاء محمد بالنور الذي يهدي الإنسان إلى سواء السبيل ، وهذه تصفية عقدية شاملة ، أو كما نقول بالعامية « أوكازيون إيمان » تتخلص به البشرية من كل ما يشوب عقائدها ، ولتبدأ مرحلة جديدة .

« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم » والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير مهما تغيرت عليه الظروف ؛ لأن الحق صدق له لون واحد ، فإذا رأيتم جميعاً حادثة واحدة ، ثم جاء كل واحد منكم بآخبر بها إخبار صدق قلن فنتلف رواية الحادثة من واحد لآخر . أما إن سولت نفس بعض الناس لهم أن تزيدوا في الحادثة فكل واحد سيحكى الحادثة على لون مختلف عن بقية الألوان ، وقد سافر خيال أحدهم في شطحة الكذب ويسترسل فيه .

إذن فالذي لا يتغير في الحق هو أن يحكوا جميعاً الرواية الواحدة بصدق ولو كانوا الآيين الناس ، لكن إن سولت نفوس بعضهم الكذب وحست له وأغرته به ، تختلفت الرواية ؛ لأن الكذب مشاع أوهام ولا حقيقة له . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : لقد جاءكم الرسول بالحق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما جثم به من أي لون ، سواء في العقديات أو في العباديات أو في الأخلاق أو في السلوك . ستجدون كل شيء ثابتاً لأنه الحق .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى لنا مثلاً في هذا الحق :

﴿ أَزَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

كل وإد يأخذ ماء على قدر حجمه ، وساعة ينزل السيل من الجبال يحمل معه زراب والقش والأشياء التي لا لزوم لها ، وهو ما نسميه « الريم » وهو الزُّبْدَ رابى . وكذلك الحديد أو النحاس أو الذهب الذي نصنع منه الحل أو أدوات ناع ، وعندما نضع هذه المعادن في النار « نجد الزُّبْدَ يفور على سطح هذه المعادن

عندما تنصهر ، وتسمى هذه الأشياء الخبث . ويوضح الحق لنا كيف يضرب الحق والباطل .

﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومهما اختلطت بالحق أشياء فهو كحق يبعد ويترد هذه الفقايع والخبث وينحيا عنه . فإن علا الباطل يوماً على الحق فلنعلم أنه علو الزُّبْد الذي يذهب جفاء مرمياً به ومطروحاً ، وسيظل الحق هو الحق . وسبحانه يقول : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم » . والإيمان هو اعتناق العقيدة بوجود الإله الأعلى ، والبلاغ عنه بواسطة الرسل ، وأن للحق ملائكة ، وأن هناك بعثاً بعد الموت ، وحساباً . ويقتضى الإيمان أن نعمل العمل وفق مقتضياته وذلك هو اختيار الخير ، ولنعلم جيداً أن الإيمان لا يفصل عن العمل .

وماذا يحدث لو لم يؤمن الناس ؟ ها هوذا الحق يقول : « وإن تكفروا فإن الله ما في السموات والأرض وكان الله عليهما حكيماً » وسبحانه غنى ، وسيظل كونه الثابت - بنظرية القهر والتسخير - هو كونه ، ولن يتغير شيء في الكون بكفر الكافرين ، سوى سخط الكون عليهم لأنه مسخر لهم ؛ لأن الكون ملك لله ، ولن تتغير السماء ولا النجوم ولا القمر ولا المطر ولا أى شيء .

ونقول لك : لو نظرت إلى الدنيا لوجدت الفساد فيها ناشئاً عما فعلته وأحدثته يد الإنسان على غير منهج الله ، أما الشيء الذي لم تدخل فيه يد الإنسان فهو لا يفسد . ولم تر يوماً الشمس وقد عصيت عن الشروق أو الغروب ، وكذلك القمر لم تختل حركته ، وكذلك النجوم في الأفلاك ، وتسير الرياح بأمر خالقها ، وكل شيء في الكون منتظم الحركة ، اللهم إلا الأشياء التي يتدخل فيها الإنسان ، فإذا كان قد دخلها بمواصفات منهج الله فهي منسجمة مع نفسها ومع الكون ، وإن دخلها بغير مواصفات منهج الله فلن تستقيم ، بل تفسد . ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

إن الأمر الفاسد إنما يأتي من داخل نفوس البشر عندما يضلون عن منهج الله ،
لذلك نقول : أشكى الناس أزمة ضوء ؟ لا ؛ لأن الشمس ليست في متناولنا ،
كذلك لم يشك الناس أزمة هواء ، لكنهم يشكون أزمة طعام ؛ لأن الطعام ينبت من
أرض ، فلما أن يكسل الإنسان مثلاً فلا يعمل ، ولما أن يعمل ويخرج ثمراً فيأخذه
مضغماً ويضنوا ويبخلوا ولا يعطوه لغيرهم ، وهذا سبب من أسباب الفساد الناشئ
، الكون .

وجاء الحق لهم بما يمكن أن يكون فتحاً يدخلون فيه بالإيمان بمنهج الرسول
لخاتم ، ويكفرون عن أخطائهم مع أنبيائهم ومع محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول
بجوانه :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ
وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى
ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ
وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ
أَنْتُمْ وَآخِرُكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ
أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣١﴾

يبدأ الحق بأمر موجه لأهل الكتاب: « لا تغلوا في دينكم » والغلو هو الخروج عن
حد الاعتدال في الحكم ، لأن كل شيء له وسط وله طرفان ، وعندما يمسك شخص
رفاً نطلب منه ألا يكون هناك إفراط أو تفريط . وقد وقع أهل الكتاب في هذا

المازق ، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط وتفریط ، لقد كفر اليهود بعيسى واتهموا مريم بالزنا ، وهذا خلو في الكفر ، وغالى النصارى في الحب لعيسى فقالوا : إنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، وهذا خلو ، ويطلب الحق منهم أن يقفوا من أمر الدين موقف الاعتدال : « لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » .

إن أمر المنهج لا يحتاج إلى خلو ، ولذلك جاء محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله بالدين الوسط الذى يضع كل أمر في نصابه . وشرح لنا بإخبارات النبوة وإلهامها ما سوف يحدث للإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، وقد حدث ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخوارج كفروا علياً ، والمسرغون بالنشيع قالوا : إنه نبي ، وبعضهم زاد في الإسراف فجعله إلهاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى - كرم الله وجهه - :

« إن فيك من عيسى مثلاً . أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس له » .

وكما قال سيدنا على - كرم الله وجهه - : « ألا وإنه يهلك في اثنين : محب يقرظني بما ليس في ، ومبغض يحمله شتاني على أن يبهتنى ، ألا إلى لست بنبي ولا يوحى إلي ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ما استطعت ، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتي فيها أحببتكم وكرهتكم »^(١) .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم علياً أن المحب الذى يغالى في حبه ليس مع على وكذلك الكاره المبغض ، فالذى يحب علياً بغلو جعل منه إلهاً أو رسولاً ، والذى أبغض علياً جعله كافراً . وكذلك النصارى من أهل الكتاب جاءوا إلى عيسى فأحبوه بغلو وجعلوه إلهاً أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، فيقول لهم الحق : « لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » . وقوله الحق : « عيسى ابن مريم رسول الله » رد على خلو اليهود الذين رفضوا الإيمان بعيسى ، وقالوا في عيسى وأمه البهتان العظيم .

وقوله الحق عن عيسى ابن مريم : « رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » رد على غلو النصارى الذين نصبوه إلهاً أو جعلوه ابناً لله أو ثلاث ثلاثة ، فعيسى عليه السلام هو ابن مريم وعندما بشرها به الحق وقالت :

﴿أَنْ يَكُونَ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

قالت ذلك بفطنة الصديقية التي جعلتها تنبه إلى أنها لم يمسه بشر ، ومادام الحق قد نسب إليها فليس له أب ، سيولد عيسى دون أن يمسه بشر ، ويوضح سبحانه ذلك عندما يقول : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم روح منه » . فعيسى روح من الحق ، لأنه سبحانه قال :

﴿فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنبياء)

وما معنى « كلمته » ؟ هذا القول يدل على أن الروح نفخت ثم جاءت كلمة « كن » التي قال عنها سبحانه :

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد احتاج وجود عيسى إلى أمرين : « روح » و « كن » . والشبهة عند النصارى ردها إلى أن عنصر الذكورة لم يلمس مريم ، وقالوا : مادام الله قد قال : إن عيسى روح منه فهو جزء من الله ، ونسوا أن كل شيء من الله ، وسبحانه القائل :

﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾

(من الآية ١٣ سورة المجاثية)

فهل هذا يعني أن « الأرض » قطعة من الله وكذلك الشمس ؟ لا . فإذا كانت لشبهة قد جاءت من غياب عنصر الذكورة مع وجود عنصر الأنوثة لكان من الواجب منطقياً أن تكون الشبهة في آدم قبل أن تكون الشبهة في عيسى ، لأن آدم جاء من غير ذكورة ولا أنوثة ، فلا أب له ولا أم له ، لقد قال القرآن بمنتهى البساطة ومنتهى لوسع :

﴿إِذْ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَتَلِ ٱدَّمَ ٱخْلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة آل عمران)

ولا يملك أحد القيد على فضل الله ووسعه ، ومسألة آدم كانت أدق ، لكن الله بتفضله يساوى بين خلق عيسى وخلق آدم ، وهذا هو التلطف في الجدل . وأخبرنا سبحانه عن عيسى أنه جاء بأمر منه ، وقال في آدم :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

إذن فآدم قد احتاج إلى الأمرين نفسيهما : «كن» و«نفخ فيه من الروح» ، وعندما ننظر إلى هذه المسألة نجد أننا لا بد أن نتعرض لقضية خلق آدم ، حتى نعرف كيف تسلسلت مسألة الخلق ، سواء أكان الخلق ملائكة أم خلق آدم أم خلق حواء أم غيرهم من الخلق ، كذلك خلق عيسى . لقد كان خلق آدم غيباً عن آدم ، وليس لأدم نفسه ولا لمن جاء بعده أن يتكلم كيف خلق ؛ لأن هذه مسألة لا تدخل لأحد بها ، ويقول لنا الحق محذراً من أن نستمع إلى قوم يقولون بغير ذلك عن الخلق فقال :

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ

عَصْدًا ﴿٥٧﴾﴾

(سورة الكهف)

ولا يمكن - إذن - أن نستمع إلى هؤلاء الذين افترضوا أن أصل الإنسان قرد أو غير ذلك ؛ لأن الذى يتكلم عن الخلق بغير علم من عند الله ، فهو يتكلم في أمر لم يشهده . والخلق الأول أمر لا يمكن أن يدخل المعمل التجريبي ، لأن المعمل التجريبي إنما يحلل مواد موجودة بالفعل . إذن فالحكم على أمور بغير ما أخبرنا بها الله أمر باطل . ولم يكن هناك أحد مع الله ساعة خلق الخلق ليقول لنا كيف تم ذلك . وعلمنا هذه المسائل بإخبار الخالق لنا فهو الأعلم بنا ، والخالق أخبرنا أنه خلقنا من ماء وتراب وطين وحما مسنون وصلصال كالفضار ، وحدثنا بذلك في آيات متعددة . والذين يريدون أن يكذبوا القرآن يقولون : إن القرآن لم يأت بخبر واحد عن خلق

الخلق ، فمرة يقول إن الخلق كان من ماء ومرة كان من تراب ، ومرة كان من طين ، ومرة كان من صلصال .

ونقول : أحين يتكلم الحق عن مراحل الخلق فهل في هذا تضاد ؟ أصل الخلق ماء ، خلطه الحق بتراب ، وبعد وضع الماء على التراب صار الإنسان طيناً ، ثم إذا تركنا الطين إلى أن يجتمهر ، يصير حماً مسنوناً ، وبعد ذلك يصير صلصالاً ، ومن بعد ذلك خلق منه الحق آدم . إذن فكل شيء تكلم عنه سبحانه في خلق آدم إنما يتفق مع كل الآيات التي جاءت عن هذا الخلق . وهو القائل عن آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وبعد صنع الله القلب الذي يشبه التمثال الذي نراه ، ولكن ننقصه الحركة بالحياة ، فيأتي النفخ في الروح بكلمة « كن » . إذن نحن نحتاج إلى روح وإلى كلمة . والروح عنصر وجودي . وعندما تختلط بالقلب تحدث الحياة ، ولا بد من حد ذلك من الإرادة بكلمة « كن » . ولذلك نجد الإنسان قد يصنع نفس خلطة لإنسان الكيافية لكنها لا تصير إنساناً ، لأن الأمر ينقص الإذن بميلاد الإنسان .

وساعة يتكلم الحق عن خلق آدم وهو أمر لم نشهده ، فذلك من رحمة بنا ، يترك لنا سبحانه في الكون دليلاً على صدقه عن خلق آدم ، فإذا كنا لم نشهد خلق الحياة فنحن نشهد نفيض الحياة وهو الموت ، الذي يحدث فيه أولاً خروج الروح ، من بعد ذلك ينتفخ الجسم كأنه الحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء ، وبعد ذلك يتحلل إلى تراب . هذه هي مراحل الموت التي تبدأ من خروج الروح ويتصلب الجسم إلى أن يبرم ثم يتبخر الماء ، وتبقى العناصر في الأرض .

وإذا كنا لم نعرف كيف بدأت الحياة ، فنحن نعرف كيف انتهت الحياة أمامنا الأمر المشهدي ، وجعل سبحانه أمر انتهاء الحياة أمامنا دليلاً على صدقه في إخبارنا الحياة وكيف بدأت ، لأن نقض الحياة يكون بالموت ، ونقض أي شيء إنما يتم على عكس طريقة بئانه . وآخر أمر دخل في الإنسان هو الروح ، ولذلك فهي أول ما يخرج من الإنسان عند الموت . وبعد ذلك يتصلب الجسم ، وبعد ذلك يصير رمة هي الحمأ المسنون . وبعد ذلك يتبخر الماء ويبقى أخيراً التراب .

وقد حللوا الإنسان حديثاً . فوجدوا فيه عناصر كثيرة ، ثم حللوا طينة الأرض الخصبة التي يخرج منها الزرع الذي يقات منه الإنسان ، فوجدوا هذه الطينة مكونة من هذه العناصر .

ومن العجيب أن العناصر المكونة للإنسان هي نفسها المكونة لطين التربة الخصبة ، مما يدل على تأكيد الصديق في أن الله خلقنا من طين ، وجعل استبقاء حياتنا مما يخرج من هذا الطين بعناصره المختلفة ، حتى يمد كل عنصر من الطين كل عنصر من الوجود الإنساني . ولما قاموا بتحليل الإنسان مقلوناً بتحليل التربة وجدوا أن أضخم عنصر في تكوين الإنسان هو الأوكسجين ونسبته على ما أذكر سبع وستون بالمائة ، وبعده عنصر الكربون ، ونسبته على ما أذكر تسع عشرة بالمائة ، إلى أن تنتهي العناصر المكونة للإنسان والتربة إلى المنجنيز ونسبته ثقل عن واحدة بالمائة ، وأهم هذه العناصر هو :

الأوكسجين ، الكربون ، الهيدروجين ، النتروجين ، الكلور ، الكبريت ، الكالسيوم ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، الصوديوم ، الحديد ، اليود ، والسيلوز ، والمنجنيز . هذه هي أهم وأكثر العناصر المكونة لتركيب الإنسان وهي العناصر نفسها الموجودة في تركيبة الطين وبعضها عناصر مكونة للمركبات العضوية وبعضها عناصر غير عضوية وبعضها عناصر وظائفها ثابتة ومعروفة . ويسأل أهل الذكر في تفاصيل ذلك .

وبطبيعة الحال فالذين قاموا بتحليل التربة وعناصر الإنسان لم يكونوا علماء دين ، ولم يكن في باهم إقامة الدليل على صدق الله في القرآن ، ذلك أن بعضهم يجهل مسألة القرآن كلها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أجرى على لسان رسوله حديثاً يشرح لنا حقيقة إثبات صحة كل ما فيه ولو جاء على لسان رجل فاجر ، فقد قال رسول الله صل الله عليه وسلم :

(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) (١) .

فسبحانه - إذن - أراد أن ينصر الدين بالكافرين ، وجعل بعضاً منهم يصلون إلى أشياء لو أنهم علموا أنها ستخدم قضايا الهدى لما أعلنوها . ومن حكمة الله أن جعل الكافرين غير قادرين على إغفال نصرة الدين ، وجعل سبحانه بعضاً منهم يخدمون

(١) رواه البخاري في الجهاد والفقر ، ورواه مسلم في الإيمان ورواه أحمد ، والدارمي في السيرة .

الدين على رغم أنوفهم . ونريد أن نأخذ من هذه المسألة فهماً عميقاً ، يتسم باللطف والسياسة ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان الأول من طين ، وهناك آية أخرى قال عنها الحق :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وآية ثالثة قال فيها سبحانه :

﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

إذن فخلق آدم احتاج إلى أمرين : النفخ من روح الحق ، والأمر « كن » ، وهما الأمران أنفسهما في مسألة خلق عيسى ، روح من الحق ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم ، وهذه دليل صدق لقوله الحق :

﴿ إِنْ مَثَلْ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة آل عمران)

والحق قد قص لنا أنه خلق آدم من طين وصنع القالب وسواه بيديه :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُا بَلَيْسُ مَا مَتَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنْ

الْعَالِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة ص)

فإذا كان الهيكل الذي خلقه الله ونفخ فيه الروح ، ودبت فيه الحياة ثم تناسل النسل من آدم إلى أن تقوم الساعة ، فهل عجز عيسى على الصورة التي جاء بها يكون أمراً عسيراً على الله ؟ لا . وساعة أنجب آدم أول ذرية له ، ألم يخرج لحظتها حيوان منوى من آدم إلى البويضة في رحم حواء ، وأراد به الله ميلاد أول نسل من آدم وهو جزء من آدم ، وهذا الحيوان المنوى له مادة وله حياة ، ومادته معروفة ، وحياة هذا الحيوان المنوى هي التي تسمح له بالحركة لتلقيح البويضة ، هذه المادة مخلوقة من آدم ، والحياة التي فيه من روح آدم ، وآدم نفسه خلقه الله بيديه ، وهذا إثبات أن الحيوان المنوى هو جزء مما خلقه الله بيديه وهو آدم ، وفي الحيوان المنوى حياة مما نفخه

الله من روحه ، وانتقل إلى رحم حواء وأخصب البويضة وولدت حواء ، واستمر ميلاد حيوانات منوية حية تخصب بويضات حية ليستمر الخصب والنسل والأحفاد .

إننا إذا سلسلنا نسل آدم إلى أن تقوم الساعة ، فكل ذرة من ذرات من يوجد آخر الدنيا مكونة من شيء به خلق من خلق الله في القالب ، وفيه شيء من نفخ الله في الروح ، ولم يطرأ عليه موت أبداً ، فلو طرأ عليه موت أو فناء لما صلح أن ينجب مثله . وهكذا نعلم أن كل واحد فيها به جزء من القالب الذي صنعه الله بيديه ، وفيه جزء من نفخ الروح .

وأكرر المثل الذي أضربه دائماً ليستقر في أذهان الناشئة ، لو جئنا يستيمتر مكعب من سائل ملون مركز ، وأضفناه إلى لتر من الماء ، ثم أخذنا قطرة من لتر الماء سنجد بها جزءاً ضئيلاً من الستيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا هذه القطرة وأضفناها إلى برميل من المياه فيصير في البرميل جزء من الستيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا من البرميل قطرة من المياه ، وأضفناها إلى البحر فإن جزءاً من الستيمتر الملون يصير بالبحر . إذن فكل نسل آدم - إلى أن تقوم الساعة - فيه جُزْءٌ - من آدم عليه السلام .

ونلاحظ أن كثيراً من المفكرين والمثقفين في الغرب صاروا يتعدلون عن فكرة بنوة عيسى لله . وعندما يدخلون في نقاش حول هذه المسألة يقولون: إنها بنوة حب . وإذا كانت المسألة بنوة حب ، فالله يحب جميع عباده ونصير نحن مثل المسيح ونصير المسيح مثلاً . فالخلق كلهم عيال الله ، والحديث القدسي يقول :
(الناس كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم بعياله)^(١) .

ولو أخذنا هذا القول بالدقة التجريبية العملية نجد أن هذا القول صدق وحق ، لأننا جميعاً قد صدرنا عن قدرة الله وإرادته وكل منا فيه شيء من صنع الله منذ بداية خلق آدم ، إذن هو بشر مثلنا ويتميز عنا بأن السماء اختلته رسولا . أما القول بالثالوث . فبعضهم يقول : نقصد بالثالوث ثالوث الصفات . وهل ثالوث الصفات

(١) رواه ابن عدي عن ابن مسعود . ورواه مسلم في المعتقد .

تأى فيه إضافات ؟ . كالقول « بالآب والابن والروح القدس » ؟ لن يوجد أب إلا إذا وجد ابن ، ولن يوجد ابن إلا إذا وجد أب .

إننا نعلم أن هناك حقائق ثابتة وهناك حقائق إضافية ؛ فالإنسان يكون ابناً وأباً ، فهو ابن بالنسبة لوالده ، وهو أب بالنسبة لابنه ، وكل هذه صفات إضافية ، وصفات الحق يُفترض فيها أنها تمنع لا أن تكون إضافية ، وعندما يقال : « الآب والابن والروح القدس » فهذا القول لا يحمل صفات إلهية ، بل صفات إضافية ، وحاول بعضهم أن يقول : « إن فاتحة الكتاب يوجد فيها التثليث » لأنكم تقولون بسم الله الرحمن الرحيم ، أنتم تفتحون القرآن بثلاث صفات هي الله والرحمن والرحيم « وقلت لهم : نحن نقول « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا نقول « بسم الله والرحمن والرحيم » .

وما الذى يحمل الحق يُنجب ابناً منذ أكثر من ألف وتسعمائة سنة ؟ . ثم يترك سبحانه الأزمان السابقة على ميلاد المسيح محرومة من ميلاد ابن له ؟ . لماذا يترك الله الأزمان كلها بدون ابن الله ، ويختص البشرية بابن له منذ حوالي عشرين قرناً فقط ؟ . ثم ما المدة الزمنية التى شرفها الله بابنه بأن أوجده فيها ؟

أتكنفى ثلاثة وثلاثون عاماً فقط - وهى عمر المسيح - لتشريف البشرية بوجود ابن الله ؟ . ولماذا يحرم الله - إذن - بقية الأزمان من يده الخليفة إلى يوم القيامة من هذا الشرف ؟ .

ونسأل أيضاً لماذا يريد أى كائن إنجاب ابن ؟ . إنه يرغب ذلك ليضمن استبقاء الحياة ؛ لأن الإنسان يعرف أنه سيموت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة وهو الباقى أبداً ، وليس فى حاجة لاستبقاء حياته فى أحد من البشر . ويؤكد لنا ذلك فى سورة الإخلاص .

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

وهم يقولون: «إله واحد» ، ومرة أخرى يقولون: «إله أحد» . وواحد لا تساوي «أحد» والدارسون للغة والمنطق يعرفون أن هناك شيئاً اسمه «الكل» وشيئاً اسمه «الجزء» وشيئاً اسمه «الكل» وشيئاً اسمه «الجزئي» .

«فالكل» يطلق على ماله أفراد مثل الإنسان : كخالد وعبد وعلي ، «والكل» يطلق على ماله أجزاء ، مثال ذلك الكرسي نجده مكوناً من أشياء : كالخشب والفراء والمسامير وغير ذلك من مواد . فالكرسي - إذن - «كل» لأنه مصنوع من مواد كثيرة . وحقيقة الخشب تختلف عن حقيقة المسامير ؛ لذلك فالكرسي «كل» لأنه مكون من أشياء كثيرة مختلفة الحقائق . ولا يصح أن نطلق على أي شيء من مكونات الكرسي اسم «كل» . فلا نقول: «المسامير كرمي» أو «الخشب كرمي» ؛ لأن الكرسي يطلق على مجموع الخشب والمسامير والفراء والطلاء في شكل وترتيب معين .

ومثال آخر ، كلمة «إنسان» وهي كلمة تطلق على كثيرين ، ولأن الحقائق متفقة نطلق على الإنسان كلمة «كل» .

ويصح أن نطلق على أي كائن يتمتع بالصفات المتفق عليها للإنسان لقب إنسان ، فنقول محمد إنسان وزيد إنسان ، وعلي إنسان . «فالكل» له أجزاء ، ولله كل جزئيات ، ويكون الكل شيئاً واحداً ولكنه ذو أجزاء ، فقد يكون عندنا كرسي واحد . ولكن لهذا الكرسي أجزاء .

وهل نقول على الحق سبحانه وتعالى: إنه «كل» أو «كلى» ؟ لا نقول على اسم الحق «كل» أو «كلى» ؛ لأنه اسم لا يطلق على كثيرين فليس كلياً لأنه واحد ، وليس له أجزاء ؛ لأنه أحد ، وليس له أفراد لأنه واحد . فلا يقال لله سبحانه وتعالى «كل» أو «جزء» أو «كلى» أو «جزئي» ، فلو كان كلياً لكان - كما قلنا - له أفراد ولو كان «كلاً» لكان له أجزاء ، ولكن الله واحد لا أفراد له ، وأحد لا أجزاء له .

ولذلك يرد القرآن على أي قائل بغير هذا ، فيقول :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

ويقول أيضاً :

﴿وَاتَّهَكُّرْ بِكَ وَحْدٌ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وقد قلت كل ذلك لفهم قوله الحق :

﴿يَتَّهَلَّ السَّكَنِبُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْنَاهُ الْقُدْسَ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنَّا فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرًا﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وقوله الحق: « انتهوا » أى انقصوا على كلمات الباطل ، وه خيراً لكم ، أى تمسكوا بكلمات الحق ، وفي قوله: « انتهوا خيراً لكم » تحلية وإبعاد لكلمات الباطل ، تأخذ لك من قوله : (انتهوا) وتحلية لكلمات الحق وتأخذها من قوله - سبحانه - : خيراً لكم) .

ويقول الحق : « إنما الله إله واحد » أى أنه سبحانه لا أفراد له ، ويضيف : سبحانه أن يكون له ولد ، وصاعه نسمع كلمة « سبحانه » فلنفهم أنها تنزيه ذات الخالقة .

ولذلك نجد كلمة « سبحانه » تأتي في الأمور العجيبة التي يقف فيها العقل ، بل الرغم من وجود كفار في هذا الوجود ، وعلى الرغم من وجود مجترئين على الله في العالم ، وعلى الرغم من وجود من يعتنق البشر بالفاظ الألوهية ، إلا أن إنساناً حذراً لم يجترأ على أن يقول لمخلوق كلمة: « سبحانه » ، ولذلك نقول لله عز وجل سبحانه أيضاً في سبحانهك . كذلك لم نجد أحداً من أى ملة أو عقيدة أو دين قد سمى نفسه باسم « الله » ، وهو سبحانه يتحدى به حتى الكفرة والملاحدة أن يسمى . الاسم لسمى أى مسمى . وبالله هل يوجد واحد من المتبجحون الكافرين حتى أبنا له « الله » ؟ .

حتى هذه لم توجد ؛ لأن هذا الكافر غير واثق أنه على حق . ومن الجائز أن يفعل ذلك فتحدث له كارثة . ولو كان هناك كافر واحد مؤمن بما يقول بأنه لا إله لهذا الكون لسمى ابناً له « الله » . لكن أحداً لا يجترىء على هذه :

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وكان هذا التحدى موجوداً من قبل أن تنزل هذه الآية . فهاذا عن الذي جاء بعدها بزمين ؟ وهل اجتراً أحد على أن يسمى ابناً له « الله » ؟ لم يجترىء أحد على هذه أيضاً على الرغم من أنهم يسمون بكل شيء ؛ وكان عندنا في القرية واحد أطلق على ابنته اسماً طويلاً عجيباً . لقد سمّاها « ورد انتشى في دندشة روح الفؤاد والملك وفا » وهو حرّ في ذلك ، لكن لم يجزؤ أحد على الإطلاق أن يسمى ابنه « الله » ، وهذا دليل على أن الملاحدة والكفار على باطل . ويخاف أي منهم أن يجترىء على هذه المسألة ، ويتحدى الحق بسبحانك ويتحدى بالذات « الله » ، ولذلك فليقل كل واحد « سبحانك » وهو مطمئن ، « ولا تقال إلا لك » واستقرتوا وتتبعوا المدائح التي قيلت للناس جميعاً ، أقال واحد من البشر لواحد من البشر « سبحانك » ؟

ما قالها أحد قط . وهكذا يتحكم الله في أمر الإنسان اختيار فيه ، ولا يجزؤ إنسان على إطلاق هذه الأسماء على أحد من البشر . « إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض » و « الولد » كما نعلم يكون بما في السموات أو بما في الأرض ؛ فكيف يكون له وملكه ، وهو ابنه ؟ إن هذا الادعاء لا يستقيم أبداً ، ولذلك يذيل الحق الآية : « وكفى بالله وكبلاً » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا

لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ

عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٦﴾

مصدر الشرف للإنسان أن يحس ويشعر بتجل الله عليه بعبوديته له ، وسبحانه عندما أراد أن يتجل على نبينا الخاتم صلى الله عليه وسلم ويسرى به إلى المسجد الأقصى ؛ قال :

﴿ سَبَّحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

ولم يقل : « سبحان الذي أسرى برسوله » ولكنه قال : « سبحان الذي أسرى بعبده » ؛ لأن « العبودية » عطية علوى من الله « فكان سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عندما تنهى في العبودية لله نال تنهى الخير ، فمن إذن يستنكف أن يكون عبداً لله ؟ لا يستنكف المسيح ذلك ؛ وكذلك الملائكة لا تستنكف أن تكون عبيداً لله . « ولا الملائكة المقربون » ويسمون ذلك ارتقاء في النفس ، مثلما يقول فلاح : لا يستطيع شيخ الحفر أن يقف أمامي ولا العملة .

إذن فالملائكة في الخلق أحسن من البشر . ولذلك قال الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال بعض العلماء : إن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ، وخواص الملائكة أفضل من خواص البشر والأصل في اللغات أن توضع الألفاظ أولاً لمحتات ، ثم تنتقل من المحتات إلى المعنويات ؛ لأن إلف الإنسان في أول تكوين المدركات له إنما يكون بالحس ، كما قال الحق :

﴿ وَأَلَّهْ أَنْتَرَجَكُم مِّنْ بَطُونٍ أَمْهَتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْهَادَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(سورة النحل)

إذن مادام سبحانه قد قال : « لا تعلمون شيئاً » فاللهي يأتي من بعدها إنما يأتي بواسطة للعلم ، وهي حواس السمع والبصير والقدرة على تكوين الخبرة . ومثال لك عندما ندرس في الفقه موضوع الغصب . والغصب هو أن يأخذ أحد حق غيره هراً وعلائية ، وهو غير السرقة التي يأخذها السارق خفية . وغير الخطف ؛ لأن الخطف هو أن تمتد يد لتشد شيئاً من أمام صاحبه ويجري الخاطف بعيداً ، أما لغصب فهو الأخذ عنوة .

وكلها - الغصب ، والسرقه ، والخطف - هي أخذ لغير الحق . والغصب مأخوذ من أمر حسيّ هو سلخ الجلد عن الشاة . وسُمّي أخذ الحق من صاحبه غصباً ، كأنه أخذ للجلد . ونقل المعنى من المحسّات إلى المعنويات . وفي الآية التي نحن بصددنا يقول الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » . « يستنكف » مثلها مثل « يستفهم » ، ومثل « يستخرج » .

إذن فهناك مادة اسمها « نكف » ، و« النكف » عملية حسية تتمثل في أن يزيل الإنسان دعة العين بأصبعه . ولنفرض أن إنساناً يعلم أن له كرامة في البيت وجاء له ظرف نفسى جعله يبكى ، فدخل عليه ابنه أو زوجته ، فهو يحاول إزالة الدمع بأصبعه . « واستنكف » معناها أزال « النكف » . والنكف معناه أن يزيل الدمع بأصبعه . وإزالة الدمع بالأصبع تعنى أن صاحب الدمع يستكبر أن يراه أحد باكياً لأنه مفهور على أمر قد كان ، وهذه العملية لا تحدث إلا عندما يريد الإنسان أن يستر بكاؤه عن أحد .

وانتقلت هذه الكلمة من المعنى الحسى إلى أى مجال فيه استعلاء ، مثلما يستنكف إنسان أن يسير في طريق إنسان آخر ، أو أن يجلس مع آخر ، أو يجلس في مقعد أقل من مقعد آخر .

ويشرح ذلك المعنى الدارج بأن المسيح لا يجد غضاضة أن كان عبداً لله ، ولا يستكبر على ذلك بل هو يُشرف به . والملائكة المقربون أيضاً تشرف بهذا الأمر ، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم وليس لهم عمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله . وهى عبودية ليست لمن يستل ، لكنها لمن يُعزّز ، وليست عبودية للذى يأخذ ولكنها للذى يعطى . والذى يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون .

ويضيف الحق : « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، المستكفون ؛ أو الذين على طريقة الاستكاف ، ومن يشجعهم على ذلك ؛ كل هؤلاء يصيرون إلى جهنم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فِيَوِّفُهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا
الَّذِينَ اسْتَنَكَفُوا ءَسْتَكْبُرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ۝٧٢﴾

لماذا لم يأت الله بشرط الآية الثاني الذي يتحدث عن المستكفين والمستكبرين مقدم
على شطر الآية الأول ؟ . ولماذا لم يواصل الحديث عن الذين استنكفوا واستكبروا
ليستكمل ما جاء بشأنهم في الآية السابقة ويبين كيف أن مصيرهم إلى العذاب حيث
لا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ثم بعد ذلك يتحدث عن الذين آمنوا وعملوا
الصالحات ؟ .

ذلك أن الحق ساعة يتكلم عن جماعة خرجت عن المنهج فهو لا يمنحهم ثواب هؤلاء
الذين لم يخرجوا عن المنهج ، فيأتي أولاً بثواب الطائمين ليستشرف إليه الخارجون عن
طاعة الله ، ثم يحرمهم من هذا الثواب لتكون حسرة الخارجين عن المنهج أشد .
« والخذ بظهر حسنه الخذ » .

لقد قال الحق : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيؤفهم أجورهم ويزيدهم
من فضله » ونعلم أن الأجر على العمل . لماذا الفضل إذن ؟ . لقد عرفنا من قبل أن
العمل جاء فيه حديث شريف :

(لن يدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن
يتخلفني الله بفضله ورحمة ، فسدقوا وقاربوا ولا يمتنين أحدكم الموت ، إما محسباً

فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعيب ^(١) .

والحق قد قال :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

وفطن الناس إلى ذلك فقالوا : « اللهم بالفضل لا بالعدل » ؛ لأن الفضل هو الذى يعطينا المنازل المتميزة ، وقد يضيعنا العدل .

ويقول الحق مرة أخرى عن هؤلاء الذين استكفوا واستكبروا : « وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيمذهبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » أى أنهم لن يجدوا من يشفع لهم عند الله ، ولا من ينصرهم ولا أحد بقادر أن يرد عنهم العذاب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرَهُنَّ مِنْ رَبِّكُنَّ وَأَنْزَلْنَا

إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴿١٧٤﴾

والبرهان هو الإعجاز الدال على صدق المبلغ الأخير عن الله ، وهو الحجة الدامغة .

وقد يقول قائل : ما هو البرهان وما هو النور ؟ . ونعلم أن كل رسول يأتي بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن ربه قد تكون المعجزة بعيدة عن المنهج ، ثم يعطيهم الرسول المنهج ببلاغ من الله ؛ مثال ذلك أن معجزة سيدنا موسى كانت العصا لكن منهجه هو التوراة . إذن فالمعجزة هي البرهان على صدق الرسول فيها بلغ عن ربه ، وقد

(١) رواه البخارى في كتاب الطب . والرفاق . ومسلم في المنافقين ، وابن ماجه في الزهد والدارمى في الرقاق ،

لا يكون للمعجزة صلة بالمنهج ، فعمى عليه السلام كانت معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل .

أما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو النبي الخاتم فقد تجلت معجزته في أنها عين منهجه ، إنها القرآن ولم تنفصل المعجزة عن المنهج ؛ لأنه رسول عام إلى الناس كافة وإلى أن تقوم الساعة . هذا هو البرهان . أما « النور » فقد جاء أيضاً من أمر حتى ، لأن النور يمنع الإنسان من أن يتعثر في مشيه أو أن يخطيء الطريق أو أن يصطدم بالأشياء فيؤذيها أو تؤذيها . إذن النور الموجود في القرآن هو حقائق القيم ، أما نور الله في الماديات فهو أمر معروف للكافة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَءَاْتَصَمُوا بِهِ ۖ

فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

لقد آمنوا بالله واعتصموا به ، ما معنى الاعتصام ؟ . قدماً كان الرجل عندما يقع في هوة يصرخ ليجذبه إنسان خارج الهوة بيده ، وهذا هو الأصل في الاعتصام ، أي يستمسك الإنسان بمن ينقذه من هاوية أو كارثة ، والحق يعطى الأسباب ، فإذا جاءت الشمس وسار فيها إنسان فقد أعطاه الله الشجرة ليستظل بها . وإذا ما نزل المطر فيمكن أن نستتر منه بمظلة ، وإذا عطش إنسان فالله يعطيه ميباً ليأخذ كوب ماء ، والعاقل هو الذي يذكر عند كل سبب من أوجد السبب .

فلياك أيها المؤمن أن تغتر بالأسباب ؛ لأن عدم الاغترار بالأسباب يحمي الإنسان . فعندما تأتيه أمور في ظاهرها شر ، فإدام مجربها عليك هو الله فهي خير بالتأكيد ، لكنك لا تعلم .

وما أضل علم الإنسان في كثير من المسائل ؛ فالإنسان قد يحسب أمراً أنه هو الحسن ، فيظهر له بعد حين أنه السوء ، وقد يعتبر إنساناً أمراً هو السيء ، فيظهر له بعد حين أنه الحسن ، ولا يوجد واحد منا إلا وفي حياته أشياء كان يظنها خيراً ؛ فإذا بها شر ، أو كان يظنها شراً فإذا بها خير . والشر هو ما يأتيه الإنسان لنفسه بعمله ، أما الأمور التي تقع على الإنسان فحكمتها تمشي على مقتضى علم الله لا على مقتضى هوى البشر .

إننا نجد من يقول : إنني أدعو الله بكذا ولا يستجيب لي . ونقول : إنك تدعو بأشياء تظنها الخير لك ؛ لكن الله يعلم أن هذه الأشياء ليست هي الخير ؛ لذلك لا يعطيها لك ، فإن كنت مؤمناً بالله ومعتصماً به فأنت تهمس لنفسك : ألي في هذا الأمر مدخل أم لا مدخل لي فيه ؟ فإذا كان لك فيه مدخل فاللوم على نفسك . وإن كان الله قد أجراه عليك فهو خير لك والله حكمة في ذلك .

وَحَظَى مِنَ الدُّنْيَا سِوَاءَ لَانْفِي
رَضِيتُ بِحُكْمِ اللَّهِ فِي الْعَمْرِ وَالْيَمْرِ
فَإِنْ أَقْبَلْتُ كَانَ الْجَزَاءُ عَلَى النَّجَا
وَإِنْ أَدْبَرْتُ كَانَ الْجَزَاءُ عَلَى الْعَصْرِ

« فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » . وما داموا قد آمنوا بالله واعتصموا به فسيهديهم صراطه المستقيم ، وعاقبة الهداية وثمرتها فسرهما وبينها قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۚ ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

وقال لنا الرسول صلى الله عليه وسلم :

(من عمل بما علم ورثه الله علماً ما لم يعلم) (١) .

أي يصير مأموناً على العلم ؛ لأن العلم الذي أخذه عن الله وظفه في خدمة غيره ،

(١) أبو ميم في الحلية ، تحاف السادة المحققين للزبيدي ، ورواه السيوطي في الدر المنثور والقرطبي في التفسير ، والفوائد المجموعة للشركاني .

ولم يدخره أو يعطله . ويختتم الحق سبحانه وتعالى سورة النساء بقوله :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَلَةِ
 إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ
 مَا تَرَكَ وَهِيَ بَرِئَةٌ مِّنْهُ إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا
 أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً
 رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ
 اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ ۝١٧٦﴾

والاستفتاء هو طلب الفتيا . ومعناها إرادة معرفة حكم شرعى لله فى أمر لا يجد السائل علماً له فيه . وكان الصحابة يستفتون رسول الله ، مع أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم :

(فزوروا ما تركتكم فلما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)^(١) .

وجاء القرآن فى كثير من الآيات بـ « يسألونك » . كان الحق يعلمنا أن الصحابة أرادوا أن يشتوا أنهم أحبوا منهج الله فأرادوا أن يبنوا حياتهم كلها على منهج الله ، ولو كانوا قد كرهوا منهج الله لما سألوا ، لقد وجدوا أن الإسلام قد جاء ، ووجدوا أشياء فى

١ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَمُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

الجاهلية وأقرها ، ووجد أشياء قام بتغييرها ؛ ولم يرد الصحابة أن يصنعوا الأشياء على أنها امتداد لصنع الجاهلية ، بل أرادوا أن يصنعوها على أنها حكم للإسلام ؛ لذلك جاءت أسئلتهم الكثيرة . والفتوى تكون في حكم . والسؤال يكون في حكم وفي غير حكم . وهم يطلبون الفتوى في الكلالة ، ودقة القرآن في إيجاز السؤال : « يستفتونك قل الله بفتيكم في الكلالة » وقد تقدم من قبل الحديث عن الكلالة :

﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إلا أن الذي تقدم هناك كان عن الصلة من ناحية الأم ، وسؤال جابر بن عبدالله كان عن الصلة من ناحية الأب .

فعن جابر بن عبدالله - رضي الله عنه - قال :

(مرضت مرضاً فأتاني النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وهما ماشيان فوجداني أغشى على ، فتوضأ النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم صبّ وضوءه عليّ فأفقت فإذا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقلت يا رسول الله كيف أصنع في مالي ؟ كيف أقضي في مالي ؟ فلم يجبني بشيء حتى نزلت آية الميراث ^(١) .

وفي رواية أخرى عن الإمام أحمد فقلت : إنه لا يرثني إلا كلالة ، فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض . وبعض العلماء قال : إن كلمة « كلالة » مأخوذة من كلال التعب ، لأن الكلالة في الشرع هو من ليس له ولد ولا والد ، والإنسان بين حياتين ؛ حياة يعولها والد ، وعندما يكبر ويضعف تصير حياته يعولها ولد ؛ لذلك فالذي ليس له والد ولا ولد يعيش مرهقاً ؛ فليس له والد سبق بالرعاية ، وليس له ولد يحمله في الكبر ؛ لذا سمي بالكلالة .

وبعضهم قال : إنها من الإكليل ؛ أي التاج . وهو محيط بالرأس من جوانبه والمقصود به الأقارب المحيطون بالإنسان وليس لهم به صلة أعلى أي من الآباء ، أو من أدنى أي من الأبناء .

« إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » أى إن الكلالة هي أن يموت أحد وله أخت شقيقة أو أخت من أب فهي ترث النصف ، وإذا ماتت هذه الأخت فالأخ يرثها سواء أكان شقيقاً أم أخاً لأب . وإن ترك الرجل الكلال أختين أو أكثر فلها الثلثان مما ترك ذلك الأخ . وإن كان له إخوة من رجال ونساء ، فهذا قول الحق : « وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين » . أى أن للذكر من الإخوة مثل حظ الأنثيين .

ويختتم الحق الآية : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم » .

أى أنه الحق يبين أحكامه خشية أن يصيب القوم الضلال . وقد علم سبحانه أولاً بكل سلوك ، وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً . وبذلك انتهينا بعون الله من خواطرنا في سورة النساء .



سُورَةُ الْمُنَافِقَةِ

نستقبل الآن سورة المائدة التي تلى سورة النساء في الترتيب المصحف . ونعلم أن القرآن له ترتيبان ؛ ترتيب نزول ، وترتيب مصحف . وربما يحلو لبعض الناس الذين يحاولون أن يأخذوا على الإسلام شيئاً أن يقولوا : لماذا لم يرتب القرآن حسب نزوله بحيث يبدأ بأول آية نزلت منه ، وينتهي بأخر آية نزلت فيه ؟

ونقول : نزل القرآن لا كتاب منهج فقط ، لكنه منهج ومعجزة ، ورسالة صلى الله عليه وسلم جامعة لجميع الأمم في جميع العصور إلى أن تقوم الساعة ؛ لأنها جامعة ومانعة فلن يأتي بعد الرسول رسول ؛ لذلك ينفرد صلى الله عليه وسلم بمعجزة تبقى بقاء رسالته إلى أن تقوم الساعة ، وبمنهج يغطي كل أفضية الحياة إلى أن تقوم الساعة .

وكان الرسل يرسلون إلى أمم مخصوصة في أمكنة مخصوصة لزمان مخصوص ؛ لأن العالم كان في شبه انعزال لعدم وجود الآلات التي تيسر الالتقاء بين الناس ، وشاء الله سبحانه أن يختم الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لتكون على موعد مع رشد العقل البشري في أن يجعل العالم كله وحدة بحيث إن ظهر داء في الشرق فهو ينتقل إلى الغرب في الوقت نفسه ولذلك يجب أن يكون العلاج والمعالج واحداً .

أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فقد انفرد بمعجزة تبقى ، وتظل موجودة مع المنهج ، ليستطيع كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : منهج الإسلام هو القرآن ومعجزة نبي الإسلام هي القرآن ، لكن لو جاءت المعجزة على طبيعة وطريقة ونمط المعجزات السابقة لإخوانه السابقين من الرسل لانتهت بانتهاء زمانها بحيث تصبح خبراً وتاريخاً ، ونحن نعلم أن البحر قد انشق لموسى نعرفه خبراً ولكن لم نشهده مشهداً ، ونعرف أن عيسى عليه السلام أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله ، ولكننا لا نرى ذلك الآن إلا خبراً ، ولولا أننا نؤمن بالقرآن ، وهو الذي قصّ علينا مثل هذه الأمور ربما كنا نتوقف فيها .

والذين يقولون إن الإعجاز كان للبلاغة والفصاحة والمنطق والبيان وأمة العرب أمة بيان نقول : لقد فاقت هذه المعجزة ما كان لدى العرب من بلاغة وفصاحة وأعجزهم وأفهمهم القرآن ، وعندما نقلنا المنهج إلى الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان أو إلى الإيطاليين أو إلى أية أمة من العالم ظل المنهج على إعجازه .

وهكذا نرى أن الله قد أراد أن يكون في القرآن جانب يظل معجزاً لكل الأقوام ، وهي المعجزات التي لا تختلف فيها اللغات ولا تختلف فيها الأمم ، وهي المعجزات العقلية ، بمعنى أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته الأمة ، وهو الأمي ، يُعرف له نشاط في علم ولا نشاط في ثقافة ؛ ويأتى بأشياء تتحقق بعد مضي القرون ويعترف بها الذين لا يؤمنون بأنه جاء بها من عند الله .

لقد حاول بعضهم أن يرفعوا محمداً إلى مرتبة الألوهية ؛ ذلك أنه قال بأشياء منها أربعة عشر قرناً وتحقق الآن ، لا يقولها إلا عالم بما يكون في كونه . ولكنهم عرفوا أن رسول الله أقر ببشريته . وينزل بالمنهج مواكبا للأحداث ، وينزل بالمعجزة في مسائل الكونيات التي تشترك فيها كل الأمم والتي لا تختص بلغة دون لغة .

نزل المنهج ليحكم العالم من أمة أمة ، لم ترق إلى وضع سنن قانون أو دستور واتعمد على ذلك . فقد كانت أمة من الرُّحُل وسكان الصحراء لم يجمعها قانون واحد ، بل كان لكل قبيلة قانون ، ولكل بطن قانون ، ولكل أسرة في كل بطن قانون . وجاء الرسول مبعوثاً من عند الله إلى الأمة الأمية لينشئ لها منهجاً يغطي كل أفضية الحياة إلى أن تقوم الساعة . وإذا ما فزع قوم من قضية من قضايا مجتمعاتهم لا يجدون حلاً لها إلا حلاً لو نظرنا نحن إليه لوجدنا أنه إما أن يتطابق مع ما جاء به الإسلام . وإما أنه لا يخرج عن إطار الإسلام وأحكامه .

وإذا كان القرآن في الأحكام قد جاء حسب الأحداث التي وقعت ، فهذا من إرادة الحق للخير بمن نزل فيهم القرآن . ونجد في القرآن أسئلة سينعرض لها رسول الله ، وكثرة الأسئلة التي تعرض لها رسول الله نعتبر من الظواهر الصحية في الإيمان ؛ لأذ الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان أحكام بأشياء . أرادوا - كم قلنا - إقامة حياتهم على ضوء المنهج الذي عشقوه ، ولم يكونوا كبنى إسرائيل الذين قال رسول الله في شأنهم :

(إنما أمروا بأذن بقره ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم ، وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد)^(١) .

أى لو لم يقولوا : (وإنا إن شاء الله ل مهتدون) . لما اهتدوا إلى تلك البقرة .

وهناك أشياء أقرها الإسلام كما كانت في الجاهلية لأنها أمور عقلية ومنطقية ؛ لأن الإسلام لم يأت ليزيل نظاماً عاصرها ، وإنما جاء ليزيل الفساد فقط . أما الصالح بطبيعته فليبق . وإن لم يكونوا قد اهتدوا إليه فالإسلام يشرح لهم الأمر ؛ لذلك كان لابد أن ينزل نص قرآن لكل أمر كبير في حياتهم ، وحين يحى النص القرآني بعد أن تتطلبه الأحداث ، يتمكن في القلوب . وضربنا مثلاً لذلك :

هب أن رجلاً لديه صندوق أدوية بالمنزل ، وطراً على بعض أهله حالة صحية تستدعى دواءً معيناً ؛ ولأن الرجل لا يعرف موضع هذا الدواء ، فإنه يبحث محتويات الصندوق جميعاً ليتهدى إلى الدواء المطلوب ، وقد يمضي وقت طويل ولا يتهدى إلى ما يريد . لكن لو أن هذا الرجل لا يملك أى دواء بالصندوق ، وأصاب ابنه صداع يسير فإنه يطلب أن يشتروا له قرصاً من الأسبرين من الصيدلية . فهذا القرص قد جاء لحالة الصداع وعلاجها وانتهى الأمر .

إذن فعندما يأتى الحبل عند وقوع الحادثة فهو تثبيت لليقين . وقد يكون الحل موجوداً في القرآن . لكنه يغيب عنهم ولا يستطيعون الوصول إليه . ولهذا ترك الحق الأحداث تجري وجعلهم يلتفتون ويتجهون إلى السبيل لتتجدد بهم بالحل . ويبقى الحل عند الحادثة فلا يصير في الأمر خلاف أو تعجب . لذلك كان لا بد أن يكون للقرآن نزول حسب الأحداث ، وحين تتم الأحداث ويتم المنهج بعد ثلاث وعشرين سنة من بدء نزول القرآن يشاء الله سبحانه أن يكون ترتيب القرآن ترتيباً مصحفياً .

إن كلا من الترتيب المصحفي والترتيب النزولي يعطى معجزة للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فيه سور طوال ، وآيات كثيرة ، ويعلمه جبريل : ألحق هذه الآية بالمكان الفلان . وقرأ النبي هذه الآيات في الصلاة ويزيد عليها الآيات الجديدة ، وتتجل عظمة الرسول حين يصل بالآيات ويزيد عليها بما نزل عليه ، وتلك مسألة مقصودة . ويقف رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة معتمداً على أن الذى أنزل عليه القرآن قال له :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾

(سورة الأعل)

وعندما يقرأ الرسول فهو يقرأ الذي نزل عليه في اليوم نفسه متصلاً بما نزل عليه من عام قبل ذلك ، وتلك معجزة بكل المقاييس ، لأن الفرد العادي إذا تكلم في موضوع ما لعشر دقائق ثم يسأله أى فرد من بعد ذلك بساعة : هل تسمح بإعادة ما كنت تقول منذ ساعة ؟ . فإنه لن يستطيع أن يتذكر بالحروف والمعاني ما قاله من قبل . لكن ها نحن أولاء أمام رسول يأمر صحابته أن يكتبوا ويأمر الحفاظين للقرآن أن يحفظوا ، ثم يقف في الصلاة ليقرأ الآية التي نزلت من عام ملحقة بآية نزلت بعدها بستة أشهر ملحقة بآية نزلت بعدها بشهر ، ملحقة بآية نزلت بعدها بالأمس . وكان هذا دليلاً على أن أمر هذا القرآن ليس بيد محمد ، بل بأمر رب محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى رتب حروف القرآن ليقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقاً لقوله الحق :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾

(سورة الأعل)

ويأتى جبريل كل عام ليرتب مع محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ويدارسه في رمضان . ويأتى جبريل في رمضان الأخير في العام الأخير من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرض عليه القرآن مرتين .

إذن فالمسألة ليست نزول قرآن فحسب ، ولكنها نزول للقرآن ثم ترتيب للقرآن على صورة تخالف الحالة والصورة التي نزل عليها . فلو كان القرآن قد ترتب حسب النزول ، لقال بعضهم إنه مجرد تعبير عن مواقف مختلفة . لكن الحق أراد أن يعيد ترتيب القرآن ليكون معجزة أبدية . فالقرآن ليس بأمر محمد صلى الله عليه وسلم . وكل حرف نزل بهذا الترتيب مقصود به إثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبلغ بالقرآن ، فما كان لعقل بشرى أن يرتب هذا الترتيب . بل رتبته الذى أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، إنه الله - سبحانه - وتعالى جل شأنه .

وهكذا جاءت سورة المائدة بعد سورة النساء في الترتيب المصحفى ، وعندما ننظر إلى « سورة المائدة » . نعلم أولاً ما معنى المائدة ؟ إنها الخوان عليه الطعام والشراب

أو الطعام نفسه ، وقد سميت بهذا الاسم لأن عيسى عليه السلام دَعَا رَبَّهُ أَنْ ينزل مائدة من السماء بعد أن ألح الخواريون عليه بأن ينزلها الله فقال سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام .

﴿ اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾

(من الآية : ١١٤ سورة المائدة)

ويختار الحق المناسبة الجميلة فيبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله :

﴿ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا اَوْفُوْا بِالْعُقُوْدِ اٰحَلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْاَنْعَمِ اِلَّا مَا يَتْلٰى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُّحِلِّ الصَّيْدِ وَاَنْتُمْ حُرُمٌ اِنَّ اللّٰهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيْدُ ۝۱ ﴾

البداية - إذن - عن ضرورة الوفاء بالعقود وتحليل تناول ببيعة الأنعام كطعام . وسورة المائدة - كما نعلم - جاءت في الترتيب المصحفي بعد سورة النساء التي تتضمن الكثير من العقود الإيمانية ؛ فقد تضمنت سورة النساء عقود الإنكاح والصدّاق والوصية والذّين والميراث ، وكلها أحكام لعقود . فكان الحق سبحانه وتعالى من بعد سورة النساء يقول لنا : لقد عرفتم ما في سورة النساء من عقود ، فحافظوا عليها وأوفوا بها .

ونلاحظ أن سورة البقرة جاءت بعدها سورة آل عمران ، وفي كليهما حديث عن الماديين من اليهود ، وسورة النساء والمائدة تواجه أيضاً المجتمع المدني بالمدينة بعد أن كان القرآن بمكة يواجه مسألة تربية وغرس العقيدة الإلهية الواحدة والنبوات . وقد خدمت سورة البقرة وسورة آل عمران مسألة العقيدة المنهجية والأنبياء ، وسورة النساء تتضمن حسم العقيدة الحكمية .

وها نحن أولاء أمام سورة المائدة التي يقول فيها الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا

بالعقود ، والحق يخاطب المؤمنين بالاسم الموصول ، ولم يقل : يا أيها المؤمنون ، وهذا يدل على أن الإيمان ليس أمراً عابراً يمر بالإنسان فترة من الزمن ، ولكن الإيمان أمر يتجدد بتجدد الفعل حتى ينفذ المؤمن الأحكام التي جاء بها العقد الإيمان . ونحن نتوجه الحق بخطابه للذين آمنوا ، إنما يؤكد لنا أنه لا يقتحم على أحد حياته ليكلفه ، وإن كان سبحانه كرب للعالمين قد خلق الخلق وأوجد الوجود وسخره للخلق .

الله - سبحانه وتعالى - لم يستخدم هذا الحق ليأمر البشر بالإيمان ، بل دعا الناس جميعاً أولاً إلى الإيمان ، فمن آمن ينزل إليه التشريف بالتكليف ويكون القول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من أمتتم بالله إلهاً . والإله لا بد له من صفات تناسب الألوهية ، كطلاقة القدرة والجله والحكمة والقهر . وسبحانه لا يكلف من لم يؤمن به ، بل يدعو من لم يؤمن إلى الإيمان ، ولذلك نجد أن كل آيات الأحكام تبدأ بالقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم » ، لأن لكل إيمان تبعه .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ونعرف أن اللغة بها أسرة ألفاظ ، فـ « أوفوا » على سبيل المثال فيها « وفى » . والمضارع هو « يوفى » ، وفى أفعالها « أوفى » و « وفى » ، حسب المراحل المختلفة قوة وضعفاً وكثرة وقلة ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (٧)

(سورة النجم)

وقد قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بالكثير من الإنجاز :

﴿ وَإِذْ أَتَىٰ لِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولا بد أن يكون قوله الحق : « وإبراهيم الذى وفى » شرحاً لما قام به إبراهيم من مواجهة الابتلاء ، فالتوفية هى الإتمام . والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » أى عليكم يا من أمتتم بالله أن تنموا العقود . والتهام إما أن ينطلق إلى الأفراد ويشملها فلا ينقص فرد ، وإما أن يلتصق إلى الكيفيات فلا تختل كيفية ، هذا هو التهام . وقد باتى إنسان بكل فصول الكتاب وقرأها ، فيكون قد وفى قراءة كل الأجزاء ، ولكن الحق يريد أن يتقن الإنسان تنفيذ كل جزئية فى كتاب التكليف .

وسبحانه طلب منا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن نقيم الصلاة وأن نؤتي الزكاة وأن نصوم رمضان وأن نحج البيت إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، وقد يؤدي شخص كل هذه الأفعال وبذلك يكون قد قام بأداء التكليف ، لكن هناك إنسان آخر يؤدي كل جزئية بتأملها فلا يختصر شيئاً منها بل إنه يوفيها بلا تدليس .

والحق هنا يخاطب المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » أي أننا أمام « إيمان » و« عقد » . وشرحنا معنى الإيمان ، أما العقد فهو العلاقة الموثقة بين طرفين ، وعلى كل طرف أن يلتزم بما عليه وأن يأخذ ماله . وسمى العقد عقداً ، لأن العقد هو الربط ، أي شيء لا ينحل من بعد ذلك . ولذلك نسمى ما يستقر في مواجيد الناس ونفوسهم « عقيدة » . لأنها الأمر المعقود ، وليس الأمر الطارئ الذي يأتي اليوم وينتهي غداً . والشئ المعقود في نظر الفقه هو الأمر الذي لا يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، بل إنه مستقر وثابت في القلب . ويأمر سبحانه بالوفاء بالعقود . والعقود - كما نعلم - هي جمع لـ « عقد » وبالإسلام عقود كثيرة ، تبدأ بالعقد الأول وهو عقد الذر :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ويريد سبحانه الوفاء بهذا العهد الأول فلا يأتي الإنسان ساعة التطبيق ويفر منها ، ثم تأتي إلى عهد الاستخلاف في الأرض وبه استخلف فيها آدم وذريته من بعده ، وإياك أن تظن أنك الأصل في الكون حين تدوم لك الأسباب وتذهب لك بعض الوقت . لا تظن أن الأشياء قد دانت لك بمهارتك أنت فقط ، وحين تبذر البلور في الأرض وتروى الأرض فاعلم أن الزرع ينبت بتسخير الله أرضه لك .

وإياك من الظن لحظة تركب المهر أنك الخيال الفارس الذي روض المهر ، لا ، إنه تسخير الحق للفارس . ونجد الفرس في بعض الأحيان يجمع ليقع الفارس من فوق ظهره ، لعلمنا تنبيه إلى الجزئية التي لا يصح أن تغيب عنا ، فلو لم يذل الله الخيل لنا لما استطعنا أن نركبها .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَمَّا مَلِكُورٌ ۖ ﴿٧١﴾
وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۖ ﴿٧٢﴾﴾

(سورة يس)

وعلى المؤمن أن يتذكر أيضاً أن الحق سبحانه ذلل الجمل لصاحبه ، وجعل الطفل الصغير يأمر الجمل فيرقد على الأرض ، ليضع عليه الاحمال الثقيلة ، ويأمره فيقوم . أما إن واجه الثعبان أو الحية فهو لا يجرؤ على تذليلها ، وهذا لفت من الحق للمخلوق لقدرته المطلقة ، فقد ذلل لهم الكبير ، وأغزهم أضعاف ذلك من الثعبان ذى الجسم الصغير .

﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۖ ﴿٧٢﴾﴾

(سورة يس)

ومن التذليل يأتي رصوخ بقية الكائنات للإنسان ؛ فالخمار عند الفلاح يحمل السباد للأرض من بقايا فضلات الإنسان والحيوان ، ولا ينطق الخمار معترضا ، ويأتى الفلاح ليرتقى في حياته ويصير شيخاً للخفر ، فيأمر أن يستحم الخمار ، ويشترى له السرج ليركبه وهو ذاهب للقاء المأمور في المركز ، ولم يمض الخمار في الحالتين . إنه التذليل .

إليك أن تظن أن مهارتك وحدها أيها الإنسان هي التي ذللت لك الكائنات ، فلو اعتمد الأمر على المهارة وحدها ، لذل الإنسان البرغوث الصغير الذي يهاجمه في أى وقت ، وقد يفزعك ذلك البرغوث الصغير طوال الليل . وقد تسهر أسرة بأكملها من أجل قتل برغوث واحد .

﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ولذلك أمرنا الحق أن نقول قبل البدء في أى عمل « بسم الله الرحمن الرحيم » . وإليك أن تقبل على العمل بقوتك وحدها . فالعمل إنما ينفع لك لأنه سبحانه قد خضعه لك . وأنت تبدأ العمل باسم الله لأنه سبحانه الذى استخلفك وأخضع لك لكائنات المذلة .

ثم هناك ذلك العهد الذى قال فيه الحق لآدم :

﴿ قَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

والعهد الذى قال فيه الحق :

﴿ قَنِ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

وهذا عهد لكل البشر ، والمسلمون عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة بأن ينصروه ويمنعوا عنه ما يمنعون عن أنفسهم . وعاهدوا الرسول فى الحديبية .

إن الحق سبحانه يأمر بالوفاء بكل العقود ، وكل ما نتج عن قمة العقائد وهو الإيمان بالله ؛ فما جاء من الله الذى أمنت به يُعتبر عقداً أنت شريك فيه ، لأن القعد يكون دائماً بين طرفين ، ولم يرغم الله أحداً على الإيمان به ، ولكن الإنسان يؤمن بالله اختياراً . ومادام المؤمن قد آمن بالله من طوع اختياره ، فلا بد أن يتبع منهجه .

ومن آمن هو الذى يذهب إلى الحق قائلاً : يارب إن ما تأمر به سأفعله . وهذا اعتراف بالعقد . وكتابة أى عقد إيمان هو تنفيذ لهذا العقد والتوقيع مع الله ، وبذلك يشترك العبد مع الله فى هذا التعاقد ؛ لأن إيمان العبد بالله يجعله طرفاً فى العقد . والإله يشرع له ، وينفذ العبد التشريع ليتلقى الجزاء الأوفى .

العقد إذن قد يكون بين العبد وربّه ، أو بين العبد وخلق الله المساوين له ، أو بين العبد ونفسه ، لكنهم أطلقوا على العقد الذى بين الإنسان ونفسه اسماً هو « العهد » وهو النذر ، كأن ينذر العبد الصيام أو الصلاة ، ويجب على العبد تنفيذ ما نذر به مادام عاهد الله على ذلك . والعقد الذى بين العبد وغيره من البشر وكذلك العقد بينه وبين نفسه إنما ينبعان من العقد الأساسى وهو العقد الأول . . إنه الإيمان بالله .

إذن فقول الحق : « أوفوا بالعقود » أى نفذوا ما أمر الله به حلالاً ، وامتنعوا عن

الشيء الذى جعله الحق حراماً . ولا داعى - إذن - للاختلاف فى معنى « العقود » والتساؤل : هل هى العقود التى بين العبد وربّه ، أو بين العبد والناس ، أو بين العبد ونفسه ، فكل ما نبع من العقد القمّة هو عقد على المؤمن وإلزام عليه أن يوفّى به .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام » سبحانه يستهل السورة بالوفاء بالعقود ، ثم إعلان تحليل بهيمة الأنعام . ونعرف أن الإنسان قد طرأ على الكون ، وأنه سبحانه قد خلق الكون أولاً . ثم خلق الإنسان فيه . وهذا من رحمة الله بالإنسان فلم يخلق الإنسان أولاً ، بل خلق له الشمس وأعد الكون قبل أن يخلق الإنسان ، وحين طرأ الإنسان على الكون وجد فيه قوام الحياة من الجهاد ومن النبات ومن الحيوان .

وقمّة المسخرات للإنسان هى الحيوان ، لأن الجهاد والنبات يخدمان الحيوان ، ويشترك الحيوان مع الإنسان فى أن له حياة ودماء وجوارح . وجاء الحق هنا بالإعلان عن أعلى المنزلة فى خدمة الإنسان وهو بهيمة الأنعام « أحلت لكم بهيمة الأنعام » ويأمرنا بأن نوفى بالعقود ، وله سبحانه وتعالى كل الحق فقد قدم لنا الثمن بخلق الكون مسخراً لنا وقمّة المخلوقات المسخرة هى الأنعام . كأن « أحلت لكم بهيمة الأنعام » حيثية مقدمة من الحق . ونلاحظ أنه جاء هنا بصيغة المبني للمجهول فى « أحلت » ؛ لأن الإيمان جعلنا طرفاً فى أن تكون بهيمة الأنعام حلالاً لنا .

ووقف العلماء عند « بهيمة الأنعام » . وفى اللغة العربية نجد صيغة « فعيل » التى تأتى بمعنى « فاعل » وتأتى بمعنى « مفعول » ، مثلما نقول « الله رحيم » أى أنه راحم ، هو « فاعل » ، ونقول « فلان قتل » أى مقتول أى مفعول به . و« بهيمة الأنعام » هنا تأتى بأى معنى ، أى بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول ؟ ، و« بهيمة » إن نظرنا إلى أنها مبهمّة ؛ لأن أمورها مجهولة يصعب إدراكها علينا ولا نعرف حركتها أو إشاراتها أو لغاتها التى تفاهم بها فتكون فعيلة بمعنى مفعولة . ونصلح أن تكون فعيلة بمعنى فاعل ؛ لأنها لا تفهم ، ونحن المبهمون عليها . ونقول : هى محكومة بالتفسير .

ولم يصنف الإنسان طعامها وهو المelf إلا بعد أن رآها وهى سائبة حرة تتجه إلى المelf لتأكله ، إذن فهى التى علمت الإنسان صنف طعامها . فلا يقولون إنسان :

إنها بهيمة لا تفهم ، وليعرف أنها لم تخلق لتفهم مسائل الإنسان ، لأنها مسخرة له وقد يتعلم هو منها .

ودليلنا أن الله امتن على بعض المصطفين من خلقه بأن علمهم منطلق الطير ، فقد حرّز في نفس الهدمد أن رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وهو الطائر فقد فهم أن السجود لا يكون إلا لله الواحد القهار لا للشمس ، وهكذا فرى الإنسان يتعلم الكثير من أخلاق الحيوانات وهاداتها ، ولذلك نجد هواة تربية الحيوانات يتعرفون على طعام هذه الحيوانات بعد أن يتبعوها ويعرفوا ماذا تأكل ، وعن أى شيء تتعد ، والفلاح يقدم البرسيم للجاموس ولا يقدم له النعناع ، لأنه رأى الجاموس وهو حرّ لا يأكل النعناع بل يأكل البرسيم . وقال الحق على لسان النمل :

﴿ أَذْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

نحن إذن الذين لا نفهم لغة النمل ، ونجد البهيمة محكومة بالفريزة ، لكن الإنسان يملك العقل ، لكنه يغطى عقله بالهوى .

وقول الله : « أحلت لكم » دليل على أن الذى أحلها ، جعل التحليل لها في التسخير بدليل أن الحبل إن التف حول رقبة جاموسة أو رقبة خروف وقبل أن يفتق نجد الحيوان يمد رقبته ، فيقول الناس : لقد طلب الحلال ، فتأدوا الجزار . وكأنه - وهو الحيوان - يطلب الذبيح ليتفع الناس به ، وكأنه يحس بالخسارة إن ضاع لحمه بلا فائدة ، وهذا دليل على أنه مدلل ، أما الحيوان غير المحلل فمن العجيب أنه لو حدث معه ذلك لما مد رقبته .

والأنعام هي المذكورة في قوله الحق :

﴿ تَمْنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

وكذلك قول الرحمن :

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

إنها ثمانية أزواج ؛ ثم ألحق رسول الله صلى الله عليه وسلم الظباء وحمر الوحش ، ولم يحرم إلا كل ذى ناب كالسباع وكل ذى مخلب من الطير ، ولو لم يقيد الله هذا التحليل لأنصرف بدون قيد ، ولأسأنا إلى أنفسنا بأكل الميتة والموقوفة والمتردية ، ولكن الحق أنقذنا من ذلك وحرم علينا تلك الأشياء الضارة .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » إذن فمن حق الله عليكم أيها المؤمنون أن توفوا بالعقود ؛ لأنه قدم لكم الكون بكل أجناسه وكل عناصره لخدمتكم . وأحل أقرب الأجناس إلى الإنسان لما فيه من حياة وحس وحركة ، فيقول : « غير على الصيا وأنتم حرّم إن الله يحكم ما يريد » ولو لم يضع الحق ذلك التشريع لأكل الإنسان - وهو محرّم - بهيمة الأنعام ، وقد حرم سبحانه الصيد في أثناء الإحرام ، وكذلك في حى الحرم . والحرم - كما نعلم - مركزه الكعبة ، وحول الكعبة المسجد .

وتختلف مناطق الإحرام وتسمى الميقات المكاني ، فالميقات المكاني للحج والعمرة لمن كان خارج الحرم (ذو الحليفة) وذلك للمتوجه من المدينة وهي (أبار على) ، والجحفة وهي الآن (رابغ) للمتوجه من مصر والشام المغرب ، و(يَلْمَلَم) للمتوجه من تهامة ، و(قَرْد المنازل) للمتوجه من نجد اليمن ونجد الحجاز ، و(ذات عرق) للمتوجه من المشرق والعراق وغيره .

أما الميقات المكاني للحج لمن بمكة فهو مكة نفسها ، أما ميقات العمرة المكاني لمن بالحرم فهو الخروج لأدى الحل وهي الجعرانة ثم التنعيم (مسجد عائشة) ثم الحديبية .

والميقات الزماني للحج شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، أما ميقات العمرة الزماني فهو جميع السنة إلا إذا كان محرماً بحج أو بعمرة أخرى أو كان ذلك قبل النفر لانشغاله بالرعى والمبيت فيمتنع الإحرام بها . والتنعيم والجعرانة والحديبية ، تلك هي حدود الحرم . والصيد في حدود الحرم حرام ، في كل زمان وعلى كل إنسان ، أما في غير الحرم ، فالصيد حرام لمن كان محرماً فقط ، وغير المحرم من حقه الصيد .

وبذلك يؤدب الحق سبحانه وتعالى خلقه ويجعلهم على ذكر دائم للمنهج فيبقى لهم في مكان ويقول لهم : الصيد محرم في هذا المكان ، والطعام والشراب محرم في هذا الزمان ؛ كصوم رمضان . وعدة الشهور عندنا كمسلمين اثنا عشر شهرا . أربعة منها حُرْم . ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ورجب .

وفي الميقات يحرم الصيد على الحاج فقط ، وهذا انضباط إيمان . وعندما يأتي الإنسان إلى الميقات فهو يحرم ، أي يغير وضعه ويلبس لباساً خاصاً بالحج ، يلبسه كل الناس ليكون الكل سواسية ؛ لأن الناس إنما يتميزون بهندامهم وهيئاتهم ، فيأمر سبحانه أن يطرح الإنسان هذا التمايز من فور الإحرام . وما كان من الحلال أن يفعله المسلم قبل الميقات وقد منعه الإسلام منه لا يجرؤ على أن يفعله بعد الميقات والإحرام .

ويستطيع المسلم قبل الميقات أن يخلق ويتطيب ويصطاد ويقطع من النبات ؛ لكنه ما إن يبدأ الإحرام يمتنع عن ذلك حتى يستعد لما يشحن أحباقه بالوجود مع المنعم لا مع النعمة ، هذا هو التهيؤ للدخول إلى بيت المنعم ، ولذلك يضع المسلم النعمة على جانب ليبقى مع المنعم . ويمنع الإنسان أن يصيد في الحرم محرماً كان أو غير محرم لشعر الكل أن الحرم لله فقط . وتستعد كل النفوس للقاء المهابة . ويمتنع الإنسان من أول الميقات عن أشياء كثيرة بداية من الصيد والاستمتاع بالحقوق الزوجية ؛ ثم يدخل منطقة يحرم فيها الصيد على كل الناس كرمز للمهابة .

ويحج المسلم في حياته مرة واحد كأداء للفريضة ؛ وفي كل مرة تحج وتقصد بيت ربك بوضع الله لك فيها : لا تشغل بالنعم لأنك ذاهب إلى المنعم ، ويحج سبحانه بالحج كل الذنوب . « غير على الصيد وأنتم حُرْم » فإن أردناها محرمين فهي صحيحة ، وإن أردناها للحرم فهي صحيحة ؛ لأن الصيد محرم في منطقة الحرم للحاج أو لغيره .

ويذيل الحق الآية : « إن الله يحكم ما يريد » وسبحانه بدأ الآية بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » هكذا نرى أن التذليل منطقي يتفق فيه آخر الآية مع صدرها ؛ لأن الله حين يخاطب المؤمنين الذين آمنوا به ، فمن لوازم الإيمان أن يتفادوا حكم الله الذي

آمنوا به ، ومادام المؤمن قد آمن بالله إلهاً فليتنجه إلى ما يريد الله من أحكام ليفعلها لكن عمومية الآية قد تجعل واحداً يعزل عجز الآية عن صدرها ، رغبة في التشكيك في الإسلام ، فيقول : إن الله يقول إنه يحكم ما يريد ، وقد أراد من الناس من يؤمن ومن لا يؤمن ، فكيف يقول : يحكم ما يريد ، بينما لا يؤمن الكل ؟ .

ونقول : لا نعزل عجز الآية عن صدرها ؛ لأن الله إنما يخاطب في هذه الآية من آمن به رباً ، ومن آمن بالإله يعمد ويقصد ويتجه إلى ما يريد الله من حكم ليطيعه . ولا يعتقد أحد أن الكافرين خارجون عن إرادته سبحانه في قوله : « إذ الله يحكم ما يريد » فالذي تمرد على حكم الله يقتضيه المنطق أن يظل متمرداً على حكم الإله .

لكن المتمرد على حكم الله التكليفي الشرعي لا يجرؤ ولا يملك أن يكون منطقياً مع نفسه ، فإن حكم الله عليه بالضعف . فليقل للضعف : لا ، أنا لن أضعف وأذ قو . لا أحد يملك من مثل هذا الأمر شيئاً . المتمرد يأخذ ملك الموت وهو غيب مريض ، فهاذا إذن يصنع غمرد المتمرد إزاء الموت ؟

إذن هناك أمور يخضع فيها الإنسان - كل إنسان - لحكم الله . وخضوع الإنسان لحكم الله في بعض الأمور أقوى من خضوع المؤمن لها ؛ لأن المؤمن حين آمن بالله يستقبل الموت - على سبيل المثال - كحكم من الله ، أما المتمرد الذي لا يصلح ولا يؤدي أي أمر تكليفي ، ويتعرض للأغيار بما فيها الموت ، فهو يعاني من كل ذلك مشقةً وجلّةً تفوق حدة استقبال المؤمن للأغيار أو الموت .

إذن فقول الحق : « إن الله يحكم ما يريد » هو قضية عامة ؛ لأن الذي تمرد على حكمه سبحانه فيها له فيه اختيار ، كان من الواجب أن يكون منطقياً مع نفسه ، فيتمرد على حكم يجره الله عليه ، وذلك بعكس كثير من الأحكام الوضعية فإنها لا تقوى على هذا التمرد ، ويكون هنا حكم الله أقوى ؛ لأن المتمرد لن يجرؤ على الرد على أمر الله . فلا يظن ظان أن الله جعل للاختيار في العبد طلاقة ، لكنه جعل للاختيار في العبد تقييداً ، وللمقدرة القادرة طلاقة ، فإن تمرد متمرد على الإيمان ؛ فلن يجرؤ على التمرد في أشياء أخرى . إذن فالله يحكم ما يريد .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ
الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَئِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ
يَنْتَفُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَيَرْضَوْنَ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ٢

بداية هذه الآية تقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » وهي تأتي بعد
آية أحلت أشياء ، كان الحق يقول للعبد : مادمت قد أعطيت فأنا أمتع عنك ؛
أعطيتك أشياء وأمنعتك أشياء . وسبحانه حين يحظر على الإنسان شيئاً ويمنعه منه ؛
فهو يعطى هذا الشيء لأخ مؤمن ، ومادام الأمر كذلك فلا يستطيع ولا يصح أن تنظر
إلى الشيء المسلوب منك فقط بل انظر إلى المسلوب من غيرك بالنسبة لك .

وعلى سبيل المثال حين يأمر الحق : « لا تسرق » ، فأنت شخص واحد ، ويقيد
سبحانه حريتك بهذا الأمر ، ويقيد في الوقت نفسه حرية كل الناس بالنسبة إليك .
وعندما تقارن الأمر بالنسبة لنفسك تجد أنك المستفيد أساساً ، لأن كل الناس ستطبق
حكم الله بالألا يسرقوا منك شيئاً ، وفي هذا خدمة لكل عبد . وهب أن واحداً
سرق ، إنه لن يستطيع أن يسرق من كل الناس . ولو سرق ألف من الناس شخصاً
واحداً فما الذي يبقى له ؟!

وحين يأمر الحق العبد ألا ينظر إلى محارم غيره ، فظاهر الأمر أنه تقييد لحركة

العبد ، لكن الواقع أنه سبحانه قيد حركة الناس كلها من أجل هذا العبد ، وأمرهم ألا ينظروا إلى محارم غيرهم .

إذن ساعة ترى أيها المسلم نبياً أمراً به الله ، فلا تصب النهي عليك . ولكن حسب النهي أيضاً على كل الناس بالنسبة لك . وساعة يقول الحق : «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » أي لا تجعلوا شعائر الله حلالاً . والشعائر هي معالم الدين كلها . ونقول « هذه الدولة شعارها النسر » معنى ذلك أننا إذا رأينا الشعار نعرف البلد . وكذلك أعلام الدول ، فهذا علم لمصر . وذاك علم لـ « إنجلترا » وثالث علم لفرنسا ، وكل محافظة في مصر . على سبيل المثال - تضع لنفسها شعاراً وعلماً ، إذن فالشعار هو المعلم الذي يدل على الشيء . وشعائر الله هي معالم دين الله المتركة في « افعل » و« لا تفعل » زماناً ومكاناً ، عقائد وأحكاماً .

لكن الشعائر غلبت على ما نسميه مناسك الحج ، وأول عملية في مناسك الحج هي الإحرام ، أي لا نهمل الإحرام . ومن شعائر الحج الطواف ، فلا تحل شعائر الله ، ووجب عليك أن تطوف حول البيت ، وكذلك السعي بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، ورمي الجمار ، كل هذه شعائر الله التي أمر ألا يجعلها المؤمنون « أي أمر - سبحانه - ألا يتهاونوا فيها ؛ لأن هذه الشعائر هي الضابط للإيمان . وأن ننظر إلى أن أمر الله لكل حاج أو معتمر بالإحرام هو أمر بالعزلة لبعض الوقت عن النعمة ؛ لأن الإنسان يذهب للبحر في رحلة إلى المنعم . وأن الإنسان يغير ملابسه بملابس موحدة ولا يتفاضل فيها أحد على أحد ؛ لأن الناس في الحياة اليومية تتفاضل بهندامهم ، وتدل الملابس على مواقعهم الاجتماعية . وعندما يخلعون جميعاً ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً ، تكون السمة المميزة هي إعلان الولاء لله .

وكذلك عندما يأتي الأمر بالآ يقص الإنسان شعرة منه سواء أكان عطيماً في مجتمعه أم فقيراً ويتراءى الناس جميعاً وينظر بعضهم إلى بعض فيجدون أنهم على سواء على الرغم من اختلاف منازلهم وأقدارهم وتكون ذلة الكبير مساوية لذلة الصغير . وذلك انضباط إيمان لا بين الإنسان والمساوي له ، ولكنه الانضباط مع الكون كله ، بكل أجناسه . فالشجرة بجانب الحرم محرم على كل إنسان أن يقطعها أو يقطع جزءاً منها . وبذلك يأمن النبات في الحرم . وكذلك الحمام والحيوانات وأيضاً يأمن

الإنسان ؛ لأن الجميع في حرم رب الجميع ، وتلك مسألة تصنع رعدة وريبة إيمانية في النفس البشرية . وتكون فترة الحج هي فترة الانضباط الإيماني . وتتوافق فيها كل أجناس الوجود . فالإنسان يتساوى مع الإنسان ولا يلمس الحيوان وكذلك النبات ، ويبقى الجهاد وهو خادم الجميع من أجناس الكون ؛ لأن الحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الحيوان ، والجهاد يخدم الكل ، وهو خادم غير مخدوم . ويصنع الحق حماية للجهاد في الكعبة نفسها ، فيأمر الناس باستلام الحجر الأسود أو بتقبيله إذا تيسر ذلك أو بالإشارة إليه .

فهذا السيد العالي - الإنسان - على النبات والحيوان يأتي إلى جهاد فيعظمه ويوقره ، فالذي لا يستطيع تقبيل الحجر الأسود عليه نحيته بأن يشير إليه بيده ، حتى يكون الحج مقبولا منه ؛ لذلك يتزاحم الناس للذهاب إلى الحجر الأسود ، وهكذا يكون الجهاد معصونا في بيت الله الحرام . ويعوضه الله بأن جعله منسكاً ، وجعله شعيرة وجعل الناس تزدحم عليه وتقبله بينما لا يقبل الإنسان الحيوان أو النبات ، لكنه يقبل الجهاد أدنى الأجناس . وهذه قمة التوازن الوجودي . فالإنسان المختار المتعالى على الأجناس يذهب صاعراً لتقبيل أو استلام الحجر الأسود بأمر الله .

ويرجم الإنسان حجراً آخر هو رمز إبليس ، وذلك حتى يعرف الإنسان أن الحجرية ليست قيمة في حد ذاتها ، ولكنها أوامر الأمر الأعلى ، حتى لا يستقر في ذهن الإنسان تعظيم الحجر ، فالحاج يقبل حجراً ويرجم ويرمى حجراً آخر .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » ؛ لأن الله جعل الشعائر لتحقيق الانضباط الإيماني ، وبقاء ذكر الاستخلاف لله فلا يدعى أحد أنه أصيل في الكون ، بل الكل عبيد لله . والوجود كله هو سلسلة من الخدمة ؛ فالإنسان يخدم الإنسان ، والحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الإنسان والحيوان ، والجهاد يخدم الكل ؛ لكن لا أحد أفضل من أحد ، بل الجهاد نفسه مسبح بحمد الله ، وقد لا يسبح الإنسان .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَنفَقْنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٧)

وهذا الأمر بعدم الحل لشعائر الله جعل كل شعيرة تأخذ حقا من التقدي والاحترام ، ولا يظن ظان أن شعيرة من الشعائر ستأخذ لذاتها تقديساً ذاتياً ، بل كله تقديس موهوب من الله ويسلبه الله .

« لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام » أى لا تحلوا الشهر الحرام ، أى عليكم أن تحرموا هذا الشهر الحرام ، فقد جعله الله شهراً حراماً لمصلحة الإنسان ، ويحمى به سبحانه عزة وذلة الإنسان أمام عدوه ، يحمى انكسار نفس الضعيف أمام القوى ، فالقوى القادر على القتال قد تمفؤ نفسه إلى أن يتوقف عن الحرب فترة يلتقط فيه الانفاس ، ولو فعل ذلك لكان إعلاناً للتخاذل أمام الخصم ، ولذلك يأى الحزم بزمان يقول فيه : أنا حرمت الحرب فى الأشهر الحرم . هنا يقول المقاتل : لقد حرم الله القتال فى الأشهر الحرم ، وتلك حماية للإنسان ، ولينوق لذة الأمن والسلام والعطمانية ، فقد يعشق الإنسان القوى السلام من بعد ذلك .

لماذا إذن جاء الحق هنا بالشهر الحرام بينما نحن نعرف أن الأشهر الحرم أربعة ؟ إذ نظرنا إلى الأشهر الحرم كجنس فهى تطلق على كل شهر من الشهور الأربعة ، وإذا اعتبرنا الشهر الحرام أشهر الحج وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، فالمعنى صحيح ونعرف أن الأشهر الحرم أربعة ، ثلاثة متصلة ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد منفصل هو رجب ، ومبعضه وتعالى يعلم أن كل فعل من الأفعال لا بد له من زمان ولا بد له من مكان . فحين لا يوجد حدث ، لا يوجد زمان ولا مكان ، ولم يأت الزمان والمكان إلا بعد أن أحدث الله فى كونه شيئاً . ولا يقولن واحد : متى كان الله ولا أين كان الله ؟ لأن « متى » و« أين » من مخلوقات الله . وجعل سبحانه لكل حدث زماناً ومكاناً . ولذلك يأى الحق سبحانه وتعالى ليحمى عزة الناس وليجعل لهم من تشريعه الرحيم ستاراً يستتر فيه ضعيفهم ، ويراجع فيه قوتهم لعله يرجع عن غيه وظلمه فأوجد أماكن محرمة ، وأزمنة محرمة ، والأماكن المحرمة هى التى عند الحرم :

﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

حيث يؤمن الإنسان أخاه الإنسان إذا ما دخل الحرم . وكذلك فى الزمان جعل سبحانه الأشهر الحرم .

لقد أخذ الحق الحدث للزمان والمكان . وكان القوى قديماً يحارب ويقترب من النصر . وعندما يهل الشهر الحرام يستمر في الحرب ، ثم يعلن أن الشهر الحرام هو الذي سيأتي بعد الحرب ، ولذلك يأمر سبحانه بعدم تغيير زمان الشهر الحرام ؛ لأن الله يريد بالشهر الحرام أن ينهى سعار الحرب .

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا الهدى » والهدى هو ما يهدي إلى الحرم ؛ وهو جمع هدية . وهناك من يقدم للكعبة هدية ، وبمجموع الهدايا تسمى هدياً . وهدى الحرم إنما جعله الله للحرم ؛ فالحرم قديماً كان بواحد غير ذى زرع ، ولم تكن به حيوانات كثيرة . وكانوا يأتون بالهدى معهم عندما يحجون ، لذلك حرم الله الاقتراب من الهدى لأنها هدايا إلى الحرم . والحجيج أفواج كثيرة ، وعندما يأتي أناس كثيرون في واحد غير ذى زرع يحتاجون إلى الطعام ، ولا يصح أن يجعل المؤمن الهدى لغير ما أهدى إليه ، فقد يشاق إنسان صاحب معه الهدى إلى أكل اللحم وهو في الطريق إلى الكعبة فيذبحه ليأكل منه ؛ وهذا الفعل حرام ؛ لأن الهدى إنما جاء إلى الحرم ويجب أن يُهدى ويقدم إلى الحرم . وعلى الإنسان أن يهون هدى غيره أيضاً .

« ولا القلائد » وهي جمع « قلادة » والقلادة هي ما تعلق بالرقبة . وقديماً كان الذهاب إلى الحج يخاف على الهدى أن يشرد منه ؛ لذلك كانوا يضعون حول عنق الهدى قلادة حتى يعرف من يراه أنه « هدى » ذاهب إلى الحرم . والهدى الأول هو الهدى العام الذي لا قلائد حول عنقه ، والقلائد تعبر عن الهدى الذي توجد حول رقابه قلائد وتدل عليه وتكون علامة على أنه مهدي إلى الحرم ، وقد يكون النهى هنا حتى عن استحلال القلادة التي حول رقبة الهدى حتى لا تضيع الحكمة . والحق سبحانه وتعالى حين يعبر بعبارة ما فهو يعبر بعبارة تؤدي المعنى ببلاغة .

وكانوا قديماً عندما لا يجدون قلادة يأخذون لحاء الشجر وقشره ويقطعون منه قطعة ويربطونها حول رقبة الهدى ، وذلك حتى يعرف الناس أن هذا هدى ذاهب إلى الحرم . وبضمن سبحانه اقتيات الوافد إليه . لا من القوت العادي ولكن بطعمه من اللحم أيضاً ، ويجعل ذلك من ضمن المناسك . أليس هو من دعا هؤلاء الناس إلى الحج ؟ أليس هؤلاء هم ضيوف الرحمن ؟!

إن الإنسان منا يقوم بذبح الذبائح لضيوفه ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه

وتعالى ؟ لذلك جعل الهدى طعاماً لضيوفه . وتزدحم الناس في منى وعرفات بكثرة لا حدود لها ، ولابد أن يكرمهم الله بالذ وأطيب الطعام ، والفقر يذهب إلى المذبح ويأخذ من اللحم أطيبه ويقوم بتجفيفه في الهواء والشمس ويخزنه ليطعم منه طويلاً وهو ما يعرف ويسمى بالقديد . والحق سبحانه وتعالى يأتي بالحكم بطريقة لها منتهى البلاغة ، فهو يحرم حتى قلادة الهدى أن يلمسها أحد .

ويقول سبحانه : « ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً » أى لا تمنعوا أناساً ذاهبين إلى بيت الله الحرام ولا تصدوهم عن السبيل ، فهم وفد الله . وقد جاء هذا القول قبل أن يُنزل الحق قوله :

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكان غير المسلمين يحجون بيت الله الحرام من قبل نزول هذه الآية ، فلم يكره الحكم قد صدر . ونسأل : هل الكافرون بالله يبتغون فضلاً من الله ؟ . نعم بفضل الله يغمر الجميع حتى الكافر ، لكن رضوان الله لا يكون على الكافر . والفضل من التجارة التي كانوا يتاجرون بها ، وفضل الله موجود حتى في أيامنا هذا على الكفار أيضاً .

لكن كيف يتأتى رضوان الله على الكافر ؟ . إنه رضوان الله المتوهم في معتقدهم . فهم يعتقدون أنهم يفعلون ذلك إرضاء لله . وتجلى دقة القرآن حين يقول : « فضلاً من ربهم ورضواناً » ، فلم يقل : فضلاً من الله ورضواناً ، لأن العبد المؤمن هو من يختص بتنفيذ التكاليف الإيمانية .

وله عطاءان : عطاء الربوبية ، فهو المربى الذى استدعى إلى الكون المؤمن والكافر - وسبحانه - سخر الأسباب للكل ، هذا هو عطاء الربوبية ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية فيتمثل في « افعل » و« لا تفعل » . ويقول الحق هنا : « يبتغون فضلاً من ربهم » . إذن فجناحا المنهج الإيماني - افعل ولا تفعل - ليست في بالهم . ومن بعد ذلك يقول الحق : « وإذا حللتم فاصطادوا » أى إذا انتهى الإحرام ، وبعد أن يخرج الحاج من الحرم وتحلل من إحرامه فمن حقه أن يصطاد .

« ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » وقبل أن ينزل تحريم زيارة المشركين للبيت الحرام كان من حسن المعاملة ألا يأخذ المؤمنون الكفار الذين يزورون البيت الحرام فيعتدوا عليهم انتقاماً لما فعله الكفار من قبل ؛ لذلك أمر الحق المؤمنين ألا يقولوا : ها هم أولاء قد جاءوا لنا فلنرد لهم الصاع صاعين مثلما فعلوا معنا في صلح الحديبية عندما منعونا من البيت الحرام . لأنكم أيها المؤمنون قد أخذتم من الله القوامه على منهجه في الأرض ، والقائم على منهج الله في الأرض يجب ألا تكون له ذاتية ولا عصبية أسرية ، ولا عصبية قبلية ؛ لأنه جاء ليهيمن على الدنيا كلها ، ومن الصغار أن ينتقم المؤمن من الكافر عندما يأتي إلى بيت الله . ولا يليق ذلك بمهمة القوامه على منهج الله .

ولذلك قال الحق لرسوله :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ

خَصِيماً ﴿١٥﴾

(سورة النساء)

وحينما أمر الحق رسوله أن يحكم بين الناس فذلك الحكم يقتضى عدم تمييز المؤمن على الكافر ؛ لأن المسلمين هم القوام ، وهم خير أمة أخرجها الله للناس كافة . ولو فهم الناس أن خير الأمة الإسلامية عائد عليهم لما حاربوها .

فنحن - المسلمين - لسنا خيراً لأنفسنا فقط ، ولكننا أمة لخير الناس جميعاً . ولذلك قال الحق : « ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى لا يصح أن يحملكم الغضب على قوم أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام عام الحديبية . وعندما يسمع الكافر أن الله سبحانه وتعالى يوصي من آمن به على من كفر به ماذا يكون موقفه ؟ إنه يلتمس رحمة الرب . وفي ذلك لذع للكافر لأنه لم يؤمن ، لكن لو اعتدى المؤمن على الكافر رداً على العدوان السابق ، لقال الكافر لنفسه : لقد رد العدوان .

أما حين يرى الكافر أن المؤمن لم يعتد امثالاً لأمر الله بذلك ، عندئذ يرى أن الإسلام أعاد صياغة أهله بما يحقق لهم السمو النفسى الذى يتعالى عن الضغن والحقد والعصبية ، ويعبر الأداء القرآن عن ذلك بدقة ، فلم يأت الدين ليكبت عواطف أو

غرائز ولا يجعل الإنسان أفلاطونياً كما يدعون . ولم يقل : اكنتموا بغضكم ، ولكذ
أوضح لنا أى : لا يحملكم كرههم وبغضهم على أن تعتدوا عليهم . فسبحان
لا يمنع الشنآن ، وهو البغض ، لأنه مسألة عاطفية .

فسبحانه يعلم أن منع ذلك إنما يكبت المؤمنين وكأنه يطلب منهم الأمر المحال .
لذلك فالبغض من حرية الإنسان . ولكن إياك أن يحملك البغض أو الكره على أن
تعتدى عليهم .

ونرى سيدنا عمر يمر عليه قاتل أخيه زيد بن الخطاب ، يقول له أحدهم : هذ
قاتل زيد ، فيقول عمر : وماذا أصنع به وقد هداه الله إلى الإسلام ، فإذا كان
الإسلام جَبَّ الكفر ألا يجب دم أخٍ لعمر ؟ ولكن عمر - رضى الله عنه - يقول لقاتل
أخيه :

عندما ترائى نَحْ وجهك عني . قال ذلك لأنه يعرف دور العاطفة ويعرف أنه
لا يجب قاتل أخيه ، فقال قاتل أخى عمر : وهل عدم حبك لى يمنعنى حقاً من
حقوقى ؟ فقال عمر : لا . بل تأخذ حقوقك كلها . فقال قاتل أخى عمر :
لا ضير ؛ إنما يبكى على الحب النساء . فالإيمان هو الذى منع عمر من أن ينتقم من
قاتل أخيه .

« ولا يجرمكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، أى أنه
سبحانه لا يمنع مواجيد المؤمنين ووجدانهم وضائرتهم وقلوبهم التى تنفعل بالبغض
والكره ؛ لأنه يعلم أن ذلك لا يطيقه الإنسان ؛ لأنها أمور عاطفية . والمواطف
لا يقطن لها بتشريع . ولكن اعلّموا أن هذه المواطف لا تبيح لكم الاعتداء .

وهكذا يتدخل الإسلام فى الحركة الإنسانية ليفعل الإنسان أمراً أو يتجنب فعل
أمر ما ؛ فالإسلام لا يتدخل إلا فى النزوع وهى تعبير عن مرحلة لاحقة للإدراك
الذى يسبب للإنسان العاطفة محبة أو كراهية ، ثم يعبر الإنسان عن هذه العاطفة
بالنزوع ؛ لأن مظاهر الشعور ثلاثة : إدراك ، ووجدان ، ونزوع . فحين يمشى
إنسان فى بستان فيه أزهار ويرى الوردة فهذا إدراك ، ولا يمنع الإسلام هذا

الإدراك . وعندما يعجب الإنسان بالوردة ويحبها فهذه حرية ، لكن أن تمتد اليد لتقطف الوردة فهذا ممنوع .

إن التشريع لا يتدخل في العملية التزوعية فقط إلا في مجال واحد وهو ما يتعلق بالمرأة . إن الإسلام يتدخل من أولى المراحل من مرحلة الإدراك . فالرجل حين يرى امرأة جميلة فهذا إدراك ، وعندما ينشغل قلبه بحبها فهذا وجدان ، لكن أن يقترب منها الإنسان فهذا نزوع .

لقد راف الحق بالرجل أن أمره أن يفيض البصر من البداية ؛ لأن الإنسان لن يستطيع مطلقاً أن يفصل بين الإدراك والوجدان والتزوع . فكل من الإدراك والوجدان يصنعان تفاعلاً في التركيب الكيماوي للرجل . فإما أن يعف الإنسان نفسه ويكبت أحاسيسه ، وإما ألا يعف فيبلغ في أعراض الناس ؛ لذلك يخدم الشرع الإنسان من أول الأمر حين يأمره بغض البصر :

﴿ قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُونَ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضُنْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ

(سورة النور)

هنا يتدخل الشرع من أول مرحلة الإدراك ، فبعدها لا يمكن فصل التزوع عن المواجهيد ؛ لأن رؤية المرأة تحدث تفاعلاً كيماوياً في نفس الرجل ، وكذلك الرجل يحدث تفاعلاً كيماوياً في نفس المرأة . أما الوردة فلا تحدث مثل هذا التفاعل . ويستطيع الإنسان اقتناء زهرية للورود .

إذن فالمراد أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع المؤمن أن تحبش عواطفه البشرية بالبغض وبالكراهة ؛ لأن ذلك انفعال مطلوب للإيمان . وبعض من أعداء الإسلام يقول : آيات القرآن تتعارض ؛ لأنه يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

﴿آبَاءُهُمْ أَوْ أَبْنَاءُهُمْ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

والنسب الإيماني يمنع ذلك .

ويقول القرآن في موضع آخر

﴿وَأِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهَا فِي الدِّ

مَعْرُوفًا﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

والذي يتعمق جيداً يعرف أن المعروف يصنعه الإنسان مع من يحب ومن لا يحب . أما الوة فهو عمل القلب ، وهذا ما نهى عنه الله بالنسبة للمشركون به ، أما المعروف فالمسلم مطالب أن يفعله حتى بالنسبة لمن يكرهه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » إذن فالخوف لم يمنع البغض . ولكنه منع التزوع المقرب على الشنآن ولو وُجد سبب من الأسباب كم حدث في صلح الحديبية . وبعد ذلك يأمر : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

وهذه الآية هي التي تجعل مسألة الإيمان قضية عالمية ، وكلمة « تعاون » على وزد « تفاعل » ، والتفاعل يأتي من اثنين ؛ مثلها نقول « تشارك » ؛ فهي تقتضي اثنين ؛ كأن نقول : تشارك زيد وعمرو أو : شارك زيد عمراً أو شارك عمرو زيدا . وكلاهما متساو . اللهم إلا تغليب واحد بأن يأتي فاعلاً مرة ومفعولاً مرة ثانية ، والفاعل في هذه الحالة فاعل ومفعول في آن واحد ، والمفعول أيضاً فاعل في الوقت نفسه .

ومثال ذلك قولنا « قاتل فلان فلاناً » أي أن الاثنين اشتبكا في قتال أي مفاعلة . وساعة يأتي اثنان في فعل واحد ، فهناك فاعل ومفعول . وهناك فرق بين أن تقول : أعن فلاناً ، فال مطلوب هنا أمر لواحد بالمعاونة لآخر .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا يختلف عن القول : تعاون مع فلان ، أى أن تتشارك معاً فى المعاونة .
ومسائل الحياة أكثر من أن تستوعبها موهبة واحدة . فأنت حين تبنى بيتاً تحتاج إلى من
يجفر الأساس ويبنى الجدران . ومن يصنع الطوب ومن يصنع الأسمنت ومن يصنع
الحديد ، ولا يستطيع إنسان واحد أن يتعلم كل هذه الحرف لبنى بيتاً ، لكن التعاون
يخصص لكل إنسان عملاً يقوم به ، فهناك متخصص فى كل جزئية يحتاج إليها
الإنسان فى حياة الملابس ، والطب ، والصيدلة وغيرها من أوجه احتياجات
الحياة ، والحق يأمر : « وتعاونوا » ليسير دولاب الحياة ويستفيد الإنسان من كل
المواهب لقاء إخلاصه فى أداء عمله ، « وتعاونوا » هى أن تأتى بشيء فيه تفاعل ما ،
ومعنى الشيء الذى فيه تفاعل أنه يوجد « معين » و « مُعان » .

ولكن المعين لا يظل دائماً معيناً ، بل سينقلب فى يوم ما إلى أن يكون مُعانا ،
والمعان لا يظل مُعانا ، بل سيأتى وقت يصير فيه مُعينا ، وهذا هو التفاعل الذى تحتاج
إليه أفضية الحياة التى شاءها الله للإنسان الخليفة فى الأرض والمطالب أن يعبد الله
الذى لا شريك له ، وأن يعمر هذه الأرض . ولا تأتى عمارة الأرض إلا بالحركة
فيها ، والحركة فى الأرض أوسع من أن تتحملها الطاقة النفسية لفرد واحد ، بل
لا بد أن تتكاتف الطاقات كلها لإنشاء هذه العمارة .

إننا حين نبنى عمارة واحدة نستخدم أجهزة كثيرة لطاقات كثيرة بداية من المهندس
الذى يرفع مساحة القطعة من الأرض ويرسمها ، وإن شاء الترقى فى صناعته يصنع
نموذجاً مجسداً لما يرغب فى بنائه ، وبعد ذلك يأتى الحافر ليحفر فى الأرض ، ثم من
يضع الأساس ، ومن يضع الحديد . ومن يصنع « الخرسانة » المسلحة .

ثم يأتى من يرفع البناء ، ومن يقوم بالأعمال الصحية من توصيلات للمياه
والمجارى ، ثم يأتى من يصمم التوصيلات الكهربائية ، وهكذا تتعاون طاقات كثيرة
لبناء واحد ، ولا تتحملة طاقة إنسان واحد .

إذن فالتعاون أمر ضرورى للاستخلاف فى الحياة . ومادام الاستخلاف فى الحياة
يقتضى من الإنسان عمارة هذه الحياة ، وعمارة الحياة تقتضى ألا نفسد الشيء الصالح
بل نزيده صلاحاً ، وحين يقول الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على

الإثم والعدوان ، أى أنه يريد كوناً علمياً لا كوناً غريباً . والشئ الصالح فى ذاته يينا على صلاحه . إذن فعمارة الحياة تتطلب منا أن نتعاون على الخير لا على الإثم

والبر ، ما هو ؟ البر هو ما اطمانت إليه نفسك ، والإثم ما حاك فى صدر وخشيت أن يطلع عليه أحد ، فساحة يأل إليك أمر تريد أن تفعله وتخاف أن يرا غيرك وانت ترتكبه فهذا هو الإثم ، لأنه لو لم يكن إثماً لأحببت أن يراك الناس وأن تفعل ذلك . إذن قوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو أمر لكل جماعة أن تتعاون على الخير ، وهذه مناسبة لأقول لكم جماعة :

تعاونوا معاً بشرط ألا تعملوا لجمعيةاتكم نشاطاً ينسب إلى غير دينكم . مثال ذلك الجمعية المسماة بـ «الروتارى» أو «الماسونية» ويقال : إن نشاطها خيرى ونقول : كل جمعية خيرية على العين والرأس ولكن لماذا تكونونها وأنتم تقلدون فى الغرب ؟ لماذا لا تصنعون الخير باسم دينكم فيعرف العالم أن هذا خير قادم من به مسلمة . والخير كل الخير ألا تأخذ هذه الأسماء الأجنبية وتطلقها على جمعيةاتكم لا يظن ظان أن الخير يصنعه غيرنا . وإن كان للواحد منا طاقة على العمل الخيري فليحمل من خلال الدين الإسلامى . وليعلم كل إنسان أن الدين طلب منا أن نكو كل حياتنا للخير . وهذا ما يجب أن يستقر فى الأذهان حتى لا يأخذ الظن الخاطى كل من يصيبه خير من هذه الجمعيةات بأن الخير قادم من غير دين الإسلام

إننا مكلفون بنسبة الخير الذى نقوم به إلى ديننا ؛ لأن ديننا أمرنا به وحشنا عليه وليعلم كل مسلم أنه ليس فقيراً إلى القيم حتى يتسولها من الخارج . بل فى دين الإسلام ما يقينا جميعاً من كل هؤلاء . وإذا كنا نفعل الخير ونقدم الخدمة الاجتماعية للناس فلماذا نسميها هذا الاسم وننسبها إلى قوم آخرين ، ولتقرأ جميعاً قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٥٥ ﴾

(سورة فصلت)

فعل الإنسان منا أن يعمل الخير وهو يعلن أن الإسلام يأمره بذلك ، ولا ينسب

عمل الخير إلى « الروتاري » أو غير ذلك من الجمعيات . فنسبة الخير من المسلم إلى جمعيات خارجة عن الإسلام حرام على المسلم ؛ لأنه تعاون ليس الله ، والحق يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو يريد منا أن نبني الخير وأن نمنع الهدم ، وعلى كل منا أن يعرف أنه لا يستطيع وحده أن يقيم كل أبنية الخير .

وقد نسأل الفقير صاحب الثوب الواحد من أين أتى برغيف الخبز ، فيشير إلى بقال أعطاه هذا الرغيف . وقلت إلى أن الله قد سخر هذا البقال أن يأتي بالخبز ليشتري منه كل الناس ، ويتصدق ببعضه على الفقير . وهذا تيسير أراد الله . وعندما نذهب إلى المخبز ، نجد أن الدقيق جاء إلى المخبز من المطحن ، وفي المطحن نجد عشرات العمال والمهندسين يعملون من أجل طحن الدقيق الذاهب للمخبز ليمجته واحد ، ويخبزه آخر ، ويبيعه ثالث .

وعجب أن قلت هنا إلى قدرة الله الذي سخر بعضا من المولدين الذين فكروا في خير أنفسهم واشتروا هذه الآلات الضخمة للطحن وإنضاج الخبز ، وهي آلات لا يستطيع الفرد أن يشتريها بمفرده ، لارتفاع ثمنها وتأني من الدول الأجنبية ، وتلك الدول فيها من المعامل والعلماء الذين يدرسون الحركة والطاقة من أجل تصميم هذه الأجهزة ، لياكل الإنسان رغيفا واحدا .

هذه هي مشيئة الحق من أجل أن تنتظم كل حركة الحياة ؛ فالرغيف يعرضه البقال ، وعمل فيه الخباز ومن قبله الطحان ، والمعجان ومن استورد الآلة ؛ ومن صممها ، وشاركت فيه المدرسة التي علمت المهندس الذي صمم الآلة ؛ كل ذلك عمل فيه تعاون من أجل خدمة رغيف الخبز . على الرغم من أن الإنسان منا لا يفكر في رغيف الخبز إلا ساعة أن يجوع .

إذن فحركة الحياة كلها تم بناؤها على التعاون . لكن ماذا إن تعاون الناس على الإثم ؟ إنهم إن فعلوا ذلك يهدمون الخير ؛ لأن التعاون على الإثم إنما يبدأ من كل من يعين على أمر يخالف أمر الله ، وأوامر الله تنحصر في « افعل » و « لا تفعل » ، ما ليس فيه « افعل » و « لا تفعل » فهو مباح ، إن شئت فعلته وإن شئت لا تفعله .

والذى يأمر بتطبيق « افعل » ويجزم الأمر مع « لا تفعل » وينهى عنه ويجرم من يفعله هو متعاون على البر والتقوى .

ومن يعمل ضد ذلك ؛ يتعاون على الإثم والعدوان ؛ لأنه ينقل الأفعال من دائرة « افعل » إلى دائرة « لا تفعل » . وينقل النواهي من « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » ؛ هذا هو التعاون على الإثم .

وقوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ضمن هجارة الكون وضمين منع الفساد في الكون . فالذى يرتشى والذى يسهل عملية الرشوة ، وهو الوسيط والسفير بين الراشى والمرتشى ويسمى الرائش والذى يجعل الخمر والذى يدلس ، كل هؤلاء متعاونون على الإثم والعدوان ، حتى البواب الذى يمحس على باب هجارة ويعلم أن بها شقة تدار لأعمال مشبوهة ويأخذ ثمن ذلك هو متعاون على الإثم .

نقول لكل هؤلاء : إياكم أن تفتنوا بما يدره عليكم فعل الإثم ؛ لكن لتنظر مصير كل منكم فلن يترك الله أمثالكم دون أن ينهى الواحد منهم حياته بمأساة ، حتى المرأة التى استترفت الناس بجهاها ، تنتهى حياتها بالضنك من العيش ثم لا تجد مأوى إلا القلوب الرحيمة التى لم تفتن بهذا الجهاى ولم تتمتع به فى الحرام ؛ لأن الرجل إن نظر إلى امرأة أعانته على الإثم سيتذكر كل المصائب التى جاءت منها فيكرهها .

لقد أراد الحق بهذا عدالة فى الكون ليستقيم ، وكل من يأخذ شيئاً من إثم يكتوى بنار هذا الإثم فى الحياة ، وكل فرد فيكم مطالب بعمل حصر وإحصاء للمال الذى جاءه من عرقه وحلاله ويكتبه ، والفرش الذى جاءه من حرام . وبعد ذلك يقوم بعمل حصر وإحصاء للكوارث التى أصابته . وكم كلفته من مصاريف .

إنه لو فعل ذلك لوجد أن الكوارث تأخذ كل الحرام ومحجور على المال الذى كسبه من حلال . ولا تختلف هذه المسألة أبداً ولا يتركها الله للأخرة ؛ فسبحانه يريد أن يعدل نظام الكون ، وإلا كيف يشهد من لا يؤمن بيوم الحساب قدرة الله على إجراء التوازن فى كونه ؟ إن الحق أراد الحساب فى الدنيا حتى لا يعربد من لا يؤمن بيوم الحساب فى كون الله .

إن كل معربد سوف يرى مصير معربد سبقه . كذلك الذين يتمتعون بشمرات الإثم في هذه الدنيا يجب أن يفتنوا إلى نفوسهم قبل أن يفوتهم الأوان ، المعذور فقط هم الأطفال الذين لا نضج لهم ولا دراية ، لأنهم يعيشون من أموال الإثم . لكن ما إن يبلغ الولد الرشد وكذلك البنت ثم ترى مالا يتدفق عليها من مصادر غير حل ، عليها أن تستحي من شراء « فستان » من هذا المال أو أن تأكل منه لقمة خبز ، وليفتن الإنسان أن الله قد أباح للإنسان أن يسأل عن مصدر المال حتى لا يأخذ لنفسه من المال الموبوء الخبيث . وأن يسأل الإنسان الصدقة خير من أن يصرف على نفسه مالا موبوءا . ولن يترك الحق مثل هذا الإنسان سائلا أبداً .

وليكتب كل واحد منكم هذا القول الكريم أمامه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وليجعلها ميزاناً يزن بها صور الذين يراهم في الكون ، حتى ولو كانت صورة سائق التاكسي الذي يدلس على رجل وامرأة في طريق مظلم ويأخذ أجراً على هذا ، ليحسب هذا الرجل النقود التي ستأتي من هذا الباب ، وليحسب النقود التي ستخرج على ألم فيه ، أو ألم فيمن يرعى من ولد أو بنت .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وصور العدوان شق يعانى منها المجتمع وتهيء بعنف ، عدوان على الوقت لأن الإنسان يأخذ أجراً على العمل ولا يقوم به ، وعدوان يضر به إنساناً بأن يأخذ حقه أو أن يرتشى ، كل ذلك عدوان . وحتى يصير المجتمع مجتمعاً إيمانياً سليماً لا بد أن يحافظ على قضية الاستخلاف في الأرض ، وأن يعلم أن هذا يقتضى عمارة الكون وعدم الإفساد فيه .

« ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » فكان هذه المخالفات السابقة التي تحدث هي نتيجة عدم التعاون على البر ، ونتيجة التعاون على الإثم والعدوان ، وهذه المخالفة عقاب شديد ، أما التقوى فمعناها أن نفعل ما أمر به الله أن نفعله ، وأن ننتهى عما نهى الله عنه ، فلا ننقل فعلاً من دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » وكذلك العكس . وبذلك نجعل بيتنا وبين الجبار وقاية .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً ، فيقولون : بعض من آيات القرآن تقول : « اتقوا النار » ، وبعض الآيات تقول :

« اتقوا الله » فهل للنار وقاية ؟ وهل لله وقاية ؟ هؤلاء لا يفهمون أن « اتقوا الله » تعني : اجعل وقاية بينك وبين ما يؤذيك ويتعبك ، فـ « اتقوا الله » تعني اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية وهي الدرع التي يقيها الإنسان بتقيد أوامر الله بـ « افعل » والامتناع لنواهي الله بـ « لا تفعل » .

وعندما تجعل بينك وبين الله وقاية ، فأنت تجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وهكذا تتساوى « تقوى الله » مع « اتقاء النار » .

ويذهل الحق الآية « إن الله شديد العقاب » . إن ما يجعل الناس تنهون في التعامل على البر ويحترقون على الإثم أنهم لا يعلمون من مجتمعاتهم رادعاً ، ولو وجدوا الردع من المجتمع لحس المجتمع أفرادهم من الإثم . وإن صار للمجتمع وعي إجماعي لقاطع المخالفين وأشعرهم بأنهم متنبذون ، وساعة يرى أمثال هؤلاء الناس أنهم متنبذون من المجتمع الإيمان فهم يرجعون إلى المنهج الحق .

فما يخرى الناس على الجرائم الكبيرة إلا تمهون المجتمع في الجرائم الصغيرة . ولذلك يلتفتنا الحق أنه لن يترك الأمر كما تركه بعض من خلقه ، لأن الخلق قد يجهلون وقد لا يقفون أمام ما يفعله بعضهم من آثام ، لكن الله شديد العقاب ، سيأتي العقاب في وقت ليس للفرد فيه جلاء من مال أو حبيب أو نسب يحميه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع في أن تعملوا على الإثم فعليك أن تخاف الله ، لأن عقابه شديد .

وكيف يكن العقاب إلى المذنب ؟ لا نعرف ، لأننا لسنا آله ، ونجد العقاب يتسلل إلى المذنب في نفسه كمرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس لمعالج نفسه ، أو يعالج من يجب . وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للأخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها وهذه هي شدة العقاب .

وبعد ذلك يأتي الحق بأمر تحريم أشياء بعد أن حلل الله أشياء في قوله : « أحلت لكم بيمة الأنعام » . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين تخصيصها لما أحل من الأنعام .. فقد حلل الله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر

اثنين . والحق الرسول بها الطباء وبقر الوحش ، وكل ذات أربع من حيوان البحر ، وكان قول الله : « إلا ما بئل عليكم » مؤذناً بأن هناك تحريماً قادمًا سيأتي ، وبين الحق بالقرآن ما يحرمه الله :

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ
لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ
وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ
تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَيسُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾

الآية تبدأ بقوله : « حرمت عليكم الميتة » ونلاحظ أن البداية فعل مبنى للمجهول . على الرغم من أن الفاعل في التحريم واضح وهو الله . ولم يقتحم سبحانه على أحد ، فالإنسان نفسه اشترك في العقد الإيماني مع ربه فالزمه - سبحانه - والعبد من جانبه التزم ؛ لذلك يقول الحق : « حرمت » ، حرما سبحانه كإله وشاركه في ذلك العبد الذي آمن بالله إلها .

والميتة هي التي ذهبت منها الحياة أو خرجت منها الروح بدون نقض للبنية ، أي ماتت حتف أنفها ، فذهاب الحياة له طريقان : طريق هو الموت أي بدون نقض بنية ، وطريق بنقض البنية ؛ فعندما يخنق الإنسان كائنا آخر يجمع عنه النفس وفي هذا إزهاق للروح بنقض شيء في البنية ؛ لأن النفس أمر ضروري ، وقد يزهد الإنسان

وحا آخر يضربه بالرصاص ؛ لأن الروح لا تحمل إلا في جسد له مواصفات خاصة .

لكن هناك جوارح يمكن أن تبقى الروح في الجسم دونها ، والمثال على ذلك اليد ، قطعت ، أما إن توقف قلب الإنسان فقد يشقون صدره ويدلكون هذا القلب بنبض مرة أخرى بشرط أن يكون المخ مازال حيا ، وأقصى مدة لحياة المخ دون هواء سبع دقائق في حالات نادرة . فما إن يصاب المخ بالعطب حتى يحدث الموت . ولذلك رف الأطباء الموت الإكلينيكي بأنه توقف المخ . إذن فهناك موت « وهناك قتل ، في كليهما ذهاب للروح .

وفي الموت تذهب الروح أولاً ، وفي القتل تذهب الروح بسبب نقض البنية . الميتة هي التي ذهبت منها الحياة بدون نقض البنية ، ومن رحمة الله أن حرم الميتة ؛ نها ماتت بسبب لا نراه في عضو من أعضائها ، حتى لا نأكلها بدائها .

وكذلك حرم الدم ، وهو السائل الذي يجري في الأوردة والشرايين ويعطى الجسم دفء والحرارة وينقل الغذاء ، وللدم مجالان في الجريان ؛ فهو يحمل الفضلات من كلى والرتة ، وهناك دم نقي يحمل الغذاء ، والأوعية الدموية بها لونان من الدم : فاسد ودم صالح . وعندما نأخذ هذا الدم قد يكون فيه النوع الصالح ويكون فيه ضار النوع الذي لم يخرج منه الشوائب التي في الكلى والرتة ، ولذلك يسمونه الدم سفوح ، أى الجارى ؛ وكانوا يأخذونه قديما ويملأون به أمعاء الذبائح ويقومون به ويأكلونه .

وهناك دم غير فاسد ، مثال ذلك الكبد ، فهو قطعة متوحدة ، وكذلك الطحال ، لنبي صلى الله عليه وسلم قال :

(أحلت لكم ميتان ودمان ، فلما الميتان : فالسمك والجراد ، ولما الدمان : فالكبد والطحال)^(١) .

إذن فالكبد والطحال مستثنيان من الدم ، لكن إذا جثنا للدم المسفوح فهو رام . والحكمة في تحليل السمك والجراد هي عدم وجود نفس سائلة بها ، فليس

(رواه أحمد وابن ماجه والبيهقي .

في لحمها دم سائل ، وعندما نقطع سمكة كبيرة لا ينزل منها دم . بل يوجد فقط عند الأغشية التي في الرأس ولا يوجد في شعيراته . وعندما يموت السمك ويؤكل فلا خطر منه ، وكذلك الجراد .

ويأتى بعد ذلك في سلسلة المحرمات « ولحم الخنزير » . ولا يقولن مؤمن : لماذا حرم الله لحم الخنزير ؟ لقد ذهب العلم إلى كل مبحث لمعرفة لماذا حرم الله الميتة وكذلك الدم حتى عرف العلماء أن الله لا يريد أن ينقل داء من حيوان ميت إلى الإنسان ، وكذلك حرم الله الدم لأن به فضلات سامة « كالبولينا » وغيرها .

ولكل تحريم حكمة قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خافية . والقرآن قد نزل على رسول أمي في أمة أمية لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد ، وطبق المؤمنون الأوائل تعاليم القرآن لأن الله الذي آمننا به إلهنا حكيماً هو قائلها ، وهو يريد صيانة صناعته ؛ وكل صانع من البشر يضع قواعد صيانة ما صنع . ولم نجد صانع أنث - مثلاً - يحطم دولاب ملابس ، بل نجده باذلاً الجهد ليكمل الصنعة ، ومادام الله هو الذي خلقنا وآمننا به إلهنا ؛ فلا بد لنا أن ننفذ ما يأمرنا به ، وأن نتجنب ما نهانا عنه ، ولا يمنع ذلك أن نتلمس أسباب العلم ، وغبة في ازدياد أسباب الإيمان بالله ومن أجل أن نرد على أى فضولى مجادل ، على الرغم من أنه ليس من حق أحد أن يجادل في دين الله ؛ لأن الذى يرغب في الجدال فليجادل في القصة أولاً ؛ وهى وجود الله ، وفي البلاغ عن الله بواسطة الرسول ؛ فإن اقتنع ، فعليه أن يطبق ما قاله الله . فالدين لا يمكن أن نبحثه من أذنا به ، ولكن يبحث الدين من قمته . ونحن ننفذ أوامر الله . ولذلك نجد أول حكم يأتى لم يقل الحق فيه : يا أيها الناس كتب عليكم كذا ، ولكن سبحانه يقول : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنتم به أخذ الحكم منى .

وأكرر المثل الذى ضربته سابقاً : أثمن ما عند الإنسان صحته . فإذا تعرضت صحته للاختلال فهو يدرس الأسباب ؛ إن كان يرهقه الطعام يختار طبيباً على درجة علم عالية في الجهاز الهضمي ، ويكتب الطبيب الدواء ، ولا يقول المريض للطبيب : أنا لن أتناول هذا الدواء إلا إذا قلت لي لماذا وماذا سيفعل هذا الدواء .

إذن فالعقل مهمته أن ينتهى إلى الطبيب الذى اقتنع به ، وما كتبه الطبيب من عالم عليك تنفيذها ، وكذلك الإيمان بالله ، فإدام الإنسان قد آمن بالله إلهاً فعليه أن ينفذ الأوامر فى حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، والمريض لا يناقش طبيباً ، فكيف يناقش أى إنسان ربه : « لم كتبت على هذا ؟ »

والطبيب من البشر قد يخطئ ، وقد يتسبب فى موت مريض ، وعندما نشك فى بادرة طبيب ما نستدعى عدداً من الأطباء لاستشارة كبيرة . ونفذ أوامر الأطباء ، لا يجوز أحد أن يناقش الله سبحانه وتعالى بل نقول : كل لأوامرك مطاعة .

إننا ننفذ أوامر الأطباء فكيف لا ننفذ أوامر الله ؟ إن الإنسان يضع ثقته فى البشر لخطائهم ، ولا يمكن - إذن - أن تعلق على الثقة فى رب السماء ، لذلك فالعاقلون هم الذين أخذوا أوامر الله وطبقوها دون مناقشة ، لأن العقل كالمطية يوصل الإنسان إلى متبة السلطان ، ولكن لا يدخل معك عليه ، وحين تسبح من الله فانت تنفذ ما أمر .

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » وقد أثبتت التحليلات أن بلحم الخنزير دودة شريطية ودودة حلزونية وعدداً آخر من الديدان التى لا يقهرها علاج .

والمحرمات من بعد ذلك « وما أهل لغير الله به » أى رفع الصوت به لغير الله لقولهم : باسم اللات والعزى عند ذبحه ، ولا يقال عند ذبحه : « الله أكبر باسم الله » ؛ لأن الإنسان منتفع فى الكون الذى يعيش فيه بالأجناس التى طرأ عليها ، لقد يجد الإنسان هذه الأجناس فى انتظاره لتخدمه لأنه خليفة الله فى الأرض ، والحيوان روح ولكنه يقل عن الإنسان بالتكبير ، والنبات تحت الحيوان ، والجهد أقل من لنبات . وساعة يأخذ الإنسان خدمة هذه المسخرات ، فعليه أن يذكر الخالق لمنعم ، وعندما يذبح الإنسان حيواناً ، فهو يذبحه بإذن الأكبر من الإنسان والحيوان الكون كله ، يذبحه باسم الخالق .

إن هناك من ينظر إلى اللحم قائلاً : أنا لا أكل لحم الحيوانات لأنى لا أحب الذبيح لمحيوان شفقة ورحمة . لكن أكل النبات . ونقول : لو أدركت ما فى النبات من حياة كنت تمتنع عن أكله ؟ لقد ثبت فى عصرنا أن للنبات حياة ، بل وللجهد حياة أيضاً ، أنك عندما تفتت حصوة من الصوان أو أى نوع من الأحجار ، فانت تعاند بدقات

المطرفة ما في تلك الحصوة من تعانق الجزئيات المتهاسكة ، وقد تفعل ذلك وأنت لا تدري أن فيها حياة .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الإسراء)

والصالحون من عباد الله يعرفون ذلك ويدبرون أعمالهم وتعاملهم مع ما سواهم من المخلوقات جميعا - حيوان أو جاد - على أنها مسبحة لذلك لا يمتنعون الأشياء ولا يحتفرونها مهما دقت وحفرت وإنما يتلففون معها حتى لو ذبحوا حيوانا فإنهم يرحمون ذلك الحيوان فلا يشعلون ولا يسنون السكين أمامه ولا يذبحون حيوانا أمام حيوان آخر فضلا على أنهم يطعمون ويسقون ما يريدون ذبحه لأنهم يعلمون أنه مسبح ولكنهم فعلوا فيه ما فعلوا لأن الله أباح لهم ذلك ليستلذوا حياتهم بأكله فهم أهل تكليف من الله، أما ما عداهم فهم أهل تسخير .

« وما أهل لغير الله به » تشرح لنا أن الحق هو الذي حلل لنا أن نأكل من الذي له حس وحركة ، كالحيوان الذي يتطامن للإنسان فيذبحه ، ولا بد للإنسان أن يعرف الشكر لواهب النعمة ، فـ « بسم الله الله أكبر » تؤكد أنك لم تذبحه إلا باسم من أحله لك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾

وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾

(سورة يس)

إذن فالأكل من ضمن التذليل ، وعندما تذبح الحيوان لا بد أن تذكر من ذل لك ذلك . ويحرم الحق أكل المنخقة ، أي الحيوان الذي مات خنقا ، لأن قوام الحياة ثلاثة : طعام ، شراب ، هواء ، وهذا من حكمة الخالق الذي خلق الصنعة ورتب الأمر حسب الأهم والمهم ، فالإنسان قد يصبر على الجوع إلى ثلاثين يوما ، لأن ربنا سبحانه وتعالى قدر لك - أيها الإنسان - ظروف الأغيار ، فجعل في جسمك مخزونا لزمان قد تجوع فيه ، وجعل للإنسان شهوة إلى الطعام ، وغالبا لا يأكل الإنسان ليسد الرمق فقط ، ولكن بشهوة في الأكل .

إن ربنا يوضح لنا : أنا أحترم شهوتك للطعام ، ولتأخذ حركتك الضروري لها

من الطاقة ، والزائد سيُخزن في الجسم كدهون ولحم ، فإن جاء يوم لا تجد فيه طعما أخذت من الدهون المخزونة طاقة لك . وهذه من دقة الصنعة ، وإن قلرتها بسيا صنعها الإنسان إذا ما فرغ منها الوقود فإنها تقف ولا تسير ، أما صنعة الخالق فهو لا تقف إن توقف الطعام بل تستمر إلى ثلاثين يوماً ، وربما حن على الإنسان قلد إنسان آخر فاحضر له الطعام ، وربما احتال الإنسان ليخرج من مأزق عدم وجع الطعام .

إن المرأة العربية وصفت الشدة والعوز فقالت : « سنة أذابت الشحم ، وسه أذهبت اللحم ، وسنة تحت العظم ، أى أن الأمر درجات ، فالإنسان يتغذى م دهنه ثم من لحمه ثم من عظامه ، ويصبر الإنسان على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة وعشرة أيام ، حسب كمية المياه المخزونة في الجسم . أما الهواء فلا يصبر عنه الإنسان إلا بمقدار الشهيق والزفير ، فإن حُبس الهواء عن الإنسان مات . فالتنفس هو أهم ضرورة للحياة ، ولذلك نجد من حكمة الحق سبحانه أنه لم يملك الهواء لأحد ، لا أحداً لو امتلك الهواء بالنسبة لإنسان آخر فقد يمنع عنه الهواء لحظة غضب فتنتهي م الحياة .

واللغة العربية فيها من السعة ومن دقة الأداء ما يدل على أن هناك أسرار للمعاني ، تلتقى عند شيء ما ، فمثلاً إذا قلت : نَفْس ، أو نفيس ، أو نفيس ، نج أنها ثلاث كلمات مكونة من مادة واحدة هي « النون والفاء والسين » ، النفس هم اتصال الروح بالمادة فتنشأ الحياة بها ، ويلهم ربنا النفس فجورها وتقواها والنفس : وهو الريح تدخل وتخرج من فم وأنف الحى ذى الرئة حال التنفس ولا تدوم الحياة إلا به ، ومادام أساس الحياة هو النفس فيجب ألا تكون حياتك إلا من أجل نفيس ، ويجب أن تحترم خلق الله لك وألا يكون سعيك في الدنيا إلا م أجل نفيس ، ولا نفيس إلا الإيمان .

وفي اللغة العربية أمثلة كثيرة لما يسمى بالجناس ، فنحن نسمى الأكل في الميها « وجبة » ، ونسمى المسئولية « واجبا » ونسمى دقة القلب « الوجيب » . ولذلك عندما أراد الشعراء أن يمتنوا جاء واحد منهم بلفظين متماثلين ولكل منهما معز مختلف فقال :

رحلت عن الديار لكم أسير وقلبي في محبتكم أسير

فأسير في الشطر الأول بمعنى أمشي ، وأسير في الشطر الثاني من البيت بمعنى مأسور ومفيد .

فالمنخنقة إذن هي التي منع عنها النفس ، ومادام منع النفس أوصلها إلى الخلق فهي إلى الموت ، فلماذا جاء ذكرها مرة أخرى بعد الميتة ؟ لقد جاء ذكر المنخنقة لأن الإنسان قد يلحقها بالذبح ، فإن سال منها دم ، وطرفت فيها عين أو تحرك الذيل فهي حلال . أما إن لم يلحقها الإنسان وذبحها ولم يسيل منها دم فهي حرام ، ويحرم الحق الموقوفة ، وهي البهيمة التي يتم ضربها بأي شيء إلى أن تصل للموت ، فهي قد ماتت ، بنقض بنية وكذلك المتردية التي وقعت من ارتفاع حتى ماتت ، وكذلك « النطيحة » أي التي نطحها حيوان آخر إلى أن ماتت . « وما أكل السبع » وهو ما يبقى من أكل السبع من لحم ما افترسه من حيوان مأكول ، « إلا ما ذكيتم » ، والذكاة هي الذبح الذي يسيل منه الدم وتأتي بعده حركة من المذبوح . والمقصود بقوله : « إلا ما ذكيتم » هو المنخنقة والموقوفة والمتردية والنطيحة ، فإن أدركها الإنسان وذبحها وسال منها دم وصدرت منها حركة فهي حلال .

هذا هو رأي علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وهو مفتي الإيمان . وابن عباس - رضي الله عنه - وهو خير الأمة قال - أيضا - في قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الميتة والدم ولحم الخنزير ومقصود به المنخنقة والموقوفة والمتردية والنطيحة . وهذا يوضح لنا أن هناك حيوانات شرسة قد لا يقوى الإنسان عليها . وأحيانا قد يقدر الإنسان عليها فيقوم بتكثيفها بالحبال ، وأحيانا يضربها بألة لتختل وتضعف قليلا ويملكها الجزار ليذبحها .

ونلاحظ أن الحق لم يحدد الحيز من الجسم الذي أصيبت فيه الموقوفة سواء أكان البطن أم الرأس أم الظهر ، فالحيوان المضروب رميا بالحجارة قد تأتى الأحجار في الرأس أو البطن أو الظهر ، فمن الجائز أن يضرب الإنسان الحيوان الشرس ليستطيع أن يذبحه .

والحجة عندنا في التحليل أو التحريم هي : يسيل منها الدم ساعة الذبح أم لا ؟

وهل يصدر عن جسمها حركة ولو طرفة عين ؟ فإن توافر ذلك في الذبيحة فهو حلال ، وهكذا نعرف أن قوله الحق : « إلا ما ذكيت » هو استثناء لغير الثلاثة الأو وهى : الميتة والدم ولحم الخنزير ومعها ما أهل لغير الله به لأنه محرم بطبيعة الإيما العقلى .

« وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب » ويحرم الحق ما أكله السبع إلا إذا كان الحيوان الذى أكله السبع لم يمّت واستطاع واحد أن يذبحه الذبي الشرعى . وسبحانه يحرم ما لم يذبح بالأسلوب الشرعى ، فلا يجزئ ذبح معظم يمين والذى ذبح على النصب ، أى المذبوح على الأحجار المنصوبة كالأصنام فم حرام ، والكلام هنا عقلى ، والتحريم هنا بعارض عقلى .

و« النصب » من الألفاظ التى وردت مفرداً ووردت جمعاً . ف« نصب » هو جمع ، مثلما نجمع كلمة « حمار » ونقول « حمر » ، وفى هذه الحالة يكون مفرد ، « نصاب » ، ومرة تكون « نصب » مفرداً ، مثلها مثل « طنب » وهو الجبل وجمع « أطناب » أى حبال ، وفى هذه الحالة يكون جمع « نصب » هو « أنصاب »

والنصب هو حجارة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الذبائ تقريباً للالهة . والتحريم هنا بسبب عقلى مثله مثل تحريم ما أهل لغير الله به ، أهل لغير الله فيه شرك بالله فافتقد ذكر الله الذى ذلل للإنسان هذا الحيوان القريب من الإنسان فى الحس والحركة وغير ذلك . وكذلك أيضاً ما ذبح على النصب محرم لأن النصب غير واهب ولا معط ، والواجب أن نتقرب إلى الواجد الواهب

« وأن تستقسموا بالأزلام » واستقسم أى طلب القسمة ، وكانت القسمة بعض الأحيان عملية محرجة فيريدون إلصاقها بغيرهم ، وهنا يقال : « إن الأزلام هى التى أمرت » . والأزلام هى قداح من الخشب مكتوب على بعضها : « أمرى » ومكتوب على البعض الآخر : « نهى » وبعض من هذه القداح غفل بغ كتابة . وكان المشرك إذا أراد السفر فهو يذهب إلى سادن الكعبة أو الكاهن ، ويخبر السادن أو الكاهن الأزلام من الكيس ، ويحرك القداح ويختار المشرك قداحاً ، فإن تم عليه « أمرى » يسافر إلى المهمة التى يريد ، وإن لم يقرأ عليه ووجد غفلاً فهو يحيد الكرة ، فإن وجد « نهى » لا يسافر .

ونسأل : من هو الرب الذى أمر ؟ هل هو الرب الأعلى ، أو الرب الذى كانوا يعبدونه ؟ وأى إله كانوا يقصدون ؟ إن كان المقصود به الإله الأعلى ، فمن أدهم أن الله أمر بهذا السفر أو نهي عن ذلك السفر ؟ إن ذلك كذب على الله . وإن كان الذى أمر هو الرب الذى يعبدونه ، فهذا أمر باطل من أساسه ، إذن فـ « استقسم » أى أنه طلب حفظه وقسمته بواسطة القداح . وكان الاستقسام يتم فى مسائل الزواج أو عدم الزواج ، والكلام هنا فى هذه الآية عن الأكل ، فالسياق عن تحليل ألوان الطعام فلماذا هذا الاستقسام ؟

من هذا نعرف أنهم كانوا فى الجاهلية يخضعون للون من الاستقسام بالأزلام ، كانت عندهم عشرة قداح وكان مكتوباً عليها أسماء ، فواحد على سبيل المثال مكتوب عليه « الفذ » وعليه علامة واحدة . أى أن الذى يسحب هذا القدح يأخذ نصيباً واحداً ، أما المكتوب عليه « التوام » فيأخذ نصيبين ، والمكتوب عليه « الرقيب » يأخذ ثلاثة أنصباء ، والمكتوب عليه « المجلس » يأخذ أربعة أنصباء ، والمكتوب عليه « النافر » يأخذ خمسة أنصباء ، والمكتوب عليه « المسبل » يأخذ ستة أنصباء ، والمكتوب عليه « المعلن » يأخذ سبعة أنصباء ، والباقي ثلاثة أنواع مكتوب على كل واحد منها إما « المنيع » وإما « السفيح » وإما « الوغد » .

وعندما يقومون بذبح الجمل كانوا يقسمونه إلى ثمانية وعشرين نصيباً بعدد الأنصباء التى ينالها الأشخاص السبعة الأوائل ، أما من خرج لهم « المنيع » أو « السفيح » أو « الوغد » فلا نصيب لهم ويدفعون ثمن الذبيحة .

إذن فقول الحق : « وأن تستقسموا بالأزلام » أى أن مسألة طلب القسمة بواسطة الأزلام هو أسلوب مجحف وحرام ، وهو لون من الميسر ، والاستقسام بالأزلام خلاف القرعة ، فالقرعة تكون بين اثنين متساويين ولا يريد أحدهما أن يظلم الآخر ، فيخرجوا الهوى من الاختيار .

مثال ذلك : اثنان من البشر يملكان بيتاً ، وتجرى كل منهما العدل فى القسمة ويلجآن إلى القرعة بأن يكتب كل منهما اسمه فى ورقة ثم يضعها الورقتين فى إناء ضيق ويحضر طفل صغير لا يعرف المسألة ويغمض عينيه ويشد ورقة من الاثنتين ، فيأخذ كل واحد النصيب الذى حددته القرعة .

ومثال آخر : الرجل المتزوج بأكثر من واحدة « عليه أن يفرق بين النساء إن أراد محبة إحداهن في سفر ، والقرعة هنا حتى لا تنضب واحدة من الزوجات ، وحتى يكون الهوى هو الحكم ، وبذلك يخرج من دائرة لوم من لا يخرج قرعتها .

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فعندما أراد صلى الله عليه وسلم ألا يكسر خاطر أى واحد من الأنصار عندما هاجر إلى المدينة ، وتطلع كل أحد من الأنصار إلى أن ينزل رسول الله في بيته ، وحاول كل واحد أن يمسك بزمام ناقة وأن يجعلها تقف أمام بيته ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(خلوا صبيها فإنها مأمورة)^(١) .

فعندما عميل الناقة وتقف عند أى بيت لن يقول أحد : إن النبی أثر فلاناً على لان . جعلها الرسول في يد من لا يقدر أحد على أن يخالفه عليه ، وكذلك الاستخارة غير الاستقسام . إذن فالاستقسام بالأزلام هو المحرم شرعاً ، لأنها حلية غير مناسبة وهي ظالمة ، ووردت هنا في سياق ألوان الطعام .

ويقول سبحانه عن كل تلك الألوان من المحرمات : إن ارتكابها فسق . « ذلكم فسق » والفسق هو الخروج عن الطاعة . والمعاني - كما علمنا من قبل - مأخوذة من لحسات ، لأن إلف الإنسان في أول إدراكاته بالمحسّات ، فهو يرى ويسمع ويشم ، بعد ذلك تأتي الأمور العقلية .

وأصل الفسق هو خروج الرطبة عن قشرتها ، فالبليحة عندما ترطب تنكمش شجرة داخل القشرة وتخرج منها عندئذ يقال : « فسقت الرطبة » أى خرجت من قشرتها ، وكذلك من يخرج عن منهج الله يسمونه فاسقاً ، تماماً مثل الرطبة ، وفي هذا رمزية تدل على أن شرع الله سياج يحيط بالإنسان ، فالذي يخرج عن منهج الله كونه فاسقاً . وإياك أيها المسلم أن تخرج عن شرع الله ؛ لأن الرطبة عندما تخرج عن قشرة فالذباب يحوم حولها ويصيبها التراب وتعافها النفس ، فكان دين الله كإطار يمس الإنسان بالإيمان .

(١) السيرة النبوية لاسر هاشم ، وأخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ، وابن سعد في الطبقات الكبرى .

وهذه الأحكام كلها تبنى قضية الدين ، قضية عقدية في الألوهية ، قضية البلاغ عن الألوهية بواسطة الرسالة . وأحكام تنظم حركة المجتمع بالمعقود والأمانات والأنكحة وغيرها ، كل هذه الأحكام تصنع هيكل الدين العام . وقد مر هيكل الدين العام بمرحلتين : المرحلة المكية وكان كل هدفها التركيز على العقيدة والإيمان بوحداية الله والنبوات والبلاغ عن الله ، وبعد ذلك في المرحلة المدنية جاءت سورة النساء وسورة المائدة لتتكلم عن الأحكام .

وبالعقيدة وبالبلاغ عن الله وبالأحكام يكتمل الدين ؛ لذلك يقول الحق : « اليوم يشئ الذين كفروا من دينكم » كأن الكافرين كان لهم أمل في أن يمحطوا هذا الدين وأن يطلوه وأن ينقضوه ، وكذلك المؤمنون بأديان سابقة أو بكتب سابقة كانوا يحبون أن يطرأ على القرآن الأفعال التي مارسوها مع كتابهم من النسيان والترك والتحريف ، وسبحانه هو القائل عن أصحاب الكتب السابقة :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

إذن فقد أرادوا أن ينسى المسلمون - أيضاً - حظاً من القرآن ، لكن الحق يخبر بأنهم يشئوا أن ينسى المسلمون حظاً مما ذكروا به ؛ لأن الصحابة حفظوا القرآن في الصدور وكتبوه في السطور ومن لسان الرسول مباشرة . ولم يحدث مثلها حدث مع الرسل السابقين . فقد تم تسجيل هذه الكتب المنزلة عليهم بعد ثلاثة أو أربعة قرون ، بل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن من فور نزول كل نجم من الآيات ، وكان يأمر بوضع الآيات بترتيب معين .

إن على الذين كفروا أن يئسوا من أن ينسى المسلمون حظاً مما ذكروا به . وهؤلاء القوم من أهل الكتاب لم ينسوا حظاً مما ذكروا به فقط ؛ بل أيضاً حرفوا الكتاب عن مواضعه وكتبوا ما أنزل الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ

مَأْيَا كُفُونٍ فِي بَطْنِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة البقرة)

وهم يشعرون أن يكتم المسلمون ما أنزل الله ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتي بحكم في شيء ، ثم يغير الله ذلك الحكم ، فلا يستحي رسول له أن يبلغ : أن الحكم الذي قلته لكم قد غيره الله لي . وهل يستنكف أن يعدل الله ؟ وهذا دليل على أمانة البلاغ عن الله ، لذلك يشعرون الكافرون بالكتمان المختلفة من المؤمنين حفظاً مما ذكروا به ، لأن تسجيل القرآن كان أميناً بصورة لا نهاية ، وظل القرآن مكتوباً في السطور ومحفوظاً في الصدور .

والحق يعلن عن بأس الكفار من مشركين وأهل كتاب بقوله : « اليوم يشعرون الذين كفروا من دينكم » يشعرون لأن المراحل التي مرت بالكتب السابقة لن تفرج هذا الدين . قد توهم أهل الكتاب أن الإسلام سيعمر بما طرأ عليهم ، وظن بعضهم أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب من ترك لدينهم وإهدار له . وكذلك ظن من كفار قريش أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب ، فقد كانت ندمهم التوراة وهم مع ذلك لا يتبعون كتابهم ، فيرد الحق على كل هؤلاء : اليوم تشعرون الذين كفروا من دينكم » .

وقوله : « اليوم » يعني الزمان الذي مضى والزمان المستقبل ، فقد أتم الله دين الإسلام ورضيه لنا وفتح مكة للمسلمين ودخل الناس في دين الله أفواجا . وصار لقرآن مكتوباً ومحفوظاً . وبذلك تأكد بأس الكافرين والمشركين أن ينسى القرآن أو يكتم القرآن ، لأن من أنزل عليه الكتاب ، كان إذا جاء أمر يتعلق به فهو قوله . وعندما مال قلب المسلمين ذات مرة إلى تبرة المسلم الذي سرق وأن تلصق لتهمة باليهودي البريء ، هنا نزل من القرآن قوله :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أُرْسِلَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَافِينَ

خَصِيماً ۝١٥٥﴾

(سورة النساء)

لقد أمر الحق أن يكون النبي هو الحكم العدل حتى ولو كان حكماً ضد مسلم . يأمر الحق رسوله أن يستغفر الله إن كان قد ألم به خاطر أن ينصر المسلم الخائن على لليهودي الذي لم يسرق ، إنها ساحة دين الإسلام .

« اليوم يشس الذين كفروا من دينكم » . ولقد تم دين الله . ودخل الناس إلى الإسلام أفواجا . ولن ينسى القرآن . ولن يكتم القرآن أحد . ولن يحرف القرآن أحد . ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتان وتحريف ، أو الإتيان بأشياء أخرى والقول والزعم بأنها من عند الله ، وهي ليست من عند الله . إذن فقد يشس الذين كفروا من أن يتزيد المسلمون في دينهم . ولن توجد بين المسلمين تلك المثالب والعيوب التي ظهرت في الأقوام السابقة .

« اليوم يشس الذين كفروا من دينكم » لقد يشسوا من أن يغلب الإسلام ، بل إن الإسلام سيغلب . وأرادوا أن يطفثوا نور الله بأفواههم ويأى الله إلا أن يشم نوره .

« اليوم يشس الذين كفروا من دينكم فلا تحشوهم » وقد حكم سبحانه ألا يأتى أمر يحقق لأعداء الإسلام الشبهة به ، أو أن تتحقق لهم الفرصة في انكسار الإسلام ، فلا تحشوهم أيها المسلمون لأنكم منصورون عليهم ، ولن تدخلوا في أسباب الخيبة التي دخلوا فيها . وعليكم أيها المؤمنون بخشية الله .

ولو أراد أحد تغيير شيء من منهجه سبحانه فسيلقى العقاب ، وسبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فكتاب الله معكم وترك فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهجه ، فإن خالفتم المنهج فستلقون العقاب ، كما هزم الله المسلمين في أحد أمام المشركين لأنهم خالفوا المنهج . فما نفعهم أنهم كانوا مسلمين منسوين للإسلام بينما هم يخالفون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فلا خشية من المسلمين لأعدائهم . ولكن الخشية تكون لله ، فإن خفتم فخافوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله . ومادام سبحانه هو الأمر : لا تخش أعداء الله لأنه زرع في قلوبهم اليأس من أن ينسى المسلمون المنهج ، أو أن يتزيدوا في الدين ، أو يكتنموا الدين ، فهم لا يعرفونه ولا يزيدون فيه . إذن فالعيب كل العيب ألا تطبقوا منهج الله .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمى ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مغمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » والإكمال هو أن يأتى الشيء على كماله ، وكمال الشيء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه . وقد أتم الله استمرار النعمة بتمام المنهج .

لقد رضى الحق الإسلام ديناً للمسلمين . ومادام رضى سبحانه الإسلام منهجاً ،
فليأكم أن يرتفع رأس ليقول : لنستدرك على الله ؛ لأن الله قال : « أكملت »
فلا نقص . وقال : « أتممت » فلا زيادة . وعندما يأتي من يقول : إن التشريع
الإسلامي لا يناسب العصر . نرد : إن الإسلام يناسب كل عصر ، وإياك أن
تستدرك على الله ؛ لأنك بمثل هذا القول تريد أن تقول : إن الله قد غفل عن كذا
وأريد أن أصوب الله ، وسبحانه قال : « أكملت » فلا تزيد . وقال : « أتممت »
فلا استدراك ، وقال : « ورضيت » فمن خالف ذلك فقد غلب رضاء على رضا
ربه .

إن الخالق سبحانه هو أعلم بخلقه تمام العلم ، ويعلم جل وعلا أن الخلق ذو
أغيار . وقد نظراً عليهم ظروف تجعل تطبيق المنهج بحذافيره عسيراً عليهم أو متعذراً
فلا يترك لهم أن يترخصوا هم ، بل الذى يرخص ، فلا يقولن أحد : إن هذه
مسألة ليست فى طاقتنا . فساعة علم الحق أن هناك أمراً ليس فى طاقة المسلم فقد
خففه من البداية . ومادامنا ذوى أغيار ، وصاحب الأغيار يتنقل مرة من قوة إلى
ضعف ، ومن وجود إلى عدم ، ومن عزة إلى ذلة ؛ لذلك قدر سبحانه أن يكون من
المؤمنين بهذا المنهج الكامل من لا يستطيع القيام لمرض أو مخمصة ، فرخص لنا
سبحانه وتعالى : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » .

إذن فالحق قد ذكر أن شيئاً من الأغيار قد بطراً على النفس البشرية ، ومادام
استبقاء الحياة يتطلب القوات ، والإنسان قد يمر بمخمصة وهى المجاعة التى تسبب
الضمور فى البطن . هنا يرخص الحق للجائع فى مخمصة أن يأكل الميتة أو ما فى
حكمها بشرط الاضطرار لاستبقاء الحياة ، فلا يقول واحد على سبيل المثال :

أنا مضطر لأن أتعامل مع البنك بالربا لأنى أريد أن أتاجر فى مائة ألف جنيه وليس
معى إلا ألف جنيه . وهذا ما هو حادث فى كل الناس . هنا أقول : لا . عليك
بالتجارة فى الألف التى تملكها ولا تقل أنا مضطر للتعامل فى الربا . فالمضطر هو الذى
يعيش فى مجاعة وإن لم يفعل ذلك يموت أو يموت من يموت . وقد رخص الشرع
للإنسان الذى لا يملك مالاً أن يقترض من المراهب إن لم يجد من يقرضه ليشتري دواء
أو طعاماً أو شيئاً يضطر إليه لنفسه أو لمن يموت . والإثم هنا يكون على المراهب ،
لا على المقرض لأنه مضطر .

ولذلك قال الحق : « فمن اضطر في خمصة غير متجانف لإثم » ، أى أنه كاره للإثم وإن ذهب إليه . ولذلك يباح للمضطر على قدر دفع الضرورة . لدرجة أن رجال الشريعة قالوا : إن على الإنسان المضطر ألا يأكل من الميتة أو ما في حكمها بالقدر الذى يشبع ، بل يأخذ أقل الطعام الذى يحسك عليه ريقه ويبقى حياته فقط . فإذا كان يسير في الصحراء فعليه ألا يأخذ من الميتة أو ما في حكمها إلا قدر ما يسيراً لأنه لا يجد شيئاً يتقوت به .

إذن فمعنى اضطر في خمصة شرط أن يكون غير متجانف لإثم ، أى لا يكون مائلاً إلى الإثم فرحاً به ، فعليه ألا يأخذ إلا على قدر الضرورة . ومادام على قدر الضرورة فهو لن يحمل معه من هذه الأشياء المحرمة إلا ما يقيم أوده ويمسك روحه . والمضطر هو من فقد الأسباب البشرية . وسبحانه وتعالى قد بسط أسبابه في الكون ومد بها يديه إلى خلقه ، وأمر الأسباب : استجيبى لهم مؤمنين كانوا أو كافرين ، فالذى يزرع ويحسن الزراعة والرى والبذر والحراث فافقه يعطيه ، والذى يتقن عمله كتاجر تتسع تجارته وتزيد أرباحه .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ »

مِنْهَا ﴿

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

إن عطاء الأسباب هو عطاء الربوبية . والمضطر هو من فقد أسبابه . ولذلك فالحق يجيب المضطر إذا دعاه . وقد يقول قائل : إننى أدعو الله ولا يجيبني . ونقول : إنك غير مضطر لأنك تدعو - على سبيل المثال - بأن تسكن في قصر بدلاً من الشقة التى تسكنها ، وأنت تدعو بأن يعطيك الله سيارة فارهة وأنت تملك وسيلة مواصلات عادية . فالمضطر - إذن - هو الذى فقد الأسباب ومقومات الحياة .

﴿ أَمْ نَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وقد ضربنا من قبل المثل - والله المثل الأعلى - بتاجر يستورد بضائع تصله من الخارج في صناديق ثقيلة . تحملها السيارات الضخمة ، ويقوم أحد العمال أمامه بحمل صندوق ضخمة ، فغلب الصندوق العامل . وهنا يقفز التاجر ليسند العامل .

بهذه هي المساندة في المجال البشري ، إذن فلا يرَدُّ واحد أسباب الله من يده ويقول من بعد ذلك : يلرب أعنى ؛ لأن الله في تلك اللحظة يوضح للعبد : إنَّ عندك أسباب ومادامت أسباب موجودة ، فلا تطلب من ذاتي إلا بعد أن تنفذ أسبابي من عندك ؛ لذلك يباح للمضطر أن يأخذ القدر الذي يرَدُّ به السوء عن نفسه .

« فمن اضطر في خُمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » ومادام سبحانه قد رخص لنا ذلك ، فما الداعي أن يذيل الآية بمغفرته ورحمته ؟ ولنفهم أن الإنسان يأخذ الغفر مرة على أنه ستر العقاب عنه ، وقد يكون الغفر ستر الذنب عن العبد لأن الله رحيم . وهذا ما يشرح لنا ما قاله الحق لرسوله :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الفتح)

فسبحانه يغفر بستر العقاب ، ويقدم الغفر لستر الذنب فلا يقارفه الإنسان ويقول الحق بعد ذلك :

حَتَّىٰ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ
وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ
اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ
وَأَنْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٠﴾

فبعد أن بين الحق ما حرم وما أحل ، نجد أن المحلَّل غير محصور ، بل المحصور هو المحرم ؛ لأن الحق حينما حرم عشرة أشياء ، فإن هذه الأشياء العشرة ليست هي كل الموجودات في الكون ، فالموجودات في الكون كثيرة . وسبحانه وتعالى حين خلق آدم وجعله يتناسل ويتكاثر للخلافة في الأرض ؛ قدر في هذه الأرض مقومات استبقاء الحياة لذلك النوع .

والاستبقاء نوعان : استبقاء حياة الذات للإنسان ، واستبقاء حياة نوع الإنسان ، واستبقاء حياة الذات تكون بالتنفس والشراب والطعام ، واستبقاء حياة النوع تكون بالإنكاح والتناسل .

إذن يوجد بقاءان لاستمرار الخلافة : البقاء الأول : أن تبقى الحياة وذلك بمقوماتها ، والبقاء الثانى : أن يبقى نوع الحى وذلك بالتكاثر . وحتى تبقى الحياة ويتكاثر الإنسان لا بد من وجود أشياء وأجناس تخدم الإنسان وتعطيه الطاقة . وطماننا سبحانه وتعالى على الرزق حينها قال :

﴿ قُلْ أَشْكُرُ لَكُمْ فَرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَمَدًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١٠ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْمًا مِّنْ قَوِّهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيْلٌ ١١ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٢ ﴾

(سورة فصلت)

وهو بذلك يخبرنا بأنه قدر فى الأرض أقواتها ، وقدر هذه الأقوات للإنسان الخليفة فى الأرض ، لتقيت الإنسان هذه الحياة ، ويبقى الإنسان نوعه بالإنكاح . وحين يعد العبد النعم التى وفرها له الحق يجدها لا تحصى . ولم يحل الإنسان على طول تاريخه أن يحسب ويحصى نعم الله فى الأرض ؛ لأن الإقبال على الإحصاء يكون نتيجة المظنة بالقدرة على الإحاطة بالنعم . وقد عرف الإنسان بداية أنه لا يقدر على الإحاطة بنعم الله ؛ فلم يجرؤ أحد على أن يعدها . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة إبراهيم)

وقد استخدم « إن » وهى للأمر المشكوك فيه . إذن فهى نعم كثيرة لا تقدر على إحصائها . ونسأل : أيقول الحق لنا النعم المحللة أم الأشياء المحرمة ؟ وبما أن المحلل كثير لا نهاية له ، وبما أن المحرم محصور ؛ لذلك يورد لنا الأشياء المحرمة . وقد بين لنا الحق عشرة أشياء محرمة من النعم . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى

حينما تكلم عن عدم قدرة الإنسان على إحصاء نعمه سبحانه وتعالى قال في آية :

﴿وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٦﴾﴾

(سورة إبراهيم)

وقال في آية أخرى :

﴿وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

(سورة النحل)

وظاهر كلام الناس يقول : إنها عبارات تقال وتكرر ، ولكننا نقول : يجب أن نتنبه إلى أن النعمة تحتاج إلى من يعطيها وهو المنعم . ومن تعطي له وهو المنعم عليه . إذن فنحن أمام ثلاثة عناصر : نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه . أما من جهة النعمة وأفرادها فلن يقدر البشر على إحصائها لأنها فوق الحصر . ومن جهة المنعم فهو غفور رحيم . ومن جهة المنعم عليه فهو ظلوم كفار . لماذا يأتي الله لنا بمثل هذه الحقائق ؟

إنه سبحانه لو عاملنا بكفرنا وجحودنا وظلمنا لمنع النعمة ، ولكن استدانة نعمة الله علينا فضل منه ورحمة لأنها تشملنا حتى ولو كنا ظالمين وكنا كفارا ؟ لذلك كان من اللازم أن يأتي بهاتين الآيتين « فمن ناحية النعمة لن نقدر على حصرها . ومن ناحية المنعم فهو غفور رحيم . ومن ناحية المنعم عليه فهو ظلوم كفار . ولذلك فعندما يرتكب الإنسان ذنبا فإن أهل الإيمان يقولون له : لا تيأس ؛ فربك هو ، هو ، إن غفور رحيم . ولذلك لا تستحي أيها العبد أن تطلب من ربك شيئا على الرغم من معصيتك ، فאלله غفور رحيم . وعندما ننظر إلى مقومات الأشياء ، فإننا نعرف المقوم الأساسي .

لكن هناك مقومات تخدم المقوم الأساسي . ومثال ذلك نحن نأخذ القمح وندرسه ، وتصنع من حبوب القمح دقيقا لتصنع منه خبزا . وبحسب القمح إلى مقومات كثيرة حتى يخرج من الأرض - وهو مقوم أساسي - إن القمح يحتاج إلى ري منتظم وحرث وخلاف ذلك ، إذن فالذي خلقنا قدر لنا هذه الأشياء ، ومادام قد قدر لنا كل هذه الأشياء ، فعلى أن نسمع تعليمه . وهو قد أوضح : إياك أن تظن أن كل ما خلقت من خلق فأننا نجده لك . لا أن قد أنخلق خلقا ليس من طبيعته أن

تتناوله ، وليس من طبيعتك أن تتناوله ، ولكن لهذا المخلوق عمل فيما تتناوله كالحرث والرى والتسميد للقمح ، إنها وسائل وأسباب للحصول عليه . فإذا ما قال قائل : مادام هو سبحانه قد خلق هذه المحرمات فلماذا حرمها ؟

ونقول : هذه الأشياء ليس لها عمل مباشر فيك ولكن لها عمل آخر في الكون . وإذا كنا نحن البشر نصنع آلة ما ، ويقول المخترع لنا : قد صممت هذه الآلة - على سبيل المثال - لتدار بالديزل ، وآلة أخرى تدار بالبنزين ، والبنزين أنواع ، ولو جئنا للآلة التي تدار ببنزين ووضعنا لها سولارا - ما الذي يحدث لها ؟ إنها تفسد ، هذا في المجال البشري فما بالنا بخالق البشر ؟

لقد صنع الحق صنعه وهو الإنسان ووضع المواصفات التي تسير هذه الآلة ، وعلينا أن نخضع لتعاليمه حتى لا تفسد حياتنا فلا نخرج عن تلك التعاليم ؛ لأنك عندما تخالف وتخرج عما وضعته لصنعتك من نظام ، فالآلة التي من صناعتك تفسد .

وفي حياتنا آلاف الأمثلة . . فالذي صنع الكهرباء ووضع العلامات للأسلاك السالبة والأسلاك الموجبة ، لناخذ الضوء أو الحركة . وإذا ما حدث خطأ في هذه التوصيلات الكهربائية ؛ ففاجأ بحدوث قطع في الكهرباء ، وقد تحدث حرائق نتيجة شرارة من الاتصال الخاطئ .

إذن فكل تكاثر وإنجاب من كل سالب وموجب أى ذكر وأنثى لا بد أن يكون على مواصفات من صنعه وإلا يحدث قطع ودمار ، فإن تزوجنا بشرع الله ورسوله ، استقامت الحياة ، وإن حدث شيء على غير شرع الله ، تشتعل الحرائق في الكون .

ولذلك نحمد العجب أمامك عندما تشهد عقد قران ، نحمد ولي الزوجة وهو مبتسم منشرح بوجه الدعوات للناس لأن شابا جاء يتزوج ابنته ويقدم الحلوى ، لكن لو كانت هذه العروس تجلس في المنزل وحاول شاب أن يتلصص لرؤيتها ، فما الذي يحدث في قلب والدها ؟ إنه يغل من الضيق والغضب والتوتر ومن الذى يتلصص لأنه ذهب إلى الفتاة بغير ما أحل الخالق . لكن عندما يدق الباب ويخطبها من أبيها ؛

فالاب يفرح ، فقد جاء في الأثر : (جدد الحلال أنف الغيرة) .

ونجد الأب ينتقل من موقف الغيرة إلى موقف الفرح يوم زفاف ابته ، وتذمه
الأم صباح اليوم التالي للزفاف لترى حالة ابتهما ولتطمئن ، هل الابنة سعيدة أو لا
إذن . فلا يقولن أحد: إن الله خلق أشياء فليأذا حرمها ؟ ، لأن الله خلق تلك الأشياء
ولما عمل فيها أحل ، ومادام سبحانه قد جعل لهذه الأشياء عملاً فيها أحل . فلي
لك دخول إلا بالحلال .

ولذلك يقول الحق رداً على تساؤل المؤمنين : « يسألونك ماذا أحل لهم قل أح
لكم الطيبات » أى أن كل طيب قد حلله الله ، وكل خبيث حرمه الله ، فلا تقولن
هذا طيب فيجب أن يكون حلالاً ، وهذا خبيث فيجب أن يكون حراماً ، ولك
قل : هذا حلال فيجب أن يكون طيباً ، وهذا حرام فيجب أن يكون خبيثاً . وإيا
أن تحكم أولاً بأن هذا طيب وهذا خبيث ثم تنى على ذلك التحريم والتحليل
فأنت لا تعرف مثلاً يعرف خالفك عن كيفية وجدوى ترتيب الأشياء بالنسبة لك
حتى لا تقع في دائرة الذين يستطيعون المسائل الضارة ؛ كهؤلاء الذين يتناولو
المخدرات والسموم والخمور ، بل يجب أن تحرص على فهم ما أحل الله فتم
طيباً ، وترفض ما حرم الله لأنه خبيث ، فلا تنظن أبداً أن كل طيب ظاهرياً
لك ؛ لأن هذا الشيء الطيب في ظاهره قد يكون خبيثاً .

وعليك أن تترك تحديد الطيب والخبيث لخالفك ، فهو أدرى بك وبالمناسب لك
أما أنت فتعرف الشيء الطيب من تحليل الله له . وتعرف الخبيث من تحريم الله له
والحكم هنا يكون للتكليف ، فالله هو الذى خلق ، والله هو الذى يعلم الصالح
للإنسان . فالمسألة إذن ليست العناصر ؛ ولكنها إرادة الخالق لتلك العناصر ، ف
الذى قدر فهدى .

الخلاصة إذن في هذا الموضوع هى : أن الحق أحل للمؤمنين الطيبات وكل شئ
أحلله الله يكون طيباً ، وكل شئ حرمه الله يكون خبيثاً ، فلا تنظر أنت إلى الأمر
البشرى الذى يقول بعضها على شئ إنه طيب فيكون حلالاً ، وإن ذلك الشئ خبي
فيكون حراماً ، فأنت وغيرك من البشر لا تعرفون ترتيب الأشياء ولا فائد

ولا مضرتها بالنسبة لك . والدليل : أن البشر يتدخلون في بعض الأحيان في تحريم أشياء بالنسبة لبعضهم البعض ، فنجد الطبيب يقول للمريض : أنت مريض بالسكر فلا يصح أن تتناول الشويات والسكريات .

فإذا كنا نسمع كلام الطبيب وهو من البشر ، أفلا يجدر بنا أن نستحي ونستمع لأمر الخالق؟! بل نتجاسر ونسأل : لماذا حرمت علينا يا رب الشيء الفلاني ؟ وقد يخطئ الطبيب لكن الله لا يمكن أن يخطئ . فهو ربنا المأمون علينا ، فما أحله الله يكون الطيب وما حرمه يكون الخبيث ، وهذه قضية يتعرض لها أناس كثيرون ، فعلى سبيل المثال نسمع من يستشهد الاستشهاد الخاطيء وفي غير موضوعه بقول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ويقول : إن عمل يأخذ كل وقته . ولا فسحة عندي لإقامة الصلاة ، والله لم يكلفنا إلا ما في الوسع . ونقول : وهل أنت تقدر الوسع وتبنى التكليف عليه ؟ لا . عليك أن تسأل نفسك : أكلفك الله بالصلاة أم لا ؟ فإذا كان الحق قد كلفك بالصلاة ، وغيرها من أركان الإسلام فهو الذي علم وسع الإنسان في العمل . ويجب أن تقدم التكليف أولاً لتعرف طاقة الوسع من بعد ذلك . وكذلك أسأل نفسك عما حلله الله وأعرف أنه طيب وما حرمه الله فهو خبيث .

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » وإذا سألنا ما تلك الطيبات ؟ عرفنا أنها غير ما حرم الله ، فكل غير محرم طيب ، أو أنهم سألوا عن أشياء سيكون الجواب السابق هو الإجابة الطبيعية لها ، وقدم الله الإجمال الذي سبق أن شرحناه . وبعد ذلك يكون المستول عنه في مسألة الصيد بالكلاب ، فجاء لهم بالبيان في مسألة الصيد بالكلاب . وكانت تلك مسألة مشهورة عند العرب في الجاهلية ، وكذلك صيد الطيور . فقال : « قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح » فقد وضع الحق القضية العامة أولاً ، ثم خصص بعد ذلك .

لقد كانت مسألة صيد الجوارح موضوع سؤال من عدى بن حاتم - رضى الله عنه - عن الصيد بالكلاب وبالطيور . وعلينا أن نحسن الفهم عن القرآن بحسن

فهم عن النص ، فالحق يقول هنا : « أحل لكم الطيبات وما علّمتم من الجوارح » هل الكلاب والفهود والنمور التي تصطاد بواسطتها هي المحللة لنا لأننا علمناها لصيد ؟ لا . « أحل لكم الطيبات » هي قضية منتهية . وبعد ذلك فهنا كلام جديد هو : « وما علّمتم من الجوارح مكلّين تعلمونن مما علمكم الله فكلوا مما أسكن بليكم » .

إذن فالذي أحل هو ما أمسكت ما علمت من الجوارح ، وليست الجوارح التي يعلمها لإنسان ، أي أن الحق أحل لنا الطيبات وأكل ما أمسكت علينا الكلاب التي علمناها لصيد . وه الجوارح « مفردا » جارح « ومعناها » كاسب » ، ولذلك تسمى أيدينا موارح ، وهيونا جوارح ، وأذاننا جوارح ؛ لأننا نكسب بها المدركات . فالعين تارحة نكسب المرئي ، والأذن جارحة نكسب المسموع . والأنف جارحة نكسب لشموم . واللمس جارحة لأننا نكسب بها الملموس . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنعام)

وه ما جرحتم « أي ما كسبتم ، إذن فالجارحة هي الكاسية . وقوله الحق : وما علّمتم من الجوارح « مقصود به الحيوانات التي نعلمها كيف تصطاد لنا ، سميت جوارح ، لأنها كاسية لأصحابها الصيد ، فالإنسان يطلقها لتكسب له لصيد ، أو أنها في الغالب تمزح ما اصطادته . وكلا المعنيين يصح ويعبر .

والأصل في ما علّم الإنسان من الجوارح هو الكلاب ، والحق بالكلاب غيرها مثل لفهود والنمور والصقور . والحق قال : « وما علّمتم من الجوارح مكلّين تعلمونن ما علمكم الله » أي ما بذلت من جهد في تدريب هذه الجوارح للصيد ، فالإنسان ؟ يطلق الكلب أو الصقر ليصطاد ، لكنه يقوم - أولاً - بتدريب الحيوان على ذلك .

ومثال ذلك : عندما يقوم مدرب القرد بتدريب كل قرد على الألعاب المختلفة ، كذلك مدرب « السيرك » الذي يقوم بتدريب الأسود والفيلة ، فهذا الفيل الضخم تقف بأربعة أرجل على اسطوانة قطرها متر واحد ، وذلك كله ممكن بالتدريب بما يلمكم الله وألهمكم أيها البشر وبما أعطاكم من طول البال وسعة الخيلة .

وننتبه هنا إلى نقطة هامة : إن الإنسان يقوم بتدريب الحيوان على ألعاب ومهام مختلفة ولكن الفيل - على سبيل المثال - لا يقدر على تدريب ابنه الفيل الصغير على الألعاب نفسها . وهذا هو الفارق بين الإنسان والفيل ، فابن الإنسان يتعلم من والده وقد يتفوق عليه ، لكن تدريب الحيوان مقصور على الحيوان نفسه ولا يتعداه إلى غيره من الحيوانات من الجنس نفسه أو الذرية فلا يستطيع الحيوان الذي درّبه وروّضه وعلمته أن ينقل ذلك إلى ذريته ونسله فلا يستطيع أن يعلم ابنه .

وكلمة « مكلب » تعني الإنسان الذي يعلم الكلاب ويديرها على عملية الصيد . وقال البعض : إن « مكلب » أي الرجل الذي يقتني الكلاب ، لكننا نقول : إن الإنسان قد يقتني الكلاب لكنه لا يقوم بتدريبها ، إذن المكلب هو الذي يحترف تدريب الكلاب ، ومثله مثل سائس الخيل الذي يدرب الخيل ، فالحصان يحتاج إلى تدريب قبل أن يمتطيه الإنسان أو قبل أن يستخدمه في جر العربات .

ولماذا ذكر الله « المكليين » ولم يذكر مدرّبي الفهود ؟ . لأن الغالب أن الكلب شبه مستأنس ، أما استئناس الفهد فأمر صعب بعض الشيء . و« مكليين » تعني المنقطعين لتعليم الكلاب عملية الصيد . ويعرف معلم الكلاب أن الكلب قد تعلم الصيد بأنه إذا ما أغراه بالصيد فإن الكلب يذهب إليه . وإذا ما زجره المدرب فهو يرجع من الطريق . وإذا ما ذهب الكلب إلى الصيد بعد تعليمه وتدريبه وأمره المدرب أن يحمل الصيد ويأتى ؛ فالكلب يطيع الأمر . ويأتى بالصيد سليماً ولا يأكل منه . فهذه أمانة وعلامة على أن الكلب تعلم الصيد ويمكن تلخيصها في هذه الخطوات : إذا أرسلته للصيد ذهب ، وإذا زجرته انزجر ، وإذا استدعته جاء ويأتى بالصيد سليماً لا يأكل منه . فإن أكل الكلب من الصيد فهو غير معلم ؛ لأنه أمسك الصيد على نفسه ، ولم يمسكه على صاحبه . ولذلك حدد الحق عملية الصيد بقوله عن الحيوانات التي تؤدي هذه المهمة : « بما أمسكن عليكم » .

ومن ضمن عملية التدريب هناك إطار إيمان ، فالتدريب المضل هو عملية يعلمها المكلب للكلب ، أما الإطار الإيماني فهو ذكر اسم الله على الصيد : « واذكروا اسم الله عليه » وذلك حتى يكون الصيد حلالاً ، ولا يقع في دائرة « ما أهل لغير الله به » . وإذا ما هجم الكلب على الصيد وقتله ، يكون الصيد حلالاً ، إن كان

صاحب الكلب قد قال : « بسم الله والله أكبر » قبل أن يرسل الكلب إلى الصيد . إن لم يذكر اسم الله فعليه أن ينتظر إلى أن يعود الكلب بالصيد . فإن كان في الصيد حياة فليذكه أى يذبحه ، ويذكر اسم الله ، وإن مات الصيد قبل ذلك فلا يأكل منه . وكذلك إذا ما اصطاد الإنسان بالبندقية . . إن ذكر اسم الله أولاً وقبل أن يطلق الرصاصة فليأكل من الصيد .

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » هذه هي القضية العامة ، من بعد ذلك يحدد لنا الحق ألا نأكل الكلاب ، ولكن هذه الكلاب التي نعلمها لصيد وتصطاد لنا ما نأكله بشرط أن تذكر اسم الله على الصيد قبل إطلاق الكلب للصيد ، أو بعد أن تذبح الصيد الذى اصطاده الكلب « فذكر اسم الله مسألة أساسية في تناول النعم ، لأننا نذكر المذلل والمسخر ، ولا يصح أن نأخذ النعمة من وراء صاحبها دون أن نتذكره بكلمة .^(١) »

ويذيل الحق الآية بقوله : « واتقوا الله إن الله سريع الحساب » وتقوى الله في هذا المجال تعنى ألا يؤدى الإنسان هذه الأمور شكلياً ، وحل المؤمن أن يتقى الله في تنفيذ وأمره بنية خالصة ودقة سلوك ، لأنه سبحانه سريع الحساب بأكثر من معنى ، فمهما ظالت دنياك فهي منتهية . ومادام الموت هو نهاية الحياة فالحياة قصيرة بالنسبة للفرد . إليك أن تستغل عمر الدنيا ، لأن عمر الدنيا لك ولغيرك فلا تحسب الأمر بالنسبة ليك على أساس عمر غيرك الذى قد يطول عن عمرك . إذن مدة الحياة محدودة ، ومادام الموت قد جاء ، فعل المؤمن أن يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »^(٢) .

والإنسان منا يعرف من خبر القرآن أن الموت مثل النوم . لا يعرف الإنسان منا ثم ساعة قد نامها ، ونعرف من خبر أهل الكهف أنهم تساءلوا فيها بينهم :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

(١) وتذهب بعض التفاهة إلى حل الأكل من الفريسة أو الصيد الذى لم يذكر اسم الله عليه وأكثر بالقسمة عند الأكل . هذا إذا لم يكن اللبغ أو الصيد قد أحل به لغير الله .

(٢) ابن أبي الدنيا في الموت وأخبرجه القضى الخنقى في كثرة المبال ، والزهدى في المجال للساعة للظنين .

يَوْمَ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْقُنَّكُمْ ﴿٥﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

إذن هم لم يبينوا أنهم نلوا ثلاثمائة عام وتسعة أعوام إلا بعد أن سألوا، وكذلك من يموت فهو لن يدري كم مات إلا يوم البعث . لو أنه سبحانه سريع الحساب أى أن له حساباً قبل حساب الآخرة ، وهو حساب الدنيا . فعندما يرتكب العبد المخالفات التى غنى عنها الله ، ويأكل غير ما حلل الله ، فهو سبحانه قادر على أن يجازى العبد فى الدنيا فى نفسه بالأمراض أو التعب أو المرض النفسى ، ويقف الأطباء أمام حالته حائرين . وقوله الحق : « إن الله سريع الحساب » يصح أن تكون السرعة فى الحساب فى الدنيا ويصح أن تكون فى الآخرة .

أو أنه سبحانه سريع الحساب بمعنى أنه يحاسب الجميع فى أقل من لمح البصر ، فالبعض يظن ظناً خاطئاً أنهم سيقفون يوم القيامة فى طابور طويل ليتلقى كل واحد حسابه . لا ، هو سبحانه يحاسب الجميع بسرعة تناسب طلاقة قدرته . ولذلك عندما سئل الإمام على - كرم الله وجهه - : كيف سيحاسب الله كل الناس فى وقت واحد ويقال إن مقداره كنصف يوم من أيام البشر ؟ . فقال الإمام على : فكما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد هو قادر على حسابهم فى وقت واحد .

فسبحانه لم يجعل البشر تقف طابوراً فى الرزق ، بل كل واحد يتنفس وكل واحد يأكل ، وكل إنسان يسمى فى أرض الله لينال من فضله . ولا أحد بقادر على أن يحسب الزمن على الله ، لأن الزمن إنما يحسب على الذى يحدث الحدث وقدرته عاجزة ، لذلك يحتاج إلى زمن .

إننا عندما ننقل حجراً متوسط الحجم من مكانه فإن ذلك لا يكلف الرجل القوى إلا بعضاً من قوته ، لكن هذا العمل بالنسبة لطفل صغير يحتاج إلى وقت طويل ، فما بالنا بخالق الإنسان والكون ؟ وما بالنا بالفاعل الذى هو قوة القوى ؟ هو لا يحتاج إلى زمن ، وهو سريع الحساب بكل المعانى .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

يَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
 الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ
 وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ
 عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

سبحانه يبدأ الآية بتكرار الأمر السابق : « اليوم أحل لكم الطيبات » . وأعادها
 حتى يؤكد حل أن الإنسان لا يصح أن ينظر إلى الأمر الطيب إلا من زاوية أنه محلل
 من الله .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن كيفية تناول المحللات « واسلوب التعامل مع
 الصيد . نأتى هنا لوقفه ، فسبحانه يقول : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم
 وطعامكم حل لهم » فهل كل طعام أهل الكتاب هو الطعام الذى يكون من جنس
 الحلال لا ، بل الحلال من طعام أهل الكتاب هو الطعام الذى يكون من جنس
 ما حلل الله لكم . ولا يستقيم أن يستكف الإنسان من أنه طعام أهل كتاب ؛ لأز
 الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل من الإنسان الذى ارتبط بالسما ارتباطاً حقيقياً
 كالمسلمين . ومن ارتبطوا بالسما وإن اختلفت تصوراتهم الله ، يريد سبحانه أن يكون
 بينهم نوع من الاتصال لأنهم ارتبطوا جميعاً بالسما ، ويجب أن يعاملوا على قدر
 ما دخلهم من إيمان باتصال الأرض بالسما .

إليك أن تقول بمقاطعة أهل الكتاب لا ، ولكن انظر إلى طعامهم فإن كان من
 جنس الطعام المحلل في الإسلام فهو حلال . ولا يصح أن تمنع واحداً من أهل
 الكتاب من طعامك ؛ لأن الله يريد أن ينشئ شيئاً من الألفة يتناسب مع الناس
 الذين سبق أن السما لها تشريع فيهم ويعترفون بالإله وإن اختلفوا في تصوره .

وضرب لنا - سبحانه - المثل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ففي أول مجيء الدعوة الإسلامية ، واجهت معسكرا ملحدا يعبد النار ، ولا يؤمن بالإله وهو معسكر فارس ، ومعسكراً يؤمن بالإله وهو معسكر الروم ، كانت هناك قوتان في العالم : قوة شرقية وقوة غربية . وعندما أتى رسول ليأخذ الناس إلى طريق الله ، فلا بد أن يكون قلبه وقلوب المؤمنين معه مع الذين آمنوا به وبمنهج ورسالة ، ولا يكون قلبه مع الملاحدة الذين يعبدون غير الله .

ولتر العظمة الإيمانية في الرسول عليه الصلاة والسلام . نجد الذين يؤمنون بالله ويكفرون به كرسول أولى عنده ممن يكفرون بالله . ولذلك عندما قامت الحرب بين فارس والروم كانت الغلبة أولاً لفارس . وكانت عواطف الرسول والذين آمنوا معه مع الروم ، لأنهم أقرب إلى معسكر الإيمان الوليد وإن كانوا يكفرون بمحمد فقد كانوا يؤمنون بالله ، وأن هناك منهجا وهناك يوم بعث ، ولذلك يضربها الحق مثلاً في القرآن ليعطينا عدة لقطات ، وأولى هذه اللقطات هي أن المسلمين في جانب من عنده رائحة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ اَلَمْ غَلَبَتْ اَلرُّومُ ۚ ^١ فِيْ اٰذْنِ الْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ ۚ ^٢ فِيْ بَضْعِ سِنِيْنَ ۗ اِنَّ اَلْاَمْرَ مِنْۢ قَبْلُ وَمِنْۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍۭ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُوْنَ ۚ ^٣ يَنْصُرُهُمُ اللّٰهُ يَنْصُرُ مَنۢ يَّشَآءُ ۗ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ ۝۱۰۰ ﴾

(سورة الروم)

وتبدأ هذه الآيات بخبر عن هزيمة الروم ، ثم نبوءة من الحق بأنهم سيفلبون في بضع سنين . ويوم نصرهم سيفرح المؤمنون بنصر الله . وتنظر القوة الإسلامية التي جاءت لتؤسس ديناً واسعاً جامعاً مانعاً إلى معركة بين دولتين عظميين كلتيهما على أقصى ما يكون من الرقى الحضارى ، هذه القوة الإسلامية تتعاطف مع الروم وتحزن - القوة الإسلامية - لأن الفرس قد غلبت . فبأنى الحق بالخبر اليقين وهو سَنَغْلِبُ الروم .

وبالله من الذى يستطيع أن يحكم في نهاية معركة بين قوتين عظميين ؟ إنه حكم لا يستغرق يوماً ، حتى ولو كان قائله عرف أن هناك مدداً قادمًا للقوة التي ستتصر ،

إنه حكم يستغرق بضع سنين . فمن الذى يستطيع أن يتحكم فى معركة ستعقد بعد بضع سنين ؟ لا يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجازف بهذا الحكم وهو لا يعرف استعدادات كل قوة وحجم قواتها وأسلحتها ، لكن الأمر يأتى كه موثق من الله :

﴿ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ ظَهْرِهِمْ سَيَّطُونٌ ۝١٠١ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۝١٠٢ ﴾

(سورة الروم)

وهذا كلام موثق ، لأنه قرآن مسطور يقرأه المؤمنون تعبدًا . وعندما سمع أبو بة الصديق هذه الآية « قال : لقد أقمت رهانا بأن الروم ستنتصر بعد ثلاث سنين وطالبه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمد مدة الرهان لأن الله قال : « فى بضع سنين » والبضع ما بين الثلاث إلى التسع ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبى بكر - رضى الله عنه - فزايده فى الخطر وماده فى الاجل فجعلت مائة قلوب (ناقة) إلى تسع سنين . كان هذا الأمر قد لقي الوثوق الكامل من المؤمنين ، لأن سبحانه وتعالى قد أخبر بالنصر .

لقد أوردنا ذلك هنا حتى نفهم أن عواطف الرسول صلى الله عليه وسلم كانت « الذين يؤمنون بكتاب ورسول . ونحن هنا نجد الحق بجلل لنا مطاعمة أهل الكتاب حتى تكون هناك صلة بيننا وبين من يؤمن بإله ويمتج السماء : « وطعام الذين أؤا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » .

وأوضح الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى حينها قال :

﴿ لَا يَنْهَكَ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يَقْنَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يَجْرِبُوا مِنْ دِينِكَ أَنْ تَكُفُّهُمْ وَتَقْسُطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝١٠٣ إِنَّمَا يَنْهَكَ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ قَنَلُوا فِي الدِّينِ وَاجْتَرَبُوا مِنْ دِينِكَ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِعْرَاجِكَ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَلَا يَكُنْ لَهُمْ الظَّالِمُونَ ۝١٠٤ ﴾

(سورة الممتحنة)

فببجانه یرید أن نوازن فی أسلوب تعاملنا فلا نساوی بین ملحد مشرك ومؤمن ببصلة السماء بالأرض وإن كفر برسول الله . وأن يكون هناك قدر محدود من التواصل الإنسان . فالذى یجل للمؤمنین من طعام أهل الكتاب هو الذى يكون حلالا فی منهج الإسلام . ویجب أن یتبہ المسلم إلى أن بعض أطعمة أهل الكتاب تدخلها الخمر وعلیه الامتناع عن كل ما هو محرم فی دیننا ولیأكل من طعامهم ما هو حلال لدیننا . فلا یشرب المسلم خمرأ ، ولا یأكل المؤمن لحم الخنزیر .

والطعام كما نعلم وسیلة لاستبقاء الحیاة . وما هوذا ینتقل إلى استبقاء النوع وهو التناسل ؛ فقد أحل الله لنا أن نتزوج من بناتهم « والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذین أونوا الكتاب من قبلکم إذا أنیموهن أجورهن محصنین غیر مسافحین ولا متخذی أخذان » .

والمحصنة لها معنیان : وهی إما أن تكون الحرة فی مقابل الأمة ، وإما أن تكون المتزوجة ؛ لأن الإحصان یعنى الوقایة من أن تختلط اختلاطا غیر شریف . وكانت الحرة قدیما لا تفعل الفعل القبیح . وكان البغاء مقصورا على الإماء ؛ لأن الأمة لا أب لها ولا أخ ولا عائل ، وهی مُهَنَذرة الكرامة . ولذلك نجد أن هذا زوجة أبی سفیان عندما سمعت عن الزنا من رسول الله صلى الله علیه وسلم نساءلت : یا رسول الله أو تزن الحرة ؟! كان الحرة لم تكن لتزن فی الجاهلیة ؛ لأن الحرة تستطيع أن تمنع عكس غیرها .

والمحصنة ایضاً هی المتزوجة . وساوی الحق بین المحصنة من المؤمنات والمحصنة من أهل الكتاب ، والمراد هنا الحرة العقیفة ویشرط وضع المهر لكل واحدة منهم . وبعض العلماء یقول : عندما تتزوج مسلمة یکفى أن تسمى لها المهر ، لأن الذین الواحد یعطى الأمان العهدی ، أما الزواج من کتابیة فیجب أن یحدد الإنسان المهر وأن یقرره وأن یوفى بذلك . فالإیثاء هو أن یرسم الإنسان المهر ویقرره ویشهد علیه الشهود . ویستطیع أن یجعل الإنسان المهر كله مؤخرأ . والشرط أن يكون الرجل محصناً أى متعففاً .

ویحدد الحق : « غیر مسافحین ولا متخذی أخذان » أى صدائق لهم دون زواج ،

بالسُّفْح هو الصَّب . والمرأة البُنى هي من يَسْفَح معها أى رجل ، والحَدَن هي الحَلِيلَة أو العَشِيقَة دون زواج ، والحَدَن كذلك يطلق على الذكر كما يطلق على الأنثى . وإليك أن تفكر في أمر إقامة علاقة زواج متعة ، بل لا بد أن يكون الإقبال على الزواج بنية الزواج التائيدى لا الزواج الاستمتاعى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، لأن فائدة الإيمان أن يستقبل المؤمن الأحكام من آمن به إما ينفذها . فإن سترت شيئا من أحكام الله التى آمنت بها فقد كفرت بالإيمان . والحق ' يضره أن يكفر الناس جميعا ، لأنه هو الذى خلق الخلق بداية وهو متصف بكل صفات القدرة والكمال .

إذن فالعالم كله لا يضيف إلى الله شيئا ، فقبل أن يخلق الله الإنسان كانت كل صفات الكمال موجودة لله . وكل ثمار الطاعة والعبادة والإيمان إنما تعود على الإنسان . فإن جاء الإنسان إلى الأحكام التى شرعها الله له ، وستر حكما منها فكانه مَر بَقضية الإيمان . وإن أنكر جزئية من جزئيات الإيمان ، فهذا لون من الكفر ، ياليت من يفعل ذلك أن يقول : « إن هذه الجزئية صحيحة ولكن لا أقدر على سى » .

ففى هذه الحالة يكون الإنسان مؤمنا عاصيا يستغفر الله أو يتوب ، أما الكفر لا . والكفر بالإيمان يؤدى إلى حبط العمل . وهذا دليل على أن الحق يخاطب إنسانا يترحم فى بعض الأشياء ولا يلتزم فى البعض الآخر . وهنا يوضح الحق للإنسان : إن أدبت من خبر فى أعمالك سيذهب بثوابه ويحبط جزاءه ما تمتعت بتنفيذه من أحكام له ، وجاء الحق بكلمة « حبط » التى تدل على أن العمل بطل وذُهب ذهباً يعود . فللمأشبة حين تأكل طعاما لم ينضج بعد وإن كان من جنس ما تطعم مثل برسيم فى بدايته ويسمى « الرِّبَة » ، هذا اللون من الطعام عندما ترعى فيه البهائم يذث لها انتفاخ فى البطن وموت .

والعرب تسمى هذا الذءاء الحَبَاط . فالْحَبَط إذن هو انتفاخ البطن فى المأشبة التى كل أكلا غير مناسب لها . ويظن صاحبها أنها قد سممت بينما هى تموت فى الواقع .

وكذلك يكون العمل على غير ما شرع الله . والحق بدأ قضايا الإيمان في هذه السورة بقوله :

﴿ بَنَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

فكل عقد إيمان يتعلق بالوحدانية لله وبالبلاغ عن الله ، وكل عقد عُقد بين المؤمنين بعضهم بعضاً ، وكل عقد عقده الإنسان بينه وبين نفسه ؛ هذه العقود مطلوب الوفاء بها ، ومن يكفر بهذه الأشياء فقد حبط عمله . وحبط العمل يأتي نتيجة أن الإنسان أنهى عمله وختمه بهذا اللون من الكفر وظن أنه عمل عملاً صالحاً . لكن العمل يحبط تماماً كما نذهب البهيمة لترعى شيئاً لا يتناسب معها فيتفزع بطنها . فيخيل للرأى أن ذلك شيع وأن ذلك عافية ، ثم لا تلبث أن تنفق وتغوت . كذلك عمل الذي يكفر بالإيمان ، يظن أنه عمل شيئاً ولكن ذلك الشيء متلف له . والآيات القرآنية تكلمت عن هذا المعنى كثيراً ؛ فالحق يقول عن الكافرين بالله :

﴿ أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفْبِقُهُ يَحْسَبُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

ونعلم أن السراب هو شيء من انعكاسات الضوء يخدع الرأى السائر في الصحراء فيظن أنه ماء ، ويسير إليه الإنسان فلا يجده ماء ، هكذا يكون عمل الذي يكفر بآيات الله . إنها أعمال تبدو متوهمة النفع . وقول الحق سبحانه : « ووجد الله عنده » أي أن مثل هذا الإنسان يفاجأ بوجود الله ، كأن مسألة وجود الإله لم تكن بخياله من قبل ، والإنسان لا يأخذ أجره إلا لمن عمل له . فهل عمل الواحد من هؤلاء الله حتى يأخذ منه أجراً ؟ لا . لم يعمل الله ، ولذلك نجد أن بعض السطحين في الفهم يقولون : كيف لا يجزي الله الجزاء الحسن هؤلاء العلماء الذين اخترعوا العلاجات للأمراض ، والعلماء الذين ابتكروا الأشياء التي تنفع الناس ؟ كيف لا يحسن الله جزاءهم في الآخرة ؟

ونقول : لقد فعلوا ذلك ولم يكن الله في باهم ، كان في باهم الإنسانية ، وقد أعطتهم الخلود في الذكرى وأقامت لهم التماثيل ومنحتهم أوسمة ووضعت فيهم

المؤلفات لتمدحهم . هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس . وهؤلاء الكافرون بتقديمهم في العلوم ؛ مسخرون للإنسان المؤمن ؛ فالمؤمن يستفيد من الكهرباء ، يستفيع بها المسلمون ليقروا القرآن والعلم والذكر . ويستفيد المسلم من الطائرات ليذهب بها إلى الحج وزيارة المدينة المنورة ، ويستفيع بها كذلك في شئون دنياه ، وعلى المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب حتى لا يكونوا أذلة وعالة على غيرهم . والحق يسخر علم الكفار للمؤمنين ، ولا يثاب الكفار على هذا العمل من الله . ولذلك يقول الحق من أعمالهم مرة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَلِيًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمَسٌ مِنْ بِيْعِهِ شَيْعًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ قُوَّةً حِسَابَهُ وَاللَّهُ مَرِيعُ الْحِسَابِ ٨٨ ﴾

(سورة النور)

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ أَنْزِلُ الْبَعِثُ ٨٩ ﴾

(سورة إبراهيم)

وها هوذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ٩٠ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ٩١ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِقَائِنَةِ رَبِّهِمْ وَلِفَاءَتِهِمْ غَلِيظٌ أَعْمَلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ٩٢ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالإنسان الذي يستر الإيمان بفضله أو كله ، هو إنسان حابط العمل ، وهو في الآخرة من الخاسرين ، لأن النجاح في الآخرة نتيجة لعمل الدنيا . ومادام قد عمل خير الله في الدنيا فلا بد أن يكون من الخاسرين في الآخرة .

وقوله الحق : « وهو في الآخرة من الخاسرين » يوضح لنا ضرورة ألا نخدع ونغتر

بنا لأن بعضاً من الكافرين يكسب بعضاً من الشهرة والجاه والثروة نتيجة اختراعاتهم ؛ فكل ذلك أمور فانية ، وهم مستسلمون لسنة الله ، فلما أن يفوتهم النعيم وإما أن يفوتوا النعيم . والحساب المحتامى يكون في الآخرة ، فالكافر وإن أخذ شيئاً من الكسب في ظاهر هذه الحياة الدنيا فهو خاسر في الآخرة .

وبعد ذلك ينتقل الحق ليربط لنا كل قضايا الدنيا رباطاً وافياً . فبعد أن يتكلم عن مقومات الحياة وعن مقومات النوع بالإنكاح وغيره ، يوضح : كل هذه نعم أعطينها لكم وأريد أن أخذ بأيديكم بعد أن بينت لكم فضل هذه النعم عليكم ؛ لتلتفوا بصاحب كل هذه النعم . هو سبحانه يريد أن يأخذنا من مشاغل الدنيا لتلقى المنعم . وحتى تلقى أيها المسلم الإله المنعم - سبحانه - فلا بد أن تعد نفسك لهذا اللقاء ؛ لأنها ليست مسألة طارئة ؛ فلا بد من الإعداد الروحي والإعداد البدني والإعداد المكاني والإعداد الزماني .

إن الإعداد البدني يكون بالطهارة . والإعداد الزماني هو مواقيت الصلاة . والإعداد المكاني هو وجود مكان طاهر لإقامة الصلاة وإعداد اتجاهي بتحديد وجهة الصلاة إلى القبلة . وهذه كلها مواصفات تهيء النفس البشرية للوقوف بين يدي من أنعم على الإنسان بكل النعم . ولذلك نقول : إن الصلاة إعلان استدامة الولاء الإيماني للخالق الممد المنعم ؛ فهو الذي خلق من عدم وأمد من عدم . وقد فرض الحق سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات في اليوم ؛ ليقطع على الإنسان سبيل الغفلة عنه . وإذا ما أراد الإنسان أن يلقى الله في الأوقات التي بين الصلوات ؛ وأراد أن يعلن استدامة الإيمان وهو يقوم بأي عمل غير الصلاة فليذكر الله ؛ لأننا نعرف القاعدة الشرعية الفائلة :

[ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب] .

مثال ذلك أن الإنسان حين يصل فهو يحتاج إلى قوة . والقوة تتولد في الجسم نتيجة تناول الطعام . إذن عملية صناعة الطعام أمر واجب وكل ما يترتب على ذلك عملية واجبة . ولذلك عندما يأمن واحد ويقول : أريد أن أنقطع للعبادة وأعتزل حركة الحياة . لنقل له : افعل ذلك بشرط واحد هو ألا تتفع بحركة منحرك واحد

الحياة ، ولا تتناول أى طعام ، ذلك أن الرغبة الذى يقدمه لك إنسان هو من مل بشر كثيرين لم ينقطعوا عن الحياة . ولنقل أيضاً : لماذا ترتدى هذا الجلباب ؟ . نتيجة حركة حياة بشر آخرين ، فهناك من زرع القطن وآخر حلق هذا القطن الثالث حوله إلى غزل ورابع نسجه وخامس قام بتفصيل هذا الجلباب . ولتنظر إلى خلف كل واحد من آلات . وإياك أن تنتفع بحركة واحد مشغول بالأسباب دمت قد قررت الانقطاع عن حركة الحياة .

إن الشغل بالأسباب عبادة ؛ لأن العبادة لا تتم إلا به . وما لا يتم الواجب إلا به واجب . ولذلك فتعلم المهارات المفيدة للحياة هو فرض كفاية ؛ والفرض واجب على الإنسان : أحد اثنين : إما فرض عين وهو الأمر المكلف به الفرد ولا بد ، يؤديه ولا يجوز أن يؤديه أحد نيابة عنه ؛ كالصلاة ، وإما فرض كفاية : وهو لا يتم الواجب إلا به لذلك كان واجباً ، فكل منا يريد الطعام .

لذلك لا بد من تقسيم العمل ، فهذا يزرع وهذا يصنع . فلا بد من زراعة ناعم ولا بد من إقامة المطاحن ولا بد من إقامة الأفران . ولا بد من مهندسين يحمون هذه الآلات . وكل ذلك أمور تسهل للإنسان أن يمتلك القوة لأداء صلاة ؛ وأن يقف بين يدي الحق ليؤدي الصلاة . إذن فكل ذلك أمر واجب ، وهو ض كفاية . أى أنه فرض إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وإن لم يقم به ضنا يكون الإثم على الجميع .

ومثال آخر هو الصلاة على الميت هي فرض كفاية ، فمن يصل على الميت فهو نى عنا ، وإن لم يصل أحد على الميت يكون الإثم على كل مسلم ، هكذا تتسع عمة الإثم . وكل الأعمال التى لا يتم الواجب إلا بها فهي واجب ، ولذلك فهي ض كفاية ، إن قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، وإن لم يقم به البعض إثم على الجميع .

وما موقف ولى الأمر فى هذا ؟ . على ولى الأمر أن يفرض القيام بفرض الكفاية ، أحد الناس ، وإلا تعطلت الواجبات التى نقول عنها : إنها واجبات دينية . بين يذهب المسلم إلى السوق فلا يجد خبزاً ؛ يضعف ولا يملك الفكاك من

المجاعة ؛ ولن يقدر على الصلاة أو العمل لينتج أو يجد ادخاراً يكفيه أن يبيع .
إذن : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ؛ لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما
حثنا على أداء الصلاة في يوم الجمعة يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

هو سبحانه يخرجنا من العمل إلى الصلاة ، ولم يخرجنا إلى الصلاة من فراغ .
لنلتفت إلى دقة الأداء القرآني حين يقول الحق : « وذروا البيع » وحين يذر الإنسان
البيع ، فهو يذر الشراء من باب أولى ؛ لأن البيع والشراء وجهان لعملية واحدة .
والخلاف فقط أن المشتري قد يشتري السلعة وهو كاره لأن يشتري ؛ لأنه يستهلك
نقوده فيها يشتريه ، أما البائع فيريد أن يحصل على ثمن البيع فوراً ، وغالباً ما يحصل
على ربح من وراء ذلك ، وتلك هي فمة الكسب . فكسب الزارع - على سبيل
المثال - يأتيه بعد شهور من الزراعة . وكسب الموظف يأتيه أول الشهر . لكن البائع
يحصل على الكسب فوراً . ولذلك يأمرنا الحق أن نذر البيع إذا سمعنا نداء الصلاة
يوم الجمعة ، وماذا بعد انتهاء الصلاة ؟ .

ها هوذا الحق يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فلا يقولن أحد أنا منقطع طوال حياتي للصلاة . فلن يستطيع أحد أن
يذهب إلى الصلاة ما لم يكن يملك مقومات حياته . ومقومات الحياة تقتضي أن
يضرَب الإنسان في الأرض . ولا بد أن يبتغي الإنسان من فضل الله . إذن ،
فالسعي في الأرض هو عبادة ؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ويريد الحق
سبحانه وتعالى ألا يعزل قضية تتعلق بمقومات الحياة طعاماً وإنكاحاً عن الصلاة .
فيأتي الحق سبحانه وتعالى بشروط الوضوء استعداداً للصلاة بعد أن يتحدث عن

حكام تحليل الأطعمة وتحريم بعضها ، وبعض من أحكام النكاح ، وذلك لتعرف
بمستويات الإيمان كلها مترابطة ، فلا يصح أن نعزل عملاً ونقول: هذا عمل
مبدئى وذلك عمل غير تعبدى .

والمؤلفون عندما يضعون الكتب فى الفقه ويخصصون أقساماً فى هذه الكتب
لعبادات وأقساماً للمعاملات ، فهذا التقسيم تقسيم تصنيفى تأليفى ، لكن كل
ما يطلبه الكون لينصلح فهو عبادة لخالق هذا الكون ، بدليل أنه قال : « فاسعوا إلى
كر الله وفروا البيع » وهذا أمر . ويتلوه أمر آخر : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى
لأرض » .

إن الإنسان لا يتفقد أمراً ويحمل أمراً آخر ، ولكن عليه بمقتضى الإيمان أن يتفقد
لأمرين معاً ، فإن تأخر الإنسان فى أى من الأمرين فهو مذنب ، لذلك يخبرنا
سبحانه - من بعد الحديث عن النعم التى أنعم بها علينا - بما أحل لنا من بهيمة
لأنعام ، وبما قص علينا من الزواج من المحصنات ، ها هوذا يدخلنا إلى رحابه
الاستعداد للصلاة لأنه واهب كل النعم . ويأمرنا بالاستعداد للصلاة وأن يعد كل
أحد منا نفسه لها .

وهذا الإعداد يؤهل المسلم ليلقى الحق فقال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ
فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا
بُرُءُوسَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ
جُنُبًا فَأَطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً

فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ
 مِنْهُ مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
 وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

سبحانه يأمرنا بوضوح محدد : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلا بد لكم من تنفيذ
 عملية الوضوء .

وتتعرض الآية إلى الأركان الأساسية في الوضوء . وقد يلتبس الأمر على بعض
 الناس ولا يستطيع أن يميز بين سنن الوضوء وأركان الوضوء ؛ لأن السنن تقتضي أن
 يغسل الإنسان يديه ثم يتمضمض ، ثم يستنشق الماء وهكذا . هذه هي السنن التي
 تخرج بالأركان الأساسية للوضوء .

ويبدأ الحق أركان الوضوء الأساسية بقوله : « فاغسلوا وجوهكم » والغسل
 يتطلب إسالة الماء على العضو وأن يقطر منه الماء بعد ذلك . والمسح هو اللمس بالماء
 ليصيب العضو ولا يتقطر منه الماء ؛ إنه مجرد بلولة بالماء . والحق سبحانه وتعالى حينها
 تكلم في هذه الآية عن الوضوء ، تكلم عن أشياء تغسل وعن شيء يمسح . فالأمر
 بالغسل يشمل الوجه واليدين إلى المرافق والرجلين إلى الكعبين . والأمر بالمسح
 يشمل بعض الرأس . والغسل قد يكفي مرة أو اثنتين أو ثلاثا ليتأكد الإنسان تماما
 من الغسل ، ولكن إذا كانت المياه قليلة فيكفي أن يغسل الأجزاء المطلوبة مرة وأن
 يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة .

إن الزيادة على المرة الواحدة إلى ثلاث مرات أمر مسنون لا واجب وغسل الوجه
 معروف تماما للجميع ، فالوجه هو ما به المواجهة . والمواجهة تكون من منبت الشعر
 إلى الذقن ، وتحت منتهى لحية وهما العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى ،
 هذا في الطول ، وفي العرض يشمل الوجه ما بين شحمتي الأذنين . ولا أحد يختلف في

تحديد الوجه ، ولذلك أطلق الحق الوجه ولم يعينه بغاية ، فلم يقل : اغسل وجهك . كذا إلى كذا ؛ ولكنه أمر بغسل الوجه ، فلا اختلاف في مدلول الوجه لدى الجميع . والكل متفق عليه ، هذا إذا ما بدأنا بالفروض الأساسية . لكن إذا ما بدأنا بالسنن فنحن نغسل الكفين إلى الرسغين أولا ثم نتمضمض ونستنشق .

وبعض العارفين بالله يقول عن هذه المقدمات التي هي من السنن : إنها لم تأخذ اعتبارا ؛ لأن تعريف الماء هو : السائل الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، ولا تغير أي وصف من هذه الأوصاف يكون السائل قد خرج عن المائية . فساعة تأخذ الماء بيدك ستطمن على لون الماء ، وتعرف أنه لا لون له ، وعندما تتمضمض فأنه تطمن إلى أنه لا طعم له ؛ وعندما تستنشق فأنه تطمن على أن الماء لا رائحة له . وبذلك تطمن إلى أن الماء الذي تستعمله في الوضوء يكون قد استوفى الأوصاف التي أن تبدأ في عمل المطلوب من أركان الوضوء التي يطلبها الله ، والسنة تقدمت هنا على الأركان لحكمة هي أن توفر للإنسان الثقة في الماء الذي يتوضأ منه . وبعد ذلك يغسل الإنسان الوجه من منابت شعر الرأس وتحت منتهى لحية وذلك طولا وما بين شحمي الأذنين عرضا .

وبعد غسل الوجه قال الحق : « وأيديكم إلى المرافق » وميز الحق هنا الأيدي بتحديد المساحة المطلوب غسلها بأنها إلى المرافق « أي أنه زاد غاية لم توجد في الوجه » ولكن جاء الأمر بغسل اليدين إلى المرافق ؛ لأن اليد تطلق في اللغة ويراد به الكف ، مثال ذلك في حكم الحق على السارق والسارقة :

﴿ فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وتطلق اليد أيضا ويراد بها الكف والساعد إلى المرفق . وتطلق اليد أيضا ويراد به إلى الكتف . فليد ثلاث إطلاقات . ولو أن الحق قد أمر بغسل اليد ولم يحدد الغسل بـ « إلى المرافق » لغسل البعض كفيه فقط ، وغسل البعض يديه إلى المرافق ولغسل البعض يديه إلى الكتفين ؛ ولأن الحق يريد غسل اليد على وجه واحد محدد لذلك قال : « وأيديكم إلى المرافق » .

إذن فساعة يريد الحق شيئا محددًا « فهو يأخذ بالأسلوب الذي يحدده تحديدا يقبل

الاجتهاد في هذا الشيء . وكلمة « إلى » تحدد لنا الغاية ، كما أن « من » تحدد
الابتداء ، ولكن هل تدخل الغاية هنا أم لا ؟ هل تدخل المرافق في الغسل أم لا ؟
إن « إلى » قد تدخل الغاية ومرة أخرى لا تدخل الغاية .

فمثال إدخالها الغاية قوله تعالى :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

هل أسرى الحق برسوله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى ولم يدخله ؟
لا أحد يعقل ذلك . إن « إلى » هنا تقتضي أن تدخل الغاية ، لأن الرسول صلى الله
عليه وسلم كان قد ذهب إلى المسجد الأقصى بمجرد الإسراء إليه والدخول والصلاة
فيه . ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَمَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

فهل يدخل الليل في الصيام ؟ لا ، لأننا لو أدخلنا الليل في الصوم لصار في
الصيام وصال أى نصل الليل بالنهار صائمين . إذن فمع « إلى » تحدد الغاية تدخل
مرة ، وتحدد لا تدخل مرة أخرى . واختلف بعض العلماء حول المرفق هل يدخل
في الغسل أو لا ؟ وصار في عموم الاتفاق أن يدخل المرفق في الغسل احتياطياً ، لأن
أحداً لا يستطيع تحديد المرفق من أين وإلى أين . ونعرف أن هناك احتياطات
للتعقل ، فمرة نحتاط بالاتساع ومرة نحتاط بالتضييق .

مثال ذلك عندما نصل في البيت الحرام . ونحن نعرف أن الكعبة بناء واضح
الجدران ، وبجانب جدار من جدران الكعبة يوجد الحطيم وهو حجر إسماعيل وهو
جزء من الكعبة يحيطه قوس . وعندما يصل إنسان حول الكعبة ، هل يتجه إلى
الحطيم أم إلى بناء الكعبة ؟ لأنه مقطوع بكعبيته ، والاحتياط هنا احتياط بالنقص ،
فتوجه إلى الكعبة وهي البناء العالى فقط ، ولكن عند الطواف . فإننا نطوف حول

الكعبة والحطيم ، أى ان الاحتياط هنا يكون بالزيادة ؛ لأننا إذا ما طفنا حتى وراء المسجد فهو طواف حول البيت الحرام .

إذن فالاحتياط يكون مرة بالنقص ومرة بالزيادة . وفي مجال الوضوء يكون غسل المرافق هو احتياط بالزيادة ؛ ذلك أن « إلى » تكون الغاية بها مرة داخلية ، وم تكون الغاية بها غير داخلية .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك : « وامسحوا برءوسكم » الأسلوب هنا يختلف ؛ فالمطلوب هو المسح . كان المطلوب أولاً هو الغسل للوجه ، إطلاقه ؛ لأنه لا خلاف على الوجه ، ثم غسل اليدين إلى المرافق ، وتم تحديد الغاية لأن الحق يريد الغسل لليدين على لون يقطع الجدل والاجتهاد فيه . ولو قال الحق « امسحوا برءوسكم » مثلها قال : « اغسلوا وجوهكم » لما كان هناك خلاف . لكن لو قال : « امسحوا بعض رءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم فذلك البعض محدد . ولو قال : « امسحوا ربيع رءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم قد يوجد خلاف لأن تحديد الربع عسير وضاق .

لماذا إذن اختار الحق هنا هذا الأسلوب « امسحوا برءوسكم » مع أن في الأساليب كثيرة ، منها أسلوب مجرد عن الغاية ، وأسلوب موجود به الغاية ، وهذا الأسلوب لا هو مجرد ولا هو موجود به الغاية ؟ وقال الحق : « امسحوا برءوسكم » ولنا أن نبحث عن كيفية استعمال حرف (الباء) التى نسيق « رءوسكم » . إن « الباء » فى اللغة تأتى بمعان كثيرة . قال ابن مالك فى الألفية :

بالباء استمعن وعد عوض الصق

ومثل « مع » وهـ من « وهـ عن » بها انط ومقصود بها أن تعطى الحرية للمشرع ؛ لأن الباء تأتى لمعان كثيرة ، للاستعانة مثل : كتبت بالقلم ، ولتعدية الفعل اللازم نحو : ذهبت بالمريض إلى الطبيب وللتعويض مثل : اشتريت القلم بعشرين جنيتها ، والالتصاق نحو : مررت بخالد ، وتأى بمعنى « مع » مثل : بعثت البيت بأثاثه أى مع أثاثه ، وبمعنى « من » مثل : شرب بماء النيل أى من ماء النيل ، وبمعنى « عن » مثل قوله تعالى : « سأ سائل بعذاب واقع » أى عن عذاب واقع ، وتأى أيضاً للظرفية نحو : ذهبت إلى

فلان بالليل أى فى الليل ، وتكون للسبية نحو : باجتهاد محمد منح الجائزة أى بسبب اجتهاده ، إلى غير ذلك من المصاحبة نحو : « فسبح بحمد ربك » أى سبح مصاحباً حمد ربك .

إن الذى يقول : امسحوا بعض رءوسكم ولوشعرة ، فهذا أمر يصلح ويكفى ونسغه الباء لغة ، والمسح يقتضى الإلصاق ، والآلة الماسحة هى اليد . وهناك من يقول : نأخذ على قدر الأداة الماسحة وهى اليد أى مسح مقدار ربع الرأس .

إذن كل حكم من هذه الأحكام يصلح لتعام تنفيذ حكم مسح الرأس ، ولو أن الله يريد ما على لون واحد لأوضح ما أراد ، فإن أراد كل الرأس لقال : « امسحوا رءوسكم » كما قال : « فاغسلوا وجوهكم » ، وإن كان يريد غاية محدة ، لحدد كما حدد غسل اليدين إلى المرفقين . ومادام سبحانه قد جاء بالباء ، والباء فى اللغة تحتل معانى كثيرة ، لذلك فمن ذهب إلى واحدة منها تكفى ، لأن أى غاية محتملة بالباء أمر صحيح .

والأمر هنا أن يفهم كل منفذ لحكم محتمل ألا يُنْطَىء الحكم الآخر . بل عليه أن يقول : هذا هو مقدار فهمي لحكم الله . والله ترك لنا أن نفهم بمدلول الباء كما أرادها فى اللغة . وقد خلقك الحق أيها الإنسان مقهوراً لأشياء لا قدرة لك فيها ، كحركة الجوارح ، وكالأشياء التى تصيب الإنسان كالموت .

إن هناك أشياء أنت غير فيها ، ولذلك كان تكليف الحق لك مبنياً على هذا ، ففى أشياء يقول لك : « افعل كذا » أو « لاتفعل كذا » وفى أشياء أخرى يترك لك حرية التصرف فى أداؤها . وذلك حتى يتسق التكليف مع طبيعة التكوين الإنسانى . فلم يُصَّب الله الإنسان فى قالب حديدى . ولنا فى سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة ، هذا الرسول الذى أوكل إليه الحق إيضاح كل ما غمض من أمور الدين ، فقال له الحق :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا زَلَّ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

وحينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين فى غزوة الأحزاب التى قال عنها الحق :

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا ﴾ (١١)

(سورة الأحزاب)

هذه المعركة كانت قاسية ، حرك الحق فيها الريح وتفرق فيها أعداء الإسلام ، صرف الحق الأحزاب ورجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وكان من فروض أن يرتاح المؤمنون المقاتلون . لكن قبل أن يخلعوا ملابس الحرب جاء جبريل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ : نعم : فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة فإني علمد بهم فمززل بهم . فد (أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مؤذنا فأذن في ناس : لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأدرك بعضهم العصر في طريق ، فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيها وقال بعضهم بل نصلي لم يرد منا ذلك بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يُعَفَّ أحدًا منهم) (١١) .

هي مسألة كبرى إذن . والتزاما بأمر النبوة خرج الصحابة إلى مواقع بني قريظة . نادت الشمس تغرب وهم في الطريق ، وانقسموا إلى قسمين ، قسم قال : ستغيب الشمس ولم نصلي العصر فلنصله قبل أن تغيب الشمس . وقال القسم الثاني : لقد رنا النبي ألا نصلي العصر إلا في بني قريظة ، ولن نصليه إلا هناك وإن غابت الشمس . وصلى القسم الأول ولم يصلي القسم الثاني .

وعندما ذهبوا إلى المشرع وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا له الأمر لم يب على أي جانب منهم شيئا ، وأقر هذا وأقر ذاك . وتلك فطنة النبوة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن كل حدث من الأحداث يتطلب زمانا ويتطلب مكانا ، لذين صلوا نظروا إلى عنصرية الزمن ، وخافوا أن تغيب الشمس قبل ذلك . لذين لم يصلوا نظروا إلى عنصرية المكان فلم يصلوا العصر إلا في مواقع قريظة . وأقر رسول الله الأمرين معا .

إن هذا يدلنا على أن هناك أشياء يتركها الحق قصدا دون تحديد قاطع لأنه يحبها ، أي لون ، مثال ذلك أن فعل من مسح ربيع رأسه في الوضوء جائز ، وفعل من مسح رأسه كلها جائز ، وجاء الحق بالياء الصالحة لأي وجه من وجوه مسح الرأس ،

وكذلك شأن الخلافات في الأمور الاجتهادية . وإذا كانت القاعدة الشرعية تقول : « لا اجتهاد مع النص » فهذا لا يكون إلا مع النص الذي لا يحتمل الاجتهاد .

وليس كل التشريع هكذا ؛ لأنه سبحانه أوضح ما لا يحتمل الاجتهاد ، وأوضح ما يحتمل الاجتهاد ؛ وحينما كلف الله عبده الإنسان بتكليفات ، إنما كلفه بما يتناسب وتكوينه ، وكما أن تكوين الإنسان فيه أشياء هو مقهور عليها . فهناك الأحكام التي لا اختيار له فيها ، وهناك أمور اختيارية ، وما وصل إليه المجتهد هو حق وصواب يحتمل الخطأ ، وما وصل إليه غيره خطأ يحتمل الحق والصواب . وكل ما وصل إليه طرف من الاجتهاد حق لأن النبي صلى الله عليه وسلم صوب من صلى العصر قبل أن يصل إلى أرض بنى قريظة ، وصوب كذلك من صلى العصر بعد أن وصل إلى مواقع بنى قريظة . فالرسول - صلى الله عليه وسلم - اعتبر فعل كل فريق منهما صوابا .

ويقول الحق من بعد الأمر بمسح الرأس : « وأرجلكم » . وكان سياق النص يقتضي كسر اللام في « أرجلكم » ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على غسل الوجه واليدين . وغير معطوفة على « براء ومكم » وهذا يعني أن الرجلين لا تدخلان في حيز المسح ؛ إنما تدخلان في حيز الغسل .

ونبه الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على الجزء المصرح بمسحه ، ولكنها معطوفة على الأعضاء المطلوب غسلها . ولم يأت الحق بالمسوح في جانب والمفسول في جانب ليدل على أن الترتيب في هذه الأركان أمر تعبدى وإلا لجاء بالمفسول مع والمسوح معا ، ويحدد الحق أيضا غسل الرجلين إلى الكعبين : « وأرجلكم إلى الكعبين » . والرجل تطلق على القدم ، وتطلق على القدم والساق إلى أصل الفخذ . ويريد سبحانه غسل الرجلين محدودا إلى الكعبين .

وحتى نعلم أن هذه مسائل تعبدية ؛ عرفنا أن اليد تطلق على الكف ، ومن أطراف الأصابع إلى الكتف يطلق عليه « يد » أيضا ، والمرفق في اليد هو الحد الوسط ، وه الكعبين ، هو الحد الأول في الساق ؛ لأن الوسط بعد الساق هو الركبة . إذن . ترتيب المسألة في اليدين كف وساعد وعضد ؛ والمرفق في وسط اليد ، وفي الرجلين يقف الأمر عند الحد الأول وهو الكعبان . هي - إذن - مسألة تعبدية وليست مسألة قياسية .

وبين الحق لنا أنه إذا أراد أمراً بدقه فهو يحده بلا تدخل أو خلاف . أما إذا جاء مر غير واضح فهو إذن منه سبحانه أن نجته فيه لنشعر أن لنا بعض الاختيار في ض ما تعبدنا الله به ، وكله داخل في مرادات الله ، لأن إيراد النص - شاملاً - لكل مفهومات هو إذن بهذا المفهوم وإذن بذلك المفهوم .

« فاعملوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى كعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا » . إن الوضوء شرع لغبر الجنب . أى أنه لمن يحدث ديناً أصغر . وهناك فرق بين إخراج ما ينقض الوضوء وهو ما يؤذى ، وبين إخراج يمتنع ، فإنزال المني أو حدوث الجماع يقتضي الطهارة بالاغتسال . ونعلم أن إنسان حين يستمتع بطعام ، أو يستمتع برائحة ، أو بأى شيء هو محدود بوسيلة مستمتع به ، أما الاستمتاع بالجماع فلا يعرف أحد بأى عضو أدرك لذته . وهى سألة معقدة إلى الآن . ولا يعرف أحد كيف تحدث ، مما يدل على أن جميع ذرات تكوين الإنسان مشتركة فيها . ومادام الأمر كذلك فالطهور يقتضى أن يغسل إنسان كل جسمه :

« وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من فائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وبأيديكم » .

وقد يقول قائل : أليست « لامستم النساء » كالجنابة ؟

ونقول : إن الذى يحىء هنا هو حكم ثان يوضح لنا ما ينوب عن المياه ، لأن الحق نيب لعبادة لا تسقط عن المكلف أبداً ، لذلك لن يكلفه بشيء قد لا يجده ، فقد يجده الإنسان المياه ، وعليه إذن بالتيمم ؛ لأن الصلاة عبادة لا تسقط أبداً عن كلف حتى في حالة مرضه الذى لا يستطيع أن يحرك معه أى عضو من جسمه ، هنا جمع سبحانه للمريض أن يصل جالساً ، أو مستلقياً أو يصل بالإيماء برأسه ، أو مل بأهداب عينيه ، وحتى مريض الشلل عليه إجراء خواطر الصلاة وأركانها على ؛ لأن فرض الصلاة عبادة لا تسقط أبداً عن الإنسان مادام فيه عقل .

إننا نعرف أن الصلاة هى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى يتطلب استدامة ، فيكفى المرء أن يقول الشهادة مرة واحدة في العمر ، ويسقط الصوم عن

الإنسان إن كان مريضاً ، ويطعم غيره ، أو يؤديه في أوقات أخرى إن كان مريضاً مرضاً مؤقتاً أو على سفر . وقد لا يؤدى الإنسان الزكاة لأنه فقير ، وكذلك الحج لا يجب على من لم يملك الاستطاعة من مال أو عافية ، ولا تبقى من أركان الإسلام غير الصلاة فإنها لا تسقط أبداً .

إن عظمة الصلاة توضحها كيفية تشريعها ؛ لأن تشريعات أركان الإسلام كانت بالوحي ، أما تشريع الصلاة فقد جاء وحده بالمباشرة ولم يقل الله لجبريل : « قل للنبي التكليف بالصلاة » . بل استدعى الله النبي صلى الله عليه وسلم إليه وكلفه بالصلاة .

وقلنا من قبل - والله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان أن يقدم أمراً لمروسيه ، فالموضوع قد يأخذ دوره في الأوراق اليومية التي تنزل منه إليهم . أما إذا كان الموضوع مهماً فهو يتصل بالقائد التنفيذي للمروسين ويوضح مدى أهمية الموضوع ، أما إذا كان الموضوع غاية في الأهمية فالرئيس يستدعى القائد التنفيذي للمروسين ويبلغه أهمية الموضوع . إذن فكيفية إنزال التكليف تكون على قدر أهمية الموضوعات فما بالنا - إذن - بركن استدعى الله فيه محمداً إلى السماء ليكلفه به ؟

وقد رأينا أن بعض التكليفات نحيى إلى رسول الله بالإلهام أن يفعله ، وبعضها جاء بالوحي من جبريل أن يفعله ، أما الصلاة فقد فرضها الله عندما استدعى محمداً إلى السماء إلى الرفيق الأعلى وفرض الله عليه الصلاة بالمباشرة ، وعلى أمة محمد أن تؤدى هذا الفرض خمس مرات في اليوم ، ولا تسقط أبداً . ولذلك جعلها الحق فارقة بين المسلم والكافر ، إن المسلم ساعة أذان الصلاة يقوم إلى الصلاة ، وهي استدعاء من الخالق لمن خلقه ليحضر في حضرته كل يوم خمس مرات . وأنت حر بعد ذلك ألا تبرح لقاء ربك ؟ ولا يمل الله حتى يمل العبد .

وإياكم أن تجعلوا للزمان مع الله تخطيطاً ، فتقولوا : هذا للعمل والضرب في الأرض ، وذلك لذكر الله ؛ فمع ضربكم في الأرض لتبتغوا من فضل الله ، إياكم أن تنسوا الله ؛ لأن ذكر الله أمر دائم في كل حركة يقصدها الإنسان لعناية هذا الوجود ، وقد أراد الحق منا بوجودنا أن نعبده وحده لا شريك له :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَهْلًا قَالَ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١٦٠﴾﴾

(سورة هود)

إذن فكل ما يؤدي إلى حياة الكون والارتقاء به هو أمر عبادي ، والحق سبحانه وتعالى يربط « العبادة » الاصطلاحية في الفقه بحركة الحياة كلها . ونجد مثالا لذلك حيا نكلمنا في سورة البقرة عن الأسرة كما جاء في قوله تعالى :

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتْنَعًا بِالْمَعْرُوفِ ﴿١٥٩﴾﴾
 ﴿وَأَنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَتَفَرَّقَا أَوْ يَتَفَرَّقَا أَلَيْسَ بَيْنَهُمَا عَهْدٌ أَلَيْسَ كَاجْتِهَادٍ أَنْ تَقْرَبُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦٠﴾﴾

(سورة البقرة)

ذلك أمر الدنيا ومصالح الأسرة ، وهو كلام في شئون تنظيم الأسرة ، ثم ينقلنا من بعد الكلام في تنظيم الأسرة إلى أمر نقول عنه إنه العبادة وهو قوله الحق :

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾
 ﴿أَوْ رُجَانًا فَإِذَا أُنْتَمِتُمْ فَادْخُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَيْكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

(سورة البقرة)

ثم يعود بعد ذلك إلى شئون تنظيم الأسرة فيقول سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَتَرَوْنَّ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَسُولِ غَيْرِ

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

﴿إِن تَرَاجَ﴾

إذن فقد أخرجنا من كلام في نظام الأسرة إلى الصلاة ، ثم عاد بنا مرة أخرى إلى نظام الأسرة حتى تتداخل كل الأمور لتكون عبادة متهاسكة متحدة فلا نقول : « هذه عبادة وتلك ليست عبادة » ، وأيضا ؛ لأن الكلام في الصلاة وسط كلامه عن أمور الأسرة ينبهنا : إذا ذهبت إلى الصلاة فربما هدأت الصلاة من شدة غضبك ومحاسنك ونزلت عليك سكينه تعينك ألا تنسى الفضل بينك وبين زوجك .

في هذه السورة - سورة المائدة - صنع الحق معنا مثلما صنع في سورة البقرة ؛ فبعد أن تكلم في أشياء وقص علينا أمر النعمة ، ها هوذا يدخل بنا إلى رحاب المنعم ، إلا إنه سبحانه لم يدخلنا على المنعم إلا بتهيئة طهورية . طهارة أبعاض ؛ كالوضوء بأن يغسل الوجه ويغسل اليدين إلى المرفقين ويمسح على الرأس ويغسل الرجلين إلى الكعبين . وأحكم في أشياء وترك للاجتهاد مدخلا في أشياء ، أحكمها في ثلاثة ؛ غسل الوجه ، وغسل اليدين إلى المرفقين ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، لكنه حينما تكلم عن الرؤوس لم يقل : « امسحوا رؤوسكم » ولا : « امسحوا رءوسكم » ، ولا « امسحوا بعض رؤوسكم » مما يدل على أن للمجتهد أن يفهم في « الباء » ما تتيحه اللغة من « الباء » . إذن أعطانا الحق أشياء محكمة وأشياء للاجتهاد . وبعد طهارة الأبعاض بذكرنا بطهارة البدن من الجنابة .

ونلصقت إلى الكلام الذي تقدم حيث أورد الحق فيه ما أحل لنا من بهيمة الأنعام من طعام وشراب ، ثم تكلم في النكاح حتى أنه وسع لنا دائرة الاستمتاع ودائرة الإنسال بأن أباح لنا أن نتزوج الكنايات ، وفي هذا توسيع لرفعة الزواج فلم يقصر الزواج على المسلمات .

ولما كان الطعام الذي أحله الله ينشأ عنه ما يخرج منا من بول وغائط ، والنكاح الذي أحله الله يغير كيمياء الجسد ؛ لذلك جعل الله الوضوء لشيء ، والجنابة لها شيء آخر ؛ فمن الطعام ينشأ الاختبان ، وعن الجماع أو خروج المني ينشأ الحدث الأكبر ؛ فكان ولا بد بعد أن يتكلم عن طهارة الأبعاض في الحدث الأصغر أن يتكلم عن التطهير الكل في الحدث الأكبر ؛ فقال : « وإن كنتم جنبا فاطهروا » .

الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن نستديم اتصالاتنا به ولم يشأ أن يجعل الوسيلة للصلاة بأمر الماء فقط ؛ لأننا قد نفقد الماء وقد يوجد الماء ولا نقدر على استعماله ؛

فلم يشأ الحق أن يقطع الصلة بأن يجعل الوسيلة الوحيدة للتطهر هي الماء ، فأوجد وسيلة أخرى . فإن فقدت الماء أيها الإنسان فلا بد أن تدخل إلى لقاء الله بنية تطهير آخر وهو التيمم . هذا أمر لا يفقده من عاش على الأرض . إذن فعندنا تَطَهَّرْ بالماء وعندنا تَطَهَّرْ بالتراب . لذلك يقول سبحانه :

« وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً ، فإن كان الإنسان مريضاً لا يقدر على استعمال الماء ، أو كان على سفر ولا يجد الماء ، أو جاء أحد من الغائط ، أي من قضاء الحاجة في مكان غويط وهو الوطئ المنخفض من الأرض ، وكانت العرب قديماً تفعل ذلك حتى لا يراهم أحد ويكونوا في ستر ، رجالاً أو نساء ، وحتى بعد ملامسة النساء . إن لم يجد الإنسان بعدها ماء فالتيمم هو البديل ، وإياكم أن تقولوا إن الماء هو الوسيلة الوحيدة للتطهر ، فقد جعل للماء أيضاً خليفة وهو التراب . والتراب أوسع دائرة من الماء . فكأنه سبحانه وتعالى يريد أن يديم علينا نعمة اللقاء به . ولكي يديم علينا نعمة اللقاء به جعل للماء - الذي يكون محصوراً - خليفة وهو التراب وهو غير محصور .

ولا نريد أن ندخل في مناهات الخلاف عن الطهارة من ملامسة النساء ، بين اللمس واللامسة ، فاللمس لا يقتضي المفاعلة ، أما اللامسة فتقتضي المفاعلة . واقتضاء المفاعلة ينقل المسألة من مجرد اللمس إلى معنى آخر هو الجماع .

وفي حالة الجنابة وعدم وجود الماء فالتيمم هو البديل « فتيمموا صعيداً » وه الصعيد « هو ما صعد على وجه الأرض من جنس الأرض بحيث لا تدخله صناعة الإنسان كالتراب والحجر ، لكن الطوب الأحمر (الأجر) الذي نصنعه نحن فليس من الصعيد الصالح للتيمم ، لأن صنعة الإنسان قد دخلت .

والأركان المفروضة في طهارة الأبعاض أربعة ، أما طهارة الجسم فهي طهارة واحدة تشمل كل الجسم . وفي حالة التيمم جعل الحق الطهارة استعداداً للصلاة عوضاً عن الوضوء بمسح الوجه واليدين ، وكذلك في الطهارة من الجنابة . ونلاحظ أنه سبحانه جاء بالمسح في الوضوء على بعض من الرأس كإيناس متقدم ، وذلك حتى يكون لنا إلف بالمسح حينما نتيمم .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » وجعل الحق الطهارة بالماء أو التراب إزالة للحرج ؛ فالإنسان الذي لن يجد ماء سيقع في الحرج بالتأكيد ؛ لأنه يريد أن يصل ولا يجد وسيلة للطهارة . وإذا كان عنده القليل من الماء ليشرب فهل يتوضأ أو يستديم الحياة ويبقى على نفسه بشرب الماء ؟ . ولا يريد الله أن يُعَذِّبَ خلقه ولا أن يوقعهم في الحرج ، بل خفف عليهم وجعل عنصر التراب يكفي كبديل للماء . « ولكن يريد ليطهركم » .

وليك أن تفهم أن الطهارة هي للتنظيف ؛ لأن معنى الطهارة لو اقتصر على التنظيف لكانت الطهارة بالماء فقط ، فلماذا إذن غُسل وجوهنا بالتراب ؟ إن هذا يوضح أن الطهارة غير النظافة ، فلو قال قائل : سأنظف نفسي به الكولونيا . نقول له : لا . ليس هذا هو المطلوب . والله لا يطلب نظافة بهذا المعنى ، ولكن يطلب التطهير . والتطهير يكون بشرط من تدخل عليه - وهو الله سبحانه - وقد وضع الحق لذلك أمرين : إما بالماء وإما بالتيمم بالتراب . فالطهارة تجعل المرء صالحاً لاستقبال ربه على ضوء ما شرع به . والذي يضع الشرط لذلك هو الله وليس أنت أيها العبد . وسبحانه قد أوضح أن العبد يكون طاهراً بالماء أو بالتراب ، وبهذه الطهارة يكون صالحاً لاستقبال الله له . وأعاد الله الإنسان في قربه منه إلى أصل إيجاده وهو الماء والتراب .

« وليتم نعمته عليكم » والإنسان مغفور بنعم كثيرة . فهب أن إنساناً غاب عنه أبوه لكن خبر الأب يصله كل يوم من مال وطعام وشراب ووسائل ترفيه ، وبذلك يأخذ الإنسان نعمة الغاية من وجود أب له . ومع ذلك يشاق هذا الإنسان المستمتع بنعمة والده الغائب إلى أن يكون مع والده ، هذا هو تمام النعمة بين الأب والابن وكلاهما مخلوق لله ، فما بالنا بتهم النعمة من الخالق لعباده ؟

إن العبد الصالح يتعنى أن يرى مَنْ أنعم عليه ؛ لذلك وضع الحق شرط الطهارة للقاءه . وعندما يحضر الإنسان لحضرة ربه بالصلاة ويكبر : « الله أكبر » فهو منذ تلك اللحظة يوجد في حضرة الله . وإذا كانت الفيوضات تتجلى على الإنسان من نعمة مخلوق مثله سواء أكان أخاً أم أباً أم قريباً وهي نعمة مادية يراها الإنسان سواء أكانت طعاماً أم شراباً أم لباساً . فما بالنا بفيوضات المنعم الخالق الذي أنعم على

الإنسان ، إنها فيوضات من غيب ، فكرمه لك غيب كالاعتدال في المزاج والعافية ورضا النفس وسمو الفكر .

إذن فقله الحق : « وليتم نعمته عليكم » أى أنكم عشنتم قبل ذلك مع نعمة المنعم ، وسبحانه يدعوكم إلى لقاء المنعم ، ذلك تمام النعمة . وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - إننا نجد الابن ينظر إلى هدايا الأب الغائب ويقول : أنا لا أريد هذه الأشياء ولكنى أريد أبى .

إن تمام النعمة - فى المستوى البشرى - أن يرى الإنسان المنعم عليه وهو إنسان مثله ، أما تمام النعمة على المخلوق من الخالق فيستدعى أن يتطهر الإنسان بما حدده له الله وأن يصل فيلقى الله .

« وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ساعة نسمع : أنا فعلت ذلك وذلك لعلك تشكر ، فهذا يعنى أنك إن فعلت ما أمرك به فستجد أمراً عظيماً . والامر الطبعي يقتضى أن تشكر عليه كأن ما فعله الله للإنسان يوجب عند الإنسان نعمة أخرى لا يمكن أن يستقبلها إلا بالشكر ، مثلما قال الله :

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ بُطُونِ أَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(سورة النحل)

إن السمع والابصار والأفئدة هى منافذ الإدراك . ومادام الحق قد خلقنا ولا نعلم شيئاً ، وجعل لنا أدوات الإدراك . وأوضح : أنا خلقت لك هذه الأدوات للإدراك لعلك تشكر ، أى تلمع آثارها فى نفسك مما يرى عندك ملكة الإدراك للمدركات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْقَلَهُ الَّذِي

وَأَثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

وللإنسان أن يسأل : وما هو الذكر ؟ . الذكر هو حفظ الشيء أو استحضاره ، فإذا كان حفظ الشيء فهو حفظ لذاته ، لكن الاستحضار يكون لمعنى الشيء . إذن فهناك فرق بين حفظ الشيء واستحضار الشيء ، هذا هو معنى الذكر . وقد يكون الذكر بمعنى القول ؛ لأنك لا تقول الشيء إلا بعد أن تستحضره . ولذلك نجد في تكوين الجهاز العصبي الأعلى ذاكرة ، وحافظة ، وخيلة .

ومن عجيب أمر التكوين الخلقى أن تمر أحداث على الإنسان في زمن مضى ولا يذكرها الإنسان لمدة طويلة تصل إلى سنوات ، ثم يأتي للإنسان ظرف من تداعي المعاني فيذكر الإنسان هذا الشيء الذي حدث منذ عشرين عاماً .

إذن فالشيء الذي أدركه الإنسان منذ عشرين سنة على سبيل المثال لم يذهب ، ولو ذهب ما ذكره الإنسان ، لكنه غاب فقط عن الذهن عشرين عاماً أو أكثر ؛ فلما تداعت المعاني تذكره الإنسان . ومعنى ذلك أن هذا الشيء كان محفوظاً عند الإنسان وإن توارى عنه مدة طويلة .

فالذاكرة - إذن - معناها أن يستدعي الإنسان المحفوظ ليصير في بؤرة شعوره . مثال ذلك : حدث وقع بين إنسان وآخر منذ أكثر من عشرين عاماً . ونسى الإنسان هذا الحادث . فلما التقى بهدبه ، وجلسا يتذاكران الماضي تذكر الصديق الحادث الذي حدث له منذ أكثر من عشرين عاماً .

إذن فالحادثة لم تذهب من الذاكرة ، ولكنها محفوظة موجودة في حواشي الشعور البعيدة ، وكلما بعد الإنسان في الزمن يبدو وكأنه نسي الحادثة ، لكن عندما يأتي تداعي المعاني فالحادثة تأتي في بؤرة الشعور . فإذا ما جاءت في بؤرة الشعور من حواشي الشعور حيث مخزن الحافظة ، يتذكرها الإنسان . وهذه هي قوة الخالق جل وعلا .

وقد يسجل أحدنا على شريط تسجيل بعضاً من الكلام . ومن بعد ذلك يجب أن يسجل كلاماً آخر على الشريط نفسه فيسمح الكلام الذي سجله أولاً ، ولكن ذاكرة الإنسان تختلف ، فساعة تأق المسائل في بؤرة شعوره فالإنسان يتذكرها . وإذا ما جاءت مسألة أخرى بعدها فلا بد أن تترجح المسألة الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ؛ لأن بؤرة الشعور لا تستقبل إلا خاطراً واحداً ، فإن شغلت بؤرة الشعور بخاطر آخر فهي تحفظ الخاطر الأول في حواشي الحافظة . ولا يسمح خاطر خاطراً آخر . فإن أراد الإنسان أن يستدعي الخاطر القديم ، كان ذلك في مقدوره ، وهذا هو الفارق بين تسجيل الخالق وتسجيل المخلوق .

وبعد ذلك نجد أن التذكر يكون للمعاني ، فالذي يخزن في ذاكرة الإنسان ليس أجراماً ، فلو كانت أجراماً لما وسعها المخ . ولهذا فالمعاني لا تتراحم فيه ، بل تتراكم بحيث إذا ما جاء تداعي المعاني فالإنسان يتذكر ما يريد أن يذكره ، وذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان المخ من صنع الخالق الأعلى . ومادامت للمعاني ليس لها حيز فالإنسان يقدر على حفظها في الذاكرة .

الإنسان قد يجلس ليتذكر أسماء الجبال في العالم فيقول : من جبال العالم قمة « إفرست » ، وجبال « الهالايا » ، وجبل « أحد » ، وجبل « ثور » . وساعة يتذكر هذه الأسماء فهو يتصور معانيها ، فالموجود في ذهن الإنسان معاني هذا الكلمات وليس أجرام هذه الكائنات ، لذلك فلا تراحم أبداً في المعاني بل تظل موجودة ومختزنة في الذاكرة وحاشية الشعور .

وإياكم أن تفهموا أن إنساناً يملك من الذكاء ما يحفظ به الشيء من مرة واحدة : وآخر أقل ذكاء يحفظ بعد قراءة الشيء مرتين ، وثالثاً يحفظ عن ثلاث مرات لا ؛ لأن الإنسان يملك ذهناً كآلة التصوير يلتقط من مرة واحدة ، لكن لو أخذ الإنسان صورة لمكان وجاء شيء بضرب عدسة الصورة فهو يعيد التصوير ، وكذلك الذهن إن أراد الإنسان أن يأخذ لقطة لشيء ما تستقر في بؤرة الشعور وفي بؤرة الشعور شيء آخر ، فالشيء لا يستقر في الذهن ، بل لا بد من قراءة مضمون اللقطة مرة ثانية ليؤكد الإنسان المعلومات لتنطبع في بؤرة الشعور .

ومثال ذلك الطالب الذي يدخل ساحة المدرسة التي يُعقد بها الامتحان . وقبل أن

يدق جرس الامتحان بخمس دقائق يأتى له واحد من زملائه ويقول له : هل ذاكرت الموضوع الفلانى . فيقول الطالب : لآم أستذكره . فيقول الصاحب : هذا الموضوع سأتى منه سؤال فى الامتحان . فيخطف الطالب كتابا ويقرأ فيه هذا الموضوع لمرة واحدة . هذا الطالب فى هذه اللحظة لا يتذكر ماذا سآكل على الغداء هذا اليوم ، أو من سيقابل . بل يعرف أنه بصدد أمر فرصته ضيقة ، ويركز كل ذهنه لىستقبل ما يقرأه . وفى لحظة واحدة يحفظ هذا الموضوع . وإذا جاء الامتحان ووجد السؤال فهو يجيب عليه بأدق التفاصيل . وقد نجد طالبا آخر جلس لآيام يحاول استذكار هذا الدرس بلا طائل .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، شريطة ألا يستقبل الإنسان ما يقرأه أو يسمعه من معلومات والذهن مشغول بأشياء أخرى . والدليل على ذلك : أن الإنسان قد يسمع القصيدة مرة واحدة أو يسمع الخطبة مرة واحدة فيحفظ من القصيدة أكثر من بيت ، أو يحفظ من الخطبة أكثر من مقطع ؛ لأن ذهن الإنسان فى تلك اللحظة كان خاليا فالتقط الآبيات التى حفظها ، وكذلك الخطبة ، أما بقية أجزاء القصيدة أو الخطبة فقد يكون الذهن شرد إلى أشياء أخرى . ولذلك يحاول الإنسان أن يكرر الاستماع والإصغاء والقراءة أكثر من مرة ليهىء ويعد بؤرة الشعور ، فيحفظ الإنسان ما يريد .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، أما الذاكرة فهى تتذكر أى تستحضر المعانى التى قد تختفى فى الحافظة ، ولا شىء يضيع فى الحافظة أبدا ، بحيث إذا جاء الاستدعاء طفت المعانى على السطح . كأن انطباعات الإنسان فى نعم الله لا تنسى أبدا . وهى موجودة عند الإنسان ، ولكنها تريد من الإنسان أن يستدعيها من الحافظة ويطلبها .

ولتر دقة الأداء القرآنى : « واذكروا نعمه الله عليكم » سبحانه يقول هنا « نعمه » مع أن نعم الله كثيرة ، ولكن الله قد آثر أن يأتى بالمفرد ولم يأت بالجمع . وذلك ليعين للإنسان أن أية نعمه فى أية زاوية من حياة الإنسان تستحق أن يذكرها الإنسان ، فنعم الله كثيرة ، ولكن لىتذكر الإنسان ولو نعمة واحدة هى نعمة الإيجاد من عدم ، أو نعمة البصر ، أو السمع . وكل نعمه من هذه النعم تستحق من الإنسان أن يتذكرها دائما ، ولا تطرد نعمة نعمة أخرى ، فما بالنا إذا كانت النعم كثيرة ؟

ولو تمنع الإنسان في كل نعمة لاحتاجت إلى أن يتذكرها دائماً ، لو أن النعمة اسم للجنس كله ، لأن المفرد يطلق على كل الجنس ، مثل الإنسان فإنها تطلق على كل فرد من أفرادها مثل محمد وعلى وخالد .

وكلمة « النعمة » قد تُنسب إلى سببها كنعمة سببها مروءة واحد من البشر ، وهي محدودة بمقدار الأثر الذي أحدثته . لكن نحن هنا أمام نعمة المسبب وهو الله ، ولا بد أن تناسب نعمة الله جلال وجمال عظمتة وعطائه .

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به » ، و « واثق » تقتضي أمرين : فالإنسان طرف الاحتياج والفقر والأخذ ، والرب صاحب الفضل والعطاء والغنى ، إنه هو الربوبية وأنت العبودية ، وهو الحق القائل :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة) .

إذن فـ « واثقكم » تعني التأكيد من طرفين ، لأن « واثق » على وزن « فاعل » ، ولا بد في « فاعل » أن تكون من اثنين . ومثال ذلك « شارك » تقولها لاثني أو أكثر ، فنقول : « شارك زيد عمراً » ، وكذلك « قاتل زيد عمراً » . وحين يقول الحق : إنه « واثق عباده » أي أنه شاركهم في هذا الميثاق وقبله منهم . لكن أي ميثاق هذا ؟

ونحن نعرف الميثاق الأول الذي هو ميثاق اللز :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (١٣٧)

(سورة الأعراف)

وهو ميثاق الفطرة قبل أن توجد النفس وشهواتها . وبعد ذلك هناك ميثاق العقل الذي نظر به الإنسان إلى الوجود واستطاع أن يخرج من تلك الرؤية بأن الوجود محكم ومنظم وواسع ، ولا بد لهذا الوجود من واجد وهو الله . وبعد ذلك ميثاق الإيمان بالله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما عرض منهج الإسلام آمن به بعض

الناس ، أى أخذ منهم عهداً على أن ينفذوا مطلوبات الله ، ألم يأخذ الرسول عهداً في العقبة حين قالوا له :

خذ لتفبلك ولربك ما أحببت . فتكلم - رسول الله صلى الله عليه وسلم - فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني عما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك عما تمنع منه أؤرننا فبايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الجرب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر^(١) .

وحدث هذا - أيضاً - عند بيعة الرضوان تحت الشجرة . إذن فمعنى « واثقكم به » إما أن يكون العهد العام الإيمان في عالم الذر ، وإما أن يكون العهد الإيمان الذي جاء بواسطة الرسل .

« وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » وحين يؤمن الإنسان يقول : سمعت وأطعت ، وهكذا تنتهى مسألة التعاقد . ويتبع الحق ذلك بقوله : « واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » . واتقوا أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، فالمطلوب منا أن نلتحم بمنهج الله إلتحاما كاملا ، وعلينا كذلك أن نجعل بيننا وبين صفات غضب الله وقاية . وعرفنا أن قوله الحق : « اتقوا الله » متساوٍ مع قوله : « اتقوا النار » ، وقد يقول قائل : وهل للنار أوامر ونواه ؟

ونقول : أحسن الفهم عن ربك واجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، فالنار جند من جنود الله . وسبحانه يوضح : اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأن الحق له صفات جلال هي الجبروت والانتقام والقهر ، وللحق صفات جمال فهو الغفور الرحيم المغنى ، الحكيم إلى غير ذلك من صفات الجمال ، إذن فلنجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية تقينا من جنود صفات الجلال ومنها النار .

وقلنا من قبل : إن الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغنا أنه في الليلة الأخيرة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة . والنظرة السطحية تساءل : ولماذا لم يقل : يتجلى الغفار

(١) رواه أحمد وذكر في السيرة النبوية لابن هشام .

بالمغفرة ؟ ذلك أن (الجبار) صفة من صفات الجلال التي تقتضى معاقبة المذنب ، والذنب متعلق بصفات الجلال لا بصفات الجمال ، إذن فالمنطق يقتضى أن يقف المذنب أمام شديد الانتقام ؛ لأن المقام يناسب صفات الجلال ، ولكن علينا أن نتذكر جيدا أن الله يرضى العنان للمذنب لعله يتوب ، وأن الله يفرح بتوبة عبده وأن رحمته تغلب غضبه .

ويذيل الحق الآية : « إن الله عليهم بذات الصدور » والتقوى - كما نعلم - لا تنشأ من الأفعال المحسنة المدركة فقط ، بل تنشأ أيضا في الأحوال الدخيلة المضمرة . ومثال ذلك نية سيئة ونية حسنة . فالهقد ، الحسد ، التبييت ، المكر ، كل ذلك صفات سيئة ؛ فليأكم أن تقولوا إن التقوى للمدركات فقط ؛ بل للمحسنت أيضا . وعمل القلوب له دخل في تقوى الله . ومن بعد ذلك يقول الحق :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ
قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

إن الحق - كما علمنا - حين ينادى المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » إنه سبحانه لم يقتحم على الناس تصرفاتهم الاختيارية لمنهجه ، بل يلزم ويأمر من آمن به ويوجب عليه ؛ فيوضح : يا من آمنت بي إلها حكيما قادرا خذ منهجى . ولكن الحق يقول : « يا أيها الناس » حين يريد أن يلفت كل الخلق إلى الاعتقاد بوجوده ، أما من يؤمن به فهو يدخل في دائرة قوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا » وهذا النداء يقتضى بأن يسمع المؤمن التكليف من آمن بوجوده .

ونعلم أننا جميعا عبيد الله ، لكن لسنا جميعا عباد الله . وهناك فرق بين « عبيد » و« عباد » . فالعبيد هم المرغمون على القهر في أى لون من ألوان حياتهم ، ولا يستطيعون أن يدخلوا اختيارهم فيه . قد نجد متمرداً يقول : « أنا لا أؤمن بإله » ولكن هل يستطيع أن يتمرد على ما يقضيه الله فيما يجبره الله عليه قهراً ؟ فإذا مرض وادعى أنه غير مريض فما الذى يحدث له ؟ أيجرؤ واحد من هؤلاء المتمردين على ألا يموت !! لا أحد يقدر على ذلك .

إذن فكل عبد مقهور لله ، وكلنا عبيد الله يستدعينا وقتما يريد ويجرى علينا ما يريد بما فوق الاختيارات . أما « العباد » فهم الذين يأتون إلى ما فيه اختيار لهم ويقولون لله : لقد نزعنا من أنفسنا صفة الاختيار هذه ورضينا بما تقوله لنا « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » . إذن فالعبيد مقهورون بما يجبره عليهم الحق بما يريد ، والعباد هم الذين يرضون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضاه ؛ إنهم أسلموا الوجه لله . فهم مقهورون بالاختيار ، أما العبيد فمقهورون بالإجبار .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله » . و« قوام » صفة مبالغة والأصل فيها قائم ، فإن أكثر القيام نطلق عليه كلمة « قوام » . ومثال ذلك رجل لا يحترف النجارة وجاء بقطعة من الخشب وأراد أن يسد بها ثقباً في باب بيته ؛ هذا الرجل يقال له : « ناجر » ولا يقال له : « نجار » ، ذلك أن تخصصه في الحياة ليس في النجارة . وكذلك الهاروي الذى يخرج بالسفينة إلى البحر ؛ واصطاد سمكتين ؛ يقال له : « صائد » لكنه ليس صياداً ؛ لأن الصيد ليس حرفته .

إن الحق يطلب من كل مؤمن ألا يكون قائماً لله فقط ، ولكن يطلب من كل مؤمن أن يكون قواماً ؛ أى مبالغ في القيام بأمر الله . والقيام يقابله القعود . وبعد القعود الاضطجاع وهو وضع الجنب على الأرض ثم الاستلقاء ، وبعد ذلك ينام الإنسان . ونحن أمام أكثر من مرحلة : قائم وقاعد ومستلق ، ونائم . والنائم ليس عليه تكليف . والمستلق هو المستريح على ظهره والحق يقول :

﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾

أى اجعلوا الله دائما على بالكم ؛ فالإنسان يملك في حالته الطبيعية نشاطا يمكنه أن يقوم ويقعد ؛ فإن قيل : « قام فلان بأمر القوم » أى أنه بذل كل جهد لإدارة أمور الناس ، والقيام في حركات الناس أصعب شيء . وسبحانه لا يريد منا أن نكون قائمين فقط ؛ بل يريد أن نكون قوامين . ومادامنا قوامين فلن نخلو لحظة من قيامنا أن نكون لله ؛ لله توجها . لا نفعا ؛ لأن أية حركة من أى عبد لا تفيد الله في شيء ؛ فالحق خلق خلقه بمجموع صفات الكمال فيه ، ولم ينشئ خلقه له صفة جمال أو كمال جديدة . وعندما يؤدي الإنسان أى عمل لله فهو يؤدي طاعة وتقربا لله . وإذا أراد الله من المؤمنين أن يكونوا قوامين لله ، عندئذ تكون كل حركات المجتمع الإيماني حركات ريانية متساندة متصاعدة . وإذا كانت حركات المجموع الإيماني متساندة فسوف تكون النتيجة لهذه الحركة سعادة البشرية ؛ فالإنسان إذا ما كان قواما فهو قوام لنفسه وللآخرين .

والمراد أن نكون مداومين على قيامنا في كل أمر لله . ولا تعتقد أيها المؤمن أنك تعامل خلق الله ، إنما تعامل الله الذي شرع لك ليضمن لك ويضمن منك ، فأنت إن طولبت بالأمانة ، فقد طوبى كل الناس بالأمانة فيما هو خاص بك لا بفيرك ، وحين ينهك الله عن الخيانة فقد أمر الحق الناس جميعا بالانتهاء عن الخيانة لك .

إذن إن نظرت إلى تكليفات الله لوجدتها لصالحك أنت . فلا يظن ظان أن الدين إنما جاء ليقف أمام نفسه هو ، فالدين وقف أمام النفس لدى الناس جميعا ، فحين يأمرك : ألا تمد يدك إلى مال غيرك فأنت واحد من الناس ، وفي هذا القول أمر موجه لكل الناس : لا تمدوا أيديكم إلى مال فلان لتسرقوه . فانظر إلى أن الحق حين شرع عليك شرع لك . ولذلك يجب أن يكون كل قيامك لله سبحانه . ولذلك يظهر الحق سبحانه وتعالى في بعض خلقه أشياء وأحداثا تفهم الناس أن الذي يعمل لخلق الله مسلوب النعيم ، والذي يعمل لله يكون موصول النعيم ؛ فنجد الواحد من الناس يقول : « لقد فعلت لفلان كذا وكذا وأنكرني » . نقول له : أنت تستحق لأنك صنعت له ، ولكنك لو صنعت لله لكفاك الله كل أمر . ولذلك يقول الحق عن هؤلاء الذين صنعوا لله :

﴿ يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾

إذن فالمؤمن يجب أن يوضح حركة قيامه ونميتها ؛ بمعنى أن يجعل كل حركته لله ؛ فإن كانت كل حركته لله ، فالله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً . والخاسرون هم الذين يعملون للناس ؛ لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً وربما تخلوا عنهم وربما أضمرت وحملت قلوبهم الضغن والحقد لمن أحسن إليهم ، وربما تحولوا إلى أعداء لهم ، فالصنوع له الجميل قد يعطيه الله بعضاً من الجاه ، وحين يلقى صانع الجميل بعد ذلك قد تتخاذل نفسه وتذل ، ونرى في بعض الأحيان واحداً يجلس بين الناس وقد أخذته العزة ، ثم يدخل عليه إنسان كان له فضل عليه ، وساعة يراه يكره وجوده في مجلسه ، ويتمنى ألا يحدث هذا اللقاء ، وإذا ما لقيه بعد ذلك في طريق فهو يشيح بوجهه ؛ لأن الذي صنع الجميل يسبب حرجاً له ، ويجعل نفسه تتضعض ، وهو يريد أن يستكبر على الناس . إذن فالله يوضح : اعملوا لله ؛ لأنه لا يضيع عنده شيء . واعلموا أن الله رقيب عليكم ولن يضيع عمل عنده .

وعندما سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(١) .

أستطيع أنت أيها الإنسان أن تصنع في إنسان آخر ما يسوؤه أمامه ؟ أنت تسيء إلى الآخر من وراء ظهره . فلهذا إذن يُسيء الواحد منكم إلى الله بالعصيان ، وهو الناظر إليكم جميعاً ؟

إذن حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن تحسن معاملة نفسك وغيرك فعليك أن تحتسب كل عمل لك عند الله . فقد سخر لنا الحق كل الوجود وأعطانا كل مقومات الحياة ، ويوضح لكل واحد منا : يا عبدي اجعل كل قيامك لله ؛ ولا تكن قائماً فقط ولكن كن قواماً . . بمعنى أنه مادامت فيك بقية من العافية للعمل فاعمل ، ولا تعمل على قدر حاجتك فقط ، ولكن اعمل على قدر طاقتك ؛ لأنك لو عملت على قدر حاجتك فإن الذي لا يقدر على العمل لن يجد ما يعيش به .

إذن فاعمل على قدر طاقتك لتسع حركتك للناس جميعاً . ويكون الفائض من

(١) رواه البخاري . باب سؤال جبريل عن الإيمان بالإسلام والإحسان ، ورواه مسلم في كتاب الإيمان .

عملك لغيرك . وحين يقول سبحانه : « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » ، يعلمنا ألا نضيع مجهودنا هباء ، بل نوجه المجهود للعمل ونقوم به لوجه الله ، لأنه سبحانه لا ينسى أبداً جزاء عبده ، وهو الذى يرد كل جميل . إنه - سبحانه - يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

ويقول أيضا :

﴿ إِنْ أَفْلَحَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة التوبة)

وحيث يكون الواحد منا قواماً لله يكون قد استغل حركة وجوده لخير خلق الله ، وهذا العمل مطلوب منك . ولا يكفى أن تكون حركتك محصورة في ذلك ، بل يجب أن تمتد أيضا حركة حياتك لتكون شاهداً بالعدل . وكذلك توجه للعدل من تحدته نفسه أن ينحرف . وحيث تكون قواماً لله فهذا أمر حسن ، وعليك أن تحاول إقناع غيرك بأن يكون قيامه لله بأن تكون شاهداً بالقسط والعدل . وحيث تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتبادى ظالم في ظلمه . فالذى يجعل الظالم يشتد ويستشري ظلمه ويتضاقم شره هو أنه يجهد من يدلسون على العدالة ويسترون ويخفون العيوب ويخادعون الناس .

لكن لو وجد الإنسان الذى ينير الطريق أمام العدالة لما وجد ظلم . لكن الظالم يجب من يدلس عليه ، فيقول لنفسه : إن فلانا ارتكب جريمة مثل جرمي ونال البرامة . وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات . ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هي شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كل فرد في المجتمع إذا هم بظلم يرتدع قبل أن يفعل الظلم ، ولكان الظالم ينال عقابه ويصير مثالا لارتداع غيره . والمؤمن مطالب أولا بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالب ثانياً أن يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

وكلمة « القسط » تأتى منها اشتقاقات كثيرة ، وهي من الألفظ التى قد تدل على العدل وقد تدل على الجور ، وهي من الألفاظ التى تستعمل في الأمر وفي نقيضه . وهذا من محاسن اللغة . ويتطلب ذلك أن يحصى السامع الكلمة ويتعرف على معناها بما يتطلبه السياق .

« وَقَسَطَ » معناها « عدل » . والفعل المضارع لها هو يقسط . والمصدر « قسطا » ، ومرة يكون المصدر « قُسوطا » . والمصدر هو الذي قد يحول المعنى من العدل إلى الجور . فالقسط بمعنى العدل . وَقَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطاً . أى جار وظلم . هنا نجد الفعل يأتى بالمعنى وضده ؛ حتى يمتلك السامع اليقظة والفطنة التى تجعله يعرف التمييز بين معنى العدل ومعنى الجور .

وخين نقول « أقسط » فإنها بمعنى عدل ، وهنا ننتبه إلى ما يلى : أن هناك فرقاً بين غَدَلَ يأتى من لول الأمر وذلك هو القسط ، وهناك حكم ظالم يحتاج إلى حكم آخر يزيل الظلم . وذلك الذى نستعمل له « أقسط » أى أزال الظلم ، فكان جوراً كان موجوداً وأزاله الحكم . فالقسط - إذن - هو العدل الابتدائى . ولذلك نسمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ (١٥)

(سورة الجن)

والقاسطون هنا هم الظالمون ، فالقسط هنا من قسط يقسط قُسوطا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « شهداء بالقسط » أى شهداء بالعدل . واللباقة فى السامع هى التى توجه اللفظ إلى معناه المراد من خلا السباق ، فالسامع للقرآن يفترض فيه الأريحية اللغوية بحيث يستطيع أن يفرق بين الشيء والمشابه له من شيء آخر . إذن فهناك قسط وأقسط ، قسط بمعنى عدل ، وأقسط بمعنى أقام القسط بإزالة الجور . والقسوط معناه الجور .

والحق يقول : « إن الله يحب المقسطين » وه المقسطين ، هى جمع « مقسط » ، من : أقسط أى أزال الظلم والجور ، إذن فالذى يرجع المعنى هنا سياق الكلمة ومصدرها . وقد يراد بالكلمة المعنى المصدرى . والمعنى المصدرى لا يختلف باختلاف منطوقه ، فيقال : « رجل عدل » ويقال : « امرأة عدل » . ويقال : « رجلان عدل » ، ويقال : « امرأتان عدل » ، وه رجال عدل ، وه نساء عدل . إذن فإن أردنا بالكلمة المصدر فهى لا تتغير فى المفرد والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث . والقرآن الكريم يقول :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنبياء)

وهناك قول آخر:

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾

(سورة الشعراء)

وفي الريف المصرى نجد أن التاجر يصنع لنفسه الموازين من الأحجار ، فيعابر قطعة من الحجر بوزن الكيلوجرام ، ويعابر قطعاً أخرى لأجزاء الكيلوجرام ، ومن كثرة الاستعمال وملاسة الحجر يعرف التاجر أن الحجر يتآكل ، لذلك يعيد وزن الأحجار التى يستعملها فى الميزان كل فترة متقاربة من الزمن . ويقال : إنه يعابر الأوزان . وسمى القسطاس ؛ فالقسطاس هو الذى تعابر به الموازين ، فإذا صنع الإنسان شيئاً للميزان مما يتآكل أو يتأثر باللمس فيجب عليه أن يعايره كل فترة حتى لا يظلم أحداً ولو بمقدار اللمة الواحدة . ولذلك يقول الحق : « ذلكم أقط عند الله » ، « أقط » هنا معناها « أعدل » . فموازين الله غير موازين البشر ، فموازين البشر قد يحدث فيها اختلاف . ونرى بعض التجار ينقصون الميزان بأن يضعوا شيئاً تحت كفة الميزان أو غير ذلك من الخدع ، لكن الحق هو العادل الحق . وهو صاحب الميزان الأعدل وهو القائل : « ذلكم أقط عند الله » .

جاءت هذه الآية لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصغر حكماً ، وهو حكم صحيح وعادل بقواعد البشر ، فلو وضع الحق له الحكم الأقط . صحيح أن عدلك يا رسول الله لا يدخله هوى ولا يميل به غرض أو شهوة . ولكن العدل عند الله أكثر دقة وله مطلق الدقة . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم بمنطق القسط البشرى فى أمر زيد بن حارثة وكان مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عبداً الخديجة - رضى الله عنها - وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة علم أهل زيد بخبر اختطافه وبيعه كعبد وكيف آل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء أهل زيد إلى رسول الله وطالبوا بابنهم . ورفض زيد أن يعود معهم وأراد أن يبقى مع رسول الله ، وأراد رسول الله أن يكرم زيداً الذى فضله على أبيه وأهله مصداقاً لقول الله :

﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

(من الآية ٦ سورة الأحزاب)

لذلك كان لا بد للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقدر زيد بن حارثة ؛ فأعتقه ودعاه « زيد بن محمد » تكريماً له ، على عادة العرب في تلك الأيام . لكن الله يريد أن يلفي مسألة النبي :

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

وأجرى الله الأحداث ليصحح مسألة النبي لكل العرب ، وكان بداية تطبيق ذلك على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتزل القول الحق :

﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَاءِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

لم ينف الله القسط عن محمد ، ولكن الأقسط يأتي من عند الله . ويطيب الله خاطر زيد بعد أن عاد إليه اسمه الفعلي منسوباً لأبيه لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافئ الله زيدا بأن يجعل اسمه هو الاسم الوحيد في الإسلام الذي يذكر في القرآن ويتعبد المؤمنون بتلاوته إلى أن تقوم الساعة :

﴿فَلْيَاقُضِ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

لقد صار اسمه في القرآن يتلوه المسلمون إلى قيام الساعة . وفي ذلك كل السلوى . إذن فـ « أقسط عند الله » جاءت في محلها ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا أن يكون قيامنا مبالغاً فيه ؛ أي ألا نترك فرصة لعمل الخير وأن نبالغ في الدقة في أداء العمل ، وأن نعدل في المجتمع بأن نكون شهداء بالقسط . وبذلك يأخذ كل إنسان حقه فلا يقدر قوى أن يظلم ضعيفاً ؛ لأن الضعيف سيجد أناساً يشهدون معه بالحق .

ولياكم أن تدخلوا الهوى في مقاييس العدل . وهب أن المسألة تتعلق بملوككم أو بخصومكم فالعدل هنا أكثر أهمية وأكثر وجوباً .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا فتعتدوا عليهم ، فمن له حق يجب أن يأخذه . ونعرف القصة التى حدثت ، عندما سرق مسلم درع مسلم آخر وأراد السارق وأهله أن يلصقوا التهمة بيهودى وأن يبرىء نفسه ، ولكن الله أنزل قرآناً :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبْتَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ

خَصِيماً ﴿١٥٩﴾

(سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد لصالح الخائنين خصاماً للبراء . وقوله الحق هنا : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا ، وإلا سيكون البغض لصالح عدوكم ، وبغض المؤمن إذا حمله على اتباع هواه سيكون لصالح العدو ، لأن الله سيعاقب المؤمن لو أدخل الهوى والبغض فى إقامة الميزان العادل . فتحكيم البغض والعداء والهوى يكون لصالح الخصوم ؛ لذلك لا يحملنكم أيها المؤمنون شنآن - أى بغض - قوم على ألا تعدلوا .

ويضيف الحق : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » والعدالة حين تطلب مع الخصم هى تبريح لذلك الخصم لأنه خالف الإيمان . ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه : إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أن يقول الحق ولا بد أن عقيدته تجعل منه إنساناً قوياً ، وأن دينه الذى أمره بذلك هو نعم الدين .

إذن ساعة تحكم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تقرعه لأنه ليس مؤمناً ، لكن لو رأى خصمك أنك قد جُرت ولم تذهب إلى الحق ، فأنت بذلك تشجعه على أن يبقى كافراً ، لأنه سيفرض أنك تتبع الهوى . أما إذا رآك وأنت تقف موقفاً يرضى الله مع أنه خصم لك ، فهو يستدل من ذلك على أن العقيدة التى آمنت بها هى الحق ، وأنت تقهر الحق حتى فى أعدائك . وهكذا يفرغ الخصم العقدى نفسه ، وقد بلغت ذلك إلى الإيمان .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » أقرب إلى أى تقوى ؟ أقرب إلى تقوى المؤمن ؟ أم أن الخصم يكون أقرب إلى التقوى حين يرى المؤمن مقيماً للعدل والحق ، فاعمله

يرتدع ويعاود نفسه ويقول : إن الإيمان قد جعل هذا المسلم يتغلب على البغض وحكم بالحق على الرغم من أنه يعلم أنى عدو له .

ولنا في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة ، فقد جاءه رجل غريب يسأله طعاماً أو مبيتاً ، فسأله إبراهيم عن دينه . فوجده كافراً ، فلم يجب مسأله . وسار الرجل بعيداً ، فأنزل الله سبحانه على إبراهيم وحياً : أنا قبلته كافراً بى ومع ذلك ما قبضت نعمتى عنه . وسألك الرجل لقمة أو مبيت ليلة فلم تحببه . وجرى سيدنا إبراهيم خلف الرجل واستوقفه ، فسأل الرجل سيدنا إبراهيم : ما الذى حدث لتغير موقفك ، فقال سيدنا إبراهيم : إن ربي عاتبنى فى ذلك . فقال الرجل : نعم الرب إله يعاتب أحبائه فى أعدائه ، وأمن الرجل .

وهذا يوضح لنا معنى « أقرب للتقوى » فقد صار الرجل الكافر أقرب للتقوى . إذن : فاللعن النفسى الذى يصبب خصمك أو من ييغضك أو من بينك وبينه شئان ، حين يراك أثرت الحق على بغضك له ، يجعله يلتفت إلى الإيمان الذى جعل الحق يعلو الحوى ويغلبه ويقهره ، ويصير أقرب للتقوى . وايضاً من يشهد بالقسط هو أقرب للتقوى .

ويذيل الحق الآية بقوله : « واتقوا الله إن الله خير بما تعملون » فهو - سبحانه - الخبير بما نعمل . وإياك أيها المؤمن أن تصنع ذلك لشهرة أن يقال عنك إنك رجل حكمت على نفسك . ولكن اعمل من أجل الله حق وإن كان الموقف يستحق منك الفخر .

إن كثيراً من الناس يحكمون بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل ، كيف ؟ لنفرض أنه قد عُرضت عليك قضية هى خصومة بين ابنك وابن جارك ، الشجاعة الأولى تفرض أن تحكم لابن جارك وهو غير محق على ابنك ، لكن الشجاعة الأقوى أن يكون الحق لابنك وتحكم له ، أما إن حكمت لابن جارك - وهو غير محق - ففى هذه الحالة تكون قد حكمت بالظلم لتشتهر بين الناس بالعدل !

يجب أن يكون الحق أعز عليك من ابنك وابن جارك ، وإياكم أن تعملوا أعمالاً

ظاهرها عدل وباطنها رياء ؛ لأننا نعلم أن لكل جارحة من الجوارح مجالاً تؤدي فيه وظيفتها ؛ فاللسان أداؤه ووظيفته القول ، والأذن فعلها أن تسمع ، والأنف أداؤه أن يشم ، ويجمع الجميع العمل . فالعمل إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلاً . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَبُرَ مَقْنَعًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول محنة اللسان ، والفعل محلة بقية الجوارح ، والاثنان يجمعهما العمل . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۖ ﴾

وعندما نتأمل كلمة « وعد » نجد ما تأتي ، وتأتي أيضاً كلمة « أوعد » و« وعد » وكذلك أوعد إذا لم تقترن بالموعود به ، تكون وَعَدَ لِلْخَيْرِ ، و« أَوَعَدَ » للشر . ولكن لو حدث غير ذلك وجئت بالموعود به ، فالأثنان متساويان ، فيصح أن تقول « وعدته بالخير » ويصح أيضاً أن تقول « وعدته بالشر » . لكن إن لم تذكر المتعلق ، فإن « وعد » تستعمل في الخير . و« أوعد » تستعمل في الشر . والشاعر يقول :

وَأَيُّ إِنِّ أَوَعَدْتَهُ أَوْ وَعَدْتَهُ
لِخَلْفٍ إِيْمَادِي وَمُنْجَزٍ مَوْعِدِي

وحين يقول : « وعد الله » فهذا وعد مطلق لا إخلال به ؛ لأن الذي يخلف بالوعد هو الإنسان الذي تعثره الأغيار ؛ فقد يأتي ميعاد الوفاء بالوعد ويمجد الإنسان نفسه في

موقف العاجز أو موقف المتغير قلبياً ، لكن ساعة يكون الله هو الذى وعد فسبحانه الذى لا تداخله الأغيار ، بل هو الذى يُجرى الأغيار ، لذلك يكون وعده هو الوعد الخالص الذى لا توجد قوة أخرى تحول دون أن ينفذ الله وعده . أما وعد البشر فقد تآق قوة أخرى تعطل هذا الوعد .

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة » سبحانه وتعالى يوضح أن مغفرته لكل عباده ولا يختص فقط الصالحين الورعين بل إنه يوجه حديثه إلى هؤلاء الذين ارتكبوا المعاصى فإن تابوا ، فلهم مغفرة ؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ؛ فأنت قد تكون جالسا ويأتى واحد جهة اليمين ليقدّم لك تفاحة ، وفى اللحظة نفسها التى تمتد يدك لتأخذ التفاحة تلتفت لتجد إنساناً آخر يريد أن يصفعك ، أى اتجاهات سلوكك تغلب ؟ . لا بد أنك سترد على من يضربك أولاً . والحق يزيل الذنوب أولاً بالمغفرة . ونجده سبحانه وتعالى يأتى بأشياء تلفت القلب فهو يقول :

﴿ مَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فالخطوة الأولى للفوز هى الزحزحة عن النار ، والخطوة التالية بعد ذلك هى دخول الجنة . فسبحانه يمنع المفسدة ويقدم دفعها ودرأها على جلب المنفعة ؛ لذلك يقول الحق بداية : « لهم مغفرة » . والإنسان منا ساعة تأتى له الخواطر يفكر فى أشياء يطمح إليها ، وهناك أشياء يخاف منها . وينشغل الذهن أولاً بما يخاف منه ، يخاف من المفسدة ، يخاف من عدم تحقيق الآمال . إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

« لهم مغفرة وأجر عظيم » . وكل أجر على عمل يأخذ عمره بقدر حيزه الزمنى ، فأجر الإنسان على عمله فى الدنيا يذهب ويزول ؛ لأن الإنسان نفسه يذهب إلى الموت ، أما أجر الآخرة فهو الباقي أبداً ، وهو أجر لا يفوت الإنسان ولا يفوته الإنسان ، ذلك هو الأجر العظيم .

وحين يتكلم الحق عن معنى من المعانى يتعلق بالإيمان والعمل الصالح تكون

النفس مستعنة ؛ لأن هناك تأملاً في الخير وترهيباً من الشر ؛ لذلك يتبع الحق هذه الآية
بآية أخرى فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١٠ ﴾

وحين نسمع قوله : « أصحاب الجحيم » تتزلزل النفوس رهبة من تلك الصحبة
التي نبرأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم وتعني الارتباط معاً ، وألا يترك أحدهما
الآخر ؛ كأن الجحيم لا تتركهم ، وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيم نفسها
في اشتياق لهم . وللجحيم يوم القيامة عملان ؛ العمل الأول : الصحبة التي
لا يقدر الكافر على الفكك منها ، والثاني : لا تترك الجحيم فرصة للكافر ليفك
منها . ويقول الحق عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ١١ ﴾

(سورة ق)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ يَبْسُطُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١١ ﴾

والذكر - كما عرفنا - يعني استحضار الشيء إلى الذهن ؛ لأن الغفلة تطرد على

الإنسان وعليه ألا يستمر فيها . وبعض أهل الإشراف والشطح يتلاعبون بالمواجيد النفسية فيقول واحد منهم : يعلم الله أني لست أذكره . وحين يسمع الإنسان مثل هذا القول قد يوجه لصاحبه التأنيب والنقد العنيف ، لكن القائل يحلل الأمر التحليل العرفاني فيكمل بيت الشعر بالشطر الثاني :

« إذ كيف أذكره إذ لست أنساه » .

وهنا ترتاح النفس ، ويقول الحق هنا أيضاً : « نعمة الله » ولم يقل : « نعم » ؛ لأن كل نعمة على انفراد تستحق أن نشكر الله عليها ؛ فكل نعمة مفردة في عظم وضخامة تستحق الشكر عليها ، أو أن نعمة الله هي كل فيضه على خلقه ، فأفضل النعمة أنه ربنا ، وسبحانه يقول : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسلطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » . ومادام قد جاء بـ « إذ » فالمراد نعمة بخصوصها ؛ لأن « إذ » تعني « حين » فالحق يوضح : اذكروا نعمة الله عليكم في ذلك الوقت الذي حدثت فيه هذه المسألة ؛ لأنه جاء بـ « إذ » ويطلب أن نذكر نعمته في هذا الموقف ، إنه يذكرنا بالنعمة التي حدثت عندما هم قوم ببسط أيديهم إليكم .

وهناك « قبض » لليد و « بسط » لليد . والبسط المنظور أن ترى النعمة . وفي الآية تكون النعمة هي كف أيدي الكافرين ، ذلك أن أيديهم كانت ممدودة بالسوء والشر . ولو وقفنا عند بسط اليد ؛ لظننا أنه سبحانه قد جعل من أسباب خلقه معبراً للنعم علينا أي أن نعم الله تعبر وتصل إلينا عن طريقهم وبأيديهم ، لكن هذا ليس مراداً من النص الكريم ؛ لأننا حين نتابع قراءة الآية ، نعرف أن كف أيديهم هو النعمة ، فهؤلاء القوم أرادوا أن يسلطوا أيديهم بالإيذاء . ويقولون عن بذاءة اللسان : « بسط لسانه » ويقولون أيضاً : « بسط يده بالإيذاء » .

ونعرف أن الحق جاء بـ « إليكم » أو « عنكم » وكلاهما فيه ضمير يعود على المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فالمؤمنون ملتحمون بمنهج النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا هم قوم أن يسلطوا أيديهم إلى رسول الله ، ففي ذلك إساءة للمؤمنين برسول الله ؛ لأن كل شيء يصيب رسول الله ، يصيب المؤمنين أيضاً . وكانت هناك واقعة حال في زمن مقطوع وسابق، فهل يعني الحق سبحانه وتعالى بحادثة بني

النضير ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين النضير معاهدة ألا يعينوا عليه خصوم الإسلام وإذا حدث قتل من جهة المسلمين فعل بنى النضير المعاونة في الدية ، وكان النبي قد أرسل مسلماً في سرية فقتل اثنين من المعاهدين خطأ ، فطالبوا بدية للقتيلين . ولم يكن عند النبي ؛ مال فذهب إلى بنى النضير كي يساعدوه بدية القتيلين ، فقالوا له : « مرحباً » نطعمك ونسقيك وبعد ذلك نعطيك ما تريد ، ثم سلطوا واحداً ليرمى الرسول بحجر . فصعد الرجل ليلقى على الرسول صخرة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاعد إلى جانب جدار من بيوتهم فأخبر الحق رسوله فقام خارجاً ، ولم ينتظر شيئاً .

« إذ هم قوم أن يمسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » لقد أخبر الحق نبيه بما يبتون قبل أن يتمكنوا من الفعل . و « الهم » هو حديث النفس ، فإذا ما خرج إلى أول خطأ النزوع فذلك هو القصد ، و « الهم » هو الشيء الذي يغلب على فكر الإنسان في نفسه ويكون مصحوباً بغم .

وفي اللغة الدارجة نسمع من يقول : « أنا في هم وغم » ؛ لأن « الهم » هو الأمر الذي لا يبارح النفس حديثاً ويسبب الغم . فالهم هو العدو الذي لا يقدر أن يقهره أحد ؛ لأنه يتسرب إلى القلب ، أما أي عدو آخر فالإنسان قد يدفعه ، ونعرف عن سيدنا الإمام على - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - أنه كان مشهوراً بأنه الملقى ؛ فهو يستغنى في الشيء فيجيب عليه ، لدرجة أن سيدنا عمر نفسه يقول : « قضية ولا أبا حسن لها » أي أنها تكون قضية معضلة إذ لم يوجد أبو حسن لها فيحلها ، وكان سيدنا عمر يستعيز من أن يوجد في مكان لا يوجد به سيدنا على . وعندما عرف الناس عنه ذلك تساءلوا : من أين يأتي بهذا الكلام ؟ فجاءوا بلغز وانتظروا كيف يخرج منه . فقالوا : إن الكون متسع وفيه أشياء أقوى من كل الأشياء ، وقوى تتسلط على قوى ، وحاولوا الاتفاق على شيء أقوى من كل الأشياء ؛ فقال واحد : الجبل هو أقوى الأشياء . وقال الآخر : لكننا نقطع منه الأحجار بالحديد . وبينما هم يسلسلون هذه السلسلة جاء سيدنا على فقالوا له : يا أبا الحسن ما أشد جنود الله ؟ .

فأجاب سيدنا على - كرم الله وجهه - بأنه يقرأ من كتاب بدليل أنه عرف جنود الله وعرف الأقوى وحصر عددهم ، وقال سيدنا على : أشد جنود الله عشرة .

وكانه انشغل بهذه المسألة من قبل ، ودرسها .

قال : الجبال الرواسي والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والرياح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشيء ويمضي لحاجته ، والسكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله الهم . ولا يمكننا أن نمر على كلمة « الهم » في القرآن إلا أن نستعرض مواقعها في كتاب الله . وأهم موقع من مواقعها نتعرض له من أسئلة الكثيرين في رسائلهم وفي لقاءاتنا معهم هو مسألة يوسف عليه السلام حينما قال الحق سبحانه وتعالى بخصوص مراودة امرأة العزيز له :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَاهُ بُرْهَنَ رَبِّهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ولنحقق هذه المسألة ، فالذين يستبعدون على سيدنا يوسف عليه السلام هذا الأمر ، يستبعدون على صاحب العصمة أن يفكر في نفسه ، وإن كان التفكير في النفس لم يبلغ العمل التزويج فهو محتمل . بل قد يكون التفكير في الشيء ثم عدول النفس عنه أقوى من عدم التفكير فيه ؛ لأن شغل النفس بهذا الأمر ثم الكف يعنى مقاومة النفس مقاومة شديدة . ولكنهم يجنون ويعظمون - أيضاً - سيدنا يوسف عن أن يكون قد مر بخاطره هذا الأمر فضلاً على أن يوسف - عليه السلام - لم يكن قد أرسل إليه أى أنه لم يكن رسولا آنذاك .

الآية تقول :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

أى أن امرأة العزيز هي التي بدأت المراودة ليوسف عليه السلام فهل تم نزوع إلى العمل ؟ لا ؛ لأن النزوع إلى العمل يقتضى أن يشارك فيه سيدنا يوسف . إذن فهذه همت به ، أى صارت تحب أن تصنع العملية التزويجية وجاء المانع من سيدنا يوسف . وبالنسبة للمراود وهو سيدنا يوسف ، قال الحق :

﴿وَمِمَّ بَيَّنَّا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ونضرب لذلك مثلاً حتى نفهم هذا ؛ إذا قال لك قائل : أزورك لولا وجود فلان عندك ، هذا يعنى أن القائل لم يزرك ، وبالقياص نجد أن يوسف عليه السلام رأى البرهان فلم يهم . فمن أراد أن يتزه يوسف حتى عن حديث نفسه نقول : الأمر بالنسبة لها أنها همت به ، وحتى يتحقق الفعل كان لا بد من قبول لهذا الأمر ، وصار الامتناع لكنه ليس من جهتها بل جاء الامتناع من جهته . وهو قد همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه .

لماذا جاء الحق : بأنه همُّ بها لو أن رأى برهان ربه ؟ جاء الحق بتلك الحكاية ليدلنا على الحكمة في امتناع يوسف عن موافقته على المراودة ، فلم يكن ذلك عن وجود نقص طبعي جسدي فيه ، ولولا برهان ربه لكان من الممكن أن يحدث بينهما كل شيء . وأراد الحق أن يخبرنا أن رجولته كاملة وفحولته غير ناقصة واستعداداته الجنسي موجود تماماً ، والذي منعه من الإتيان لها هو برهان ربه ، إنه امتناع ديني . لا امتناع طبيعي . وبذلك يكون إشكال الفهم لمسألة الهم عند امرأة العزيز ويوسف قد وضح تماماً .

ونعود إلى الآية التي نحن بصددنا : « إذ همَّ قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم » وكلمة « قوم » إذا سمعتها فيها معنى القيام ، والقيام هو أنشط حالات الإنسان . وكما أوضحنا من قبل نجد الإنسان إما أن يكون قائماً وإما أن يكون قاعداً وإما مضطجعا وإما مستلقيا وإما نائماً . ونجد أن الراحة على مقدار هذه المسألة ، فالقائم هو الذى يتعب أكثر من الآخرين ؛ لأن ثقل جسمه كله على قدميه الصغيرتين ، وعندما يقعد فإن الثقل يتوزع على المقعدة . وإذا اضطجع فرقعة الاحتمال تتسع . ولذلك يطلقونها على الرجال فقط ؛ لأن من طبيعة الرجل أن يكون قواماً ، ومن طبيعة المرأة أن تكون هادئة وديعة ساكنة مكنونة . فالقوم هم الرجال ، ومقابل القوم هنا « النساء » . إذن فالنساء ليس من طبيعتهن القيام .

والشاعر يقول :

وما أدري ولست إخال أدري

أقوم آل حصن أم نساء

وحين يقول الحق : « إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم » فمعنى ذلك أنه لم يكن هناك نساء قد فكرن في أن يؤذين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجد هنا أيضاً أن البسط مجال تساؤل ، هل البسط يعنى الأذى أو الكرم ؟ .

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

هذا (في مجال العطاء) أما في مجال الأذى فالحق يقول على لسان ابن آدم لأخيه :

﴿ لَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة المائدة)

والأيدي لا تطلق إلا إذا أردنا حركة نزوعية تترجم معنى في النفس سبق أن مرّ على العقل من قبل ، فمد الأيدي يقتضى التبييت بالفكر ، وهكذا نعرف أن القوم قد بسطوا أيديهم إلى رسول الله والمؤمنين .

وعندما ننظر في التاريخ المحمدي مع أعدائه ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾

(سورة الأنفال)

أي أنهم قعدوا للتبييت . ونحن لا نعرف ذلك التبييت إلا إذا امتدت الأيدي للعمل ، فقد مكروا وبيتوا للشر وأرادوا أن يثبتوا رسول الله أي أرادوا تحديد إقامته بحبسه أو تقييده أو إثمخانه بالجراح حتى يوهنوه ويعجزوه فلا يستطيع النهوض والقيام أو يقتلوه أو يخرجوه من بلده . بإثباته ومنه فلا يبرح ، أو يخرجوه من المكان كله أو يقتلوه ، فهاذا كان الموقف ؟

لقد هموا أن يسطوا إليه أيديهم . وبسط اليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يؤذى المؤمنين كلهم ، لأنه لا يستقيم أمر المؤمنين إلا برسول الله ، فلو بسط الكفار أيديهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لكان معنى ذلك بسط أيديهم على الكل . ويأتى التاريخ المحمدى بأمور يسط فيها الكافرون أيديهم بالأذى إلى رسول الله وإلى المؤمنين ويكف الله أيديهم ويمكر بهم أى يجازيهم على ذلك بالعقاب .

والمكر - كما نعلم - هو الشجر الملتف بعضه على بعضه الآخر حيث لا نعرف أى ورقة تنمو من أى جذع أو فرع . والمكر فى المعانى هو التبييت فى خفاء . وهو دليل ضعف لا دليل قوة . فالأقوياء يواجهون ولا يبيتون ؛ ولذلك يقال : إن الذى يكيد لغيره إنما هو الضعيف ؛ لأن الإنسان الواضح الصريح القادر على المواجهة هو القوى . ونجد البعض يجعل ضعف النساء دافعا لمن على قوة المكر استنادا لقول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

والى قول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

فلا يكيد إلا الضعيف . ومن لا يقدر على المواجهة فهو يبيت ، ولو كان قادراً على المواجهة لما احتاج إلى ذلك . وقد يمكر البشر وبيتون بخفاء عن غيرهم . لكنهم لا يقدرُونَ على التبييت بخفاء عن الله ، لأنه عليم بخفايا الصدور . وأمر الحق فى التبييت أقوى من أمر الخلق ؛ لذلك نجد قوله سبحانه :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

ولنلاحظ أن نبييت الله خير . وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعلم أعداء الإسلام أنه بعد هذا التبييت لن تنالوا من رسول ، لن تنالوا منه بكل وسائلكم سواء أكانت تعذيباً لقومه أم تبييتاً له . وعلى الرغم من أنهم بيتوا كثيراً إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من بيته في مكة إلى المدينة وهم نائمون :

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يس)

ونجد العجب في كف أيدي الكافرين عن رسول الله . فكل أجناس الوجود قد اشتركت في عملية كف أيدي الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكانت تلك الأجناس جماداً أم نباتاً أم حيواناً أم إنساناً ، نثر رسول الله التراب وهو جماد فأغشى به الكافرين ، وصار التراب من جنود الله .

وها هي ذى أسماء بنت أبي بكر تحمل الطعام لهم في الغار وهي ترعى الغنم ، والأغنام تمجد الحشائش فترعهاها وتزيل الأثر الذي أحدثه ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اشترك النبات في كف أيدي الكافرين عن رسول الله ، وكذلك الأغنام وهي من الحيوان ، وكذلك فرس سراقه التي ساخت وغاصت قوائمها في الأرض ، ثم الحمامة التي بنت عشها على الغار ، وكذلك العنكبوت الذي بنى بيته على الغار ، ورضخت كل جنود الله لأمر الله فشاركت في عملية كف أيدي الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأعجب من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد كف أيدي الكافرين بالكافرين ، فالرسول الذي جاء ليهدى الخلق ويسير بهم إلى النور من الظلمات ، نجد الذي يهديه في طريقه إلى المدينة هو أحد الكفار . وهكذا نرى أن هداية المعاني تستخدم هداية المادة ، والرسول هو الحامل لهداية المعاني يستخدم هداية المادة ممثلة في ذلك الكافر . ونعرف أن من جنود الإسلام في دار الهجرة كان اليهود - برغم أنوفهم - ألم يقولوا للأوس والخزرج : سيأتى من بينكم نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ؟ فلما سمع الأوس والخزرج أن نبياً ظهر في مكة ، قالوا : هذا هو النبي الذي توعدتنا به

اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فسبقوا إليه وأسلموا وباعوه ، فقد ورد أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل مبثته ، فلما بعث الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك ونخبروننا بأنه مبثوث ونصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم^(١) .

ثم كانت المدينة داراً للهجرة .

هكذا نرى أن الباطل يخدع الحق ، والكفر يخدع الإيمان ، فها هو ذا عبدالله بن أريقط - وكان كافراً - يضع نفسه كدليل للرسول وصاحبه أثناء الهجرة ولا ينظر إلى الجمل الذي رصده قريش لمن يأتيها بمحمد . هكذا نجد أن كف الأيدي كانت له صور كثيرة .

وقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشياء ومواقف رآها الصحابة ، ونشأت له خوارق من الحق سبحانه وتعالى تؤيد صدقه ، وشاهد تلك الخوارق بعض الصحابة ولا نقول عنها معجزات ؛ لأن معجزة الإسلام إلى قيام الساعة هي القرآن . ولكن رسول الله لم تخل حياته من بعض المعجزات الكونية مثل التي حدثت لغيره من الرسل . وأرادها الحق لا للمسلمين عموماً ولكن شاهداً بعضهم كما شاهدها بعض الكفار ؛ لأن رسول الله كان في حاجة إلى أن يؤكد له الله أنه رسول الله . فها هو ذا سيدنا جابر بن عبدالله يقول :

« كان بالمدينة يهودي وكان يسلفني في تمرى إلى الجذاذ ، وكان لجابر الأرض التي بطريق رومة فجعلت^(٢) فخلاً^(٣) هاما فجاءني اليهودي عند الجذاذ^(٤) ولم أجدها منها شيئاً ، فجعلت استنظره^(٥) إلى قابل فيأبى فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير ابن كثير عن محمد بن إسحاق مروياً عن ابن عباس .

(٢) فجعلت : أي فأنشأت الأرض من الإثبار ، وفي رواية فجعلت أي خلقت ما كان معهوداً منها من القمر .

(٣) فخلاً : أي تأخر السلف علماً .

(٤) الجذاذ : (بكسر الجيم وفتحها وبالذال المعجمة وبوزن إمالة) زمن قطع تمر النخل .

(٥) استنظره : أطلب منه أن يهتلي .

فقال لأصحابه : امشوا نستنظر لجابر من اليهودى ، فجاءوا فى نخل فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يكلم اليهودى فيقول : أبا القاسم لا أنظره ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم قام فطاف فى النخل ثم جاءه فكلمه فأبى ؛ فقمت فجئت بقليل رطب فوضعت بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - فأكل ثم قال : أين حريشك يا جابر ، فأخبرته فقال : أفرش لى فيه ففرشته ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئت بقبضة أخرى فأكل منها ثم قام فكلم اليهودى فأبى عليه ، فقام فى الرطب فى النخل الثانية ثم قال : يا جابر ، جدد واقض ؛ فوقف فى الجذاذ فجذدت منها ما قضيت وفضل منه فخرجت حتى جئت النبي صلى الله عليه وسلم فبشرته فقال : أشهد أنى رسول الله ^(١) .

مثال آخر : كان الماء قليلاً عند قوم من الصحابة فيخمس رسول الله يده فى الماء ويشرب كل الناس . وهل يجرؤ أحد من الذين رأوا تلك المعجزة أن يجادل فيها ؟ طبعاً لا ، لكن هل هذه المعجزة لنا ؟ إن وثقنا فيمن أخبر فلن نستكثر على الله أن يكثر الماء لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن نحن نعلم أن الله قد تكفل بحفظ القرآن ليكون هو المعجزة الباقية فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقد ثبت أن رسول الله جمع قليلاً من الزاد ودعا ما شاء الله أن يدعو وأطعم به جيشاً . والذي عاش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم له أن يصدق تلك المعجزات أو لا يصدقها ، ولكن على المؤمن الذى علم مقام ومكانة الرسول عند ربه ، أن يصدق تلك الخوارق متى ثبت ذلك بطريق يقين قطعى ، ولذلك لا ضرورة لإقامة الجدل مع هؤلاء الذين ينكرون المعجزات الكونية . ونقول لهم : ليس أحدكم مسئولاً بهذه المعجزات ، أنت مسئول بمعجزة القرآن فقط . والخوارق التى وقعت إما أن تكون بغرض تثبيت رسول الله مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

وإما أن تكون لتثبيت أصحاب رسول الله ؛ فقد كانت الأحوال تمر عليهم وتزلزلهم :

﴿مَّا لِكَ آتِيِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝﴾

(سورة الأحزاب)

وكان لا بد أن ترسل السماء لهم آيات لتثبت أقدامهم في الإيمان .

والخلاصة أن كل الخوارق الكونية التي حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس المقصود بها عامة المسلمين ، ولكن المقصود بها من وقعت له أو وقعت أمامه ، ونفّض بذلك أى نزاع حول تلك الخوارق ؛ لأن المعجزة الملزمة للجميع هي كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقد همّ بالأذى كثير من أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم ترد امرأة من اليهود أن تسمّه وكف الله يديها ؟ وحكاية بنى النضير الذين أرادوا أن يلقوا عليه الحجر ، فقام قبل أن يلقى مندوب بنى النضير الحجر عليه صلى الله عليه وسلم .

وها هو ذا صفوان بن أمية له ثأر عند رسول الله من غزوة بدر يستأجر عمير ابن وهب الجمحي ويقول له : اذهب إلى المدينة واقتل محمداً وعلى دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا .

ويذهب عمير إلى المدينة ويدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا إليه . وكان له ابن أسير لدى المسلمين . قال : فما بال السيف في عنقك ؟ فقال : قبّحها الله من سيوف وهل أغضت عنا شيئاً ؟ قال : أصدقني ما الذي جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بل فعلت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرنا أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين على وعيالك عندي لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبينى فقال عمير . أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي .

وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما آتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام» (١) .

ومثال آخر : ما رواه سيدنا جابر - رضي الله عنه - في غزوة ذات الرقاع . « قال : جاء رجل يقال له غورث بن الحارث فقام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : (ومن يمنعك مني) ؟ فقال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : لا ، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخل سبيله فأتى أصحابه وقال : جئتكم من عند خير الناس» (٢) .

وعندما سمع الرجل لأول مرة أن الله هو الذي يمنع الرسول منه وقع السيف من يده ، ذلك أن ذرات الكفر في الرجل تزلزلت وعاد إلى إيمان الفطرة ، وعندما أمسك النبي بالسيف وسأل الرجل : من يمنعك مني ؟ لم يقل الرجل : « هبل » أو « اللات » أو « العزى » فالرجل يعلم أن مسألة الأصنام كذب في كذب ، ولو كان مؤمناً بأهله لقال أحد أسماؤها . وعندما تزلزلت ذرات الكفر في كيانه عاد إلى الفطرة الأولى التي لا تكذب أبداً . وإن كذب الإنسان على الناس جميعاً لا يكذب على نفسه . وكلمة « الله » هي التي زلزلت كفر الرجل وأعادته إلى الحق .

وفي معركة بدر نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما ابنه عبد الرحمن كان مع الكفار ، وبعد أن أسلم ابنه بفترة جلس الولد مع أبيه يتسامران ، فقال الابن : لقد رأيتك يوم أحد فصدفت (٣) عنك فقال أبو بكر : لكني لو رأيتك ما صدفت عنك (٤) . فقد رأى ابن أبي بكر والده ولم يقتله ، ولا شك أن مقارنة نفسية باطنية فكرية قد حدثت بين معزة أبيه وبين مكانة هبل أو تلك الحجارة ، وعرف ابن أبي بكر أن والده أفضل بكثير من تلك الأحجار . ولكن

(١) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن حمزة بن الزبير .

(٢) البيهقي عن جابر وفي البداية (٨٤/٤) .

(٣) صدفت عنك : أعرضت عنك .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة عن أيوب وأخرج الحاكم عن أيوب نحوه .

أبا بكر حينها يقول : ولو كنت رأيتك لقتلتك ، فالمقارنة النفسية هنا تكون بين الإيمان بالله وبين الابن ، ومن المؤكد أن الإيمان يغلب في نفس أبي بكر . وكل من أبي بكر وابنه كان منطقيا مع نفسه .

ومثال آخر : « عن جابر بن عبد الله أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم - قفل معه فأدركتهم القائلة - شدة الحر في وسط النهار - في وادٍ كثير العضاء - شجر عظيم له شوك - فنزل رسول الله ، وتفرق الناس في العضاء يستظلون بالشجر ونزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت شجرة فعلق بها سيفه ، قال جابر : فتمنا نومة فإذا رسول الله يدعونا فجيئناه فإذا عنده أعرابي جالس فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً فقال لي : من يمنعك مني ؟ فقلت له : الله . فما هوذا جالس ثم لم يعاقبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - » (١) .

ولماذا حدث ذلك ؟ لأن الفطرة المستلزمة بدون تدخل من أحد تنضح بالإيمان . وما نحن أولاء نرى الصحابة في العهد الأول حينما اضطهدوا في مكة وهاجروا هجرتهم الأولى إلى الحبشة ؛ هل ذهبوا إليها خبط عشواء ؟ أو ذهبوا بتخطيط نبوي كريم ؟ لقد درس النبي أولاً الأرض التي تصلح لاستقبالهم ويقبلهم فيها أهلها كمهاجرين . ودرس النبي أوضاع الجزيرة العربية ووجد أن قريشا تتمكن من كل قبيلة في الجزيرة العربية عندما يأتي موسم الحج ، لذلك لن توجد القبيلة التي تحمي المهاجرين فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » (٢) .

(١) رواه البخاري في المغازي وعند ابن إسحاق بعد قوله : (الله) فبلغ جبريل في صدره فوقع السيف من يده فاعتله النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال : من يمنعك مني . قال : لا أحد . وعند الواقدي أنه أسلم ورجع إلى قومه فاعتلى به خلق كثير .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق .

وبالفعل ذهب المسلمون إلى الحبشة مهاجرين . وحاولت قريش أن تسترد المسلمين من أرض النجاشي . وأرسلت قريش بعثة لاستردادهم ورفض النجاشي . وسمع النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلم أنه النبي الذي بشر به الإنجيل . ولاشك أن النجاشي قد أسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي عندما مات . وكان إسلام النجاشي مكافأة له من الله ؛ لأنه حمى المؤمنين بالله ورسوله عنده . وما أعظم المكافأة التي نالها النجاشي أن يموت على الإسلام وأن يصلى عليه سيدنا رسول الله صلاة الغائب .

إن كل هذا من كف أيدي الكافرين عن المؤمنين وعن رسول الله ، ومن أجل أن يثبت الحق للجميع أن المؤمنين على حق وأن الله لن يخذلهم ، فلا يخطر ببال المؤمنين أن عدوهم أقوى منهم ؛ فإله أقوى من خلقه . « فكف أيديهم عنكم » وكف أيدي الكافرين عن المؤمنين لأنه - سبحانه - يعد المؤمنين ليكونوا حملة منهجه إلى الخلق . ولذلك يجب أن يداوم المؤمنون على تكاليف الإيمان وتقوى الله ليكف الله أيدي الكافرين عنهم ، فلا يتقلب كافر على مؤمن في لحظة من اللحظات إلا إذا كان المؤمن قد تخل عن شيء في منهج الله ؛ لأن الحق لا يقول قضية قرآنية ثم يترك القضايا الكونية التي تحدث في الحياة لتتسخ هذه القضية القرآنية . لقد قال :

﴿ وَإِنْ جُنَدْنَاهُمْ الْقَاتِلُونَ ﴾

(سورة الصافات)

إذن فعندما ترى جنداً من المسلمين قد انهزموا فلتعلم أنهم قد تخلوا عن منهج الله فتخل الله عنهم ، بدليل أن بعضاً من المسلمين ساعة لم يتفعلوا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم غلبهم الكفار ، فإله لا يغير سنته من أجل أناس نسبوا إليه ولم يتفعلوا تعاليم منهجه . والحق يقول :

﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

إنك إن انتسبت إلى الإسلام فيجب أن تنتسب إلى الإسلام بحق ، وإن رأيت المؤمنين قد دخلوا معركة وانهزموا فلتبحث مصادر تخليهم عن منهج الحق ، فسيحانه يقول :

﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْكَانُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُصْطَرِّينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِ لَنَا دُفُونَنَا وَاسْرَافْنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أقدامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَعَاتَبَهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾

(سورة آل عمران)

لقد أصاب المقاتلين مع النبي شيء ، فلم يضعفوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق أن يغفر لهم ذنوبهم ، لقد عرفوا مصادر ضعفهم واستعانوا بالله على هذا الضعف ، فهذا فعل الله لهم ؟ . نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين . وكل ذلك السلوك الإيماني الذي يقى من الهزيمة وكيد العدو ، هو من تقوى الله ، حتى يظل المؤمنون في معية الله . وعندما يكون المسلم في معية الله لا يمرؤ خلق من خلق الله أن ينال منه . وننظر إلى الهجرة كمثال لذلك ، لنجد أن سيدنا أبا بكر كان حريصاً على حماية النبي صلى الله عليه وسلم . فعن أنس بن مالك قال : « لما كان ليلة الغار ، قال أبو بكر : يا رسول الله دعني فلا أدخل قبلك فإن كانت حية أو شيء كانت لي قبلك . قال : ادخل ، فدخل أبو بكر فجعل يلتمس يديه فكلما رأى جُحراً جاء بشويه فشقه ثم ألغمه الجحر حتى فعل ذلك بشويه أجمع ، قال : فبقى جحر فوضع عقبه عليه ثم أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فلما أصبح قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فإين ثوبك يا أبا بكر ؟ » فأخبره بالذي صنع فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده فقال : « اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة » فأوحى الله تعالى إليه « إن الله قد استجاب لك » (١) .

ويرى أبو بكر الكفار وهم يهرون أمام الغار فيقول لرسول الله : « لو أن أحدهم

(١) أبو نعيم في الحلية .

نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك يا أبا بكر
بأثنين الله ثالثهما »^(١) .

وفي ذلك رد كامل ؛ لأن الاثنين في معية الله ، ومادام المؤمن في معية من لا تدركه
الأبصار فلن تدركه الأبصار ، كيف ؟ . نحن لا نعرف كل أسرار الله ولكنه القادر
الأعلى .

وفي حياة البشر نجد الطفل الصغير قد يخرج بمفرده فيصيبه غيره من الأطفال
بالضرر ؛ ولكن إذا خرج الطفل مع عائلته ، مع أبيه مثلاً أو مع أخيه الأكبر ،
فالأطفال لا يقتربون منه ؛ فما بالنا ونحن جميعاً عيال الله ؛ وماذا يحدث عندما نتشبه
بمعية الله ؟ . إذن فتقوى الله هي التي تجعل المؤمن في معية ربه طوال الوقت . ومن
يُريد المؤمن بسوء فإن جنود الله تحمى المؤمن . ويذيل الحق الآية : « وعلى الله
فليتوكل المؤمنون » . وإياكم أن تقولوا : إننا بلا عُدَد أو عُدَّة . إنك مستول أن تعد
ما تقدر عليه وتستطيعه وأترك الباقي لله :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ آخِيزٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ويقول التاريخ الإيمان لنا إنه كم من فئة قليلة خلبت فئة كثيرة بإذن الله . وقد
يقول قائل : هذه المسألة مادية تحتاج إلى عدد وعُدَد . ونرد : إن الحق قد طالب بأن
نعد ما نستطيعه لا فوق ما نستطيعه . وهو سبحانه عنده من الجند اللطيف الخفي
الدقيق الذي لا يُرى :

﴿ سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ومادام الله قد ألقى الرعب في قلوب الأعداء فالمسألة تنتهي ولا تفلح عُدَد أو
عُدَّة . ويكون التوكل على الله بعد أن يعد الإنسان ما يستطيعه وهو الاستكمال الفعَّال
للمنصر ، ولنعلم أن التوكل غير التواكل . إن المتوكل على الله يقتضي أن يعلم
الإنسان أن لكل جارحة في الإنسان مهمة إيمانية ، أن تطبق ما شرع الله ؛ فالأذن
تسمع ، فإن سمعت أمراً من الحق فانت تفعله ، وإن سمعت الذين يلحدون في

آيات الله فانت تعرض عنهم . واللسان يتكلم ، لذلك لا تنقل به إلا الكلمة الطيبة ؛ فلكل جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولتذكر أن السعي للقدم ، والعمل لليد والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ؛ لأن التوكل الحقيقي أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذي لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ومتميز ثم تهب عليه عاصفة أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة الإحباط . واحذر إهمال الأسباب ؛ أو أن تفتنك الأسباب ؛ لأنك إن أهملت الأسباب فانت غير متوكل بل متواكل . تنقل عمل القلب إلى الجوارح . وإذا قال لك واحد : أنا لا أحمل بل أتوكل على الله ، قل له : هيا نر كيف يكون التوكل . وأحضر له طبق طعام يجه . وعندما يمد يده إلى الطعام ، قل له : اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

ويجعل الحق سبحانه وتعالى من قصص الرسل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تبييناً للإيمان وتربية للأسوة وإثماً لها ، حتى لا يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يفعله اليهود أو المشركون ، فإن كان قد حدث معك - يا محمد - شيء من هذا الإنكار والإيلام ، فقد حدث الكثير من تلك الأحداث مع الرسل من قبلك ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ

فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٦﴾

يُذَكِّرُ الحق هنا رسوله بالميثاق الذي أخذه من بني إسرائيل . وقد يكون المقصود هو ميثاق الذر أو يكون المراد بالميثاق ما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾

(سورة آل عمران)

أو أن يكون المراد بالميثاق هو ما بينه بقوله سبحانه :

﴿ خَلُّوا مَاءَ بَيْتِكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه : « وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً » ولتر « التكتيك » الدفين الذي أراده الحق ، فهو لا يجمع أجناس الخلق المختلفة على واحد من نوع منها ؛ لأن ذلك قد يعرض الدعوة لعصية ؛ فاختار سبحانه اثني عشر نقيباً على عدد الأسباط حتى لا يقولن سبط : كيف لا يكون لي نقيب ؟ . وحسم الله الأمر ، ولم يجعله محلاً للتراع ؛ فجعل لكل سبط نقيباً منهم . والنقيب هو الذي يدير حركتهم العقدية والدينية . وساعة نسمع كلمة « نقيب » نعرف أنها من مادة « النون و القاف والباء » ، « والنقب » هو إحداث فجوة لها عمق في أي جسم صلب .

إن اختيار الحق لكلمة نقيب ، يدل على أن النقيب الصادق ينبغي أن يكون صاحب عينين في منتهى اليقظة حتى يختار لكل فرد المهمة التي تناسبه ويركز على كل فرد بما يجعله يؤدي عمله بما ينفع الحركة الكاملة . وبذلك يكون كل فرد في السبط له عمله ومكانه المناسب . ولا يتأتى ذلك إلا بالنقيب ، أي معرفة حالة كل واحد وميوله فيضعه في المكان المناسب .

إذن فالنقيب هو المنقب الذي لا يكتفى بظواهر الأمور بل ينقبها ليحرف ظروف وأسباب كل واحد . واختار الحق من كل سبط نقيباً ، ولم يجعل لسبط نقيباً من سبط

آخر حتى يمنع السيطرة من سبط على سبط ، ومنع أن يكون النقيب على جهالة بمن يريد حركتهم من الأسباط الآخرين .

ونحن نسمع في حياتنا اليومية وصفاً لإنسان : فلان له مناقب كثيرة ، أى أن له فضائل يذكرها الناس ، كأن على صاحب الفضائل ألا يتباهى بها بنفسه بل عليه أن يترك الناس لينقبوا عن فضائله ، ولذلك كانت كنوز الأرض وكنوز الحضارات مدفونة نقيب عليها ، أما ما يظهر على سطح الأرض فتذروه الرياح وعوامل التعرية ولا يبقى منه شيء .

إذن فكلمة « نقيب » في كل مادتها تدور حول الدخول إلى العمق ، لذلك تصف الرجل الفاضل : فلان له مناقب أى إن نقبت وجدت له فضائل تذكر ، وقد أعطاه الله موهبة الخير ولا يتعالم بها ، بل يدع الناس هم الذين يحكمون ويذكرون هذه الصفات . ومن نفس المادة « النقب » أى أن تغطى المرأة وجهها .

وقوله الحق : « إني معكم » يعطيهم خصلة إيمانية ، فلا يظن أحد أنه يواجه أعداء منهج الله بذاته الخاصة بل بمعونة الله فلا يضعف أحد أو يهن مادام مؤمناً ، وكما قال الحق :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وبعد أن يعد المؤمنون ما استطاعوا فليتركوا الباقي على الله . وجاء أيضاً قوله : « وقال الله إني معكم » أى أن كل نقيب على سبط ليس له مطلق التصرف ، ولكن الله يوضح : « أنا معكم وسأنظر كيف يدير كل نقيب هذه المسائل » أى أنه سبحانه وتعالى مطلع على واقعكم ، فليس معنى الولاية أن يكون للوالى مطلق التصرف في جماعته ؛ لا ؛ لأن الله رقيب . وقوله الحق : « إني معكم » تدل على أن من ولى أمراً فلا بد أن يتابعه ويراه .

وبعد ذلك قال : « لئن أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرتم برسلى وعزرتهم وأقرضتم قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم » . وه لئن « تضم شرطاً وقسماً ، كان الحق يقول : وعزرت لئن أقمت الصلاة وفعلتم كذا وكذا ليكونن الجزاء أن أكفر

عنكم السيئات . ودلت « اللام » على القسم « ودلت « إن » على الشرط فهي « إن » الشرطية .

والقسم - كما نعلم - يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج إلى جواب أيضاً ، فالواحد منا يقول للطالب : إن تذاكر تنجح . والواحد منا يقول : والله لأفعلن كذا ، « والله » هي القسم . ود « لأفعلن » جواب القسم المؤكد باللام . وحين يأتي القسم في جملة بمفرده فجوابه يأتي ، وحين يأتي الشرط بمفرده في جملة فجوابه يأتي أيضاً . ولكن ماذا عندما يأتي القسم مع الشرط ؟ هل يأتي جوابان : جواب للشرط وجواب للقسم ؟ . عندما نجد هذه الحالة فانظر إلى المقدم منها ، هل هو القسم أو الشرط ؟ ؛ لأن المقدم منها هو الأهم ؛ فيأتي جوابه ، ويفنى عن جواب الثاني . والمتقدم هنا هو القسم ، تماماً مثل قولنا :

- لئن قام زيد لأقومن ، وهنا يكون الجواب جواب القسم ، أما إن قلنا : إن قام زيد والله أكرمه ، فالجواب جواب الشرط ؛ فقدم الشرط على القسم . هذا إن لم يكن قد تقدم ما يحتاج إلى خبر كالمبتدأ أو ما في حكمه ، فإن جاء والخبر أي المحتاج إلى الخبر فالشرط هو الراجح ، أي فالراجح أن تأتي بجواب الشرط ونحذف جواب القسم ؛ لأن الشرط تأسيس والقسم تأكيد . وابن مالك في الألفية يوضح هذه القاعدة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم

جواب ما أخرت فهو ملتزم

وإن توالى وقبيل ذو خبر

فالشرط رجح مطلقاً بلا حذر

والقسم قد تقدم في هذه الآية ، لذا نجد الجواب هنا جواب القسم ، وهو : « لا كفرن عنكم سيئاتكم » .

وقوله الحق : « أقمتم الصلاة » يوضح أن الإقامة تحتاج إلى أمرين ؛ فروض تؤدي ، وكل فرض فيها يأخذ حقه في القيام به . وبعد ذلك « وآتيتم الزكاة » وفي كتب الفقه نضع الصلاة ، والزكاة في باب العبادات . وجاء التقسيم الفقهي لتسهيل إيضاح الواجبات ، لكن كل مأمور به من الله عبادة ؛ لأن العبادة هي أن تطيع من

تعبد في كل ما أمر به ، وأن محتجب ما به عنك ، فكل أمر إلهي هو عبادة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه قال :

﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

هنا نجد أمراً تعبدياً أن نترك البيع إلى الصلاة ، وأمراً تعبدياً ثانياً أن نتشر في الأرض ابتغاء لفضل الله بعد انقضاء الصلاة ، وأي إخلال بالأميرين ، إخلال بأمر تعبدى ، فانت مأمور أن تتحرك في الأرض على قدر قوتك حركة تكفيك وتفيض عن حاجتك ليعم هذا الفائض على غيرك .

وقوله الحق : «وَأَمْتُمْ بِرُسُلِي وَعِزُّهُمْ» أى أن ينعقد الإيمان في القلب فلا يطفو الأمر بعد ذلك لمناقشته ، وأن تعزروا الرسل ، أى وقرمتموهم ونصرتموهم ، والعز في اللغة معناه المنع ، ولكن المنع هنا مراد به أن يمنع الناس عن رسول الله من يريده بسوء ، فإن أراد أحد من الأعداء السوء برسول من الله فليمنع المؤمنون هذا العدو عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنت في حياتك إن كان لك حبيب أراد أن يسيء ، وكنت لا تدركه لأنه بعيد عنك فأنت تمنى أن تأخذ صاحبك وتحمله من أن يناله العدو . لكن إن كان العدو أمامك فأنت تصله عن حبيبك . فالعز هو المنع ، أى أن تمنعه من عدوه وتحول بينه وبينه ، أو تمنع عدوه من أن يناله بشر . والرسول بالنسبة للمؤمنين به تكون حياته أعلى من حياتهم ، ففى أثناء المنع قد يصاب أحد المؤمنين ، وفى ذلك تعظيم للرسول ونصرة له وتوقير .

نقول ذلك حتى نرد على الذين يتصيدون ويقولون : علماء المسلمين لا يتفقون على شيء ، فمرة يقولون : إن «عزرتهم» معناها «نصرتمهم» ، ومرة أخرى

يقولون : إن « عززتموهم » معناها « منعموهم » . ونقول : كل المعاني هنا ملتبسة ، فالعزر هو الرد والمنع ، إما بمنع العدو عن الرسول ، وإما أن يمنع الناس الرسول من أن يناله العدو ، أو الاثنان معاً ، ويجوز أيضاً أن يكون معنى « عززتموهم » هو نصرتموهم . وكذلك يجوز أن يكون معناها « وقرتموهم » ، لأن التعظيم والتوقير هما السبب في نصرة الإنسان للرسول .

وبعد ذلك يقول الحق : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً » . ويدبر الحق لنا سياسة المال ، سواء للواجد أو لغير القادر ، فالواجد يوضح له الحق : لا تجعل حركة حياتك على قدر حاجتك ، بل اجعل حركة حياتك على قدر طاقتك ، وخذ منها ما يكفيك ويكفى من تعمل ، والباقي رقه على من لم يقدر . ولو جعل كل إنسان حركة حياته على قدر حاجته ، فلن يجد من لا يقدر على الحركة ما يعيش به . ولنذكر جيداً أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ الْفَوَاحِشِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِزَكَاةٍ فَاعِلُونَ ④ ﴾

(سورة المؤمنون)

وحين قال سبحانه : والذين هم للزكاة فاعلون ، ليس معناها مجرد أداء زكاة ، بل تعني أن يتحركوا في الحياة بغرض أن يتحقق لهم فائض يخرجون منه الزكاة ، وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر يعمل ليقوت نفسه ويقوت من يعول وليس في بآله الله ، أما مزية المؤمن فهو يعمل ليقوت نفسه ، ويقوت من يعول ويبقى لديه فائض يعطيه للضعيف ، فكان إعطاء الضعيف كان في بآله ساعة الفعل . وهذا هو المقصود بقوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِزَكَاةٍ فَاعِلُونَ ④ ﴾

(سورة المؤمنون)

أي أن كل فعل للمؤمن يُقصد منه أن يكفيه ويكفى أن يزكى منه . وهناك حق آخر في المال غير الزكاة ، بأن يسد به ولى الأمر ما يحتاج إليه المجتمع الإيمان بشرط أن يقيم ولى الأمر كل شرع الله .

والزكاة هي إخراج المال على نحو مخصوص ، أما الصدقة فهي غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة . وهناك القرض ، وهو المال الذي تتعلق به النفس ، لأن الإنسان يقدمه لغيره شريطة أن يرده ، ولذلك قيل إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقرض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما الذي تصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة ، وأيضاً لأن نفس المتصدق تخرج من الشيء المتصدق به ولا تتعلق به ، أما الذي يقدم القرض فففسه متعلقة بالقرض وكلما صبر عليه نال حسنة ، وكلما قدم نظرة إلى ميسرة فهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

فالحق يريد أن تفيض حركة الحياة بالكثير . وكيف يقول سبحانه : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، وهو الواهب لكل النعم وهو الولي لكل النعم ؟ وكيف يهب الحق للإنسان النعم ، ثم يقول له : أقرضني ؟

هو سبحانه وتعالى يحترم حركة الإنسان وعرقه مادام قد ضرب في الأرض وسعى فيها ، فالمال مال الإنسان ، ولكن أخا الإنسان قد يحتاج إليه ، ولذلك فليقرضه ويعتبر سبحانه هذا قرضاً من الإنسان لله . ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبنائه : بما أنك تدخر من مصروف يدك فأعط أخاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرضاً عندي ، صحيح أن العائل هو الذي أعطى المال لكل من يعول ، فما بالنا بالذي أوجدنا جميعاً ، وهو الحق سبحانه وتعالى ؟ لقد وهب كلاً منا ثمرة عمله واعتبر تلك الثمرة ملكاً لصاحبها . ويعتبر فوق ذلك إقراض المحتاج إقراضاً له .

ويصف الحق القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه من ، أو منفعة تعود على المقرض وإلا صار في القرض ربا . ولنا الأسوة الحسنة في أبي حنيفة عندما كان يجلس في ظل بيت صاحب له . واقترض صاحب هذا البيت من أبي حنيفة بعض المال . وجاء اليوم التالي للمقرض وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفت أن يكون ذلك لونا من الربا . فقال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تقرضني . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المفضل على بظل بيتك فأخاف أن أقعد وأنا المفضل عليك بالمال .

والقرض الحسن هو الذي لا يشوبه من أو أدنى أو منفعة ، ولأن القرض دين ، وضع الحق القواعد :

﴿ إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالحق يحمي المقرض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدين مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك في الحياة ليسد هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً .

وعندما يكتب المقرض فهذا أمرٌ دافع للسداد وَحَاتٌ عليه . لكن إن لم يكتب المقرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى المقرض . ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة في أى أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة ، ولذلك يقال في الأمثلة العامة : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله . ويكون مال الدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَسْقُمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

وفى ذلك حماية للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

وهكذا يحمى الله الحركة الاقتصادية . ونجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دين ، فقال للصحابه : صلوا على أخيكم . لكنه لم يصل على الميت . وتساءل الناس لماذا لم يصل رسول الله على هذا الميت وما ذنبه ؟ كان رسول الله أراد أن يعلم المؤمنين عن دين المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حفزاً للناس ودفعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين . وقال :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه . ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »^(١) .

فإدام قد مات وهو مدين وليس عنده ما يسد الدين ؛ فربما كان لا ينوى رد الدين ، وأن نفسه قد حدثته بالألا يرد الدين .

(١) رواه البخارى واحد من حديث أبى هريرة .

وفي فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقرض عندما يقترض شيئاً كبيراً لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذي أقترض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذي قدم القرض ألا يمر على المقرض حتى لا يخرج . وثق أن الله قد قذف هذا الحاطر في نفس المقرض لأن المقرض يريد أن يسدد القرض . أما إن تحرك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر في قيمة الدين ، فليفهم أن عند الذي اقترض بعض ما يسدد به الدين ، أي أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدين أو بيعه ، ذلك أن الله لا يُخرج من يَمْدٍ ويَجْتَهِد في السعي لسداد دينه .

« وأقرضتم الله قرضاً حسناً » . وقد يقول قائل : كان السياق اللفظي يقتضي أن يقول : « أقرضتم الله إقراضاً » ؛ لكن الحق جاء بالقرض الحسن ؛ لأن الإقراض هو العملية الحادثة بين الطالب للقرض والذي يقترض . وسبحانه يضع القرض الحسن في يده ، ولنا أن نتصور ما في يد الله من قدرة على العطاء . ومثل ذلك قوله الحق :

﴿ وَأَلَّهَ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾

(سورة نوح)

وه أنبتكم « تعبر عن عملية الإنبات ، والأرض تخرج نباتاً لا إنباتاً . فمرة يأتي الله بالفعل ، ويأتي من بعد ذلك بالمصدر من الفعل ؛ لأنه يريد به الاسم . وه أنبت « يدل على معنى وينشئ الله لكم منها نباتاً .

وهكذا قال الله عن القرض : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم » وفي ذلك جواب للقسم ، ومن بعد ذلك يقول سبحانه : « ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار » وقد تكلمنا من قبل كثيراً عن الجنات . ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » ألم يكن الذي كفر من قبل ذلك قد ضل سواء السبيل ؟ بلى ، إنه قد ضل فعلاً ، ولكن الذي ضل بعد أن جاء ذكر تلك النعم والثواب فيها فالضلال أكثر . وكلمة « سواء » نقرأها في القرآن ونراها في الاستعمالات اللغوية ؛ كمثل قوله الحق :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾

(من الآية ١١٣ سورة آل عمران)



وسواء معناها وسط ، ومتساوون . والمعاني ملتقية ؛ لأنه عندما يكون هناك وسط فمعنى ذلك أن هناك طرفين . ومادام الشيء في الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما نقول: وسط ، فهذا يقتضي أن نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية . ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن كثيراً من الألفاظ تستعمل في شيء وفي شيء آخر ، وهذا ما يسمى بالمشارك اللفظي . . أى اللفظ واحد والمعنى متعدد ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ قَوْلُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة البقرة)

والشطر هو الجهة . والشطر هو النصف . النصف هو الجهة بمعنى أن توجه إنسان ما إلى الكعبة يقتضي أن يكون الإنسان واقفاً في نقطة هي مركز بالنسبة لدائرة الأفق . وهذه النقطة بالنسبة لمحيط الأفق تقطع كل قطر من أقطارها في المنتصف تماماً . إذن . فعندما يقول: الجهة ، نقول : صدقت ، وعندما يقول النصف . نقول : صدقت .

« فقد ضل سواء السبيل » والقرآن قد نزل على أمة تعيش في البادية وطرقها بين الجبال . وقد يكون الطريق معبداً من ناحية ، وقد يكون الطريق بين هاوريتين . وقد يكون الطريق بين جبلين ، ومن يأخذ بالأحوط فهو يمشى في الوسط . ولذلك قال الإمام علي - كرم الله وجهه - : اليمين والشمال مضلة وخير الأمور الوسط ؛ لأن الإنسان قد يتجه يمينا فيقع . أو يتجه شمالاً فيقع ؛ أو تقع عليه صخرة . ونجد الوالد ينصح ابنه فيقول له : امش ولا تلتفت يمينا أو يسارا واتجه إلى مقصدك . ونجد الحق يصف الطريق الذي يمشى عليه المؤمن يوم القيامة :

﴿ فَأَطَّلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾

(سورة الصافات)

وسواء الجحيم هو نقطة المنتصف في النار ؛ أى أنه لا يستطيع الذهاب يمينا أو شمالاً . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ ثَبَتَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَاهَا

قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ
مَوَاضِعِهِ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَلَا تَزَالُ
تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ
وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

وساعة يقول الحق: « ميثاقاً » فالميثاق يتطلب الوفاء . فهل وفوا بهذا الميثاق ؟
لا ، لقد نقضوا الموائيق فلعنهم الله . واللعن هو الطرد والإبعاد ، والحق في ذلك
يقول : « فيما نقضهم ميثاقهم لعنهم » أى بسبب نقضهم الميثاق لعنهم الله . لقد
أثار وجود « ما » هنا بعض التفسيرات « فهناك من العلماء من قال : إنها زائدة ،
وهناك آخرون قالوا : إنها « صلة » . ولكن الزيادة تكون عند البشر لا عند الله .
ولا يمكن أن يكون بالقرآن شيء زائد ، لأن كل كلمة في القرآن جاءت لمقتضى حال
يتم أن تكون في هذا الموضع . فها هو ذا الحق يخبرنا بما وصى به لقمان ابنه :

﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ﴿١٤﴾

(سورة الشورى)

في الآية الأولى لم يورد « اللام » لتسبق « من » ، وفي الآية الثانية أورد « اللام »
لتسبق « من » ، وليس ذلك من قبيل التفتن في العبارات ، فقله : « واصبر على
ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » دعوة للمصبر على مصيبة ليس للإنسان غريم
فيها ، كالمرض ، أو موت أحد الأقارب ، وهذه الدعوة للمصبر تأتى هنا كعزاء
وتسلية ، أما قوله الحق : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » فالدعوة للمصبر
هنا مع الغفران تقتضى وجود غريم يسبب للإنسان كارثة .

هنا يطلب الله من المؤمن أن يغفر لمن أصابه وأن يصبر . ومادام هناك غريم ؛ فالنفس تكون متعلقة بالانتقام ، وهذا موقف يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى ؛ فليس في الموقف الأول غريم واضح يُطلب منه الانتقام ، أما وجود غريم فهو يحرك في النفس شهوة الانتقام ، ولذلك يؤكد الحق سبحانه وتعالى : إن ذلك لمن عزم الأمور . ويقول سبحانه في موقع آخر :

﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وعندما يقوم النحاة بإعراب « بشير » فهم يقولون : « إنها فاعل مرفوع بضمه مقدرة على آخره منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد . إنه التثاقط طويل ، ولا يوجد حرف زائد ، فالإنسان يقول : ما عندي مال . وهذا القائل قد يقصد أنه لا يملك إلا القليل من المال لا يعتد به . وعندما يقول الإنسان « ما عندي من مال » فهنا معنى أنه لا يملك أى مال من بداية ما يقال له مال ولذلك فهنا « ما » ليست زائدة ، ولكنها جاءت تعنى لعنى . إذن « ما جاءنا من بشير » أى لم يأت لنا بداية من يقال له بشير .

وما هو ذا قول الحق :

﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة آل عمران)

وقد يحسب البعض أن « ما » هنا حرف زائد ، ولكننا نقول : ما الأصل في الاشتقاق ؟ إن الأصل الذى نشق منه هو المصدر . ومرة يأتى المصدر ويراد به الفعل ، كقول القائل : « ضرباً زيدا » أى « اضرب زيدا » . وجمىء المصدر هنا قول مقصود به الفعل ، وكذلك قوله الحق : « فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم » .

مادام النقص مصدراً فمن الممكن أن يقوم مقام الفعل . ومادام المصدر قد قام مقام الفعل فمن الجائز أن يأتى فعل آخر ، فيصبح معنى القول : فيما نقضوا ميثاقهم لعناهم . إذن « ما » تدل هنا على أن المصدر قد جاء نيابة عن فعل . وبقيت « ما » لتدل على أن المصدر من الفعل المحذوف ، أو أن « ما » جاءت استفهامية للتعجيب . . أى فبأى نقض من ألوان وصور نقضهم للعهد لعناهم ؟ وذلك لكثرة ما نقضوا من العهود على صور وألوان شتى من النقص للعهد .

وقوله الحق : « فيها نقضهم ميثاقهم لعناهم » . والنقض هو ضد الإبرام ؛ لأن الإبرام هو إحكام الحكم بالأدلة . والنقض هو حل عناصر القضية ، كأن العهد الموثق الذي أخذه الله عليهم قد نقضوه . ونحن نسمى العقيدة الإيمانية عقيدة ، لماذا ؟ ؛ لأنها مأخوذة من عقد الشيء بحيث لا يطفو ليناقش من جديد في الذهن . كذلك الميثاق إنه عهد مثبت ومؤكد . وعندما ينقضونه فهم يقومون بعمله ، أى أنهم أخرجوا أنفسهم عن متطلبات ذلك العقد . وجاء اللعن لأنهم نقضوا الميثاق .

« وجعلنا قلوبهم قاسية » وهم عندما نقضوا المواثيق ، طبع الله على قلوبهم ؛ لأنه لم يطبع على قلوبهم بداية ؛ فقد كفروا أولاً ، وبعد ذلك تركهم الله في غيهم وضلالهم وطبع على القلوب قساً فيها من كفر لا يخرج ، والخارج عنها لا يدخل إليها . وه قاسية ؛ تعنى صلبة . وفيها شدة . والصلابة مذمومة في القلوب وليست مذمومة في الدفاع عن الحق ؛ لأننا نقيس كل موجود على مهمته . فعندما يكون كل موجود على مهمته يكون كل الكون جميلاً . مثال ذلك ؛ نحن لا نقول عن الخطاف ذمناً فيه إنه أعوج . فالخطاف لا بد له من العوج ؛ لأن ذلك العوج مناسب لمهمته ، إذن فعوج الخطاف استقامة له . وكذلك القسوة غير مذمومة شريطة أن تكون في محلها . أما إن جاءت في غير محلها فهي مذمومة . إن القلوب القاسية مذمومة ؛ لأن الحق يريد للقلوب أن تكون لينة :

﴿ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّكَ ذِكرُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الزمر)

والقسوة مأخوذة من القسوة وهو الصلب الشديد ، ونعرف أن الدنانير كانت تضرب من الذهب والدرهم تضرب من الفضة . وعندما يفحصها الصيرفي قد يخرج واحداً منها ويقول : هذا زيف أو زائف لأنه قد سمع رنينها ، أى صلبة في الواقع أم لا ؟ . وعندما تكون صلبة يقال لها : دراهم قاسية .

إن الذهب لين . والفضة لينة . فعندما نقول : إن هذا ذهب عيار أربعة وعشرين أى ذهب ليس به نسبة من المواد الأخرى التي تجعله قابلاً للتشكيل ؛ لأنه عندما يكون ذهباً صافياً على إطلاقه فلن يستطيع الصائغ أن يصوغ منه الحل ؛ لذلك يخلطه الصائغ بمعدن صلب ، حتى يعطيه المعدن درجة الصلابة التي تتيح له

تشكيل الحل منه . وتختلف نسبة الصلابة من عيار إلى عيار في الذهب وكذلك الفضة . والمصوغات المصنوعة من عيار مرتفع من الذهب ليست عرضة للتداول ، كالسبائك الذهبية .

وإذا ما دخل المعدن الصلب إلى الذهب أو الفضة جعلها قاسية ؛ أي صلبة . الصلابة - إذن - فيها يناسبها محمودة . وفيها لا يناسبها مذمومة كصلابة القلوب وقسوتها .

ويقول الحق : « يحرفون الكلم عن مواضعه » مثل ذلك نقلهم أمر الله الذي طلب منهم أن يقولوا : « حطة » فقالوا : « حنطة » « ونسوا حظاً مما ذكروا به » وكانت وسائل النسخ في الكتب التي سبقت القرآن هي نسيان حظ مما ذكروا به ، والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكن على باهم . فلو كانت كتب المنهج على باهم لظلوا على ذكر منه ، كما أنهم كتبوا ما لم ينسوه ، والذي لم ينسوه ولم يكتبوه حرقوه ولووا ألسنتهم به . وباليات الأمر اقتصر على ذلك ، ولكنهم جاءوا بأشياء وأقاويل وقالوا إنها من عند الله وهي ليست من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٨)

(سورة البقرة)

هي أربعة ألوان من التغير ، النسيان ، والكتم ، والتحريف ، ودس أشياء على أنها من عند الله وهي ليست من عند الله .

ولنا أن نتأمل جمال القول الحكيم : « ونسوا حظاً مما ذكروا به » فهم على قدر كبير من السوء بدرجة أنستهم الشيء الذي يأتي لهم بالحظ الكبير ، مثل نسيانهم البشارات بمحمد عليه الصلاة والسلام وكتابتها ، ولو كانوا قد آمنوا بها ، لكان حظهم كبيراً ؛ ذلك أنهم نسوا أمراً كان يعطيهم جزاء حسناً ، إذن فقد جنوا على أنفسهم ؛ لأن الإسلام لن يستفيد لو كانوا مهتدين أو مؤمنين والخسار عليهم هم ، ولم يدعهم الله ويتركهم على نسيانهم ليكون لهم بذلك حجة ، بل أراد أن يذكرهم بما نسوه . وكان

مقتضى ذلك أن ينصفوا أنفسهم بأن يعودوا إلى الإيمان ؛ لأن الحق ذكرهم بما نسوا ليحققوا لأنفسهم الخط الجميل . وقد يراد أنهم تركوا ذلك عامدين معرضين عنه مُغفلين له عن قصد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أن خيانتهم لك يا رسول الله ولا تباعدك ولنهج الله الحق في الأرض ستوالى ، ولا أدل على ذلك مما حدث منهم ضد رسلهم أنفسهم مع أنهم من بنى جلدتهم ومن عسيرتهم ، إنهم من بنى إسرائيل مثلهم ، فما بالك بنى جاء من جنس آخر ليقتحم عليهم سلطتهم الزمنية ؟

إذن فخيانتهم لله متصورة . وهـ « خائنة » بمعنى « خيانة » مثلها مثل « قاتلة » وهى القيلولة أى المسافة الزمنية بعد الظهر ، وفعلها : قال يقيل أى نام وسط النهار أو « خائنة » أى « نفس خائنة » . أو « خائنة » مثل امرأة خائنة ، أو « خائنة » مبالغة كما نقول « راو » وهـ « راوية » ونحن نعنى رجلاً ، أو نقول « جماعة خائنة » .

إذن فالكلمة الواحدة هنا مستوعبة لكل مصادر الخيانة منهم ، رجل أو امرأة أو جماعة أو كل هؤلاء . والذي يتكلم هنا هو رب العالمين ، ويتكلم للعرب وهم أهل فصاحة ، إنه أداء لغوى عال .

ومن فرط دقة القرآن وصدقه يأتى الحق بقوله : « إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ » طبقاً لقانون صيانة الاحتمال . فحين يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين له موقف اليهود منه ، ألا يحتمل أن يوجد قوم من اليهود يغلبهم الفهم العميق فيفكروا فى أن يؤمنوا بهذا الرسول ، ويهدنوا من شراسة ظنهم به ؟ وقد فكر بعضهم وأعلن الإسلام .

وهؤلاء القوم عندما يسمعون أحكام الله على اليهود أجمعين ، ألا يقولون : وما لنا

ندخل في هذه الزمرة ، ونفكر في أن ننطق بالإيمان ؟ فكان قوله : « إلا قليلا منهم » صان قانون الاحتمال أن يكون إنسان منهم فكر في الإيمان . ومن فكر في الإيمان فسوف يجد قوله الحق : « إلا قليلا منهم » وسيرى هذا الإنسان في نفسه أن القرآن دليل نزل على نور . وقد كان وأعلن قليل منهم إسلامه ، وماذا يكون موقفه صلى الله عليه وسلم بعد أن يجبره الحق : بأنك مستعرض مستقبلا لحياتهم ؟ ألا يحرك ذلك نفسية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عليهم ، فإذا فعل اليهود خائنة فلا بد أن يتقموا منهم ، وتطبيقا للقاعدة الأساسية في رد العدوان بأن من يعتدى عليك فاعتد عليه .

لم يشأ الله - سبحانه - أن يترك الموقف لعواطف البشر مع البشر بل قال : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » والعفو هو كما نقول : فلان عفى على آثاري ، أى أن آثارك تكون واضحة على الأرض وتأتى الريح لتمسحها فتعفى على الأثر . والأمر بالعفو أى امسح الأثر للذنوب فعلوه . والخطيئة التى ارتكبوها عليك أن تعتبرها كأنها لم تحدث ، ولكن أبطل أثرها باقيا عند رسول الله ؟ لا ، فالأمر بالصفح بآى وهناك فرق بين أن تمحو الخطيئة وتبقى أثرها في نفسك وتظل في حالة من الغيظ والحقد .

والحق هنا يأمر بالعفو أى إزالة أثرها ويأمر بالصفح أى أن تُخْرِجَ أثر الخطيئة من بالك ، لأن الإنسان منا له مراحل ؛ المرحلة الأولى بعد أن يرتكب أحدهم ذنبا في حقه ، فلا يقابل العدوان بمثله ، وهذا هو العفو ، والمرحلة الثانية : ألا يترك أثر هذا الذنب يعمل في قلبه بل يأتى الصفع حتى لا يشغل قلب المؤمن بشئ قد عفا عنه ، والمرحلة الثالثة : فرصة مفتوحة لمن يريد أن يتحدى في مرتبة الإحسان وترقى اليقين والإيمان بأن يحسن الإنسان إلى من أساء إليه . وهذه المراحل الثلاث يوضحها قوله الحق :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وعملية الإحسان مع المسئء أو المعتدى : أهمى عملية منطقية مع النفس الإنسانية ؟ قد تكون غير منطقية مع النفس الإنسانية ، ولكنك أيها الإنسان لا تشرع

لنفسك ، إنما الذى يشرع لك هو الأعلى من النفس الإنسانية . والخالق يقول لك : لو علمت ما قدّمه لك من أساء إليك لأحسنت إليه . لأنك إن أسأت إلى خلق من خلق الله فالذى يثار ويأخذ الحق لمن أساء إليه هو رب هذا المخلوق . ويأتى الله فى صف الذى تحمل الإساءة .

إذن لإساءة العدو لك جعلت الله فى صفك وفى جانبك ، ألا يستحق ذلك المصء أن نشكره ؟ ألا تقول لنفسك القول المأثور : ألا نحسن إلى من جعل الله فى جانبك . إذن هذا هو التشريع : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان هنا خرج بالترقى الإيماني عن مرحلة :

﴿ قَنِي أَعْتَدْنِي عَلَيْكَ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدْنِي عَلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

والإحسان أن تفعل شيئاً فوق ما افترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ؛ والمحسن الذى يدخل فى مقام الإحسان هو من يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو سبحانه وتعالى يرى كل خلقه . ونعرف قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴿١٥﴾ إِخْلِدِينَ مَا أَرَادَهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ۖ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ما الذى جاء بالإحسان هنا ؟ وتكون الإجابة :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهل يكلف الله خلقه ألا يهجعوا إلا قليلاً من الليل ؟ لا . فقد كلف الله المسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه حر بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإن سمع أذان الفجر فليقم إلى صلاة الفجر . لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه فيزيد من صلواته فى الليل . ويضيف الحق مذكراً لنا بصفات المحسنين :

﴿ وَإِذَا لَأْتَمَرُوا يَسْتَغْفِرُونَ ۖ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أكلف الله الخلق بأن يستغفروا بالأسحار ؟ لا . بل إن الرسول يجب على رجل سأل عن الفروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة ، فقال الرجل : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أفلح إن صدق »^(١) .

ويضيف الحق في استكمال صفات المحسنين :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٥﴾

(سورة الذاريات)

ونلاحظ أن الحق هنا لم يقل : « حق معلوم » إنما قال : « حق للسائل والمحروم » فالحق المعلوم هو الزكاة ، أما المحسن فللسائل والمحروم في ماله حق غير معلوم ، وذلك ليفسح سبحانه المجال للطموحات الإيمانية ، فمن يزد في العطاء فله رصيد عند الله . والحق يقول : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » ؛ لأن الإحسان إليهم يبيح فيهم غريزة العرفان بالجميل ، فيستل ذلك الإحسان الحق من قلوبهم ، ويفتحون آذانهم وقلوبهم لكلمة الحق :

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝١٦﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

لأن العداوة لا تشتد إلا إذا وُجد مُوجِب لها من عداوة في المقابل . فعندما تعامل عدوك بالحسنى ولا ترد على عدائه بالعدوان فكمن من الزمن يصير عدواً لك ؟ إنه اعتدى مرة وسكت أنت عليه ، واعتدى ثانية وسكت أنت عليه . لا بد أنه يهدى من نفسه .

إذن فالعداوة لا تتأجج إلا إذا قابلتها عداوة أخرى . ولذلك نرى ما حدث في المعركة التي قامت بين فرعون وسيدنا موسى عليه السلام حين أراد الله أن يجعل العداوة لا من جهة واحدة ولكن من جهتين اثنتين لتكون معركة حامية ؛ لأن العداوة لو كانت من جهة واحدة لهذا الطرف المعتدى :

﴿ قَالَ تَقَاطَعْتَ أَلْفَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا ۝١٧﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان .

فهل هم التقطوه ليكون عدواً ؟ لا . لقد التقطوه ليكون قرة عين . ولكن قدر الله سبق . كان الأمل في أن يصير موسى قرة عين آل فرعون ، ولكن الله أراد أن يقوموا بتربيته ، ثم يصير من بعد ذلك عدواً لهم . وهكذا يتضح لنا أن تدبير السماء فوق تدبير الأرض . وموسى السامري مثلاً ربه السماء بواسطة جبريل ، وولده أمه منقطعا في الصحراء ، فكان جبريل ينزل عليه بما يطعمه إلى أن كبر ، وموسى ابن عمران ذهب إلى فرعون ليريه ، لكن موسى السامري - الذي رياه جبريل - صار كافراً ، وموسى بن عمران الذي رياه فرعون أصبح رسولاً إلى بني إسرائيل . وكلا القدرين أرادهما الله ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا لم تصادف في بريق عناية
فقد كذب الراجي وخاب المؤمل
فموسى الذى رياه جبريل كافر
وموسى الذى رياه فرعون مرسل

كان آل فرعون قد قاموا بتربية موسى بن عمران ليكون عدواً لهم لا قرة عين . والعداوة تكون من جهة موسى لفرعون ، ونحو العداوة من فرعون لموسى ، فيقول الحق :

﴿فَأَقْذِفْهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

هكذا صارت العداوة من طرفين . والحق سبحانه وتعالى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن الخيانات التي تحدث منهم ، لعل الوعي الإيمان يستقيظ فيهم ، ويقولون : لم يعاملنا بمثل ما عاملناه به ، ويعترفون به نبياً رحيماً رعوفاً كريماً ، ولا يقفون في وجه دعوته . لكن أياهم العفو والصفح هما كل التعاليمات الصادرة من الحق إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ لا . فقد مر الأمر الإلهي بمراحل متعددة ، فالرسول يستقطب النفس الإنسانية بأن يستعبدها بالإحسان ، فإن لم يستعبدها بالإحسان فلا بد أن يشمر النبي عن الساعد ويفعل ما يأمره به الله ، ولنقرأ قوله الحق :

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ

بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴿١٠٩﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

إذن فهناك أمر خفى هو :

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه قد أمر بأن يتركهم الرسول مع الصفح والعفو لمرحلة قادمة يأتي فيها الأمر بتأديبهم . وهذه عملية إنسانية فطرية عرفها العربي الجاهل وخبرها قبل أن يأتي الإسلام ؛ فقد كان العربي يحسن إلى عدوه مرة وثانية وثالثة ، وعندما يجد أن الإحسان لم يثمر ثمرته ؛ يقاتل العدو ، وكما قال الشاعر :

أناة فإن لم تغن قدم بعدها
وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه
من الحلم أن تستعمل الحزم دونه
إذا لم يسع بالحلم ما أنت عازمه

وقال الشاعر :

صفحنا عن بني ذهل	وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجع	من قوماً كالذي كانوا
فلما صرَّح الشر	وأضحى وهو حريسان
مشينا مشية الليث	فذا والليث غضبان
بضرب فيه ناييم	ونفجيع ولانسان
وطعن كغم الزق	فذا والزق ملان
وفي الشر نجاة حبيب	من لا ينجبك إحسان
وبعض الحلم عند الجهد	كل للذلة إفهان

ومثل ما جرى للنبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود ، حدث مع النصارى وأورد الحق سبحانه وتعالى هذا فقال :

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

لقد قالوا إنهم نصارى . وأخذ الحق الميثاق منهم ، إما ميثاق الذر وإما ميثاقهم لنبيهم عيسى ابن مريم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به وتركوا ما أمرهم به الإنجيل ونقضوا الميثاق ، ففرقوا في عدااء ملحوظ فرقا شديداً ، وجاء أمر الله كما وعد :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

كان الحق سبحانه وتعالى يعطيهم الفرصة والعذر حتى لا يقولن واحد منهم : لم يبلغني عن رسول شيء . وهناك فترة لم يأت فيها رسول . وها هوذا رسول من الله يأتي حاملاً لمنهج متكامل . وجميـء الرسول يمنحهم ويعطيهم فرصة لتجديد ميثاق الإيمان . وهم قد أخفوا من كتبهم بعض الأحكام . مثل الرجم والربا ، وقال بعض من بنى إسرائيل في الربا ما ذكره القرآن عنهم :

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ سَبِيلٌ﴾

(من الآية ٧٥ سورة آل عمران)

أى أنهم أفروا الإقراض بالربا لمن هم على غير دينهم ، ولكن لا ريباً في تعاملهم

مع أبناء دينهم . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلم الشمل وأن يجمع أيديهم مع يده ؛ لأنه نبي انتظروه ولهم في كتبهم البشارة به . وأن يقف الجمع المؤمن أمام موجة الإلحاد في الأرض حتى يسيطر نظام السماء على حركة الأرض ؛ لذلك قال الحق : « قد جاءكم من الله نور » . ومعنى ذلك أن كتبهم لبعض منهج الله قد صنع ظلمة في الكون . ومادامت قد حدثت ظلمانية في الكون ، وخاصة ظلمانية القيم ، إذن فالكون صار في حاجة إلى من ينير له الطريق . ونعرف أن النور هو ما تتيين به الأشياء .

وحين يعرض الحق لنا قضية النور الحسى يريد أن يأخذ بيدنا من النور الحسى إلى النور المعنوى ؛ فالتور الحسى يبدد ظلام الطريق حتى لا نصطدم بالأشياء أو نقع في هوة أو نكسر شيئاً ، لكن عندما يحمل الإنسان نوراً فهو يمشى على بينة من أمره . والنور الحسى يمنع من تصادم الحركات في المخلوقات ، حتى لا تبدد الطاقة ، فتبديد الطاقة يرهق الكون ولا يتم إنجاز ما .

إن الشمس في أثناء النهار تضيء الكون ، ثم يأتي القمر من بعد الشمس ليلقى بعضاً من الضوء ، وكذلك النجوم بمواقفها تهدي الناس في ظلمات البر والبحر . وجعل الله هذه الكائنات من أجل ألا تتصادم الحركة المادية للموجودات ، فإذا كان الله قد صنع نوراً مادياً حتى لا يصطدم مخلوق بمخلوق ، فهو القادر على ألا يترك القيم والمعاني والموازن بدون نور ، لذلك خلق الحق نور القيم ليهدي الإنسان سواء السبيل ، فإذا كان الكافر أو الملحدين يتساوى مع المؤمن في الاستفادة بالنور المادى لحماية الحركة المادية في الأرض ، ولم نجد أحداً يقول: أنا في غير حاجة للانتفاع بالنور المادى ، ونقول للكافرين والملاحدة : مادمت قد انتفعت بهذا النور فكان يجب أن تقولوا : إن الله نوراً في القيم يجب أن نتبعه . ويلخص المنهج هذا النور بـ « افعل ولا تفعل » .

فالمنهج - إذن - نور من الله . ولنقرأ :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يأخذ بيدنا في الطريق بالنور المادى الذى يستفيد منه الكل ، سواء من كان

مؤمناً أو غير ذلك ، ويضرب سبحانه لنا مثل النور .

﴿مَثَلُ نُورِهِ ۖ كَمِثْقَلَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والمشكاة هي الطاقة التي توجد في الجدار وهي غير النافذة ، إنها كوة في الجدار يوضع فيها المصباح الزيتي أو الكيروسيني ، وتوجد في المباني البدائية قبل أن يخترع الإنسان المصابيح الكهربائية والثريات . ولا تتجاوز مساحة الكوة ثلاثين سنتيمتراً ، وطولها أربعون سنتيمتراً ولا يزيد عمقها على خمسة عشر سنتيمتراً ؛ أما الحجرة فمساحتها تزيد أحياناً على ثلاثة أمتار في الطول والعرض والارتفاع .

ويتحدث الحق عن الكوة فقط ولا يتحدث عن الحجرة . وأى مصباح في الكوة قادر على إنارة الحجرة . ولنتنبه إلى أن هذا المصباح غير عادي ، فهو مصباح في زجاجة . ونعرف أن المصباح الذي في زجاجة هو من الارتقاءات الفكرية للبشر . فالمصابيح قديماً كانت بدون زجاجة وكان يخرج منها السناج « الهباب » الذي يَسُود ما حوله ، فالسناج أثر دخان السراج في الحائط وغيره . وقد ينطفئ المصباح لأن الهواء يهب من كل ناحية ، ثم وضع الإنسان حول شعلة المصباح زجاجة تحمي النار وتركز النور وتعكس الأشعة ويأخذ المصباح من الهواء من خلال الزجاجة على قدر احتياج الاشتعال .

﴿كَمِثْقَلَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ آلِمْصِبَاحٌ فِي زُجَاجَةٍ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

أى أن النور من هذا المصباح أشد قوة ؛ لأن الزجاجة تعكس أشعة المصباح وتنتشر الضوء في كل المكان . والزجاجة التي يوجد فيها هذا المصباح ليست عادية :

﴿أَلْزُجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والكوكب نفسه مضيء ، وتكون الزجاجة كأنها هذا الكوكب الدرّي في ضيائه ولمعانه . والمصباح يوقد من ماذا ؟ .

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

وهذا ارتقاء في إضاءة الصباح من زيت شجرة زيتون ، والشجرة غير عادية :

﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

فهى شجرة يتوافر لها أدق أنواع الاعتدال :

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

ذلك هو من قدرة الله في نور الكونيات المادية ، ولذلك فليس من المعقول أن يترك القيم والمعنويات بدون نور . فكما امتدى الإنسان في الماديات فينبغى أن يفتن إلى قدرة الحق في هداية المعنويات ، بدليل أن الله قال :

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

يهدى الله بنور القيم والمنهج والمعاني من يريد . وقد يمتدى الملحد بنور الشمس المادى إلى الماديات ولكن بصره أعمى عن رؤية نور المنهج والقيم ؛ لذلك يوضح سبحانه أن هناك نوراً إلهياً هو المنهج . وضرب هذا المثل ليوضح المعاني الغيبية المعنوية بالمعاني الحسية . ونحن على مقاديرنا نستضيء ، فالفقير أو البدائي يستضيء بمصباح غازى صغير ، والذي في سعة من العيش قد يشتري مولداً كهربياً . وكل إنسان يستضيء بحسب قدرته . ولكن عندما تشرق الشمس في الصباح ما الذى يحدث ؟ .

يطغى الإنسان تلك المصاييح ، فالشمس هى نور أهداه الله لكل بنى الإنسان ، ولكل الكون . كذلك إذا فكرنا بعقولنا فيما ينير حياتنا فكل منا يفكر بقدرة عقله . ولكن إذا ما نزل من عند الله نور فهو يغنى عن كل نور آخر . وكما نفعل في الماديات نفعل في المعنويات :

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ، مَنْ نَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والذى يدلنا على أن النور الثانى هو نور القيم الذى يكشف لنا بضوءه ، افعل ولا تفعل ، أن الله قال بعد ذلك :

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمَاءُ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النور)

ولو بحثت عن متعلق الجار والمجرور لم تجده إلا فى قوله : (فى بيوت أذن الله أن ترفع) كأن النور على النور يأتى من مطالع الهدى فى مساجده . فهى بيوت لله نقبل عليها ليفيض منها نور الحق على الخلق .

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمَاءُ بَعْضُهُنَّ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾

(سورة النور)

وكلمة « لا تلهيهم تجارة » لا تعنى تحريم التجارة ، فالإنسان الصادق لا تلهيه التجارة عن ذكر الله . وليكن الله على بال المؤمن دائماً ، فعندما يكون الإنسان على ذكر لله فالله يعطيه من ماله .

إذن يا أهل الكتاب قد جاءكم النور ، وبين لكم الرسول كثيراً مما تختلفون فيه . وتسامح عن كثير من خطاياكم ، ويريد أن يجرى معكم تصفية شاملة . فعليكم أن تلتفتوا وتنتبهوا وتعذّلوا من موقفكم من هذا الدين الجديد . ولتبحثوا ماذا يريد الله بهذا المنهج . والله قد ضرب المثل بالنور ، وهذا النور يهdy إلى « افعل ولا تفعل » . ومن الذى يقول لنا إن هذا النور قادم من الله ؟ إنه الرسول ، ومن الذى يدلنا على أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله ؟ الذى يدل على صدقه هو قول الله :

﴿يُنَادِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾

(سورة النساء)

فالذى جاء أولاً من ربكم هو البرهان على أن رسول الله صادق فى البلاغ عن

الله ، وليبلغنا أن الكتاب قد جاء بالمنهج . والقرآن يتميز بأنه البرهان على صدق النبي وهو المنهج النوراني ؛ لأن البرهان هو الحجة على صدق الرسول في البلاغ عن الله .

ونعرف البرهان في حياتنا التعليمية أثناء دراسة مادة الهندسة عندما نقابل تمريناً هندسياً فنأخذ المعطيات وبعد ذلك ننظر إلى المطلوب إثباته . ونعيد النظر في المعطيات لنأخذ منها قوة للمبرهنة على إثبات المطلوب . وإن كانت المعطيات لا تعطى ذلك فإننا نتجه إلى خطوة أخرى هي العمل على إثبات المطلوب . وهذا الكون فيه معطيات ، وهو كون محكم ، ونلمس إحكامه فيما لا دخل لحركتنا فيه :

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْفِي لَمَّا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَلُّ سَائِي النَّهْرِ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

كون موزون بالسما والأرض وحركة الرياح وغير ذلك ، وتلك الأمور التي لا تدخل للإنسان فيها نجد القوانين فيها مستقيمة تمام الاستقامة وكمالها . فإن أراد الإنسان أن يأخذ المعطيات من الكون ، فليأخذ في اعتباره النظر إلى الأمور التي للإنسان دخل فيها ولسوف يجدها تتعرض للفساد ؛ لأن الهوى في البشر له مدخل على هذه الأشياء . لكن الخالق الأعلى لا تطوله ولا تتناوله أمور الهوى . ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾

(سورة الرحمن)

فلا السماء تنطبق على الأرض ، ولا كوكب يزاحم كوكباً آخر . ويبين لنا الحق كيفية السير بنظام الكون :

﴿أَلَا تَنْظُرُونَ فِي الْمِيزَانِ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تكون حركتكم منتظمة فانظروا إلى ما بأيديكم دخل فيه واصنعوه كصنع الله فيها ليس بأيديكم مدخل فيه .

﴿وَأَنِيمُوا أَلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾

(سورة الرحمن)

فإن كنتم معجبين باتزان الكون الأعلى فذلك لأنه مصنوع بنظام دقيق . وإذا كان الحق قد وضع لنا نظاما دقيقا هو المنهج بـ « افعل كذا ولا تفعل كذا » فذلك حتى لا تفسد حركتك الاختيارية إن اتبعت المنهج ، وتصرفت في حياتك بمنهج الله ويكون الميزان معتدلاً . إذن فقد أعطانا الحق معطيات عندما ينظر الإنسان فيها نظرا فطريا بدون هوى فإنها تأخذ بيده إلى الإيمان . وهذه الكائنات الموزونة لا بد لها من خالق ؛ لأن الإنسان طرأ عليها ولم تأت هي من بعد خلق الإنسان . ولا أحد من البشر يدعى أنه صنع هذا الكون .

إذن لا بد من البحث عن صنع هذا الكون الدقيق ، والدعوى حين تسلم من الضعف ، أتكون صادقة أم غير صادقة ؟ تكون صادقة تماما . والله هو الذي قال إنه خلق السماء والأرض والكون . ولم يأت مدع آخر يقول لنا : إنه الذي خلق . إذن يثبت الأمر لله إلى أن يوجد مدع ، رسع توالى الأزمنة وتطاوها لم يدع ذلك أحد .

وكان لا بد أن تكون مهمة العقل البشرى أن يفكر ويقدم الذهن ليتعرف على صانع هذا الكون ، وكان لا بد أن يتوجه بالشكر لمن جاء ليحل له هذا اللغز .

وقد جاءت الرسل لتحل هذا اللغز ولتدلنا على مطلوب عقلى فطرى ، ولو أننا سلسلنا الوجود لوجدنا أن الإنسان هو سيد هذا الوجود ؛ لأن كل الكائنات تعمل وتجهد في خدمته . وأجناس الوجود كما نعرفها التي تخدم الإنسان هي الحيوان ويتميز عنه الإنسان بالعقل ، وهناك جنس تحت الحيوان هو النبات فيه النمو ، وهناك جنس أدنى وهو الجهاد . وكل هذه الأجناس مهمتها خدمة الإنسان . والجهاد ليس هو الشيء الجاهل ، بل الهواء جهاد والشمس جهاد والترية جهاد ، وكل ذلك يمارس مهمته في الوجود لخدمة الأجناس الأعلى منها ويستفيد الإنسان منها جميعا والحيوان يستفيد من الجهاد وكذلك النبات يستفيد من الجهاد ، والحيوان يستفيد من النبات والجهاد ، والمحصول النهائية لخدمة الإنسان .

أليس من اللائق والواجب - إذن - أن يسأل الإنسان نفسه من الذى وهبه هذه المكانة ؟ فإذا جاء الرسول ليحل هذا اللغز ويبلغنا أن الذى خلق الكون هو الله وهذه صفاته ، ويبلغنا أن هذا المنهج جاء من الله ويحمل معه معجزة هي دليل صدق

البلاغ عن الله ، وهي معجزة لا يقدر عليها البشر ، ويتحدى الرسول البشر أن يأتوا بمثل معجزته . إذن فلا بد أن يؤمن كل البشر لو صدّقوا الفهم وأخلصوا النية .

ما هو البرهان إذن ؟ البرهان هو المعجزة الدالة على صدق الرسول في البلاغ عن الله . هذا البلاغ عن الله الذي بحث عنه العقل الفطري وآمن أنه لا بد أن يكون موجودا . لكنه لم يتعرف على أنه « الله » . إن الرسول هو الذي يبلغنا عن اسم الخالق ، وهو الذي يقدم لنا المنهج .

إذن فمجيء الرسل أمر منطقي نحتّمه الفطرة ونحتّمه العقل . ولذلك أنزل الحق النور العقدي ، أنزل - سبحانه - المنهج ليحمي المجتمع من الاضطراب ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فالدين جاء من الله ليتدخل في الأمور التي تختلف فيها الأهواء ، فحسم الله النزاع بين الأهواء بأن انفرد سبحانه أن يشرع لنا تشريعا تلتقي فيه أهواؤنا ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »^(١) .

أي أن تتحد الأهواء تحت مظلة تشريع واحد ؛ لأن كل إنسان إن انفرد بهواه ، لا بد أن نصطدم ، ولا نزال نكرر ونقول : إن خلافاً البشر سواء أكانت على مستوى الأسرة أم الجماعة أم الأمة أم العالم ، جاءت من اختلاف الأهواء ، ولكن الأشياء التي لا تدخل للأهواء فيها فالعالم متفق فيها تماما ، بدليل أننا قلنا : إن المعسكر الشرقي السابق والمعسكر الغربي الحالي اختلفا بسياسيتين نظريتين ، هذا يقول : « شيوعية » ؛ وهذا يقول : « رأس مالية » .

إنه لا يوجد معمل مادي كي ندخل فيه الشيوعية أو الرأسمالية ونرى ما ينفعنا . إنها أهواء ، لذلك تصادما في أكثر من موقع ، وانهمزت الشيوعية وبقيت آثارها تدل

عليها . لكن الأمور المادية العملية . لم يختلفوا فيها . ونقول الكلمة المشهورة : « لا توجد كهرباء روسي ولا كهرباء أمريكي » . « ولا توجد كيمياء روسي ولا كيمياء أمريكي » ؛ فكل الأمور الخاضعة للتجربة والمعمل فيها اتفاق ، والخلاف فقط فيما تختلف وتضطرم فيه الأهواء .

فكان الله ترك لنا ما في الأرض لتفاعل معه بعقولنا المخلوقة له ، وطاقاتنا وجوارحنا المخلوقة له ، ويوضح : إن التجربة العملية المادية لن تفرقكم بل ستجتمعون عليها . وسيحاول كل فريق منكم أن يأخذ ما انتهى إليه الفريق الآخر من التجارب المادية ولوتلصصها ، ولو سرقها ، أما الذي يضركم ويضر مجتمعكم فهو الاختلاف في الأهواء . وليت الأمر اقتصر على الاتفاق في الماديات والاختلاف في الأهواء ، لا ، بل جعلوا مما اتفقوا عليه من التجارب المادية والاختراعات والابتكارات وسيلة قهرية لفرض النظرية التي خضعت لأهوائهم . فكأننا أفسدنا المسألة .. أخذنا ما اتفقنا فيه لنفرض ما اختلفنا عليه .

إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا كل هذه المسائل كي نستقيم الحياة ، ولا تستقيم الحياة إلا إن كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي يحسم في مسائل الهوى ، ولذلك حق في الريف يقولون : « من يقطع إصبعة الشرع لن يسيل منه دم » ، لأن الذي يقول ذلك مؤمن . أي أن الحكم حين يأتي من أعلى فلا غضاضة في أن نكون محكومين بمن خلقنا وخلق لنا الكون ، وتدخلت السماء في مسألة الأهواء بالمنهج : افعل هذا ولا تفعل هذا ، لكن ما ليس فيه أهواء أوضح سبحانه : أنتم ستفقون فيها غصبا عنكم ، بل ستسرقونها من بعضكم ، إذن فلا خطر منها .

إن الخطر في أهوائكم . ولذلك اذكروا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمهات المسائل التي يترتب عليها حسن نظام المجتمع كما يريد الله كان - عليه الصلاة والسلام - يتحمل هو التجربة في نفسه ، ولا يجعل واحداً من المؤمنين به يتحمل التجربة . فمسألة التنبؤ حين أراد ربنا أن ينبيها حتى لا يدهي واحد آخر أنه ابنه وهو ليس أباه ، أنهاها الله في رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَيْكُنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

وفي مسألة الماديات والأهواء يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: إن النبي صلى الله عليه وسلم مر يقوم يلقيحون فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قال: فخرج شبيهاً، فمر عليهم فقال: «ما لنخلكم» قالوا: قلت كذا وكذا قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١). إنه - صلى الله عليه وسلم - تركهم لتجربتهم.

السماء - إذن - لا تتدخل في المسائل التجريبية؛ لأنه سبحانه وهب العقل ووهب المادة ووهب التجربة، ورأينا رسول الله يتراجع عما اجتهد فيه بعد أن رأى غيره خيراً منه كي يثبت قضية هامة هي أن المسائل المادية العملية الخاضعة للتجربة ليس للدين شأن بها فلا ندخلها في شئوننا، فلا نقول مثلاً: الأرض ليست كروية، أو أن الأرض لا تدور. فها لهذا بهذا، لأن الدين ليس له شأن بها أبداً، وهذه مسائل خاضعة للتجربة وللمعمل وللبرهان وللنظرية، بل دخل الدين ليحمينا من اختلاف أهوائنا، فالأمر الذي نختلف فيه يقول فيه: افعل كذا ولا تفعل كذا بحسب الأمر الذي لم يتدخل فيه به افعل ولا تفعل، أوضح لك: سواء فعلته أم لم تفعله لا يترتب عليه فساد في الكون، واخلوا راحتكم فيها لم يرد فيه «افعل ولا تفعل»، وأريحوا أنفسكم واختلفوا فيه؛ لأن الخلاف البشري مسألة في الفطرة والجبلة والخلقة.

وهنا يقول: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين»، و«النور» أهو الكتاب أم غيره؟ وفي آية أخرى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَئِيسٌ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ نُورًا مُبِينًا﴾

(سورة النساء)

وهذا القول يدل على أن النور هنا هو «القرآن» وجمع بين أمرين؛ برهان... أي معجزة، ونور ينير لنا سبيلنا.

«قامنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا» والإيمان بالله مسألة تطبيقية مرحلية. «الله» هو قمة الإيمان و«رسوله» هو المبلغ عن الله؛ لأنه جاء لنا بالنور. إلا أن أهل الشطح يقولون: النور مقصود به النبي صلى الله عليه وسلم، ونقول: نحن لا نمانع

(١) رواه مسلم وأحمد وابن ماجه.

أنه نور ، وإن كان النص يحتمل أن يكون عطف تفسير ، وحتى لا ندخل في متاهة مع بعض من يقولون : لا ليس الرسول نوراً ، لأنه مأخوذ من المائدة وسنجد من يرد عليهم بحديث جابر : ما أول ما خلق الله يا رسول الله ؟ قال له : نور نبيك يا جابر .

فعن جابر بن عبد الله قال : قلت يا رسول الله بأي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء . قال : « يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنى ولا إنسى » (١) .

وحق لا ندخل في مسألة غيبية لا تستوى الأذهان في استقبالها ونفتن بعضنا . ويقول فلان كذا ويقول علان كذا . هنا نقول: من تجمل له أن رسول الله نور ، نور ، نور ، فليعرفها هو ويلزمها . وليس من المفروض أن يقنع بها أحداً كي لا ندخل في متاهة ، وعندما يتعرض أحد لحديث جابر - رضى الله عنه - نسأل : أهو قال : أول ما خلق الله نبيك يا جابر أم نور نبيك يا جابر ؟ قال الحديث : نور نبيك ولم يقل النبي نفسه الذي هو من لحم ودم ، فمحمد صلى الله عليه وسلم من آدم وأدم من تراب ، لذلك ليس علينا أن نتناول المسائل التي لا يصل إليها إلا أهل الرياضات المتفوقة ، حتى لا تكون فتنة ؛ لأن من يقول لك : أنت تقول: النور هو رسول الله ، ونقول : على العين والرأس ، فرسول الله نور ولا شك ؛ لأن النور يعني ألا نصطدم ، وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج كي ينير لنا الطريق . والقرآن منهج نظامي . والرسول منهج تطبيقي ، فإن أخذت النور كي لا نصطدم ، فالحق يقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الاحزاب)

إذن فسنأخذ بالمنهج النظري الذي هو القرآن ، ونأخذ بالمنهج التطبيقي .
« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » « ومبين » أي محيط بكل أمر وكل شيء مصداقاً لقوله الحق :

(١) رواه عبدالرزاق بسنده عن جابر وذكر في كتاب كشف الخفا .

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

أى مما تختلف فيه أهواؤكم ، وسئل الإمام محمد عبده ، وهو فى باريس : أنتم تقولون « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » فكم رغباً فى أردب الدقيق ؟ . فقال : انتظروا : واستدعى خبازاً وسأله : كم رغباً فى أردب القمح ؟ . فقال له : كذا رغب . فقالوا له : أنت تقول إنه فى الكتاب . فقال لهم : الكتاب هو الذى قال لى :

﴿ فَسَلُّوا أَهْلَ الدِّارِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النحل)

إن قوله : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » أى مما تختلف فيه الأهواء أو تفسد فيه حركة الحياة فى الأرض . فرينا هو - سبحانه - جعل أناساً تخصص فى الموضوعات المختلفة .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يعنى : يا أهل الكتاب انتبهوا إلى أن هذه فرصتكم لنصفي مسألة العقيدة فى الأرض ونفى الخلاف الذى بين الدينين السابقين ونرجع إلى دين عام للناس جميعاً ، ولا تبقى فى الأرض هذه العصبية حتى تتساند الحركات الإنسانية ولا تتعاند ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النحل)

انظر كيف يجمع الإسلام بين أمرين متناقضين : فلم يحىء الإسلام كى يطبع الإنسان ليكون شديداً ، لأن هناك مواقف شتى تتطلب الرحمة ، ولم يطبعه على الرحمة المطلقة لأن هناك مواقف تتطلب الشدة ، فلم يطبع الإنسان فى قالب ، ولكنه جعل المؤمن يفعل للمحدث .
ويقول الحق :

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

أى لا نقل إنه طبع للمؤمن على أن يكون ذليلاً ولا طبعه ليكون عزيزاً ، بل طبعه ليكيف نفسه التكيف الذى يتطلبه المقام ، فيكون مرة ذليلاً للمؤمن وعزيزاً على الكافر . وقال الإسلام لنا :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

أى لا بد أن تعرف الطرفين أولاً ، ثم تحدد ، لأن الوسط لا يعرف إلا بتحديد الطرفين ، فاليهودية بالغت فى المادية ، والنصرانية بالغت فى الروحانية والرهبانية :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الحديد)

وعندما سئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث قال : « أنا لم أبعث مورثاً » ، لأنه جاء ليحدد الشحنة للطاقة الدينية ، وبرغم الخلاف العميق بين اليهودية والنصرانية جاء أهل الفكر عندهم ليضعوا العهد القديم والعهد الجديد فى كتاب واحد ، ومع ذلك فقد جاء من اعتبر الإسلام خصماً عنيفاً عليهم على رغم أن الإسلام ليس خصماً إنما جاء ليمنح الناس حرية الاختيار ، وعندما ننظر إلى المنهج المادى والمنهج الروحانى نجد أن اليهود أسرفوا فى المادية وقالوا :

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى آفَةً جَهَنَّمَ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

لقد أسرفوا فى المادية لدرجة أن المسألة المتعلقة بقوتهم حينما كانوا فى التيه وأنزل ربنا عليهم المن والسلوى ، وه المن ، كما نعرف طعام مثل كرات بيضاء يتزل من السماء على شجر أو حجر ينعقد ويحرق جفاف الصمغ وهو حلو يؤكل وطعمه يقرب من عسل النحل ، وجاء لهم الحق بالسلوى وهو طائر يشبه الدجاج وهو السملى فقالوا :

﴿ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إننا نريد عما تخرجه الأرض من بقلها ، والذى دعاهم إلى غلوهم فى الأمر المادى أنهم قالوا : قد لا يأق المن ، وقد لا نستطيع صيد الطير ، نحن نريد أن نضمن

الطعام . إذن فالغيبات بعيدة عنهم فهم قد أسرفوا في هذه المادية وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعدل هذا النظام المادي المتطرف فأنزل منهجية روحانية متمثلة في منهج عيسى عليه السلام ، وشحنهم بمواجيد دينية ليس فيها حكم مادي ، كي تلتحم هذه بذلك ويصير المنهج مستقيماً ، لكن الخلاف دب بينهم ، فكان ولا بد أن يأتي دين جديد يجمع المادية المتعقلة الرزينة المتأنية ، والروحانية المقسطة التي لا تفريط فيها ولا إفراط ، إنها الروحانية المطلقة من الساء دون ابتداع دين يأتي بالاثنتين في صلب دين واحد . فقال لنا :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا
سُجَّدًا يَسْتَغْفِرُونَ فَضَلَّ اللَّهُ مَا رِضُونَا سِيَمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وهذه كلها قيم تعبدية . فيكون هؤلاء ماديين وروحانيين في آن واحد . ويتابع الحق :

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

كان الله ضرب في التوراة مثلاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم : يا من أسرفتم في المادية سيأتى رسول ليعدل ميزان العقائد والتشريع ، فتكون أمتة مخالفة لكم تماماً . فأنتم ماديون وقوم محمد ركع سجد ، يستغفون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود . أى : ما فقدتموه أنتم في منهجكم سيوجد في أمة محمد . ويقول الحق :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ
يُعِيبُ الزَّرْعَ لِغَيْظِ يَوْمِ الْكُفَّارِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فمثلهم في التوراة ما فقد عند اليهود ، ومثلهم في الإنجيل ما فقد عند النصارى . إذن فدين محمد صلى الله عليه وسلم جمع بين القيم المادية والقيم الروحية فكان ديناً وسطاً بين الاثنين . فقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » أى

انتهزوا الفرصة لتصحيحوا أخطاءكم ولتستأنفوا حياة صافية تربطكم بالسما رباطاً
يجمع بين دين قيمي يتطلب حركة الدنيا ويتطلب حركة الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ١٦ ﴾

ومادام الله هو الذي يهدي فسبحانه منزّه عن الأهواء المتعلقة بهم ، وهكذا نضمن
أن الإسلام ليس له هوى . لأن آفة من يشرع أن يذكر نفسه أو ما يجب في
ما يشرع ، فالشرع يشترط فيه ألا يتنفع بما يشرع ، ولا يوجد هذا الوصف إلا في الله
لأنه يشرع للجميع وهو فوق الجميع .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه » إن من
اتبع رضوانه يهديه الله لسبل السلام ، إذن ففيه رضوان متبع ، وفيه سبل سلام
كمكافأة . وهل السلام طرق وسبل ؟ . نعم ؛ لأن هناك سلام نفس مع نفسها ،
وهناك سلام نفس مع أسرتها ، هناك سلام نفس مع جماعتها ، هناك سلام نفس مع
أمتها وهناك سلام نفس مع العالم ، و سلام نفس مع الكون كله ، وهناك سلام نفس
مع الله ، كل هذا يجمع السلام . إذن فسبل السلام متعددة ، والسلام مع الله بأن
تنزه ربك أيها العبد فلا تعبد معه إلهاً آخر ، ولا تلصق به أحداً آخر . . أي لا تشرك
به شيئاً ، أو لا تقل : لا يوجد إله .

ولذلك نجد الإسلام جاء بالوسط حتى في العقيدة ؛ جاء بين ناس تقول :
لا يوجد إله ، وهذا نفى ؛ وناس تقول : آلهة متعددة ؛ الشرّ له إله ، والخير له إله ،

والظلمة لها إله ، والنور له إله ، والهواء له إله ، والأرض لها إله !!

إن الذين قالوا بالآلهة المتعددة : استندوا على الحس المادى ونسى كل منهم أن الإنسان مكون من مادة وروح ، وحين تخرج الروح يصبح الجثمان رمة ؛ ولم يسأل أحدهم : نفسه ويقول : أين روحك التى تدير نفسك وجسمك كله هل تراها ؟ ، وأين هي ؟ . أمي في أنفك أم في أذنك أم في بطنك أين هي ؟ ، وما شكلها ؟ . وما لونها ؟ . وما طعمها ؟ . أنت لم تدركها وهي موجودة . إذن فمخلوق لله فيك لا تدركه فهل في إمكانك أن تدرك خالفه ؟ . إن هذا هو الضلال . فلو أنك إله لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً قدرت على تحديده ببصرك ، ومادام قد قدرت على تحديده يكون بصرك قد قدر عليه ، ولا يتقلب القادر الأعلى مقدوراً للأدنى أبداً .

وحينما أراد الله أن يدلل على هذه الحكاية قال :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾

(سورة الكافرات)

انظر في نفسك محمد روحك التى تدير جسدك لا تراها ولا تسمعها ومع ذلك فهي موجودة فيك ، فإن تخيلت هناك صرت رمة وجيفة ؟ فمخلوق لله فيك لا تقدر أن تدركه ، أبعد ذلك تريد أن تدرك مَنْ خَلَقَ ؟ إن هذا كلام ليس له طعم ! والاتجاه الآخر يقول بآلهة متعددة ؛ لأن هذا الكون واسع ، وكل شيء فيه يحتاج إلى إله بمفرده ، فيأتى الإسلام بالأمر الحق ويقول : هناك إله واحد ؛ لأنه إن كان هناك آلهة متعددة كما تقولون ، فيكون هناك مثلاً . إله للشمس وإله للنساء وإله للأرض وإله للنساء وإله للهواء ، حيث لا يكون كل إله من هذه الآلهة عاجزاً عن أن يدير ويقوم على أمر آخر غير ما هو إله وقائم عليه ولنشأ بينهم خلاف وشقاق يوضح ذلك قوله تعالى :

﴿ لَنَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۝٢٢﴾

(من الآية ٢١ سورة المؤمنون)

فإله الشمس قد يفصلها عن الكون ، وإله الماء قد يمنعه عن بقية الكائنات ، ويحسم الحق الأمر فيقول :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝١٧ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه : (لو كان فيها آله إلا الله لفسدتا) .

إذن فالنواميس التي تراها أيضاً محكومة بالإله الواحد ، ويأتى الرسول ليقول لك : هناك إله واحد ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا إله إلا الله ، ود لا إله ، نفت أنه لا آله أبداً . وي بعدها قال : إلا الله ، وهذه من مصلحة الإنسان حتى لا يكون ذليلاً وخاضعاً وعبداً لإله الشمس أو لإله الهواء أو لإله الماء . وقال الحق :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۝١٨ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فربما يريد أن يريحنا من « الخيلة » ، والوهم والاضطراب والتردد . . إنه إله واحد ، وعندما يحكم الله حكماً فلا أحد يناقضه ، وسبحانه يهدينا بما يشرعه لنا ؛ لأنه سبحانه ليس له هوى فيها يشرع ؛ لأن معنى الهوى أن تجعل الحركة التي تريدها خادمة لك في شيء ، والله لا يحتاج إلى أحد لأنه خلق الوجود كله قبل أن يخلق الخلق ، وليس لأحد من خلق - مهما أوى من العلم ورجاحة العقل أن تكون له قدرة أو أى دخل في عملية الخلق أو تنظيمه .

« يهدى به الله من اتبع رضوانه » ، مادام قد اتبع رضوانه فبهديه إلى سبل السلام ، إذن فإن هناك هدايتين اثنتين : يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، وقال في آية أخرى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَلَّوْا زَلَّاهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٩ ﴾

(سورة محمد)

فلذلك أن تظن أن التقوى لن تنال ثوابها وجزاءها إلا في الآخرة ؛ لأنه كلما فعلت أمراً وتلفتت وجدت آثاره في نفسك ، تصل تجد أمورك خفت من نفسك . فلا ترتكب السيئة في غفلة من الناس ، قلبك لا يكون مشغولاً بأى شيء ، ويجب

المؤمن في سلام مع نفسه أبداً . إذن فسيل السلام متعددة : سبل السلام مع الله ، سبل السلام مع الكون كله ، سبل السلام مع مجتمعه ، سبل السلام مع أسرته ، سبل السلام مع نفسه .

ويقول الحق :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فهناك سبل سلام وسبل ضلال .

وفي هذه الآية يقول الحق : « ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، والظلمات هي محل الاصطدام ، وعندما يخرجهم من الظلمات إلى النور يرون الطريق الصحيح الموصل إلى الخير ، والطريق الموصل إلى غير الخير . وعندما يخرجون من الظلمات إلى النور تكون حركاتهم متساندة وليست متعائلة ، ولا يوجد صدام ولا شيء يورثهم بغضاء وشحناء ، أو المراد أنه يهديهم إلى الصراط المستقيم وهو الجنة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَوَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

وقال سبحانه من قبل :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فمن اتبعوا اليعاقبية قالوا شيئاً ، والنصرانية قالت شيئاً ، والملكانية قالت شيئاً ثالثاً ؛ فجاء بالقمة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » .

ويأتى قوله سبحانه : « قل » ، رداً عليهم : « فمن يملك من الله شيئاً » أى من يمنع قدر الله أن ينزل بمن جعلتموه إلهاً « إن أراد أن يملك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً » .

لقد زعموا أن الله هو المسيح عيسى ابن مريم وفى هذا اجتراء على مقام الألوهية المنزهة عن التشبيه وعن الحلول فى أى شيء . وفى هذا القول الكريم بلاغ لهؤلاء أن أحداً لا يستطيع أن يمنع إهلاك الله لعيسى وأمه وجميع من فى الأرض . فهو الحق الملك الخالق للسموات والأرض . وما بينهما يخلق ما يشاء كما يريد . فإن كان قد خلق المسيح دون أب ؛ فقد جاءنا البلاغ من قبل بأنه سبحانه خلق آدم بدون أب ولا أم ، وخلق حواء دون أم ، جلّت عظمته وقدرته لا يحجزه شيء . إن عيسى عليه السلام من البشر قابل للفناء ككل البشر .

« والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء » جاء الحق هنا بالسماء كنوع هلوى والأرض كنوع سفلى ، وقوله : « يخلق ما يشاء » يرد على الشبهة بإيجاز دقيق : « يخلق ما يشاء » ؛ لأن الفتنة جاءت من ناحية أن عيسى عليه السلام مُميز فى طريقة خلقه بشيء لم يكن فى عامة الناس ؛ فلوضح الحق : لا تظنوا أن الخلق الذى أنخلقه يشترط على أن تكون هناك ذكورة وأنوثة ولقاح ، هذا فى العرف العام الذى يفترض وجود ذكورة وأنوثة ، وإلا لكان يجب أن تكون الفتنة قبل عيسى فى آدم ؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم . إذن فالذى يريد أن يفتن بأنه من أم دون أب ، كان يجب أن يفتن فى آدم لأنه لا أب له ولا أم . ويوضح لهم : الله يخلق ما يشاء فلا يتحتم أو يلزم أن يكون من زوجين أو من ذكر فقط أو من أنثى فقط .

إن ربنا سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة فى أن يخلق ما يشاء ، وقد أدار خلقه على

القسمه العقلية المنطقية الأربعة : إما أن يكون من أب وأم مثلنا جميعاً ، وإما أن يكون بعدهما مثل آدم ، وإما أن يكون بالذكر دون الأنثى كحواء ، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كعمى عليه السلام ، فأدار الله الخلق على القواعد المنطقية الأربعة كي لا تفهم أن ربنا يريد مواصفات خاصة كي يخلق بل هو يخلق ما يشاء . والدليل على ذلك أن الزوجين يكونان موجودين مع بعضهما ومع ذلك لا ينجب منها ، فهل هناك احتمال أكثر من هذا ؟

﴿ قَدْ مَلَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَلْقِ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَأَوَيْتُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ كُورٌ ۝ أُوْرِوْجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنْتَأَوَيْتُ لِمَنْ يَشَاءُ عَفِيًّا ﴾

(سورة الشورى)

إذن فالمسألة ألا يفرض على ربنا عناصر تكوين ، لا ، بل هي إرادة مكوّن لا عنصرية مكوّن . إنه « يخلق ما يشاء » ، ومشيئته مطلقة وقدرته عامة . ولذلك لا بد أن يأتي القول : « والله على كل شيء قدير » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّواهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝ ١٨ ﴾

وهل كل اليهود قالوا : نحن أبناء الله ؟ هل كل النصارى قالوا : نحن أبناء الله ؟ لا . فبعض من اليهود قال : إن عزيزاً ابن الله وبعض النصارى قالوا : إن

عيسى ابن الله ، وجاء مسيلمة الكذاب وأدعى النبوة ، وكان كل أهل مسيلمة يقولون : نحن الأنبياء ، أى منا الأنبياء حتى أنصار سيدنا عبدالله بن الزبير أبى خبيب ، قال أنصاره : نحن الحبشيون أى نحن أتباع ابن الزبير الذى هو أبو خبيب ، فكانوا ينسبون لأنفسهم ما لغيرهم . فمعنى « نحن أبناء الله » يعنى : نحن أشياع العزيز ، الذى هو ابن الله ، ونحن أشياع عيسى الذى هو ابن الله . هذه نأخذ لها دليلاً من القرآن ، نعرف قصة مؤمن آل فرعون :

﴿ وَقَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ قَالَ يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ هَادُوا غَدِّوا إِلَيَّ فَأَنْتَقِلُونَ ۚ وَكَانَ فِي آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ۚ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٥٨﴾ يَنْقُومُ لَعْنُ الْمَلِكِ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ ﴾

(سورة خافر)

والقوم جماعة . بالله أكان القوم كلهم ملوكاً ؟ لا . فالذى كان ملكاً هو فرعون فقط . لكن مادام فرعون هو الملك ، فيكون كل الذين كانوا أتباعاً وأنصاراً له ومن شيعته ملوكاً لأنهم يعيشون في كتف ورعاية الملك . وأيضاً قال لليهود : « وجعلكم ملوكاً » . ولذلك عندما أرادوا أن يحددوا معنى « ملك » قالوا : إن « الملك » هو الرجل الذى عنده دار واسعة وفيها ماء يجري ، وواحد آخر قال : « الملك » هو الذى يكون عنده حياة رتيبة وعنده من يخدمه ولا يشغل بخدمة نفسه في بيته ، وفي الخارج يخدم نفسه . وقال آخر : من عنده مال لا يحوجه للعمل الشاق ، فهو ملك . ولذلك قال سيدنا الشيخ عبدالجليل عيسى في هذه المسألة : لا تستعجبوا ذلك فالأميون ينطقون وبلسانهم يقولون : هذا ملك زمانه ، أى رجل مرتاح لا يعمل أعمالاً شاقة وعنده النقود يصرفها كما يريد . إذن قأبناء الله يعنى ليس

كلهم أبناءه ، ولذلك قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « قل » رداً عليهم : « قُلْ يَعْذِبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ » ، وستدخلون في مشيئة المغفرة .

« يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ، ولن تخرجوا عن المشيئة الغافرة أو المشيئة

المعذبة ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير .

ويقول الحق تصفية للمسألة العقدية في الأرض :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ
عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ
وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ١١

ورسولنا هو محمد صلى الله عليه وسلم وبين لكم - يا أهل الكتاب - ما اختلفتم فيه أولاً وما يجب أن تلتقوا عليه ثانياً ، وما زاده الإسلام من منهج فلأنما جاء به ليناسب أفضلية الحياة التي يواجهها إلى أن تقوم الساعة . وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، ومعنى الفترة : الانقطاع . وفترة من الرسل أى على زمن انقطعت فيه الرسالات ، وهى الفترة التى بينه صلى الله عليه وسلم وبين أخيه عيسى عليه السلام ، وقام الناس بحسابها فقال بعضهم : إنها ستائة سنة وقال البعض : خمسمائة وستون عاماً . ولا يهمنا عدد السنين ، إنما الذى يهمنا هو وجود فترة انقطعت فيها الرسل ، اللهم إلا ما كان من قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَتَّخَذَ الْقَرْيَةُ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ١٢ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ١٣ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
وَمَا أُنْزِلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ١٤ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ١٥ ﴾

(سورة يس)

هؤلاء المرسلون أهم مرسلون من قيل الله بين عيسى وبين محمد صلى الله عليه

وسلم ٢. أم هم مرسلون من قبل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية ؟ . وقد كفر الناس أولاً بهذين الرسولين ، فعززهم الحق بثالث .

وقال الناس لهم :

﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (١٥)

(سورة يس)

وهنا قال الرسل :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (١٦)

(سورة يس)

فما الفرق بين « إنا إليكم مرسلون » وبين « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ؟ . إن الأخبار دائماً تلقى من المتكلم للسامع لتعطيه خبراً ، فإن كان السامع خالي الذهن من الخبر ، ألقى إليه الكلام بدون تأكيد . وأما إن كان عنده شبه إنكار ، ألقى إليه الكلام بتأكيد على قدر إنكاره . فإن زاد في لجاج الإنكار يزيد له التأكيد . فأصحاب القرية أرسل الله إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززهما بثالث ، وهذا تعزيز رسالي ، فبعد أن كانا رسولين زادهما الله ثالثاً ، وقال الثلاثة :

﴿ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة يس)

صحيح ثمة تأكيد هنا . لأن الجملة إسمية ، وسبقها « إِنْ » المؤكدة ، فلما كذبوهم وقالوا لهم : « ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء » وكان هذا لجأجا منهم في الإنكار فإذا يكون موقف الرسل ؟ يقولون : « إنا إليكم مرسلون » كما قيل أولاً ؟ . لا . إن الإنكار هنا معلن في اللجاجة والشدة ، فيأتي الحق بتأكيد أقوى على السنة الرسل :

(ربنا يعلم) .

وذلك القول في حكم القسم ؛ هذا هو التأكيد الأول ، والتأكيد الثان :

(إنا إليكم لمرسلون) .

وكما تعلم فـ « إن » هنا مؤكدة ، واللام التي في أول قوله : « لمسلون » لزيادة التأكيد . وحين تأتي كلمة تدور على معانٍ متعددة ، فالمعنى الجامع هو المعنى الأصلي ، وكذلك كلمة « فترة » ، فالفترة هي الانقطاع . فإن قلت مثلاً : ماء فاتر أى ماء انقطعت برودته ، فالماء مشروط فيه البرودة حتى يروى العطش . وعندما يقال : ماء فاتر أى ماء فتر عن برودته ، ولذلك يكون قولنا : « ماء فاتر » أى ماء دافئ قليلاً ، أى ماء انقطعت عنه البرودة المرغبة فيه .

ويقال أيضاً في وصف المرأة : في جفتها فتور أى أنها تغض الطرف ولا تخملق بعينها باجترأ . بل منخفضة النظرة . إذن فالفترة هي الانقطاع . ولقد انقطعت مدة من الزمن وَخَلَّتْ من الوحي ومن الرسل . وكان مقتضى هذا أن يطول عهد الغفلة ، ويطول عهد انطباع المنهج ، ويعيش أهل الخير في ظمأ وشوق لمجيء منهج جديد ، فكان من الواجب - مادام قد جاء رسول - أن يرهف الناس آذانهم لما جاء به ، فيوضح الحق أنه أرسل رسولا جاء على فترة ، فإن كنتم أهل خير فمن الواجب أن تلتمسوا ما جاء به من منهج ، وأن ترهفوا آذانكم إلى ما يجيء به الرسول صلى الله عليه وسلم لسماع مهمته ورسالته .

وقد أرسل الله إليهم الرسول على فترة حتى يقطع عنهم الحجة والعذر فلا يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » فقد جاءهم - إذن - بشير وجاءهم نذير . والبشير هو المعلم أو المخبر بخير يأتي زمانه بعد الإخبار . ومادام القادم بشيراً فهو يشجع الناس على أن يرغبوا في منهج الله ليأخذوا الخير . ولا بد من وجود فترة زمنية يمارس فيها الناس المنهج ، ولا بد أيضاً أن توجد فترة ليمارس من لم يأخذوا المنهج كل ما هو خارج عن المنهج ليأتى لهم الشر .

مثال ذلك قول الأستاذ : بَشِّرْ الذي يذاكر بأنه ينجح . وعند ذلك يذاكر من الطلاب من يرغب في النجاح ، أى لا بد من وجود فترة حتى يحقق ما يوصله إلى ما يبشر به . وكذلك التذكرة لا بد لها من فترة حتى يتجنب الإنسان ما يأتي بالشر .

« قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » . ويجيء « أن تقولوا » إيضاح بأنه لا توجد فرصة للتعلل بقول : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » .

ويقول الحق : « فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » وسبحانه وتعالى القدير أبداً . فقد جعل الخلق يطراون على كون منظم بحكمة وبكل وسائل الخير والحياة على أحسن نظام قبل أن يطرا هؤلاء الخلق على هذا الكون ، فإذا ما طرأ الخلق على هذا الخير ، أبتزكهم الخالق بدون هداية ؟ لا . فسبحانه قد قدر على أن يوجد خلقه كلهم ، ويعطى لهم ما يحفظ لهم حياتهم ويحفظ لهم نوعهم .

ألا يعطى الحق الخلق إذن ما يحفظ لهم قيمهم ؟

إنه قادر على أن يعطى رزق القوت ورزق المبادئ والقيم وأن يوفى خلقه رزقهم في كل عطاء . وإرسال الرسل من جملة عطاءات الحق لعلاج القيم . ثم يرجع ثانية إلى قوم موسى ولكنه في هذه المرة يجعل التكلم رسولهم :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا
وَأَتَّخَذَ مِنْكُمْ مِائِمَةً يُمِرُّونَ أَمْثَلُكُمْ

وساعة تسمع « إذ » فاعلم أنها ظرفية تعني « حين » ، كأن الحق يقول : اذكر حين قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم . ويقول الحق لرسوله ذلك لأن هذا اللون من الذكر يعين الرسول صلى الله عليه وسلم على تحمل ما يتعرض له في أمر الدعوة والرسالة سواء من ملاحدة أو من أهل كتاب .

إن الحق حينها قال : « وإذ قال موسى لقومه » أى اذكر يا محمد ، أو اذكر يا من تتبع محمداً ، أو اذكر يا من تقرأ القرآن إذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . ولا يقول موسى لقومه : « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التي أنعم الله بها عليهم ، وذلك - والله المثل الأعلى - كما يقول الواحد منا لولد عاق : اذكر ما فعله والدك معك . ولا يقولن

الواحد منا ذلك إلا وقد بدرت من الابن بواند لا تتناسب مع مقدمات النعم ومقدمات الفضل عليه . فكان قوم موسى قد ألهقوه وتحمل منهم الكثير ؛ للدرجة أنه قال لهم هل سبيل الزجر ما قد يجعلهم يفيقون ويتبهون ويفطنون إلى ذكر نعمة الله عليهم ، ومعنى ذكر النعمة هو الاستماع إلى منهج الله وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهي .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وعرفنا أن « النعمة » يقصد بها الجنس والمراد بها النعم كلها ، أو كان كل نعمة على انفرادها خليفة وجليوة أن تذكر وتُشكر ، والدليل على أن النعمة يراد بها كل النعم أن الله قال :

﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

ومادام عدد النعمة لا نستطيع معه أن نعرف إحصاءها ؛ فهي نعم متعددة . إذن فالمراد بالنعمة كل النعم لأنها اسم جنس .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وذكر النعمة يؤدي إلى شكر النعم ويؤدي أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصى من أنعم . ويجعلنا نستحي أن نأخذ نعمته لتكون معينا لنا على معصيته . « اذكروا نعمة الله عليكم » وهي نعم كثيرة تمتعوا بها ، ألم يخلق الحق لهم البحر :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وبعد أن ضرب الماء بالعصا :

﴿ فَأَنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

فقد صار الماء السائل جبلاً . وضرب لهم الحجر ؛ بأمر الله فانفجرت منه المياه :

﴿ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم ، وتبين القدرة مجالات تصرفها ، فقد ضرب موسى البحر فصار كل فرق كالطود العظيم ، وكان الماء صار صخرًا . وضرب موسى الصخر فتجرت المياه . إنها عجائب القدرة . ألم يظلللكم بالغيام ؟ ألم ينزل عليكم في التيه المن والسلوى ؟ وكل هذه النعم ألا تستحق الذكر والشكر لله والاستحياء من أن تعصوه أو أن ترهقوا الرسول الذي جاء لهدايتكم ؟

إن كل هذه النعم تستحق الشكر ، والشكر ذكر . « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ، وكلما أدرتكم غفلة فإن الحق يرسل لهم نبياً كآسوة سلوكية . ولم يغضب عليهم ولم يقل : أرسلت لهم رسولاً واثنين وثلاثة وأربعة . ولم يبتدوا ، بل كلما عصوا الله واستعصت داءاتهم أرسل لهم رسولاً ، مثلهم في ذلك مثل المريض الذي لا يضر عليه عائلته بطبيب أو بطبيين أو ثلاثة أو أربعة ، بل كلما لاحظ عائلته شيئاً فإنه يرسل له طبيباً . وفي ذلك امتنان ؛ لأن الله أرسل إليهم كثيراً من الرسل . وكان عليهم أن يعلموا أن داءاتهم قد كثرت وصار مرضهم مستعصياً ؛ لأنه لو لم يكن المرض مستعصياً ؛ لما كانوا في حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأنبياء . ومع ذلك رحمهم الله وكلما زاد دأؤهم أرسل لهم نبياً .

ولم يكتف الحق بأن جعل فيهم أنبياء ؛ بل قال : « وجعلكم ملوكاً » وليس معنى ذلك أنهم كلهم صاروا ملوكاً ؛ ولكن كان منهم الملوك . « والمالك » كلمة أخذت اصطلاحاً سياسياً ، فكل إنسان مالك ما في حوزته ؛ مالك لثوبه ، أو مالك اللقمة التي يأكلها ، أو مالك البيت الذي ينام فيه ، لكن المالك هو الذي يملك ويملك من ملك .

إذن فكل واحد عنده القدرة أن يملك شيئاً ويملك من ملك يكون ملكاً ، فرجل عنده رعيان يقومون برعى القطعان من الماشية التي يملكها ، وعنده أناس يخدمون في المنزل وأناس يعملون في المزرعة ، وعنده أكثر من سائق ، وعنده أناس كثيرون يأثمرون بلمره ولا يدخلون عليه إلا بإذنه ولا يتكلف في لقائهم أى حرج أو مشقة ، هذا الرجل لا بد أن يكون ملكاً . إذن فقد أعطاهم الحق نعمة وفيرة .

والنبي صلى الله عليه وسلم يحدد الملكية الواسعة التي تحدد الفرد تحديداً إيمانياً

فقال : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » (١) .

ومادام قد حيزت له الدنيا بحذافيرها بهذه الأشياء فهو ملك . وقد أعطاهم هذه المسائل أى جعلهم ملوكاً . « وأناكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » أى أنه سبحانه أعطاهم ما لم يعطه لأحد بمن حولهم ، ووالى عليهم ذلك العطاء ، ألم يعط - سبحانه - نبي الله سيدنا سليمان وهو من بني إسرائيل ملكاً لا ينهى لأحد من بعده ؟ تلك الواقعة لم يقلها موسى عليه السلام لأنها حدثت من بعد موسى بأحد عشر جيلاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَنْقُورِ آذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ
لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ (١)

وهذا بلاغ من موسى بما أوحى الله به إليه ، ومعنى حدث ذلك ؟ نعرف أن صلة بني إسرائيل بمصر كانت منذ أيام يوسف عليه السلام ، وعندما جاء يوسف بأبيه وإخوته وعاشوا بمصر وكونوا شيعة بني إسرائيل ، ومكن الله ليوسف في الأرض وعاشوا في تلك الفترة . والعجيب أن المس القرآنى للأحداث التاريخية فيه دقة متناهية ، ولم نعرف نحن تلك الأحداث إلا بعد مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر . فعندما جاءت تلك الحملة صحبت معها بعثة علمية . وكانت تلك البعثة تنقب عن المعلومات الأثرية ليتعرفوا على سر حضارة المصريين ، وسر تقدم العرب القدم ، الذى سبق أوروبا بقرون ، وأخذت منه أوروبا العلوم والفنون ، في حين صار هذا العالم العربى إلى غفلة .

إن العرب المسلمين هم الذين اخترعوا أشياء ذهلت لها العالم الغربى ، ويحكى لنا

التاريخ عن هدية من أحد ملوك العرب إلى شارلمان ملك فرنسا وكانت الساعة دقاقة ، وظن الناس من أهل فرنسا أن بهذه الساعة الدقاقة شيطاناً . وفكرة تلك الساعة أن العالم الذي صممها وضع فيها إناء من الماء به ثقب صغير تنزل منه القطرة بثقلها على شيء يشبه عقرب الساعة ، فتتحرك الساعة دقيقة واحدة من الزمن . وكانت الساعة تسير بنقطة الماء . وكان ضبطها في متهى الدقة . وحين رآها الناس في بلاط شارلمان ملك فرنسا ظنوا أن بداخلها شياطين . وهذا نموذج من نماذج كثيرة لا حصر لها ولا عدد تدخل في نطاق قوله الحق :

﴿ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

وحينما جاء الفرنسيون إلى القاهرة كان معهم تلك البعثة العلمية ومعهم مطبعة ، وعرض هؤلاء العلماء الفانوس السحري ، وجعلوا الناس البسطاء يذهلون من تقدمهم العلمي . واستمرت تلك الحملة بعروض أقرب إلى « الأكروبات » . وكان عمل العلماء هو البحث عن سر حضارة المصريين والمسلمين ، لأنهم يعلمون أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى مصر بالإضافة إلى حضارة المصريين القدماء .

لقد كانوا يعرضون ألعابهم السحرية العلمية بدرب الجماهير ، وذلك حتى ينهر الناس بالحضارة الفرنسية . وكان علماءهم في الوقت نفسه يكتشفون ما نقش على حجر رشيد ، وهو الحجر الذي اكتشفه ضابط فرنسي شاب اسمه شامبليون ، وعلى هذا الحجر كتبت الكلمات الهيروغليفية . واستطاع شامبليون أن يفصل أسماء الأعلام الهيروغليفية ومن خلال ذلك استطاع أن يصل إلى أبجدية تلك اللغة . وكان الله أراد أن يسخر الكافرين بمنهج الله ليؤيدوا منهج الله .

إن في كل لغة شيئاً اسمه « منطق الأعلام » ومثال ذلك أن يوجد اسم رجل أو أمير أو إنسان ، فهذا الاسم مكون من حروف لا تتغير ، مثال ذلك نأخذ من اللغة الإنجليزية ؛ كان اسم رئيس وزراء إنجلترا في وقت من الأوقات هو « تشرشل » هي كلمة إذا ترجمناها ترجمة حرفية لم تدل على صاحبها ولم تعرفنا به لأننا عندما نترجمها نكتفى بكتابة الاسم بالحروف العربية بدلاً من اللاتينية .

إذن فالأعلام لا يتغير نطقها .

وكشف شامليون عن الحروف التي لم تتغير . واحتدى إلى فك طلاسم جروف اللغة الهيروغليفية ؛ فعرف كيف يقرأ المكتوب على حجر رشيد ، واستطاع أن يقدم لنا بدايات اكتشاف تاريخ مصر القديمة . واستطاع أن يقرأ اللغة المرسومة على ذلك الحجر .

ولنا أن نرى عظمة القرآن حينما تعرض للأقدمين . . تعرض لعادٍ وتعرض لثمود وتعرض لفرعون . تعرض لتلك الحضارات كلها في سورة الفجر ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ وَالْأَيْلِ إِذَا يَتَر ④ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ ﴾

(سورة الفجر)

وإرم ذات العماد هي التي في الأحقاف - في الجزيرة العربية - ولم نكتشفها بعد ، ولم نعرف عنها حتى الآن شيئاً ، وهي التي يقول عنها الحق :

﴿ أَلَيْسَ لِرَبِّهِمْ كُنُوزٌ مِّثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ⑧ ﴾

(سورة الفجر)

ثم يتكلم بعدها عن فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ⑨ ﴾

(سورة الفجر)

والأهرام أقيمت بالفعل على أوتاد ، وكذلك المسلات المصرية القديمة والمعابد . وغيرها من العجائب التي يهت الناس في مختلف العصور .

﴿ أَلَيْسَ لِرَبِّهِمْ كُنُوزٌ مِّثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ⑩ ﴾

(سورة الفجر)

ثم جاء بحضارة ثمود .

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ⑪ ﴾

(سورة الفجر)

وقد رأينا هذه الحضارة التي كان الناس أثناءها ينحتون البيوت في الصخر ، كما رأينا حضارة مصر . وحضارة عاد هي التي لم نرها حتى الآن ، ولا بد أن تكون مطمورة تحت الأرض . ونعرف أن الهبة الرملية الواحدة عندما تهب في تلك المناطق تطمر القافلة كلها ، فما بالنا بالقرون الطويلة التي مرت وهبت فيها آلاف العواصف الرملية ، إذن لا بد أن ننقب كثيراً لنكتشف حضارة عاد . والحق تكلم عن حضارة مصر القديمة فقال : (وفرعون ذى الأوتاد) ، وعندما تكلم عن موسى عليه السلام ، تكلم - أيضاً - عن المعاصرين له وكان أحد هؤلاء الفراعنة ، فقال سبحانه لموسى ولأخيه هارون عليهما السلام :

﴿ أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ ظَنَّ ﴾ (١٧)

(سورة طه)

ويذهب موسى إلى فرعون حتى يخلص بنى إسرائيل من ظلم فرعون . ولماذا ظلمهم فرعون ؟ نحن نعرف أن كل سياسة تعقب سياسة سابقة عليها تحاول أن تطمس السياسة الأولى ، وتعذب من تصبروا السياسة الأولى ، وتلك قضية واضحة في الكون . وهذا ما يتضح لنا من سيرة سيدنا يوسف الذى صار وزيراً للعزیز ودعا أباه وأمه وشيعته إلى مصر ، ولم تأت سيرة فرعون في سورة يوسف .

وعندما تكلم القرآن على رأس الدولة في أيام يوسف قال :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِيَّ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يوسف)

لم يقل الحق : « فرعون » على الرغم من أنه قال قبل ذلك عنه إنه : « فرعون » وأيام موسى ذكر فرعون ، لكن في أيام يوسف لم يأت بسيرة فرعون إنما جاء بسيرة مَلِك . وعندما جاء اكتشاف حجر رشيد ، ظهر لنا أن فترة وجود يوسف عليه السلام في مصر هي فترة ملوك الرعاة أى الهكسوس الذين غزوا مصر وأخذوا المَلِك من المصريين وحكموهم وصاروا ملوكاً ، وسمى عصرهم بعصر الملوك .

وقال القرآن : (وقال الملك أتؤنس بي) . ولم يأت بذكر لفرعون . وعندما استرد الفراعنة ملكهم وطردوا ملوك الرعاة ، استبد الفراعنة بمن كانوا يخدعون الملوك وهم بنو إسرائيل . هكذا تتأكد دقة القرآن عندما ذكر فرعون لأنه كان الحاكم أيام موسى ، لكن في زمن يوسف سعى حاكم مصر باسم الملك . وتلك أمور لم نعرفها

إلا حديثاً . ولكن القرآن عرفنا ذلك . وكانت تحتاج إلى استنباط . وهي تدخل ضمن الآيات التي لا حصر لها في قوله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فسبحانه وتعالى بعد أن أهد موسى بالآيات وأغرق فرعون ، هنا قال لهم موسى :

﴿ يَنْقُومِ آدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ

فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾

(سورة المائدة)

فقد انتهت المهمة بتخليص بني إسرائيل من فرعون ، وخلصوا أهل مصر من فرعون . وكانت الدعوة لدخول الأرض المقدسة . وكلمة الأرض إذا أطلقت صارت علماً على الكرة الجامعة . ووردت كلمة « الأرض » في قصة بني إسرائيل في مواضع متعددة لمواقع متعددة .

فها هو ذا قول الله في آخر سورة الإسراء :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

فهل هناك سكن إلا الأرض ؟ إن أحداً لا يقول : اسكن كذا إلا إذا حدد مكاناً من الأرض ، لأن السكن بالقطع سيكون في الأرض ، فكيف يأتي القول : « اسكنوا الأرض » ؟ والشائع أن يقال : اسكن المكان الفلاني من المدن ، مثل : المنصورة أو أريحا ، أو القدس . وقوله الحق : « اسكنوا الأرض » هو لفظة قرآنية ، ومادام الحق لم يحدد من الأرض مسكوناً خاصاً ، فكانه قال : ذوبوا في الأرض فليس لكم وطن ، وانساحوا في الأرض فليس لكم وطن ، أي لا توطن لكم أبداً ، وستسيحون في الأرض مقطعين ، وقال سبحانه :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ آمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

وحين يأتى القرآن بقضية قرآنية فلنبحث ألبتتها القضايا الكونية أم عارضتها ؟
القضية القرآنية هنا هى تقطيع بنى إسرائيل فى الأرض أمما « أى تفريقهم وتشيتهم
ولم يقل القرآن : « أذبناهم » بل قال : « قطعناهم » وتفيد أنه جعل بينهم أوصالا
ولكنهم مفرقون فى البلاد . وعندما نراهم فى أى بلد نزلوا فيها نجد أن لهم حيا مخصوصا ،
ولا يلبثون فى المواطن أبداً ، ويكون لهم كل ما يخصهم من حاجات يستقلون بها ،
فكأنهم شائعون فى الأرض وهم مقطعون فى الأرض ولكنهم أمم ، فهناك « حارات »
وأماكن خاصة لليهود فى كل بلد .

حدث ذلك من بعد موسى عليه السلام ، لكن ماذا كان الأمر فى أيام موسى ؟ قال
لهم الحق : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » أى بعد رحلتكم مع
فرعون اذهبوا إلى الأرض التى كتبها الله لكم . ونلاحظ هنا أن كلمة « الأرض
المقدسة » فيها تمييز وتحديد للأرض .

ولكن ما معنى « مقدسة » ؟ المادة كلها تدل على الطهر والتطهير . فـ « قُدُس » أى
طهر ونزه ، ومقدسة يعنى مطهرة . والألفاظ حين تأتى تتوارد جميع المادة على معانٍ
متلاقية . ففى الريف المصرى نجد ما نسميه « القُدُس » أو « القادوس » وهو الإناء
الذى يرفع به الماء من الساقية ، وكانوا يستعملونه للتطهير ، فالقادوس فى الريف
المصرى هو وعاء الماء النظيف . وعندما يقال : « مقدسة » أى مطهرة .

إن من أسماء الحق « القُدوس » ، ويقال : « قُدُس الله » أى نزه ، فإله ذات وليست
كذات الإنسان ، وله سبحانه صفات منزّهة أن تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له
أفعال ، ولكن قدسه وطهره منزّهة أن تكون كأفعالك . فذات الحق واجبة الوجود
وذات الإنسان ممكنة الوجود ، لأن ذات الإنسان طراً عليها عدم أول ، ويطراً عليها
عدم ثانٍ ، وهو سبحانه واجب الوجود لذاته ، والإنسان واجب لغيره وهو قادر
سبحانه أن ينهى وجود العبد . والله حياة للإنسان حياة ، لكن أحياتك أيها الإنسان
كحياة الله ؟ لا .

إن حياته سبحانه منزّهة وذاته ليست كذاتك ، وصفاته ليست كصفاتك ، فأنتم
قادر قدرة محدودة وله سبحانه طلاقة القدرة ، وهو سبحانه سميع والعبد سميع ؛
لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدود له .

إذن لصفاته مقدسة ، ولذلك فعندما تسمع أنه سبحانه سميع عليم فليس سمعه كسمعنا ، وله فعل غير فعلنا . وعندما يقول الحق : إنه فعل ، ففعله منزّه عن التشبيه بفعل البشر ؛ لأن البشر من خلق الله ، وفعل البشر معالجة ، ويكون للفعل بداية ووسط ونهاية ويفرغ من الأحداث على قدر الزمن . ونحن نحمل الأشياء في أزمان متعددة وبحاج من يحمل الأشياء إلى قوة . ولكن فعل الحق مختلف ، إنه فعل بـ « كن » لذلك قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾

(سورة ق)

أى أنه سبحانه وتعالى منزّه عن التعب ، فهو يقول : « كن فيكون » ولذلك قلنا في مسألة الإسراء: إننا يجب أن ننسب الحدث إلى الله لا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى نعرف أن الذين عارضوا رسول الله في مسألة الإسراء كانوا على خطأ ، فقد قالوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها في ليلة ١٩

إن رسول الله لم يدع لنفسه هذا الأمر ، لأنه لم يقل : سرّيت من مكة إلى بيت المقدس ، حتى تقولوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها في ليلة .

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : أسري بي . أى أنه صلى الله عليه وسلم ليس له فعل في الحدث . والفعل إذن لله . ومادام هو من فعل الله فهو لا يحتاج إلى زمن ؛ لذلك كان يجب أن يفهموا على أى شيء يعترضون . ولكننا نعرف أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة ؛ لأنه سيأتى أناس من المتحدلقين المعاصرين ويقولون : « إن الإسراء كان بالروح » نقول لهم : بالله لو قال محمد للعرب : أنا سرّيت بروحي أكانوا يكذبونه ؟ تماماً مثلما يقول لنا قائل : « أنا كنت في نيويورك الليلة ورأيتها في المنام » فهل سيكذبه أحد ؟ لا . إذن لقد كذب العرب لأنهم فهموا أنه أسري به بمعنى كامل . . أى كان الإسراء بالجسد والروح معا ، بدليل أنهم قلّونوا فعلاً بفعل ، وحدثنا بحدث ، ونفلة بنفلة ، وقالوا قولهم السابق . لقد جاءت هذه المسألة لتخدم الإسلام .

إذن فـ « قدوس » يعنى مطهر ومنزه . وساعة ترى شيئاً مخالفاً لقضية العقل القرني

بفعل الله ، ولا تقرنه بفعلك أنت أيها العبد ، لأن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل طرداً أو عكساً . فإن كان الفاعل صاحب قدرة قوية . فزمنه أقل . مثال ذلك : نقل الأردب من القمح من مكان إلى مكان ، فإن كان الذي يحمل الأردب طفلاً فلن ينقل الأردب إلا قدحاً بقدره ، وإن كان رجلاً ناضجاً سينقل الأردب « كيلة بكيلة » . وإن كان صاحب قوة كبيرة قد ينقل الأردب كله مرة واحدة . إذن فالزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً . فإن كثرت القوة قل الزمن . وهات أي فعل بقدرة الله فلن يستغرق أي زمن .

إذن قدس الله في كل شيء . والأرض المقدسة هي المطهرة ، وذلك بإرادة الحق سبحانه ، تماماً كما أراد سبحانه أن تكون بقعة من الأرض هي الحرم ، لا ينم فيها الاعتداء على صيد أو نبات أو اعتداء بعضكم على بعض ، وهل ذلك كلام كون أو كلام تشريعي ؟

﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ أَنْ جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة العنكبوت)

لو كانت المسألة إرادة كونية ، فكان لا بد ألا يحدث خلل أبداً وألا يعتدى أحد على أحد . وما الفرق بين الكون والتشريعي ؟ إن الكون يقع لأنه لا معارض في الأمور القهرية ، فالحق يريد أن يكون عبداً طويلاً القامة ، فتلك إرادة كونية تحدث ولا تدخل للعبد بها . ولكن إن أراد الحق أن تكون طائفاً مصلية ، فتلك إرادة تشريعية . والإرادة تكون تشريعية فيما إذا كان للمرید اختيار ، يصح أن يفعلها ويصح ألا يفعلها ، لكن الإرادة الكونية هي فيما لا إرادة للإنسان فيه وواقع على رغم أنف الإنسان .

والله سبحانه وتعالى يريد الحرم آمناً . وتلك إرادة تشريعية لأنه حدث أن أهيج فيه أناس ولم يأمنوا . ولو كانت إرادة كونية لما حدثت أبداً . لذلك فهي إرادة تشريعية ، فإن أطعنا ربنا جعلنا الحرم آمناً ، وإن لم نطعه فالذي لا يطيع يهيج فيه الناس ويفزعهم ويخيفهم . فمراد الله عز ومطلوبه شرعاً « أن يكون الحرم آمناً » .

«ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، فهل هذه الأرض المقدسة كتبها الله لهم

كتابة كونية أو كتابة تشريعية ؟ إن كانت كتابة كونية لكان من اللازم أن يدخلوها ولكنه قال :

﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن هي إرادة تشريعية وليست إرادة كونية . فإن أطاعوا أمر الله وتشجعوا ودخلوا الأرض المقدسة فإنهم يأخذونها ، وإن لم يطيعوه فهي محرمة عليهم . إذن فلا تناقض بين أن يقول سبحانه : إنه كتبها لهم ، ثم قوله من بعد ذلك : إنها محرمة عليهم ، لقد كتبها سبحانه كتابة تشريعية . فإن دخلوها بشجاعة ولم يخافوا ممن فيها واستبسلوا ووثقوا أن وراءهم إلهاً قوياً سيساندهم ؛ فإنهم سيدخلونها ، أما إن لم يفعلوا ذلك فهي محرمة عليهم .

﴿ يَنْقُرُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ١١ ﴾

(سورة المائدة)

وجاءت الأرض هنا أكثر من مرة :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

وعرفنا مراد ذلك القول . والدقة هنا أنه سبحانه جاء بأمر السكن في الأرض لبني إسرائيل أي في الأرض عموماً ومحكوم عليهم أن يكونوا قطعاً ومشردين .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

أي أنه سبحانه يجمعهم من كل بلد ويحيىء بعد ذلك وعد الآخرة الذي جاء في أول سورة الإسراء :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا

كَبِيرًا ١ ﴾

(سورة الإسراء)

لأن الحق حينها قال :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه وتعالى يدخل بهذه الآية المسجد الأقصى في مقدسات الإسلام .
ولوضح الحق لهم : يا أيها اليهود أنتم ستمشون في مكان بعهد من رسولي ، ولكنكم ستفسدون في المكان الذي تعيشون فيه وستحملكم القوم مرة أو اثنتين وبعد ذلك يسلط الله عبداً له يهوسون خلال دياركم ويثردونكم من هذه البلاد .

والحق يبلغنا : نحن أهلنا بني إسرائيل في كتابهم ما سيحدث لهم مع الإسلام :

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝١ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكَ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٢﴾

(سورة الإسراء)

وبعض الناس يقولون : إن هذا كان أيام بختنصر ، ونقول لهم : افهموا قول الحق : « فإذا جاء وعد أولاهما » وكلمة « وعد » لا تأتي لشيء يسبق الكلام بل الشيء يأتي من بعد ذلك . إذن فلم يكن ذلك في زمان بختنصر . فـ « إذا » الموجودة أولاً هي ظرف لما يُستقبل من الزمان ، أى بعد أن جاء هذا الكلام . ثم هل كان بختنصر يدخل ضمن عباد الله ؟ . إن قوله الحق : « عباداً لنا » مقصود به الجنود الإيمانيون ، وبختنصر هذا كان فارسياً مجوسياً .

وهذا القول الحكيم يشير إلى الفساد الأول مع رسول الله بعد العهد الذي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أجلاهم . وهل هي تقتصر على هذه ؟ يقول سبحانه :

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكَ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ

الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥٣﴾

(سورة الإسراء)

ولنا أن نسأل : وهل لم يفسد بنو إسرائيل في الأرض إلا مرتين ؟ لا ، لولا أنهم لم يفسدوا في الأرض سوى مرتين ، لكان ذلك بالقياس إلى ما فعلوه أمراً طيباً ، فقد أفسدوا أكثر من ذلك بكثير . ولا بد أن يكون إفسادهم في الأرض المقصودة هو الفساد الذي صنعوه بالأرض التي كانت في حضانة الإسلام ، وسبحانه قد قال : « بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأس شديد » فإدام يوجد « عباد الله » مخالفو الإيمان وأعدوا العدة فلا بد أن يتحقق وعد الله ، لكن إذا ما تخلى الناس عن هذا الوصف ، فعل الناس الذين يعانون من إفساد بنو إسرائيل أن يتلقوا ما قلناه الله :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فكان الكرّة لا ترد إلا إذا كان القوم المؤمنون على غير مطلوب الإيمان . فإذا ما تساءل بعض المؤمنين : ولماذا نجعل يا الله الكرّة لبنى إسرائيل ؟ تكون الإجابة : لأنكم أيها الناس قد تخلفتم عن مطلوب العبودية الخالصة لله . وما دعنا قد تخلفنا عن مفهوم « عباد الله » فلا بد أن تحدث لنا تلك السلسلة الطويلة التي نعرفها من عدوان بنى إسرائيل . ونحن الآن في مواجهة اليهود في مرحلة قوله الحق :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فإذا كنا عباداً لله فلن يتمكنوا منا . والله سبحانه وتعالى حينما يتكلم بقضية قرآنية فلا بد أن تأتي القضية الكونية مصدقة لها .

ولو استمر الأمر بدون كرّة من اليهود علينا ، بينما نحن قد ابتعدنا عن منهجنا وأصبح كل يتبع هواه ، لكانت القضية القرآنية غير ثابتة . ولكن لا بد من أن تأتي أحداث الكون مطابقة للقضية القرآنية . ولذلك رأينا أن بعض العارفين الذين نعتقد قربهم من الله حينما جاء أحدهم خبر دخول اليهود بيت المقدس سجد لله .

فقلنا : « أتسجد لله على دخول اليهود بيت المقدس » . فقال : نعم . صدق ربنا

لأنه قد قال : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » هكذا قال الحق ، وهل يكون دخول لثاني مرة إلا إذا كان هناك خروج من أول مرة ؟ لقد حمد ذلك العارف بالله ربنا لأن قضايها القرآن تتأكد بالكونيات ، فإذا ما قال الحق :

﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فليست المسألة أنهم لكونهم يهوداً لا يعطيهم الله الكُرَّةَ . ولكن القضية هي أننا عندما نكون عباداً لله حقيقة .. اعتقاداً وسلوكاً .. قولاً وعملاً نتصر عليهم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ ﴾

(سورة الإسراء)

وهم أغنياء لأنهم يديرون معظم حركة المال في العالم المعاصر . ولأنهم جميعاً في الجيش المدافع عن دولتهم . وذلك معنى بنين وأكثر نفيراً . النفير هو ما يستنفره الإنسان لنجدته ؛ لأن قوة ذاته قاصرة عن الفعل . واليهود ليسوا قوة ذاتية بمفرد دولتهم ، ولكن وراءهم أهم قوى في العالم المعاصر .

إذن فقوله الحق :

﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صادق وحق .

ثم بعد ذلك يحسم الله قضيت ويقول لليهود :

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وهل تستمر الكرة بارب ؟.

لا . فها هو ذا الحق سبحانه يقول :

﴿فَإِذَا جَاءَ وَقَدْ أَخْتَرَا بُشْرًا أَوْ نَجْوً﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

كان الحق يعطينا البشارة بأننا مستنصر ، ويكون الانتصار مرهونا بتنفيذ القاعدة التي شرعها الله بأن نكون عباداً لله حقاً ، عندئذ سيكمل الله لنا تنفيذ وعده لليهود :

﴿يَتَّقُوا وَجُومَكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وأشرف ما في الإنسان هو الوجه ، وعندما نكون عبيداً لله ننسوه وجوههم ،
ولفوق ذلك :

﴿وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلْيُتَبَرَّأَ مَا عَلُوا النَّبِيرَا﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

ولم يأت الحق بذكر المسجد من قبل ، فها هو ذا قوله الكريم :

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا

كَبِيرًا ❶ فَاِذَا جَاءَ رَعْدُ اُولٰٓئِهٖمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا اُولٰٓئِ بَاسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا

خَلَّلَ الدِّيَارَ وَكَانَ وَقْدًا مَقْعُولًا ﴿٥﴾

(مسودة الإسراء)

إذن فالحق هنا لم يأت بذكر المسجد في أول مرة . فكيف يكون دخولنا المسجد إذن ؟ . لقد دخلنا المسجد الأقصى أول مرة في الامتداد الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه . والمسجد الأقصى أيام عمر بن الخطاب لم يكن في نطاق بني إسرائيل ، ولكن كان في نطاق الدولة الرومانية ، فدخولنا المسجد أول مرة لم يكن نكايه فيهم . ولكن الحق جاء بالمرّة الثانية هنا والمسجد في نطاق سيطرة بني إسرائيل :

﴿ وَلَبَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

سنكون نحن إذن عبادة للذو البأس الشديد الذين سندخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة ، وجاء الحق سبحانه بالمسجد هنا ؛ لأن دخول المسجد أول مرة لم يكن إذلالاً لليهود ، فقد كانت السلطة السياسية في ذلك الزمن تتبع - كما قلنا - الدولة الرومانية .

ويضيف الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَيَسِّرُوا مَاعَلَوْا تَقِيْرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وحق تشر ما يعلونه - أى نجعله خراباً - لا بد أن تمر مدة ليعملوا في البنيان .

وعلمنا أن نعد أنفسنا لنكون عبادة لله لنعيش وعد الآخرة وقد جعلها الله وعداً تشريعياً ، فإذا عدنا عبادة لله فسندخل المسجد ونشر ما علوا تقيراً ، والحق سبحانه وتعالى في آيات سورة المائدة التي نحن بصدد خراطتها عنها يأتى بملقطة عن بلاغه لسيدنا موسى بعد خروجه مع قومه من مصر ، فقال :

﴿ يَنْقَرُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْمِدُوا عَنْ أَدْبَارِكُمْ ﴾

﴿ فَتَقْلِبُوا خَسِيرِينَ ﴾

(سورة المائدة)

وقلنا إن الكتابة هنا تشريعية وليست كونية ، فلو كان الأمر كونياً لدخلوا الأرض

المقدسة بدون عقبات وبدون صراع وبدون قتال . والدليل على أن الكتابة تشريعية هو قوله الحق : « ولا تترعدوا على أديباركم فتقلبوا خاسرين » أى أنكم إن ارتدعتم على أديباركم انقلبتم خاسرين . فإن أطعتم الله ودخلتم الأرض دون إديبار ، فستدخلون الأرض ، وإن لم تفعلوا فلن تدخلوها . إذن ليست كتابة الأرض هنا كونية ، ولكنها تشريعية .

وقوله الحق : « ولا تترعدوا على أديباركم » يشرح لنا طبيعة مواجهة الخصم ، فالإنسان حين يواجه خصمه فهو يواجهه بوجهه . فإن فرّ الخصم من أمامه فهو يولى أديباره . والتولى على الأديبار يكون على لونين : لون هو الإديبار من أجل أن ينحرف الإنسان إلى جماعة وفئة لتشتد قوتهم ويقفوا على هزيمة العدو أو يصنع مكيدة ؛ لمعيد مواجهة الخصم ، ولون آخر وهو الفرار وذلك مذموم ، ومن المعاصي الموبقات المهلكات . وفي ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِدُورِهِ إِلَّا مُتَحَرِّقًا لِّفِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ قَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ

مِّنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالارتداد على الأديبار ليس مذموماً إن كان من أجل حيلة أو صنع كمين للعدو . وفي هذه الحالة لا بأس أن يرتد الإنسان ، أما خلاف ذلك فهو مذموم . وهل الارتداد على الأديبار رجوع بالظهر إلى الوراء مع الاحتفاظ بالوجه في مواجهة الخصم ؟ أو هو التفات بالوجه ناحية الدبر وفرار من العدو ؟ كلا الأمرين يصح . وقد جاء الأمر إلى بنى إسرائيل بعدم القولر ليدخلوا الأرض فإذا كان موقفهم مادامت الكتابة لهذا الأمر تشريعية ؟

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَآلَن

نَدْخُلُهَا حَقًّا يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا

فإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾

كيف إذن يعلنون هذا التمرد على أمر الحق ؟ وكيف علموا أن فيها قرماً
جبارين ؟ ولنا أن نتنبه إلى أن الحق قد قال من قبل :

﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة المائدة)

فقد ذهب النقباء أولاً ونجسوا ونقبوا وعرفوا قصة هذه الأرض المقدسة ، وأن
فيها جماعة من العمالة الكنعانيين . وساعة رأوا هؤلاء القوم ، قالوا لأنفسهم : هل
سنستطيع أن نقاوم هؤلاء الناس ؟ إن ذلك أمر لا يصدق ، لذلك لن ندخلها ماداموا
فيها . إذن فقد تخاذلوا وارتدوا على أديبارهم . « قالوا يا موسى إن فيها قرماً
جبارين » .

وساعة أن تسمع كلمة « جَبَّار » تجددها أمراً معنوياً أخذ من المحسات ، فالجبارة
هي النخلة التي لا تطوها يد الإنسان إذا أراد أن يجني ثمارها . وعندما تكون ثمار
النخلة في متناول يد الإنسان حين يجني ثمارها فهي دانية القطف ، أما التي لا تطوها
يد الإنسان لحظة الجني للثمار فهي جَبَّارة ، لذلك أخذ هذا المعنى ليعبر عن الذي
لا يقهر فسمى جبّاراً ، وقد يكون الجبار مكرهاً ولكن على الإصلاح ، وفي بلادنا
نطلق على من يصلح كسور العظام « المجبرات » .

أي أنه يجبر العظام على أن تعود إلى مكانها الطبيعي . وقد يتألم الإنسان من
ذلك ، ولكن في هذا إصلاح لحياة الإنسان . و « الجَبَّار » اسم من أسماء الله ، لأنه
سبحانه يُقَهَّر ولا يُقَهَّر . وقد يُكرهنا سبحانه وتعالى حتى يصلحنا . ويختبرنا
بالابتلاءات حتى يمحسنا وتستوى حياتنا .

إذن فـ « الجبار » صفة كمال في الحق لأنه يستعمل جبروته في الخير ويقهر الظالمين
والمعانددين والمكابرين ، وذلك لمصلحة الأخيار الطيبين . وهو سبحانه وتعالى
لا يُقَهَّر . فعندما يكون في صف جماعة فإن أحداً لا يغلبهم ، أما الجبار كصفة في
الخلق فهي مذمومة ، لأن التجبر هنا بدون أصالة كالبناء الأجوف . فالتجبر قد
يصبه قليل من الصداق فيرقد متوجعاً .

إننا نرى أمثلة لذلك في حياتنا ، نجد المتجبر يصاب بأزمة قلبية فيحمل على نقالة

إلى المستشفى ، ونجد جباراً آخر يصاب بقليل من النفس ، فيجربى وهو ممسك ببطنه فيضحك عليه الأطفال . ويقولون له ما معناه : العيب بعيداً فلست جباراً ولا فتوة ولا أى شيء . والجبار إن أراد أن يكون كذلك فعليه أن يكون صاحب رصيد مستمر ، فلا تراه يوماً غير جبار . ولا يكون التجبر صفة ذاتية إلا لله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » وساعة نسمع « لن » تسبق الفعل فلنعرف أنها للنفى . والنفى قد يأخذ زمناً طويلاً ، وقد يأخذ زمناً تأييدياً . والفرق بين الدخول فقط والدخول التأييدى ، أن الدخول الأول له زمن ينهيه ، والدخول الثانى لا زمن له لينهيه كدخول المؤمنين الجنة .

وإذا عين الدخول بغاية كفولهم : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » أى أن النفى التأييدى مرتبط بغاية وهى خروج القوم الجبارين . والتأييد هنا إضافى لأنهم قالوا : إنهم لن يدخلوا الأرض فى مدة وجود الجبارين .

« فإن يخرجوا منها فإن داخلون » ونقول : وهل الأمم التى تخطو إلى الشر وتمارسه تمتنع فيها وجود عناصر الخير ؟ لا ، لأن الحق يبقى بعضاً من عناصر الخير حتى لا ينطمس الخير ، وهذا ما يوضحه الحق فى بنى إسرائيل عندما قالوا لموسى هذا القول ، فقد خالفهم رجلا ن منهم :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

حق الفهم ؛ لأنهم لو تفننوا أمر الله لهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ولم ينكسوا
لكنهم الله من ذلك . لكن لم يفهم عن الله فيها إلا رجلا ن . وهما كالب ،
ويوشع بن نون ، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط افرايم ، وهما ابنا يوسف
عليه السلام ، فقد قالا : مادام الله قد كتب لكم الدخول ، فهو لا يطلب منا إلا قليلاً
من الجهاد .

فحين يأمر الله الإنسان بعمل من الأعمال ، فيكفيه أن يتوجه إلى العمل المجاهداً
والمعونة من الله . وسبحانه يقول للعبد :

(أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني . فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ،
وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى بشير تقربت إليه
فراعاً ، وإن تقرب إلى فراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)^(١) .

فإذا كان الشأن في المشي أن يتعب الذاهب والسائر ، فله لا يريد أن يرهق بالمشي
من يقصده ويطلبه ؛ لذلك يُهرول فضله ورحمته - سبحانه - إلى العبد . فالرغبة
الأولى أن يكون العمل لك أنت أيها العبد . ومن عظام فضل الله أنه فعل ونسب
إليك . وسبحانه يسعد بالعبد الساعي إليه . وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى -
لتفترض أنك أردت أن تملك سيفاً ، لماذا لا تحمل المسألة ؟ السيف الذي تمسكه ،
صنعت من الحديد ، والحديد استخرجته من الأرض .
والحق قال :

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)
إن الحق هو الذي أنزل الحديد ، وهو الذي علمنا كيف نصقل الحديد ونشكله
بالنار :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْمِلَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

وأنا أريد من علماء وظائف الأعضاء أن يحددوا لنا ساعة أن يمسك الإنسان بشيء وليكن السيف . فبأي عضلة يمسك الإنسان السيف ؟ وكيف يأمرها الإنسان بذلك ؟ . وكم عضلة وكم خلية عصبية تحركت من أجل أداء هذا الفعل ؟ . هل الرغم من أن الإنسان بمجرد إرادته أن يمسك شيئاً . فهو يمسك به . والإنسان إذا ما مشى خطوة واحدة ، فبأي العضلات بدأ المشي .

إن الإنسان عندما يحرك ذراعاً آلياً في جهاز آلي ، يصمم عشرات الوصلات والأدوات والدورات الكهربائية من أجل تحريك ذراع آلي ، فكيف إذن من عضلات في الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة ؟ إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة . إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك لمجرد الإرادة منه ١١ . فإذا كانت إرادة الإنسان تفعل لمجرد أن يريد سواء أكانت هذه الإرادة هي الإمساك بالسيف أم حتى المشي لخطوة واحدة ، أم حتى الإمساك بالقلم بين الأصابع للكتابة . فليعلم الإنسان أن الإرادة عطاء من الله والإنسان لا يستطيع تحديد مواقع إرادته من جسده فما بالنا بالحق حين يريد أمراً ؟

ولنعد إلى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها الآن :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّمْ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابُ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢)

(سورة المائدة)

لقد أنعم الله على هذين الرجلين بحسن الفهم عن الله ، فقالا لبني إسرائيل : ساعدوا أنفسكم بدخول هذه الأرض وسينصركم الله . ومثل الرجلين كمثل الأم التي تطلب منها ابنتها أن تدعوه بالنجاح ، فقالت الأم لابنتها : ساعدوكم ولكن عليك فقط أن تساعد الدعاء بالإقبال على الاستذكاري . وكأن الخوف من مخالفة أمر الله نعمة على هذين الرجلين ، وكأن الفهم عن الله لعباراته نعمة .

« ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » كأنهم بمجرد الدخول سيغلبون هؤلاء المعالقة . فلم يطلب الله منهم قتال هؤلاء المعالقة . بل ساعة يراهم القوم الجبارون يدخلون عليهم فجأة فسوف يذهلهم الرعب .

وهم عندما نسجوا الأساطير حول هذه القصة قالوا : إن أحد هؤلاء العمالقة واسمه عوج بن عناق خرج إلى بستان خارج المدينة ليقطف بعض الثمار لرئيسه ، فخطف اثنين من هؤلاء الناس وجباها في كمنه ، وألقاهما أمام رئيسه وهو يقدم الفاكهة إليه وقال الرجل العملاق لرئيسه : هذان من الجماعة التي تريد أن تدخل مدينتنا . هذه هي المبالغة التي صنعها خوفهم من هؤلاء العمالقة ، برغم أن رجلين منها أحسنا الفهم عن الله بقولها : « ادخلوا عليهم الباب » ، لأن هذا هو مراد الله ، وهو الذي يحقق لهم النصر .

وبعض المفسرين قالوا في شرح هذه الآية : إن الرجلين اللذين قالوا ذلك ليسا من بني إسرائيل ، لأن هؤلاء المفسرين فهموا القول الحكيم : « قال رجلان من الذين يخافون » قالوا هما رجلان من الذين يخاف منهم بنو إسرائيل ، وقالوا لبني إسرائيل : لا يُخيفكم ولا يُرهبكم عظم أجسام هؤلاء فإن جنود الله ستصركم :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

ويختتم الحق الآية بهذا التنزيل : « وعلم الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أي لا تتوقفوا عند حساب العدد في مواجهة العدد ، والعلة في مواجهة العلة ، ولكن احسبوا الأمر إيماناً لأن الله معكم « إن تصبروا الله ينصركم » .

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ جُنَدْنَاهُمْ لَغَالِبُونَ ﴾

(سورة الصافات)

وعلم المؤمن بالله أن يضع هذا الإيمان في كف قوته . فإن كان هؤلاء الناس من بني إسرائيل المأمورين بدخول تلك الأرض مؤمنين بحق فليتوكلوا على الله .
فهاذا قال هؤلاء القوم :

﴿ قَالُوا أَيُّمُوسَىٰ إِنَّا لَنَنذِرُكُم بِآيَاتِنَا وَلَكِنَّا نَحْنُ غَالِبُونَ ﴾

فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا

قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾

كان خلاصة قولهم لموسى عليه السلام : لا ترهق نفسك معنا ووفر عليك جهتك
فنحن لن ندخل هذه الأرض ، مادام هؤلاء العمالة فيها . وإن كنت مصراً على
دخولنا هذه الأرض فاذهب أنت وربك فقاتلا ونحن بانتظاركما هنا قاصدون . هكذا
بلغ بهم الخوف أن سخرُوا من موسى ورب موسى . وهكذا وصل بهم الاستهزاء إلى
تلك الدرجة المزرية . ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليهم فقد قالوا من قبل :

﴿لَرَأَى اللَّهُ جَهْرَةَ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

ومن قبل ذلك أيضاً عبدوا العجل . فماذا يقول موسى :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ

بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وكان هارون أخاً لموسى عليه السلام ومُرسلاً مثله ؛ فكان موسى عليه السلام قد
أعلن عدم ثقته في هؤلاء القوم الذين أرسله الله إليهم ؛ حتى ولا يوشع بن نون
ولا كالب ، وهما الرجلان اللذان قال لبنى إسرائيل : إنه يكفي دخول الباب لنهزموا
هؤلاء الناس العمالة . لكن أكانت نفس أخيه مملوكة له ؟ أم أنه قال ما فحواه : إني
لا أملك إلا نفسي وكذلك أخى لا يملك إلا نفسه ، أما بقية القوم فقد سمعت منهم
يلرب أنهم لن يدخلوا هذه الأرض مادام بها هؤلاء العمالة . إذن فانا وأخى في طرف
وبقية القوم في طرف آخر ؛ لذلك افصل بيننا وبين هؤلاء القوم الفاسقين .

والحق سبحانه وتعالى في هذا التعبير القرآني يأتي بهذه الكلمات على لسان سيدنا

موسى والى تحمل أن يرق لها قلب واحد من أتباع موسى عليه السلام فيقول لموسى :
 إننى معك . ولذلك جاء قول موسى : « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » . ومعنى
 الفاسقين - كما عرفنا - هم من خرجوا عن الإيمان ، كما تفسق الرطبة ؛ فالبلحة
 عندما ترطب فإن قشرتها تتسع عن حجمها ؛ فتخرج الرطبة من قشرتها ؛ ويقال
 فسقت الرطبة ؛ فكان الإيمان كالجلد والجلد كالقشرة . وهو كغلاف يحيط
 بالإنسان . وعندما يفسق الإنسان عن الإيمان فهو يخرج عن قانون الصيانة ، وكذلك
 كان فسق بنى إسرائيل ؛ لذلك قال الحق :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ
 فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦)

فهل كان التحريم مدته أربعون عاما ؟ أو أنه قال : « إنها مُحَرَّمَةٌ عليهم » وانتهى
 الأمر لأنهم تابوا على أن يدخلوها ؟ . ولذلك فكل الذين قالوا : « لن ندخلها أبدا
 ماداموا فيها » لم يحش منهم أحد ليدخل هذه الأرض . وبعد ذلك صدر الحكم
 الآتى : « أربعين سنة يتيهون فى الأرض » فهل هذا القول هو استئناف للقول السابق
 فيكون ظرفاً لـ « مُحَرَّمَةٌ » . أو هو حكم منفصل ؟ .

تصح هذه ، وتصح تلك . والته هو كما نقول : فلان تاه أى سار على غير
 هدى ولا يعرف لنفسه مديلاً ولا مخرجاً ، والواحد عندما يدخل فى مجال متشعب
 المسالك ومتعرج الطرق ، فهو لا يعرف كيفية الخروج منه ، هذا هو الته . ولكن
 كم فرسخاً هى مساحة الته ؟ . حددها العلماء بستة فراسخ [والفرسخ قدر ثلاثة
 أميال] . كيف يتيهون فى تلك المساحة الضيقة من الأرض ؟

لقد أراد الله ذلك ؛ لأنهم ساءة بمشون ويدهقون فينامون ويأتى عليهم الصباح
 ليجدوا أنفسهم عند النقطة التى بدأوا منها ، وكانوا يضعون العلامات لإيضاح
 الطريق ، لكنهم كل صباح كانوا يجهلون العلامات قد انتقلت من مكانها . وظلوا

على هذا الوضع وفي هذا التيه إلى الأمد والوقت الذي حدده الله وهو أربعون سنة يتيهون في الأرض . وحين يؤدب الله عاصياً يحفظ له من القوت والرزق ما يبقى به حياته ولو كان كافراً؛ لأنه سبحانه هو الذي استدعاهم إلى الوجود، ولهذا لم يضمن عليهم في التيه بما لم يضمن به على الكافرين به سبحانه .

إذن حفظ الحياة أمر ضروري . وعندما يرتكب إنسان ما ذنباً كبيراً في حق المجتمع فإننا نضعه في السجن ، ولكننا نطعمه ونسقيه ، وعندما يرتقى المجتمع الإنسان ، فهو يوفر للسجين عملاً يتناسب مع مواهبه ويحبس عنه حرية الحركة في المجتمع ، والسجين المذنب يظل في السجن ، ولكنه يأكل ويشرب وينام ويعمل ، فقط تختلف المسألة في النقطة المهمة في الحياة وهي أن يتحرك المتحرك وفق حرته ، فما بالنا بالحق الأعظم عندما سجنهم في التيه ؟ لقد أطعمهم الله وسقاهم وأنزل عليهم المن والسلوى .

وقد يقول قائل : إن الله قد أنزل عليهم المن والسلوى ليعيشوا كسالى وخرقى في التكبر والفور . ونقول : لا . فذلك الإجراء الإلهي من ضمن حكمه البالغة أن يطيل عليهم الوقت . فلو أنه سبحانه وتعالى قد جعلهم يزرعون ويحراثون لانشغلوا بأمور الحياة اليومية ، لكن الحق أراد أن يطيل عليهم الإحساس بالزمن . فالمسألة ليست طعاماً وشراباً . ولكن هناك كرامة فوق الطعام وفوق الشراب .

إننا نرى ذلك عندما نسمع عن اعتقالات لبعض الأفراد الذين أسلموا للمجتمع . وتسمع لهم السلطات بالطعام الذي يأتيهم من منازلهم . ولكن هؤلاء المعتقلين يشعرون بالضيق من تقييد الحركة . إذن أراد الحق لهم عقاباً صارماً في فترة التيه . ولذلك نجد بعضهم بحسب المسألة والزمن في فترة التيه ، فيقول الواحد منهم ما ذكره الحق :

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ رَفَمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمٍ ﴾

وبعد أن رحل موسى عن القوم عبدوا العجل الذى صنعه لهم موسى السامرى ، وعاد إليهم موسى وعاتب أخاه هارون العتاب الفاسى ، وعاقبهم ربهم حل كفرهم أربعين سنة . كان كل يوم من عبادة العجل صار سنة من العقاب فى التيه . ولأنه رُب ورحيم لم يتركهم دون أن يحفظ لهم حياتهم بالقوت ، فكان القوت هو المَن والسلوى . هل كان موسى عليه السلام معهم فى التيه أم لا ؟ وهل مات معهم فى التيه أم لا ؟ تلك أسئلة لا نهمنا الإجابة عنها بالرغم من أن بعض العلماء قد شغلوا أنفسهم بها ، فذلك أمور لا تنفع ولا تضر . المهم أن بنى إسرائيل لم يدخلوا أريحا إلا على يد يوشع بن نون بعد الأربعين سنة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَهْلِي فَاغْفِرْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٥) قَالَ فَلَمَّا نَظَرْنَا عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٦) (سورة المائدة)

ولنا أن نقرأ هذا القول الحكيم كما يلى : « قال ربِّ إني لا أملك إلا نفسى وأهلى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فلما نَحَرْمَةُ عَلَيْهِمْ » . وهذا الوقف يعطينا الفهم بأن الأرض المقدسة صارت مُحَرْمَةً عَلَيْهِمْ إِلَى الْأَبَدِ . وبعد ذلك يأتى أمر الله بعقابهم فى التيه أربعين سنة : « أربعين سنة يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » . أما لو قرأنا هذا القول الحكيم كما يلى : « قال ربِّ إني لا أملك إلا نفسى وأهلى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فلما نَحَرْمَةُ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » فهذه القراءة تتيح لنا الفهم بأن مدة العقوبة هؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة فى التيه . ودخلوا بعدها مدينة أريحا .

ويأمر الحق موسى ألا يحزن على هؤلاء القوم الفاسقين ، ذلك أن موسى عليه السلام عندما دعا الله بقوله : « فافرق بيننا » انتابه قدرٌ من الضيق من هذا الدعاء وقال لنفسه : لماذا لم أدع لهم بالهداية بدلاً من أن أدعو بالفراق ؟ ، ولذلك قال له الحق : « فلا تأس على القوم الفاسقين ، أى فلا تحزن عليهم لأنهم أولى بالعذاب لنفسهم ومخالفتهم .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتُذِلَّ مِنَ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

وساعة يتلو الإنسان - أى يقرأ - فهو يتكلم بترتيب ما رآه من صور؛ ذلك أن الإنسان عندما يرى أمراً أو حادثة فهو يرى المجموع مرة واحدة ، أو يرى كل صورة مكونة للحدث منفصلة عن غيرها . وعندما يتكلم الإنسان فهو يرتب الكلمات ، كلمة من بعد كلمة ، وحرفاً من بعد حرف ، إذن فالمتابعة والتلاوة أمر خاص بالكلام . « واتل عليهم نبأ ابن آدم بالحق » ، والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر . ولكن النبأ هو الخبر اللافت للنظر . مثال ذلك قوله الحق :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾

(سورة النبا)

إذن فكلمة « نبأ » هي الخبر المهم الشديد الذى له وقع وأثر عظيم .

« واتل عليهم نبأ ابن آدم بالحق » وساعة نسمع قوله الحق : « بالحق » فلنعلم أن ذلك أمر نزل من الحق فلا تغيير فيه ولا تبديل . ولذلك قال سبحانه :

﴿وَالْحَقِّ أَزَلَّتْهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أى أن ما أنزل من عند الله لم يلتبس بغيره من الكلام ، وبالحق الجامع لكل أوامر الخير والنواهي عن الشر نزل . وعندما يقول سبحانه : « واتل عليهم نبأ ابن آدم بالحق » فسبحانه يحكى قصة قرآنية تحكى واقعة كونية . ومادام الله هو الذى يقص فهو سيأتى بها على النموذج الكامل من الصدق والفائدة . ولذلك يسميه سبحانه « القصص الحق » :

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾

(من الآية ٦٢ سورة آل عمران)

وَيُسَمِّيه سبحانه :

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾

(من الآية ٣ سورة يوسف)

وسبحانه يقول : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » ونعرف أن آدم هو أول الخلق البشري ، وأن ابني آدم هما هابيل وقابيل ، كما قال المفسرون . وقد قرب كل منهما قرباناً . والقربان هو ما يتقرب به العبد إلى الله ، وه « قربان » على وزن « فعلان » . فيقال : « كَفَر كُفْرَاناً » وه « غَفَر غُفْرَاناً » . وهي صيغة مبالغة في الحدث . وهل قَدِم الاثنان قرباناً واحداً ؛ أم أن كلا منهما قَدِم قرباناً خاصاً به ؟ مادام الحق قد قبل من واحد منهما ولم يتقبل من الآخر فمعنى ذلك أن كلا منهما قَدِم قرباناً منفصلاً عن الآخر ؛ لأن الله قبل قربان واحد منهما ولم يتقبل قربان الآخر .

وه « القربان » مصدر . والمصادر في التثنية وفي الجمع وفي التذكير والتانيث لا يتغير نطقها أو كتابتها . فنحن نصف الرجل بقولنا : « رجل عدل » وكذلك « امرأة عدل » وه « رجلان عدل » وه « امرأتان عدل » وه « رجال عدل » وه « نساء عدل » . إذن فالمصدر يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . ونعلم أن آدم هو أول الخلق الأدمي ، وجاءت له حواء ؛ وذلك من أجل اكتمال زوجية التكاثر ؛ لأن التكاثر لا يأتي إلا من ذكر وأنثى :

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فكل موجود أراد له الحق التكاثر فهو يخلق منه زوجين .

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ونرى ذلك حين نقوم بتلقيح النخلة من طلع ذكر النخل . وهناك بعض الكائنات لا نعرف لها ذكراً وأنثى ؛ إما لأن الذكر غير موجود تحت أعيننا ، ولكن يوجد على بعد والرياح هي التي تحمل حبوب التلقيح :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

فتأتى الرياح بحبوب التلقيح من أى مكان لتخصب النبات ، وإما أن الذكورة والأنوثة يوجدان معاً فى شيء واحد أو حيز واحد ، مثال ذلك عُود الذرة ؛ حيث نجد ذكوره وأنوثة فى شيء واحد ؛ فقمة العود فيها الذكورة ويخرج من كل « كوز » ذرة قلداً من الخيوط الرفيعة التى نسميها « الشوشة » . وهذه هي حبال الأنوثة . وينقل الهواء طلع الذكورة من سبلة الذرة إلى « الشوشة » ، وكل شعرة تأخذ من حبوب اللقاح كفايتها لتنضج الحبوب ، وعندما تلتصق أوراق كوز الذرة ولا تسمح بخروج الخيوط الرفيعة لحبال الأنوثة ، ولا تصلها حبوب اللقاح ، فيخرج كوز الذرة بلا نضج وبلا حبوب ذرة . وعندما تمسك بكوز الذرة وتفتحه قد نجد بعضاً من حبوبه ميتة وهى تلك التى لم تصلها حبوب اللقاح ؛ لأنها لم تملك خيطاً من الحبال الرفيعة لتلتقط به حبوب اللقاح . وحبّة الذرة التى لم يخرج لها خيط رفيع لا لتقاط حبوب اللقاح لا تنضج . إذن فكل شيء فيه الذكورة والأنوثة .

﴿ سُبْحَنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

وكذلك قوله : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) .

وكل ما يقال له شيء لا بد له من ذكر وأنثى ، حتى المطر لا بد أن يلقح فلولم يتم تلقيح المطر بالذرات لما نزل المطر ، وحتى الحصى فيه ذرات موجبة وذرات سالبة . وعندما اخترعنا الكهرباء واكتشفنا الموجب والسالب ارتحنا . إذن فعندما يقول الحق :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١١)

(سورة الذاريات)

وقوله سبحانه :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يس)

(سورة يس)

وهذا قول علم للعرب ، فلم يكونوا من قبل القرآن أمة علم .

وقد أوصل القرآن كل العلم للعرب حتى فاقوا غيرهم ، عندما أدخلوا بأسباب
الله ، لكن عندما تراخوا وواصل غيرهم الأخذ بالأسباب تقدمت الاكتشافات ،
وهذه الاكتشافات نجدها مطمورة في القرآن :

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ﴾ (سورة يس)

(سورة يس)

إذن فكل ما يحدث ويكتشف من شيء فيه موجب وسالب أي ذكورة
وأنوثة ، يدخل في نطاق :

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

والإنسان سيد الوجود لا بد له من زوجين ذكر وأنثى وذلك للتكاثر لا للإيجاد ،
أما الإيجاد فهو لله سبحانه وتعالى الذي أوجد كل شيء من لا شيء . وعندما جاء آدم
وحواء وبدأ اللقاح والتكاثر أخذ عدد سكان الأرض في النمو . ولو أننا رجعنا
بالأنسال في العالم كله رجعة متأخرة نجد العدد يقل إلى أن يصل إلى آدم وحواء .
مثال ذلك لو عدنا إلى الوراء مائة عام لوجدنا تعداد مصر لا يتجاوز خمسة ملايين
نسمة على الأكثر ، ولو عدنا إلى الوراء قرونًا أكثر فإن التعداد يقل ، إلى أن نصل إلى
الخلق الأول الذي خلقه الله وهو آدم وخلق له حواء . فالإنسان بمفرده لا يأن
بنسل .

إذن عندما نجرى عملية الإحصاء الإنسالي في العالم ونرجع بها إلى الوراء ، نعود

إلى الخلق الأول . وكذلك كل شيء متكاثر سواء أكان حيواناً أم نباتاً . وعندما نسير بالإحصاء إلى الأمام فإننا سنجد الأعداد تتزايد ، وتكون القفزة كبيرة . وعندما يبلغنا الحق أنه خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منها رجالاً كثيراً ونساءً ، فإن علم الإحصاء إنما يؤكد ذلك . والتكاثر إنما يأتي بالتزاوج . والتزاوج جاء من آدم وحواء . وأراد الحق أن يرزق آدم بتوائم ليتزوج كل توأم بالتوأم المخالف له في النوع من الحمل المختلف . أى يتزوج الذكر من الأنثى التي لم تولد معه في بطن واحدة .

وجاء ربنا لنا بهذه القصة كي يبين لنا أصل التكاثر بياناً رمزياً . أوضح سبحانه : أن التباعد الزوجي كان موجوداً ، ولكنه التباعد الإضافي ، صحيح سيكون هذا الولد أخاً للبنت هذه ، وهذه البنت أخته ؛ لكن حين تكون مولودة مع هذا ، وتأتي بطن ثانٍ فيها ذكر وأنثى ، فسيكون فيها بُعد إضافي ، فتتزوج البنت لهذا البطن بالذكر في البطن الثاني . والذكر للبطن الثاني للبنت في البطن الآخر ، وهذا هو البعد الإضافي الذي كان متاحاً في ذلك الوقت ؛ لأن العالم كان لا يزال في بداية طفولته الواهية .

ونلاحظ مثل هذا الأمر في الريف ، حين يقول فلاح لآخر : « الذرة بتاعك خايب » ، يقول الفلاح الثاني : إني آخذ من الأرض التي أخذت منها الذرة وأعطيها تقاوى منها ، فأنا قد زرعت فداناً من ذرة ، وأحجز كيلتين أو ثلاثاً أستخدمها تقاوى لأزرعها ، فتخرج الذرة ضعيفة ، فيقول الفلاح الناضج : يا شيخ هات من ذرة جارك . فيكون ذرة جاري فيه شيء من البعد . وبعد ذلك تصير النوعية واحدة ، فيقول الفلاح الناضج : هات من بلد أخرى . وبعد ذلك من بلد ثالثة ، ولذلك فالتهجين والتكاثر كيف نشأ ؟ من أين نأى بالتقاوى ؟ كلما جثنا بها من الخارج يكون الناتج قوياً .

كذلك التزاوج ليكون في هذه الزوجية مواهب ، ولذلك فطن العرب قديماً لها ، ومن العجيب أن هذا العرب البدوي الذي لم يشتغل بثقافة ولم نعرف له تعلماً ولا علماً ، يبتدى إلى مثل هذه الحقيقة اهتماماً يجعلها قضية عامة فطرية . ويريد أن يمدح رجلاً بالفتوة ، فيقول عنه :

فنى لم تله بنت حم فيضوى وقد يضوى سليل الأقارب

كيف احتدى هذا الشاعر لهذه ١٩ وبعد ذلك يقول:
تجاوزت بنت العم وهي حبيبة إلى
خافة أن يضوى على سليلها
أي هو يحبها ، لكنه تجاوزها ، حتى لا يضوى سليلها .

ولذلك يقول الشاعر في هذه القضية :
أنصح من كان بعيد المم
تزوج أولاد بنات العم
فليس ينجو من ضوى وسقم

الشاعر العربي الذي ليس في أمة مثقفة ولا تعرف التهجين ولا تعرف هذه
الاشياء ، انتبه إلى هذه المسألة ، كيف ؟ إما أن يكون قد احتدى إليها في واقع الكون
فوجد أن زواج القريبات ينشئ نسلًا ضعيفاً ، وإما أن يكون ذلك من رواسب
الديانات السابقة القديمة والعظمت الأولى التي ظل الإنسان محتفظاً بها ، فإذا أراد الله
أن يبدأ تكاثر فلا بد أن يتزوج أخ بائنة ، ولكن سبحانه يريد أن نتباعد ، نعم أخ
وانعت لكن نتباعد فنأخذ البطن المختلف ، ولذلك حينما جاءوا لينسبوا قصة ابني آدم
قابيل وهابيل ، صحيح اختلفوا . مثلاً : « سفر التكوين » تكلم ، ونحن نأخذ من
« سفر التكوين » لأن التغير فيه لا يهمهم . فقد كان التغير في المسائل التي تهتمهم ،
كمسألة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما المسائل الأخرى لا تهتم ، ومع ذلك
ففيها أيضا الكثير .

إنهم يقولون : إن هابيل هو أول قتل في الإنسانية وقتله « قابيل » وبعض
القصص تقول : لم يكن يعرف كيف يميتة أو يقتله ، فالشيطان مثل له بأنه جاء بطير
ووضع رأسه على حجر ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسه حتى قتله ، فعلمه كيف
يقتل ، مثلما سأتى الغراب ويعلمه كيف يدفن . أما مسألة كيف يقتل هذه لم تأت
عندنا ، إنما كيف يدفن فقد جاءت عندنا .

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ سَوْدَةُ أَخِيهِ ﴾

فهذا هو أول من توفى وقتل ، لكن كيف تقولون : إنه لم يكن يعرف القتل حتى جاءه الشيطان وعلمه كيف يقتل أخاه ؟ نقول : أنتم لم تتبهوا . فالحق قال :

﴿لَيْنَ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ
لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨)

قبايل - إذن - فاهم للقتل ، فلا تقل إنه تعلم القتل ، صحيح مسألة الدفن هذه جديدة ، والقصة جاءت لتثبت لنا كيف بدأ التكاثر ، ليجمع الله فيه بين الزوجين البعد الإضافي ، لأن البعد غير الإضافي غير ممكن في هذا الوقت فتكون هذه بالنسبة لهذا أجنبية ، وهذا بالنسبة لهذه أجنبي إلى أن يتوسع الأمر ، وبعد ذلك يُعاد التشريع بأن الأخت من أي بطن محرمة على أخيها محرماً أبدياً ، وبعد ذلك تتوسع في الأمر وننقله إلى المحرمات الأخريات من النسب والرضاع فلا بد أن لهذه القصة أصلاً . هم قالوا تقرب قرباناً .. لماذا ؟ إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر .

لماذا يريدان أن يُقرباً قرباناً ؟ قالوا: إن أخت قبايل التي كانت في بطن معه كانت حلوة وجميلة ، وأخت هابيل لم تكن جميلة ، فطبقاً لقواعد التباعد في الزوجية كان على هابيل أن يأخذ أخت قبايل ، وقبايل يأخذ أخت هابيل ، فحسد قبايل أخاه وقال : كيف يأخذ الحلوة ، أنا أولى بالحق هذه . وكان سيدنا آدم مازال قريب العهد بالوحي ، فقال : قربوا قرباناً وانظروا . لأنه يعلم جيداً أن القربان سيكون في صف التباعد . إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . وبعض المفسرين يقول : والله نحن لم نعرف طريقة التقبل هذه . نقول له : فلنبحث عن «قربان» في القرآن . ننظر ما هو القربان ؟ قد وردت هذه الكلمة في القرآن في أكثر من موضع . قال :

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

والحق يقول لهم رداً عليهم :

﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِى بِآلِىِّنَتٍ وَّيَأْتِى قُلُومٌ ﴾

(من الآية ١٨٢ سورة آل عمران)

« وبالنزى قلتم » ما هو ؟ إنه القربان الذى تأكله النار . إذن كان القربان معروفاً والاحتكام إلى قربان وتأكله النار علامة التقبل من السماء ويكون صاحبه هو المقرب ، والقربان فى مسألة هابيل وقابيل لكى يعرف كل منهما من يتزوج الحلو ومن يتزوج الاخرى . وتقبل الله قربان هابيل . لكن أرضى المهزوم ؟ لا ، بل خسده ، وهذا أول تاب على مرادات الحق فى تكليفه . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقالت لنا القصص : إن هابيل كان صاحب ضرع أى ماشية وبذلك يكون عنده زبد ولبن وجبن ، وحيوانات للحم ، والثانى صاحب زرع ، وقالوا : إن قابيل قدّم شيرار زرعه ، وهابيل قدّم خيار ماشيته . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . « قال لأقتلك » وسبحانه قال : « أحدهما » ولم يقل قابيل أو هابيل ، « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . فقله : « قال لأقتلك » من الذى قال ؟ الذى قال هو من لم يتقبل قربانه ، لأنه لم يحقق مراده وخرضه .

« قال لأقتلك قال إنما يتقبل الله من المتقين » . وهل هذا الرد مناسب لقوله : « لأقتلك » ؟ نعم ، لأن « لأقتلك » بسبب أن قربانك قبل وقربان لم يقبل . قاله فما دخل أنا بهذه العملية ؟ الدخول فى العملية للقابل للقربان ، فأنا ليس لى دخل فيها ، وربنا لم يتقبله لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين . وهو يعلم أنك لست بمتي ، فلن يتقبل منك لأنك تأييت عن حكاية الزواج بابتة البطن المخالف ، وهذا أول تمرد على منهج الله وعلى أمره لذلك قال هابيل : لا تلمنى فأنا لا دخل لى فى القربان المتقبل ، لأن هذا من عند الله . والله لم يظلمك ، لأن ربنا يتقبل من المتقين . وأنت لست بمتي ، لأنك لم ترضَ بالحكم الأول فى أن تبعد البطن « إنما يتقبل الله من المتقين » .

﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ

الْعَالَمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

(سورة المائدة)

وكلمة « البسط » ضد « القبض » ، وهناك : « بسط له » ، « بسط إليه » .

ونجد « بسط له » كان البسط لصالح المبسوط له .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ۖ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

ولم يقل : « إلى عباده » بل قال : « لعباده » ، إذن فالبسط لصالح المبسوط له ولذلك لا يكون إلا في الشر ، وشرحنا من قبل هذه المسألة في قوله الحق :

﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكَ أَيْبِهِمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

إذن فالذي يسط لك يعطيك نفعا والذي يسط إليك يكون النفع له هو .

« لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بيأسط يدي إليك لاقتلك » . ويثبت « لتقتلني » مدلول « إلى » . والعلة لا عجز عن مقابلة قوتك بقوة « لا » ، وإنما لأنني أخاف الله ، فليس في هذا تقصير في الدفاع عن نفسي لأنني أريد أن أحتبك نحنينا يرجعك إلى صوابك . وساعة يأتي واحد يريد أن يقتل واحداً يقول له : والله لن أقاتلك لأنني أخاف ربنا .

إذن فينبى له أن خوفه من الله مسألة مُستقرة في الذهن حتى ولو كانت ضد استبقاء الحياة ، وقد يعرفها في نفسه لأن أخاه كان يستطيع أن يقدم دفاعاً قويا ، لقد ردة الأمر إلى الحق الأهل . فلا تفل كان هابيل سلبياً لا . إنه صعد الأمر إلى الأقوى . ويقول الحق :

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ أَيَّتُهَا الْوَيْلُ لَكَ وَبِئْسَ مَا تَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ

النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾

« نبوء » أى ترجع من صفقة قتل بأن تحمل إثم تلك القعلة وتنال عقوبتها .

« وإثمك » وكذلك الإثم الذي كان من أجله أنك أردت أن تقتلني ؛ لأنك تأييت على المنهج ، حين لم يتقبل ربنا قربانك . فقد أثمت في عدم قبولك التباعد المطلوب في الزوجة . إذن فأنت عندك إثتان : الإثم الأول : وهو رفضك وعدم قبولك حكم الله ومنهجه وهو الذي من أجله لم يقبل الله قربانك ، والإثم الثاني : هو قتل وأنا لا أدخل لي في هذه المسألة ؛ لأن الظالم لا بد أن يأخذ جزاءه .

إن هابيل يقول : « إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك » لم يتمن أن يكون أخوه عاصياً . بل قال : إن كان يعصى بيوه بإثمي ويأخذ جزاءه ؛ فيكون قد غنى وأراد له أن يعود إلى العقاب ويناله إن فعل وهو لا يريد أن يفعل .

« إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » وجزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سعارات الظلم من الظالمين ؛ لأن الحق لو تركها للأخرة لاستشري الظلم ، والذي لا يؤمن بالأخرة يصبح مخترفاً للظلم ، ولذلك قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى ضرب لنا ذلك المثل في سورة « الكهف » حينما ذكر لنا قصة ذى القرنين : الذي آتاه الله من كل شيء سبباً فاتبع سبباً ، وبعد ذلك بين لنا مهمة من أوق الأسباب واتبع الأسباب « وجعل قضيته في الأرض لعبارة الكون وصلاحه ، وتأمين المجتمع . ماذا قال :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الكهف)

هذا في رأى العين ، فعين تكون راكباً البحر . ترى الشمس تغرب في الماء ، هي لا تغرب في الماء ؛ لأن الماء هو نهاية امتداد أفقك .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾

﴿ قُلْنَا يَذَّكِرُكَ الْفَرِيقَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد خبره : إما أن تعمل هذا وإما أن تعمل ذاك .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ذلك هو القانون الذي يجب أن يسير في المجتمع . حتى لا أترك لمن لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالآخرة أن يستشري في الظلم . فلنأخذ عقابه في الدنيا .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أي قبل الآخرة لهم عذاب-ولذلك حين يرى الناس مصراع الظلم ، أو ترى الحمية التي حدثت له فهم يأخذون من ذلك العظة ، وجعلنا نحن عاصر ظالمين كثيرين نكل بعضهم ببعض ؛ ولو مكن المظلومون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض ، ولراد الحق أن يجري عذابهم أمانا لتضح المسألة .

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ولا ينتهي أمره بذلك ، وبعد ذلك يُرد لمن ؟ يُرد الله :

﴿ ثُمَّ يَرْدُّكَ رَبُّكَ بِرَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

يعني عذاب الدنيا؛ إن عذابها سيكون محتملا لأنه عذاب منوط بقدرة العاجزين ، إنما العذاب في الآخرة فهو بقوة القادر الأعلى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨ ﴾

(سورة الكهف)

تلك هي مهمة الله القوى المتين : إن الذي يظلم يضربه على يده ، والذي يحسن عمله يعطيه الخواطر .

والحق يقول هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ

مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

ولا يقال : طوعت الشيء إلا إذا كان الشيء متائيا على الفعل ، فلا تقل : أنا طوَّعت الماء ، إنما تقول : طوَّعت الحديد ، وقوله : « فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ » فهل نفسه هي التي ستقتل وهي نفسه التي طوَّعت ؟

ولنتبه هنا أن الإنسان فيه ملكتان اثنتان ؛ ملكة فطرية تُحب الحق وتُحب الخير ، وملكة أهوائية خاضعة للهوى ، فالملكتان تتصارعان .

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ » كان النفس الشريرة الأهوائية تغلبت على الخيرة . فكان هناك تجاذبا وتصارعا وتندافعا ؛ لأن الإنسان لا يجب الظلم إن وقع عليه . لكن ساعة يتصور أنه هو الذي يظلم غيره فقد يقبل على ذلك .

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ » إنه لا يزال فيه بقية من آثار النبوة ؛ لأنه قريب من آدم ، ولا تزال المسألة تتأرجح معه ، والشر من الأخيار ينحدر ، والشر في الأشرار يصعد . فقد تأذى لرجل طيب وتثير أعصابه فيقول : إن رأيت لأضربه رصاصة أو أصفعه صفعتين ، أو أوبخه ، والشرير يقول : والله إن قابلك أبصق في وجهه ، أو أضربه صفعتين ، أو أضربه رصاصة . إذن فالشر عند الشرير يتصاعد ، ويحد العملية لا تكفي للغضب عنده فيصعدها . إنما نفس الخير تُنفس عن غضبها وبعد ذلك ينزل عنها بكلمة ، ولذلك نلاحظ في سورة سيدنا « يوسف » :

﴿ إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

والعجيب أنهم جاءوا بالتعليل الذي ضلَّهم ؛ كي يعرفك أن الهوى والغضب والحسد والحقد تغلب الموازين ، « ونحن عُصبة » هذه تدل على أنهم أقوياء . وهي التي جعلت أباء يعقوب يعطف على الصغير . أنتم تقولون : « ليوسف وأخوه أحب

إلى أبنائنا منا « نعم ، لأنه صغير ، وسألوا العربى : مالك تُحب الولد الصغير ، قال :
لأن أيامه أقصر الأيام معى ، البكر مكث معى طويلاً ، فلما أعرض للصغير الأيام التى
فاتته ببعض الحب وأعطيه بعض الحنان ، قولهم : « نحن عُصبة » هذه ضدهم ، بما
يدل على أن الرجل ساعة تختلط عليه موازين القيم ، يأتى بالحجة التى ضده ويظن
أنها معه ! وبعد ذلك يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَنِي ضَلَّلٌ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

واتفقوا . فبدأوا بقولهم :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

وقالوا :

﴿ لَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

ولأنهم أسباط وأولاد يعقوب تنازلوا عن القتل والطرح فى الأرض وقال قائل
منهم :

﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْمُ فِي غِيبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يوسف)

وهل يرتب أحد النجاة لمن يكرهه ؟

كان النفس مازال فيها خير ، فلولا قالوا : « اقتلوا يوسف » هذه شدة الغضب . أو
« اطرحوه أرضاً » يطرحوه أرضاً فقد يأكله حيوان مفترس ، فقال واحد : نلقيه فى
غياية الجب ويلتقطه بعض السيارة ، إذن فالأخير تتنازل .

« فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » . ونعرف الخسران فى
قضية التجارة ؛ لأن هناك مكسباً وهناك خسارة ، وه مكسب « أى جاء رأس المال

بزيادة عليه « وه الخسارة » أى أن رأس المال قد قُل ، فلماذا قتل أخاه وكان أخوه الوحيد وكان يأنس به في الدنيا ؟ إن هذا حدث من حكاية البنت . فقد أراد أن يأخذ أخته الخلوة ويترك الأخرى ، ولما قَدما القربان ولم يقبل منه تصاعد الخلاف وقتل أخاه ، إذن فَفقد رأس المال ، بينما كان يريد أن يكسب « فأصبح من الخاسرين » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ
كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلتُ أَعْجَزْتُ
أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَ أَخِي
فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

ونعرف السوءة وهي ما تتكره النفس . وهي من « ساء ، بسوء ، سوءا » أى يتكره ، وسمينا « الغورة » سَوْءة ؛ لأنها تتكره .

« فبعث الله غراباً يبحث في الأرض » . هل بعث الله حتى يرى قابيل كيف يوارى سوءة هابيل ، أم أن الغراب هو الذى سيقول له ؟ كلا الأمرين متساو ؛ لأن ربنا هو الذى بعث ، فإن كنت تنتظر للوسيلة القريبة فيكون الغراب ، وإن كنت تنتظر للوسيلة الباعث يكون هو الله ؛ فالمسألة كلها واصله الله ، وأنت حين تنسب الأسباب تجدها كلها من الله .

« قال يا ويلتى » . ساعه تسمع كلمة « يا ويلتى » يكون لها معنيان في الاستعمال : المعنى الأول للويل : هو الهلاك ، وإن أردنا المبالغة في الهلاك نأى بتاء التائيه ونقول : ويلة ، ولذلك عندما نحب أن نبالغ في وصف عالم نقول : فلان عالم وفلان عَلام وفلان عَلامَة ، وتأتى التاء هنا لتؤكد المعنى ، إذن فالويل : الهلاك ، و« ويلة » تعنى أيضا الهلاك ، وماذا تعنى « يا ويلتى » ؟

إننا نعرف أن النداء يكون بـ « يا » فكيف تُنادى الويل والهلاك ؟ وهل يُنادى غير العاقل ؟ نعم ، يُنادى ؛ لأنه مادام « الويل » و « الويلة » : الهلاك . كأنك تقول : أنا لم أعد أطيق ما أنا فيه من الهم والغم ، ولا يُخلصني فيه إلا الهلاك ، يا هلاكى تعال فهذا وقتك ! إذن فقوله : « يا ويلتى » يعنى يا هلاك تعال ، والمتنبى فطن لهذه المسألة وقال :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكرن أمانيا

فأى داء هذا الذى تقول فيه : يارب أرحمنى بالموت !! إذن فالذى يراه من يتنادى الهلاك هو أكثر من الموت . المعنى الأول : أنك تنادى الهلاك أن يحضر ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ فَمَا فِيهِ وَیَقُولُونَ یَتَوَلَّاتُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا یُبَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

إنهم يتمنون الموت ؛ وكذلك قال قاييل : « يا ويلتى » .

وهل تأتیه الويلة عندما يطلبها ؟ لا ، فقد انتهت المسألة وصار قاتلاً لأخيه .

والمعنى الثانى : أن تأتى « يلويلتنا » بمعنى التمتع من أمر لا تعطيه الأسباب ، وهناك فرق بين عطاء الأسباب وبين عطاء المُسَبَّب . فلو ظل عطاء الأسباب هو المُتَحَكِّم فى نواميس الكون ، لكان معنى هذا أن الحق سبحانه قد زاول سلطانه فى مُلكه مرة واحدة ، وكأنه خلق الأسباب والنواميس وتركها تتحكم ونقول : لا . فبطاقة القدرة خلقت الأسباب ، وهى تأتى لتثبت ذاتية القدرة وقیومیته ، فيقول الحق حينها يشاء : توقى يا أسباب .

إذن فهناك أسباب وهناك مُسَبَّب . والأمر العجيب لا تعطيه الأسباب . وحين لا يعطى السبب يتعجب الإنسان ، ولذلك یُردُّ الأمر إلى الأصل الذى لا يتعجب منه . وها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما جاءه الضيوف وقدم لهم الطعام

ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ونفر منهم ولم يأنس إليهم وأوجس منهم خيفة .
ويقول الحق عن هذا الموقف :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَحْزَنْ ۖ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ ۝٢٨ ۚ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ ﴾

(سورة النازعات)

وقال الحق أيضاً في هذا الموقف :

﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ نَتْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَّرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ ﴾

(سورة هود)

وهنا قالت امرأة سيدنا إبراهيم :

﴿ يَتَوَلَّىٰ آلَهُ الْأُدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة هود)

أى أن الأسباب لا تعطى ، وردت إلى المسبب . (اتعجبين من أمر الله) ؟ كان لك أن تتعجبين من الأسباب لأنها تعطلت ، أما حين تصل الأسباب إلى الله ، فلا عجب .

وقال سيدنا زكريا عليه السلام مثل قولها : فحين رأى السيدة مريم وهو الذى كفّلها ، وكان يحىء لها بمطلوبات مقومات حياتها ، وفُوجئ بأن عندها رزقا من طعام وفاكهة . فسألها :

﴿ يٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا ۖ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

كيف يقول لها ذلك ؟ لا بد أنه رأى شيئا عندها لم يأت هو به ، وهنا ردت عجيبة لتنبيهه بالحقيقة الخالدة :

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

ويشاء الحق أن نقولها سيدتنا مريم وهي صغيرة السن ، وكأنها تقول ذلك كتمهيد ؛ لأنها - كما قلنا سابقا - ستعرض لمسألة لا يمكن أن يحلها إلا المسبب ، فسوف تلد بدون رجولة ، وهي مسألة عجيبة ، لذلك كان لا بد أن تفهم هي وأن تنطق :

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة آل عمران)

وكان الحق ينشأ ضمناً بأن عليها أن تتذكر أنها هي التي قالت هذه الكلمة ؛ لأن المستقبل سوف يأتي لك بأحداث تحتاج إلى تذكر هذا القول . وهي التي تُذكر سيدنا زكريا عليه السلام بهذه الحقيقة . ولنر دقة إشارة القرآن إلى الموقع الذي ذكرت له مريم فيه تلك الحقيقة :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

كأن ساعة سمع هذه المسألة قرر أن يدعو الله بأمنيته في المحراب نفسه . وهل كان سيدنا زكريا لا يعرف تلك الحقيقة ؟ كان يعرفها ، ولكن هناك فرق بين حكم يكون في حاشية الشعور ، وبين حكم يكون في بؤرة الشعور .

وقول مريم لزكريا : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » جعل القضية تنتقل من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

لماذا لم يدعُ ربه من البداية ؟ كان سيدنا زكريا سائراً مع الأسباب ورتابة الأسباب قد تذهل وتشتغل عن المسبب ، وعندما سمع من مريم : « يرزق من يشاء بغير حساب » أراد أن يدخل من هذا الباب ، فدعا ربه ؛ وبشره الحق بأنه سيأتي له بذرية ، وتمعجب زكريا مرة أخرى من هذا الأمر شارحاً حالته :

﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة آل عمران)

ومادمت يا زكريا قد دعوت الله أن يهبك الذرية وقفزت قضية رزق الله لمن يشاء من حاشية شعورك إلى بؤرة شعورك . فقد جاء أمر الله :

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

إذن فلا بحث في الأسباب والسيئات . فهي إرادة الله . ويوضح الحق حيثيات « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ويأتيك بالولد ؛ فيقول سبحانه :

﴿ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

وكل هذه مقدمات من مريم ومن سيدنا زكريا الكفيل لها ؛ ذلك أن سيدنا زكريا سوف يكون عنصراً شاهداً عندما يأتيها الولد من غير أب وتلد ، وهو كفيل لها ، وهو الذى سيتعرض لهذا الأمر .

ولماذا كل هذا التمهيد ؟ لأن خرق الأسباب وخرق التواميس وخرق السنن إنما حدث في أمور أخرى غير العرض ، لكن عند مريم سيكون ذلك في العرض وهو أقدس شيء بالنسبة للمرأة ، لذلك لابد من كل هذه التمهيدات . إذن ، هو أمر عجيب لكنه ليس بعجيب على الله .

وها هو ذا قابيل يقول : « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب » كان عملية الغراب أظهرت لقابيل أنه لم يعرف شيئاً يفعله الطائر الذى أمامه ، فها هى ذى مسألة يفعلها غراب ولا تفعلها أنت يا قابيل ، لقد امتلكت قدرة لتقتل بها أخاك ، لكنك عاجز أن تفعل مثل هذا الغراب . فقابيل لا يقوها - إذن - إلا بعد أن مرَّ بمعنى نفسى شديد قاسٍ على وجدانه .

لقد قدر على أخيه وقتله وهو لم يعرف كيف يواريه ، بينما عرف الغراب كيف يوارى جثة غراب آخر . وهكذا أصبح قابيل من النادمين « فأصبح من النادمين » .

إن علينا أن ننتبه إلى الفارق بين « ندم » و« ندم » . وهى سبيل المثال : هناك إنسان قد جرؤ على حدود الله وشرب الخمر بالنقود التى كان عليه أن يشتري بها طعام

الأسرة . وعندما عاد إلى منزله ووجد أهله في انتظار الطعام ، ندم لأنه شرب الخمر ، فهل كان ندم الرجل على أنه عصى الله ، أو ندم لأنه لم يشتر الطعام لأهله ؟ . لقد ندم على عدم شراء الطعام وذلك ندم مرفوض ، ليس من التوبة .

وقد يكون هذا الشارب للخمر قد ارتدى أفخر ثيابه وخرج فشرب الخمر ووقع على الأرض ، وهنا ندم لأن شرب الخمر أوصله إلى هذا الحال ؛ فهل ندم لأنه عصى ربه ؟ . أو ندم لأنه صار مُزَاقاً بين الناس ؟ . وكذلك كان ندم قابيل ، لقد ندم على خيئته ؛ لأنه لم يعرف ما عرفه الغراب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾

نجد الحق قال: إنه قد كتب على بني إسرائيل ما جاء بهذه الآية من قانون واضح ؛ لأن معنى كلمة « من أجل » هو « بسبب » ؛ و « أجل » من أجل شرا عليهم بأجله ، أي جنى جناية ؛ أي من جريرة ذلك .

أو من هذه الجناية شرعنا هذا التشريع : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . إذن فساعة تسمع « من أجل » فاعرف أنها تعنى « بسبب ذلك » أو « بوقوع ذلك » أو « بجريرة ذلك » أو « بهذه الجناية كان ذلك » .

ولكن هل هذا الكُتب خاص ببني إسرائيل ؟ . بعض العلماء قال: إن ابني آدم ليس ابني آدم مباشرة ؛ ولكنها من ذرية آدم وهما من بني إسرائيل . ونرد : من هو إسرائيل أولاً الذي نُسب إليه أبناء إسرائيل ؟ . إنه يعقوب بن إسحاق ؛ بن إبراهيم ، وإبراهيم يصل إلى نوح بأحد عشر أباً ويصل نوح إلى شيث . وبعد ذلك إلى آدم ؛ فهل كانت كل هذه السلسلة لا تعرف كيف تدفن الميت إلى أن جاء بنو إسرائيل ؟

طبعاً لا ؛ ومادام الحق أوضح أنه سبحانه قد بعث غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يُوارى سَوْدَةُ أخيه ، فهذا دليل على أن هابيل هو أول إنسان تَمُ دفته ، ومن غير المقبول - إذن - أن نقول: إن الإنسان لم يعرف كيف يوارى جثمان الميت إلى أن وصلت البشرية إلى زمن بني إسرائيل ، وأنهم هم الذين علموا البشرية ذلك !

ولماذا جاء الحق هنا ببني إسرائيل ؟ . سبب ذلك أن بني إسرائيل اجترأوا لا على قتل النفس فقط بل اجترأوا على قتل النفس الهادية ، وهي النفس التي تحمل رسالة النبوة ، ولذلك كان التخصص ، فقد قتلوا أنبياءهم الذين حملوا لهم المنهج التطبيقي ؛ لأن الأنبياء يأتون كمنهاج تطبيقية للمناهج حتى يلفتوا الناس إلى حقيقة تطبيق منهج الله . الأنبياء - إذن - لا يأتون بشرع جديد ؛ ولكنهم يسرون على شرع من قبلهم . فلماذا قتل بنو إسرائيل بعضاً من الأنبياء ؟ لقد تولدت لدى بني إسرائيل حفيظة ضد هؤلاء الأنبياء .

ونعلم أن الإنسان الخير حين يصنع الخير ويراه الشرير الذي لا يقدر على صناعة الخير فتولد في نفس الشرير حفيظة وحقد وغضب على فاعل الخير . ففاعل الخير كلما فعل خيراً إنما يلدغ الشرير ، ولذلك يحاول الشرير أن يُزيح فاعل الخير من أمامه . وكان الأنبياء هم القدوة السلوكية ، وقد قال الحق عن بني إسرائيل :

﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾

(من الآية ٩١ سورة البقرة)

وجاء الحق هنا به من قبل هذه الحكمة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عداوة مع اليهود ، وقد نهب عليهم الخواطر الشريرة فيحاولون قتل النبي .

وقد حاولوا ذلك . مثلما أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ، ودسُّوا له السم ، ولذلك قال الله : « من قبل » أى إن قدرتكم على قتل الأنبياء كانت في الماضي ؛ أما مع محمد المصطفى فلن تُحْكُنُوا منه .

ويقول سبحانه : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . وهذا توضيح لإرادة الحق في تأسيس الوحدة الإيمانية ليُجعل من المجتمع الإيمان رابطة يوضحها قول رسول الله فيما رواه أبو موسى الأشعري عنه :

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .

وإياك أن تنظر إلى مجترىء على غيرك ، بالباطل ، وتقف مكتوف اليدين ؛ لأن الوحدة الإيمانية تحمل المؤمنين جميعاً كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . فإن قتل إنسان إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيماني موقف العاجز . فهذا إفساد في الأرض ، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفساً واحدة ، بل كأنه قتل للناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد في الأرض .

ويكمل الحق سبحانه الشق الثانى من تلك القضية الإيمانية : « ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً » ، وهذه هي الوحدة الإيمانية ، فمن يعتدى على نفس واحدة بريئة ، كمن يعتدى على كل الناس ، والذي يسعف إنساناً في مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً .

وفي التوقيع التكليفى يكون التطبيق العمل لتلك القاعدة ، فالذى يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويعذبه الله ، وكأنه قتل الناس أجمعين ، وإن نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد .

« ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً » . وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيمان مجترئاً بباطل على حق إلا أن يقف كل المجتمع أمامه ، فلا يقف

المعتدى عليه بمفرده ، لأن الذى يُجرى أصحاب الشر هو أن يقول بعض الناس كلمة « أنا مالى » .

وهـ الأنا مالية ، هى التى تُجرى أصحاب الشرور ، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود والثور الأحمر والثور الأبيض ، فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمح له بأكل الثور الأبيض . واحتال الأسد على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر ، وجاء الدور على الثور الأسود ؛ فقال للأسد :

- أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلِ الثور الأبيض . كان الثور الضف إلى أن « أنا ماليته » جعلته ينال مصرعه . لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه .

وهاهنا الحديث النبوى الشريف الذى يمثل القائم على حدود الله والواقع فيها :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » (١) .

كذلك مثل القائم على حدود الله ومثل الواقع فيها ، فكان الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظر إلى أن نفساً قتلت نفساً بغير حق ، ولكن انظر إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً ؛ لأن الناس جميعاً متساوون فى حق الحياة . ومادام القاتل قد اجترأ على واحد فمن الممكن أن يجترأ على الباقين .

أو أن يكون فعله أسيء لغيره ، ومادام قد استن مثل هذه السنة ، سنجد كل من يغضب من آخر يقتله ، وتظل السلسلة من القتل والقتل تتوالى .

(١) رواه البخارى فى الشركة والشهادات ، ورواه الترمذى فى الفتن . ورواه أحمد فى مسنده .

والحديث النبوي يقول :

« من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

إنه الاحتياط والدقة والفيد : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض » ولو كان التشريع تشريعاً بشرياً فمرت عليه هذه المسألة يمكن أن يستتركها بعد ذلك بشرح أو تعديل ، ولكن المشرع الأعلى لا يستترك .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض » . فكان من قتل نفساً بنفس أو بفساد في الأرض ، لا يقال عليه : إنه قتل الناس جميعاً ، بل أحياء الناس جميعاً ، لأن التجريم لأي فعل يعنى مجيء النص الموضح أن هذا الفعل جريمة ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة . ولا يمكن أن تأتى لواحد ارتكب فعلاً وتقول له : أنا أؤاخذك به وأعاقبك عليه بغير أن يوجد نص بتجريم هذا الفعل .

وهناك توجد قاعدة شرعية قانونية تقول : « لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم » . أى أننا نرتب العقوبة على الجريمة ، أو مائة يُجرّم فعل يُذكر بجانب التجريم العقوبة ، فهل القصد هو عقاب مُرتكب الجرم ؟ لا إنما القصد هو تفضيع العقاب حتى يراه كل إنسان قبل أن يرتكب الجريمة ، والمهدف هو منع الجريمة ، ولذلك نجد الحكمة البشرية القائلة : « القتل أنفى للقتل » ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن ترقى تلك الحكمة إلى قول الحق :

﴿ وَلَكَرَّ فِي الْفَصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأَوَّلُ الْاَلْبَبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

لأننا يمكن أن نتساءل : أى قتل أنفى للقتل ؟ . وسنجد أن المقصود بالحكمة ليس القتل الابتدائي ولكن قتل الاقتصاد . وهكذا نجد الأسلوب البشري قد فاتته اللوحة الفعالة في منع القتل الموجودة في قوله الحق : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً » . وكلمة « أحيأها » لها أكثر من معنى . وبالتحديد لها معنيان : المعنى الأول : أنه أبقي فيها

الروح التي تحرك المادة ، والمعنى الثاني : إحياء الروح الإيمانية ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنعام)

ولنا أن نلتفت إلى أن الحق وضع الفساد في الأرض مُستحقاً لعقوبة القتل . والفساد هو إخراج الصالح عن صلاحيته ، والمطلوب منا إيماناً أن الأمر الصالح في ذاته علينا أن نبقه صالحاً ، فإن استطعنا أن نزيده صلاحاً فلنفعل وإن لم نستطع فلنتركه على صلاحه .

ولماذا جاء الحق بعقاب للفساد في الأرض ؟ . مدلول الأرض : أنها المنطقة التي استخلف الحق فيها البشر ، وساعة يقول الحق : « أو فساد في الأرض » فمعنى ذلك أن كل فساد عائد على كل مظروف في الأرض . وأول مظروف في الأرض أو السيد لها هو الإنسان . وعندما نفسد في الإنسان ، فهذا معناه قتل الإنسان .

إذن لا بد أن يكون الفساد في أشياء أخرى : هي الأكوان أو الأجناس الأخرى ؛ الحيوانات والنباتات والجمادات . والفساد في هذه الكائنات يكون بإخراجها عن مستحوزها ملكية ، كأن تسطو جماعة على بضاعة إنسان آخر ، أو أن يأخذ واحد ثمار زرع لأحد ، أو أن يأخذ بعضاً من إنتاج منجم منجنيز أو حديد أو خلافه .

إن الفساد نوعان : فساد في الأرض وهو متعلق بالمظروف في الأرض ، والمظروف في الأرض سيد وهو الإنسان ، والفساد فيه قتله أو أن تُسبب له اختلالاً في أمنه النفسي كالقلق والاضطراب والخوف . ونلاحظ أن الحق سبحانه قد اهتم على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

إذن فمن الفساد تفريق الناس وترويعهم وهو قسبان : قسم تُفَرِّق فيه من لك عنده ثار أو بينك وبينه ضغينة أو بغض ، أو أن تُفَرِّق قوماً لا علاقة بينك وبينهم ولم يصنعوا معك شيئاً . فمن يعتدى على إنسان بينه وبينه مشكلة أو عداوة أو بغضاء ، لا نُسَمِّيه خارجاً على الشريعة ؛ بأخذ حقه ، ولكنه لا يستوفى في حقه بيده بل لا بد

من حاكم يقوم بذلك كي ينضبط الأمر ويستقيم ، إنه يخرج على الشريعة فقط في حالة العدوان .

أما الذي يذهب للاعتداء على الناس ولم يكن بينه وبينهم عداً ؛ فهذه هي الحرابة . كأن يخرج ليقطع الطريق على الناس ويغيب كل من يلقاه ويُسبب له القلق والرعب والخوف على نفسه وماله ، والمال قد يكون من جنس الحيوان أو جنس النبات أو جنس الجهاد . وذلك ما يسميه الشرع حرابة وستاق لها آية مخصوصة .

إذن . فالفساد في الأرض معناه إخراج صالح عن صلاحه مظروف في الأرض ، والمظروف في الأرض سيده الإنسان ، والإفساد فيه إما بقتله أو إهاجته وإشاعة الرعب فيه ، وإما بشيء مملوك له من الأشياء التي دونه في الجنسية مثل الزروع أو النباتات أو الحيوانات . فكان الفساد في الأرض - أيضاً - يؤهل لقتل النفس :

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . أي أن القتل بغير إفساد في الأرض ؛ هو القتل الذي يستحق العقاب . أما القتل بإفساد في الأرض فذلك أمر آخر ؛ لأن هناك فرقاً بين أن يُقتل قصاصاً أو أن يقتل حداً من المُشرع ؛ وحتى عفو صاحب الدم عن القاتل في الحرابة وقطع الطريق لا يشفع في ذلك ولا يسقط الحد عن الذي فعل ذلك ؛ لأنها جريمة ضد المجتمع كله .

ويتابع سبحانه : « ولقد جاءهم رُسُلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون » والمُسرف هو المتجاوز للحد ، وهو من لا يأخذ قدر تكوينه وموقعه في الوجود ، بل يحاول أن يخرج عن قدر إمكاناته في الوجود .

مثال ذلك : رجل حاول أن يسطو على حق غيره في الوجود ؛ متخطياً منزلة الاعتدال فلا يأخذ حقه فقط . مثل قطاع الطريق أو النهابين يأخذون عرق غيرهم وتعودوا أن يعيشوا كذلك وبراحة . والمصيبة لا تكون في قاطع الطريق وحده ، ولكن تتعداه إلى المجتمع . فيقال : إن فلاناً يجلس في منزله براحة وتكفيه ساعة بالليل يسرق الناس .

إن الأمر لا يقف عند حدود ذلك الإنسان إنما يتعداه إلى غيره . ويحيا من

يملك مالا في رُعب ، وعندما يُفجع في زائد ماله ، يفقد الرغبة في أن يتحرك في الحياة حركة زائدة تُنتج فائضاً لأنه لا يشعر بالأمن والأمان . وعندئذ يفقد العاجز عن الحركة في المجتمع السند والعون من الذي كان يتحرك حركةً أوسع . إذن من رحمة الله أنه فتح أمام البشر أبواب الآمال في التملك ، مادام السعى إلى ذلك يتم بطرق مشروعة .

ونضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - : الرجل المراهي الذي يُقرض محتاجاً مائة جنيه ، كيف يطلب المراهي زيادة بمن لا يجد شيئاً يقيم به حياته ؟ إنه بذلك يكون قد أعطى من وجد أزيد مما أخذ منه مع فقره وعجزه . إن ذلك هو الإسراف عينه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا
أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ
يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

أول شيء في الحرب هو الاستيلاء ؛ فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أي يرغبون في الاستيلاء على خيرات أو ممتلكات الطرف الآخر . فكيف يحارب قوم الله وهو غيب ؟ . وأول حرب لله هي محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريعه . فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرع أنت على غير منهج الله فأنت تريد أن تستولي على حق الله في التشريع . وهذه أول حرب لله .

والذين يحاربون الله أهم الذين يريدون أن يستولوا على ملك الله ؟ لا ؛ لأن يد الله في ملكه أزلا ، وستبقى أبداً وسبحانه لن يسلمه لأحد من عباده . فعل ماذا

- إذن - يريدون الاستيلاء ؟ . إنهم يريدون تزييف تشريعات الله ، بينما سبحانه هو المشرع وحده . والتشريع - كما قلنا - هو قانون صيانة للصنعة . إذن لماذا لا نترك خالق الإنسان ليضع القواعد التي تصون البشر ؛ لذلك فأول افتيات يفعله الناس أنهم يُشرعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان ، فإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان - الذي هو منه - قانون صيانة نقول له : إنك تستولي على حق الله .

وكيف يجاربون الرسول ؟ .

نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم له وضمان ؛ فالله غيب ؛ لكن الرسول كان شاهداً من مشاهدنا في يوم من الأيام ، وقد حارب بالسيف ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله ، فنأخذ سلطته في التشريع ، وهي السلطة الثانية ونقول لها : نحن سنشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول ، أو أن يقول نظام ما : سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما يتشر في بعض البلدان . ونقول لكل واحد من هؤلاء : أتؤدي الصلاة ؟ . فيقول : نعم . نسأله : كم ركعة صليت المغرب ؟ . فيجيب ثلاث ركعات . نسأله : من أين أتيت بذلك ؟ . ومن أين عرفت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهي لم تذكر في القرآن الكريم ؟ . هنا سيصمت .

ونسأله : كيف تخرج الزكاة وبأي حساب تحسبها ؟ فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف بالمائة في النقيدين والتجارة مثلاً .

نقول له : كيف - إذن - عرفت ذلك ؟ . وأيضاً كيف عرفت الحج ؟ . إذن فللرسول صلى الله عليه وسلم مهمة ، وحرب النبي تكون في ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه الصلاة والسلام .

ومثال ذلك هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة . ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها ، وكل كلام سمعته وأقره من غيره حديث ، وكل

فعل فعله غيره أمامه وأقره ولم يعترض عليه حديث ، فكم تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التي وصلتنا بعد قدر هائل من التنقية البالغة ؟ لأنهم قالوا : لأن نبعد عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يفعله . إنهم يدعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن قائمهم أن الله حافظ دينه . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع القواعد لغريبة الأحاديث فقال :

« من كذب على مُحمداً فليتبوأ مقعده من النار »^(١) .

وها هو ذا البخارى ينقل عن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذين قابلوه ، وسيدنا مُسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنها مظنة المقابلة وتحرى كل منهما الدقة الفائقة . وأى شخص كان به خدشة سلوكية لا يؤخذ بقوله . ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم : « أنا يكفيني أن أقول لا إله إلا الله » ، تساءلت : كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله ؟ وكيف يمكن أن يؤدي الأذان للصلاة ؟ وكيف يؤدي الصلاة ؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق :

﴿ وَمَا تَنْكُرُ الرَّسُولُ فَعْدُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهذا تفويض من الله في أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريع .

وكذلك الاجتراءات على الأئمة ، هم يجترئون أولاً على النبي ثم يزحفون على الدين كله . وجاء فيهم قول الحق : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً » أى يخرجون الصالح بذاته عن صلاحه ليكون فاسداً . الجزاء أن يُقتلوا أو يُصلبوا ، وهذا التفعيل في قوله : (أن يقتلوا أو يصلبوا) جاء للشدة والتفوية ، حتى يقف منهم المجتمع الإيمان العام موقف القائم على هذا الأمر ، والسلطة الشرعية قامت عن الجميع في هذا الأمر . كما يقال : إن النائب العام نائب عن الشعب في أن يرفع الدعوى ، حتى لا ينتشر التقتيل بين الناس ، دون أن يفقهوا حكمة كل أمر .

« أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن عبد كرم الله وجهه .

الأرض . وهل « أو » هنا تخبيرية ، أو أن هنا - كما يقال - « لف ونشر » ؟ واللف هو الطي . والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه .

فما اللف ، وما النشر - إذن - ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قلبي وجفني واللسان وخالقي ..

لقد ذكر مُتَعَدِّد ولكن الأحكام غير مذكورة ، هذا هو اللف ؛ فجمع المبتدئات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره ؛ ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه . فأكمل بيت الشعر بقوله :

راضٍ وباكٍ شاكِرٌ وغفورٌ

ولنقرأ البيت كاملاً :

قلبي وجفني واللسان وخالقي
راضٍ وباكٍ شاكِرٌ وغفورٌ

والحق يقول :

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فقوله : « لتسكنوا فيه » راجع إلى الليل . وقوله : « ولتبتغوا من فضله » راجع إلى النهار . وهنا جاء باللف ، ثم جاء بالنشر .

والفساد - كما نعلم - له صور متعددة ، فالفساد في الإنسان قد يعني قتله . أو قتله وأخذ ماله . أو الاستيلاء على ماله دون قتله . أو إثارة الرعب في نفس الإنسان دون أخذ ماله أو قتله . فكان كلمة الفساد طوى فيها ألوان الفساد ، نفس تقتل ، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ ، أو مال يؤخذ دون نفس تقتل ، أو تخويف وتفزع .

ويقول الحق : « أو ينفوا من الأرض » ، والنفى معناه الطرد والإبعاد ، والطرْد لا يَتَأَنَّى إِلَّا لِثَابِتٍ مُسْتَقَرٍّ ، وَالْإِبْعَادُ لَا يَتَأَنَّى إِلَّا لِأَمْتُمْكِنٍ . إذن ، فقبل أن يُنفى لا بد

أن يكون له ثبوت وثمَّن في موضع ما ، وهو ما نسميه اصطلاحاً السكن ، أو الوطن ، أو المكان الذي يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه . ومعنى ثابت فيه . أى له حركة في دائرته ، إلا أنه يأوى إلى مكانٍ مُستقر ثابت ، ولذلك سُمى مكاناً ؛ أى يسكن فيه من بعد تحركه في مجالاته المختلفة . ومعنى النفى على هذا هو إخراجُه من مسكنه ومن وطنه الذي اتخذهُ موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه . ولكن إلى أى مكان نُخرج إليه هذا الذي نحكم عليه بالنفى ؟ قد يقول قائل : أنت إن أخرجته من مكان أفسد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فساده !

لا ، لأن النفى لا يتيح له ذلك الإفساد ، ذلك أن التوطن الأول يجعل له إلفاً بجغرافية المكان ، وإلفاً بمن يخيفهم ؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يخيف فلانا وكيف يختصب بضاعة آخر وهكذا . ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه ، ومواطن الضعف فيهم . وعلى ذلك يكون النفى هو منعُ لإفساد الفاسد .

وحين يقول سبحانه : « أو ينفوا من الأرض » نعرف أن كلمة « الأرض » لها مدلول ونسعى الأرض الآن : الكرة الأرضية . وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه ، وبعد أن عرفنا أن جَوَّ الأرض منها صار جو الأرض جزءاً من الأرض . ولذلك قلنا في المقدسات المكانية : إن كل جو يأخذ التقديس من مكانه ؛ فجو الكعبة كعبة ؛ بدليل أن الذي يصل في الدور الثالث من الحرم ؛ ويتجه إلى الكعبة . يصل متجهاً إلى جو الكعبة . ومن يستقل طائرة ويرغب في إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة ، وعندما ازدحم الحجاج وصار المسعى لا يتسع لكل الحجاج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسمى الناس فيه . إذن فالمسعى ليس هو المكان المحدد فقط ، ولكن جوه أيضاً له قدسية ؛ فإن بنينا كذا طابقاً فهي تصلح أيضاً كمسعى .

إذن فجو الأرض ينطبق عليه ما ينطبق على الأرض . ولذلك كانوا يحرمون - قبل أن يوجد طيارون مسلمون - أن يُحْتَمَّ في جو الحرم طيار غير مسلم ؛ لأن الطيار غير المسلم محرم عليه أن يدخل الكعبة والحرم . ومادام هناك إنسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضاً ممنوع من الطيران في جَوَّ الكعبة .

لأن جَوَّ المكان يأخذ قُدسية المكان أو حكمه ؛ فالجَوَّ من الأرض ، ونعرف أن الغلاف الجوي يدور مع الأرض . ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه . ومادام القائل للقرآن هو الخالق للكون ، إذن لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية . وإنما يوجد التضارب من أحد أمرين : إما أن نعتبر الأمر الذي لا يزال في طور النظرية حقيقة في حين أنها لم تصبح حقيقة بعد ؛ وإما أن نفهم أن هذا حقيقة قرآنية ، عل الرغم من أنه ليس كذلك ، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق وحقيقة قرآنية بحق ، فلا تضارب على الإطلاق . ودليل ذلك على سبيل المثال قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

ويأتى العلم الحديث بالبحث والتحليل ، ويقول بعض السطحيين :

لا ، إن العلم يعرف ما في الرحم من ذكر أو أنثى . ونقول : نحن لا نناقش ذلك ، لأنها حقيقة كونية وهي لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية ؛ لكننا نسأل : متى يعرف العلماء ذلك ؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مضي مدة زمنية . ولكن الحق يعلمه قبل مرور أية مدة زمنية . ثم من قال : إن الحق يقصد به ويعلم ما في الأرحام ذكرًا أو أنثى فحسب؟ وهل للدلوها وجه واحد؟ لا ، بل له وجوه متعددة فلن يعرف أحد أن ما في الرحم سيكون من بعد إنسانًا طويلًا أو قصيرًا ؛ ذكياً أو غيبياً ؛ شقياً أو سعيداً ؛ طويل العمر أو قصير العمر ؛ حليماً أو غضوباً . فليإذا نحصر « ما » في مسألة الذكر والأنثى فقط ؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أولاً قبل أن يعلم أى عالم وقبل أن يحصل العالم على أية هيئة . ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملياً ما الذى تحمله في بطنها ؟ طبعاً لا ، ونحن لا نعلم ماذا في بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم . ثم هل تذهب كل النساء الحوامل في العالم لطبيب واحد ؟ بالطبع لا ، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما في كل الأرحام .

إذن فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأية حقيقة كونية ، لكن الصدام يحدث عندما

نفهم فيها خطأ أن الحقيقة القرآنية في قوله الحق : « ويعلم ما في الأرحام » مقصوده العلم بالذكر والأنثى فقط .

ومثال آخر ، يقول الحق :

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾

(من الآية ١٩ سورة الحجر)

ويُخطئ البعض الفهم عن الله فيظن أن المقصود بذلك أن الأرض بساط أمام الإنسان . وقد ثبتت للبشر حقيقة كونية هي أن الأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة ؛ وظهور أعالي الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك ، ثم صارت في عصرنا مشاهدة من الأقمار الصناعية . إذن هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها ، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية والفهم الصواب في مدلول الحقيقة القرآنية الخاصة بقوله تعالى : « والأرض مددناها » ؛ إننا كلما وقفنا في مكان نجد أرضاً ، أى أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

إذن فسبحانه قد مد الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار الإنسان في أى اتجاه ؛ يجد أرضاً . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية . لهذا كان الخطأ في فهم مدلول الحقيقة القرآنية ؛ لأن التضارب إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهي ليست كذلك ، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية على نحو خاطئ ، إنها لا تتعارضان ، فالقاتل هو الخالق عينه . ولهذا عرفنا متأخراً أن الجو من الأرض وأن الغلاف الجوى يدور مع الأرض ، وكنا نقول : سرنا على الأرض ، لكنه سبحانه قال وهو العليم :

﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الانعام)

وهو سبحانه علم أولاً أن الجو جزء من الأرض . فمهما سار الإنسان على اليابسة ففوقه الغلاف الجوى . إذن فالإنسان إنما يمشي في الأرض وليس على الأرض . أما إن سار الإنسان فوق الغلاف الجوى فهو يسير فوق الأرض .

ونعود إلى قوله الحق : « أو ينفوا من الأرض » وقد عرفنا أن النفى هو الطرد والإبعاد ، فأى أرض يتفون منها وإلى أى أرض ؟ ولا يكون الطرد إلا المستقر

ولا الإبعاد إلا لثابت . وحتى في اللغة نعرف ما يسمى النفى والإثبات . وكل ذلك مأخوذ من شيء جسي ، فعندما نأخذ الماء من البئر ننزل إلى قاع البئر دلواً ، وكل دلو ينزل إلى البئر له « رشاء » وهو الحبل الذي ننزل بواسطته الدلو .

إننا ساعة نُخرج الدلو من البئر ، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه . فهل لدينا حركة ثابتة نستطيع بها المحافظة على استطراق الماء إلى تمام حافة الدلو ؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن ؛ بل نجد قليلاً من الماء يتساقط من حواف الدلو ، وهذا الماء المتساقط يُسمى « النفى » ؛ لأننا لا نستطيع استخراج الدلو وهو ملآن لآخره بحركة ثابتة مستقرة بحيث نحافظ على استطراق الماء .

إن الماء - كما نعلم - له استطراق دقيق إلى الدرجة التي جعلت البشر يصنعون منه ميزاناً للاستواء . ومن « النفى » تؤخذ معان كثيرة ، فهناك « النفاية » وهي الشيء الزائد . إذن كيف يكون النفى من الأرض ؟ وهل نأخذ الأرض بفهومها العام أو بمعناها الخاص ؟ أى الأرض التي حدث فيها قطع الطريق ؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنفى يكون لأى أرض أخرى . وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النفى ؟ ونرى أن الحق سبحانه قد قال في موضع آخر من القرآن :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

هم بلا جدال يسكنون في الأرض . وجاء هذا القول لمعنى مقصود ، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تمييز مكان في الأرض ، كأن يقول قائل : « اسكن ميت غمر » أو « اسكن الدقهلية » أو « اسكن طنطا » ، وهذا تحديد لموقع من الأرض للاستقرار ، والمعنى المقصود إذن أن الحق يبلغنا أنه سيقطعهم في الأرض تقطيعاً بحيث لا يستقروا في مكان أبداً . وذلك مصداقاً لقول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمَا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

فليس لهم وطن خاص . وتمت بقتلهم في كل الأرض ، وهذا هو الواقع الذي

حدث في الكون . أُوْجِدَ لبني إسرائيل استقرار في أى وطن ؟ . لا . وحتى الوطن الذى أقاموه بسبب وعد بلفور لم يترك الحق أمره . بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسنوا العمل لاسترداده . ومازال اليهود بطبيعتهم شتاتاً في أنحاء الأرض . ولهم في كل وطن حق خاص بهم . وتحفظ كل جماعة منهم في أى بلد بذاتيتهم ولا يندوبون في غيرهم :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٥١ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين يأتى بهم الحق في الجولة الأخيرة سيأتون لفيفاً أى مجتمعين ، لأن الأمة المؤمنة حين يقويها الله لتضرب على هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مجتمعين . وكان الله قد أراد أن يكون هذا « الوطن القومى » حتى يتجمعوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيفاً ، لذلك لا نحزن لأنه قد صار لهم وطن ، فقد جاء بهم لفيفاً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصلدها . كيف يكون النفى من الأرض ؟ حين يريد الله تمييز مكان فهو يقول على سبيل المثال :

﴿ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن فقد نفى غيرها . وهو يقول أيضاً :

﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وكان المقصود بها مصر .

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فتحكمها حكم « اسكنوا الأرض » . والنفى هو صورة من صور العقوبات للإفساد ، والإفساد في الأرض يتقسم إلى أربعة أقسام : قتل ، قتل وأخذ مال ، أخذ مال فقط ، ترويع . وقد زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً وفعله في سيرته ، فقد جاء لنا بأمر جديد في أمر الإفساد . وكان على

العلماء أن يتنبهوا له ، فأول نفى حصل في الإسلام كان نفى رسول الله الحكيم بن أبي العاص من المدينة إلى الطائف ؛ لأن الحكم - والعياذ بالله - كان يُقْلَدُ بِمِثْيَةِ النَّبِيِّ باستهزاء ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفراً كأنما يتحذر من ضئيب . فقد كانت مشية النبي مشية خاصة . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحكم يقلد مشيته في استهزاء والنكتة النبي - ذات مرة - فجاءه ، فوجد الحكم يقلده في مشيته فتفاه من المدينة إلى الطائف ، وظل الحكم في الطائف طوال حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما جاءت خلافة أبي بكر الصديق ، ذهب أهل الحكم إلى أبي بكر ، فقال :

ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق . وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضى الله عنه حياً وخجولاً فقال : لقد أخذت كلمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم تحمل شبهة الإفراج عنه . ويفرج عنه عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وأثناء حياة الحَكَم في الطائف كان يرى بعض شُبهات وبعض غُنيات وكان يرعاها عند جيلات الطائف . وكان لهذه المسألة آثار من بعد ذلك . فأنتم تعلمون أن معاوية رضى الله عنه أنجب يزيد الذى تولى الخلافة من بعده . وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحَكَم .

وكان خالد بن يزيد الذي ترك الخلافة لمروان عالماً كبيراً في الكيمياء وله أخ اسمه عبدالله ، وكان لعبدالله جياذ يتسابق بها . وكان لولد من أولاد عبدالمالك بن مروان جياذ أيضاً ، وجرت جياذ عبدالله مع جياذ ابن عبدالمالك في مضمار سباق ، فلما جاءت خيل عبدالله لتسبق . . حدث خلاف بين عبدالله وابن عبدالمالك ، فنهز ابن عبدالمالك عبدالله ، فذهب عبدالله واشتكى لأخيه خالد . وهنا ذهب خالد لعبدالمالك بن مروان ، وقال له :

- لقد حدث من ابنك كذا وكذا . وكان عبد الملك فصيحا في العرب وما جربوا عليه لحنأ أبداً . ورعى أولاده على ألا يلمحوا في اللغة . وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون لحن .

فلما دخل خالد إلى عبد الملك أراد أن يحد فيه شيئاً يعيبه به ، قال عبد الملك لخالد : أتكلمني في عبادة وقد دخل على أنفأ فلم يخل لسانه من اللحن ؟

وقال خالد - معرضاً بالوليد - : والله يا عبد الملك لقد أعجبتني فصاحة الوليد . فقال عبد الملك : إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن . فقال خالد : وإن كان عبادة يلحن فإن أخاه خالد لا يلحن .

فقال عبد الملك : اسكت يا هذا فليست في العير ولا في النفير .

وأظن أن قصة العير والنفير معروفة . فالعير هي التي كانت مع أبي سفيان وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نجا بها أبو سفيان . والنفير هم الجماعة التي استنفرها أبو سفيان من مكة لأنه خاف من المسلمين وكانت زعامتهم لعتبة . فالعير كانت زعامته لأبي سفيان والنفير كانت زعامته لعتبة بن ربيعة ، وكان عتبة هو جد خالد لأمه ، وأبو سفيان هو جد لآبيه . فقال خالد : ومن أولى بالعير وبالنفير مني ، جدى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عتبة صاحب النفير ، ولكن لو قلت غنيبات وشبهات وجبيلات وذكرات الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى . وأسكته .

إذن . فالنفي كان أول عقاب أنزله الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهل ما فعله « الحُكَم » يُعتبر فساداً ؟ . ونقول : إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذي يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحُكَم يستهزئ بمشية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يقول مُشرع ما : إن السجن يقوم مقام النفي ونقول : لا ، إن السجن الآن فيه الكثير من الرفاهية . فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة . والهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شرور المفسد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه . وذلك أمر متروك للحاكم يفعله كيف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة . بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض إلى أرض أخرى .

ويتبع الحق هذا بقوله : « ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم »

وهذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين في الأرض المحاريين لله ورسوله وهو :
« أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » .
وهذه العقوبات خزي لهم .

إن كلمة « خزي » ترد في اللغة بمعنيين ؛ مرة بمعنى الفضيحة ، « خَزِيٌّ ،
يَخْزِي ، خِزْيًا » ، أى انفضح ، ومرة ثانية هي « خَزِيٌّ ، يَخْزِي ، خِزَايةً وَخِزْيٌ »
بمعنى استحي . والمعنيان يلتقيان ، فهادى قد افتضح أمر عبد فهو يستحي مما فعل .
وتلك الأفعال خزي ، كالذى قطع طريقا على أناس أمنين ، ونقول لمثل صاحب هذا
الفعل : إن قُوَّتَكَ ليست ذاتية بل قُوَّة اختلاسية ؛ فلو كانت قُوَّتَكَ ذاتية لاستطعت
أن تتأني لحظة أن يأخذوك ليقتلوك أو يصلبوك أو يقطعوا يدك ورجلك . فقد اجترأت
على العُزْل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم ، وفي هذا خزي لك .
خصوصاً وأنت ترى من كانوا يخافونك وأنت تنال العقاب . وخزيك الآن هو مقدمة
لعذاب آخر في الآخرة ، فسوف تنال عذاباً عظيماً .

« ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » . وكل جزاء في الدنيا
إنما يأتي على قدر طاقات البشر في العقاب ، ولكن ماذا إذا وُكِّلُوا إلى طاقة
الطاقات ؟ ها هي ذى عدالة الحق تتجلى ، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال
للمُسرفين على أنفسهم ؛ أولاً بالتوبة ؛ لأن الله الرحيم بعباده لو أخذ كل إنسان
بجريمة فعلها أو عاقب كل صاحب ذنب بذنبه لاستشرى في الأرض فساد كل من
ارتكب ذنباً لأنه يشس من رحمة الله فتشتد ضرأوته وقسوته . وسبحانه فتح باب التوبة
لكل من أسرف على نفسه . وإن لم توجد التوبة لصار المُسرف فاقداً . وهب أن
واحداً من الذين فعلوا ذلك استيقظ ضميره ، فإن تاب قبل أن تقدرأ عليه فهناك
حُكْمٌ ، أما إن تاب بعد أن يقدر عليه المجتمع فلا توبة له .

ويقول الحق :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾

فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾

ومادام الإنسان قد قاب وقام بتسليم نفسه دون أن يقدر عليه المجتمع فقبول التوبة حق له ، ويجب أن نأخذ « أن الله غفورٌ رحيم » في نطلق ما جعله الله لنفسه ، أما ما جعله الله لأوليائه المعتدى عليهم فلا بد من العقاب للمعتدى إن طلبه أصحابه .

« إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم » .
والقرآن يجعل من المنهج الإيماني عجيبة واحدة . لذلك يُقسَم المسائل إلى فصول كالتقنيات البشرية التي تُبَوَّب ؛ لذلك نجد القرآن يعامل الأقضية وكأنها فرص استيقاظ للنفس ؛ لذلك يأخذ النفس إلى أمر توجيهاً بالطاعة .

وضربنا من قبل المثل حينما تكلم القرآن عن مسائل الأسرة في سورة البقرة :

﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بَيْنَهُمَا عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ يَنْفَكُ عَنْ أَلْفَةٍ مَا يَعْمَلُونَ بِحَيْرٍ ٢٧ ﴾

(سورة البقرة)

ومن بعد ذلك يأتي إلى أمر الصلاة :

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ٢٨ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ٢٩ ﴾

(سورة البقرة)

وضع الله - إذن - الصلاة بين أمرين من أمور الأسرة ، حيث قال من بعد أمره بالحفاظ على الصلاة حتى أثناء القتال :

﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَهَدُّونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَرْبِ غَيْرَ إِتْرَاجٍ ٣٠ فَإِنْ تَرَجَعْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ٣١ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

وجاء بأمر الحفاظ على الصلاة بين المشكلات الأسرية ، وذلك ليكمل الدين لبنة واحدة ، وأيضاً لأن النفس المشحونة بالبغضاء وإحلام أمور الزواج والوصية والطلاق ، هذه النفس عندما تقوم إلى الصلاة لله فهي تهدأ . ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . فقد كان إذا حزبه أمر واشتد عليه قام إلى الصلاة .

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يأتي بأمور الدين كأبواب منفصلة « باب للصلاة ، وآخر للصوم ، وثالث للزكاة ، لا . بل يمزج كل ذلك في حجة واحدة . ولذلك فعندما أنزل بالمفسدين المحاريين الله عقاب التثليل والتصليب والتقطيع والنفي . كان ذلك لتربية مهابة الرعب في النفس البشرية . وساعة يستيقظ الرعب في النفس البشرية يقول الحق :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا
إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ
تُقْلِحُونَ ﴾

لقد أخرجنا من جو صاوم وحديث في عقوبات إلى تقوى الله . والتقوى - كما نعرف - أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يؤذيه وقاية .

وعرفنا أن الحق سبحانه الذي يقول « اتقوا الله » هو بعينه الذي يقول « اتقوا النار » ، وعرفنا كيف نفهم تقوى الله . بأن نجعل بيننا وبين الله وقاية . وإن قال قائل :

إن الحق سبحانه يطلب منا أن نلتحم بمنهجه وأن نكون دائماً في معيته . فلنجعل الوقاية بيننا وبين عقابه . ومن عقابه النار .

إذن فقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله » أي أن ننقى صفات الجلال »

والنار من خلق الله وجنده . وقوله سبحانه : « وابتغوا إليه الوسيلة » أى نبحث عن الوسيلة التى توصلنا إلى طاعته ورضوانه وإلى محبته . وهل هناك وسيلة إلا ما شرعه الله سبحانه وتعالى ؟ وهل يتقرب إنسان إلى أى كائن إلا بما يعلم أنه يحبه ؟ .

وعلى المستوى البشرى نحن نجد من يتساءل : ماذا يحب فلان ؟ . فيقال له : فلان يحب ربطات العنق ، فيهديه عدداً من ربطات العنق . ويقال أيضاً : فلان يحب المسبحة الجليلة ، فيحضر له مسبحة رائعة . إذن كل إنسان يتقرب إلى أى كائن بما يحب ، فما بالناس بالتقرب إلى الله ؟ . وما يحبه سبحانه أوضحه لنا فى حديثه القدسى :

(من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيننه)^(١) .

فالخلق سبحانه وتعالى يفسح الطريق أمام العبد ، فيقول سبحانه فى الحديث القدسى :

(ما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل) .

أى أن العبد يتقرب إلى الله بالأمور التى لم يلزمه الحق بها ولكنها من جنس ما افترضه سبحانه ، فلا ابتكار فى العبادات . إذن فابتغاء الوسيلة من الله هى طاعته والقيام على المنهج فى « الفعل » و« لا تفعل » .

والوسيلة عندنا أيضاً هى منزلة من منازل الجنة . والرسول صلى الله عليه وسلم طلب منا أن نسأل الله له الوسيلة فقال :

(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على صلاة

(١) رواه البخارى فى الرقاق ، ورواه ابن ماجه فى العين .

صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة) (١).

ولا نريد أن ندخل هنا في مجال التوسل بالنبي أو الأولياء ؛ لأنها مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد . فبعضهم يحكم بكفر هؤلاء .

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبي أو الولي : هذبوا هذا القول قليلاً ؛ إن حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم ؛ فالذي يتوسل إلى الله بالنبي أو الولي هو يعتقد أن له منزلة عند الله . وهل يعتقد أحد أن الولي يجامله لمعطيه ما ليس له عند الله ؟ طبعاً لا . وهناك من قال : إن الوسيلة بالأحياء ممكنة ، وأن الوسيلة بالأموات ممنوعة . ونقول له : أنت تضيق أمراً متسعاً ؛ لأن حياة الحي لا تدخل لها بالتوسل ، فإن جاء التوسل بحضرته صلى الله عليه وسلم إلى الله ؛ فإنك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله ؛ فحُبُّك له هو الذي يشفع . وإياك أن تظن أنه سيأتي لك بما لا تستحق .

والجماعة التي تقول : لا يصح أن نتوسل بالنبي ؛ لأن النبي انتقل إلى الرفيق الأعلى ، نقول لهم : انتظروا قليلاً وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عمر - رضوان الله عليه - ؛ قال : كنا في عهد رسول الله إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقى به . ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توسل بعمه العباس . وقالوا : لو كان التوسل برسول الله جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن التوسل بالنبي بعد انتقاله ، وذهب إلى التوسل بعم النبي . ونسأل : أقال عمر « كنا نتوسل بنبيك والآن نتوسل إليك بالعباس ؟ أم قال ؛ والآن نتوسل إليك بعم نبيك » ؟ .

ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم ؛ لأن التوسل لا يكون بالنبي فقط ولكن التوسل أيضاً بمن يمّت بصلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعني أنه يعتقد أن الذي توسل به لا يقدر على شيء ، إنني أتوسل به إلى الغير لأنني أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ لي مطلبى . إذن فلنبعد

مسألة الشرك بالله عن هذا المجال ، ونقول : نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن المتوسل إليه هو القادر وأن المتوسل به عاجز . وهذا هو متهى اليقين ومتهى الإيمان .

ولكن المتوسل به قد يتففع وقد لا يتففع ، وعندما توسل سيدنا عمر بالعباس عم النبي كان يفعل ذلك من أجل المطر . والمطر في هذه الحالة لا يتففع به رسول الله لذلك جاء بواحد من آل البيت وكأنه قال : « يا رب عم نبيك عطشان فمن أجله نريد المطر » .

إذن فتوسل عمر بن الخطاب بعم النبي دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبي بعد الانتقال إلى الرفيق الأعلى . وحق نخرج من الخلاف . نقول : إن العمل الصالح المتمثل في « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » هو الوسيلة الخالصة . وبذلك نخلص من الخلاف ولا ندخل في متاهات .

« يأياها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون » ولتر الإيثار الإيماني الذي يريد الحق أن يُربيه في النفس المؤمنة بتقوى الله التي تتمثل في الابتعاد عن محارمه ، وابتغاء الوسيلة إلى الله في اتباع أوامره .

إن الذين لم يأتك من أجل نفسك فحسب ، ولكن إيمانك لن يصبح كاملاً إلا أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك ، فإن كنت قد أحبيت لنفسك أن تكون على المنهج فاحرص جيداً على أن يكون ذلك لإخوانك أيضاً . وإخوانك المؤمنون ليسوا هم فقط الذين يعيشون معك ، ولكن هم المقدر لهم أن يوجدوا من بعد ذلك . ولذلك عليك أن تجاهد في سبيل الله لتعلو كلمة الله . وهكذا تتسع الهمة الإيمانية ، فلا تنحصر في النفس أو المعاصرين للإنسان المؤمن . ولذلك يضع لنا الحق الطريق المستقيم ويوضحه ويبيته لنا .

وكانت بداية الطريق أن المؤمن بالله حينها وثق بأن لله نعيماً وجزاء في الآخرة هو خير مما يعيشه قديم دمه واستشهد ، لذلك قال صحابي جليل : أليس بيني وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فإما أن أقتلهم وإما أن يقتلوني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وَألقى الصحابي ثمرات كان يأكلها ودخل المعركة .

لا بد إذن أنه قد عرف أن الحياة التي تنتظره خير من الحياة التي يعيشها ؛ ومع ذلك لم يضع الله الجهاد كوسيلة في أول الأمر ، بل ظل يأمرهم بالانتظار والصبر حتى يُرى من يحملون الدعوة . فلن يجعلها سبحانه عملية انتحارية .

وبعد ذلك نرى أثناء رحلة الدعوة للإسلام أن صحابياً يحزن لأنه في أثناء القتال قد أفلت منه عمرو بن العاص ، وأن خالد بن الوليد قد هرب . وثبتت الأيام أن البشر لا يعرفون أن علم الله قد أذخر خالداً وأنجاه من سيف ذلك الصحابي من أجل أن ينصر الإسلام بخالد . وكذلك عمرو بن العاص قد أذخره الله إلى نصر آخر للإسلام .

إذن فالجهاد في سبيل الله ضمان للمؤمن أن يظل المنهج الذي آمن به موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، وذلك لا يتأتى إلا بإشاعة المنهج في العالم كله . والنفس المؤمنة إذا وقفت نفسها على أن تجاهد في سبيل الله كان عندها شيء من الإيثار الإيماني . وتعرف أنها أخذت خير الإيمان وتُحب أن توصله إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها في غير ديار الإسلام ، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤمناً ، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجد أنها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالناس إذا كانوا أختياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرهم شيء .

إذن فمن مصلحة الخير أن يشيع خيره في الناس ؛ لأنه إن أشاع خيره فهو يتوقع أن ينتفع بجدوى هذا الخير وأن يعود عليه خيره ؛ لأن الناس تأمن بجانب الرجل الطيب ولا ينالهم منه شر . لأنه يحب أن يكون كل الناس طيبين وعلى ميزان الإيمان ؛ لأنهم إن كانوا على ميزان الإيمان فالطيب يستفيد من خيرهم . أما إن بقى الناس على شرهم وبقى الإنسان الطيب على خيره ، فسيظل خير الطيب مبدولاً لهم ويظل شرهم مبدولاً للطيب .

إذن من حكمة الإيمان أن « يعدى » الإنسان الخير للغير . وإن دعوة المؤمن إلى سبيل الله ، ومن أجل انتشار منهج الله لا بد من الإعداد لذلك قبل اللقاء في

ساحات المعارك ؛ فقبل اللقاء مع الخصم في ساحة المعركة لا بد من حسن الإعداد . وعندما يعدّ المؤمن نفسه يجد أن حركة الحياة كلها تكون معه ؛ لأن الدعوة إلى الله تقتضى سلوكاً طيباً ، والسلوك الطيب ينتشر بين البشر ، وهنا يقوى معسكر الإيمان ، فيرتقى سلوكاً وعملاً ، وعندما يقوى معسكر الإيمان يمكنه أن يستخرج كنوز الأرض ويحمي أرض الإيمان بالتقدم الصناعى والعلمى والعسكرى . والحق يقول :

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

سبحانه أنزل القرآن وأنزل الحديد ، ويتبع ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وجاء معنى البأس من أجل ذلك ، وهذا هو السبب الثانى الذى أوصانا به الحق :

إياكم أن تأخذوا منهج الله فقط الذى ينحصر فى « افعل ولا تفعل » ولكن خذوا منهج الله بما يحمى منهج الله وهو التقدم العلمى باستخراج كنوز الأرض وتصنيعها كالحديد مثلاً ، فسبحانه كما أنزل القرآن يحمل المنهج ، فقد أنزل الحديد وعلى الإنسان مهمة استنباط الحديد والمواد الخام التى تسهل لنا صناعة الأجهزة العلمية ونقيم المصانع التى تنتج لنا من الحديد فولاداً ، ونحوّل الفولاذ إلى دروع ، ونصنع أدق الأجهزة التى تهيء للمقاتل فرصة النصر . وكذلك نذخر المواد الغذائية لتكفى فى أيام الحرب .

إذن حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أن تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة . ولكن أعد نفسك للمعركة ؛ لأنك إن أعددت نفسك جيداً وعلم خصمك أنك أعددت له ، ربما امتنع عن أن يحاربك . والذى يمنع العالم الآن من معركة ساخنة تدمره هو الخوف من قِبل الكتل المتوازنة لأن كل دولة تُعدّ نفسها للحرب . ولو أن قوة واحدة فى الكون هدمت الدنيا .

وقول الحق : « وجاهدوا فى سبيله » تأخذه على أنه جهاد فى سبيل منهج الله ؛

وندرس هذا المنهج ونفهمه وبعد ذلك نجاهد فيه باللسان وبالسنان ، ونجاهد فيه بالكتاب ونجاهد فيه بالكتيبة .

إذن فقول الحق : « وجاهدوا في سبيله » يصنع أمة إيمانية متحضرة ، حتى لا تترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره في الكون . فمن يعبد الإله الواحد أولى بسر الله في الوجود ، ولو فرضنا أنه لن تقوم حرب ، لكننا نملك المصانع التي تنتج ، وعندنا الزراعة التي تكفي حاجات الناس ، عندئذ سنحقق الكفاية . وما لا تستعمله في الحرب سيعود على السلام . ويجب أن نفهموا أن كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب . وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتٍ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣٦)

الحق سبحانه تحدث من قبل عن العقوبات والفصاص والتفتيل والتقطيع ، ثم ينقلنا من هذا الجو إلى أن نتقى الله ونبتغي إليه الوسيلة ونجاهد في سبيله حتى نفلح ، وكان لا بد أن يأتي لنا الحق بالمقابل ، فالعقاب الذي جاء من قبل كفصاص وقتل هو عقاب دنيوي . ولكن ما سيأتي في الآخرة أدهى وأمر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣٦)

(سورة المائدة)

ولنا أن نتصور الجماعة الكافرة التي تتكبر في الدنيا ويمتلون ويرتفعون بالجبروت ،

فإذا عن موقفهم يوم القيامة ؟ لقد أقمتم الجبروت بقوتكم على غيركم ، وما هي في القوة تضعي وتقلتي . لقد كانت القوة تعيش معكم في الدنيا بالأسباب الممنوحة من الله لكم . ولم تضمن عليكم سنن الله أن ترتقوا ، وسبحانه قد خلق السنن ومن يبحث في أسباب الله ، يتل نتيجة ما بذل من جهد ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، وها أنتم أولاء تعرفون أن الأسباب ليست ذاتية . وأن قوتكم لم تكن إلا عطاء من الله . ها أنتم أولاء أمام المشهد الحزى ، فلو أن ما في الدنيا جميعاً معكم وحق ولو كان ضعف ما في الدنيا وتريدون أن تقدّموه بذية لكم من عذاب جهنم فإله لا يتقبله ، وتلك قيمة الجزى ، ولن يستطيعوا تخليص أنفسهم من عذاب جهنم .

وهذا المشهد يجعل النفس تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا مزلاً ، ولكن هي جدّ في منتهى الجدّ . وعمل الإنسان أن يقدر العقوبة قبل أن يستلذ بالجرمة . والذي يجعل الناس تستشعر في الإسراف على أنفسهم ، أن الواحد منهم يعزل الجريمة عن عقوبة الجريمة . ولو قارن الإنسان قبل أن يسرف على نفسه العقوبة بالجريمة لما ارتكبها . وكذلك الذي يكسل عن الطاعة ؛ لو يقارن الطاعة بجزائها لاسرع إليها .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نفترض أن إنساناً في صحراء نظر إلى أعلى الجبل ورأى شجرة تفاح ، واستدلّ على التفاح بأن رأى تفاحة قطبة واقعة على الأرض ، وقال الرجل لنفسه : هاأنذا أرى مصارع الناس ؛ فهذا يصعد إلى الجبل فيقع من على حافته . وذلك تهاجه الذئب . وثالث يتوه عن الطريق . كل ذلك على أمل أن في الشجرة ثماراً . ولا بد لي من أن أختار الطريق السليم إلى الثمار . والطريق إلى ثمار الدنيا الطاعة لمنهج الله ، وهو الطريق إلى ثمار الآخرة .

وأيضاً : الطالب المجتهد الذي يتغلب على النعاس ويتوضأ ويصل ويخرج إلى مدرسته في برد الشتاء ليحصل الدروس . ويعود إلى المنزل لتقدّم له أمه الطعام ، ولكنه مشغول بالدرس . إن هذا الشاب يستحضر نتيجة هذا الجهد ؛ لذلك فكل تعب في سبيل التعلم صار سهلاً عليه ، ولو أهمل ونام ولم يرقم مبكراً إلى المدرسة ، وإن استيقظ وخرج من المنزل لينسكع في الطرقات مع أمثاله ؛ يكون في مثل هذه الحالة غير مُقدّر للنتيجة التي تقوده إليها الصُعَلْكة . والعيب في البشر أنهم يعزلون

العمل عن نتيجته ، ويفصلون بين الجريمة وعقوبتها ، والطاعة عن ثوابها . إننا لو وضعنا النتيجة مقابل العمل لما ارتكب أحد معصية ولا أهمل أحد في طاعة .

ولنا أن نتصور مشهد الجبارين في الدنيا وهم في نار الآخرة ، هم بطشوا في الدنيا ونهبوا ، ولنفترض أن الواحد منهم قد امتلك كل ما في الدنيا - على الرغم من أن هذا مستحيل - وفوق ذلك أخذ مثل ما في الدنيا معه ويريد أن يقدمه افتداء لنفسه من عذاب جهنم فيرفضه الحق منه « ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » وتلك هي قمة الحزى التي يجب أن يتعد عنها الإنسان .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٢٧)

وكلمنا مسهم لفتح النار يريدون أن يخرجوا منها ، لكن كيف تأي لهم إرادة الخروج من النار . لا بد - إذن - أن لحظة لفتحها عليهم وتقليبهم هنا وهناك تدفعهم السنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أن العذاب قد انتهى . ألم يقل الحق سبحانه من أجل أن يضع أماننا التجسيد الكامل لبشاعة الجحيم :

﴿ وَإِنْ يَسْتَفِيتُوا يُفَاتُوا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

هذا القول يوحى أولاً بأن رحمة ما ستصل إليهم ، ولكن ما يأتي بعد هذا القول يرسم الهول الكامل ويجمده :

﴿ يُفَاتُوا بِمَا كَانُوا يَسْوِي السَّوْءَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذه قمة الهول . وهناك فرق بين الابتداء المطمع والانتهاه المؤنس .

مثال ذلك السجين العطشان الذي يطلب كوب ماء . ويستطيع السجان أن يقول له : لا . ليس هناك ماء . أما إذا أراد السجان تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سأق لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال ، ويمد السجين يده لكوب الماء ، لكن السجان يسكب كوب الماء أرضاً . هذا هو الابتداء المَطْمَع والانتهاه المُوَسِّس . وكذلك رغبتهم في الخروج من النار ؛ فلا إرادة لهم في الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء :

﴿ قَبِشْتَهُمْ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وتثير البُشرى في النفس الأمل في العفو ، فيفرحون ولكن تكون النتيجة هي :

﴿ بَعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم المُوَسِّس بعد الرجاء المَطْمَع .

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٢٧)

(سورة المائدة)

وبعد ذلك ينقلنا الحق إلى قوله سبحانه :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا

جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴾ (٢٨)

جاء الحق من قبل بعقاب قطاع الطريق والمفسدين في الأرض ، وهنا يأتي بقضية أخرى يريد أن يصون بها ثمرة حركة المؤمن في مجتمعه ؛ لأن الإيمان يجب من المؤمن أن يتحرك ، وحتى يتحرك الإنسان لا بد أن يضمن الإنسان ثمرة حركته . أما إن تحرك الإنسان وجاءت الثمرة ثم جاء من يأخذها فلا بد أن يزهد المتحرك في

الحركة ، وحين يزهد الإنسان في الحركة يتوقف تقدم الوجود ؛ لذلك من حفظنا أن تستمر حركة الحياة ، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته ، وأن تكون حركته فيها شرع الله .

وحين يتحرك الإنسان فيما شرع الله ويكسب من حلال ؛ فليس لأحد دخل ؛ لأن حركة هذا الإنسان تفيد المجتمع سواء أكان ذلك في باله أم لم يكن .

وقلنا من قبل : إن الرجل الذي يملك مالاً يكتنزه يهد الحق يأمره بأن يستثمر هذا المال ؛ لأنه سبحانه أمر بفتح أبواب الخير لمن يجد المال ، فيدفع بخاطر بناء عمارة شاهقة في قلب صاحب المال ، فيقول الرجل لنفسه : إن المال عندي مكتنز فلا ينفي لنفسى عمارة ، ويزين له الحق هذا الأمر . ويفكر الرجل في أن يبني عمارة من عشرة طوابق وفي كل طابق أربع شقق ، وليكن إيجار كل شقة مائة جنيه . وهو حصيلة شهرية لا بأس بها .

لقد حسب الرجل المسألة وهو لا يدري أن الله سبحانه وتعالى يقذف في باله الخواطر ، فيسرع ليشترى قطعة الأرض . وبعد ذلك يأتي بمن يُصمّم ببناء العمارة ومن يقوم بالبناء ، وتخرج النقود المكتنزة . وهكذا ترى أن الثرى قبل أن ينتفع بعمارته كان غيره قد انتفع بماله حتى أكثر طبقات المجتمع فقرا . ويحدث كل ذلك بمجرد الخاطر . ولكل إنسان خواطره ، فالبخيل له من يسرف في ماله ، والكريم له من يكتنز من ماله . وإليك أن تظن أن هناك حركة في الوجود خارجة عن إرادة الله . فالحق يقول :

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾

(من الآية ٨٩ سورة آل عمران)

وهم يفعلون ذلك لأن الذنوب تطاردهم ، فيعوضون ذلك بإصلاح أعمالهم . ولذلك نجد أن الخير إنما يأتي من المسرفين على أنفسهم فيريدون إصلاح أمورهم وليس هناك من يستطيع أن يأخذ شيئاً من وراء الله .

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

كَأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَجْرَدِ الْخَوَاطِرِ يَدْفَعُ النَّاسَ إِلَى مَا يَرِيدُ . نَعَمْ . فَهُوَ غَيْبٌ قَيَّومٌ ؛ وَلِذَلِكَ يَكُونُ تَدْبِيرُهُ فِي الْكَوْنِ غَيْبًا . وَفِي قِرَانَا يُخَصِّصُونَ يَوْمًا لِلسُّوقِ وَنَرَى سَاحَتَهُ فِي الْيَوْمِ الْمَخْصُصِ وَنَتَأَمَّلُهَا فَتَمُجِبُ مِنْ إِبْدَاعِ مُحَرِّكِ الْكَوْنِ ؛ فَفِي الصَّبَاحِ يَسِيرُ رِجَالٌ إِلَى السُّوقِ وَمَعَهُمْ عَصِيَّتُهُمْ وَلَا يَحْمِلُونَ شَيْئًا . وَهَؤُلَاءِ ذَاهِبُونَ لِشِرَاءِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، وَآخَرُونَ بِسُوقِ أَمَامِهِمْ الْعُجُولُ أَوْ الْحَمِيرُ ، وَهَؤُلَاءِ يَذْهَبُونَ لِبَيْعِ بَضَائِعِهِمْ . وَنَرَى نِسَاءً تَحْمِلُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ صِنْفًا مِنَ الْخَضَارِ فَتَعْرِفُ أَهْلَهُنَّ يَذْهَبِينَ لِلْبَيْعِ فِي السُّوقِ . وَنَرَى أُخْرِيَّاتٍ يَحْمِلْنَ سِلَالًا فَارِغَةً ، وَنَعْرِفُ أَنَّ كُلَّاهُنَّ مِنْهُنَّ ذَاهِبَةٌ لِلشِّرَاءِ . وَفِي آخِرِ النَّهَارِ نَرَى الْمَسَالَةَ مَعْكُوسَةً ، مَنْ كَانَ يَحْمِلُ فِي الصَّبَاحِ شَيْئًا حَمْلَهُ غَيْرُهُ ، فَمَنْ الَّذِي هَاجَ الْخَوَاطِرُ لِيَذْهَبَ مِنْ يَرْغَبُ فِي الْبَيْعِ إِلَى السُّوقِ لِبَيْعِ ؟

مَنْ الَّذِي حَرَّكَ الشَّارَى لِلشِّرَاءِ ؟ هُوَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَحْقُقُ لِلرَّاغِبِ فِي الْبَيْعِ أَنْ يَوْجِدَ الْمُشْتَرِيَ ، وَيَحْقُقُ لِلرَّاغِبِ فِي الشِّرَاءِ أَنْ يَوْجِدَ الْبَائِعَ . إِنَّهُ تَرْتِيبُ الْحَقِّ الْقَيُّومِ . وَنَسْمَعُ مَنْ يَقُولُ : لَقَدْ أَنْزَلْنَا فِي السُّوقِ الْيَوْمَ عَشْرِينَ طَنًا مِنَ الطَّيَاطِمِ وَأَرْبَعِينَ طَنًا مِنَ الْكُوسَةِ . وَغَيْرَهَا مِنَ الْأَطْنَانِ . وَنَجِدُ آخِرَ النَّهَارِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ بَاعَ . إِنَّهَا خَوَاطِرُ اللَّهِ الْمُتَوَازِنَةُ فِي النَّاسِ وَالَّتِي تَوَازِنُ الْمُجْتَمَعَ .

إِذَنْ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ حَرَكَةَ الْمُتَحَرِّكِ . وَيُرِيدُ أَيْضًا أَلَّا يَقْتَاتَ الْإِنْسَانُ أَوْ يَتَمَتَّعَ بِغَيْرِ مَجْهُودٍ ؛ لِأَنَّ مَنْ يَسْرِقُ إِنَّمَا يَأْخُذُ بِمَجْهُودٍ غَيْرِهِ . وَهَذَا الْفِعْلُ يُزْهَدُ الْغَيْرُ فِي الْعَمَلِ .

إِنَّ فِي الْإِسْلَامِ قَاعِدَةٌ هِيَ : عِنْدَمَا تَكْثُرُ الْبَطَالَةُ يُقَالُ لَكَ لَا تَتَصَدَّقْ عَلَى النَّاسِ بِنَفْسِكَ مِنْ مَلِكِكَ ، وَلَكِنْ افْتَحْ أَيْ مَشْرُوعٌ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ كَانَ تَحْفَرُ بَثْرًا وَتَرُدُّهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَأَعْطِ الْأَجِيرَ أَجْرَهُ حَتَّى لَا يَتَعَوَّدَ الْإِنْسَانُ عَلَى الْكَسَلِ ، بَلْ يَجِبُ تَعْوِيلُهُ عَلَى الْعَمَلِ ، وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْعَمَلِ فَلَا يَدُّ لَهُ مِنْ ضَمَانٍ . فَضْمَانُ الْإِنْسَانِ لِقُوَّتِهِ يَكُونُ مِنْ عَمَلِهِ أَوَّلًا ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى الْعَمَلِ ، فَضْمَانُهُ مِنْ أَسْرَتِهِ وَقَرَابَتِهِ ، فَإِنْ لَمْ تَوْجِدْ لَهُ أَسْرَةً أَوْ قَرَابَةً ، فَاهْلُ مَحَلَّتِهِ مَسْتَوْلُونَ عَنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَهْلُ الْقَرْيَةِ أَوْ الْمَحَلَّةِ أَنْ يُوقِرُوا لَهُ ذَلِكَ ، فَبَيْتُ الْمَالِ عَلَيْهِ أَنْ يَتَكَفَّلَ بِالْفُقَرَاءِ .

إِذَنْ فَالْأَرْضِيَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ تُحْتَسَنُ عَلَى أَنْ نَضْمَنَ لِلْإِنْسَانِ الْعَمَلَ ، أَوْ نَعُولَهُ وَنَقُومَ بِمَا

يحتاج إليه إن كان عاجزاً . ولكن الآفة أن بعضاً من الناس يحبون عملاً بذاته ، فهذا يرغب في التوظيف في وظيفة لا عمل فيها ، ونقول له :

في العالم المعاصر أزمة عمالة زائدة فتعلم أي مهارة ؛ فماضت الحياة ابداً على طالب قوت من عمل .

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة حين أقام أول مزاد في الإسلام . عندما جاء له رجل من الأنصار يسأله ، فقال له :

(أما في بيتك شيء . قال الرجل : بلى ، جئت نلبس بعضه ونسبط بعضه ، وقعب - أي قدح - نشرب فيه من الماء . قال : إيتني بهما . فأتاه بهما . فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا أخذهما بدرهم . قال : من يزيد على درهم ؟ - مرتين أو ثلاثاً - قال رجل : أنا أخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصاري وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه - أي ألقه - إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به ^(١) .

إذن أشار النبي صلى الله عليه وسلم على الرجل وأمره بأن يحضر المجلس الذي ينم عليه والقدح الذي يشرب فيه ، حتى يعرف الرجل أنه تاجر في شيء بملكه ، لا في عطاء من أحد . وجاء الرجل إلى حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ووجد أن النبي قد سوى له يداً للقدوم وقال للرجل :

(اذهب فاحتطب وبيع ، ولا أرينك خمسة عشر يوماً) ^(٢) .

وذهب الرجل يحتطب ويبيع امتثالاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وجاء بعد خمسة عشر يوماً وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(هذا خير لك من أن تحيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة) ^(٣) .

(١) رواه أبو داود في الزكاة ، وابن ماجه في التجارات ورواه أحمد .

(٢) ، (٣) رواه أحمد وأبو داود في الزكاة وابن ماجه في التجارات .

هذه هي التربية .

إذن فالغرض الأساسي أن يحمي الإسلام أفراد المجتمع ، فالذي لا يجد قوته ناعده بالرأى وبالعلم والقدرة والقوة . والخير أن نعلمهم أن يعملوا لانفسهم . ولذلك جاء الحق لنا بقصة ذى القرنين المليئة بالعبر :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۖ ﴾ (٩٣)

(سورة الكهف)

أى أنه لا توجد صلة للتفاهم . ولكنهم قالوا :

﴿ قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا

عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۚ ﴾ (٩٤)

(سورة الكهف)

وما هو ذو القرنين يعلن أنه في غير حاجة إليهم ، ولكن يكلفهم بعمل حتى يحقق لهم مرادهم :

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَى بَيْنَ السَّدَّيْنِ قَالَ انْفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا

قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۚ ﴾ (٩٥)

(سورة الكهف)

ومن العجيب أن القرآن عندما يحكى أمراً فهو لا يحكىه إلا لهدف ، هم طلبوا من ذى القرنين أن يبنى سداً ، لكنه اقترح أن يجعل لهم ردماً ، ما الفرق ؟ لقد تبين من العلم الحديث أن السد قد يحدث له هزة من أى جانب فيهدم كله ، أما الردم فإن حدثت له هزة يزدد تماسكاً . ولم يعمل ذو القرنين لهم ، ولكن علمهم كيف يصنعون الردم ، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز . وهكذا يعلمنا القرآن أن الإنسان لا بد له من عمل . لكن ماذا إن سرق ؟ .

أولاً ما هي السرقة ؟ إنها أخذ مالٍ مقوم خفية . فإن لم يكن الاخذ خفية فهو اغتصاب ، ومرة أخرى يكون خطفاً ، ومرة رابعة يكون اختلاساً .

فَالْأَخْذُ لَهُ أَنْوَاعٌ مُتَعَدِدَةٌ ؛ فَالتَّاجِرُ الَّذِي يَقِفُ فِي دُكَّانِهِ لِيَبِيعَ أَيْ شَيْءً ، وَجَاءَ طِفْلٌ صَغِيرٌ وَخَطَفَ قِطْعَةً مِنَ الْحُلِيِّ وَجَرَى وَلَا يَسْتَطِيعُ التَّاجِرُ أَنْ يَطُولَ الطِّفْلُ أَوْ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى الْإِمْسَاكِ بِهِ ، هَذَا خَطْفٌ . أَمَّا الَّذِي يَفْتَضِلُ فَهُوَ الَّذِي قَهَرَ صَاحِبَ الشَّيْءِ عَلَى أَنْ يَتْرَكَهُ لَهُ . أَمَّا الْإِخْتِلَاسُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ أَمِينٌ عَلَى مَالٍ فَيَأْخُذُ مِنْهُ . أَمَّا السَّرْقَةُ فَهِيَ أَخْذُ لِمَالٍ مَقُومٍ خَفِيَّةٍ وَأَنْ يَكُونَ فِي حِرْزٍ مِثْلِهِ ؛ أَيْ يَكُونَ فِي مَكَانٍ لَا يُمْكِنُ لغيرِ الْمَالِكِ أَنْ يَدْخُلَهُ أَوْ يَتَصَرَّفَ فِيهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ . أَمَّا الَّذِي يَتْرَكَ بَابَهُ مَفْتُوحًا أَوْ يَتْرَكَ بِضَاعَتَهُ فِي الشَّارِعِ فَهُوَ الْمُفْضِلُ ، فَكَيْمَا يَأْمُرُنَا الشَّرْعُ بِالْأَلَّا بِسْرِقِ أَحَدٍ أَحَدًا ، كَذَلِكَ يَأْمُرُ بِعَدَمِ الْإِهْمَالِ ، بَلْ لَا بَدَّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ أَشْيَاءَهُ وَيَتَوَكَّلَ . وَسَبْحَانَهُ هُوَ الْمُشَرِّعُ الْعَدْلُ الَّذِي يُقِيمُ الْبَيْقُظَةَ عَلَى الْجَانِيَيْنِ . حَدَّدَ الشَّرْعُ السَّرْقَةَ بِمَا قِيمَتُهُ رِبْعَ دِينَارٍ . وَرِبْعُ الدِّينَارِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ كَانَ يَكْفِي لِأَنْ يَأْكُلَ إِنْسَانٌ هُوَ وَعِيَالُهُ وَيَزِيدَ ، بَلْ إِنْ الدَّرْهَمُ كَانَ يَكْفِي أَنْ يَقِيمَ أَوْدَ اسْرَةٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ .

وَكَيْفَ نَقُومُ رِبْعَ الدِّينَارِ فِي زَمَانِنَا ؟ إِنْ كَانَ لَا يَكْفِي لِمَعِيشَةٍ ، فَيَجِبُ أَنْ تَرْفَعِ النِّصَابُ إِلَى مَا يُعِيشُ ، وَمَادَامَ الدِّينَارُ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ذَهَبًا ؛ فَرِبْعُ الدِّينَارِ تَرْفَعُ قِيمَتُهُ . وَقَدْ يَمُوتُ كَانَ الْجَنْيَةُ الذَّهَبُ يَسَاوِي سَبْعَةً وَتِسْعِينَ قُرْشًا وَنِصْفَ الْقُرْشِ . أَمَّا الْجَنْيَةُ الذَّهَبُ حَالِيًا فَهُوَ يَسَاوِي أَكْثَرَ مِنْ مَائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ جَنْيَةً ، وَقَدْ يَكُونَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ يَسْرِقُ لِأَنَّهُ عَجَاجٌ أَوْ جَائِعٌ ، وَلِذَلِكَ وَضَعَ الشَّرْعُ لَهُ قَدْرًا لَا يَتَجَاوِزُهُ الْمُحْتَاجُ لِحِفْظِ حَيَاتِهِ وَحَيَاةِ مَنْ يَعُولُ هُوَ الدَّرْهَمُ . وَسَرْقَةُ الدَّرْهَمِ لَا حَدَّ فِيهَا كَمَا لَا إِثْمَ فِيهَا ، وَذَلِكَ إِذَا اسْتَنْفَذَ كُلَّ الطَّرِيقِ الْمَشْرُوعَةِ فِي الْحَصُولِ عَلَى الْقُوَّةِ ، وَنَعَرَفَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَى الدَّرْهَمَ لِلرَّجُلِ وَقَالَ :

(اشتر طعاماً لك ولاسرتك) .

وَكَانَ الدَّرْهَمُ - كَمَا قُلْنَا - يَكْفِي فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ . وَالدَّرْهَمُ جُزْءٌ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ جُزْءًا مِنَ الدِّينَارِ ، فَرِبْعُ الدِّينَارِ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمٍ ، وَالدَّرْهَمُ يَسَاوِي فِي زَمَانِنَا هَذَا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِينَ جَنْيَةً .

وَالسُّطْحِيُّونَ يَقُولُونَ : إِنْ سَبَدْنَا عَمْرَ الْغَيِّ خَذَ السَّرْقَةَ فِي عَامِ الرَّمَادَةِ ؛ وَنَقُولُ لَهُمْ : لَا . لَمْ يَسْقُطْ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ الْحَدُّ ، فَالْحَدُّ بَاقٍ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلِ الْحَادِثَةُ الَّتِي حَصَلَتْ فِيهَا بِوَجِبِ الْحَدِّ . وَالْحَادِثَةُ الَّتِي حَدَّثَتْ فِي عَامِ الرَّمَادَةِ أَوْ عَامِ الْجُرُوعِ هِيَ

وجود الشبهة . وبفطته كلول أمير للمؤمنين ، لم يدخل الحوادث فيها يوجب الحد .
وفي مسألة عبدالرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة . عندما سرق غلمايه ، فماذا حدث ؟
قال الغلمان لعمر : كنا جوعى ولم يكن ابن أبي بلتعة يعطينا الطعام . ودرأ سيدنا
عمر الحد بالشبهة .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحصى حركة المتحرك وثمرة حركة المتحرك . .
لكن بعض السطحيين في الفهم يقولون مثل ما قال المعري :
يد بخمس مئين عسجد وديت
مابها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وهنا ردّ عليه العالم المؤمن فقال :
أنت تعترض لأننا نعطي دية اليد خمسمائة دينار ، وعندما يسرق إنسان . نقطع يد
السارق لأنها أخذت ربع دينار .

وقال العالم المؤمن :
جز الأمانة أخلاها وأرخصها
ذل الخيانة فافهم حكمة الباري
ونلاحظ أن التشريعات الجنائية وتشريعات العقوبات ليست تشريعات بشرية ،
لكنها تشريعات في منتهى الدقة . بالله لو أن مُقننا يقن للسارق أو السارقة ، ويُقنن
للزاني والزانية ماذا يكون الموقف ؟

إن الذي يتكلم هو رب العالمين . فقال هنا : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما
جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » . والسرقة عادة ما تكون رغبة في
الحاجة وهي غالبا ما تكون من عمل الرجل . أما في الزاني والزانية ، فلو أن الرجل
لم ينجس ويستثر بجمال امرأة لما فكر في الزنا . إذن فهي صاحبة الباية . وينص
سبحانه على العقوبة وجاء بالحكمة . وعندما يُشرع للقصاص وهي الحالة التي يغفل
فيها دم أقارب القتل ، فيقول :

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

ولتر الحنان الموجود في كلمة « أخيه » . ولا نجد تقنيا يدخل التحنين بين
سطوره ، إلا تقنين الرب الذي خلق الإنسان وهو أعلم به .

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . هذا ما انتهى إليه حد السرقة في تشريعات السماء ، وحق في زمن سيدنا موسى كان السارق يُسْتَرَق بسرقة ؛ أي يتحول الحر إلى عبد نتيجة سرقة . ولذلك نلاحظ ونحن نقرأ سورة سيدنا يوسف :

(من الآية ٧٠ سورة يوسف)

وهـ السقاية ، هى الإناء الذى كان يشرب فيه الملك ، وكان اسمها « صواع الملك » وأخذوها ليكيلوا بها . وبعد أن جعل السقاية فى رحل أخيه ، ماذا حدث ؟

نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾

(سورة يوسف)

وهنا قال إخوة يوسف بأنهم لم يأتوا ليفسدوا في الأرض ، لذلك ترك لهم يوسف الأسلوب في تحديد الجزاء ، ولم يحاكمهم بشرع الملك :

(سورة يوسف)

لقد جعلهم يعترفون ، ويحكمهم حسب شريعتهم لأن شرع الملك أن من يسرق شيئا عليه أن يغرم ضعف ما أخذ .

وهذا ما يوضح معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

أى أنها حيلة ليستبقى يوسف أخاه معه . ولو استعمل قانون مصر في ذلك الزمن لما أخذ أخاه معه . وهذا كيد لصالح يوسف ؛ لأن « اللام » تفيد الملكية أو النفعية . وأضاف إخوة يوسف قائلين :

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة يوسف)

ولماذا قالوا ذلك ؟ أصل هذه المسألة أن يوسف كان يحيا عند عمته . وعندما كبر وأرادوا أن يأخذوه أرادت العممة أن تستبقيه فهدست في متاعه تمثالا . أو منطقة كانت لها من أبيها إسحاق وادعت أنها فقدت ذلك ؛ ففتشوا الولد فعثروا معه على الشيء الذى ادعت عمته سرقة فاستبقته بشرع بنى إسرائيل . وكان جزاء السرقة في الشريعة هو الاسترقاق . ونبيخ هذا الشرع وجاءت آية حد السرقة تأكيداً للنسخ . وإن لم يكن قد نسخ فهذه الآية هي بداية للنسخ . « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

والسنة هي التى تبين لنا كيفية القطع ، وكان القطع لليد اليمنى ؛ لأنها عادة التى تبشر مثل ذلك العمل . وفى إحدى رحلاتى إلى أمريكا ، حدثنى أخ مسلم ضمن جماعة تحضر إحدى محاضراتى وقال : إن التَّيْمَنَ يجب أن يكون فى كل شيء ، فلماذا يأكل البعض بيده اليسرى ؟

قلت : إن هذه مسألة تكوينية بدليل أن بعض الناس أجهزتها مختلف ، فليست المسألة ميكانيكية . وأضافت : إن من خيبة بعض الاختراعات البشرية أنها لا تخطيء كالحاسب الآلى . ولو كان ينتقى ويختار لأمكن أن يخطيء ، أما العقل فهو يعرف الانتقاء . وقلت : إننى أطلب من السائل أن يقف . فلما وقف طلبت منه أن يتقدم جهتي فلما تقدم جهتي مدّ رجله اليمنى ، فقلت تعليقا على هذا : « إنه تكوين خلقى » . ولذلك فالذى عنده ولد تتأى عليه يمينه فلايك أن تُرغمه على ذلك لأن مثل هذه العملية أرادها الخالق لتُشَدَّ في الخلق ، ولتظهر قدرة الخالق .

فلاداعى لقهر الابن الذى تتأى عليه يمينه ؛ لأن العلماء قالوا إن مراكز السيطرة ليست فى اليد ولكن فى المخ . وقد أوجد الحق تلك الأمور فى الكون حتى نفهم أن

خالق الكون لم يخلق الكون وتركه بسنته ، لا . إنه يخرق السنن كلها أراد . لكن لو تأبى إنسان على استعمال اليد اليمنى في الأكل مثلاً وهو قادر على ذلك فإنه يكون مخالفا لسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومخافيا للفطرة .

« فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا » وإذا سمعنا كلمة « كسب » فهي تعني الأخذ لأكثر من رأس المال . والسارق يكسب السيئة لأنه أخذ ما فوق الضرورة . والنكال : العقاب أو هو العبرة المانعة من وقوع الجرم سواء لمن ارتكب الجريمة وكذلك لمن يراها . والحق يقول عن بعض الأمور :

﴿ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤثم من أجل الاعتبار والعظة ، فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق . والخالق هو الذي صنع الصنعة فلا تتعالم على خالق الصنعة . والشرعية لا تقرر مثل هذا العقاب رغبة في قطع الأيدي ، بل تريد أن تمنع قطع الأيدي .

وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد . والذين قالوا « قطع الأيدي فعل وحشي » ، نقول لهم : إن بدأ واحدة قطعت في السعودية فامتنت كل سرقة . وإذا كان القتل أنفى للقتل ، فالقطع أنفى للقطع ، أما عن مسألة التشويه التي يطنطنون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عدداً من الناس وكذلك حادثة انفجار لأنبوبة « بوتاجاز » تفعل أكثر من ذلك . فلا تنظروا إلى القصص مفصولاً عن السرقة إن انتشرت في المجتمع . وإبطاء القائمين على الأمر للإجراءات التي يترتب عليها العقوبات ينسى المجتمع بشاعة الجريمة الأولى ، وعندما يحين وقت محاكمة المجرم تكون الرحمة موجودة .

لكن إن وُقِعَ العقاب ساعة الجرم تنته المسألة . وساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجرم ، لأن المراد من الجزاء العبرة والعظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله عنده إن أخذته الغفلة في سياسة الحياة فالجزاء هنا نكالا أى عقاباً وه نكولا ، وهو

الرجوع عن فعل الذنب أى العبرة المانعة من وقوع الجُرم . فكان الجزء كان المقصود منه أن يرى الإنسان من قطعت يده فيمتنع عن التكبير في مثل ما آلت إليه هذه الحالة .

أو أن يحافظ الذى قُطعت يده على ما بقى من جوارحه الباقية ؛ لأنه قد قُطعت يمينه وإن عاد قُطعت يساره ، فإن عاد قُطعت رجله اليمى ثم إن عاد قُطعت رجله اليسرى ويكون النكال لمنع الرجوع للمجريمة ، وهو إما رجوع عن رأى العقوبة تقع على السارق أو الرجوع من السارق نفسه إن رأى أى جارحة من جوارحه قد نقصت . فيحرص أن تظل الجوارح الباقية له . ويعامل الحق خلقه بسنة كونية هى : أن من يأخذ غير حقه يجرم من حقه . ومثال ذلك قوم من بنى إسرائيل قال الله حكما فيهم : لقد استحللتم ما حرمت عليكم فلا جزاء لكم إلا أن أضيق عليكم وأحرم عليكم ما أحللت لكم . فقال :

﴿ فَيُظْلِمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن ليس فى قدرة أحد أن يضحك على الله أو أن يخدع الله أو أن يأخذ ما ليس حقا له . فإن أسرف الإنسان فى تعاطى أشياء حرمها الله عليه فسيأتى وقت يحرمه الله فيه من أشياء حللها له كالذى أسرف فى شرب الخمر أو فى تناول المواد المخدرة التى تغيب عن الوعى ، يتليه الحق بما يجعله محروما من متع أخرى كانت حلالا . وإن أسرف الإنسان مثلا فى تناول الحلوى . فإن المرض يأتى ، ويحرم الله عليه أشياء كثيرة .

ولو قاس المسرف على نفسه ما أحله لنفسه بما حرمه الله عليه لوجد الصفة بالنسبة له خاسرة . فالذى أسرف بغير حق فى أن يأكل مال أحد ، يرى ماله وهو يضيع أمام عينيه . ولنا فى ذلك المثل . كان السادة فى الريف - قديما - يقومون بتنقية الدقيق إلى درجة عالية حتى يصبح فى تمام النقاء من « الردة » . ويسمون هذا النوع من الدقيق « الدقيق العلامة » وكانوا يأكلون منه ويتركون البقية من الدقيق مختلطا بالردة ليأكله الخدم أو الفقراء ، فتأتى فترة يحرم الأطباء عليهم هذا الدقيق الأبيض ، ولا يجد الواحد منهم طعاما إلا الدقيق « السن » الذى كان يرفضه قديما فعلينا - إذن - أن ننظر إليها كفضية سائلة فى الكون كله ، ولنجعل قول الله أمامنا :

﴿ فَيُظْلَمُ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتِ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فأنت إن أخذت كسب يد واحدة بحرمك الحق من يد لا من كسب . فإن زدت حرمك الله من جارحة أخرى ، وهكذا . وتلك سنة كونية تعدل نظام الكون بالنسبة للناس ، وخصوصا من يستبطئون جزاء الآخرة ، ومن يفريهم ويفترهم ويظلمهم يحلم الله عليهم .

وأنت إذا ما نظرت وصنعت لنفسك رقعة جغرافية في البيئة التي تعيش فيها في أسرتك ، أو حيك ، أو بلدك أو أمتك ، فأنت تجد قوما قد حرموا بأنفسهم من غير أن يحرم عليهم أحد ، فتجد واحدا مصابا - والعباذ بالله - بالبولينا : ولا يقدر أن يأكل قطعة من اللحم ، أو آخر مصابا بمرض السكر ؛ وتراه غير قادر على أن يأكل قطعة من الحلوى ، أو ملعقة من العسل . لأن أحدا لن يستطيع أن يأخذ شيئا بدون علم الله . وصنع الله ذلك لأنه عزيز لا يغلب . فإياك أن تظن أن بإمكانك أخذ شيء من وراء شرع الله أو تظن أنك خدعت شرع الله ، فهو سبحانه عزيز لا يغلب أبدا . ونرى في حياتنا الذين يأخذون أموالا بغير حق رشوة أو سرقة أو اختلاسا ، نرى مصارف هذه الأشياء أو الرشاوى أو الأموال قد ذهبت وأنفقت في مهالك ومصائب ؛ إننا نجدها قد أخذت ما أخذوه من حرام ، ومالت وجارت على ما كسبوه من حلال . وأريد من المفسرين على أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم كشف حساب ، فيكتبوا في ناحية القرش الذي كسبوه من حرام ، ويكتبوا في ناحية أخرى كل قرش كسبوه من حلال . وليشاهد كل مسرف على نفسه في أكل حقوق الناس المصائب التي سببها الله بها ، وسوف يجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضها من الحلال . ولذلك قال الأثر الصالح : « من أصاب مالا من نهوش أذهب الله في نهابر »^(١) .

وكنتم أعرف اثنين من الناس ، ولكل واحد منهما ولد في التعليم . وكنتم أجد أحدهما يعطى ولده خمسة قروش . فيقول الابن لأبيه : « معى مصروف الأمس » .

(١) رواه الفضائي عن أبي سلمة الحمصي مرفوعا ، وعزه الديلمس ليعلى بن جابر وليس صحابيا ، وللعلى من أصاب مالا من غير حله أذهب الله في مهالك وأمر منبذة .

وكان الآخر يعطى ولده عشرة قروش فيقول الابن له : « إنها لا تكفى شيئا » . وشاء الحق أن يجمعنا نحن الثلاثة في مكتب يتبع وزارة الري بالزقازيق ، فلما جئنا لنخرج إذا برئيس كتّاب تلك المصلحة يأتى بظرف أصفر كبير به أشياء كثيرة ويناوله لواحد منها ، فسأته : ما هذا ؟ فقال : بعض من الورق الأبيض وبعض من ورق النشاف وعند من الأقلام حتى يكتب الأولاد واجبههم المدرسى . فقلت له : هذا سر خفية أولادك الدراسية وإسرافهم والدروس الخصوصية التى تدفع فيها فوق ما تطيق وسر قول ابنك لك : إن القروش العشرة لا تكفى شيئا . أما الشخص الآخر فابنه يقول له : لا أريد مصروف يد اليوم لأن معى خمسة قروش هى مصروف أمى ولا أريد أن آخذ دروسا خصوصية لأنى أحب الاعتماد على نفسى .

وسبحانه الحق القيوم لا تأخذ سنة ولا نوم . ويقول لنا بلاغا :

قال أبو الجلد : « أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ؟ إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فلمْ تجعلوننى أهون الناظرين إليكم »^(١) .

إذن قوله الحق : « جزاء بما كسبنا نكالاً من الله » واضح تماما ، ويردف الحق قوله هذا : « والله عزيز حكيم » . وسبحانه عزيز لا يغلبيه أحد ، حتى الذى يسرق ، إنما يسرق الرزق المكتوب له ، لأن العلماء اتفقوا على أن الشيء المسروق رزق أيضا لأنه يُتفتح به . ووالله لو صبر لجامه وطرق عليه بابه . فإياكم أن تحتالوا على قدر الله ، لأنه حكيم فى تقديره .

وكلمة « حكيم » لها فى حياتنا قصة ، كنا ونحن فى مستقبل حياتنا التعليمية نحب الأدب والشعر والشعراء ، وبعد أن قرأنا للمعرى وجدنا عنده بعضا من الشعر يؤول إلى الإلحاد ، فزهدنا فيه وخصوصا عندما قرأنا قوله فى قصيدته :

نحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يمد لنا سبك

(١) لورده ابن رجب فى شرحه فى كتّاب (جمع العلوم والحكم) .

وأخذنا من ذلك القول أنه ينكر البعث ؛ فقلنا : يغنينا الله عنه . ولكن صديقنا الشيخ فهمي عبداللطيف - رحمه الله - رأى المعري في الرؤيا وكان مولعا بالمعري ، فجاء إلى ذات صباح ونحن في الزقازيق وقال لي : يا شيخ لقد رأيت المعري الليلة في الرؤيا وهو غاضب منك أنت لأنك جفوته . فقلت : أنا جفوته لكذا وكذا وأنت تعلم السبب في ذلك . وقال الشيخ فهمي عبداللطيف : هذا ما حصل .

وقلت لنفسي : يجب أن أعيد حسابي مع المعري ، وجئت بدواوينه « سقط الزند » و« لزوم ما لا يلزم » . ووجدنا أن للرجل عذراً في أن يعتب علينا ؛ لأن آفة الناس الذين يسجلون خواطر أصحاب الفكر أنهم لا ينظرون إلى تاريخ مقولاتهم ، وقد قال المعري قوله الذي أنكره عليه وقت أن كان شاباً مفتوناً بفكره وعندما نضج قال عكسه . وكثير من المفكرين يمرون بذلك ، مثل طه حسين والعقاد ، بدأ كل منهما الحياة بكلام قد يؤول إلى الإلحاد ولكنها كتباً بعد النضج ما يحمل عطر الإيمان الصحيح ؛ لذلك لا يصح لمن يحكم عليهم أن يأخذهم بأوليائهم خواطرهم التي بدأوها بالشك حتى يصلوا إلى اليقين . وجلست أبحث في المعري الذي قال :

نحطمتنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعد لنا سبك

فوجدته هو نفسه الذي قال بعد أن ذهبت عنه المراهقة الفكرية :

زعم المنجم والطبيب كلاماً
لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلت بخاسر
أو صح قولي فالحسار عليكما

كانه عاد إلى حظيرة الإيمان :

وكذلك قال المعري :

يد بخمس مشين عسجد وُدَيْتْ
مابلها قُطِقت في ربع دمنار

وقال بعد ذلك :

تَنَاقَضَ مَا لَنَا إِلَّا السَّكُوتُ لَهُ
وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

وقلت للشيخ فهمي عبداللطيف : للمعري حق في العتاب وسأحاول أن أعالج
قراءة شعره ، والأبيات التي أرى فيها خروجاً ساعداً قليلاً . وعندما جئت إلى ذلك
البيت . قلت : لو أنه قال - وأنا أستأذنه - :

لِحِكْمَةٍ مَا لَنَا إِلَّا الرِّضَاءُ بِهَا
وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

فلكل شيء حكمة . وحين نرى طبيباً يمسك طفلاً قلبه لا يتحمل المرقد - أي
البنج - أثناء إجراء عملية جراحية ، فهل يظن ظان أن الطبيب ينتقم من هذا
الطفل ؟ طبعاً لا ، إذن فلكل شيء حكمة ، ويجب أن ننظر إلى الشيء وأن نربطه
بحكمته . والله عزيز أي لا يغلبه أحد ولا يحتال عليه أحد . وهو حكيم فيما يضع
من عقوبات للجرائم ؛ لأنه يزن المجتمع نفسه بميزان العدالة . ومن بعد ذلك يفتح
الحق سبحانه باب التوبة رحمة لمن يتوب ورحمة للمجتمع ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ
يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

والسارق ظالم ، لأنه أخذ حق غيره ، فإن تاب أي ندم على الفعل وعزم على
الاعتذار شرطاً ألا تكون التوبة بالكلام فقط ، بل يصلح ما أفسده ، هنا تقبل
التوبة . ولكن كيف يفعل ذلك ؟

إذا كان الشيء المسروق في حوزته فعليه أن يرده إلى صاحبه . وإن كان قد تصرف

فيه فعليه أن يأخذ لصاحب الشيء ويستحله ويقول له : كنت في غفلة نفسي وفي زهوة الشيطان مني ففعلت كذا وكذا . وأعتقد أن أى إنسان سرق من إنسان آخر وبعد فترة اعترف له وطلب العفو منه فأنا أقسم بالله أنه سيعفو عنه راضيا . وبذلك يستحل الشيء الذى أخذه . لكن ماذا إن كان السارق لا يعرف صاحب الشيء المسروق . كلهم « الاتوبيسات » ؟

إن كان قد سرق محفظة نقود من شخص ووجد العنوان يستطيع أن يرد الشيء المسروق بحوالة بريدية من مجهول تحمل قيمة المبلغ المسروق ويطلب فيها السماح عن السرقة . وإن لم يعرف من سرقه فعليه أن يقول : الله أعلم بصاحب هذا المبلغ وأنا سأتصدق به في سبيل الله وأقول : يارب ثوابه لصاحبه .

إذن فوجوه الإصلاح كثيرة . وإن كان نجعل من رد الشيء المسروق فليقل : فُضِّحَ الدنيا أهون من فضوح الآخرة . وفي القرآن تلى آيات كثيرة عن التوبة :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

كان توبة الله مكتوبة أولا ، ثم يتوب العبد من بعد ذلك . وسبحانه يقول :

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة طه)

وللتوبة - كما نعلم - ثلاث مراحل . فالحق حين شرع التوبة كان ذلك إذنا بها . وبعد ذلك يتوب العبد ، فيتوب الله عليه ويمحو عنه الذنب ويكون الغفران بقبول الله للتوبة . ولذلك يقول الحق : « فَإِنِ اللَّهُ يَتُوبَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

وَصِفَةُ المغفرة وَصِفَةُ الرحمة كل في مطلقها تُكُونُ لله وحده ، وهى توبة اللجائى ورحمة للمجنى عليه . وكلمة « إن الله غفور رحيم » توضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يغفر وأن يرحم . فإياك أن تقول : إن فلانا لا يستحق المغفرة والرحمة ؛ لأنه سبحانه مالك السماء والأرض ، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه ، وله طلاقة القدرة فى الكون ، ولذلك يقول من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ويستخدم الحق سبحانه من أساليب البيان ما يخرجنا عن الغفلة ، فلم يقل :
« الله له ملك السموات والأرض » ، ولو كان قد قال ذلك لكان الأمر خبراً من
التكلم وهو الله ، ولكنه يريد أن يكون الخبر من المخاطب إقراراً من العبد .
ولا يخرج الخبر تخرج الاستفهام إلا وقال الخبر وإيق من أن جواب الاستفهام في
صاحبه ، والمثال على هذا هو أن يأتيك إنسان ويقول : « أنت تهملني » . فتقول : أنا
أجنت إليك .

ولكن إن أردت أن تستخرج الخبر منه فانت تقول : ألم أحسن إليك ؟ وبذلك
تستفهم منه ، والاستفهام يريد جواباً . فكان السؤال حين يجب عليه أن يدبر ذهنه
في كل مجال ولا يجد إلا أن يقول : نعم أنت أحسنت إلي . ولو جاء ذلك من المتكلم
لكانت دهوى ، لكن إن جاءت من المخاطب فهي إقرار ، ومثال ذلك قول الحق :
﴿ أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ ﴾

(سورة الشرح)

إنه خبر من المتكلم والإقرار من المتلقى . وقد يقول قائل ولماذا لم يقل الحق :
« أشرحنا لك صدرك » ؟ كان من الممكن ذلك ، ولكن الحق لم يقلها حتى لا يكون
في السؤال إيماء بجواب الإثبات بل جاءت بالنفي .

وفي وقوله الحق :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(سورة المائدة)

نجد منطق الآية ليس دهوى من الحق ، ولكنه استفهام للخلق ليديروا الجواب على هذا ، فلا يجندوا جواباً إلا أن يقولوا : « الله ملك السموات والأرض » . وهذا أسلوب لإثبات الحجة والإقرار من العباد ، لا إخباراً من الحق : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » ، وقد يقول إنسان : إن هناك أجزاء من الأرض ملكا للبشر . ونقول : صحيح أن في الأرض أجزاء هي ملك للبشر ، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لا يقدر على الاحتفاظ به . . كملك البيت والأرض ، إنه يملك - بكسر الميم - لملك . وهناك « مُلْك » - بضم الميم - يملك هو الله . وفي الدنيا نجد أن لكل إنسان ملكية ما . ولكن المُلْك في الأرض يملك القرار في أملاك شعبه ، وهذا في دنيا الأسباب ، أما في الآخرة فالأسباب كلها تمتنع :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة طه)

فلا أحد له مُلْك يوم القيامة .

« ألم تعلم أن الله له مُلْك السموات والأرض يُعَذِّب من يشاء ويغفر لمن يشاء » والقارىء بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين أحدهما يتقدم ، والآخر يتأخر . ويأتى الأمر في أحيان أخرى بالعكس . ولكن هذا القول هو الوحيد في القرآن الذى يأتى على هذا النسق ، فكل ما جاء في القرآن يكون الغفران مقدماً على العذاب ؛ لأن الحق سبحانه قال في الحديث القدسي :

(إِنْ رَحِمْتُ سَبَقْتُ غَضَبِي)^(١) .

فلماذا جاء العذاب في هذه الآية مقدماً على الغفران : « يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء » هل السبب هو الضن في الأساليب ؟ لا ؛ لأن جمهرة الآيات تأتى بالغفران أولاً ، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه . ولتنظر إلى السياق . جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة ، وبعد ذلك عمن تاب . فالسرقة إذن تقتضى التعذيب ، والتوبة تقتضى المغفرة ، إذن فالترتيب هنا منطقي .

(١) رواه البخارى في التوحيد ورواه مسلم في التوبة ورواه الترمذى في الدعوات ، وابن ماجه في

ونلاحظ أن هذا القول قد جاء بعد آية السرقة وبعد آية الإعلام بأن له مُلْكُ
السموات والأرض . ولذلك كان لا بد من تذييل بخدمة الاثنين معاً . لهُوَ كَد سيطرة
القدرة . وحين يريد الحق أن يرحم واحداً . فليس في قدرة المرحوم أن يقول :
« لا أريد الرحمة » . وحين يعذب واحداً لن يقول الملعوب - بفتح الدال - :
« لا داعي للعذاب » . فسيطرة القدرة تؤكد أنه لا قدرة لأحد على ردّ العذاب أو
الرحمة . إذن فالآية قد جاءت لتخدم أغراضاً متعددة . فإن حسبناها في ميزان
الأحداث فللحق كل القدرة . وإن حسبناها في ميزان الزمن ، فكيف يكون
الأمر ؟ .

نعرف أن التعذيب للسرقة قسبان . . تعذيب بإقامة الحد ، وفي الآخرة تكون
المغفرة . إذن فالكلام منطقي مُتسق .

إنني أقول دائماً : إياكم أن تُخَذَعُوا بأن الكافر يكفر ، والمعاصي يعصى دون أن
ينال عقابه ؛ لأن من تعود أن يتأبى على منهج الله ، فيكفر أو يعصى لا بد له من
عقاب . لقد تمرد على المنهج ، ولكنه لا يجرؤ على التمرد على الله .

إن الإنسان قد يتمرد على المنهج فلا يؤمن أو لا يقيم الصلاة ، لكن لا قدرة
لإنسان أن يتمرد على الله ، لأنه لا أحد يقدر على أن يقف في مواجهة الموت ، وهو
بعض من قدرة الله . وسبحانه وتعالى يحكم ما يريد . وقد أراد أن يوجد للإنسان
اختياراً في أشياء ، وأن يقهر الإنسان على أشياء ، فما من مرتت نفسك على التمرد
على منهج الله عليك أن تحاول أن تتمرد على صاحب المنهج وهو الله . ولن تستطيع
لا في شكلك ولا لولئك ولا صحتك ولا مياد موتك . وليفتح كل مُتمرد أذنيه ،
وليعرف أنه لن يقدر على أن يتمرد على صاحب المنهج وهو الله . إذن صدق قول
الله : « والله على كل شيء قدير » .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ ﴾

فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ
تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ
لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ
بِحَرْفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ
أُوتِينَا هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ
يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١١﴾

ثاني في النداء بحرف الإقبال وهو « يا » وندخله على « المنادى » أي أنك تطلب إقباله . فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشيء آخر ؟ مثال ذلك قول الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إذن النداء هنا لتلاوة التكليف عليهم . وحين يُنادى الحق سبحانه وتعالى أشرف من ناداهم وهم رُسُلُهُ ، نجد أنه نادى كل الرُّسُلِ بمُشَخَّصَاتِهِمُ الْعَلَمِيَّةِ . (يا آدم) ، والمُشَخَّصُ الْعَلَمِيُّ هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا تشخيص الذات بدون صفاتها .

وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ﴾

(سورة الصافات)

وكذلك نادى الحق نوحاً :

﴿ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام :

﴿ يَمْوِمِ إِلَيَّ أَنَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ يَحْيَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَانتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

كُلُّ الرُّسُلِ ناداهم الحق بِالشَّخْصِ الْعَلَمِ الَّذِي لَا يَعْطَى إِلَّا التَّشْخِيسَ ، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ الرُّسُلِ مَا نَادَاهُ اللَّهُ بِاسْمِهِ أَبَدًا ، إِنَّمَا نَادَاهُ اللَّهُ بِالْوَصْفِ الزَّائِدِ عَنْ مُشَخَّصَاتِ الذَّاتِ فَيَقُولُ : (يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ) ، وَيَقُولُ : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) .

حَقًّا إِنَّ الْجَمِيعَ رُسُلٌ ، وَلَكِنَّهُ سَبْحَانَهُ يَرِيدُ أَنْ يُلَفِّقَنَا أَنْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الرُّسُولُ الَّذِي جَاءَ نَاسِخًا لِلْكُلِّ وَمُؤْمَنًا بِالْكُلِّ ، هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ التَّدَاءُ بِالْوَصْفِ الزَّائِدِ عَنْ مُشَخَّصَاتِ الذَّاتِ : « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ » . وَهُوَ الرُّسُولُ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ السَّاعَةُ . وَلِذَلِكَ نَجِدُ خُطَابَ الْحَقِّ لِرَسُولِهِ دَائِمًا : « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ » أَوْ : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ » ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ التَّكْرِيمِ .

وَالْحَقُّ يَقُولُ هُنَا : « يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَجْزُنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » . أَيْ لَا تَحْزَنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ . وَحِينَ يَخَاطَبُ الْحَقُّ رَسُولَهُ فِي الْإِيْزَانِ ، عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ عَلَى مَاذَا يَكُونُ الْحُزْنُ ؟ . سَبْحَانَهُ يَوْضِعُ لِرَسُولِهِ : إِيَّاكَ أَنْ تَحْزَنَ لِأَنَّ مَعَكَ فُلَانٌ يَنْتَالِكُ شَرَّ خَصْمُوكَ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ أَخْتَارَكَ رَسُولًا وَأَخْذَلْكَ ، إِيَّاهُمْ لَنْ يَنْتَالُوا مِنْكَ شَيْئًا .

وقد يكون حزن النبي صلى الله عليه وسلم حزناً من لون آخر ، اسمه الحزن المتسامي الذي قال فيه الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَئِيعَ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝١ ﴾

(سورة الكهف)

لأن الحق لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لما جعل لديهم القدرة على الكفر .

﴿ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٢ ﴾

(سورة الشعراء)

وهل الله يريد أعناقاً ؟ لا . بل يريد قلوباً ، لأن سيطرة القدرة بإمكانها أن تفعل ما تريد ، بدليل أن السماء والأرض والجبال وكل الكائنات أنت للمخالق طائفة . فلا يمكن أن يتأهب الكون على خالقه . والقدرة أفادت القهر وأفادت السيطرة والعزة والغلبة في سائر الكون ، ولكن الله أحب أن يأتي عبده - وهو السيد - للإيمان مختاراً ؛ لأن الإيمان الأول هو إيمان القهر والقدرة ، ولكن الإيمان الثاني هو إيمان المحبة .

وقد ضربنا من قبل المثل على ذلك ولنوضحه : هب أن عندك خادمين ربطت أحدهما في سلسلة لأنك إن تركته قليلاً يهرب ، وعندما تريده تجذب السلسلة فيأتى ، إنه يأتى لسيطرة قدرتك عليه والقهر منك ، أما الخادم الآخر فأنت تتركه حراً ويأتيك من فور النداء . فأيهما أحب إليك ؟ لاشك أنك تحب الذي يجيء عن حب لا عن قهر . وكل أجناس الكون مُسخرة بالقدرة ، وشاء الحق أن يجعل الإنسان مختاراً لذلك قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۝١ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فقد رفضت كل الأجناس حمل الأمانة . خوفاً وإشفاقاً من أنها قد لا تستطيع القيام بذلك . والحق يقول لرسوله : « لا يجزئك » فأما إذا كان الحزن بسبب الخوف على المنهج منهم ، فالحق ينصره ولن يمكنهم منه . وأما إن كان الخوف عليهم فلا ؛

لأنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً غير مقهور على القيام بتعاليم المنهج ، وسبحانه يُحب أن يعرف من يأتيه حُباً وكرامة .

ويقول الحق لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : « لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » .

وهذه رُبُوبية التعبير ، فنحن نعلم أن السرعة تكون إلى الشيء ، لا في الشيء كما قال الحق :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

ولكن هنا نجد يقول : « يسارعون في الكفر » . ولو قال الحق : « يسارعون إلى الكفر » لكان قد ثبت لهم إيمان وبعد ذلك يذهبون إلى الكفر ، لا . الحق يريد أن يوضح لنا : أنهم يسارعون في دائرة الكفر . ويعلمنا أنهم في البداية في الكفر ، ويسارعون إلى كفر أشد . ونعرف أن « في » في القرآن نستطيع أن نضع من أجلها المجلدات . فقد قلنا من قبل قال الله تعالى : (سيروا في الأرض) .

ولم يقل سبحانه سيروا على الأرض .

والحق سبحانه : وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وهي ليست أموال المخاطبين ، ولكنها في الأصل أموال السفهاء . ولكن سبحانه يبلغنا أن السفهاء غير مأمونين على المال ، ولذلك يأتي الحق بالوصف والقيَم على المال ويأمره أن يعتبر المال ماله حتى يحافظ عليه . ويأمره ألا يحزن المال ليأكل منه السفه ؛ لأن المال إن أكل منه السفه ودفع له الزكاة ، قد ينضب وينفذ . لذلك قال الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لم يقل ارزقوهم منها ، ذلك أنه سبحانه شاء أن يعلمنا أن الرزق مطمور في رأس المال ويجب أن يتحرك رأس المال في الحياة حتى لا ينقص بالشفقة ، وحتى لا تستهلكه الزكاة ، وحتى يبلغ الشفيه رُشدده ويجد المال قد نما . هذه بعض من معطيات « في » . وهناك آية الصُّلب :

﴿وَلَا صَلْبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

بعض المفسرين يقولون في هذه الآية : « لأصلبكم على جذوع النخل » ونقول : إن الذين قالوا ذلك لم يُفسِّروا هذه الآية وكان يجب أن يقولوا في تفسير ذلك :

لأصلبكم على جذوع النخل تصلياً قوياً يدخل المصلوب في المصلوب فيه . ومثال ذلك لو جئنا بعدو ثقاب وربطناه على الأصبع بخيط رفيع وأوثقنا الربط ، فعود الثقاب بفوص في الأصبع حتى يصير وكأنه داخل الأصبع . وعندما يقول الحق : « ولأصلبكم في جذوع النخل » فيجب ألا نفهم هذا القول إلا على أسس أنه تصليب على جذوع النخل تصلياً قوياً يُدْخِلُ المصلوب في المصلوب فيه . وتلك هي البُلية في وجود « في » وعدم وجود « على » .

والحق يقول هنا : « لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » فكأن المسارعة إما أن تكون بـ « إلى » وإما أن تكون بـ « في » . فإن كانت بـ « إلى » فهي انتقال إلى شيء لم يكن فيه ساعة بذء السرعة ، وإن كانت بـ « في » فهي انتقال إلى صق الشيء الذي كان فيه قبل أن يبدأ المسارعة .

« لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » فالإيمان محله القلب ، والإسلام محله الجوارح ، ولذلك قال سبحانه :

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّزُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾

(من الآية ١٤ سورة المجرات)

إنهم يسارعون إلى الصف الأول في الصلاة وهذا إسلام ، أما الإيمان فمحلّه القلب . إذن فالذين قالوا بأفواههم آمنا ، لهم أن يعرفوا أن منطقة الإيمان ليست الأفواه ولكنها القلوب . وهم قالوها بأفواههم وما مرّت على قلوبهم . وماداموا قد قالوا بأفواههم آمنا وما مرّت على قلوبهم فهؤلاء هم المنافقون ، ومعنى ذلك أنهم في كل يوم ستظهر منهم أشياء تُدخِلهم في الكفر ، لأنهم من البداية قد أبطنوا الكفر ، وبعد ذلك يسارعون في مجال الكفر .

« من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ، هم إذن صنفان اثنان يسارعان في الكفر ، المنافقون الذين قالوا بأفواههم آمنا ، والذين هادوا . ويصفهم الحق بقوله : « سماعون للكذب » وساعة تسمع مادة « السين والميم والعين » فهذا يعنى أن الأذن قد استقبلت صوتاً من مُصَوِّت ، هذا المُصَوِّت إما أن يكون مُتَكَلِّماً بالكلام الحق فيجذب من الأذن الإيمانية استماعاً بإنصات ، ثم يتعدى الاستماع إلى القبول ، فيقول المؤمن : أنا استمعت إلى فلان ، لا يقصد أنه سمع منه فقط ولكن يقصد أنه سمع وقبل منه ما قال .

إننا نعلم أن كثيراً من الورعين يسمعون كذباً ، لكن الفيصل هو قبول الكذب أو رفضه . وليس المهم أن يكون الإنسان سامعاً فقط ، ولكن أن يصدق ما يسمع . ونرى في الحياة اليومية إنساناً يريد أن يصلح شيئاً من أثاث منزله فيأبى بالأدوات اللازمة لذلك ، ويقال هنا عن هذا الرجل : « نجر فهو ناجر » ولا يقال له : « نجار » ، لأن النجار هو من تكون حرفته النجارة .

إذن كلمة : سامع للكذب لا تؤدى المعنى ، ولكن « سَمَاع » تؤدى المعنى ، أى أن صناعته هي التسمع ، وعندما يقول الحق : « سماعون للكذب » سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، أى ألقوا أن يقبلوا الكذب . وكيف يكون مزاج من يقبل الكذب ؟ . لا بد أن يكون مزاجاً مريضاً بالفطرة .

وما معنى الكذب هنا ومن هم السماعون ؟ إما أن يكون المقصود بهم الاحبار والرهبان الذين قالوا لاتباعهم كلاماً غير ذى سند من واقع من أجل الحفاظ على مراكزهم . وإما أن يكونوا سماعين للكذب لا لصالحهم هم ، ولكن لصالح قوم

آخرين . كأنهم يقومون بالتجسس . والتجسس - كما نعلم - يكون بالعين أو بالأذن . وتقدمت هذه الوسائل في زماننا حتى صار التجسس بالصوت والصورة . وكان الحق يريد أن يبلغنا أنهم سماعون للكذب ، أى أنهم يسمعون لحساب قوم آخرين . والقوم الآخرون الذى يسمعون لهم هم القوم الذين أصابهم الكبر والغرور واستكبروا أن يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم في الوقت نفسه لا يطيقون الانتظار ويريدون معرفة ماذا يقول رسول الله ، لذلك يرسلون الجواسيس إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم لينقلوا لهم .

أولئك السماعون للكذب هم سماعون لحساب قوم آخرين لم يأتوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبراً . وهؤلاء المتكبرون هم كبار اليهود ، وهم لا يذهبون إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يضعف مركزهم أمام أتباعهم . وعندما ينقل إليهم الكلام يحاولون تصويره على الغرض الذى يريدون ، ولذلك يقول عنهم الحق : « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ » . أى أنهم يحرفون الكلام بعد أن استقر في مواضعه ويستخرجونه منها فيهملونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها وذلك بتغيير أحكام الله ، وقال الحق فيها أيضاً من قبل ذلك :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أنهم حَرَّفُوا الكلام قبل أن يستقر . « سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه » وهم الذين يقولون لأتباعهم من جواسيس الاستماع إلى مجلس رسول الله : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » . فكانهم أقبلوا على النبي بهذا ، فإن أخذوا من رسول الله معنى يستطيعون تحريفه فعلوا . وإن لم يجدوا ما يحرفونه فعليهم الحذر .

ومن دراسة تاريخ القوانين الوضعية نعرف معنى السلطة الزمنية . فالقوانين التى تواضع عليها بشر ليحكموا بها نظام الحياة تأخرت في الظهور إلى الواقع عن نظام الكهنة ، فقد كان الكهنة يَدْعُونَ أن لهم صلة بالسما والذى جعل الناس تتجه إلى وضع قوانين أن التقنين في الأصل هو حكم السماء والذى جعل الناس تتجه إلى وضع قوانين خاصة بهم أنهم جربوا الكهنة فوجدوهم يحكمون في قضية ما حُكْمًا . وفي القضية المشابهة يحكمون حُكْمًا آخر . لقد كان كلام الكهنة مقبولا عندما ادعوا لأنفسهم

الانتساب إلى أحكام السماء . لكن عندما تضاربت أحكامهم خرج الناس على أحكام الكهنة ورفضوها ووضعوا لأنفسهم قوانين أخرى .

والحكاية التاريخية توضح لنا ذلك : فقد رَفَى أحد أتباع ملك في العصر القديم وحاولوا أن يقيموا عليه الحد الموجود بالتوراة . لكن الملك قال للكهنة : لا أريد أن يُرجم هذا الرجل وابتحوا عن حكم آخر .

ورضخ الكهنة لأمر الملك وقالوا : نُخَمِّم وجه الزَّانِي - أي نُسَوِّد وجهه بالحُجْم وهو الفحم - ونجعله يركب حماراً ووجه إلى الخلف ونطوف به بين الناس بدلاً من الرُّجْم . وهكذا أعطت السلطة الزمنية السياسية الأمر للسلطة الزمنية الدينية لِيُغَيِّرُوا في القوانين . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حاولوا أن يستغلوا وجوده في استصدار أحكام فيها هوانة ولين . وعرضوا عليه بعضاً من القضايا من أجل ذلك ، فإن جاء الحكم بالتخفيف قبلوه ، وإن كان الحكم مُشَدِّداً لم يقبلوه . وتكررت مسألة الزَّنا . وحاولوا الحصول على حكم مخفف من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء رسول الله بالحكم الذي نزل من السماء وهو الرُّجْم . ولكنهم قالوا للرَّجْم لا . يكفي أن نجعله أربعين جلدة وأن نُسَوِّد وجهه وأن نجعله يركب حماراً ووجهه للخلف ويُطاف به . وهنا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أليس عندكم رجل صالح له علم بالكتاب ؟ وهنا صمتوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أهور يسكن « فذك » يقال له : « ابن صوريا » . فقالوا : نعم ، هو أعلم يهود على وجه الأرض . فأمر الرسول بإحضاره ليرى الحكم النازل في الزَّنا بالتوراة ، وجاء الرجل وناشده رسول الله بالذي لا إله إلا هو ويحق من أرسل موسى « ويحق من أنزل التوراة على موسى » ، ويحق من فلق البحر ، ويحق من أغرق فرعون ، ويحق من ظللهم بالغيام . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُزِيل في كل باطل وأن يشحنه بالطاعة حتى ينطق الحق ، فقال ابن صوريا : نعم نجد الرُّجْم للزَّنا . وهنا سَبَّ اليهود الرجل الصالح .

لقد أرادوا أن يحصلوا على حكم مخفف من رسول الله لِيُنْقِذُوا الزَّانِي صاحب المقام

العالى ، وكذلك الزانية ذات الحسب والنسب ؛ لذلك قال الحق على لسانهم : « إن أوتيتهم هذا » . أى التخفيف المراد فخذوه ، وإن وجدتم العقاب القاسى فاحذروه ولا تقبلوه .

إذن فهم لم يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق ولكنهم يتفنون التخفيف . فإن وافق الحكم هواهم قالوا : إن عمداً هو الذى حَكَمَ ، ومن المعجيب أنهم أهداء لمحمد وكافرون به . ويرغم ذلك بحُكمونه .

هذه الواقعة يروها الإمام مسلم رضى الله عنه وهى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى يهودى ويهودية قد زنيا فأنطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال : ما تجدون فى التوراة على مَنْ زنى ؟ قالوا : نسود وجوهها ونحتملها ونحملها ونخالف بين وجوهها ، ويُطاف بها ، قال : (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) قال : فجاءوا بها ، فقرأوها ، حتى إذا مرَّ بآية الرجم وضع القفى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مُرَّةً فليرفع يده ، فرفع يده فإذا تحته آية الرجم ، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فُرجما ، قال عبدالله بن عمر : كنت فيمن رجمها فلقد رأيته يقربها من الحجارة بنفسه » (١) .

إنهم يريدون الحكم السهل المين اللين . وقال البعض : إن سبب نزول هذه الآية هى قصة القود . والقود هو القصاص .

وقصة القود فى إيجاز هى - كما رواها الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنه - أن طائفتين من اليهود هما بنو النضير وبنو قريظة كانتا قد تحاربتا فى الجاهلية ، فقهرت بنو النضير بنى قريظة ، فكانت النضير وهى العزيزة إذا قتلت أحداً من بنى قريظة وهى الذليلة لم يُقيدوهم أى لم يعطوهم القاتل ليقتلوه يقتلهم . إنما يعطونهم الدية . وكانت قريظة إذا قتلت أحداً من بنى النضير لم يرضوا منهم إلا بالقود . فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم للمدينة لحاكموا إليه فى هذا الأمر فحكم بالتسوية بينهم ، فسأهم ذلك ولم يقبلوا . وأى قصة منها هى مؤكدة للمعنى .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن يرد الله فتنه فلن نملك له من الله شيئا »
والفتنة هي التعذيب بالنار ، وسبحانه يقول :

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ (١٢)

(سورة الذاريات)

والفتنة أيضاً هي الابتلاء والاختبار ، ويقال : « فتنت الذهب » أى وضعت
الذهب في بوتقة وحولته بالحرارة العالية من جسم صلب إلى سائل حتى تستخلصه
من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً . والفتنة في ذاتها ليست مذمومة . ولكن
المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليها ، أينجح الإنسان فيها أم يرسب ، لأن
الاختبارات التى يمر بها الإنسان كلها هي فتنة ، والذي ينجح تكون الفتنة بالنسبة
إليه طيبة . والذي يرسب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة . وعندما يريد الله فتنة
بشر أى يريد اختبارهم : آیاتون طوعا واختياراً أم لا ؟

ومادام الحق سبحانه وتعالى أعطى للإنسان قدرة الاختيار حتى يثبت صفة
المحبوبة فسبحانه أراد ذلك ، ولا أحد بقادر أن يجعل الإنسان مقهوراً . وقد أراد
الله اختباراً وأن يتلى وأن يجتبر . أينجح أم يرسب ، أ يكون مؤمناً أم كافراً :

« ومن يرد الله فتنه فلن نملك له من الله شيئا » . وجعل سبحانه ذلك قانوناً لحلقه
بمتهى الوضوح ، وهناك جانب في الإنسان مسخر ، وجانب آخر مخير . « ومن يرد
الله فتنه فلن نملك له من الله شيئا » . أى أن أحداً لا يجرؤ أن يغير نواميس الكون
ولن يغير الله نواميس الكون من أجل أى أحد ، لأن النواميس لا بد أن تسير كما
أرادها الله حتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد عرفنا ما حدث في أحد ، عندما تخاذل الرعاة ولم يستمعوا إلى نصيحة القائد
الأعلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أغير الله سنته من أجل وجود حبيبه
معههم ؟ لا ، وانهمزموا على رغم وجود رسول الله معهم ، لأن الله أراد للسنة الكونية
أن تسير كما هي من أجل إصلاح الأمر . فلو فرض أنهم انتصروا من أجل خاطر
النبي ، ماذا يكون الموقف في أوامره صلى الله عليه وسلم فيها بعد ؟ كان من الممكن
أن يقول شخص منهم : « خالفناه وانتصرنا » . إذن لا بد لسنة الله أن تنفذ .

﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

لماذا لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ؟ لأنهم منافقون . وفي قلب المنافق مرض . وعندما تأل أحداث يتفجع بها المسلمون فالمنافق يزداد جحداً ومرضاً لأن قلبه ممتلئ بالغفل ، ولا يريد الله تطهير قلب إنسان إلا أن يقبل على الله ولذلك قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وقال سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

فهل عدم هداية الله لهم نشأت أولاً ، ثم نشأ الكفر ، أو نشأ الكفر منهم فجاء عدم الهداية ؟ نعلم أن عدم الهداية مرتبة على أنه ظالم أو كافر ، وقلنا من قبل: إن هناك إرادة كونية وإرادة شرعية . والإرادة الكونية هي ما يحدث في كون الله . ولا شيء قد حدث في كون الله غضبا عن الله . والاختيار خلقه الله في الإنسان ليصير الإنسان خيراً بين الكفر والإيمان . ومادام الحق قد خلق الإنسان مختاراً لهذا أو لذلك إذن فهو سبحانه مُريد كَوْنِيّاً ما يصدر عن الإنسان اختياراً كفوّاً أو هدايةً . لكن أمريد هو سبحانه ذلك شرعاً ؟ لا .

إن الشرع أمر سهوى إما أن يُتَقَلَّبَ العبد وإما أن يعصيه . ونعرف أن هناك أشياء مُرادة كونياً وأشياء مُرادة شرعياً . والمراد الكون هو الذي يكون : أما الإنسان فقد خلقه الله وله الاختيار ، فالذي يسرق لا يسرق غضبا عن الله ولكن ما أعطاه له الله من اختيار ومن طاقة ، إما أن يوجهها إلى الخير وإما إلى الشر .

ونحن حين ننظر إلى الساعة التي نضعها حول المعصم وقد صنعها الصانع صالحة

لأن يديرها الإنسان على توقيت أى بلد ، فهل هذا يتم غضبا عن الصانع ؟ لا . وكذلك جهاز « التلفزيون » ، إن أذعنا فيه برامج دينية فهو صالح للهدف ، وإن أذعنا فيه حفلة راقصة فهو صالح لذلك أيضا . والذي صنع التلفزيون جعله صالحا لهذا ولذلك ، المهم هو توجيه الطاقة وكذلك الإنسان . والإرادة الكونية هي كل ما يكون في ملك الله ، والإرادة الشرعية هي كل ما يكون في شرع الله « افعل ولا تفعل » . ومادام هناك أمر كوني وأمر شرعي فالكون قد أوجده الله لخدمة المؤمن والكافر والعاصي ، لكن الأمر الشرعي جعله الله للمؤمن .

إذن لإيمان المؤمن إرادته الله كونا ، لأنه سبحانه قد وضع الإيمان منهجا ، وأراد الله إيمان المؤمن شرعا . وكفر الكافر لم يتم غضبا عن الله . ولكن الإنسان بخلقه مختارا . صار كفره أمرا كونيا ، ولكنه غير مُراد شرعا ، فكفر الكافر مُراد كونا غير مُراد شرعا . وإيمان الكافر غير مُراد كونا وكفر المؤمن غير مُراد كونا . وبهذا نكون أمام أربعة أقسام في المُراد كونا وشرعا . وهذه هي القسمة العقلية .

إذن من يرد الله فتته كونا فلا راد لإرادة الله ، فإذا لم يطع الشرع ، فذلك لأنه مخلوق صالح للطاعة وصالح للمعصية .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - الوالد يعطى لابنه جنيتها ويقول له : أنت حُر في هذا المبلغ فإن اشتريت مصحفا أو كتاب دين أو شيئا تأكله أنت وإخوتك فسأكافئك وأستأمنك على أشياء كثيرة . أما إن اشتريت ورق اللعب المُسمى « كوتشينة » فسأغضب منك .

وحين يذهب الولد ليشتري ورق اللعب المُسمى « كوتشينة » ، هل اشترى ذلك غضبا عن أبيه ؟ لا . لكن الولد يصبح غير محبوب من أبيه . هذا هو الفارق بين المُراد كونا والمُراد شرعا . وبين المُراد كونا لا شرعا . والمُراد شرعا لا كونا .

« أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم » كان ذلك كونا ، لأنه سبحانه خلقهم قابلين للتطهير وقابلين لغيره ، فإن فعلوا أى شيء فهم لن يفعلوه غضبا عن الله ، لذلك يذيل الحق الآية : « لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » فكان

معنى ذلك أن في قلوبهم أشياء ضد الطهارة ، ولهم في الدنيا خزى . والخزى يطلق على الفضيحة ويطلق على الاستحياء ، والمعنيان يلتقيان . وهنا في مجال هذه الآية : أى خزى وأى فتنة ؟ إنها فتان ، المنافقون واليهود . وكان المنافقون كلما فعلوا شيئا ينفضح . وعندما يبيتون أى شيء فإن الله يخبر رسوله بما يبيتون .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلْيَعْرِفْنَهُمْ بِسْمَتِهِمْ^٤ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

وكذلك الذين هادوا : يأتيهم الخزى أى الافتضاح ، أى أن يصيروا إلى المسترذل بعد أن كانوا في المستحسن . والرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واليهود سادة هذه البقعة ، سادتها علما لأنهم أهل كتاب ، أما الأوس والخزرج فأميون لا يعرفون شيئا . وكان اقتصاد المدينة في أيدي اليهود ، من مال وصناعة وزراعة . وعنجهية الجاه . وعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يجهدهم السادة ، ثم ينفضح أمرهم وكذبهم ، ويتم إجلاؤهم ، وتسمى نساؤهم ويُقتل بعضهم . وعندما يدبرون كيدا لرسول الله ، يفضحهم الله ، وكل ذلك خزى ، وليس الخزى هو الجزاء الوحيد لهم ، بل يلقون في الآخرة عذاباً أليماً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ سَمِعُوكَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّخَةِ فَإِنْ
جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ
عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ
فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ ٤٢ ﴾

وفي اللغة ألفاظ مفردة ، مثال : « سجنجل » وتفتح القاموس فتجد معناها

« البلور » ، وكذلك الصفا والمرورة ، وعندما تبحث في القاموس عن كلمة « مروءة » تعرف أن معنى اللفظ بعيد عن النسبة ، فأول عمل للغة أن تعرف معنى الألفاظ بعيداً عن نسبتها . ومهمة القاموس أن يشرح لك معنى اللفظ بعيداً عن النسبة دون إثبات أو نفي ، مثال ذلك « الجو » معناها هو ما يحيط بك من هواء أو غير ذلك ، لكن القاموس لا يشرح هل الجو مكفهر أو صافٍ أو بارد .

وإن تقدمنا مرحلة أخرى وأخذنا اللفظ لنصنع له نسبته ، كأن نقول : « الجو صحو » ، هنا نتقل من فهم معنى كلمة « جَو » ، إلى أننا نسبنا الصحو إليه . والكلام المفيد يأتي في النسب . ولا تأتي النسب إلا بعد معرفة معاني الألفاظ . والنسب تعني أن ننسب شيئاً إلى شيء . كأن نقول : « محمد مجتهد » هنا نسبنا لمحمد الاجتهاد ، وذلك بعد أن عرفنا معنى كلمة « محمد » بمفردها ، ومعنى « مجتهد » بمفردها .

إذن الكلام المفيد يتأتى في النسب . وقد تكون الإفادة بضميمة كلمة إلى ما سبقها ، فعندما يسألك إنسان : « من عندك » ؟ فتقول : « محمد » ، هذا القول أفاد ، لأنه انضم إلى كلمة أخرى فصار المعنى : « محمد عندي » .

إذن هناك نسب ، والنسب هي أن تنسب حكماً إلى شيء إما إيجاباً وإما نفيًا .

والنسبة تنقسم إلى قسمين ؛ نسبة واقعة ، ونسبة غير واقعة . وإن كانت النسبة واقعة فهل نعتقدها ؟ وهل نستطيع أن نقيم عليها دليلاً ؟ إن كانت النسبة الواقعة ومقام عليها الدليل تكون علمياً . وإن كانت نسبة وواقعة وأنت نعتقدها ولا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تقليد ، مثل الطفل الذي يقلد أباه فيقول : « الله أحد » ، والطفل في هذه الحالة لا يستطيع أن يقيم على هذه النسبة دليلاً .

إن العلم أهل مراتب النسب لأنه نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل . أما إذا كانت نسبة معتقدة وغير واقعة ، فهذا هو الجهل ؛ لأن الجاهل هو الذي يعرف الشيء على غير وجهه الصحيح . أما الأملى فهو الذي لا يعرف شيئاً ونجد صعوبة في الشرح للجاهل . مثال ذلك الذي يقول الأرض مبسوطة ويدافع عنها ، إنه يقول نسبة يعتقدها ، ولكنها غير الواقع لأنها كروية .

والجاهل - إذن - أن تعرف نسبة تعتقدها وهي غير واقعة . ولا يرهق الدنيا غير الجاهل ، لا الأمل ، لأن الأمل له عقل فارغ يكفى أن تقول له الحقيقة فيصدقها ، أما الجاهل فيحتاج إلى أن تخلق من أفكاره الفكر الخاطيء ونضع له الفكر الصحيح .

أما إن كانت النسبة غير واقعة . فالنفي فيها يساوى الإثبات ، وهذا هو الشك . وإن كانت هناك نسبة راجحة فهو الظن . والنسبة المرجوحة هي الوهم . إذن هناك عدد من النسب : نسبة علم ، نسبة تقليد ، نسبة جهل ، نسبة شك ، نسبة ظن ، نسبة وهم . وعلى ذلك يكون الكلب نسبة غير واقعة ، فإن كنت تعتقدها فانت من الجاهلين .

ويقابل الكلب الصدق ، وعندما يقول الحق : « سباحون للكذب » . فالنسبة هنا غير مطابقة للواقع . ويقتضى الملبسون بعض النسب التي تأتي في بعض من أسلوب القرآن ويقولون : في القرآن كلام لو تحصناه لوجدناه غير دقيق . مثال ذلك :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

كلام المنافقين هنا قد طابق كلام الله ، ولكن لماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

النسبة واحدة ، لكن الله يكذب المنافقين . وإن فطنا إلى قول الله حكاية عنهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

أي أن الله يكذب شهادتهم ، لأن عمداً رسول الله بالفعل ، ولكنهم كاذبون لأنهم لا يعتقدون ذلك ، فالشهادة هي ما يوافق اللسان ما في القلب .

إذن قوله الحق : « سباحون للكذب أكالون للسحت » أي أن عملهم الاستماع

للكذب ، وأكل السحت وكأنهم يرمقون إن أكلوا حلالاً ، وأكأل صيغة للمبالغة ، وتكون إما في الحدث ، وإما في تكرار أنواع الحدث . فيقال : « فلان أكأل » ، و« فلان أكول » وهو الإنسان الذي يأكل بشراهة أو يأكل كثيراً ، والمبالغة - إذن - إما أن تكون في الحدث وإما في تكرير الحدث .

« أكألون للسحت » ومادة « سحت » تعنى « استأصل وعما » ، ولكنها تزيد أنها استأصلته استصلاً لم يبق له أثراً وتعدى الاستصصال إلى ظرفه . مثال ذلك عند ظهور بقعة من زيت أو طعام على ثوب ، نستطيع استصصال البقعة ، ونستطيع المبالغة في استصصالها إلى أن تنحت من الثوب . والسحت استصصال مبالغ فيه لدرجة الجور على الأصل قليلاً . أى يستأصل الذى جاء ومعه بعض من الأصل أيضاً ، لذلك جاء المفسرون إلى هذا المعنى فى شرح الرأبأ لأن الله يصفه بالقول :

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

والربا فى مفهومنا أنه زيادة ، ولكن الحق أوضح لنا أنه ليس بزيادة ؛ لأنه يَدْخُل ويستأصل ويأكل ويحكأ أصل المال . وظاهر الرأبأ الزيادة ويأطنه محق واستصصال .

أما الزكاة فظاهرها نقص ، ولكنها غناء ، وبذلك نرى اختلاف مقاييس الخلق عن مقاييس الحق . والمثل الواضح : أن النفس تلتفت دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا تلتفت إلى رزق السلب . فرجل راتبه خمسمائة جنيه ، وآخر راتبه مائة جنيه ، صاحب الراتب البالغ الخمسمائة فتح الله عليه أبواباً تحتاج إلى ألف من الجنهات ، والذى يأخذ مائة جنيه سَدَّ الحق عنه أبواباً لا تأخذ منه كل راتبه بل يتبقى له حشرة جنهات .

هناك - إذن - رزق إيجاب يزيد الدخل ، ورزق سلب أن يسلب الحق عنك المصارف فى المصائب والمهالك ويبارك لك فيها أعطاك .

والسحت هو كل شئ تأخذه من غير طريق الحلال ؛ كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف . وكل أنواع المقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سحت .

« سماعون للكذب أكالون للسُّحت » وهذا القول دليل على أن أذنتهم احتلت سماع الكذب ويقبلون عليه . وعندما نقول نحن في الصلاة : « سمع الله لمن حمده » ، أى أننا ندعو الله أن يقبل الحمد . وهم سماعون للكذب أى يقبلون الكذب . والسماع جارحة . والاكل بناء ما به الجارحة لأنه مقوم لها . مثلها يأكل لينمو ، وإن كان ناضجاً يحفظ له الطاقة والقدرة .

فالنمو - إذن - معناه أن يدخل جوفه أكثر مما يخرج منه . وبعد فترة يدخل إلى جسمه على قدر ما يخرج منه ، ثم الشيوخوخة نجد فيها أن ما يخرج أكثر مما يدخل . وماداموا سماعين للكذب أكالين للسُّحت ، فهم فى بولٍ دائم ، لأن أكل السُّحت حيثة من حيثيات الاستماع المصنَّف للكذب ، لأنهم قد بنوا ذرات أجسادهم من حرام ، فكيف ترفض أذانهم الكذب ؟ بل أذانهم تستدعى الكذب ، وألستهم تحترقه . وهيونهم تستدعى المحارم ، وأيديهم تستدعى السرقة ، إنها الأبعاد التى بناها أصحابها من حرام .

ولم يقل الحق عنهم : « سامعون » ، بل قال : « سماعون » أى جعلوا صناعتهم أن يتسمعوا ، وهم الجواسيس ، وإلا فإذا كان الأمر غير ذلك لكان كل من سمع كذبا يُقد من هؤلاء . والقول مقصود به من جعل السماع صنعة له . ولا يجعل إنسان السماع صنعة له إلا إذا كان عينا لغيره ، والعين للغير يتلصص على أمانة المجالس ، ولكل مجلس أمانة . فإذا ما حضر إنسان مجلسا فليس له أن يتقل ما فى ذلك المجلس إلى غيره إلا أن يكون ذلك هو صناعته ، وتلك هى مهمته .

« سماعون للكذب أكالون للسُّحت » وهنا قضيتان . فهل السماع للكذب سببه أكل السُّحت ، أم أكل السُّحت سببه السماع للكذب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان من طينة الأرض وصوره على شكل آدم نفخ فيه من روحه ، وحين صوره من طينة الأرض جعل كل مقومات حركة حياته من طبيعة طينة الأرض ، فإذا ما أخذ الإنسان شيئا من جل ، احتلت الذرات فى نفسه على الهيئة التى خلقها الله . وإن تدخل فيها بحرام جعل فى الذرات اختلالا تكوينيا . وهذا الاختلال التكويني هو الذى جعل أكل الحرام سببا للكذب . ولولم

يكن فيه ذلك الاختلال التكويني الذي صنعه بنفسه لما سمع الكذب أبداً .

أو أنه عندما أكل الشُّعْت صار سباعاً للكذب . أو سمع كذباً فصار أكالاً للشُّعْت . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : « أكل للشُّعْت » ، ولم يقل : « سامع للكذب » ، ولكنه قال : « سماعون للكذب أكالون للشُّعْت » أي أنهم تعودوا سماع الكذب وتعودوا أكل الشُّعْت ، فالواحد منهم أخذ حراماً من أول الأمر ، وعندما صار أكالاً وسباعاً للكذب في آن واحد ، اختلت فُرَات تكوينه ، ولم يعد في أحماه نور ليرفض الكذب . بل أقبل عليه ، وبغريه الكذب ثانية بأن يأكل الشُّعْت ، والأمر دائر بين سماع كذب وأكل سحت .

وقضية الكذب هي قضية صراع الباطل مع الحق . ومادام الكذب غير مطابق لواقع كوني أو لواقع منهجي تكليفي فهذا يصنع خللاً في الكون . وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا المثل في ذلك جاء بالمثل في أمر حسي حتى نراه جميعاً :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أي أن كل وادٍ تحمّل على قدر طاقته . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

فقبل أن ينزل السيل من على الجبال إلى الوديان ، يأخذ كل الأشياء التي تضادفه على الجبل من آثار الرياح ، ومن أوراق النبات ، فينزله إلى الوادي ، وتلك هي الأشياء التي تصنع الزَّبَد ونقول عنه في لغتنا العامية : « الرُّغَاوى » .

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وه رابياً ، أي عائياً وعالياً وطافها فوق المياه ، لماذا ؟ لأنه مادام زبداً ففيه فقائيع هواء تحمل حجمه أكبر من وزنه . وتصبح كثافته أقل من المياه ، لذلك يطفو فوقها . وماذا يكون الموقف بعد ذلك ؟

﴿ فَاحْتَمِلْ السَّيْلُ زَيْدًا رَأِيًا ۚ وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ نَارٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومن العجيب أنه سبحانه جعل المثلين في الماء والمضاد له وهو النار ، فلما رأى بزيد وغشاء يطفو على المياه ، وكذلك النار حين ندخل فيها المعادن . ومن رأى الحداد ينفع في كبره على قطعة من الحديد يرى الخبث ، والمواد الغريبة الممتزجة بالحديد والتي تنفصل أثناء الصهر عن الحديد ليصير صافيا . إذن فهناك زبد في الحديد تخرجه النار عند صهره ، وزبد يطفو فوق الماء .

﴿ وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ نَارٍ كَذَلِكَ بَصُرَ اللَّهُ الْحَقُّ

وَالْبَاطِلُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ولهذا نرى الباطل وقد أتى عليه زمن ليطفو فوق السطح ، ويخرج الخبث طافيا على أصول الحديد . لكن أياهم الباطل كذلك ؟ يُطْمِئِنُّ الْحَقُّ أَنَّهُ يَحْمِي الْحَقُّ فَيَقُولُ :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وحين نرى الباطل وقد طفا على السطح نفاجأ بعد وقت من الزمن أن الزبد يتهدى ويصبح الماء صافيا ، وكذلك الزبد الذي يطفو على الحديد ، بنفسه الحديد ليعقى صافيا . فإذا رأينا الباطل مرة يعلو ، فلنعلم أنه لا بقاء لهذا العلو ، لأن ما ينفع الناس يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .

ولماذا لا يعلن الحق عن نفسه من البداية ؟ أراد الله ذلك ليجعل الباطل من جنود الحق ، ولو لم يتعض الباطل الناس ويتبعهم أيتجهون إلى الحق ؟ لا ؛ لذلك كان لا بد أن يأتي إليهم الباطل ويتبعهم ليعثوا عن الحق . وهكذا نرى الباطل كجنود من جنود الحق . وضربنا المثل من قبل وعرفنا أن الألم عند المريض من جنود العافية ، فلولا ذلك الألم لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض ، فكان الألم يلفتته إلى موضع الداء ويدفعه للبحث عن وسائل الشفاء . وبذلك يتعرف على حلالة العافية .

إذن فالباطل من جنود الحق والألم من جنود الشفاء ؛ لأن أمور الحياة لو سارت على وتيرة واحدة لما عرف الإنسان أوجه الحياة ، فلو لم يأتِ الألم إلى المريض لأكله المرض . فإذا كان الألم من جنود الشفاء ، فالكفر أيضاً من جنود الإيمان ؛ لأننا عندما نرى الكفر ونشهد آثار الكفر فساداً في المجتمع ، نتساءل : ما الذي يخلصنا من ذلك ؟ ونعرف أن الذي يخلصنا من الفساد هو الإيمان .

وأكرر دائماً : كلمة الكفر بذاتها هي الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو الشتر ، وملام الكفر هو الشتر ، والكافر يستر الإيمان ، وظهور الكفر على السطح دليل وجود الإيمان في الأصل .

وملادام الحق قد قال : « سماعون للكذب الكالون للشعث » فلا بد بعد هذا التشخيص أن يرسم لرسوله أسلوب التعامل معهم : « فإن جاموك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » . فأنت يا رسول الله بالخيار بين أن تحكم بينهم في القضية التي جاموا من أجلها أو تعرض عنهم ، فليس عليك تجاههم إلزام ما ؛ لأنهم السماعون للكذب الكالون للشعث . وهم حينما يأتونك يا رسول الله طلباً لحكم إنما يفعلون ذلك لا رغبة في معرفة الحق ولا هم يلتزمون العدل . بل جاموك مظنة تيسير أمر الباطل وأكل الشعث لتفوسهم . وقد طلبوا الحكم في قضية الزنا وعندهم في التوراة كان الرجم عقاباً للزنا .

لقد ذهبوا لرسول الله لأنهم أرادوا أن يستروا حكم الزنا في التوراة ، والاكتفاء بالجلد وتسويد وجه الزاني وركوبه حماراً في الوضع العكسي بحيث يكون وجهه في اتجاه الدليل وقفاً في اتجاه رأس الحمار ، وأن يطوفوا بالزاني وهو على هذه الهيئة حول البلدة . ولما لم يسمعوا ذلك الحكم من الرسول ابتعدوا عنه . إذن هم يطلبون التخفيف لأنهم كانوا سماعين للكذب وأكالين للشعث . ولأن الذي سيطبق عليه الحد رجل له جاه وله مكانة وهم يريدون التقرب إليه بتخفيف العقاب عنه . وهل هناك تعارض بين قول الحق في الآية التي نحن بصدد خواطرنها عنها وبين قول الحق :

﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

لا تعارض . والبعض يقول : إن في قوله الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » إلزاماً . ونقول : المعنى الواضح هو أنك يا رسول الله ، إن رجعت جانب أن تحكم وتقض بينهم فاحكم بما أنزل الله ، ولنتظر إلى الأداء القرآني لأن المتكلم إله وحكمهم : « فإن جاموك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . ونلاحظ أن الأمر هنا جاء بطريقة تؤكد أن الإعراض ممكن ، لأنهم أرادوا أن يحكم لهم رسول الله على هواهم ، وطمانته الله بأنه سيحميه من شرهم إن أعرض عنهم ، وكان الحق يقول لرسوله : إياك أن تفكر حين تعرض عنهم أنهم سينالونك بالشر لأنك لم تحقق لهم التيسير الذي ابتغوه عندك « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » وإياك أن تجعل الضرر منهم مرجحاً للحكم ، فانت بالخيار ، إما أن تحكم وإما أن تعرض . ولا تخش من شرهم لأن الذي أرسلك بجميعك .

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » والحكم في هذه الآية بأن كالقوس في البداية وفي النهاية ، والحكم بينهم يكون بالقسط ، أي بالعدل . والعدل ليس كما يراه الهوى ولكن حسب ما أنزل الله . أي أن الله يحب الذين يزيلون الجور . ومادام الحكم بالعدل يأتي ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جوراً مقنن . إذن فـ « أقمسط » أي أزال جوراً مقنناً وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون . والكون كله يسير بميزان ، الأرض تدور والشمس تؤدي مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

فإن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التي حولكم ، فإن كانت بنظام وميزان واعتدلت الأمور ، اعتدلوا - إذن - في إدارة شؤونكم حتى تتسجموا كما انسجم الكون ، ولذلك نقرأ قوله تعالى :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ① وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ② وَالْمَاءَ رَفَعَهَا ③

وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ④ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑤ ﴾

(سورة الرحمن)

أمامكم الموازين العليا في الكون ، ولا تستطيعون إفسادها لأنها تسير بنظام لا دخل لكم به ، لذلك عليكم أن تتعلموا منها وأن تديروا أمور حياتكم بميزان حتى تستقيم أموركم الاختيارية .

﴿ أَلَا تَطْفَئُونَ الْمِيزَانَ ﴿٤١﴾ وَأَتَيْمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن رأيت حولك كونا غير مضطرب ، وغير مُتصادم ، ويؤدي حركته دون تعارض أو تصادم ، فافهم أنه قائم على ميزان الحق ، ووضع سبحانه لك ميزانا في الأمور الاختيارية ، والمرجعيات الاختيارية هي أحكام التكليف من الله ، فإن أردت أن تستقيم لك الأمور الاختيارية فسر بها على الميزان الذي وضعه الله .

ثم بلفتنا الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمٌ
اللَّهُ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يوضح سبحانه : كيف يأتون طلبا للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا بك يا محمد رسولا من الله ، فكيف يرضاك من لم يؤمن بك حكما ؟ لا بد أن في ذلك مصلحة مناقضة لما في التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لتنفيذوا الحكم الذي عندهم ، وهم إنما جاءوا إليك يا رسول الله طمعا في أن تعطى شيئا من التسهيل وظنوا - والعياذ بالله - أنك قد توفر لهم أكل السحت وسباع الكلب .

« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة » وهي مسألة عجيبة يجب أن يُفطن إليها ، لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو حكموك في أمر ليس في التوراة لكان الأمر مقبولا ، لكن أن يحكموك في أمر له حكم في التوراة ، وبعد ذلك يطلعك الله عليه



لتكشفه فتقول يا رسول الله : هاتوا ابن صوريا لئاني بحكم التوراة . ويعترف ابن صوريا بوجود حكم الرجم في التوراة . إذن هم رغبوا في الاحتيال ، وأراد الله أن يثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم لونا في الإعلام عن هؤلاء المارقين على أحكام الله ، هم يعلمون أن الرسول أتمى ، لم يقرأ ولم يكتب ، فمن الذى أخبره بالحكم الموجود بالتوراة ؟

إذن أخبره من أرسله ، وإذا كانوا قد أرادوا البحث عن حكم تخفف فالحق أراد ذلك ليكون سببا من أسباب الخزي لهم .

﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٣)

(سورة التوبة)

وهذا دليل على أن الرسول عندما حكم بغير مطلوب تسيبرهم . أعرضوا عن الحكم . ولو كانوا طالين للحكم بادية فبده لقبوا بالحكم بالرجم كما قاله لهم رسول الله ، لكنهم غير مؤمنين حتى بتوراتهم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤٤)

الهدى هو الطريق أو الدرب الموصّل للغاية . وتأتى على الطريق أحقاب الليل والنهار ، فالطريق مظلم ليلاً ، وقد تعترض السائر فيه عقبات ، أو قد لا يمضى السائر فى سواء السبيل أى وسط الطريق ، فيقع فى حفرة أو يصطدم بحجر .

ويوضح الحق هنا : لقد صنعت لكم الدرب وأنرت لكم حتى لا تصطدموا بشيء أو تأتى لكم عقبات ، وتمثّل ذلك فى المنهج الذى جاء به موكب الرّسل كلهم . وقد بما كان العالم مفككا ، متناثر الجماعات ، فلا توجد مواصلات ، وتعيش كل جماعة فى انعزال وشبه استقلال ، فإن حصلت داءات فى بقعة ما تظل محصورة فى هذه البقعة ، ويأتى رسول يعالج هذه الداءات ، فهذا يعالج أمر عبادة الأصنام ، وذلك يعالج مسألة الكيل والميزان ، وثالث يعالج الأمور المنظمة للحياة الزوجية عند اليهود .

هذه الداءات كانت متعددة بتعدد الجهات ، وعندما أراد الحق سبحانه أن يبصر الناس بأسرار كونه ليستنبطوا منها ما يقرب المسافات ويمنع المشقات لتلتقى الأمم . وعندما تلتقى الأمم لا يوجد فصل بين الداءات ، فالداء الواحد يحصل فى الشرق ليتقل إلى الغرب . وكان الداءات تتحد فى العالم أيضاً .

إذن لا بد أن يجيء الرسول الجامع ليعالج الداءات كلها ، فيأتى صلّى الله عليه وسلم الجامع المانع ، فإذا ما قال الحق : إنه أنزل التوراة فيها هدى ونور ، فالإنجيل أيضاً فيه هدى ونور ، وكل هدى ونور فى أى كتاب إنما هو للداءات الموجودة فى البيئة المنزلة . مثال ذلك أن سيدنا إبراهيم كان موجوداً ، ومعه فى الزمن نفسه سيدنا لوط . وها هوذا سيدنا موسى كان موجوداً . وكذلك سيدنا شعيب ، إذن كانت الرّسل تتعاصر فى بعض الأحيان لأن كلا منهم يعالج داء معيناً . وهكذا كانت الرسائل تأتى محدودة الزمان ومحدودة المكان .

أما محمد صلّى الله عليه وسلم فقد بعثه الله للناس كافة بكل أجناسهم وتفرم على منهجه الساحة ؛ لذلك لم تعد الأرض فى حاجة إلى رسول آخر ، وصار من المنطوق أن يكون هو الرسول الخاتم .

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، لماذا إذن يأتى

علم ، لكن قد ينتفع هو بعلمه ، وقد لا ينتفع ، لكنه ينقل علمه إلى من ينتفع به .
ولذلك يقول أحد العلماء :

فخذ بعلمي ولا تركزن إلى عمل
واجني الشمار واخل العود للنار

فلا تقل : إن هذا العالم يقول لنا كذا وكذا ، ونراه في تصرفاته عكس ما يقول ،
لأن عليك أن تأخذ ثمرة العلم ، واترك العود للنار . ولكن على العالم أن يكون أول
من يمثل ويطبق ما يقوله حتى لا يعذب ولا يدخل تحت قوله تعالى : « يا أيها الذين
آمَنُوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

« والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله » وعرفنا أن التوراة فيها نور
وهدي ومحكم بها النبيون والربانيون والأخبار بالوسيلة التي طلب الله منهم أن
يحفظوها ، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة . وقال الحق :
« استحفظوا » ولم يقل : « حفظوا » ليبين لنا الفارق بين كل كتاب سابق للقرآن وبين
القرآن ، لأننا عرفنا أن كل رسول قد جاء بمعجزة تدل على أنه صادق البلاغ عن
الله .

ولكل الرسل من السابقين على رسول الله معجزة منفصلة عن المنهج ، مثال ذلك
سيدنا موسى فمعجزته العصا وقلق البحر ، أما منهجه فهو التوراة . وسيدنا عيسى
معجزته إبراء الأكمه والأبرص ، والمنهج الذي جاء به هو الإنجيل . أما سيدنا رسول
الله فمعجزته هي عين منهجه ، وهي القرآن . وكان الأمر الموجود بالنسبة لكل
رسول مرتبطا بزمانه وجماعته ومحتاجا إلى معجزة مناسبة ومنهج مناسب ، لكن
الرسول الذي أرسله الله إلى الناس جميعا وخاتما للأنبياء لا بد أن تظل معجزته عين
منهجه بحيث يستطيع أي مسلم أن يقول حتى قيام الساعة : محمد رسول الله وهذه
معجزته وهي عين منهجه .

وسيطل القرآن معجزة ظاهرة إلى أن تقوم الساعة ، لأن الله أرادها مختلفة عن بقية
المناهج والمعجزات . فالمعجزات السابقة كانت كعود الثقاب الذي يشتعل مرة

واحدة ؛ فمن رآه لحظة الاشتعال فالأمر بالنسبة إليه واضح ، أما من لم يره فهو لن يصدق تلك المعجزة إلا أن يخبره من يصدقه . وقد استحفظ الله الربانيين والأخبار بالتوراة ، أي طلب منهم أن يحفظوها ، وكان هذا أمراً تكليفاً ، والأمر التكليفي عُرضة لأن يُطاع وعُرضة لأن يُعصى . واستحفظهم الله التوراة والإنجيل :

﴿ فَتَنُوا حَظًّا تَمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة للتائيه)

وصار أمر المنهج منسياً . وليس على بالهم كثيراً ؛ لأن الأمر إذا توارد على البال واستقر دائماً في بؤرة الشعور يظل في الذهن ، لكن النسيان يأتي عندما يكون الأمر بعيداً عن البال .

والحق طلب منهم أن يحفظوا المنهج ، ولكنهم - ماعدا النبيين - لم ينفلخوا ، وكل أمر تكليفي يدخل في دائرة الاختيار ، ولذلك نجد أن الأخبار والربانيين قد نسوا . وما لم ينسوه كنموه . وأول مرحلة من مراحل علم الحفظ أنهم نسوا ، والمرحلة الثانية هي كتمان ما لم ينسوه ، والثالثة هي : ما لم يكتموه حُرّفوه ولووا به ألسنتهم . وباليتمهم اقتصروا على هذه المراحل فقط ، ولكنهم جاءوا بأشياء وقالوا : هي من عند الله وهي ليست من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

إذن فالحفظ منهم لم يتم ؛ لذلك لم يدع الله القرآن للحفظ بطريق التكليف ؛ لأنه سبحانه اختبر البشر من قبل ، ولأنه أراد القرآن معجزة باقية ؛ لذلك لم يكل الله سبحانه أمر حفظه إلى الخلق ، ولكنه تكفل - سبحانه - بأمر حفظ القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ① ﴾

(سورة الحجر)

ومصادق هذا النص ، أن بعضاً من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في هجر منهج الإسلام ومنهج القرآن إلا أنك تجد عجباً ، فبمقدار بعدهم عن منهج الإسلام تطبيقاً يحافظون على القرآن تحقيقاً ، فيكتبون القرآن بكل ألوان الكتابة وبكافة الأحجام ، فهناك حجم ذهبي ترقديه النساء في صدورهن ، وحجم يوضع في اليد ، وبعد ذلك

نجد الكفرة أنفسهم يخترعون طريقة لكتابة القرآن في صفحة واحدة .

إذن فإله يُسخر لحفظ القرآن حتى من لم يكن مسلماً . وتلك خواطر من الله . ونحن نرى كل يوم من يتعلمون بسلوكهم عن المنهج لكنهم يرصدون المال لحفظ القرآن . ونجد القرآن محققاً باللف وسيلة حفظ : الرجل يضع في سيارته مصحفاً ، وفي حجرة نومه مصحفاً ، وقد تكون المرأة سافرة وصدرها مكشوف ولكنها تعلق مصحفاً ذهبياً . وهذا يثبت لنا أن حفظ القرآن ليس أمراً تكليفاً . بل هو إرادة الله .

فلو كان الأمر تكليفاً لكان نسيان القرآن وارداً ، لأن المسلمين ابتعدوا في بعض أمورهم عنه كمنهج ، ويناسب ذلك أن يفصلوا عنه حفظاً . ولكن الأمر صار بالعكس . فعل الرغم من بُعد المسلمين عن المنهج ، لكن حفظ القرآن لا يقل أبداً ، ومن العجيب أن الكثيرين من المشرقيين على أنفسهم ، إن سمع واحد منهم أن شيئاً يمس المصحف ، يقيم الدنيا ويقعدها ، فالمسألة ليست مسألة ، ولكنها مسألة الحفاظ جل شأنه . وإن حدث أى تحريف يسير في القرآن من أهداء الإسلام ، نجد أمة الإسلام تقف وقفة رجل واحد . ولقد أراد بعض المدلسين أن يندسوا على القرآن ما ليس فيه وجاموا إلى آية في سورة الفتح وهي :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وقالوا : « محمد رسول الله صل الله عليه وسلم » وكأنهم يرغبون في زيادة التكريم لرسول الله ، فلما عرف المسلمون ذلك قامت ضجة وأحرقوا تلك المصاحف . ومنع المسلمون التحريف مهما كان باب الدخول إليه .

« فلا تخشوا الناس واخشون » والخشية : خوف متوهم عن تظن أنه قادر على الضر ، ولا أحد غير الله قادر على النفع والضر ؛ لذلك لا يصح أن يخاف الإنسان من سواه ، أما أن تظن أن السلطان أو القريب منه قادر على الضر ، فهذا أمر غير صحيح ، وليخش كل إنسان الحق سبحانه وهو جل وعلا نصيحنا أن تكون الخشية منه دون سواه .

وإن غير أحد أحكام المنهج من أجل السلطان أو أقارب السلطان أو أصدقاء

السلطان فذلك عين الفساد . والآفات والشرور تأتي من ذلك . بل قد لا يدري السلطان شيئاً عن ذلك ، وقد يتدخل قريب للسلطان - دون علم السلطان - ليطلب من العلماء تغيير بعض من المنهج ولا يستسلم له إلا الضعاف منهم ، وقد فطن سيدنا عمر رضي الله عنه إلى هذا الأمر فقال : إن الفساد قد لا يأتي من السلطان ، ولكن من الذين حول السلطان .

والخشية هنا تكون من غير الله ، ولذلك كان سيدنا عمر يجمع أقاربه والملثمين حوله ويقول لهم : لقد اهتمت أن أصدر كذا وكذا فوالذي نفسي بيده من خالفني منكم إلى شيء من هذا جعلت نكالا للمسلمين .

هذا هو أسلوب من أراد أن يخدم ويحكم ولا يحمل أوزاراً ، ونرى صور الفساد إنما جاءت نتيجة مخالفة القاعدة الحكيمة : « فلا تخشوا الناس واخشون » .

ويتابع الحق من بعد ذلك : « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً » وثمان آيات الله مهما بولغ في تقييمها قلن يتجاوز نفعه هذه الدنيا ، لأن الدنيا - كما قلنا سابقاً - لا تقاس بعمرها الحقيقي أي إلى أن يفنى الله البشر ، وإنما دنيا كل حي تقاس بعمره فيها .

فهب أن الحياة طالت للملايين السنين فما نفع الفرد المحدود العمر بهذه الملايين من السنين ؟ إذن فدنيا كل إنسان هي مقدار عمره في الحياة . وعمر الفرد في الدنيا له حد محدود غير معروف لأحد غير الله ، فلكل أجل كتاب . ولذلك نحمد واحداً يعيش متوسط الأعمار وهو سبعون عاماً . ويختلف العمر من إنسان لآخر ، وقد يموت آخر عند الستين وثالث يموت في الأربعين ورابع يموت في المائة ، وخامس يموت وهو طفل رضيع .

إذن فدنيا الفرد قد تكون لحظة . ومادامت مسألة العمر لا يحكمها زمن ولا يحكمها سبب فهي - إذن - بإرادة الحق غيب .

واقضية الموت في الوجود جعلها الله شائعة في كل زمن ولم يجعلها الحق بعد الميلاد . بمعنى أن يولد الإنسان ليموت من بعد ذلك ، لا ، فقد يموت الكائن

البشرى وهو جنين في بطن أمه ؛ فهذا حمل يسقط من بعد ساعة ، وذلك حمل يسقط من بعد شهر أو شهرين ، وجعل الحق لنا ذلك لنأخذ من الأمر الغيبى وهو الجنين في البطن مراحل تكوينه . إنه يعطينا شكل الجنين بعد نصف ساعة من التكوين ، ويعطينا شكل الجنين من بعد ساعة . وكل الأزمنة في الحياة والموت موجودة . وعندما نحلل تلك الأشكال نجد أمامنا كل أطوار الجنين ، وكل أطوار الحياة ليكون ذلك واضحاً جلياً حتى لا يحسب أحد لنفسه عمراً في هذه الدنيا .

ومادام الثمن الذى يأخذه المرتشون ليغيروا آيات الله وأحكامه سينفعهم في هذه الدنيا ، وأعمالهم في هذه الدنيا محدودة ، كان عليهم أن يتذكروا أن حياتهم زمنياً قليلة بالنسبة لعمر الدنيا . وحتى يقوم الإنسان بعملية اقتصادية لا بد أن يتعرف إلى أن عمره محدود بقدر سنوات مجهولة بالنسبة له في هذه الحياة ، وهو عمر محدود مهما طال . وإن قارنها الإنسان بالحياة في العالم الآخر فسيجد أن عمره الدنيوى منى ، فإن قايضه بعمر غير منى هو عمره في الآخرة ، فذلك هو الفوز العظيم ؛ لأن وجود الإنسان في الدنيا مظنون ، ووجود الإنسان بالنسبة للآخرة متيقن . ونعيم الفرد في الدنيا هو على قدر إمكاناته ولو في السلب . ونعيم الإنسان في الآخرة ينسب إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .

إذن فأي صفة تكون هي الرابعة ؟ محدود مقابل غير محدود ، ومظنون مقابل متيقن ، ونعيم على قدر مكنة وسلطان الفرد ولو بالسلب مقابل نعيم على قدر طلاقة قدرة الحق ، أى صفة هي الرابعة ؟ إذن فصفة الدنيا قليلة بالنسبة لما وعد الله به المتقين . ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

ماذا يعنى الحكم بما أنزل الله ؟ .

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل قضية مخالفة في الكون حكماً ، فإذا أردت أيها الإنسان أن تحكم في أمر فعليك أن تبحث عن جوهره بسلسلة تاريخ هذا الأمر . ونجد أن قمة كل الأمور هي العقيدة ، وهو وجود الواجب الأهل وهو الله ، فإن حكمت بأنه غير موجود فذلك هو الكفر . وإن آمن الإنسان بالله ثم جاء إلى أحكام

الله التي أنزلها وقال : لا ، ليس من المعقول أن يكون الحكم هو هكذا . فهذا لون من رد الحكم على الله وهو لون من الكفر .

لما إن آمن الإنسان بالحكم وقال : إنني أصديق حكم الله ، ولكن لا أقدر على نفسي فهل هذا كفر ؟ أم هذا ظلم ؟ إنه ليس كفراً ، ويكون ظلماً إن كان حكماً بين اثنين . وهو فسق إن كان بين الإنسان وبين نفسه ، لأنه يفسق عن الحكم كما يفسق الرطبة عن قشرتها .

فالفاسق هو من له إطار من التكاليفات ويخرج عن هذا الإطار كالرطبة التي خرجت من قشرتها . ومادامت الرطبة قد خرجت من قشرتها فهي عرضة للتلوث .

إذن فإن سمعت قول الله :

﴿ وَمَنْ لَّا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وعندما تسمع :

﴿ وَمَنْ لَّا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

وعندما نسمع :

﴿ وَمَنْ لَّا يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة المائدة)

فتذكر أحكام الله ومحاول أن تقدر على نفسك . وقيل : إن ذلك لليهود ، لأن الحق قال :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وقيل : إن الثانية جاءت للنصارى الذين لم يحكموا بالإنجيل .

ولنا أن نقول رداً على مثل هذه الأقوال : أمن الممكن أن يكون ذلك للأديان السابقة على الإسلام وليس موجوداً بالإسلام ؟ ذلك أمر لا يقبله العقل أو المنطق ، فهي آيات نزلت في مناهج الحكم عامة . فإن حكم إنسان في قضية القمّة وهي العقيدة بغير الحق ، فذلك هو الكفر . وإن ردّ الإنسان الحكم على منشئه - وهو الحق الأعلى - فهذا لون من الكفر . وإن أمن الإنسان بالقضية وهو مؤمن بالإله فغلبته نفسه فهذا هو الفسق . وإن حكم إنسان بين اثنين وحاد ومال عن حكم الله فهذا هو الظلم .

إذن فـ « كافرون » و « ظالمون » و « فاسقون » تقول لنا : إن الألفاظ اختلفت باختلاف المحكوم به . فلا يقولن أحد : إن تلك آية نزلت لتلك الفئة ، وتلك الآية نزلت لفئة أخرى ، وثالثة نزلت لفئة ثالثة ، ولكنها أحكام عامة لمناهج التكليف عامة . والحق قال في بداية كل حكم « وَمَنْ » و « وَمَنْ » كما نعلم كلمة عامة . والدليل على ذلك أن من يحكم بغير ما أنزل الله إنما هو يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً ورد الحكم على الله . وقال الحق في الآية اللاحقة :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

إنها أحكام تتعلق بجرائم ، وعقوبات على جرائم ، وهنا يكون الحكم بغير ما أنزل الله ظليماً . إذن فالأمر يختلف حسب المحكوم عليه .

وحيثما تعرضنا لقضية الخلق الأول وهو خلق آدم ، وطلب الله من الملائكة المكلفين بتدبير أمور الخلق في الأرض أن يسجدوا لآدم . وقلنا إن هذا السجود هو رمزية لأن يكونوا في خدمة آدم ، لأن كل مظهر من مظاهر القوة في الكون لا يرى الملك الذي يديره ، فكل قوة لها ملك معين ، ولأن ذلك الأمر من الغيب فنحن لا نراه ، إنها ملائكة مدبرات أمر . وحين يبلغهم الحق أن الطاريء على الكون وهو آدم ، وأنهم في خدمته ، ومن أجل ذلك أمرهم بالسجود لآدم . ولذلك نجد أن بعضاً من الملائكة الذين ليسوا من المدبرات أمراً لم يشملهم الأمر . ويكلم الحق إبليس عندما رفض السجود قال سبحانه :

﴿ أَتَسْكَبَرْتُ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

إن « العالين » هم الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يدرون ولا يعلمون بأمر آدم ، فقد سأل الحق إبليس : أنت مستكبر عن السجود أم أنت من العالين الذين لم يشملهم أمر السجود ؟ وقلنا إن إبليس لم يكن من الملائكة ، لأنه بنص القرآن :

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ولذلك لا يصح أن يكون « إبليس » محل خلاف أمر من الملائكة أم لا ! فهو ليس من الملائكة . وفي القرآن نص صريح يثبت جنسية إبليس . وهو من الجن . وكان من المختارين ، له أن يطيع أو أن يعصى . لأن الجن داخلون في قانون الاختيار . فإن ألزم الجن نفسه بمنهج الله إلزاماً يتساوى به مع الملائكة وجب عليه أن يقوم بذلك . ولكنه لم يفعل . وكان من الواجب أن يطيع إبليس الأمر . ومادام الحق هو الذى أمر بالسجود ، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أن يسجد ؛ لأن المراتب محفوظة كما نعلم ، ورئيس الجمهورية عندما يدخل على الوزراء فهم يطيعون أمره ، وإن كان يجلس مع الوزراء بعض وكلاء الوزارات فهم يطيعون أوامره ؛ ذلك أنهم يدخلون في الأمر من باب أولى . ولو كان إبليس أعلى من الملائكة لكان أولى له أن يستجيب لأمر الخالق الأعلى ولا يعصى ويتأى ، أما وإنه كان أقل من الملائكة فكان لا بد من باب أولى - أن يتصاع لأمر الله . لكن إبليس علل أمر عدم السجود ، فقال :

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وفي آية أخرى قال سبحانه :

﴿أَتَجِدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وحين يتأى كائن على الحكم ، يتأى على الحكم الأصم ، أى على الحكم من حيث هو حكم دون النظر إلى الحاكم ، أم على من حكم بالحكم وهو الأعلى سبحانه ؟ . تأى إبليس على من حكم بالحكم ، ولذلك طرده الحق من الجنة وصار ملعوناً . لكن آدم عصى ربه وقرب من الشجرة التى نهاه الله عنها . ومن رحمة الله

تعالى أنه جعل في التكاليف مقدمات تنطبق على حالة المكلف نفسه ، فلم يقل الحق
لآدم : لا تأكل من الشجرة . ولكنه قال :

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

لأن الحق علم أن آدم إنسان ، والإنسان من الأغيار ، وهو عندما يرى الشجرة
بشاهها قد لا يقدر على نفسه ، ولذلك كان من الأفضل ألا يقرب من هذه الشجرة .
وسبحانه يريد أن يحمي الإنسان ؛ لأن التكاليف التشريعية لا يرفعها الحق ، ولا يعفى
المكلف من القيام بها إلا في الأمر الذي ليس للإنسان فيه اختيار ، ولذلك أراد الحق أن
يحمي الإنسان من الاقتراب من تلك الشجرة حتى لا تغريه وجاء الحق بمثل هذا الأمر في
الخمر فلم يقل : لا تشربوا الخمر . ولكنه قال :

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

لأن الإنسان لو جلس في مجلس خمر ورأى السكاري قد سعدوا وضحكوا فقد
تراوده نفسه على شرب الخمر . إذن فالأمر بالاجتناب هنا أبلغ من « لا تشربوه » .
ونجد أن تكاليف الحق إنما تأتي للعمل النزوعي ، ومعنى العمل النزوعي أن يتحرك
الإنسان للعمل . أما بالنسبة للإدراكات فمن الجائز أن يدرك الإنسان الأمر . ويترك
الحق لنا حرية حب من نشاء وكراهية من نشاء . ولكن هذا الحب لا يصح أن يصدر
عنه عمل نزوعي فنجاهله بالباطل . وكذلك الكراهية فليس هناك أمر بالكراهية ،
ولكن إن كره إنسان إنساناً فلا يصح أن يظلمه . فالمنهي عنه هو الظلم ، ولذلك قال
الحق :

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾

(من الآية ٨ سورة المائدة)

أي لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا . إذن فالحق لم يحرم البغض لأنه مسألة
عاطفية . ولكن التحريم ينحصر على الإقدام على عمل يخل بميزان العدل مع من
تكروه . ويجب أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن من ظلمه بمعصية ، فلا يجازيه
الإنسان إلا بطاعة الله . وآدم أكل من الشجرة ، فهو - إذن - قد تجاوز مسألة

الاقتراب إلى مسألة الأكل من الشجرة ؛ لأنه لو قرب منها لكان مخالفاً ، فيما بالناس وهو قد أكل منها أيضاً ؟ إذن فقد أوغل آدم في المعصية ، لكنه قال : (ظلمنا أنفسنا) .

وهذا اعتراف واضح بأن حكمك يا الله هو الحكم الحق ، لكنني لم أقدر على نفسي يا رب . إذن فهو لم يرد الحكم على الله ، ولكنه اعترف بأنه لم يقدر على تنفيذ الحكم ، لذلك أعطاه الله كلمات ليقولها فيتوب عليه . وسبحانه هو الذي علم آدم كيف تكون التوبة . فآدم - إذن - ليس كإبليس الذي رد الحكم على الله ؛ لأن آدم قال : أنا لم أقدر على نفسي .

إذن فمن لم يحكم بما أنزل الله راداً للحكم على الله ومخفئاً لله - سبحانه - فهو كافر . وإن كان حكماً بين اثنين وحكم بغير ما أنزل الله فهو ظالم . أما إن كان حكماً على النفس ولم يقدر عليه الإنسان فهذا فسق . وكل وصف جاء حسب حكمه . ولا داعي - إذن - للجدل ولا للخلاف ولا ادعاء أن هناك قولاً يقصد به اليهود ، وآخر ورد في النصرانية ، ولا يصح أن يزين الإنسان الباطل لأحد ، لأن ورود الحكم بما أنزل الله في الإسلام أمر جازم يوجب الالتزام به .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ
وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ
بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ
تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ٤٥

لقد كتب الحق على اليهود في التوراة التي وصفها من قبل بأنها هدى ونور ، كتب

وأوجب عليهم أن النفس بالنفس ، وعليها أن تأخذ كل أمر وما يناسبه من الحدث .
 أى أن النفس تقتل بالنفس . ولكن عندما يقول الحق : « والعين بالعين » ، فهل
 يعنى ذلك أن تقتل العين ؟ لا . ولكن العين تطلع مقابل عين . وكذلك « والأنف
 بالأنف » . أى الأنف المجدوعة ، مقابل جدع أنف أخرى . وكذلك قوله الحق :
 « والأذن بالأذن » أى إصابة أذن بالصمم مقابل إصابة أذن بالصمم . إذن فلكل
 ما يقابله . فهناك النفس تقتل بالنفس وهناك العين تقف بالعين ، وكذلك الأمر في
 جدع الأنف ، وصلم الأذن .

إن تعبيرات اللغة واسعة تعطى لكل وصف ما يناسبه . فالإنسان مثلاً قد يكون
 جائعاً . ولكن إلى ماذا ؟ إن كان جائعاً لطعام فهو جوعان . وإن أراد خصوصية أكل
 ويشتهي اللحم فلا يقال له : جوعان ، ولكن يقال « قَرْم » . وإن كان يشتهي اللبن
 يقال له : « عَمِيَان » ، وإن كان في حاجة للماء يقال له : « عطشان » . وإن كان
 جائعاً للجنس فهو « شَبِق » .

وذلك يكشف لنا أن الإنسانية تحتاج إلى أمور متعددة ، وكل أمر له اسم . وكل
 شيء له تعبير . ومثال آخر : يقال : فلان جلس ، أى قعد . وهذا في المعنى العام .
 ولكن الجلوس يكون من اضطجاع . أما قعد ، فهي عن قيام ، أى كان قائماً
 وقعد . ولذلك قال الحق : « قياماً وقعوداً » .

ومثال آخر : يقال : « نظر » و« رمق » و« لمح » ، وكل كلمة لها موقفها ، فالنظر
 يكون بجميع عينيه . و« رَمَقَ » أى لحظ لحظاً خفيفاً . و« لَمَحَ » أى اختلس النظر
 إليه . وكذلك قوله الحق معناه : أننا كتبنا عليهم فيها أن النفس مقتولة بالنفس ،
 والعين مفقودة بالعين ، والأنف مجدوعة بالأنف ، والأذن مصلومة بالأذن ، والسن
 مخلوعة بالسن . وبعد ذلك يقول الحق عن الجروح : « والجروح قصاص » لأن
 الجرح قد يكون في أى مكان . والقصاص يكون بمثله ومساوياً للشيء ، وهو مأخوذ
 من قص الأثر ، أى السير تبعاً لما سارت عليه القدم السابقة دون انحراف . ولما كان
 القصاص هو أمر مطلوب فيه المماثلة فذلك أمر صعب ، صحيح أن الحق قال :

﴿ قَلِيلٌ مَّا عَتَدْنِي عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدْنِي عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

وفي صعيد مصر ، ساعة يُقتل إنسان نجد الذي عليه الثأر يأخذ كفته ويذهب إلى العائلة الطالبة للثأر ، ولحظة يدخل عليهم حاملاً كفته بيديه ، تشفى النفوس من طلب الثأر . وبمعا ، وصاحب الثأر متفضل عليه بالعيش « فمن تصدق به فهو كفارة

له « تكون الصدقة هنا من ولي القصاص . والفعل « تصدق » يحتاج إلى اثنين هما : « متصدق » و « متصدق عليه » . وسبحانه الحق يكفر عن المتصدق من الذنوب بقدر ما تسامح فيه لأخيه ، وهنا يحسن الله الخلق بعضهم على بعض ؛ لذلك تأتي المسألة هنا من ناحية صاحب القصاص لترغبه في التصديق .

وينهى الحق الآية بقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وعرفنا من قبل ضرورة الحكم بما أنزل الله . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

وقفنا على أثرهم جاء من بعد موسى « فعندما يمشى رجل خلف رجل نجد أنهما الأول يكون في وجه الثاني . وعندما يقول الحق : « وقفنا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه » أي مصدقاً لموسى الذي جاء بالنوراة . « وآياتناه الإنجيل فيه هدى ونور » . وعرفنا أن « الهدى والنور » يناسبان البيئة التي نزلت إليها تلك الهداية وذلك النور .

إن هناك مقولات اسمها « المقولات الإضافية » ، كأن يقول إنسان في قرية لابنه : أشعل الضوء . ويشعل الولد المصباح الكيروسيني ؛ أما إذا قال إنسان في مدينة لابنه : أضئ النور ، فالابن يضغط على الزر ليضيء المصباح الكهربائي . وهذه الإضافات قد تجعل اللفظ يحمل معنيين . ومثال آخر أكثر وضوحاً : يسكن الإنسان في منزل ما ، ويعرف أن السقف عال بالنسبة له ، ولكنه أرض بالنسبة لأصحاب الدور الثاني ، إنه علو وسفل وهذا هو المعنى الإضافي . وكذلك عندما

نقول : فلان ابن فلان ، فهذا لا يمنع أن هذا الابن يكون أباً بالنسبة لابنه .

إذن « هدى ونور » هي معان إضافية . وكل « هدى ونور » يناسب البيئة التي نزل فيها . فالبيئة المادية الأولى كانت في حاجة إلى تقنين ، لذلك جاءت التوراة ، ومن بعد ذلك صارت هذه البيئة المادية في حاجة إلى طاقة روحية ، لذلك جاء الإنجيل بكل الروحانيات ، وعندما سئل عيسى ابن مريم عليه السلام في قضية الميراث قال : أنا لم أرسل مورثاً ، فهو يعلم أنه جاء بشحنة روحية فيها مواجيد ومواظ . ويتابع الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ
وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤٧)

والحق أنزل في الإنجيل أن الأحكام تؤخذ من التوراة . لئى أن الإنجيل تضمن إلى جانب روحانياته أسس الأحكام الموجودة في التوراة . ولذلك أوضح الحق : من لم يحكم بما أنزل الله فهو فاسق مادام قد خرج على الطاعة . فإن خرج أحد على الطاعة في أمر الألوهية والربوبية فهو كافر . ومن خرج على الأحكام بالنسبة للحكم بين الناس فهو ظالم . إذن فالمسألة كلها متداخلة ، فالشرك ظلم عظيم أيضاً .

وبعد أن تكلم الحق عن التوراة والإنجيل ، جاء بما نزل إلى النبي الخاتم :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَأَحْكُم بَيْنَهُم

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ
 الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ
 اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا
 آتَيْنَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
 جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾

وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » نعرف أن هناك تشريعاً جاء من أعلى . وهناك من
 يريد أن يلبس الناس أهواءه ، فيقول : إن الإسلام دين تقدمي ، أو يقول :
 الإسلام دين رجعي ، وكلاهما يحاول أن يلبس الإسلام بما ليس فيه ، ونقول :
 لا تقولوا ذلك ولكن قولوا الإسلام فوقى ؛ لأنه جاء من الله ، فإن كان للتقدمية مزايا
 فهو تقدمي ، وإن كان للرجعية مزايا فهو رجعي ، وإن كان لليمين مزايا فهو يميني
 وإن كان لليسار مزايا فالإسلام يساري ؛ فقد جاء الإسلام بالاستطراق الاجتماعي
 والتقدم العلمي الأصيل ؛ لأن مفهوم التقدم هو أن يرتقى الإنسان بنفسه ارتقاءً
 متقدماً يجعل الناس متكافئين .

إن الإسلام ليس تقدماً فقط بالنسبة للحياة الدنيا ولكن بالنسبة لحياة أخرى
 خالدة فوق هذه الحياة . إن الذين يناقشون تلك الأفكار لا يحسنون فهم أفكارهم
 سواء أكانت تقدمية أم رجعية أم يمينية أم يسارية . ونرى أن المناهج المعاصرة التي
 تسبب كل هذا الصراع في الدنيا من شرق وغرب هي : الرأسمالية والشيوعية
 والاشتراكية والوجودية وغيرها .

وعندما ننظر - على سبيل المثال - إلى القائمين على أمر الثورة الشيوعية عام
 ١٩١٧ ، نجد قولهم : إنهم مازالوا في بداية الطريق إلى الشيوعية ، ولكنه اختيار
 الطريق الاشتراكي .

كان يجب أن يتجهوا إلى ما نادوا به ، ولكن ها نحن أولاء نرى أنهم كلما تقدموا في الزمن تراجعوا عن أفكارهم الأولى . حتى انقلبوا على أنفسهم . وذلك دليل على أن المنهج الذي اتخذهوا لأنفسهم غير صحيح .

والمنهج الرأسمالي أظلم كما هو ؟ لا ، لأن الأحداث قد اضطرت الرأسمالية أن تعطى العمال حقوقاً وبذلك لم تبق لرأس المال شراسته . كما سارت الشيوعية إلى معظم أساليب الرأسمالية . والرأسمالية سارت إلى بعض من أساليب الاشتراكية وهما - إذن - يريدان أن يلتصقا . ولكن الإسلام أوجد هذا اللقاء من البداية ، فاحترم رأس المال ، واحترم العمل . وكل إنسان لزم حدوده . وضمن وجود واستمرار حركة الحياة . ولذلك نجد أن الرأسمالية تقول : يجب أن توفر الحوافز للعمل . ولم تصل الشيوعية أيضا إلى مداها ، بل قامت بإهدار حقوق الناس ، ثم ماذا عن الذين لم تمتد إليهم يد الشيوعية - قبل أن توجد - وكان فيهم من يستغل الناس ؟

كان العقل يحتم أن تؤمن الشيوعية بأن هناك آخرة يعاقب فيها من استغلوا الناس من قبل ، ومن مصلحتهم إذن أن توجد آخرة . وكان من اللازم أن يكونوا متدينين . وكذلك الرأسمالية التي لا تعترف إلا بالربح المادي ، امتلأت مجتمعاتها بالفسحايا الذين فقدوا المعنويات . وقول الحق : « أنزلنا » يعتبر أن هناك منهجا نزل من أعلى . ونحن نأخذ معطيات البيان القرآني ، نجده سبحانه يبلغنا تعاليمه : « قل تعالوا » . أي ارتفعوا إلى مستوى السماء ولا تهبطوا إلى حضيق الأرض .

ولذلك قال الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ونرى أن آيات القرآن تتآزر وتخدم كل منها الأخرى . ونزول الكتاب بالحق يحتاج إلى صدق دليل أنه ينزل من الله حقا ، وأن تأتي كل قوانين الحق في حركة الحياة بالانسجام لا بالتنافر ، وهناك آية تشرح كلمة « الحق » :

﴿ وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ زَلَّ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أي أنه نزل من عند الله وليس من صناعة بشر . (وبالحق نزل) أي نزل بالمنهج من عند الله الذي يقيم منطق الحق في كل نفس وكل مكان ، ويضمن كل حق يقيم حركة الحياة .

وهنا أجملت الآية ، فقالت : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » أى أن القرآن مصدق للكتب السماوية السابقة . وما الفارق بين كلمة « الكتاب » الأولى التى جاءت فى صدر الآية ، وكلمة « الكتاب » الثانية ؟

إننا نعلم أن هناك « ال » للجنس ، و « ال » للعهد ، فيقال « لقيت رجلاً » فأكملت الرجل ، « أى الرجل المعهود الذى قابلته . فكلمة الكتاب الأولى اللام فيها للعهد أى الكتاب للمعهود المعروف وهو القرآن ، وكلمة الكتاب الثانية يراد بها الجنس أى الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، فالقرآن مهيمٌ رقيبٌ عليها ، لأنها قد دخلها التحريف والتزييف .

كلمة « الحق » - إذن - تعنى أن كتاب الله الخاتم لكتبه المنزلة وهو القرآن قد نزل بالحق الثابت فى كل قضايا الكون ومطلوب حركة الإنسان . ونزل بالحق بحيث لم يصبه تحريف ولا تغيير .

إذن فالحق هو فى مضمونه وفى ثبوت نزوله . وقد نزل القرآن بعد كتب أنزلها الله متناسبة مع الأزمنة التى نزلت فيها ؛ لأنه سبحانه خلق الخلق لمهمة أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن يعمرُوا هذا الكون بما أمدهم به من عقل يفكر ، وطاقات تتفد ، ومادة فى الكون تتفعل ، فإن أرادوا أصل الحياة مجرداً عن أى ترقى أو إسعاد فلهم فى مقومات الأرض ما يعطيهم ، وإن أرادوا أن يرتقوا بأنفسهم فعليهم أن يعملوا العقل الذى وهب الله ليعخدم الطاقات التى خلقها الله فى المادة التى خلقها الله ، وحيث ياخلدون أسرار الله من الوجود .

إن أسرار الله فى الوجود كثيرة ، وتفعل لنا وإن لم نعرف نحن السر . فنجد الجاذبية التى تمسك الأفلاك تفعل لنا ، وإن لم نكن قد اكتشفنا الجاذبية إلا أخيراً . والكهرباء السارية فى الكون سلباً وإيجاباً تعمل لنا وإن لم نعرف ما تنطوى عليه من سر .

إن الحق سبحانه حين يريد ميلاد سر فى الكون سبحانه يمد الخلق بأسباب بروز هذا السر . واعلموا أن كل سر من أسرار الكون المسخر للإنسان له ميلاد كميلاد

الإنسان نفسه ، إما أن يصادف - هذا الميلاد - عمل العقل في مقدمات تنتهي إليه ،
وحيثئذ يأخذ الميلاد مع مقدمات استعمالها البشر فوصلوا إلى النتيجة ، تماماً مثل
التمرين الهندسي الذي يقوم الطالب بحله بعد أن يعطيه الأستاذ بعضاً من
المعطيات ، ويستخدمها التلميذ كمقدمات ليستنبط ما يريد المدرس أن يستنبطه من
مطلوب الإثبات . فإن صادف أن العقل يبحث في الشيء معطياً وتجريبياً وصل ميلاد
السر مع البحث . وإن جاء ميلاد السر في الكون ، ولم يشغل الإنسان نفسه ببحث
مقدمات توصل إليه ، وأراد الله ذلك الميلاد للسر فماذا يكون الموقف ؟

أيمنع الله ميلاد السر لأننا لم نعمل ؟ لا . بل يخرج سبحانه السر إلى الوجود كما
نسمع دائماً عن مصادفة ميلاد شيء على يد باحث كان يبحث في شيء آخر ، فنقول : إن
هذا السر خرج إلى الوجود مصادفة .

وإذا نظرت إلى الابتكارات والاختراعات وأمهات المسائل التي اكتشفت لوجدتها
من الصنف الثاني ، ونجد المفكر أو العالم وقد غرق في بحث ما ، ثم يعطيه الله سرّاً
من أسرار الكون لم يكن يبحث عنه ، فيقال عن الاكتشاف الجديد : إنه جاء مصادفة ،
وحينها جعل الله لكل سر ميلاداً ، فهو قد أعطى خلقه حياة من واسع فضله ،
وأعطاه قدرة من فيض قدرته وأعطاه علماً من عنده (وعلمناه من لدنا علماً) ، ووهبه
حكمة يؤتى بها خيراً « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » . وهو سبحانه وتعالى
يريد من خلقه أن يتفاعلوا مع الكون ليبرزوا الأشياء ، وإذا كان سبحانه يريد منا أن نفعل هذا
الانفعال فلا بد أن يضع المنهج الذي يصون طاقاتنا وفكرنا مما يبددها .

والذي يبدد أفكار الناس وطاقاتهم هو تصارع الأهواء ، فالهوى يصادم الهوى ،
والفكرة قد تصادم فكرة ، وأهواء الناس مختلفة ؟ لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن
يضمن لنا اتفاق الأهواء حتى نصدر في كل حركاتنا عن هوى واحد ، وهو ما أنزله
الحالق الأعلى الذي لا تغيره تلك الأهواء . أما ما لا تختلف فيه الأهواء فتركنا لكي
نبحث فيه ؛ لأننا مستنق في قهراً عنا . ولذلك نقول دائماً : لا توجد اختلافات في
الأفكار العملية التجريبية المادية ، فما وجدنا كهرباء روسية ، وكهرباء أمريكية لأن
المعمل لا يجامل . والمادة الصماء لا تحاي . والنتيجة العملية تخرج بوضوحها
واحدة .

إننا نرى اتفاق العلماء شرقاً وغرباً في معطيات المادة التجريبية وتحاول كل بلد أن يسرق من البلد الآخر ما انتهى إليه من نتائج لتدخلها على حضارتها ، بينما يختلف الأمر في الأهواء البشرية ، فكل بلد يحاول أن يبعد هوى الآخر عن حدوده ؛ لأن الأهواء لا تلتقى أبداً ، والحق قد وضع حركة الحياة لتفعل بـ « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » مما يختلف فيه الأهواء ليضمن اتحادنا وعدم تعاند الطاقات فيما . بل تتساند معاً .

﴿ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فمنهج الله في كونه إنما جاء لينظم حركة الإنسان فيما يختلف فيه الأهواء . أما الحركة فيما لا يختلف فيه الأهواء فقد تركها سبحانه حرة طليقة : لأن البشر يتفوقون فيها قهراً عنهم ، لأن المادة لا تتحمل والعمل لا يجاى .

ولذلك قلنا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله نبياً خاتماً أعطى بـ « افعل ولا تفعل » . أما بالنسبة للأمر المادى المعمل فقد جعل أمره في ذات النبي صلى الله عليه وسلم . فعندما قُلبم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كان أهلها يأبرون النخل ؛ أى يلقحونه ليثمر . فمر النبي صلى الله عليه وسلم يقوم يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » .

فلم يأبروا النخل ، فخرج شيعاً ؛ أى بُشراً رديئاً ، وخاب النخل . ومز بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنني لن أكذب على الله عز وجل » .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلمها قضية كونية مادية تجريبية معملية :
(أنتم أعلم بأمر دنياكم) (١) .

أى أنه صلى الله عليه وسلم ترك للأمة إدارة شئونها التجريبية ، ولم يكن ذلك القول تركاً للحيل على الغارب في شئون المنهج ، فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفيصل فيما تتدخل فيه السماء ، وفيما تتركه السماء للبشر ، وأعمار الناس - كما نعلم - مختلف ، فنحن نقول للإنسان طفولة ، وله فتوة ، وشباب ، وله اكتمال رجولة ونضج ، لذلك يعطى الحق من الأحكام ما يناسب هذا المجتمع ، يعطى أولاً الاحتياج الملقى للطفولة ، وعند عصر الفتوة يعطيه المسائل الإدراكية ، وعندما يصل إلى الرشد يعطيه زمام الحركة في الكون على ضوء المنهج ، فكانت رسالة الإسلام على ميعاد مع رشد الزمان ، فأمن الحق سبحانه أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يقفوا ليحموا حركة الإنسان من أهواء البشر . وكانت الرسل تأتي من عند الله بالبلاغ للمجتمعات البشرية السابقة على الإسلام . وكانت السماء هي التي تؤدب . ولكن عندما اكتمل رشد الإنسانية « رأينا الرسول يبلغ ، ويؤكده الله في أن يؤدب من يخرج على منهج الله في حركة الحياة ، لأنه صلى الله عليه وسلم أصبح مأموناً على ذلك .

وإذا نظرت إلى الكون قديماً لوجدته كوناً انعزالياً ، فكل جماعة في مكان لا تعلم شيئاً عن الجماعة الأخرى ، وكل جماعة لها نظمها وحركتها وعيها وداءاتها . والإسلام جاء على اجتماع للبشر جميعاً . فقد علم الله أولاً أن الإسلام سيحيى على ميعاد مع إلغاء فوارق الزمن والمسافات ، وأن الداء يصبح في الشرق فلا يبيت إلا وهو في الغرب ، وكذلك ما يحدث في الغرب لا يبيت إلا وهو في الشرق .

إذن فقد انحدرت الداءات ولا بد أن يكون الدواء واحداً فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جامعاً للزمان وجامعاً للمكان ومانعاً أن يحيى رسول آخر بعده ، وأن العالم قد وصل إلى قمة نضجه . فإذا ما جاء الإنسان ليعلم منهج الله به « افعل » ولا « تفعل » ، وجد أن المنهج محروس بالمنهج ، بمعنى أن الكتب السابقة على القرآن فيها « افعل » و « لا تفعل » ، والقرآن أيضاً فيه « افعل » و « لا تفعل » لكن المنهج

السابق على القرآن كان مطلوباً من المنزل إليهم أن يحافظوا عليه ، ومادام قد طلب الحق منهم ذلك فكان من الواجب أن يمثلوا لطاعته لكنهم تركوا المنهج . فكل منهج عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى ، ولم يحفظوا الكتب وحدث فيها التحريف بمراحله المختلفة والتي سبق أن ذكرناها وهي النسيان وهو متمثل في قوله الحق :

﴿ وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

ومالم ينسوه كتبوا بعضه ، فقال الحق فيهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَهُدًى مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة البقرة)

ومالم يكتبوه حرفوه ولووا الستهم به وقال الحق :

﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْفَبَهُمُ وَإِلَيْكَ يُرْجَعُ أَمْرُهُمْ فَيُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ فَيُنْزِلُ عَلَيْهُمْ ذِكْرَهُ غَيْرِ مُبِينٍ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة آل عمران)

ولم يقتصروا على ذلك بل وضعوا من عندهم أشياء وقالوا إنها من عند الله . وكان أمر حفظ كتب المنهج السابقة موكولا لهم ولذلك قال الحق عنهم :

﴿ إِنَّمَا أَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

أى أن الحق طلب منهم أن يحافظوا على المنهج ، وكان يجب أن يطيعوه ولكن أغلبهم آثر العصيان . فلما عصى البشر المنهج ، لم يأمن الله البشر من بعد ذلك على أن يستحفظهم على القرآن ، وكأنه قال : لقد جربتم فلم تحافظوا على المنهج ، ولأن القرآن منهج خاتم لن يأتى له تعديل من بعد ذلك فساتولى أنا أمر حفظه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١ ﴾

(٩ سورة الحجر)

ومادام الحق هو الذى يحفظ المنهج فالقرآن مهيمن على كل الكتب ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد ضمن عدم التحريف فيه . إذن فالكتاب المهيمن هو القرآن ، ومادام القرآن هو المهيمن فهو حقيقة ما يسمى بالكتاب .

ودليل العهد هو قول الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب » أما قوله : « ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب » فالمقصود به الزبور والتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى ، ثم جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

ومسألة نجد وصفاً وصف به غير الله وسمى به الله نفسه فما الموقف ؟ نعرف أن لله صفات بلغت في تخصصها به مقامها الأعلى بالله ، مثل قولنا : « الله سميع » والإنسان سمع ، و « الله غنى » ويقال : « فلان غنى » ؛ فإذا سمي الحق باسم وجد في الخلق ، فليس من المتصور أن يكون هذا صفة مشتركة بين العبد والرب ، ولكننا نأخذ ذلك في ضوء : « ليس كمثله شيء » .

إن أى اسم من هذه الصفات على إطلاقه لا ينصرف إلا لله ، فإن قلت : « الغنى » على إطلاقه فهو اسم لله ، وإن قلت : « الرحيم » على إطلاقه فهو اسم لله . فإذا أطلق اللفظ من أسماء الله على إطلاقه فهو الله ، واسم « المهيمن » يطلق هنا على القرآن وهو اسم من أسماء الله . ومن معنى « مهيمن » أنه مسيطر .

ومن أمثلة الحياة أننا نرى صاحب مصنع يطلق يد مدير في شئون العمل ، وهذا يعنى أنه مؤمن ومسيطر وأمين ، ولا بد أن متبه ، أى رقيب ، وهو شهيد ، إذن فالذين فسروا كلمة « مهيمن » على أنه مؤمن قول صحيح .

والذين فسروا كلمة : « مهيمن » على أنه « مؤمن » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « رقيب » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « شهيد » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه قائم على كل أمر قول صحيح . وإذا رأيت اختلافات في تفسير اسم واحد من أسمائه - سبحانه - فلتعلم أن الحق يصدق عليه كل ذلك ، وبالإلزام لا يكون « رقيباً » إلا إذا كان « شهيداً » ، ولا يكون « شهيداً » إلا إذا كان قائماً على الأمر ، ولا يكون كل ذلك إلا إذا كان مؤمناً ومؤمناً .

إذن فـ « مهيمن » هو قديم وشاهد ورفيق . ومادام القرآن قد جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فعلى أى مجال ييمن ؟ نحن نعرف مدلول الكتاب بأنه نزل من عند الله ، فإن بقى الكتاب الذى نزل من عند الله كما هو فالقرآن مصدق لما به ، أما إن لعبت فى ذلك المنهج أهواء البشر فالقرآن مهيمن لأنه يصحح المنهج وينقيه من أهواء البشر . « فاحكم بينهم بما أنزل الله » . « واحكم » مأخوذة من مادة « حكم » ، « والحكمة » هى قطعة الحديد التى توضع فى فم الحصان وتربطها باللبام ؛ حتى نتحكم فى الحصان . والحكمة هى ألا تدع المحكوم يفلت من إرادة الحاكم .

وحين يقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » فهل يحدث ذلك أيضاً مع غير المؤمنين ؟ نعم . فإذا ما جاء إليك يا رسول الله أناس غير مؤمنين وطلبوا أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل الله . ولذلك قال الحق :

﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

لكن لماذا جاءوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم برغم عدم إيمانهم به ؟

جاءوا إلى الرسول ليحكم بينهم ؛ لأنهم ألفوا أن يبيحوا ما حرم الله بشهوات الدنيا وأخذوا لأنفسهم سلطة زمنية ، وماداموا قد أخذوا لأنفسهم سلطة زمنية أنستهم حكم الله . وأرادوا - على سبيل المثال - أن يخرجوا على حكم الرجم وتخفيفه ، ولذلك ذهبوا إلى النبى ، فإن حكم هو بالتخفيف أخذوا بالحكم المخفف ، وإذا لم يحكم بالتخفيف فهم لن يأخذوا الحكم ، هم ذهبوا إليه صلى الله عليه وسلم بقصد التيسير وقالوا له : أنت تعلم أن لنا سلطاناً وأن لنا نفوذاً ونحن نريد أن تحكم لنا لأنك عندما تحكم لنا سنؤمن بك وبعد ذلك تأتى إليك باقى جماعتنا ليؤمنوا بك ويتبعوك .

لقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك تطبيقاً لقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » فإذا كان عندهم كتاب التوراة مصوناً من التحريف ، فالرسول يشير عليهم بالحكم الموجود فى التوراة ، ولذلك عندما استدعى صلى الله عليه وسلم أعلم علمائهم بالتوراة حاول بعضهم أن يضع يده على

السطور التي بها الحكم ؛ فالحكم بما أنزل الله يكون من التوراة إن لم يبدل ، أما إذا كان الحكم قد بدله الناس فالحكم من القرآن ؛ لأن القرآن هو المهيمن . « فالحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » لأنهم بهذه الأهواء يريدون أن ييسروا على أنفسهم ليستبقوا لأنفسهم السلطة الزمنية ، ووصفهم الحق :

﴿ أَشْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

هم - إذن - يريدون أن يستبدلوا بآيات الله مصلحتهم في الحكم . ويقول الحق : « ولا تتبع أهواءهم عما جملك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ، وإن افترضنا أن بعضا من التوراة لم يحرف ، وبه حكم أراد الإسلام أن يبدله ، فأي أمر يتبع ؟ إن الاتباع هنا يكون للقرآن لأنه هو المهيمن ، فسبحانه أراد بالقرآن أن يصحح ويعدل ويغير .

إن مناهج الأديان في العقائد ثابتة لا تغيير فيها ، وأما ما يتصل بالأحكام التي تحكم أفعال الإنسان فإله سبحانه وتعالى ينزل حكماً لقوم يلائمهم ثم ينزل حكماً آخر يلائم قوماً آخرين . ولذلك نجد أن سيدنا عيسى قال :

﴿ وَلَا أَحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة آل عمران)

أي أن هناك أشياء كانت محرمة في دين اليهود . وجاء عيسى عليه السلام ليحلل بعضاً من هذه المحرمات ، وكان التحريم مناسباً لبني إسرائيل في بعض الأمور ، وجاء المسيح عيسى ابن مريم ليحلل لهم بعضاً من المحرمات ، وكان تحريم بعض الأمور لبني إسرائيل بهدف التأديب :

﴿ فَيُظْلِمُ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن فقد يكون تحريم الشيء بسبب الضرر الناتج عنه ، أو بهدف التأديب ؛ لأن الإنسان أحل لنفسه ما حرمه الله عليه .

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » والشرعة هي الطريق في الماء . والمنهج هو الطريق في اليابسة . ومقومات حياة الإنسان هي من الماء ومن الغذاء الذي يخرج من الأرض ، فكَذَلِكَ جعل الحق سبحانه وتعالى في القيم هذين الاثنين ، الشرعة والمنهاج ، ومادام سبحانه قد جعل لكل منا شرعة ومنهاجا ، فلماذا قال في موضع آخر من القرآن :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

معنى هذا القول هو الاتفاق في أصول العقائد التي لا تختلف أبداً باختلاف الأزمان . ففى بدء الإسلام نجد أنه جاء ليؤصل العقيدة أولاً بلا هوادة ، فنادى بوحداية الله ، وعدم الشرك به ، وصفات الكمال المطلق فيه ، وعدم تعدد الألهة . أما بقية الأحكام الفعلية فقد جعلها مراحل . وكان يخفف قليلاً قليلاً . إذن فالمراحل إنما جاءت في الأحكام الفعلية ، أما العقائد فقد جاءت كلها هي وبحسم لا هوادة فيه .

إذن فقوله الحق : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » . هذا القول مقصود به العقائد . ومادام قد شرع لنا في الدين ما وصى به نوحاً ، فهذا توصية بأفعال تتعلق أيضاً بزمان نوح ، وسبحانه الذى وضع لنا المنهاج الذى نسير عليه في زماننا . إذن فالأمران متساويان . والمهم هو وحدة المصدر المشرع .

ويقول الحق : « ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة » . فلو شاء لجمع « افعل » ولا « تفعل » واحدة في كل المناهج ، ولكن ذلك لم يكن متناسباً مع اختلاف الأزمان والأقوام الانعزالية قبل الإسلام بداءاتها المختلفة ، لذلك كان من المنطقي أن تأتى الأحكام مناسبة للداءات .

﴿ وَنُوحًا اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا

الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وسبحانه وتعالى لو شاء لجمعنا أمة واحدة في « افعل » و « لاتفعل » ولكنه

- سبحانه - لم يرد ذلك حتى لا يألف الناس العبادة وتصبح كالعادة عندهم ، فحينما يألف الناس أداء العبادات ، فهم بذلك يحرمون الله التكليف والإيمان بالتكليف ، فكان لا بد أن يأتي التشريع مناسبا لكل زمان . وذلك ليفرق بين قوم وقوم ، ففي الصوم - حل سبيل المثال - نجد أن الحق يسمح لنا بالطعام والشراب والجنس في الفترة ما بين الإفطار والسحور ، فالحق يأتي إلى الشيء الرتيب ويأتي فيه أمر الله بالامتناع عنه لفترة زمنية معينة . ولا يقرب المؤمن هذه المحرمات في زمان معين ، ولا يقرب غيرها في أي زمان ومكان . مثل شرب الخمر ، أو أكل لحم الخنزير . والمؤمن لا يقرب هذه الأشياء بطبيعة اختياره . ويأتيه الصوم ليعلمه ويدربه على الانصياع للتكليف فيحرمه الحق من الطعام طول نهار شهر رمضان وكذلك الشراب والجنس .

المسألة - إذن - ليست رتبة أبداً . بل هي ابتلاء واختبار البشر ، ولكن ليلوكم فيها أناكم ، والابتلاء - كما نعلم - ليس أمراً مذموماً في ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تؤول إليه نهايته ، ومادام سبحانه يبتلينا فيما آتانا فيجب أن نكون حكماء وأن نتسابق إلى الخير :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة التكاثر)

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح في الابتلاء ، والنجاح يعطينا أكثر مما نتال بعدم الانصياع . إذن فالابتلاء في مصلحتنا ، لأنه يعطي الناجحين فيه نجاحاً أخلاقياً ، وقصارى ما يزيه الشيطان للناس أو ما تخيله نفوس الناس ، أن تمر الشهوة العابرة وتنقضي في الدنيا العابرة . وبعد ذلك يأتي العذاب المقيم . وعندما نوازن هذا الأمر كصفقة نجدها خاسرة ، لكن إن نجحنا في ابتلاء الله لنا فذلك هو الفوز العظيم : « فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

أي تسابقوا في الوصول إلى الخيرات ، لأن الخير إنما يقاس بعائده ، فليأكم أن تفهموا أن الله حرمكم شهوات الدنيا لأنه يريد حرمانكم ، ولكنه حرمكم بعضاً من شهوات الدنيا لأنها مفسدة . وكان التحريم لزماً بمحدود ليعطيكم نعيم ومتع الآخرة المصلحة في زمن غير محدود ، وهذا هو كل الخير .

« إلى الله مرجعكم جميعاً » والكل يرجع إلى الله سواء الملتزم أو المنحرف ، وأمام الحق نرى القول الفصل : « فنبشركم بما كنتم فيه تختلفون » . ومادام هناك اختلاف فلا بد أن يوجد من أخذ جانب الخير ومن أخذ جانب الشر ، ولو أن الله قال لنا : « ستدخلون الخير » وسكت عن الشر لكان ذلك كافياً ، لكنه يعطينا الصورة الكاملة . ويتبع ذلك قول الحق :

﴿ وَإِنْ أَحَكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ (٤٩)

وقد يقول قائل : إن الله سبحانه وتعالى قال من قبل :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وتكون الإجابة : أن الحق بين إن القرآن قد نزل مهيمناً ، وعلى الرسول أن يباشر مهمة التنفيذ ، لذلك يأتي هنا قوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » ، بلاغاً للرسول وإيضاحاً : أنا أنزلت إليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمناً فاحكم ، فإذا جاءك قوم بشيء يخالف لما نزل من القرآن ، فاحكم بينهم بالقرآن . والذي زاد في هذه الآية هو قوله الحق : « واحذرهم أن يفتنوك » والحذر هو احتياط الإنسان واحترازه بمن يريد أن يوقع به ضرراً في أمر ذي نفع ، والذي يرغب الضر قد يزين لنفسه ولغيره الضر كأنه الخير ، على الرغم من أن ما في باطنه هو كل الشر .

إذن فالحذر هو ضرورة الانتباه لمن يريد بالإنسان شراً حتى لا يدخل عليه ضرراً في صورة نفع ، كان يأتي خصم ويقول لك : سأضع لك كذا وأفعل من أجلك كذا وكذا . يجب عليك هنا أن تقول له : لا .

والحذر - إذن - يقتضى عقلاً مركباً ، ولذلك كانوا يعرفون الحذر من الغراب .
فها هوذا الغراب يعلم ابنه في قصة شعبية فيقول الغراب لابنه :

احذر الإنسان ؛ لأن الإنسان عندما ينحنى ليلتقط شيئاً من الأرض فهو يلتقط
قطعة من الطوب ليرميك بها . وهنا يقول الغراب الصغير لوالده : وماذا أفعل لو كان
هذا الإنسان يخبئ قطعة الطوب في جيبه ؟ إنها قصة توحى بأن الغراب حذر
بفطرته .

ونرى مثل ذلك في مظاهر الأشياء كالمرايا التى يزين للناس أن يضعوا أموالهم
عنده ويعطيهم فائدة تبلغ عشرين بالمائة ، هذه صورة شيء يتفجع ولكنها ضارة
بالفعل ؛ لأنها تزيد المال ظاهراً ولكن ينطبق عليها قول الله : (يمحى الله الربا) .

وهذا أمر ضار يزيته الخصم وكأنه أمر نافع . والحق يطلب من رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يكون حذراً ، فإذا يكون المطلوب من الأتباع ؟ . إنه الحذر نفسه ؛
لأن أفضل البشر وَجْهَهُ الله إلى الحذر : « واحذره أن يفتنوك » لأن الصورة التى
دخلوا بها هي صورة تزين الخداع ، فقد قالوا : نحن جئناك لتحكم لنا ، فإن
حكمت لصالحنا فلسوف نتبعك ، وهذا أمر يندوفى صورة شيء نافع . وجله القول
الحق ليحسم هذه المسألة : « واحذره أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك »
وهنا يحذر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزله إليه سبحانه .

ويتابع الحق : « فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً
من الناس لفاسقون » وهم إن تولوا ، فاعلم أن الله يحميك أن تنزلت إلى شبهة
باطل . فهم قد اختاروا أن يوغلوا في الكفر ، وفي الابتعاد عن منهج الله ، ومصيبهم
ببعض عذابه مقابل ذنوبهم ، وسبحانه لا يصيبهم ظليماً ، بل يصيبهم ببعض الذنوب
التي ارتكبوها . وهو أعلم بهم ، لأنه الأعلم بالناس جميعاً .

ويختم الحق الآية بقوله : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » أى خارجون عن
طاعة كتبهم ورسولهم ؛ لأن طاعة الكتب السابقة على القرآن تنص على ضرورة
الإيمان بالرسول النبى الأمين صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ فَمِ الْطَيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧٧﴾

(سورة الاحزاب)

إذن فطريق الفلاح كان مكتوباً في التوراة والإنجيل ، وكان الأمر باتباع محمد
صلى الله عليه وسلم النبي الأمي موجوداً في الكتب السابقة على القرآن ، وكانت
البشارة بمحمد رسولا من عند الله يأمر بكل الخير وينهى عن كل الشر ويحل للناس
كافة الأشياء التي تُخَمِّنُ الفطرة الإنسانية استقبالها ، ويحرم عليهم أن يزيفوا ويغيروا
المنهج الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يستسلموا للعناد ، فقد
جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليزيل عنهم عبء تزييف المنهج . فمن اتبع نور
رسول الله صلى الله عليه وسلم أحس بالنجاة والفوز . ومن لم يتبع هذا النور فهو
الخارج عن طاعة كتاب السماء . ومحاولة إنكار رسالة رسول الله محكوم عليها
بالفشل ، فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وصف رسول الله صلى الله عليه
وسلم من هذه الكتب .

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ
الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨١﴾

(سورة البقرة)

ونعلم جميعاً ما فعله عبدالله بن سلام عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم ليعلن إسلامه . قال عبدالله بن سلام :

- لانا أشد معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم متى باني .

فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : وكيف ذلك يا بن سلام ؟

قال عبدالله بن سلام : لاني أشهد أن محمداً رسول الله حقاً ويقيناً وأنا لا أشهد

بذلك على ابني لاني لا احدى . أحداث النساء . فقال عمر بن الخطاب :

ـ وفقك الله يا ابن سلام .

ولكن بعض علماء بني اسرائيل وأخبارهم كتبوا البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يرجون الرئاسة والطمع في الهدايا التي كان يقدمها الناس إليهم . لذلك عمدوا إلى صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وكتبوها . وما داموا قد فعلوا ذلك فلنعلم أن الله يريد أن يصيهم ببعض ذنوبهم .

ونلاحظ أن الحق حين أجرى على لسان رسوله خطاباً إلى اليهود . ولم يأت على لسانه صلى الله عليه وسلم اتهام شامل لليهود ، بل اتهام لبعضهم فقط ، وإن كان هذا البعض كثيراً . فلنعلم أن ذلك هو أسلوب صيانة الاحتمال ، لأن بعضهم يدير أمر الإيمان بقلبه . صحيح أن كثيراً منهم فاسقون ، ولكن القليل منهم غير ذلك . فيها هوذا أبو هريرة رضي الله عنه ينقل لنا ما حدث :

ـ زنى رجل من اليهود بامرأة وقال بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه نبي مبعوث للتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججناها عند الله وقلنا فتيا نبي من أنبيائك . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد مع أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى في امرأة ورجل زنيا ؟ فلم يكلمهم حتى ذهب إلى منبراسهم .

وهناك طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شاب رفض أن يتكلم بالكلام غير الصدق الذي يتكلمه قومه . وقال الشاب : إنا نجد في التوراة الرجم . وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجم .

عن البراء بن عازب قال : مرَّ على النبي صلى الله عليه وسلم يهودي مخمياً مجلوداً ، فدعاهم فقال : هكذا تمجدون الزاني في كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تمجدون حدَّ الزاني في كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدني بهذا

لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه) ، فأمر به فرجم فأنزل الله : (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) إلى قوله : (وإن أوتيتهم هذا فخذوه) يقولون اتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكمم بالرجم فاحذروا^(١) .

إذن فالكثير منهم فاسقون ، والقليل منهم غير فاسق لأنهم يديرون فكرة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو أن الاتهام كان شاملاً لكل بأنهم فاسقون ؛ لما أحسن الذين يفكرون في أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالنور الذي جاء به . وعندما قال الحق : « وإن كثيراً منهم فاسقون » ، يعني أن الذين يديرون في رؤوسهم فكرة الإيمان برسول الله سيجدون النور واضحاً في كلماته .

ونتساءل : لماذا أرادوا أن يلبوا أحكام الله ليحققوا لأنفسهم سلطة زمنية وثمناً تافهاً من تلك الأشياء التي يتقاضونها ، لماذا يفعلون ذلك ؟
ها هوذا قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا
لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

والجاهلية هي نسبة إلى جاهل . ولو كانت نسبة مأخوذة من الجهل لجاء القول « جهلية » ، لكن الحق يقول هنا : « جاهلية » نسبة إلى جاهل . وحتى نعرف معنى الجاهل بالتحديد لا بد لنا أن نتذكر ونستعيد تقسيم النسب الذي قلناه قديماً ، ونعرف أن كل لفظ نتكلم به له معنى ، وساعة نسمع اللفظ فالمعنى يأتي إلى الذهن

إفرادياً . مثلما نسمع كلمة « جبل » فيقفز إلى الذهن صورة الجبل ، لكن لا توجد حالة واضحة للجبل ؛ لأن الكلمة لم تكن مصحوبة بحكم .

إذن فهناك معنى للفظ ، ولكن هذا المعنى لا يستقل بفائدة . ولكن إن قلنا إن القاهرة مكتظة بالسكان ، أو أن مرافقها متعبة ، هنا نكون قد أثينا بحكم يوضح لنا ماذا نقصد بقولنا القاهرة .

إن هناك فرقاً بين اللفظ حين يؤدي إلى معنى مفرد لا حكم له ، وبين لفظ له حكم ، ولذلك نجد العربي القديم حين يأتيه لفظ بلا حكم لم يكن يقبله . وما هوذا رجل عربي قال : أشهد أن محمداً رسول الله - بفتح اللام في كلمة « رسول » - . وبهذا القول تكون « رسول الله » صفة لمحمد وليس فيها الخبر المطلوب . لذلك قال عربي آخر : وماذا يصنع محمداً ؟ ليلفت القائل إلى أنه لم يتلق الخبر . إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى مفرد ولا بد له من نسبة .

مثلما نقول لصديق : « محمد » ، ويعرف هذا الصديق محمداً ، فيسألك : « وما لمحمد » ؟ ويقول له هذا إنما يطلب الخبر ليعرف ماذا حدث له أو منه ، فتقول : « محمد زارني أمس » . وهكذا تكتمل الفائدة .

إذن فكل لفظ من الألفاظ المفردة له معنى حين يفرد . فإذا ما جاء الحكم تنشأ عنه النسبة . وإن كانت النسبة واقعة ويعتقدها قائلها ، ويستطيع إقامة الدليل عليها فهذه نسبة علم ، لأن العلم نسبة مجزوم بها وواقعة ونستطيع إقامة الدليل عليها تماماً مثلما نقول : « الأرض كروية » ، حيث توحى الكلمة أولاً بصورة الأرض وأضفنا إليها نسبة هي « كروية » لأننا نعتقد أنها كروية والواقع يؤكد ذلك ، فإذا ما جئنا بالدليل عليها فهذه نسبة علم . إذن فالعلم نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل .

أما إذا كانت النسبة واقعة ومعتقدة ولا نستطيع التدليل عليها فذلك هو التقليد مثلما يكرر الطفل عن والده بعضاً من الحقائق ولكنه لا يستطيع إقامة الدليل عليها ، إنه يقلد من يثق به ، إذن فالمرحلة الأقل من العلم هي التقليد . أما إذا كان الإنسان يعتقد أن النسبة قد حدثت ولكن الواقع غير ذلك ، فهذا هو الجهل ، فالجهل ليس

معناه أنك لا تعرف ، ولكن أن تعرف قضية مناقضة للواقع . والجاهل يختلف عن الأمل ، فالأمل هو الذي لا يعرف ، أما الجاهل فهو الذي يعرف قضية مخالفة للواقع ومتشبه بها .

« أفحكم الجاهلية يبغون » والحق هنا يتساءل : هل يرغبون في الاستمرار بالاعتقاد الخاطئ الجاهل ؟ والأمر مع الأمل - كما عرفنا - يختلف عن الأمر مع الجاهل ؛ لأنه يكفيك أن تقول للأمل العلم الذي تريد تعليمه إياه ويقبله منك ، أما الجاهل فلا بد للتعامل معه من عمليتين . . الأول أن تجعله يحذف ويستبعد من باله القضية الخاطئة ، والثاني أن تجعله يقتنع بالقضية الصحيحة . والذي يرهق الدعاة إلى الدين هم الجهلة هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً يتضمن قضايا باطلة .

لكن ماذا إن كانت النسبة مجالاً للنفي ومجالاً للإثبات ؟ إن كان النفي مساوياً للإثبات فهي نسبة شك . وإن غلب الإثبات فهذا ظن . وإن كان النفي راجحاً فذلك هو الوهم . وهكذا يتضح لنا أن قضية الجهل قضية صعبة ، والذي يسبب التعب في هذه الدنيا هم الجهلة ؛ لأنهم يعتقدون في قضايا خاطئة . فإذا كان هناك حكم من الله . فلماذا لا يرتضون إذن ؟ أيريدون حكم الجاهلية ؟ وكان أهل الكتاب أنفسهم يسهون حكم الجاهلية .

ولنلاحظ أن هذا التسفيه كان في زمن المواجهة بين الجاهلية وبين أهل الكتاب . وكانوا يستفتحون على أهل المدينة ومكة . وكثيراً ما قالوا : لقد أضلنا عهد نبي مستبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . ولكن ما إن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قالوا العكس ، ماذا قالوا للجاهلين ؟ ها هوذا الحق يخبرنا بما قالوا :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَأَطْعَمُوا لِلَّذِينَ

كَفَرُوا هَنُؤَلَاءُ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۝٥١﴾

(سورة النساء)

وقد ذهب بعض من أحبار اليهود إلى قريش ، وسألهم بعض من سادة قريش : انتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عنا وعن محمد . فقال الأحبار :

(٢) العالم : الأسير .

المتكلم من المخاطب أن ينقل إليه الفهم ، هنا نقول : هل كان المتكلم لا يعلم الحكم ؟ قد يصح ذلك في الحياة العادية . وقد نراه حين يقول إنسان لآخر :

من زارك أمس ؟ فنكون أمام حالة استفهام عن الذي زاره ، تلك هي حقيقة الاستفهام ، لكن ما بالنا إذا كان الذي يتكلم ويستفسر لا تخفى عليه خافية ، إنه - سبحانه - يطلب منا أن نجيب على سؤاله : « ومن أحسن من الله حكماً ، وتلك عظمة الأداء .

وأضرب مثلاً آخر - والله المثل الأعلى - عندما يأتيك إنسان ويدعي أنك لم تحسن إليه لأنه كان سجيناً مثلاً وأنت الذي أخرجته من السجن . فتقول له : من الذي ذهب ودفع عنك الكفالة وأخرجك من الحبس ؟

إنك أنت الذي فعلت ولا تريد أن تقول له : لقد فعلت من أجلك كذا وكذا ، ولكنك تريد أن ينطق بما فعلته له ، ولا تقول ذلك إلا وأنت واثق أنه لن يجد جواباً إلا الاعتراف بأنك أنت الذي صنعت له كذا وكذا ، وبذلك تصبح المسألة إقراراً وليس إخباراً .

« أفحكم الجاهلية يغنون » فالخلق عالم أنهم حين يديرون دعوسهم في الجواب ، لن يجحدوا إلا أن يقولوا : يارب أنت أحسن حكماً . وهذا إقرار منهم وإخبار أيضاً . أما عند المؤمن فالأمر يختلف تماماً ، لأن المؤمن يعترف ويقر بفضل الله عليه .

« ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » فالذي يفهم أن حكم الله هو الأفضل هم القوم الذين دخلوا إلى مرحلة اليقين . ونعلم أن مراحل اليقين تتفاوت فيما بينها ، فعندما يجربك إنسان صادق في قضية ما فأنت تعلم هذه القضية . كأن يقول لك : لقد ذهبت إلى نيويورك . وهذه المدينة تقع على عدد من الجزر وبها عمارات شاهقة والعنف منتشر فيها . والناس تبدو وكأنها ممسوسة من فرط الهوس على الثروة . وحين تسمع هذا الصادق فأنت تأخذ على محمل الجد وتعتبر كلامه يقيناً وهذا هو علم اليقين ، أي أنه إخبار من إنسان تثق فيه لأنه صادق .

وبعد ذلك يأتي هذا الإنسان ليوجه لك الدعوة ، فتركب معه الطائرة ، وتطير

الطائرة على ارتفاع يساوى أربعين ألف قدم ، وبعد إحدى عشرة ساعة تهبط الطائرة قليلاً ، لترى أضواء مدينة صاخبة ، ويقول لك صاحبك : هذه هي نيويورك ، وتلك هي ناطحات السحاب . هكذا صار علم اليقين عين يقين .

وعندما تنزلان معاً إلى شوارع نيويورك فانتما تسيران إلى جزيرة مانهاتن . وتصعد إلى برج التجارة أعلى ناطحات السحاب في نيويورك ، وهذا هو حق اليقين .

إذن : فمراحل اليقين ثلاث : علم يقين : إذا أخبرك صادق بخبر ما ، وعين يقين : إذا رأيت أنت هذا الخبر ، وحق يقين : إذا دخلت وانغمست في مضمون وتفصيل هذا الخبر . وقدماً قلت لتلاميذى مثلاً محدداً لأوضح الفارق بين ألوان اليقين ، قلت لهم : لقد رأيت في أندونيسيا ثمرة من ثمار الموز يبلغ طول الثمرة الواحدة نصف المتر . وبالطبع صدقنى التلاميذ ، لأنهم يصدقون قولى . وقد نقلت لهم صورة علمية . وصار لديهم علم يقين . وبعد ذلك أدخل إلى غرفة وأفتح حقيبة وأخرج منها ثمرة الموز التى يبلغ طولها نصف المتر . وبذلك يصير علم اليقين عين يقين . وبعد ذلك أمسكت بسكين وقمت بتقسير ثمرة الموز ووزعت على كل واحد منهم قطعة . وهكذا صار لديهم حق يقين . وحين يطلق الحق « اليقين » فهو يشمل الذى علم والذى تحقق .

فأهل الأدلة ، علموا علم اليقين ، وأهل المراتى والمجاهدات علموا عين اليقين ، وأهل الفيوضات والتجليات وصلوا إلى حق اليقين . والمؤمنون بالله يقول الواحد منهم : أنا بمجرد علم اليقين موقن تماماً ولا أنتظر حق اليقين لأنى لا أجرو على التكذيب ، لذلك نجد أن سيدنا الإمام علياً - كرم الله وجهه - يقول : لو انكشف عن الحجاب ما ازددت يقيناً .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة فى قوله الحق :

﴿الْهَكَرُ الْكَاثُرُ ① حَقٌّ زُرَّمُ الْمَقَارِ ① كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ① ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ① كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ① لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ① ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ①﴾

وابدأية تكون علم اليقين ، ثم نرى الجحيم ونحن نسير على الصراط فتصير عين اليقين ، ومن لطف الله أنه جعلنا - نحن المسلمين - لا نراها حق اليقين . وهو القائل :

﴿ وَإِنْ مِنْكَ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة مريم)

هو يعطينا صورة الجحيم . لكن حينما أراد الحق أن يعطينا صورة حق اليقين ، فقد جاء بها في قوله الحق :

﴿ فَلَا أُقِيمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِي كِتَابٍ مُّكْنُونٍ ٧٨ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ ٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكَرَ تُكَذِّبُونَ ٨٢ ﴾

(سورة الواقعة)

كل ذلك مقدمة ليقول الحق :

﴿ إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ٨٣ ﴾

(سورة الواقعة)

وما يذكره الحق هنا من منزلة المصدق المؤمن إن هذه المنزلة هي الجنة ويرى ذلك عين اليقين . أما منزلة المكذب الكافر ، فله مكانه في النار ؛ لذلك سيرى كل الناس النار كعين اليقين . أما من يدخله الحق النار - والعياذ بالله - فسيعانى منها حق اليقين ، وسينعم المؤمنون بالجنة حق اليقين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ ۚ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾

نلاحظ أن الخطاب هنا للذين آمنوا . والمنهى عنه هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء . وما معنى الولي ؟ . الولي هو الناصر وهو المعين . وهذا القول مأخوذ من ولي يل ؛ أى يقف في جانبه . ونسمى الذى ينوب عن المرأة في عقد النكاح « الولي » . وكذلك « ولي المقتول » . والمراد هو : يا من أنتم لاحظوا تماماً أنكم أصحاب مهمة وهى أن تخرجوا الضلالات من البشر . هذه الضلالات تمثلت في تحريف ديانات كان أصلها الهدى فصارت إلى ضلال ، فإياكم أن تضعوا أيديكم في أيديهم لطلب المعونة والنصرة .

إذن قوله الحق : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » هو حكم تكليفي . وحيثية الإيمان بالله . فها دمت قد آمنت بالله فكل من تقدح أنت في إيمانه بمخالفته لمنهج ربه لا يصح أن يكون مؤمناً على نصرتك ؛ لأنه لم يكن أميناً على ما معه فهل تتوقع منه أن يعينك على الأمانة التى معك ؟ لا ؛ لأنه لم يكن أميناً على ما نزل عليه من منهج . والولاية نصرة ، والنصرة انفعال الناصر لمساعدة المنصور . وهل تجد فيهم انفعالاً لك بنصرك ويمينك ، أو يتظاهرون بنصرتك ، ولتعلموا أنهم سيفعلون ما قاله الحق :

﴿لَوْ تَرَجُّوْا فِىكُمْ مَا زَادُوْكُمْ اِلَّا خَبَالًا﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

إنهم لو دخلوا في صفوفكم لفعلوا فيكم مثلما يفعل المنافقون ، فما بالنا بالذين خانوا أمانة الكتب المنزلة عليهم ؟ إذن فالموالاة والنصرة والمعونة يجب أن تكون من متحد معك في الغاية العليا . وما دام هناك من يختلف مع الإسلام في الغاية العليا وهى الإيمان فلا يصح أن يأمنه المسلم . وسبحانه يقول : « بعضهم أولياء بعض » .

وقد يتساءل الإنسان : كيف يقول الحق فيهم :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَبَّسْتَ النَّصْرَى عَلَى نَفْسٍ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَبَّيْتَ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول جل شأنه :

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَحْكُمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

نحن - إذن - أمام ثلاثة أقسام : يهود ، ونصارى ، ومشركون ، وقد قال مشركو قريش مثل قول أهل الكتاب بشقيهم برغم أنهم في خلاف متضارب وكل منهم ينكر الآخر ، وسبحانه قال :

﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فكيف من بعد ذلك يقول سبحانه : « بعضهم أولياء بعض » ؟ وهذا أمر يحتاج إلى وقفة إيمان لنرى الصورة كاملة ، ونعلم أن الذين يخالفون منهج الحق قد يصح أن يكون بينهم خلاف على السلطات الزمنية ، لكنهم عندما يواجهون عملاقاً قادراً على دحر كل بنيان أكاذيبهم يتغفون معاً . وهذا ما نراه في الواقع الحياتي : معسكر الشرق - الذي كان - يعادى معسكر الغرب ، ولكن ما إن يحىء شيء يتصل بالإسلام حتى يتغفوا معاً على الرغم من هزيمة المعسكر الشرقي ؛ لأن الإسلام بمنهجه خطير على هؤلاء وهؤلاء وعلى سلطاتهم ولكنه في الحقيقة رحمة بهم إنه يخرجهم من الظلمات إلى النور وهم يتصرفون في ضوء ما قاله الحق : « بعضهم أولياء بعض » .

وعندما يفرد كل منهم بالآخر فإنه ينطبق عليهم قول الحق :

﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

هكذا نفهم طبيعة العلاقات بين أعداء الإسلام .

ويقول الحق : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » أي أن من يتخذهم نصراء ومعينين

فلا بد أنه يقع في شرك النفاق ؛ لأنه سيكون مع المسلمين بلسانه ومع أعداء الإسلام بقلبه .

ونذيل الحق الآية بقوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ونعرف أن الظلم هو نقل حق إلى غير صاحبه ، وأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ؛ فالحق يقول :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

ذلك أن الإنسان حين يظلم إنساناً آخر ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر فهل هناك إنسان يقدر على أن يأخذ من الله شيئاً ؟ لا ، فالإنسان لا يستطيع أن يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك وهذا ظلم خائب للنفس والذي يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الحيلة .

لأن الظلم حينها يحقق للظالم نفعاً فهو ظلم هين ، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان بالله ولا يأخذ إلا العقاب الصارم . فإذا كان المشرك يتأبى على منحه الله في الأشياء فهل يجرؤ على أن يتأبى على قدريات الله غير الاختيارية فيه كالموت مثلاً ؟ .

والحق يأمر الإنسان بالإيمان . ومتعلقات الإيمان من شهادة بوحدةانيته وإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً . والمشرك يتأبى على الإيمان والتكاليف فهل يجرؤ على التأبى على المرض أو الموت ؟ . لا ؛ لذلك فهو يظلم نفسه ظلماً خائباً . والحق سبحانه لا يهديه ؛ لأن معنى الهداية هو أن يجد الإنسان من يده على الطريق الموصل للغاية . فهداه أى دله على الطريق الموصل للغاية . ولا يتجنى سبحانه على خلقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَقَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا آيَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ
أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
تَلَدِيمِينَ﴾

المجال هنا كان عن النهي عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء من دون الله ، ومن سمع هذا النهي وفي قلبه الإيمان نفذ النصيحة . ولكن الذي طمس المرض - وهو النفاق - قلبه فهو الذي يتولاهم . وهو يسارع إلى هذه الولاية . ونعرف أن المسارعة هي تقليل الزمن في قطع المسافة الموصلة للغاية فإذا كانت هناك مسافة تقتضي السير لمدة خمس عشرة دقيقة فالمسارعة تفرض على الإنسان أن يقطعها في وقت أقل من ذلك . وهناك « يسارع إلى » و « يسارع في » ، مثل قول الحق :

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

والغاية هنا هي المغفرة من الله وعمل المؤمن أن يسارع إليها ، أما عندما يقال : « يسارع في كذا » أي أنه كان في الأصل منغمساً في هذا الموضوع . وعندما يقول الحق : « يسارعون فيهم » أي كأنهم كانوا مع هؤلاء الكفار من البداية ، ولذلك فالمسارعة في ظرفيتهم . وبذلك يتهافون عليهم . والعلة العامة أن في قلوبهم مرضاً جعلهم يبتكرون ويلففون أسباباً ، هذه الأسباب هي « نخشى أن تصيبنا دائرة »

والموالة هنا من الخوف أن تدور الدوائر ، ونحتاج إليهم لأن عندهم الأموال والسلاح ، وهذا ما قاله المنافق عبدالله بن أبي : فقد قال : أنا رجل أخشى الدوائر . أي أنه يخشى الأحداث والمصائب . مثلما نقول : « الأيام دول » . ولكن كلمة « دول » هي انتقالية وقد لا يكون فيها ضرر . أما « دوائر » فهي انتقالية فيها ضرر . وعكس ذلك ما قاله عبادة بن الصامت قال رضي الله عنه :

« أنا سأخذ ولاية الله ورسوله والمؤمنين وسأنفض عن ولاية اليهود والنصارى .

وأورد الحق قول المنافق : « نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح » وساعة نسمع كلمة « الفتح » ، فلنعرف أدل مدلولاتها أنه الحكم .

﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

أى احكم يارب بيننا وبينهم .

إذن فقوله الحق : « فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده » أى الحكم الذى يضع حداً لمسألة مولاة أهل الكتاب والذين لا يعلمون .

والأمر من عند الله هو حكم من الله أيضاً . يخاطب المؤمنين به . والمؤمن بالله له أعمال تؤدي كاسباب إلى مسببات ، وقد يأتي للمؤمنين أشياء بدون مقدمات منهم ، وهى الفضل من الله . إذن فعسى الله أن يأتي بالفتح ، أى بأسباب أنتم تصنعونها وتعذون ما استطعتم من عِدَّةٍ وَعِدَّةٍ وتؤذونهم ، ولذلك قال فى آية أخرى :

﴿ قَبَّ الْأَوْجُنُفَ عَلَيْهِمِ مِنْ حَبْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحشر)

مثال ذلك ما حدث لبني النضير ، فكان الإجماع ، واستولى المسلمون على أرض بني قريظة ، وهذا هو الفتح من عند الله . وسبحانه - إذن - يعامل المؤمنين معاملةتين : الأولى أن يصنع المؤمنون مقدمات تؤدي إلى نتائج :

﴿ قَتَلْنَاهُمْ مَعِدَتِهِمْ اللَّهُ يَأْتِيكَرُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

وهنا جعل الحق قتال المؤمنين سبباً ، أما الثانية فهى الأمر من عنده بالنصرة بالربوبية .

وساعة تسمع « عسى » وه لعل « فهذا معناه الرجاء . والرجاء أن المتكلم يرجو أن يقع ما دخلت عليه « عسى » . مثال ذلك قولنا : « عسى أن تكرم زيداً » . ومن يقولها إنما يرجو سامعها أن يكرم زيداً ، وهذا يعنى أن القائل ليس فى يده إكرام زيد . أما إذا قال القائل : « عسى الله أن يكرم زيداً » ، فهذا نقل للرجاء من البشر

إلى الله . والقاتل هنا بشر ويتكلم عن بشر ، والمرجو هو الله ، وقدرة الله أوسع من كل قدرة . هنا ندخل في اتساع دائرة الرجاء فما بالنا إذا كان المتكلم هو الله ؟ إذن فهذا إطماع من كريم لا بد أن يتحقق .

ونتعرف بذلك على درجات الرجاء : رجاء من بشر لبشر ، رجاء بشر من إله لبشر ، رجاء إله من إله لبشر ، ولأن الرجاء الأخير من المالك الأعلى لذاته فهو الذي يعطى « فمضى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده » وقد تحقق ذلك في واقع الأمر ، وساعة قالوا : نخشى أن تصيبنا دائرة ونحن نحفظ بالعلاقة مع أهل الكتاب من أجل الولاية والنصرة . جاءت من بعد ذلك النصرة بالفتح وبأمر من الله ، فماذا كان موقفهم ؟

صار الموقف هو « فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » أي أنهم صاروا إلى الندم . وبذلك صار قولهم : « نخشى أن تصيبنا دائرة » هو كشف لما في قلوبهم من مرض النفاق ، وقد خلعوا على المرض وهربوا عنه بهذا الكلام سترًا لما في قلوبهم ، فكان الذي أسروه في نفوسهم هو كراهية هذا الدين وكراهية هذا المنهج وأنهم لا يحبون أن يستعمل هذا المنهج على غيره .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يدلنا على أن القول الذي نشأ منهم : « نخشى أن تصيبنا دائرة » لم يكن هو السبب المباشر . ولكن السبب هو المرض في قلوبهم . والمرض : أنهم لا يحبون أن يتصر منهج الإسلام ؛ لأنهم يعيشون على ثروات المخالفين للدين ، وساعة تكون السيطرة للإسلام ينتهي ثراؤهم . وكذلك كان أهل الكتاب في المدينة قبل أن يأتي الإسلام كانوا أصحاب العلم والمال والجاه ، وكانت الأوس والخزرج يأخذون منهم المال بالربا ويشترون منهم السلاح ، ويأخذون منهم العلم . ولما جاء الإسلام ضاع من اليهود كل ذلك فتمكن من قلوبهم المرض ؛ لأن الإسلام سلبهم السلطة الزمنية ، هذه السلطة التي جعلتهم يحرفون كتب الله . فإذا كانوا قد دخلوا مع الله في تحريف كتبه ، أفلا يدخلون معكم - أيها المسلمون - في عداوة ويلبسون عليكم بأنهم يعينون وهم يخذلون ؟

« فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » وساعة يسمعون هذا القول الرياني

وهو قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته ويُقرأ في المساجد ويسمعونه ، ولم يكن هناك فتح ، ولم يكن هناك أمر ، ويخبرهم الله بمصيرهم : « فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ، ومعنى ذلك أنه سبحانه كتب الذي في نفوسهم . مثلما قال من قبل : « ويقولون في أنفسهم » . أى أنهم قالوا في أنفسهم وسمعهم الخالق . ولو لم يقولوا في أنفسهم لأعلنوا أنهم لم يقولوا ذلك ، لكنهم بهتوا حين كشفهم الحق وفضحهم وسجل ما في أنفسهم وأورد مضمون القول ، وكان من اللازم أن يعترفوا بمضمون القول ، وكان لا بد لهم أن يتجهوا إلى الإيمان . لكنهم لم يفعلوا فصاروا إلى الندم . بنص الآية التي نزلت قبل أن يأتى فتح أو أمر من الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ
جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا
خَسِرِينَ ﴿٥٢﴾

هنا يرى المؤمنون رأى العين ندم هؤلاء . والندم انكسار القلب في الحاضر على تصرف سابق مثلما يرتكب إنسان حماقة وتظهر آثارها من بعد ذلك ، فيقول : يا ليتنى لم أكن قد فعلت ذلك . إنه انكسار نفس على تصرف سابق . وانكسار النفس يتضح على بشرة الوجه . وساعة يأتى الفتح تجدد المنافقين وأهل الكتاب مكبوتين كتباً قسرياً وهو الكبت الذى لا يجرؤ صاحبه عليه فيدعى أنه فرحان ، إنه قسرى بالحاج بنية ، وظهور أثر ذلك على وجوههم .

وهنا يفتن المؤمنون إلى ذلك فيقولون : « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم » . ولو كان هؤلاء المنافقون من الصادقين لفرحوا ولكانت أسارىهم متهلة ، ولظهرت عليهم الغبطة . لكنهم صاروا عكس ذلك ، صاروا نادمين مكبوتين .

« ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمحكم حبطت »
 أى حبط عملهم وقولهم : « إنا معكم » . والحبط هو - كما قلنا - الانتفاخ الذى
 يصيب البهيمة التى تأكل طعاماً غير مناسب لها ، فيظن الناس أنها قد سممت ولكنهم
 يلتفتون فيجدون أنها مصابة بانتفاخ قاتل .

« حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » والخسارة فى معناها الواضح أن يقل رأس
 المال . لقد فعل المنافقون ذلك ليستروا أنفسهم وراء المسلمين ولم يسلم لهم هذا الأمر
 وانكشفوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ
 يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى
 الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ
 ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

والخطاب هنا للمؤمنين ، وكل نداء مثل هذا قد يحىء بعده حكم من الأحكام أو
 بشارة من البشارات أو وعيد للمخالف . والذى يأتى فيه شبه إشكال وليس
 بإشكال ، هو أن يأتى هذا القول ويكون ما بعده أمر بالإيمان كقوله الحق : « يا أيها
 الذين آمنوا آمنوا » فسيحانه يناديهم كمؤمنين ويطلب منهم الإيمان ، ومثال ذلك قول
 القائل : « يا قائم قم » برغم أن المفروض أن يكون القول : « يا قائم اجلس » أو
 « يا قائم تعال » ، أو « يا قائم انصرف إلى فلان » ، فكيف إذن يقول الحق :
 « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » . هنا نقول : ما الإيمان ؟ الإيمان هو استقرار العقيدة فى
 القلب فلا تطفو للذهن لتناقش من جديد . ونسمى ذلك عقيدة ، أى أمراً معقوداً فى
 القلب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب مؤمناً ويطلبه أن يؤمن ، فمعنى ذلك أن

الحق يقول : أنت آمنت قبل أن أناديك وبسر الإيمان ناديتك فحافظ على هذا الإيمان دائماً . وجدد دائماً إيمانك لأننى ناديتك بوصف الإيمان الذى عرفته فيك .

إن الحق يوضح : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم ولتكن كل لحظة من لحظات حياتكم المقبلة فى إيمان عالٍ مرتقى قبل أن أتكلّم معكم بوصف الإيمان أنتم آمنتُم أولاً فناديتكم فحافظوا على ذلك واثبتوا على إيمانكم .

ومعنى قوله : « من يرتد منكم عن دينه » أى من يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعوض عنه ، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين . إذن فمن يرتد فعليه أن يفهم أنه لن ينقص جند الله واحداً ، لأن الذى أذن لشرعه أن ينزل على رسول ونبي خاتم لن يجعل هذا الرسول وهذا المنهج تحت رحمة أغيار الناس . فإن خرج أناس عن المنهج فالله يستبدل بهم غيرهم . وفى هذه الآية أسلوب يخالف آية البقرة فى الوجه الإعرابى ، وسبحانه يقول فى آية البقرة :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا زَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾

(سورة البقرة)

هنا وجدنا الحق يقول : « ومن يرتد منكم عن دينه » أما فى الآية التى نحن بصدددها فى سورة المائدة فهو سبحانه يقول : « من يرتد منكم عن دينه » ونجد الأسلوبين مختلفين . والحكمة العليا فى أن الحق سبحانه وتعالى يأتى فى كتابه بآيات متحدة فى المعنى إلا أن وجه الإعراب فيها يختلف ليدلنا أن القرآن نزل إلى الناس كافة . وقبل أن ينزل القرآن كانت هناك لغتان : لغة تميم ، ولغة الحجاز .

وكان الخلاف بين اللغتين محصوراً فى الكلمة التى بها تضعيف ، أى فيها حرفان

من شكل واحد أى متماثلان . وكلمة « يرتد » بها « دالان » وأصلها « يرتدد » .
و« يرتد » بها مثلاً والنطق بها صعب . ولذلك حاول الناس في مثل هذه الحالة أن
يدغموا مثلاً في مثل . ولذلك كان من اللازم أن تُسكن الحرف الأول من المثليين .
والمفروض أن « الدال » الثانية ساكنة ؛ لأن « مَنْ » شرطية جازمة . والدال الأولى
أصلها بالكسر . ولا بد من الإدغام . والإدغام يقتضى إسكان الحرف الأول . إذن
فمن أجل الإدغام نفعل ذلك .

ونحن نعلم أن الساكنين لا يلتقيان ، وكان تسكين الحرف الأول لأنه ضرورى
للإدغام ، أما الحرف الساكن الآخر فهو الطارىء . فتتصرف فيه ، ولذلك نحركه
بالفتح حتى نتخلص من التقاء الساكنين . ولذلك نقول : « من يرتد » بالفتح .

وجاء لى ذات مرة سؤال يقول : كيف يأتى القرآن بـ « يرتد » بالنصب أى
بالفتح ؟ وقلت : إنها ليست « فتحة نصب » والسائل يفهم أن « مَنْ » إما اسم
موصول ، وإما هى « مَنْ » الشرطية ، فلو كانت اسماً موصولاً ؛ لكان القول « من
يرتد » - بالضم - وإن كانت « مَنْ » الشرطية لجاءت بالتسكين ولأن ما قبلها جاء
ساكناً للإدغام تخلفنا من السكون بالفتحة وهى « فتحة » التخلص من ساكنين ،
لأنه - كما قلنا - لا يلتقى ساكنان .

والذى يظهر لنا ذلك هو آية البقرة التى قال فيها الحق : « ومن يرتدد » بدليل أنه
عندما عطف قال : « فيمت » بالجزم عطفاً على يرتدد . أما السبب فى أن جواب
الشرط واضح فى آية المائدة أنه لم يأت فعل جوابى أو عطف ، وجواب الشرط هو
قول الحق : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ويدل على ذلك دخول الفاء على
كلمة سوف لكن لو كان الحق قد قال : من يرتد منكم عن دينه يأتى الله بقوم يحبهم
ويحبونه كان يمكن الفهم بسرعة أن « مَنْ » شرطية ، لأن كلمة « يأتى » جاءت
مجزومة بحذف آخرها ، ومن هنا يتضح أن الفتحة فى « يرتد » هى فتحة التخلص
من التقاء الساكنين .

وما السبب فى أن الحق يأتى بآية على هذا النسق ، وآية أخرى على ذاك النسق ؟
نحن نعلم أن القرآن قد نزل بلغة قريش . وكانت قريش تمتلك السيادة . ولم تكن

هناك قبيلة بقيادة علي مواجهة قريش . ونعرف جميعاً أن رحلة قريش إلى اليمن لم يكن ليجرؤ إنسان أن يتعرض لها ، وكذلك في رحلة قريش إلى الشام ؛ لأن قريشا تستوطن حيث يوجد بيت الله الحرام الذي يحج إليه كل عرب . ويوم أن يتعرض أحد لقوافل قريش فعليه أن ينتظر العقاب له أو لقييلته ، إذن فالبيت الحرام هو الذي أوجد لهم تلك المهابة لذلك ينبههم الحق إلى ذلك عندما قال في سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۚ ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ۚ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْفُوفٍ ۚ ۝٥ ﴾

(سورة الفيل)

وقد تم وعيد الله لأصحاب الفيل ، لأنهم أرادوا هدم بيت الله الحرام . ثم يتبع الحق سورة الفيل بقوله في سورة قريش :

﴿ لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۚ ۝١ إِيَّانَاهُمُ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ ۝٢ ﴾

(سورة قريش)

ليوضح سبحانه أنه من ضمن أسباب صيانة بيت الله الحرام أن حفظ سبحانه لقريش الأمان في رحلة الشتاء والصيف ، ولو انهدم البيت الذي يحقق لقريش السيادة لهجم الناس على القرشيين من كل جانب ؛ لأنه القاتل في شأن من قصدهم لهدم بيت الله الحرام .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْفُوفٍ ۚ ۝٥ ﴾ ﴿ لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۚ ۝١ ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ سورة قريش)

وما دامت تلك المسألة قد صنعها الله لقريش ، فلا بد لهم من عبادة رب هذا البيت :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ ۝١ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ۚ ۝٢ ﴾

(سورة قريش)

إذن فقريش أخذت السيادة بين العرب بمكانة البيت ، وأخذت السيادة أيضاً في اللغة ، وكانت كل أسواق العرب تعقد هناك ، وأشهرها سوق عكاظ ، وكان ينصب في قريش خلاصة اللغات الجميلة من القبائل المختلفة . وهكذا أخذت اللغة

المصفاة المنتقاة ، فكل شاعر كان يقدم أفضل ما عنده من شعر . وكل خطيب كان يأتي بأحسن ما عنده من خطب . وبذلك كانت قريش تسمع أجود الكلمات . ولهذا كانت اللغة التي عندهم هي اللغة العالية . ولذلك عندما جرى لزمّن كتابة القرآن كانت الوصية :

إن اختلف عليكم شيء فاكتبوه بلغة قريش ، لأن لغة قريش أخذت من اللغات محاسنها . وبنو تميم والحجاز كانوا يختلفون في بعض الأشياء . ولذلك كنا نسمع - عندما نتعلم الإعراب - قول المعلم وهو يسألنا : هل « ما » حجازية أو تميمية ؟ وهذا يدلنا على أن هناك خلافاً بين النطق في القبيلتين .

وفي الآية التي نحن بصددها ندغم ونقول : « من يرتد » وفي آية البقرة ننطقها دون إدغام فنقول : « ومن يرتدد » .

وكان الحق جاء بآية على لغة الحجاز وآية على لغة تميم ، وذلك برهان جديد على أن القرآن لم يأت ليحقق سيادة لقريش ، إنما هو للناس كافة ، لذلك نجد من كل لهجة كلمة ، ليتضح أن القرآن لعموم الناس جميعهم .

وعندما نقرأ قول الحق :

﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنَّا عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقُرْآنٍ مَحْسُومٍ وَيُحْمِلُهُ اللَّهُ

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

نعلم أنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن يأتي بأهل إيمان غير الذين ارتدوا عنه ، تماماً كما أخبرنا من قبل :

﴿وَمَنْ يَرْتَدَّ مِنَّا عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَكُونُ لِشَرِّ الْأُمَمِ حَاسِبًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

والقول هنا : خبر عن مصير المرتد إلى جهنم بعد أن تقوم الساعة .

ولكن القول : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » يدل على أن إجراء سيحدث قبل أن تقوم القيامة . ومن ذا الذي يستطيع أن يتصور أن إلهاً يتزل قرآناً يتحدى به ثم يأتي في القرآن بقضية مازالت في الغيب ويجازف بها ، إن لم تكن مستق ؟ . والحق يقول : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » « سوف » نخبرنا بموقف قادم سيأتي من بعد ذلك . ونقول هنا : من الذي يستطيع أن يتحكم في اختيارات الناس للإيمان ؟ . لا أحد يستطيع أن يتحكم في اختيارات الناس للإيمان إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي يتحكم ويحكم ونخبرنا بأنه سوف يأتي أناس يؤمنون بدلاً من المرتدين .

أما إن ارتد أناس ، وانتظروا أن يروا البديل لهم ، ولم يأت فماذا يكون الأمر ؟ لا بد أن تنصرف الناس عن الدين . ولم يكن الحق ليجازف ويمحى على لسان محمد بأن قوماً سيرتدون وهو لا يعلم أيأتي قوم مرتدون ؟ والعلم جاء في هذه الآية كما جاء في كل القرآن من الله جل وعلا . وقد قالها الحق قضية كونية : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وهل هناك قوم يحبهم الله وهم لا يحبونه ؟ ونقول : إن هذا لا يحدث مع الله ، وإن كان يحدث في الحياة البشرية مثلما قال الشاعر العربي :

أنت الحبيب ولكني أعود به
من أن أكون محباً غير محبوب

وشقاء المحبين إنما يأتي من أن العاشق يحب أحداً ، وهذا الحبيب لا يبادل له الحب ، لذلك يظل العاشق باكياً طوال عمره . ولنا أن نلاحظ أن حب الله هو السابق في هذا القول الكريم : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » ، لأن هذه هي صفة الانكشاف للعلم ، لقد علم الحق أنهم سيتجهون إليه فأحبهم ، وعندما جاءوا فعلوا ما جعلهم محبوبين لله ، ثم ما هو الحب ؟ . إنه ودادة القلب . وقلنا الكثير من قبل في أمر ودادة القلب . ونعرف أن هناك لوناً من الحب يتحكم فيه العقل . ولونا آخر من الحب لا يتحكم فيه العقل ولكن تتحكم فيه العاطفة .

ومثال هذا عندما نذهب إلى طبيب ويصف لنا دواء مرّاً غير مستساغ الطعم ، ونجد الإنسان الموصوف له الدواء يذهب إلى الصيدلية للسؤال عن الدواء ، فإن لم

يحمده فهو يلف ويدور ويسأل في كل صيدليات البلد فإن لم يحده فهو يوصي المسافر إلى الخارج لعله يأتى له بالدواء . وإذا جاء له صديق بهذا الدواء فهو يمتلئ بالامتنان بالسرور . أيقبل المريض على الدواء غير المستساغ بعاطفته أم بعقله ؟ إنه يقبل على الدواء غير المستساغ الطعم ويحبه بعقله . والحب العقل - إذن - هو إثارة النافع .

ومثال ذلك نجد الوالد لابن غيبى يحب ابناً ذكياً لإنسان غيره .

الوالد - هنا - يحب ابنه الغيبى بعاطفته . ولكنه يحب ابن جاره لأنه يمتلك رصيذاً من الذكاء . إذن هناك حب عقل وحب عاطفى . وهذا ما يحدث في المجال البشرى لكن بالنسبة لله فلا .

وعندما يقول الحق : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » أى أنهم يحبون الله بعقولهم ، وقد يتسامى الحب إلى أن يصير بعاطفتهم ، وقد يجرب ذلك حين يمرى الله على أناس أشياء هى شر فى ظاهرها ، ولكنهم يظلمون على عشق الله . ومعنى ذلك أن حبهم لله انتقل من عقولهم إلى عاطفتهم . وسيدنا عمر جرى معه حل هذا الإشكال . كيف ؟

لقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » (١) .

وهناك من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أحب إليه من ماله وولده لكن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : أنت أحب إلى من مالى وولدى أما نفسى فلا وأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » (٢) .

وهنا علم عمر - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد الحب العقلى ؛ لأن عمر رضى الله عنه علم أيضاً أن الحب العاطفى لا يكلف به ، ولذلك قال عمر : الآن أحبك عن نفسى « فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن

يا عمر . أى كأنه فى هذه اللحظة قد اكتمل إيمان عمر . إذن فحب الله لا تقل فيه أيما المؤمن هل هو حب عقل أو حب عاطفى ؟ لأن المراد بحب الإله هو دوام فيوضاته على من يحب ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالخلق يلقاه فى أحضان نعمه ويتجلى عليه برؤيته :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

والحسنى هى الجنة . أما الزيادة فقد قال المفسرون : إنها رؤية المحسن .

« فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وعندما يقول الحق : « فسوف » فلنعلم أن ما يأتى بعدها هو من إعلانات النبوة التى جاءت على لسان محمد فى قرآن الله ، لأن ذلك الأمر قد حدث كما جاء فى قرآن الله ، فقد ارتد قوم وانقسموا فى الردة إلى قسمين : قسم ارتد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم ارتد على عهد أبى بكر ، ومنهم من ارتد على عهد عمر . وحين ننظر إلى ما بعد « سوف » لا بد أن نعرف أن هناك امتداداً زمنياً .

وأول الارتداد كان فى اليمن ، وكان ذلك بعد حجة الوداع وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان فى اليمن كاهن مشعوذ اسمه عُبَيْلَةُ بن كعب . ويقال له : ذو الحمار ، أو ذو الحمار فى رواية أخرى ، وهو الذى يعرف فى كتب التاريخ الإسلامى باسم الأسود العنسى . هو أحد الكذابين اللذين ذكرهما النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أُوتِيتُ خَزَائِنَ الْأَرْضِ ، فَوُضِعَ فِي يَدَيَّ سَوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ فَكَبَّرْتُ عَلَىٰ وَاهِمَتْنِي » فأوجى إلى أن انفضحها فنفضحتها فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة^(١) .

وكان لهذا الكاهن حمارٌ رَوْضَه صاحبه رياضة من لون خاص تماماً كتدريب

(١) رواه البخارى فى التمييز والنقاب والمغازى ، ورواه مسلم فى الروايات ، والترمذى فى الروايات ، وابن ماجه فى الروايات ، واحد ٢٦٣/١ .

القرود ، فكان يقول له : قف . فيقف . ويقول له : سر . فيسير . واعتبر هذا الكاهن أن مثل هذا الأمر للحمار هو معجزة . أو كان الرجل اسمه « ذو الخمار » أى أنه كان يرتدى خماراً على وجهه . ومن العجيب أن أى مرتد لم يطالبه من يتعبه بعلامة صدقه في النبوة .

إن أول شيء في التأكد من صحة قول أى إنسان : « أنا نبي » أن يسأله الناس عن علامة الصدق في النبوة وأن يتعرفوا على معجزته ، لكننا لا نجد ذلك في مرتد أبداً . وكيف لا يسأل الناس الذين يتبعون المرتد عن نفسه وعن دعواه أنه نبي وعن معجزته التي تدل على صدق رسالته ، وهو ما يحدث مع أى رسول ، كيف يؤمن أناس بفرد بدون معجزة ؟ .

هنا نذهب إلى الجانب النفسى من الأمر ونقول : إن الدين أمر فطرى والإنسان الذى ليس له دين يغضب ويحزن عندما نقول له : يا قليل الدين . ولذلك نجد أن المبطل من هؤلاء يقول : أنا على دين . إنه لا يتصور أنه مبطل بلا دين . ولذلك قال الحق :

﴿لَكَرَّ دِينُكَ وَلَكَ دِينٌ ۚ﴾

(سورة الكافرون)

فكان الأصل في الفطرة الأصلية أن الدين ضرورة للإنسان ، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يقبل كل الناس على الدين ؟ لأن الدين ليس مجرد اسم أو صفة ، ولكنه التزام بتكاليف . والذى يجعل الناس في خشية من الدين هو مشقة التكاليف ؛ لذلك فعندما يأتى إنسان ويقول : أنا نبي ومعجزتى أننى خففت عليكم الصلاة والزكاة والصيام وأبحت لكم النظر إلى نساء بعضكم .

لا بد أن يسيل لعاب أصحاب الهوى الذين لا بصيرة لهم ويقولون : إن مثل ذلك لدين جميل ، ويستسلمون ويخدعون أنفسهم بأنهم متدينون ورغم تحللهم من بعض التزامات الدين ، إن المرء ليتعجب من مدعى النبوة في الزمن القديم وحتى عصرنا هذا لأننا لم نجد أحداً من المثقفين قد وقف أمام مدع وقال له :

ما معجزتك ؟ ولكن الكل سأل : ما منهجك ؟ وعندما سأل أهل اليمن ذا الخمار : ما منهجك ؟

كانت إجابه: إنه أسقط عنهم بعض التكاليف بداية من تقليل الصلاة والزكاة إلى إباحة الاختلاط بنساء غيرهم . واستراح بعضهم لذلك المنهج وذهلوا وغفلوا عن طلب المعجزة . وكل الذين ادهوا النبوة كانوا من هذا الصنف . ولذلك نجد أن كل مدع للنبوة يحاول التخفيف من المنهج ، فهناك من خفف الزكاة . وجاءت امرأة اسمها سجاح خففت الصلاة . وجاء ثالث ليخفف الربا فيبيحه . لكن أحداً منهم لم يأت بمعجزة . واتبعه بعضهم لمجرد تسهيل المنهج . ومدعى النبوة إنما يرضى النفوس التي لا تطيق ولا تقوى على مشقة المنهج بأن تكون متدنية ملتزمة به .

ومثال ذلك ما حدث في الإسكندرية عندما ظهر مدع للنبوة . وأباح منكرأ مشيراً ، واتبعه بعض من المتعلمين الذين أرادوا ديناً على هواهم ، وكذلك كان الأمر في البداية . وعندما جاء ذو الحمار ، أو ذو الحمار ، وهو كما قلنا : مشعوذ ، وكان كما يصفه المؤرخون يسمى قلوب من يسمع منطقته وكان يريهم الأعاجيب ، واستطاع بذلك أن يستولى على مُلك اليمن ، وأعلن ارتداده . وغلب على صنعاء وعلى ما بين الطائف إلى البحرين . وجعل يستطير شره استطارة الحريق .

وكان سيدنا معاذ بن جبل هو الوالي على اليمن من قِبَل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبر سيدنا معاذ بن جبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إن كاهناً اسمه ذو الحمار أو ذو الحمار ، قد ارتد .

ويذهب سيدنا معاذ إلى حضرموت . وهناك يأتيه كتاب من النبي صلى الله عليه وسلم يأمره فيه أن يبعث الرجال لمصاولة ذى الحمار . ويحتال المسلمون للنهوض بما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يدخل على ذى الحمار رجل ديلمى اسمه فيروز فيقتله على فراشه .

وعلى الرغم من بعد المسافة بين اليمن والمدينة ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ليلتها : « قتل الليلة الأسود العنسي »^(١) .

وبعد ذلك يأتي الخبر في آخر الشهر أن مدعى النبوة قد قتل . وتلك من إعجازات

النبوة . إذن فقد تعرض المؤمنون على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم للهزة في العقيدة بحكاية ذى الحمار أو ذى الحمار . وكانت قصة ذى الحمار كالمصلح الواقى الذى يرمى المناعة ، وأخبرهم الله بها أولاً : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

وذلك ليعطى الحق سبحانه وتعالى المؤمنين مناعة إيمانية وكأنه يقول للمؤمنين : لا تظنوا أنكم لن تتعرضوا إلى هزات عقيدة دينية بل ستعرضون . وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : قد يجوز أن يفهم الناس أنى وأنا حتى أقوم على منهج الله فى الأرض فإذا أنا مت ربما ارتدوا عن الدين .

ورسول الله عندما يبلغ ذلك للمؤمنين عن الله - سبحانه - إنما كان ذلك بقصد تربية المناعة . فلو فوجئ المسلمون بالردة ولم يكن الله قد أخبرهم بها لما كان عندهم احتياط مناعى . والاحتياط المناعى هو أول عملية فى الوقاية . ونعلم أن العلم المعاصر استطاع فصل الميكروب أو الفيروس المسبب لمرض وبائى ، ويقوم العلماء بإضعاف هذا الميكروب أو الفيروس ، ثم يوضع قليل من هذا الميكروب أو الفيروس بعد إضعافه فى الجسم البشرى ، فتتحرك فى الجسم أجهزة الوقاية والحماية لتقاتل هذا الميكروب أو الفيروس وتتصر عليه ، وبذلك تمتلك قوى الوقاية والحماية داخل الجسم القدرة على مقاومة هذا المرض ، وهكذا أراد الحق بهذا القول الكريم : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . إذن فحين يوجد الارتداد ، لا يفاجأ المسلمون بهذا الارتداد ، ويثقون تماماً أنه بمجرد مجيء الارتداد فإن وعد الله الآخر مجيء : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » فلا فزع عند المؤمنين ساعة يحدث الارتداد ولا زلزلة فى النفوس . وساعة يأتى الارتداد يقول المؤمن :

إن الذى صدق فى أنه يحدث الارتداد ، سيصدق فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وإذا رأيت « السين » تسبق قولاً فإن هذا يعنى أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث قريب وقليل مثل قوله الحق :

﴿ سَيَقُولُ الْكَافِرَةُ أَتَأْتِيَنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾

أما عندما نقرأ « سوف » فأعلم أن الزمن الذي يفصل بين الحدث والحدث متسع وبعيد . ولذلك نحن نرى أن الردة قد امتدت في عهد أبي بكر - رضى الله عنه - وفي عهد عمر - رضى الله عنه - .

وما هي ذى مواصفات القوم الذين يأتى بهم الله في قوله : « سوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أهرزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ؟ إنها مواصفات ست : يحبهم الله ، ويحبون الله ، أذلة على المؤمنين ، أهرزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم .

وكيف يكون الإنسان المؤمن ذليلاً وعزيزاً في آن واحد ؟ لأن الحق لا يريد أن يطعننا على لون واحد من الانفعال ، ولكنه يريد لنا أن نتفعل تبعاً للموقف . فعندما يحتاج الموقف إلى أن يكون المؤمن عطوفاً فالمؤمن يواجه الموقف بالعاطفة . وعندما يحتاج الموقف إلى الشدة فالمؤمن يواجه الموقف بالشدة . وإن احتاج الموقف إلى الكرم ، فالمؤمن يقابل الموقف بالكرم . فالمسلم - إذن - يتفعل انفعالا مناسباً لكل موقف ، وليس مطبوعاً على انفعال واحد . ولو انطبع المؤمن على موقف ذلة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب العزة فلا يجدها ولو طبع المؤمن على عزة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب الذلة فلا يجدها ؛ لذلك جعل الحق قلب المؤمن ليناً قلدراً على مواجهة كل موقف بما يناسبه .

والمؤمن عزيز أمام عدوه لا يُغلب ، ومحابه بقوة . والمؤمن يخفض جناح الذل من الرحمة لوالديه امتثالاً لأمر الحق سبحانه :

﴿ وَأَخْفِضْ مِمَّا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ أَرْحَمِهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

وهل إذا خفض المؤمن جناح الذل لوالديه . أيخدش ذلك عزته ؟ لا . بل ذلك أمر يرفع من عزة الإنسان . والحق يريد المؤمن أن يكون غير مطبوع على لون واحد من الانفعال ، ولكن لكل موقف انفعاله . وحين يتفعل المؤمن للمواقف المختلفة فهو يميز ما يحتاج إليه كل موقف « أذلة على المؤمنين أهرزة على الكافرين » ويقال في اللغة : « ذليل لفلان » فلهذا - إذاً - يقول الحق هنا : « أذلة على المؤمنين » ،

« على » تفيد العلو . والذلة تفيد المكانة المنخفضة ، فكيف يأتي هذا التعبير ؟ لقد جاء هذا القول على هذا الشكل لحكمة هي : أن المؤمن ما دام يحب الله ويحبه الله . وساعة يكون في ذلة لأخيه المؤمن فهذا يرفع من قدره . وهي ليست ذلة بالمعنى المتعارف عليه ، ولكنه لين جانب وعطف ورحمة . إذن فقوله الحق : « أذلة على المؤمنين » يعني أن المؤمنين يعطفون على غيرهم من المؤمنين حتى يبدو هذا العطف وكأنه ذلة . وبعض العلماء يقول : إن المادة « ذال » و « لام » تدل على معنيين متقابلين ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾

(من الآية ٧٢ سورة يس)

أى جعلناها خاضعة لتصرفهم . وهذا التذليل ليس بقهر من الإنسان للأنعام ولكنه بتسخير من الله . وهي ميسرة لخدمة الإنسان . ومثال آخر . قوله الحق :

﴿فَاسْئَلْ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

أى متطامنة مهياة . إذن فهذه ذلة اللين . وهناك « ذل » - بضم الذال - وهو ضد العز . وهناك « ذل » - بكسر الذال - وهو اللين . إذن فالذل بكسر الذال هو ضد الصعوبة ، أى اللين . والذل - بضم الذال - هو ضد العز ، فإذا أردنا ذلة اللين ؛ فذل المؤمن للمؤمن من الذل ، وإن أردنا الذلة التى هى ضد العز ، فهى من الذل . وعندما يكون المؤمن على ذلة للمؤمن . فهى ذلة اللين والعطف . وعندما يريد الحق الشيء ليتدانى للمؤمن ولا يتعبه ، فهو يقول :

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾

(سورة الحاقة)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَتْلِيلًا﴾

(من الآية ١٤ سورة الإنسان)

أى ذُلَّتْ عناقيدها . فالفاكهة تنزل إلى المكان الذى يوجد فيه المؤمن . وإن وقف المؤمن لعلال بيده أن يقطف الثمار . وإن اضطر جمع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار

لأنها تتلانى له . وإن نام المؤمن لتداني قطاف الثمار إلى مكانه وبذلك يستطيع أن يأكل منها في أى وقت وعلى أى وضع .

وهنا يأتي الحق بالقول الحكيم : « أذلة على المؤمنين » أى أن ذلة المؤمن لأخيه المؤمن ترفع منزلته . وبها يكون المؤمن أهلاً لأن ترفع منزلته ، لأنه مصطفى بأن الله يحبه وأنه يحب الله ، ولا توجد رفعة أكثر من هذه رفعة . ولذلك نجد القول المأثور : (من تواضع لله رفعه) .

أى من تواضع وفى باله الله فإن الله يرفعه .

« أعزة على الكافرين » وهذا هو الوصف الثالث للمؤمنين في تلك الآية بعد قوله الحق : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين) .

إن المؤمن عزيز على الكافرين بأنه لا يُغلب ، وما دام هو يعرف ذلك فهو ينضم إلى الجهاد في سبيل الله . « يجاهدون في سبيل الله » وكلمة « الجهاد في سبيل الله » تخصّص لونا من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أى انتهاء آخر ، وكل هذه الانتهات في عرف الدين لا قيمة لها إلا إذا نبعت من الانتهاء إلى منهج الله ، لتكون كلمة الله هي العليا .

وعندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل القتال :

فيما جاء عن أبي موسى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبی صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فَمَنْ في سبيل الله ؟ قال : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » (١)

وما دام المؤمن محبوباً من الله ويحب الله وذليلاً على المؤمنين وعزيزاً على الكافرين ،

ما دام الأمر كذلك فعندما يتولى مؤمن أمر قيادة غيره من المؤمنين فلا أحد منهم يأنف أن يكون تحت قيادته . وبذلك يخرج المؤمن عن دائرة الاستعلاء والاستكبار ؛ لأنه يجاهد في سبيل الله . ولو جاءه إنسان ليلومه على ذلك فهو لا يسمع له ، وكأنه سبحانه يوضح : تنبهوا جيداً إلى أن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله والذين هم أدلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين ويجاهدون في سبيل الله فلا نظن أنهم بمنأى عن سخرية الساخرين ، وهزؤ المستهزئين ، ولوم اللاتمين ليردوهم عن هذه العملية .

ولذلك يقول الحق : « ولا يخافون لومة لائم » وقد وضح ذلك على مر تاريخ الإسلام وجاء الحق بقوم يحبهم ويحبونه وهم أدلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين وجاهدوا في سبيل الله وما خافوا لومة لائم .

وساعة نستقرئ هذه الآية نجد أن « سوف » ابتدأ مدلولها الأول في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين سئل رسول الله عن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم هذه الصفات ؛ أشار بيده مرة إلى أبي موسى الأشعري ، وقال صلى الله عليه وسلم : « هم قوم من هذا »^(١) .

وعندما نزل قوله تعالى :

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

سأل أبو هريرة - رضى الله عنه - رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هم يا رسول الله ؟ . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء »^(٢) .

وقد حدثت الرحلة الأولى في اليمن ، وكانت في قوم أبي موسى الأشعري ، وكتب رسول الله إلى معاذ بن جبل - كما أوضحنا - وبعد ذلك تطوع فيروز الديلمي ودخل على من كان يدعى النبوة ذى الخمار أو ذى الحمار ، وقتله . وأخبر رسول الله صلى الله

(١) حديث شريف صححه الحاكم ورواه الطبري في التفسير .

(٢) رواه البخاري ومسلم في فضائل الصحابة واحد ٤١٧/٢ .

الباب الثاني

٥٣٢١٧

عليه وسلم ليلتها بالامر . ولكن خبر القتل جاء بعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وكانت تلك من علامات النبوة .

وحدث - أيضاً - في زمانه صلى الله عليه وسلم أن ادعى مسيلمة الكذاب أنه نبي . وكتب مسيلمة إلى رسول الله كتاباً ، يقول : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .

ولم يقدر على نزع صفة النبوة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء في كتاب مسيلمة : « أما بعد . فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك » كأنه قد فهم أن المسألة بالنسبة لرسول الله تحتاج إلى قسمة ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات فيها هبات النبوة :

(من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) (١) .

ولم يسمع مسيلمة كلام رسول الله ، وجهزت الحملة لترسل إليه لتأديبه . وجاء عهد أبي بكر - رضي الله عنه - ، وكانت المعركة على أشدها . وجاء « وحشي » الذي قتل حمزة - رضي الله عنه - في موقعة أحد . وأراد أن يكفر عن سيئاته فذهب وقتل مسيلمة . ولذلك كان يقول كلمته المشهورة : أنا قتلت في الجاهلية خير الناس - يقصد حمزة - وقتلت في الإسلام شر الناس - يقصد مسيلمة - وانتهى أمر مسيلمة .

وجاء إنسان ثالث في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه « طليحة بن خويلد » من بني أسد وادعى النبوة ، وكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذهب إليه وكان « خالد بن الوليد » وساعة علم الرجل أن خالداً هو الذي جاء لقتاله لاذا بالفرار ، ولكنه من بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه .

ونلاحظ أننا نتطرق « الردة » بكسر الراء ، وصفاً لتلك الأمور التي حدثت وقوبلت

(١) رواه أبو حنيفة في مسنده ، وابن سعد في الطبقات الكبرى ص ١٨٠ برواية الإمام المصنف .

هذه المقابلة . ولا نسميها «رد» فتح الراء ، لأن الرد - بفتح الراء - يكون عودة إلى حق ، أما الردة - بكسرة الراء - فتكون إلى باطل ، مثال ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

أما الذي يرتد فهو يرتد إلى باطل .

ومن العجيب أن كلمة «الردة» التي جعلها الإسلام علامة على الانتقال من الإيمان إلى الكفر يستخدمها أعداء الإسلام الذين لا يؤمنون بأديان ما ، فعندما يترك الشيوعية أحد أتباعها يقولون : لقد حدثت ردة . وكان من الواجب لو أنهم أصحاب مبادئ أصيلة أن يختاروا لفظاً آخر لكن لا يوجد في اللغة لفظ يعبر عن الرجوع إلى الباطل إلا كلمة «ردة» وكذلك كلمة «منبر» لا توجد - أيضاً - إلا في الإسلام ، وهو موقف الواعظ من المصلين يوم الجمعة . وعندما يأتون إلى تصنيف جماعة متطرفة إلى اليسار فهم يقولون : «منبر اليسار» ونقول : لماذا تأخذون هذه الكلمة من عندنا ؟

ومثال آخر عندما يكتب كاتب : هذه الراقصة تتعبد في محراب الفن . ونقول : لماذا تستخدم كلمة «محراب» ؟ . عليك أن تبحث عن كلمة أخرى . وكل ذلك يدل على أن كلمات الإيمان هي الكلمات المعبرة ولذلك يذهبون إليها .

ويؤخذ في ظاهر الأمر على الإسلام أن من يرتد يُقتل .

ونقول : أيعظن أحد أن هذه ضد الإسلام ؟ لا إنها لصالح الإسلام ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه عندما يقبل على الإسلام فهو يقبل على الدين الكامل ؛ لأن من يخرج عليه يهدر دمه ويقتل . وعلى من يفكر في الدخول إلى الإسلام أن يحسب لحياته . إذن فالإسلام لا يسهل لأحد الدخول فيه ، ولكنه يصعب عملية الدخول . وينبه كل فرد إلى ضرورة الانتباه قبل الدخول في الإسلام ؛ لأنه دخول إلى دين كامل وليس هواً أو لعباً .

إن على من يرغب في الدخول في الإسلام أن يفكر جيداً وأن ينتهي إلى الحق ؛

لأن حياته ستكون ثمن الرجوع عن الإسلام وهذا دليل على جدية هذا الدين وعدم السماح بالعبث في عمليات الدخول فيه . وحين يصعب الإسلام عملية الدخول فيه إنما يعطى فرصة الاختيار ليعلم من يختار الدين الإسلامى أن يعي أن الرجوع عن الإسلام ثمنه الحياة . وساعة يطلب دين أن يفكر الإنسان جيداً قبل أن يدخل فيه فهل فى ذلك خداع أو نصيحة ؟ إنها النصيحة وهى عملية لصالح الإسلام ، وهى أمر على ليعلم كل داخل فى الإسلام أن هذا هو الشرط .

ولو أن الإسلام يريد تسهيل المسألة لقال : تعال إلى الإسلام واخرج منى تريد . لكن الدين الحق لا يجذب أحداً . وسبحانه يقول :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وتكلمنا من قبل عن الرداءات التى حدثت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن كلمة « سوف » التى جاءت فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » تدل على الامتدادية . وقد حدثت ردة فى عهد أبى بكر - رضى الله عنه - وظهر سبعة ادّعوا النبوة ، مثال ذلك : « بنو فزارة » قوم عيينة بن حصن ارتدوا وأرسل إليهم أبوبكر - رضى الله عنه - من حاربه . وكذلك قوم غطفان ارتدوا .

وكذلك قوم قرّة بن هبيرة بن سلمة ، وكذلك بنو سُلَيْم . قوم الفجاعة بن عبد ياليل ، فأرسل لهم أبوبكر من يؤدبهم . وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض من بنى تميم الذين ادّعت فيهم النبوة سجاح بنت المنذر والتي تزوجت مسيلمة . وكذلك « كتلة » قوم الأشعث بن قيس ، وكذلك قوم الحُطَم بن ضبيعة وهم بنو بكر بن وائل فى البحرين . وقضى عليهم سيدنا أبوبكر مما جعل كثيراً من القوم يقولون : إن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم كل تلك الأوصاف هم أبوبكر ومن معه . ولكن أئمنع ذلك أن كل جماعة سيكون فيها مثل أبى بكر - رضى الله عنه - ؟ لا . ومثال ذلك على بن أبى طالب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر :

عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : كان على رضى الله عنه تخلف عن النبى

صلى الله عليه وسلم في خيبر ، وكان به رمد فقال : أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج على فلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما كان مساء الليلة التي فتحها في صباحها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية - أو ليأخذن - غداً رجل يحب الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله . يفتح الله عليه . فإذا نحن بعلٍ وما نرجوه ، فقالوا هذا على ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتح الله عليه »^(١) .

وفي عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لم تحدث إلا ردة واحدة ، جاءت من الفساسنة بقيادة جبلة بن الأيهم وهم من الشام وكانوا مواليين للروم ، وكان جبلة هو رئيسهم وأسلم وجاء ليطوف بالبيت الحرام ببليمان كزعيم للفساسنة . وكان لهم العظمة في الجهاد والملابس . وكان يرتدى رداءً طويلاً فوطىء أحد الناس رداءه ، فسقط ، فلطمه جبلة ، وأبلغ الرجل عمر بن الخطاب . وقال عمر بن الخطاب : إنه القصاص . وقال سيد الفساسنة : إني أشتري هذه اللطمة بألف دينار ولم يقبل الرجل فعرض سيد الفساسنة ألفين من الدنانير فرفض الرجل ، فزادها إلى عشرة آلاف ولم يقبل الرجل .

وقال جبلة لعمر : أنظروني حتى أفكر في المسألة . فلما أنظره عمر ، هرب الرجل إلى الشام وتنصر . هكذا يتضح لنا آفاق كلمة « سوف » وأي زمن تأخذ ، إن لها امتدادات حتى زماننا .

إن الردة في زماننا جاءت من فارس ممثلة في البهائية والبابية ، وهدف المرتد يكون جاه الدنيا ، إن كان يريد الحكم ، ووسيلة المرتد تيسير التكليف لمن يتبعه في الارتداد . ومن يدعى لنفسه النبوة والقدرة على الإتيان بتشريع جديد إنما يطلب لنفسه جاه الدنيا ، والذي يتبع ذلك المدعى للنبوة إنما يقصد لنفسه تيسير التكليف .

ولماذا تيسير التكليف ؟ لأن الإنسان مؤمن بفطرته ودليل ذلك أننا إذا واجهنا إنساناً غير مؤمن ، وقلنا له : أنت قليل الدين . يغضب ويثور ، لأنه لا يتصور أن ينتزع أحد منه أنه متدين بشكل ما . ونرى إنساناً قد يسرف على نفسه كثيراً لكنه

(١) رواه البخاري - واللفظ له - في الجهاد وفي فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ورواه مسلم في فضائل الصحابة ، والترمذي في المناقب ، وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد ٩٩/١ ، ٨٥ .

ساعة يسمع إنساناً آخر يسب الدين يثور ويغضب ويتحول إلى مدافع عن دين الله ، وتلك هي الفطرة الإيمانية التي فطر الله كل الناس عليها . والذي يجعل الدين أمراً شاقاً على النفس البشرية ليس فطرة الدين ، ولكنه تكليف التدين ؛ لأنه أمر يدخل في الاختيار . وقد جعل الحق التكاليفات الإيمانية كلها في مناط الاختيار البشري ، ولم يشأ أن تكون أمراً قهرياً . ولو شاء سبحانه أن يجعل كل الناس مؤمنين لما قدر أحد على الكفر :

﴿ لَعَلَّكَ بَئِيعَ نَفْسِكَ إِلَّا بِكُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ إِن تَشَاءْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءَ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّصِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

فليس في قدرة أحد أن يتأبى على الله ، ولكنه شاء أن يجعل تكاليف الإيمان مسألة اختيارية . والإنسان حر في أن يفعل تكاليف الإيمان أو لا يفعلها ، وفي كلتا الحالتين سيلقى الجزاء . مثال ذلك : « اللسان » خلقه الله صالحاً أن يقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وهذا اللسان نفسه صالح لأن يقول : - والعياذ بالله - « أنا لا أؤمن بالله » .

ولا يعصى اللسان صاحبه ، فقد خلقه الله مجهزاً للتعبير عن مكنونات قلب الإنسان وخاضعاً لإرادة الإنسان . ومثال آخر من مصنوعاتنا نحن : جهاز التلفزيون الذي صممه البشر ليكون آلة متفاداة ومسخرة لما يرسله الإنسان فيه من برامج ، فإن أرسل الإنسان في جهاز التلفزيون أفلاماً وبرامج دينية وعلمية تستكشف آيات الله في الكون وتثبت قيم الإنسان على الإيمان فهذا اختيار إيمان . وإن أرسل الإنسان أفلاماً خلبيةة تحض على المجون والفسق فهذا اختيار يلحق الإنسان بدائرة المفسدين في الأرض .

إذن فالحق خلق الإنسان صالحاً لتطبيق تكاليف الإيمان وصالحاً للخروج عن التكليف . وحين يأمر الله عباده أن يطبقوا أو ينفذوا التكليف الإيمانى فهو يعلم أن قدرة الإنسان تسع التكليف ؛ لأنه العليم بعباده ، ولو لم يكن باستطاعتهم تنفيذ التكليف لما كلفهم به . وكلنا نعرف الفرق بين « العباد » و « العبيد » ؛ فكل الكائنات عبيد لله ، والإنسان من عبيد الله إن كان متكبراً على التكليف ، وإن خرج

على التكليف فهو مسير في أمور لا يقدر على الخروج منها ، فلا يستطيع أحد بإرادته أن يتوقف عن التنفس ، وهو - كما نعلم - أحد العمليات التي تجري على الرغم من الإنسان .

ولا أحد يستطيع أن يتنفس عندما ينتهي أجله . كذلك لا أحد يستطيع أن يقاوم المرض إن أصابه . إذن فكبر الإنسان وخروجه عن طاعة الله في أشياء لا تعنى أنه خارج في مطلق أموره عن الله ؛ لأن الحق فعال لما يريد ، فلا أحد يتحكم في بدايته حين يولد ، ولا أحد يتحكم في نهايته حين يموت ، وهناك أمور بين قوسَي الميلاد والموت ما من أحد بقادر على التحكم فيها ، وإرادة الاختيار إنما توجد في بعض الأمور فقط . أما كل ما عدا ذلك فهو قهري ، وكلنا عبيد الله في ذلك . لكن الحق تعالى أعطى لنا الاختيار في بقية أمور الحياة .

والذكي حقاً هو من يسأل ربه : لقد خلقتني يارب مختاراً . وماذا تحب أنت أن أفعل ؟ هنا يجد الإنسان نفسه أمام أوامر الله ونواهيه وأمام المنهج بمطلوباته ، هذا المنهج الذي يوضح للمؤمن ما الذي يمكن أن يفعله وما الذي يمكن أن يتجنبه . ويقول المؤمن : إنني أخرج من اختياري إلى مرادك يارب . والعبد الذي يتنازل عن اختياره إلى مراد خالقه هو واحد من العباد الذين وصفهم الحق بأنهم عباد الرحمن .

ونرى في حياتنا العادية نموذجاً لما يحدث بين رب الأسرة وأفرادها ، فرب الأسرة يقول لأبنائه : أنتم تريدون التنزه ، فأى مكان تحبون الذهاب إليه ؟

يجيب أحد أفراد الأسرة : لنذهب إلى المكان الفلاني . ويجيب آخر : أنت حرقه أن تصحبنا إلى أى مكان تريد ، المهم فقط أن تكون معنا . ومن المؤكد أن الذي يقول مثل هذا القول لرب الأسرة ينال منزلة رفيعة في قلبه . فإذا كان هذا يحدث بين إنسان وإنسان مثله فما بالنا بالاستحسان الذي يناله العبد حين يقول ذلك لخالقه الأكرم ؟ لا بد أن ينال منزلة راقية ؛ لأنه قد خرج من دائرة العبيد إلى دائرة العباد الذين قال عنهم الحق :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ لِرَبِّهِمْ جُحْدًا وَفِقْهًا ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ
جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٤٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٤٦﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين يحبهم ويحبونه . أما الذي يتمرد على منهج الله فعليه أن يعرف أنه غير قادر على أن يتمرد على قدر الله . وأراد الحق أن يعطينا مناعة إيمانية حين قال : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وتتجلى تلك المناعة في أن المؤمن لا بد أن يلتفت إلى هؤلاء الذين يرتدون عن دين الله بادعاء أنهم أنبياء من بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هذه الآية توضح لنا ما جدد وما يجد من أمر هؤلاء المرتدين ، والواحد منهم يعلن : أنا نبي مرسل . ويجد هذا النبي المزيف من يستمع له ويصدق به ويتبعه ، ولا يجد من يسأله : إن كنت نبياً فما معجزتك ؟ لكنه يجد من يصدقون هذا الزيف لهوى في نفوسهم .

هذا الهوى يتلخص في أن مثل هذا النبي المزيف يأتي بمنهج ميسر يخدع به أتباعه الذين يخدعون أنفسهم بأن الواحد منهم متدين ، لكنه يتبع منهاجاً ضالاً . وكثير من الذين ادعوا أنهم أنبياء وأنه هو المهدي المنتظر لم يسألهم أحد : ما المعجزة الدالة على صدق نبوتكم ؟ لأن النبي المزيف من هؤلاء يلهم الناس بالتخفيف من التكليف .

إننا نجد بعضاً من المثقفين أو الذين يدعون أنهم يعملون عقولهم في كل شيء يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد رأينا منذ أعوام قليلة العجب العجائب ، عندما ادعى أحدهم النبوة . وآمن به واتبعه عدد من الرجال والنساء . وكانت المرأة المتزوجة تدخل على هذا النبي المزيف لتقبله ويقبلها من شفيتها وأمام زوجها . أين نخوة الرجل - إذن - في مثل هذا الموقف ؟ إنه التديس الضال الذي يدعى لنفسه الهداية ، إنها هداية إلى الجحيم .

وهل تنبع تلك التيارات من الإسلام ؟ لا ، بل تأتي من قوم يغيضون الإسلام ،

ويصطادون الرجل الذي تظهر عليه المواهب والمخايل ، ويقنعونه بأنه يمكن أن يلعب دور النبي المزيف .

مثال ذلك الهندي ميزرا غلام أحمد الذي جاء بالقاديانية . ونعلم أن الإنجليز قد استعمروا الهند لسنوات طويلة ، وكانوا يعتبرونها درة التاج البريطاني . ونعلم أن خصوم الإسلام وعلى رأسهم الاستعمار يحاولون أن ينالوا من الإسلام ؛ لأنهم رأوا أن التمسك بالدين أتاح للمسلمين فتح الامبراطوريات لا بالسيف ولكن بحماية حق الاعتقاد .

إذا كانت الدعوة قد نشأت في الجزيرة العربية ؛ فقد امتدت إلى آفاق الأرض . وانهزمت الفرس والروم أمام الذين يحملون راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ومن بعد ذلك نجد أن الذين هزموا التارهم المسلمون ، وكذلك اشتعلت الحروب الصليبية في حملات متتابعة ، ولكن المقاتلين تحت راية الإسلام أنزلوا بهم الهزيمة الضارية .

إن الذي أرقق الاستعمار من الإسلام طاقة الإيمان والقتال في مسيله ولذلك جاء ميزرا غلام أحمد وحاول أن يضعف القدرة على الجهاد عند المسلمين ، فقال : لقد جئت لكم لألغي الجهاد من العقيدة الإسلامية . وجرؤ ميزرا غلام أحمد ، وأعلن إلغاء القتال . والحق يقول في كتابه الكريم :

﴿ كُنِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وسبحانه بقدرته يهمل ولا يهمل . وجاء وباء الكوليرا في الهند سنة ١٩٠٨ ليقتل على غلام أحمد وينهى وجوده تأكيداً لقوله الحق :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وظهر أيضاً في فارس وهي موطن سلمان الفارسي من ادعى لنفسه النبوة ، وكان من الذكاء بحيث حاول التسلل إلى الإسلام ؛ لينقلب عليه من بعد ذلك ، قال الرجل : أنا الباب ومن بعدى سيأتى المهدي .

وعندما سألته الناس : وماذا تحمل من منهج ؟ أجاب : جئت لأخفف عنكم بعض التكاليف ؛ لأن الإسلام صار بتكاليفه لا يناسب العصر . واتبعه أناس ، وثار عليه أناس . ومن اتبعوه ، ذهبوا إليه بغية تخفيف المنهج ، ومن ثاروا عليه كانوا من القوم الذين يحبهم الله ويحبونه ، وجاءوا له بالعلماء يناقشونه ويحاجونه فاعترف بأنه مخطئ ، وأعلن التوبة في المسجد الكبير . وعند ذلك تركه الناس .

لكن هذا الرجل وجد من يلتقطه ليعيده إلى ضلاله وتضليله ، التقطه قنصل روسيا في فارس ، وهياً له ملجأ ، وأوعز إليه أن يعلن أن توبته إنما كانت هرباً من القتل . واستطاع هذا الباب ، واسمه على محمد الشيرازي أن ينال دعاية واسعة وخاصة بعد أن انضمت إلى دعوته فتاة اسمها « قرة العين » وكانوا يلقبونها بالطاهرة . ووقفت لتخطب خطبة في الناس . ومن يقرأ تلك الخطبة يعرف إلى أي انحلال كان يدعو ذلك الباب .

وأعلنت هذه المرأة أن الإسلام قد انقضت مدته كدين ، وأن الباب قد اختفى لفترة ، لأنه في انتظار شرع جديد ، وأن العالم يمر بفترة انتقال ، وصار ينزل المنهج الجديد على الباب . وقالت تلك « الطاهرة » : إن التشريع المختص بالمرأة ، والذي جاء إلى الباب هو :

« المرأة زهرة خُلِقَتْ لَتُسَمِّ وَلتُضَمَّ ،
فلا يمنع ولا يُجَدَّ شامها ولا ضامها ،

وما دامت المرأة زهرة إذن فهي تحنى وتقطف » وإلى الأحباب تُهدى وتتحف ..
إلى أن تقول في نهاية خطابها : لا تحجبوا حلاتكم عن أحبائكم (١١)

ومن يرغب في أن يعرف مسلسل الفضائح الخلقية التي جاءت في خطاب « قرة العين » تلك فليقرأ كتاب « نقطة الكاف » للباب الكاشاني طبعة لندن صفحة ١٥٤ . هذا ما جاء به الباب من بعد أن أعلن إلغاء الإسلام :

لا تحجبوا حلاتكم عن أحبائكم فإنه الآن لا منع ولا حد ، خلوا حظكم من الحياة ، فإنه ليس بعد المات شيء . وهذه خلاصة الانحلال الذي جاء به هذا

المدعو بالباب ، لقد أعلن أنه لا حساب ولا يوم آخر ، وأن المرأة عرضها مشاع تضم وتشتم . والغريب أن بعضاً من المتزوجين قد اتبعوه . وقالوا عن أنفسهم : إنهم متدينون ، لقد أخذوا ظاهر الأمر واعتبروا الفسوق الذي جاء به هذا الباب وأسموه ديناً بعد أن سهل لهم بتعاليمه الفساد ، فأخذوا الانحلال عن التكليف ، وادعوا أن ذلك دين (١١)

هكذا أراد خصوم الإسلام للإسلام . وقنصل روسيا القيصرية هو الذي شجع هذا الرجل وحماه في عام واحد وستين ومائتين بعد الألف من الهجرة . وبرغم ذلك حكم أهل فارس بإعدامه بعد موجة السخط العام ، ولم يستطع أن يتنقذه أحد ، وتم إعدامه فعلاً . والذين قرأوا أقواله لحظة الإعدام عرفوا كيف أنه تذلل وخضع وبكى . ولو كان مبعوثاً بحق من عند الله لما تذلل وخضع وطلب النجاة . ولا مثلاً بالسرور والخبور ؛ لأنه ذاهب إلى الله .

لقد عرف هذا الرجل الدجال إلى أي عقاب سيذهب ؛ لذلك بكى واسترحم . ولما قتل الباب ، أعلن واحد من رجاله وهو ميرزا حسين أن الكتاب الذي جاء به الباب كتاب كاذب ، وكان اسمه « البيان » . وقال ميرزا حسين على : إنه جاء بكتاب اسمه « الأقدس » . كان المسألة كلها خداع للناس وتبرير الخداع .

ولورجعنا إلى كتاب يسمونه « بهجة الصدور » لمؤلفه حيدر بن علي البهائي لوجدنا كل الانحرافات الممكنة ، فالبهاء يقول : استر ذهبك وذهابك ومذهبك ، أي لا تجعل أحداً يعرف ثروتك ، ولا إلى أي مكان تذهب ولا تقل للناس : إنك بهائي حتى لا يقتلوك . واعتبر البهائيون أن القرآن قد انتهت مدته وأن كتاب « الأقدس » هو كتاب فوق القرآن .

ويقرر كتاب « الأقدس » أن القدس لا بد أن تكون وطناً لليهود وأن موسى سيد الرسل جميعاً . وما يدلنا على أن ذلك الرجل كان صنيعة الاستعمار والصهيونية ، أنهم أقاموا له حفل تكريم في بريطانيا ومنحوه وسام الفروسية الإنجليزى ؛ لأنه رجل خدم الاستعمار .